PHILBY

قلب الجزيرة العربية

الجزء الأول

هاري سانت جون فيلبي

« عبد الله فيلبي »



مكتبة العبيكان

THE HEART OF ARABIA



« الحاج عبد الله فيلبي »
هاري سانت جون بريدجر فيلبي

ولد فيلبي في عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م من أسرة إنجليزية محافظة وكان مولده في سيلان حيث كان يعمل والده بتجارة القهوة.

بعد عودته إلى إنكلترا التحق فيلبي بمدرسة وستمنستر وهناك بدت علامات نبوغه، ثم التحق بعدها بكلية ترينتي Trinity بجامعة كمبردج وتخرج فيها ١٩٠٧م بدرجة امتياز.

ثم درس فيلبي سنة أخرى في جامعة كمبردج اللغتين الفارسية والهندوستانية وذلك عقب التحاقه بقائمة الخدمة المدنية لدى حكومة الهند البريطانية، أمضى بعدها سبع سنوات في الهند وقد درس خلالها اللغة البنجابية والأوردية، وبدأ يتعلم القرآن واللغة العربية مما خوله فيما بعد ليكون ضمن البعثة المتجهة إلى البصرة في عام ١٩١٥م.

ثم كانت بعدها أول بعثة له إلى الجزيرة العربية وكان ذلك في ١٣/١/١٣٣٦هـ - ٢٩/١٠/١٩١٧م.

ثم توالت بعدها بعثاته ورحلاته وزياراته إلى الجزيرة وتوطدت علاقته بالملك عبدالعزيز وقد ساعدت رحلاته الكثيرة على تكوين كم هائل من المعلومات الجغرافية والأثرية والتاريخية عن الجزيرة العربية والتي دونها جميعها فيما بعد في كتبه التي سنعرض لها.

أعلن فيلبي إسلامه في عام ١٩٣٠م.

وكانت وفاته في بيروت في عام ١٩٦٠م، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين.

قلب الجزيرة العربية

سجل الرحلات والاستكشافات

(الجزء الأول)

تأليف
هاري سانت جون فيلبي

تعريب
د. صلاح علي محجوب

مراجعة وتدقيق وتعليق

د. فهد بن عبدالله السماري
د. محمد الخضيري
أ. عبدالله المنيف
أ. عبدالرحمن الشقير

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيلبي، هاري سانت جون

قلب الجزيرة العربية/ ترجمة صلاح علي محجوب. - الرياض.

٥٦٨ص، ١٧X٢٤سم

ردمك: ٦-٨٥١-٢٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٤-٨٥٢-٢٠-٩٩٦٠ (ج١)

١- الجزيرة العربية - تاريخ ٢- الجزيرة العربية - وصف ورحلات

أ- محجوب، صلاح علي (مترجم) ب- العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٠١ ٢١/ ٥٢٧٠

ردمك: ٦-٨٥١-٢٠-٩٩٦٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ٢١/ ٥٢٧٠

٤-٨٥٢-٢٠-٩٩٦٠ (ج١)

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م

بالتعاون والتنسيق مع مؤسسة التراث ومركز لندن للدراسات العربية

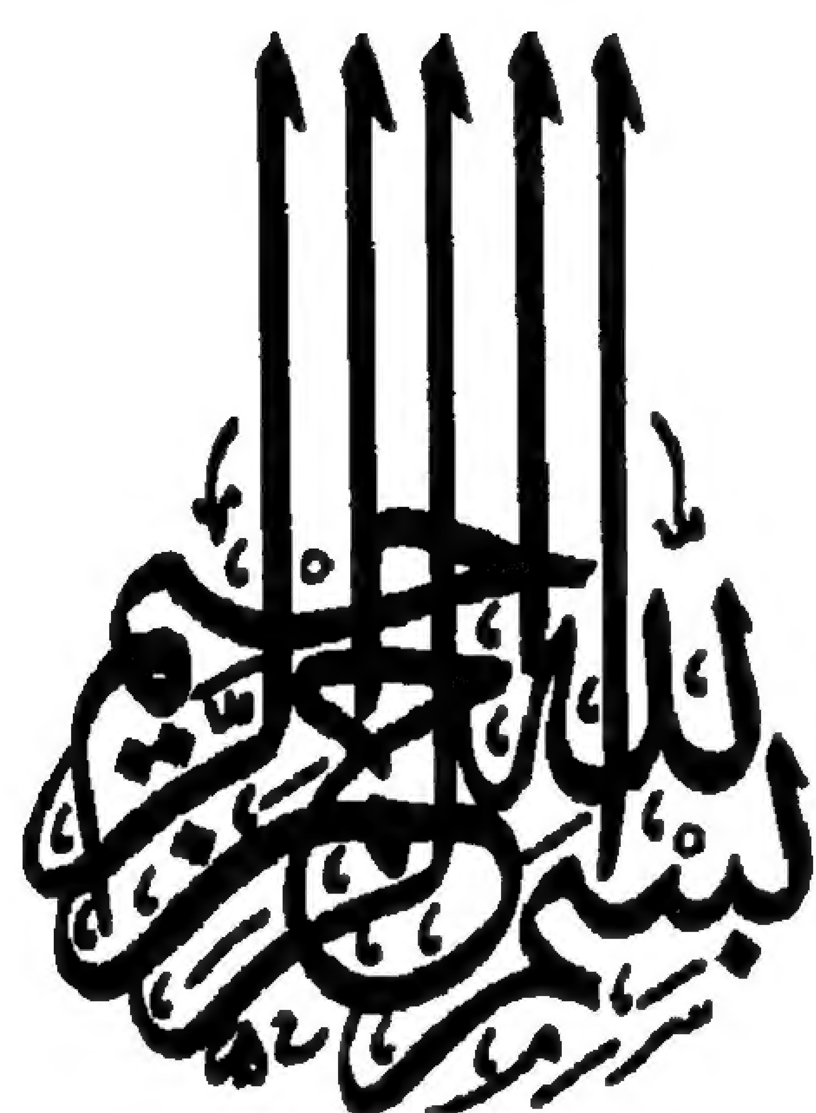
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩





فيصل بن عبدالعزيز بن سعود، الابن الـثاني لابن سعود مِمّن بقوْا على قيد الحياة، صورة من لوحة في حيازة السيد ج. كونوي ريفيز، رسمتها الآنسة جانيت روبرتسون.

إلى ذكرى أخويَّ

الرائد هـ . ب . فيلبي

قائد الكتيبة الثانية. فوج يورك ولانكستر

والملازم أول د . د . فيلبي

قائد الكتيبة الأولى للجيش الملكي في دبلن، الملحقة بالكتيبة الثانية للجيش الملكي في مونستر اللتين سقطتا بشرف أثناء الحرب العالمية العظمى

أهدي هذا العمل

كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه نقل عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيلاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة، حيث كتب فيلبي بأسلوبه

السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها، وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءًا من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الإنجليزي. ومع ذلك فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب؛ فإن المكتبة تشكر كل الذين أسهموا في مراجعة الترجمة على ملاحظاتهم القيمة، وتخص بالشكر سعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري أمين عام دارة الملك عبدالعزيز الذي بذل الجهد في مراجعة الكتاب والتعليق عليه.

والله ولي التوفيق،

الناشر

مكتبة العبيكان

استهلال

لقد آليت على نفسي أن أسجّل مذكرات عن العام السعيد الذي قضيته مقيماً ومتجولاً في قلب الصحاري والواحات بالجزيرة العربية، وذلك بوصف شامل لتجربتي؛ لتخدم هذه المذكرات من يأتي بعدي كدليل موثق في تجوالهم حينما يأتون هم أيضاً حاملين المشاعل التي حملتها من قبل أيدٍ كثيرة متميزة مكتشفة للجزيرة العربية أمثال نيبور، وبوركهارت، سادلير، وبيرتون، وداوتي، وآل بلنت، ووالن، وولستد، وهوبر، وهالفي، وأويتنج، وجوارماني، وفي العصور الحديثة شكسبير، وجيرترود بيل، وهذه مجموعة قليلة ممن دوّنوا أسماءهم بوضوح في قائمة مكتشفي الجزيرة العربية.

لم يكن إلا قليل من الظروف الملائمة للاضطلاع بعمل جغرافي أو علمي من أي نوع عند دُخولي للجزيرة العربية، ولكن الأقدار قادتني بعيداً عن المسارات التي سلكها من سبقني لهذا القطر، إضافةً لحب الاستطلاع الطبيعي المدعوم بحسّ الواجب كان يدفعني لتدوين كل ما رأيت أو سمعت يَوماً بيوم أو حتى ساعةً بساعة خلال تجولي، على أمل أن أقوم يوماً ما بفصل الغث من السمين لتبقى في النهاية خلاصة مادة مفيدة تستحق العرض للعالم.

لقد مكّنتْ الأدواتُ العلمية القليلة التي حملتها معي ـ مع معرفة محدودة بطرق استخدامها ـ أخصائيي الجمعية الجغرافية الملكية من الاستفادة من المذكرات التفصيلية لرحلاتي، في إعداد خرائط معقولة للبلد الذي ما زالت خرائطه حتى الآن مخططة على أساسٍ من المعلومات المُتحَصّل عليها عن طرق قديمة. لقد كان تخطيط هاتين الخارطتين (اللتين أقوم بنشرهما بموافقة الجمعية في هذا الكتاب) نتاجاً لمجهودات عظيمة من الجمعية، ومن المناسب أن أسجّل هنا امتناني لبذلهم

هذا الجهد، وللتشجيع الكريم الذي تلقيته من الجمعية الجغرافية الملكية منذ عودتي من الجزيرة العربية.

لقد حتَّمت الظروف قَصْرَ هاتين المدونتين لتسجيل الجزء الأول من إقامتي في الجزيرة العربية، الذي انتهى بعودتي إلى العاصمة الوهابية(*) بعد رحلتي القصيرة في صيف عام ١٩١٨م لأقاليم نجد الجنوبية، وستحدِّد الظروف أيضاً ما إذا كانت مذكراتي للجزء اللاحق لتجوالي وللحملة السعودية ضد حائل في خريف العام نفسه سوف ترى النور. ولكنّني الآن أرى أنَّه من الأصلح الشروع في تدوين كامل التفاصيل لجزء من تجاربي بدلاً من الكتابة بإيجاز عن كامل فترة إقامتي في الجزيرة العربية. وأخيراً فإنهَّا أيضاً الظروف التي لم أتمكن من التحكم فيها بكل أسف هي التي ستحدّد ما إذا كنت سأعود يوماً إلى الجزيرة العربية لمواصلة المهمة التي أدرك تماماً أنّني قد تركتها دون أن أكملها. بقيت كلمات قليلة لإلقاء بعض الضوء على الموضوع المطوّل الخاص بنقل الأسماء العربية بالحروف الإنجليزية.

ونتيجة لغياب التنسيق بين جهود الجهات الرسمية وغير الرسمية التي واجهت هذه المشكلة أثناء قيامها ببعض الأعمال، قامت الجمعية الجغرافية الملكية خلال العام المنصرم بالتصدِّي للأمر بالعمل على اكتشاف ما إذا كانت الاختلافات القائمة للممارسات الحالية يمكن التوفيق بينها بتبنّي نظام متماثل مبني على استبعاد كل العلامات الصوتية المميزة التي توضع فوق أو تحت الحروف، وكذلك العلامات

(١) حيث إن اسم الوهابية لم يكن لقباً للدولة السعودية إلا في نظر أعدائها، ثم نقله عنهم المؤرخون الغربيون، لذا فإن لفظ الوهابية وما اشتق منه سيتم تعديله إلى المملكة العربية السعودية أو ما اشتق منه دون الإشارة إلى ذلك مرة أخرى. أما إذا قصد بلفظ الوهابية الحركة السلفية التي قام بها الشيخ محمد ابن عبدالوهاب -رحمه الله- فستوضح بهذا المفهوم. (المراجعون).

المنطوقة. وبعد نقاش مستفيض قام به الروأد المختصّون في هذا الحقل حول الموضوع تمَّ التوصل مؤخراً إلى قرار بشأنه يميلُ إلى تبنّي النظام الذي يستخدمه العاملون بالجيش في الهند، مع قليل من الاختلافات. كان هذا النظام قد استُخدم خلال الحرب في بلاد ما بين الرافدين لأغراض المسح. وليس هناك كبير شكٍ في أنَّ هذا النظام، مع التعديلات التي أُدخلت عليه والذي قبلته الجمعية الجغرافية الملكية، هو أقرب ما يكون للنظام المثالي الذي يمكن الوصول إليه في ظل الظروف الراهنة.

ولسوء الحظ فإن التوصل لهذا القرار تمَّ بعد الفراغ من كتابة مُسَوَّدَة هذا العمل، ولم أر أن هناك ضرورة للاضطلاع بالجهد الكبير اللازم لإجراء التصحيح المطلوب، رغم أنَّ التصحيح اللازم كان في مجالين اثنين فحسب: حرف اللام من الأداة التعريفية (ألف لام) لابد من إدغامها ـ وفقاً للنظام الجديد ـ في الحرف التالي في الحالات التي يتم فيها هذا الإدغام نطقاً في العربية، بيد أنني قمت بنقلها إلى مقابلها في اللغة الإنجليزية (حرف L) في كل الحالات[1]؛ كما أنني استخدمت المقطع (Iyya-) في نقل الخاتمة المعتادة (ـيَّة) في اللغة العربية، في حين أن النظام الجديد يستخدم مقطعاً أكثر بساطة (IYA-).

وباستثناء هاتين المخالفتين، فإن النظام الذي اتبعته يتّفق مع توصيات الجمعية الجغرافية الملكية، التي لا أظن أنني في حاجة لأن أقول أنني سأتقيَّد بها مستقبلاً، ولكنني في سياق هذا العمل استخدمت عامداً ـ هنا وهناك ـ النطق العامي كقاعدة في نقل الحروف العربية إلى اللغة الإنجليزية لغرض واحد هو الإشارة لهذا

(١) في كثير من الحالات يُستغنى في وسط الجزيرة العربية عن إدغام حرف اللام. (المؤلف).

الأسلوب في النطق. وإضافة لهذا فإنني وجَّهت الانتباه لكل الحروف اللينة الممتدة (في الفهرست فقط) لمصلحة من يريدون الإشارة إليها. لقد تمَّ نقل أسماء الأماكن في خارطة جنوب نجد وفقاً للنظام الذي كان مقبولاً في السابق للجمعية الجغرافية الملكية والذي تخلَّت عنه الآن، ولكن بما أن الخارطة كان قد تمَّ نشرها فلقد وُجِدَ أنه لا يمكن تعديلها وفقاً للنظام الجديد.

إنني مدين بمقترحات أدت لتحسين هذا الكتاب للمحترم سير بيرسي ز. كوكس المندوب السامي لبلاد ما بين الرافدين وللآنسة جيرترود .بيل اللذين تكرَّما بقراءة مُسوَّدة هذا الكتاب، وشكري الخاص للناشرين على تساهلهم وصبرهم الجم.

بغداد، ديسمبر ١٩٢٠م

مقدِّمة

"نشأت قبل بضع سنوات في إقليم «العارض» عقيدة جديدة، أو بالأحرى دين جديد، لعلّه صار بمرور الوقت سبباً في تغيُّر بيِّن في الاعتقاد الديني وفي حكومة العرب". هكذا كتب كارستن نيبور[1] رائد استكشافات الجزيرة العربية في مدوّنته عن حملة قام بها بتكليف من الحكومة الدانمركية للجزيرة العربية في حوالي منتصف القرن الثامن عشر[2].

لقد كانت مصادر المعلومات التي جمعها "نيبور" متحاملة وكانت تبعُد كثيراً عن مسرح الأحداث، كما تمَّ تدوينها باختصار مُخلٍ، فجاءت المدونة بعيدة عن الكمال الذي يُرجى لعمل كهذا. ولكن كان لنيبور فضل السبق في أن تَعْلَمَ أوربا ببدايات حركةٍ ظهرت أهميتها لاحقاً خلال نصف قرن من الزمان، ليس هذا فحسب بل استمرت أهمية هذه الحركة خلال كل السنوات المتعاقبة دون تغيير ملحوظ في الشكل أو المضمون، حتى أيّامنا هذه. لقد حقَّقت الحركة - رغم اختلاف الظروف في عالمنا الحاضر - الأهداف التي وضعها روّادها.

كانت الصحراء العربية آنئذٍ مأهولة بقبائل رعوية تحتال على العيش في ظلٍّ ظروف غير مستقرة، دون أن تختلف كثيراً عن تلك التي عاشت في أزمنة سحيقة. ومن ناحية سياسية كانت الصحراء مجزّأة إلى عدد من الأقاليم المستقلة

---

(١) كتاب بالفرنسية: 'Niebuhr, Voyage en Arabia, 1774, vol iii. p. 298'. (المؤلف).

(٢) يعد نيبور أول من أشار إلى الدعوة السلفية، وكان قد سمع بها وهو في اليمن، لذلك ظن أنها ديناً جديداً في بدايتها، ولم يحاول أو لم يستطع المؤلف التوضيح. وعلى كلٍّ فإن المقصود هو الدعوة السلفية الإصلاحية، دعوة إصلاحية سلفية تدعو إلى العودة إلى الإسلام كما كان في عهد الرسول ﷺ وأصحابه. (المراجعون).

التي كان بعضها يدين بولاء من نوعٍ ما لكبير شيوخ بني خالد في إقليم الأحساء، الشيخ عريعر. كما كان للنزاع والحروب القدح المعلّى حتى ظهور الدين الجديد، ومنذ ذلك الزمان تعاقب السلام والحرب في الجزيرة العربية نتيجة للحالة التي كان عليها ذلك الدين عُلواً وهبوطاً.

كتب نيبور[١]: "انضمَّ منذ عهد قريب بعض الشيوخ المستقلين الذين كانوا رافعين راية العداء مشعلين نيران الحروب المستمرة، فصاروا حلفاء لعبدالوهاب[٢]، متعهدين بألا يقطعوا أمراً ذا بال دون استشارة زعيمهم الجديد. وبهذا اختلّ التوازن السياسي الذي كان سائداً بين أمراء الإقليم، لقد صار بعض الشيوخ، ممن كانوا قادرين على التصدّي لجيرانهم في السابق، عاجزين عن الوقوف في وجه قبائل مُتّحدة. وكان نتاج هذا الأمر أن أصبحت الحروب أكثر دمويّةً وأبلغ أثراً مما كان يتوقعه الجانبان. ولكن أصبحت الحروب لا تستمر إلا لأسباب دينية تجبرهم على حمل السلاح ضدّ عدو عنيد أو ضدّ من يتمادون في ضلالهم وغيّهم القديم" . ما كان من الممكن وصف طبيعة ووسائل الحركة التي اتخذت الحرب وسيلة للسلام بطريقة أكثر إيجازاً. لقد كانت الأداة المختارة لتنفيذ سياسة تلك الدعوة هو محمد بن سعود أحد الزعماء الصغار من عشيرة عنزة[٣]، وكان يقيم مجلسه على الطريقة البدوية في قلعة بناها أسلافه على ربوة الدرعية متوسِّطين بها حافّة مجرى السيول في وادي حنيفة. وجد محمدٌ، الزعيم الثالث أو الرابع المنحدر من صلب سعود الأول -الذي سميت عائلة آل سعود باسمه- وجد

(١) كتاب بالفرنسية: 'Niebuhr, Voyage en Arabia, 1774, vol III. p. 299' . (المؤلف).

(٢) المقصود الشيخ محمد بن عبدالوهاب. (المراجعون).

(٣) الصحيح أن آل سعود ينتمون إلى بني حنيفة من بكر بن وائل ويلتقون مع عنزة في وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. (المراجعون).

نفسه -في منتصف القرن الثامن عشر- مُحاطاً بجيران أقوياء ذوي طموح. وكانت أقواهم إمارتي العيينة ومنفوحة اللتين كانتا تتنافسان حتى مع بعضهما البعض على الحُطام الذي تُخلفه حروبهم من أجل السيادة في الجزيرة العربية. وجد محمدٌ نفسه في هذا الوضع تماماً مثل مُعاصِره في مرتفعات إسكتلندا "روب روي" زعيم جماعة "ماكريقور"، الذي كانت نزاعاته مع "دوق ارقيل" و"دوق مونتروز" المحيطين به من الجانبين، هي آلام الاحتضار للنظام القبلي في جزيرتنا البريطانية.

ولكن قبل ذلك، لم يتنبّه أمير العيينة للفرصة حينما واتته، فقد عاد مجدّد الدين محمد بن عبدالوهاب الذي وُلد لأبوين تميميين في حريملاء، في إقليم المحمل في العقد الثالث من القرن الثامن عشر[1]، عاد في حوالي العام ١٧٥٩م[2] بعد أن قضى شبابه يطلب العلم في جامعات بغداد ودمشق[3]، عاد برسالةٍ قوية لتحريك مواطنيه في العيينة، ولكنه طُرد من تلك المدينة بحجة أنه قد يعكر صفو الأمن في بلد راض عن الطريقة التي يدير بها شؤون المواطنين. وعندها ذهب محمد بن عبدالوهاب لبلد الدرعية تمَّ استقباله بالكرم العنزي

(١) لقد وقع المؤلف هنا في عدة أخطاء منها: قوله أن حريملاء في إقليم المحمل، والصحيح هو إقليم الشعيب، ومنها أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ولد في العيينة وليس في حريملاء، ومنها أنه ولد في العقد الأول من القرن الثامن عشر حيث إنه ولد عام ١١١٥هـ الموافق ١٧٠٣م. (المراجعون).

(٢) هذا التاريخ يوافق عام ١١٧٢هـ، ولذلك فإنه غير دقيق لأن هذا التاريخ كان بعد خمسة عشر عاماً من قيام الدولة السعودية الأولى. (المراجعون).

(٣) لم يثبت أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب طلب العلم في بغداد أو دمشق، لكنه زار البصرة وأخذ العلم هناك على الشيخ محمد المجموعي، ثم أراد الذهاب إلى الشام لكن نفقته قصرت عن إتمام هذا السفر فعاد إلى نجد عن طريق الأحساء. (المراجعون).

الفيَّاض، ذلك الكرم الذي كان يملأ القاعات في قصر محمد بن سعود بضيوفه من البدو.

رحب زعيم الدرعية، ومن بعده خليفته سعود الثاني[(١)] بأطروحات هذا المجدد للدين لاستخدامها كأداةٍ لتحقيق طموحاتهم الدنيوية[(٢)]، وظهرت الدعوة السلفية إلى حيز الوجود بفضل تعاونهما مع ابن عبدالوهاب. ورغم الابتعاد عن التعاليم الحقيقية للإسلام في ذلك الوقت فإن العرب ظلّوا في أعماقهم ملتزمين بقوة بتعاليم مذهب أحمد بن حنبل المتشدد. وما كان الأمر يحتاج إلا لقليل من الجهد لإذكاء جذوة الالتزام الديني الكامنة في أعماق سكان صحراء الجزيرة العربية. لقد كانت العقيدة الصحيحة مبرَّأة من التشويه الذي لازمها في وقت لاحق. وبدأت الحقائق الرئيسة للعقيدة والتي كانت هاجعة في طور السبات، بدأت تشع مجدَّداً كمنارات هادية لكل تائه في ظلمات الشك. لقد كانت مفاهيم الوحدانية والحرص على إرضاء الله. والأهمية القصوى للإيمان وحتمية الجزاء هي اللبنات الهامة[(٣)] في بناء الصرح الذي اتَّفق على بنائه الأمير والشيخ على أرضية المجتمع الرعوي المتقلقلة كالرمال المتحركة. كان الصرح الذي قام

---

(١) المقصود بسعود الثاني الإمام سعود بن عبدالعزيز، لكن المؤلف أخطأ عندما جعله خليفة للإمام محمد بن سعود؛ لأن الذي خلفه هو ابنه الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، ثم خلف الإمام عبدالعزيز ابنه الإمام سعود الملقب سعود الكبير. (المراجعون).

(٢) لقد جانب المؤلف الصواب بقوله هذا؛ لأن الإمام محمد بن سعود أيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب في دعوته بعد اقتناعه بأنها دعوة لتجديد الدين وإرشاد الناس إلى الصواب، وكان مركزه كأمير على الدرعية قبل الدعوة لم يكن بحاجة إلى من يساعده لهذا كان الجانب الدنيوي من آخر ما فكر فيه الإمام محمد بن سعود. (المراجعون).

(٣) وضّح مؤسس الحركة السلفية الأسس التي قامت عليها دعوته في كتيب سماه «الأصول الثلاثة وأدلَّتها» وقام ابن سعود منذ عهد قريب (١٩١٨م) بإعادة نشره في بومباي لأغراض تتصل بحركة الإخوان. (المؤلف).

على هذه الأرضية هو الإمبراطورية العربية[1].

قبل أن يلتقي سعود الثاني[2] ومحمد بن عبدالوهاب ليؤسسوا دولتهم في نهاية القرن الثامن عشر، كانت أحلامهما قد تحققت إذ أن العيينة ومنفوحة كانتا قد سقطتا بعد أن انقضْت جيوشهم المنصورة عليهما، وخضعت الأحساء لسلطانهم، وزالت الدويلات الصغيرة عن الساحة، ولكنّ الإمبراطورية العثمانية أفاقت على الخطر المحدق.

تبع عبدالعزيز الثاني، ابن وخليفة سعود[3]، خطى والده نفسها بنجاح كبير لدرجة أنّ المزار الشيعي في كربلاء، في حدود بلاد ما بين الرافدين ذاق ويلات الحملات السعودية في عام ١٨٠١م، وبعد عامين، ضُمَّت مكة نفسها للدولة السعودية النامية. ولكنّ انتهاك قدسية كربلاء كان جريمة لا غفران لها[4]، وكان العام الذي شهد دخول عبدالعزيز المنتصر لمكّة هو العام نفسه الذي شهده يركعُ للمرة الأخيرة أمام الله في جامعه الكبير بالدرعية وقد نفذ خنجر قاتل بين كتفيه.

---

(١) المقصود الدولة السعودية الأولى، وقد كرر المؤلف لفظ الإمبراطورية في مواضع كثيرة من هذا الكتاب. (المراجعون).

(٢) الأمير محمد بن سعود -الإمام فيما بعد- هو الذي أسس الدولة السعودية الأولى وليس سعود الثاني. (المراجعون).

(٣) وقع المؤلف في أخطاء واضحة؛ فوصف عبدالعزيز بالثاني ليس له مبرر لأنه لم يسبق اسم مثله. أما الخطأ الثاني فهو اعتباره الإمام عبدالعزيز ابناً لسعود والصواب أنه ابن محمد بن سعود. (المراجعون).

(٤) كربلاء ليس لها قدسية خاصة لدى المسلمين، لكن الشيعة يحترمون مشهد الحسين فيها ويزورونه. وما قامت به الدولة السعودية الأولى في عهد الإمام عبدالعزيز في كربلاء هو تطبيق للمبادئ الإسلامية التي قامت الدعوة الإصلاحية بتجديدها؛ ومن أهمها إزالة المشاهد والمزارات التي تعظَّم من دون الله، ولم يكن ذلك خاص بكربلاء بل تم إزالة القباب والأشجار التي تزار في بلاد نجد والحجاز وغيرها. (المراجعون).

أمَّا عبدالله[1] بن عبدالعزيز الذي خلف والده، فقد أكمل حملة أبيه الأخيرة بضمه للمدينة في العام ١٨٠٤م،[2] ومن ثمَّ أدار انتباهه على الفور لأقاليم بعيدة. وما لبث أن صار سيِّداً لعُمان واليمن بعد مرور وقت قصير من توليه الحكم، ولكن بدأت مخاوف تركيا تتعاظم، ففي عام ١٨٠٥م تمَّ تعيين محمد علي باشا نائباً عن السلطان في مصر، مع أوامر صريحة بإخضاع الأمير السعودي، وفي عام ١٨١٠م بدأت حملة محمد علي باشا التي أُعِدَّت إعداداً جيداً ـ تحت قيادة ابنه طوسون الذي تلقَّى في عام ١٨١٢م هزيمة نكراء في الجبال الواقعة بين شاطئ البحر الأحمر والمدينة. أفاق بعدها على ما يتهدده من خطر. ولكنه بعد ذلك وفي العام نفسه أخضع المدينة لسلطته دون كبير عناء. وفي الوقت نفسه حالف النجاح القضية التركية في الجنوب وفي جدة ومكة والطائف، التي تم احتلالها جميعاً في تتابع سريع. ولكن في شتاء ١٨١٣ ـ ١٨١٤م هُزم طوسون في تربة. لقد تمكن بوركهارت الذي قام بزيارة الحجاز في الصيف اللاحق من كتابة تلخيص جدير بالإعجاب لأحداث تلك الفترة، وأبان كيف أن القنوط ساد أفراد الجيش التركي لأسباب مختلفة ناتجة عن عجز وجشع القيادة العليا للجيش وميلهم إلى السلب مما تسبب في هزيمتهم.

---

(١) لقد أخطأ المؤلف هنا لأن الذي خلف الإمام عبدالعزيز هو ابنه الإمام سعود وهو المقصود في السياق. (المراجعون).

(٢) من الثابت كما ذكره مؤرخو نجد أن ضم المدينة المنورة للدولة السعودية الأولى تم في أوائل عام ١٢٢١هـ وهو يوافق حوالي منتصف عام ١٨٠٦م، وليس كما ذكره المؤلف عام ١٨٠٤م. (المراجعون).

في هذه الأثناء شن السعوديون بنجاح كبير حرب عصابات ضد قوات العدو المبعثرة، ولم يتمكن الأتراك من تحويل الموقف لصالحهم قبل ربيع عام ١٨١٥م، إذ كان انتصارهم في بسل الواقعة بين الطائف وتربة هو الذي وضع حداً لنفوذ عبدالله في الجنوب، في حين وصل طوسون إلى القصيم في حملة خاطفة نحو العمق شنها من المدينة، وأجبر بعدها الحاكم السعودي للموافقة على هدنة كانت شروطها بالطبع في صالح الأتراك[١].

كان عبدالله آنذاك يبدو وقد فقد كثيراً من الحماسة التي ألهبت عزيمة أسلافه وصاحبت عملياته السابقة، وانتقلت المبادرة بكل وضوح إلى محمد علي الذي أمضى عامين لاحقين في استعدادات إيجابية لمعاودة العمليات الحربية فأرسل ابنه الآخر إبراهيم باشا في عام ١٨١٨م على رأس حملة تسعى لتحقيق الغاية التي ظلّ يعمل من أجلها ثلاث عشرة سنة.

قام الجيش التركي بحصار الدرعية، وسببت مدفعيته ضرراً وذعراً بين السكان حتى اضطر عبدالله للاستسلام بعد أن أعطاه الأتراك عهداً بالمحافظة على أرواح وأعراض رعاياه. ولكنهم أبقوا على حياة عبدالله والأفراد المهمين من العائلة المالكة ـ ليشهدوا على نصرهم عند بلوغهم القاهرة ـ وأزهقوا أرواح بقية أفراد العائلة المالكة ورجال الدعوة السلفية والزعماء الآخرين في مذبحة جماعية[٢]، وهُدمت أسوار وقصور ومساجد الدرعية وسُويت بالأرض حيث بقي حطامها إلى يومنا هذا شاهداً على الأيام العظيمة للدولة السعودية وعلى ارتقائها السريع وسقوطها المريع، وشاهداً أيضاً على فِلْتة المنقر عليها، الذي مازال ضحاياه يلعنون اسمه وسلالته بعد مضي قرن كامل من الزمان.

---

(١) الواقع أن شروط الهدنة كانت تخدم مصالح الطرفين. (المراجعون).

(٢) كانت معاملة قوات إبراهيم باشا لأهالي نجد قاسية، وقد استخدمت قواته أسلوب القتل والتدمير والتخريب أثناء الحرب وبعدها. (المراجعون).

في خلال الأعوام الثلاثين التي تلت ذلك مارس الأتراك سيطرة مضطربة وغير مستقرة على حطام الدولة التي قاموا بتدميرها، فلم تنعم فيها الجزيرة العربية بالسلام. وكان بعض من بقي من الأسرة السعودية الحاكمة يقومون بمناوشات متصلة ومتعاقبة لسلطة نائب السلطان، ولم يكن تاريخ هذه الأعوام سوى سجلاً من حرب العصابات بين العرب والأتراك، حتى تمكَّن تركي -وهو ابن عبدالله وكان غائباً عن الدرعية في وقت المأساة الأخيرة [1]، تمكن أن يلمّ شعث الروح المعنوية القانطة لشعبه في حوالي عام ١٨٣٠م[2]، عندما قام باستعادة ملك والده[3] وبناء عاصمة جديدة في الرياض. وبعد عشر سنوات تمكن عبدالله بن ثنيان ـ وهو سليل فرع ذي قرابة مع عائلة سعود ـ من حكم الأرض السعودية لفترة وجيزة. ولكن فيصل بن تركي الذي كان قد تمّ نفيه مع جَدّه[4]، والذي تمكَّن من الفرار من سجنه بمصر ـ هو الذي استطاع لمّ شعث وإعادة تنظيم وطنه بوضعه حداً للهيمنة التركية.

بعد محاولتين فاشلتين تمكن فيصل من إحكام سيطرته واستعادة حكم الرياض حوالي عام ١٨٤٢م[5]، وعندما حانت وفاته ـ بعد حوالي ربع قرن ـ كان

(١) الصواب أن الإمام تركي له مشاركة في حرب الدرعية، وقد هرب منها بعد سقوطها. (المراجعون).

(٢) الصواب أن الإمام تركي تولى الحكم في عام ١٢٤٠هـ الموافق ١٨٢٤م، وليس كما ذكر المؤلف عام ١٨٣٠م. (المراجعون).

(٣) قول المؤلف «ملك والده» غير صحيح؛ لأن الإمام تركي ليس من سلالة الإمام عبدالله بن سعود، بل من سلالة عبدالله بن محمد بن سعود، كما أن ما قام به الإمام تركي هو استعادة الدولة السعودية التي عرفت المنطقة تحت ظلالها الاستقرار والأمن. (المراجعون).

(٤) قول المؤلف «نفيه مع جده» غير صحيح، وهو مبني على الخطأ السابق، حيث أن المؤلف يعتقد أن الإمام عبدالله بن سعود هو جد الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

(٥) المقصود حكم الإمام فيصل للمرة الثانية، لكن التاريخ الذي أورده المؤلف غير دقيق لأنه من الثابت أن حكمه بدأ عام ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م. (المراجعون).

قد أعاد لبلاده بعضاً من الحيوية والعنفوان اللذين صحبا الدولة السعودية في أيامها الأولى. ولكن بحلول هذا الوقت كانت دولة جبل شمر المنافسة قد بدأت تزدهر تحت القيادة المقتدرة لسلالة المؤسسين: سلالة ابن رشيد، ولم يكن فيصل في أيٍّ وقت من أوقات حكمه بالقوة التي يستطيع بها أن يدافع عمّاً كان لأسلافه من تبعية حائل لهم[١]. ومهما كان الأمر فإنَّ لدينا شهادة المؤرخين المعاصرين، بلجريف، وبيلي بأن الدولة في عهد فيصل، رغم انكماشها قليلاً مقارنة بحدودها الأصلية، إلا أن ما ورثه عنه خلفاؤه منها لم يكن يختلف إلا قليلاً عن الدولة التي ورث جده الأكبر أرضها عن سعود الكبير[٢]؛ وشهد المؤرخون أنها كانت جيدة التنظيم في كل مناحيها.

سأقوم من خلال سردي لأحداث إقامتي في قلب الجزيرة العربية في السنة الأخيرة للحرب العالمية بالتعرض بشيء من التفصيل لمشكلة التنازع الذي نشأ بين ابنيْ فيصل الكبيرين على خلافته عند وفاته، وكذلك عن تدخل الرشيديين في ثمانينيات القرن الماضي والذي نتج عن الصراع بين الأخوين، كما سأتعرض لما تمَّ لاحقاً من استعادة عرش السعوديين في عام ١٩٠١م بواسطة عدد من الأبناء الصغار للعائلة المالكة[٣].

---

(١) تبعية حائل للدولة السعودية لم يكن ادعاء من الإمام فيصل بن تركي، بل كانت فعليّاً تابعة للدولة السعودية منذ عهد الدولة السعودية الأولى. (المراجعون).

(٢) الواقع أن الإمام سعود الكبير بن عبدالعزيز يكون ابن عم الإمام تركي والد الإمام فيصل. (المراجعون).

(٣) المؤلف ليس دقيقاً لأن استعادة الحكم السعودي كانت في أوائل عام ١٩٠٢م وليس عام ١٩٠١م، ثم إن الذي استعاده هو الملك عبدالعزيز بمساعدة عدد من أبناء أسرته وبعض رجاله الأوفياء. (المراجعون).

كانت العودة المفاجئة لقوة السعوديين قد أفسدت السياسة التركية التي كانت قد توصلت لتسوية مؤقتة مع ابن رشيد، فتم إرسال قوات تركية لمساعدة شمر لإيقاف تقدم ابن سعود نحو الشمال في عام ١٩٠٤م، ولكن ابن سعود تمكن من استعادة القصيم في نهاية عام ١٩٠٦م، ولم تتمكّن قوات شريف مكة التي غزت إقليم القصيم في عام ١٩١٠م من إيقاف إعادة تأسيس السلطة السعودية في كل المناطق التي كانت في السابق قد دانت لحكم فيصل. لم يكن ابن سعود يشك في أن الأتراك كانوا ينتظرون الفرصة المواتية لهزيمته كما حدث الحال لجده الأكبر قبل قرن من الزمان. وكان من الطبيعي ـ والحال هذه ـ أن يبحث عن الوسائل التي تُبعد عنه ذلك الخطر المحدق.

لقد كان ابن سعود ينظر إلى بريطانيا العظمى ـ دون جدوى لبعض الوقت ـ ثمَّ بدأت السحب السوداء تتجمَّع على الأفق السياسي، وبدأت تركيا وبسرعة كبيرة تقوم بدور مخلب القط للطموحات الألمانية. كانت سكة بغداد الحديدية تأتي بالقوات الألمانية بتمهّل لمواقع تسمح بالهجوم على المركز العصبي للإمبراطورية البريطانية. أمَّا ابن سعود الذي نشأ في منفاه في الكويت ـ الذي كانت المحطة النهائية للخط الاستراتيجي للسكة الحديدية الألمانية ـ فقد أدرك أنَّ أمَنَهُ سيكون جزءًا من الصراع القادم. ولم يكن عبثًا أن بذر بذور الصداقة وشجع زيارات الكابتن و. هـ. س. شكسبير لبلاده. لقد كان شكسبير المسؤول السياسي لبريطانيا في الكويت خلال السنوات الحاسمة التي سبقت انفجار العاصفة.

لم يكن أحد يدري متى ستهب العاصفة على العالم، ولكن في بداية ١٩١٤م[1] وجد ابن سعود أنَّه من القوّة بحيث يستطيع أن يوجِّه صفعة لتركيا

(١) تم للملك عبدالعزيز استعادة الأحساء في جمادى الأولى في أوائل عام ١٣٣١هـ الموافق أبريل عام ١٩١٣م، وليس كما ذكر المؤلف بداية عام ١٩١٤م. (المراجعون).

لحسابه الخـاص، فتوجه فجـأة لإقليم الأحساء الذي كان الأتراك قد استولوا عليه منذ أن ضمه مدحت باشا في عام ١٨٧١م. وكـان نصر ابن سعود كاملاً وغادرت الحامية التركية بلاده بلا عودة. وقبل أن يسعفهم الوقت لتنظيم حملة أخرى انتقاماً لهزيمتهم، انجرف الاتراك لدوامة الحرب الأوربية.

قام بيـرسي كوكس الذي صاحب قوات حـملة بلاد ما بين الرافدين كـقائد سياسي، على الفور بإرسـال كابتن شكسبير لحث ابن سعـود للدخول في عمليات إيجابية ضد الأتراك وحليفهم المعتاد ابن رشيد، وتحركت الحملة في يناير ١٩١٥م. إنَّ اعتقـادي الدائم أنه لولا سوء الطالع الذي أدى إلى مقـتل شكسبير في الـواقعة الأولى بين الجيـوش المتحاربة، لما واتت كولونيل لورنس الفـرصة للقيام بحـملاته الباهرة التي ارتبط اسمه بها، والتي تمكّن من جـرائها من دخول دمشق ظافراً على رأس جيش الحجاز.

كـان إيماننا بمقدرة العـرب على التعـاون مع قـواتنا في العمليـات الحربيـة المعاصرة مهزوزاً لبعض الوقت، ورغماً عن استمرار العلاقات الودية بيننا وبين ابن سعود والتي كانت تضـمنها الاتفاقية الرسمية التي تمّ توقـيعها في عام ١٩١٦م[١] إلا أننا لم نكن لنتطلع إليه دون غيره لدعمنا، إن دعتنا الظروف للسعي لاستقطاب العون الإيجابي من العرب في عملياتنا ضد الأتراك.

نَفَذَ الشريف من خلال الثغرة التي خلفها ابن سعود بانسحابه، أمَّا الأحداث اللاحقة في مسرح الجزيرة العربية فهـي معروفة بالقدر الذي لا يترك حاجة لإعادة سردها. ولكن نجـاحات قـوات الحجاز في البـداية شجَّعت سلـطات بلاد ما بين الرافدين للتطلع إلى جهد موازي من جانب ابن سعود، حيث سيكون تعاونه ـ إذا

(١) الصحيح أن توقيـع الإتفاقية تم في ٢٦ ديسمبر ١٩١٥م، الموافق ١٨ صـفر ١٣٣٤هـ، وهي التي تعرف بمعاهدة (دارين) أو معاهدة (القطيف). (المراجعون).

تم الحصول عليه بشروط معقولة ـ ذا جدوى فيما يختص بعمليات الحصار، ثم بالتقدم في أرض الفرات.

وكان من المأمول أيضاً، في ضوء الحساسية النامية بين ابن سعود والملك حسين أن تُدَّخر طاقة الأول ـ إن أوقِفَ التناوش بينهما ـ لتوجه للهجوم على حائل حيث أن ابن رشيد كان بفضل التشجيع المتقطع والمساعدة التي يتلقاها من الأتراك يشكل دوماً شوكة في جنبنا.

بعد ذلك بقليل تقرر إرسال بعثة بريطانية للرياض لتدرس على الطبيعة كل الاحتمالات، وكان لي الشرف العظيم بِتَرأُسِ تلك البعثة التي غادرت بغداد في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧م[1]. كان اختياري لهذه المهمة بوصفي خبيراً عسكريّاً وممثلاً للقائد الأعلى لقوات بلاد ما بين الرافدين، وصحبني المقدَّم ف. كنليف أوين، مع التابع الذي يخدمه، وهو الجندي هـ. سكوفيلد، وهو شاب من يوركشير ذو جاذبية كبيرة ودلائل تبشّرُ بمستقبل عظيم. وكان من المقرر أن نلتقي في الرياض بالمقدّم ر. إ. أ هاميلتون[2] [3] المندوب السياسي في الكويت، الذي كان قد بدأ مهمة هناك تختص بحادثةٍ نجمت عن عمليات الحصار التي كنّا نقوم بها.

كان الوقت ثميناً وما كان لنا أن ننتظر حتى يتم تنفيذ ما خُطط للمهمة من انضمام عدد من الأعضاء لفرقتنا، وهم: من ينوب عن المندوب السامي في مصر وعن ملك الحجاز إضافة لطبيب ومجموعة من فنييّ الاتصال. كان على الأولين اللحاق بنا في الرياض عن طريق الحجاز، ولكن لظروفٍ سأقوم بشرحها خلال

---

(١) قام الدكتور عبدالله الصالح العثيمين بترجمة هذا التقرير ونشر عن طريق مكتبة العبيكان، عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، تحت عنوان «بعثة إلى نجد ١٣٣٦-١٣٣٧هـ (١٩١٧-١٩١٨م)». (المراجعون).

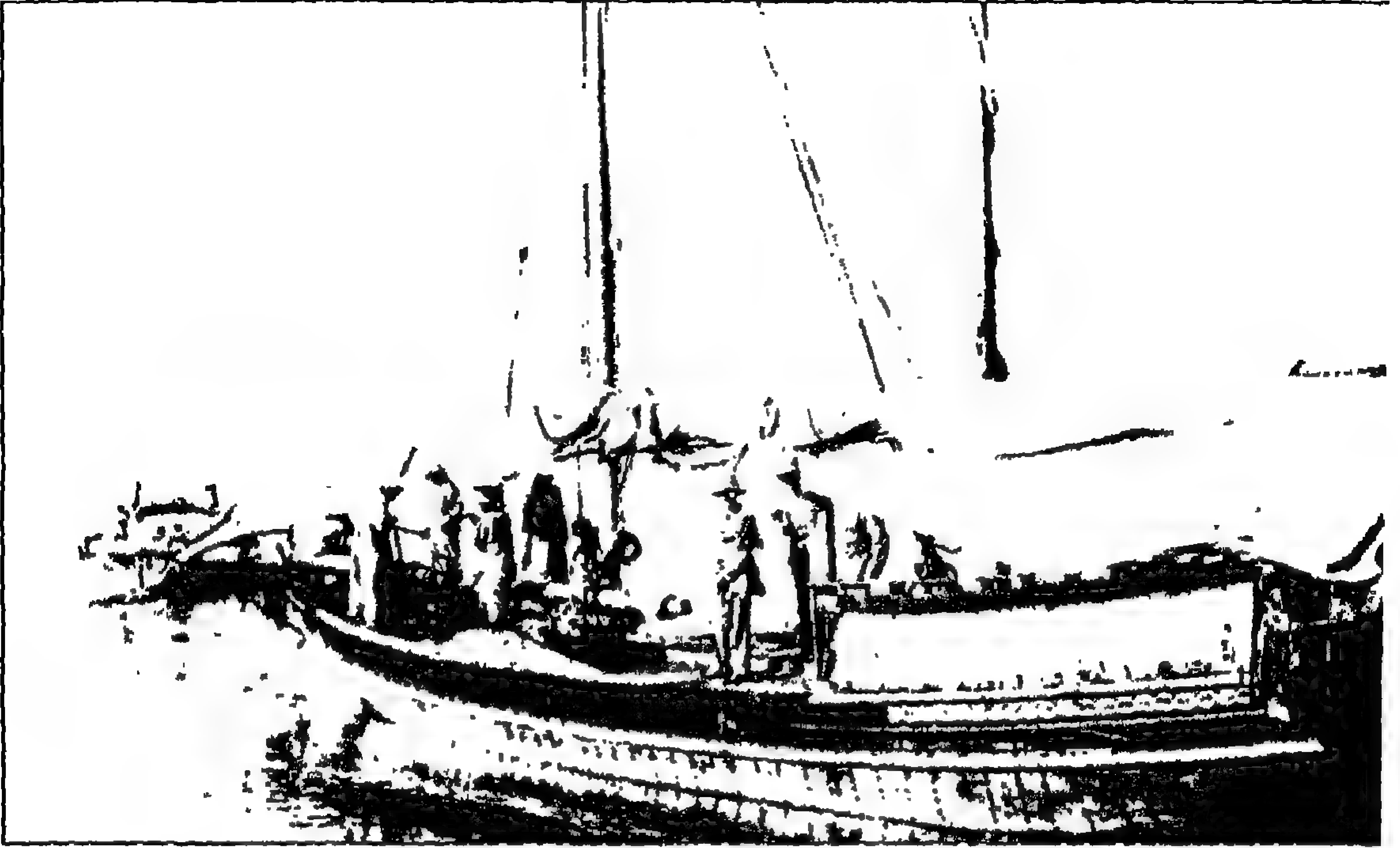
(٢) الآن لورد بيلهيفن وسيتنتون. (المؤلف).

(٣) قدم هاميلتون يومياته على هيئة تقرير، وترجم تحت عنوان «يوميات هاميلتون عن رحلته إلى نجد ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م» وقام بالترجمة عصام ضياء الدين السيد علي، ونشرته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. (المراجعون).

سردي للوقـائع، لم يتمكنا من ذلك. ولم يـكن هناك طبيب يمكن ضمـه للبعـثة آنئذٍ، ثم صُرِف الـنظر عن ربط البعثة من خـلال الاتصالات ببقيـة العالم. وفوق هذا فإنه بعـد شهر من الوقت الذي حطت فـيه أرجُلنا على أرض الجزيرة العـربية توقفت البعثـة عن أداء دورها كبعثة، وكان أن غَادَرَنا المقـدم هاميلتون في البداية، وتبعه المقـدم كنليف أوين وسكوفيلد، وبقيت وحدي من مـجموعة كانت سـتقوم بدور الممثل الوحيد لبريطانيا العظمى لجزء كبير من العالم في قلب الجزيرة العربية، لتحـمل للعرب في أرض السعوديين تلك الرسـالة العظيمة المؤكـدة للنوايا الحسنة التي استمـرت في ليالي الحرب السوداء، لتُطمئنَ شـعباً معتـزاً بنفسه، بقي طويلاً تحت وطأة الحكم العـثمـاني، بأن الحرية المنـتظرة لا يفصلهم عنهـا، إلا انقشـاع العـاصفـة. وعندمـا طلبنا من العـرب أن يضطلعوا بدورهم فـي العمليـات التي استهدفت خلاصهم من حكم العـثمانيين الاستبدادي، لم يكن من أهدافنا ـ نحن أو حلفائنا ـ تحقيق مكاسب مادية لنا أو تحقيـق مطامع "إمبريالية" لبريطانيا. ثم مضى عامان طـوى فيهما الـنسيان الشعـور بالارتياح الذي أحسته القلوب والذي دفعنا للهتاف وللتصفيق عند سماع أخـبار نصرنا الذي كلفنا الكثير، وبدأ الضجر يتملك العرب الذين صـبروا كثيـراً في انتظار تحقيقنا لوعـودنا. وإنني ـ وإن لم أكن أحد الذين تستخدمهم حكومة صاحب الجلالة للحديث باسـمها كثيراً لإيصال تأكيدات النية الحسنة للعرب، إلا أنني يمكنني التعبير عن الأمل، بل الإيمان الراسخ أنه مهما كانت هناك من إغراءات في الماضي أو مهما استجدّت في المستقبل لانتهاج سياسة مناقضة لما هو مُعلن، فإن بريطانيا لن تحنث بوعدها تجاه الشرق(١).

---

(١) يلاحظ أن المؤلف يتحدث عن وجهة نظر بلاده، وكـان الواقع بعكس ما تحدث عنه، وكانت الوعود التي قطعت وتصب بعضها في مصالح البلاد العربية لم يتم الوفاء بها. (المراجعون).



صورة

مركب شراعي وعلى متنه البعثة البريطانية، ويجره القارب البخاري التابع للسفينة هـ. م. س. لورانس؛ يبدو المقدم ف. كنليف أوين في الوسط

الفصل الأول

مدخل الجزيرة العربية

١- من البحرين إلى العقير

عند وقت الظهيرة في يوم ١٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧م[(١)] لم تكن هناك حتى موجة صغيرة تثير السطح الزيتي الراكد لخليج البحرين. حينذاك كان القارب البخاري الصغير التابع للسفينة هـ. م. س لورانس قد تركنا لمصيرنا عند مدخل القناة الضيقة التي تشقُّ سلسلة الصخور المغمورة بمياه الخليج، وعاد القارب مسرعاً إلى السفينة التي نقلتنا من البصرة إلى هذا المكان. كان البحر ممتداً على الجانبين بلونٍ متورِّد ضارب إلى الحمرة مُحَذِّراً الملاحين من أخطاره الخفيَّة، وكانت القناة بلونها الأخضر هي المدخل الآمن الضيِّق، ومن ورائها تمتدُّ البحار العالية. بقينا هناك على المركب الشراعي لسكون الرياح، وكنا نخفق الشراع المنشور في وهن متوددين للنسيم ليدفعنا للأمام، بينما كانت تتدلى بضعف راية البلاد السعودية من مؤخرة المركب، بلونها الأخضر الشاحب الذي تحدُّه حافة بيضاء وقد انعكست صورتها على مياه البحر الخضراء الشاحبة. ومن ورائنا، ترقد البحرين كآخر معقل للحضارة، وترقد أمامنا الجزيرة العربية، وارتفعت إلى الشمال الكتل الصخرية لجبل الظهران[(٢)] وجبل دخان[(٣)]، أحدهما على البرّ الرئيس في اتجاه الشمال الغربي، والثاني في الاتجاه الجنوبي الغربي لجزيرة البحرين. تلال ليست عالية الارتفاع ولكنها توحي بأنها كذلك، وهي تبدو كمدخلٍ مناسب للمجهول الذي يقع خلفها.

كنّا ثلاثتُنا وطاقمٌ قِوامُه سبعة أفراد على تلك المركب الصغيرة، وكان قائدها علي قد صارع من قبل مخاطر المحيط في سفن شبيهة ولكنها أكبر، ليصل بها إلى

---

(١) ٢٩ المحرم ١٣٣٦هـ . (المراجعون).

(٢) ٥٠٠ قدم فوق سطح البحر. (المؤلف).

(٣) ٤١٠ أقدام فوق سطح البحر. (المؤلف).

زنجبار البعيدة. التقيت فيما بعد بكثير من البدو في قلب الجزيرة العربية ممن ركبوا مخاطر البحر، تحيط بهم عناية الله، بحثاً عن الرزق الذي كانت هناك صعوبة في الحصول عليه على اليابسة في البرِّ الرئيس. هناك كثير من عتيبة والدواسر وآخرين ممن يذهبون إلى البحرين في موسم اصطياد اللآلئ، بينما يتخذ بعضهم حياة البحار وسيلة فقط لجمع ما يكفي من مال لشراء الإبل وللزواج.

ملأت نسمة عابرة أشرعتنا لفترة وجيزة بعد الظهر، ولكن بحلول المغيب كانت قد تخاذلت عنَّا، فرأينا أن نرسو على نتوء صغير يدخل في القناة من الجزيرة بالقرب من جبل دخان. وعند منتصف الليل دفعتنا أمامها مُجدَّداً نسمةٌ رقيقة تواصلت حتى منتصف النهار حيث توقفنا على مرمى البصر من برج مراقبة العقير. وفي الظروف العادية تستغرق الرحلة من البحرين إلى العقير ثماني ساعات، بينما نحن أمضينا حتى الآن ستّاً وعشرين ساعة منذ أن غادرنا السفينة لورانس، ولم نستمتع بنسمات البحر مرة ثانية إلا في الساعة الثانية بعد الظهر، ولكن تمكنَّا بعد ذلك من التقدم السريع حيث اقتربنا من الحد وهو لسان من أرض منخفضة تفصل مرسى العقير ذا المياه العميقة، من الخليج الضحل ذي الصخور المنتشرة.

كانت هناك سارية متصدّعة في البحر في اتجاه الطرف الجنوبي للِّسان تعمل كمنارةٍ لتقود السفن إلى داخل المرسى الذي ولجناه قبل أن تفاجئنا رياح قوية أتت من جهة الجنوب(١) وشدّت كل قطعة خشب وكل حبل في المركب وتركته يصرُّ صريراً ونحن نسابقها نحو اللسان. وهكذا، وبعد مسيرة اثنتين وثلاثين ساعة، وحينما بدأت الشمس تتوارى وراء كثبان الرمال في البر الرئيس، وصلنا لغايتنا ووقفنا على عتبة الأرض السعودية.

---

(١) تسمى الكور (Kos). (المؤلف).

٢- العقير

كنا قد أسرعنا لنرسوَ قبالة أحد المدفعين المقامين ـ فوهتيهما إلى أسفل ـ المستخدمين كأعمدة مرسى. وعلى الفور ظهر لنا الأمير المحلي عبدالرحمن بن خيرالله بنفسه لاستقبالنا باسم ابن سعود حيث دعانا لمقرٍّ سكنه في القلعة. كان الحرس المحلّي المكوّن من أربعين من الرجال المسلحين قد اصطف أفراده عند المدخل لاستقبالنا، وبدخولنا للساحة ارتقينا الدرج لغرفة استقبال الأمير في الطابق الأعلى من مسكنه الصغير المفروش بعدد كبير من قطع السجاد وبقليل من الوسائد التي اتكأنا عليها نتجاذب أطراف الحديث مع مضيفنا واثنين من كبار مساعديه، بينما كانت تدار بيننا أكواب الشاي والقهوة. وكان عبدالرحمن ـ وهو من أهل القطيف ـ قد عُيِّنَ أميراً منذ أربع سنوات تقريباً، منذ بداية موسم الربيع في عام ١٩١٤م، عندما استعاد ابن سعود العقير مع بقية إقليم الأحساء من الأتراك. وأثناء تلك المدَّة لم يَرَ عبدالرحمن بلدته سوى مرة واحدة عندما قضى بها عطلته في شهر رمضان الماضي. لم يكن بالقلعة سكنٌ للسيدات ولم يُخفِ عبدالرحمن رغبته في الانتقال لوظيفة أكثر ملاءمة له حيث يستطيع أن يستمتع بانضمام زوجته وبنيه إليه، وأضاف "رغماً عن هذا فإنَّها رغبة الإمام[١] وهي مُلزمة بالنسبة لي". كما تحدث أيضاً بكثير من الحماسة عن التغيرات الكبيرة التي حدثت في الإقليم نتيجةً لتغيير الحكام. لم تكن الحاميات التركية الضعيفة تفرض سيطرتها إلا على المدن وعلى النقاط الواقعة على خطوط الاتصال، ونتيجة لهذا كانت الطرق والمناطق المحيطة بالمدن مبتلاة باللصوص وقُطَّاع الطرق من البدو؛ بيد أن ابن سعود واجه

---

(١) يحمل عبدالعزيز بن سعود أمير أو حاكم نجد أيضاً لقب إمام السعوديين، رغم أنه هو نفسه يصف والده عبدالرحمن بهذا اللقب. (المؤلف).

هذه الغارات بغـارات مضادة كانت تتـعقبهم حـتى في الصحاري الخاليـة من المياه حيث يذهب اللصـوص ليبقوا بهـا حتى تُنْسَى جرائمـهم. ثمّ إنه باتباعه سيـاسة حكيمة تقضي بتقديم إعانات مالية للقبائل استطاع ابن سعود أن يصل بعدد القبائل الخارجة عن النظام إلى أقل حد. وعلى كلٍ فقد توقفت المضايقات عن العقير وعن مدن وقرى الأحساء، وتوقفت التحرشات بالسفن الراسية في الساحل.

عندما اسـتأذنّا للانصراف، ألمحت أنا لـضرورة أن نبدأ رحلتنا دون تأخـير، وعندها، وكعادة العرب ذوي الأصول العريقة أطلق الأمير كذبة عفوية[١] بأنه كان يتوقـعنا قبل يومين وأنه كان قد أعـدّ الإبل لنبدأ رحلتنا فور وصـولنا، ولكن بعد ذلك، وعندما فقد الأمل في وصولنا المبـكّر أرسل الإبل لترعى. وهنا قال سعدي "إنّ كذبة حصيفة خير من حقيقـة مزعجة". ثمّ إن تلك الكذبة الحصيفة الواضحة كان قد لطّفها بالتأكيد بأنّ الإبل ستكون جاهزة في اليوم التالي. وكتخطيط مبدئي رأينا أن نبدأ رحلتنا فجـر بعد غد. ثم عدنا إلى مركبنا بعـد أن أجّلنا لليوم التالي قضـية الانزعاج بأمـور النزول عن المركب، كما ادّخـرنا متعـة ارتياد المناطق التي تستحق المشاهدة لليوم التالي أيضاً.

خلافاً للقطيف والجبيل[٢] حيث أدت الزراعة دوراً أكثر أهـمية من التجارة في زيادة الاستـيطان لقرون عـديدة خلت، فإن العقـير التي تقع في شـريط ضيق قاحل في صدر الساحل بين كثبان الرمال والبحر، لم يكن حالُها في يوم من الأيام

(١) هكذا وردت في الأصل، لكن ليس هنـاك دليل على أنها كـذبة، لأن خبـر وصول فـيلبي قد سبقـه، وبالتـالي فإن من عـادة أمراء الدولة الـسعـودية أن يستـعدوا لإكـرام ضيـوفـهم وتأمين ما يحـتاجـونه. (المراجعون).

(٢) الاسم الذي يطلقه عليها العرب في العادة هو (عينين وهي تعني البئرين). (المؤلف).

خيراً مما هو عليه الآن، لـم تكن في السابق سوى نُزُل ينمو في أهميتـه الاقتصادية ليتراجع في أهميتـه الاستراتيجية، وكان سكانها غير المسـتقرين من الجنود والتجار يحتالون على العـيش عندما تلوح في الأفق بعض التجارة أو المهـام حتى تنقضي. إنَّ اسم العقيـر ومرساها الممتاز تحـفِّزني للتخمين ما إذا كـان هذا هو موقع مرسى الجرهاء جـيرا (Gerra)[١] القديم الذي وصـفه بتولمي، رغم عـلمي أنَّ هناك مواقع أخرى مرشحـة لهذا الظن، ولكنَّ التخمين يصبح عـديم الجدوى في غياب الأدلة المادية، ثمَّ إنَّه من غيـر المتوقع أن يكون هناك استـقرار مستـديم في موقع ليس به اليوم سوى بئر واحدة[٢]. كان مرسى جيـرا البحري منذ عهود سابقـة للنصرانية، ولفترة امـتدت بضعة قـرون في العهد النصراني مـوقعاً تنتشـر منه خطوط القوافل لأطراف الجزيرة العربية البعيدة، لعمان وحضرموت ولليمن وللبتراء. ومرسى كهذا لابد أن تكون في مـوقعـه بقايا المبـاني، وهي التي قـيل إنها وُجـدت في الزاوية الجنوبية لخليج البـحرين. ربُما فَقَدت جيـرا أهميتها عندمـا صارت خطوط القوافل المتـجهة نـحو الجنوب غـير عمـلية فَـحَلَّت القطيف محلهـا في الطرف الشمـالي للخليج، قبالة البحرين. ولكن رغم أن العقير لا توجد بها آثار إلا أن اسمها الذي يُنطق العقير أو العجير يبدو وكأنه مشتق من اسم المستوطنة الأصلية والميناء: جيرا.

ومهما يكن الأمر فإنَّ المباني الوحيـدة التي توجد في العقير هي حصن مربّع ذو أبراج، ومستودع كبير[٣] يكوِّنان مع بعضهما البعض كتلة طينية مستطيلة طولها تقريباً ١٥٠ قدماً وعرضها ٧٠ بوصة[٤]، وتواجه محطَّ السـفن الذي يمتد جنوباً

(١) ورد الاسم هنا مختلفاً عن طريقة رسـمه المعروفة، إذ يعرف هذا الموقع بالجرهاء ويكتب بالإنجليزية Gerha، وهو ميناء قديم يعـتقد أن ميناء العـقير قائماً مكانه، وقـد وردت عنه معلومات كثـيرة في المصادر الكلاسيكية القديمة. وقد كـان للجرهاء حضارة قديمة أسسها الكلدانيـون، وقد كانت تعد من أهم المراكز التجارية. انظر: الملا، تاريخ هجر، ج١، ص١١٠ وما بعدها. (المراجعون).

(٢) حُفرت آبار أخرى من وقت لآخر ولكن مياهها كانت مالحة. (المؤلف).

(٣) هذا مبنى مستطيل الشكل وله ساحة في الوسط توجد حولها في الطابق الأول مستودعات للبضائع، بينما تتكون الطوابق الأعلى من غرف سكنية، ومكاتب لمستخدمي الجمارك وللوكلاء المحليين لتجار الأحساء. (المؤلف).

(٤) هكذا وردت في الأصل لكن المتعارف عليه في قياس الأطوال والمساحات هو القدم، لذلك فإن الاحتمال الكبير أن عرضها ٧٠ قدماً وليس بوصة. (المراجعون).

في داخل المرسى كجزء من نتوء جبلي مستدير يمتد داخل الماء ويقوم على أرض منخفضة ناتئة عن البرّ الرئيس لمسافة تبعد ١٠٠ ياردة عن لسان الحد الطويل.

ويُحاط المرسى بالبر الرئيس وبجبل العقير ولسان الحد، ويقع مدخل المرسى بين طرف الحد الجنوبي والساحل، بينما تحمي المرسى أيضاً من الناحية الجنوبية جزيرة الزخنونية على بعد بضعة أميال. وهناك قناة ضيقة تقع بين جبل العقير ولسان الحد تربط المرسى مع بحيرة ضحلة تمتد لمسافة ميل تقريباً في اتجاه الشمال حتى الموقع الذي يبرز فيه لسان الحد عن البر الرئيس. وتوجد جنوب المستودع أرض مسطحة مالحة تستخدم كموقع للمخيمات، في حين تمتد غرب المستودع - بين الحصن وكثبان الرمل - سلسلة عريضة من القصب والشجيرات وفي نهايتها البعيدة توجد البئر التي تحدثنا عنها، يحميها برج المراقبة الدائري الذي يسمى أبوزهمول[١]. وتكمل المشهد مقبرة صغيرة مُهدّمة تُحيي الذكرى المنسية لوجود سابق لحامية تركية في ذلك المكان.

في صباح اليوم التالي نزلنا إلى اليابسة وقضينا بعض الوقت في ترتيب أمتعتنا ونصب خيامنا ثم ذهبنا إلى الحصن استجابة لدعوة الأمير لتناول طعام الإفطار. كانت وجبة بسيطة مكوّنة من الأرز ولحم الضأن وخضراوات وتمر،

(١) هناك برج مراقبة آخر على بعد أميال قليلة جنوب العقير، قبالة جزيرة الزخنونية. هذه الأبراج تسمى مفتول (جمعها مفاتيل). وهي دائرية في أشكالها وتستدق قليلاً تجاه القمة، في حين يحيط متراس بمنصة البرج. وتحت هذه المنصة تقع غرفة مظلمة مخصصة للحارس. وتحت هذه الغرفة، على مستوى الأرض، يوجد مستودع للذخائر وغيرها. كما يوجد باب صغير في الطابق الأرضي هو المدخل والمخرج الوحيد وهو مقفل بمزلاج طوال الوقت. ولقد سُمح لي بالدخول تفضلاً بعد نقاش طويل. كان عدد الحراس حينها عشرة أفراد وكانوا جميعاً مسلحين ببنادق حديثة كغيرهم من جنود حامية العقير. (المؤلف).

وضعت على بساط دائري في غـرفة الاستقبال. وتبع ذلك تناول القـهوة والحديث حتى ارتفع صوت المؤذن منادياً المؤمنين لصلاة الجمعة في جامع الحصن، ومنبهاً لنا أنه قد حان وقت الانصراف.

كانتُ الإمارة في العـقير ـ وفقـاً لما توفّر لديّ من معلومات لا تعـدو كونها وظيفة شرفية رغم أهميتها. وليـست لها أعباء عمل أو مسؤوليات أكثر خطورة من قيادة الحرس المحلي مع إشراف غير واضح المعـالم على قسم الجمارك الذي يترأسه مدير. وهذا الأخير ـ وهو أيضاً من أهل القطيف ـ كان يساعده بصفة غير محدودة أخوه وعـدد من المرؤوسين الأوفياء، وكـانت مسؤوليـاته هي تفتيش كلّ البـواخر القادمة وتقييم الرسوم الجمركيـة المستحقة على ما تحمله من بضائع، وكذلك على البضائع المصدَّرة من داخل البلاد عبر الميناء. كانت هناك إبّان وجودنا سبعة مراكب شراعية تفرّغ حمولتها من مـختلف البضائع: أرز، سكر، بن، وصفائح كيروسين فارغة، وهذه تشكل مع الأقمـشة والشاي والبهارات كل احتـياجات وسط الجزيرة العربية من العالم الخارجي. كانت الصفائح الفارغة تستخدم لتعبئة التمر والسمن، وهذين الاثنين مع الجلود والحصائر المصنوعة من القصب هي أهم الصادرات. كان كلُّ التمـر والحصير تقـريباً يأتي من الأحسـاء، بينما كانت الجلود والسـمن تُمثل إسهام البدو في أسواق العالم.

كانت الرسوم الجمركية في أرض السعوديين هي تلك التي فرضت في القرآن وحدَّدها الرسـول بنفسـه لكل الأزمان، وقَـدْرُها ٨٪ من كلِّ البضـائع الصادرة أو الواردة(١). وكان يضـاف لهذا رسم ثابت قدره دولار واحـد عن كل صفيـحة أو

---

(١) الرسوم الجمركية لم يـفرضها الإسلام، وإنما هي من الإجراءات المالية الحديثة لخدمـة عمليات الاستيراد. أما ما فرضه الإسـلام فهو الزكاة الشرعية وأنصبـتها معروفة في كتب الفقـه، وأهمها زكاة المال التي تبلغ ٢,٥٪ توزع حسب المصارف الشرعية لها. (المراجعون).

وعاء سِعـة ٨٢ رطلاً تقريباً، وحدد الرسم بالطبع على الأسس نفسـها في حالتي التمر والسمن. كان الاستثناء الوحيد لهذه الفئة الجمركية الموحدة - وفقاً لما حدثني به مدير الجمارك شخصياً - هو التبغ، وفئته الجمركية ٢٠٪ رغم منع استيراده لبلاد ابن سعود مع توعُّدٍ للمخالفين بأقـصى العقوبات، وهو الأمر الذي يجعلني أشكُّ في نزاهة مدير الجـمارك. ورغم هذا فإنه من المعـروف جداً أن التبغ يجـد طريقه بصورة منظمة لكل أجـزاء إقليم الأحساء، ولا يُقابل استهـلاكه باعتراض هناك إن تمَّ في خصوصية مُصانة، وهو فعل يمارسه مدير الجمارك وأخوه إن ضمنوا من هم في مَعِـيَّتـهم. سأتعرض في مناسـبات لاحـقة للحديث عن المدى والطـريقة التي يستخدم بها التبغ في قلب الجزيرة العربية.

العملة الرسـمية للجزيرة العـربية هي الريال[1] أو دولار ماريا تريزا. ولكن يتم تداول الروبية بحريّة في كل مكان بالأحـساء، وبقدرٍ أقل في المناطق الأخرى. كانت قيمة الريال تتأرجح في خلال الشهور الاثني عشر التي قضيتها في البلاد بين ٢٣٠و٢٦٠ روبية لكل مئـة دولار. وكانت العملة الصغيرة هي بيـزا مسقط وهي تعـادل البيـزا الهندية التي كانت مـتداولة في كل بلاد ابن سـعود، في حـين كان النيكل الهندي والتركي والعملات الفضية ذات الفئات المتدنية لا تحظى بقبول واسع في المراكز التجارية. إضافة لهذا كانت للأحسـاء - الأحساء فقط - مسكوكة معدنية من النحـاس تعرف باسم الطويلـة وتتخـذ الشكل الآتي ٥ وكانت قـيمـة ثلاث طويلات تعادل قيـمة بيزتين[2]. بالطبع فإن العمـلات الورقية غير مسـتخدمة في

(١) جمعها أريل. (المؤلف).

(٢) يعـادل الريال لجمـيع الأغـراض العادية ١٤٠ بيـزا، وتعادل ٢ بيـزا ١٠ بارات تركـية أو ٣ طويلات. أمـا الروبيات التي تستخدم للدفع فإنها تحوَّل إلى دولارات وفقـاً للسعر السائد، وتُعطى الكسور المتبقية في شكل بيزات أو طويلات على تلك الأسس. ولا يخسر التاجر مطلقاً في هذه التعاملات المالية. (المؤلف).

الداخل رغم أنها تـقبل على الدوام مع خصم مـعقول، ويكـون قبولهـا نوعاً من الخدمة يقدمها التاجر لزبائنه المشترين. أما الذَّهب البريطاني والتركي فيُقبل كلاهما بسهولة وفقاً للـقيمة السائدة[1]، ولكن لا يمكن القول إن العمـلات الذهبية كانت متـداولة للأغراض العادية قـبل ثورة الشريف[2]، حيث انسـاب بعدها في شـبه الجزيرة العربية في اتِّساع مضطرد. إنَّ تداوله في الغرب شائع جداً في حقيقة الأمر للدرجة التي يشـيع فيها أهالي نجـد ـ حيث يقل تداوله ـ قصـة البدوي الذي دفع جنيهاً إسـترلينياً ذهبياً لشـراء علبة ثقاب ثم انصرف دون أن يأخـذ ما تبقى له من قيمة.

تُدفع الرسوم الجـمركيـة في أغلب الأحوال بالروبيات، وكـان المبلغ الكلي الذي وُرِّد إلى الخـزينة في الرياض من هذا المصـدر من موانئ الأحـساء الثـلاثة، خلال عام ١٩١٧م حوالي ٤٠٠ ألف روبية. ولابـد أن نأخذ في الحسبان أن ذلك العام من أعوام الحرب التي قلَّت فيها حركة الملاحة البحرية، ولعله من المعقول أن نفترض أنَّ الرسوم الجمركية قد تـساهم في ظل الظروف الطبيعية بمبلغ يتراوح مداه بين ٨٠٠,٠٠٠ و ١,٠٠٠,٠٠٠ روبيـة لخزينة ابن سـعود، وذلك من رسـوم البضائع الصادرة والواردة التي تُقدَّر في مجموعها في المدى بين عشرة وثلاثة عشر مليوناً من الروبـيات، يأتي ثلثاها من الواردات؛ هذا بالطـبع خلافاً للبـضائع التي تستورد لحـساب ابن سعود الخاص، ويستـورد تجار الأحساء احتيـاجاتهم في معظم الأحوال من الأسـواق الهندية التي تقبل القيمـة عيناً من صادرات البلاد وتـأخذ ما يتبقى نقداً. ثم يستبدل التجار بهذه البضاعة في الداخل منتجات الحاضرة والبادية: التمر، والمنتجات الزراعية، والجلود، والسمن، وفرش الحصير، وأخيراً وليس آخراً

---

(١) تتأرجح قيمته بين ٦-٧ دولارات للجنيه الإسترليني الواحد. (المؤلف).

(٢) يونيو ١٩١٦م. (المؤلف).

الإبل، وهي البضاعة الوحيدة للبدوي الحقيقي، وبسببها تحسَّن مستوى معيشته خلال سنوات الحرب الأربع ـ مع أنها مازالت قاسية وقلقة ـ نسبةً لارتفاع قيمة الإبل. لهذا كان التحسُّن في نمط حياة البدوي أعلى منه لدى الآخرين، وسرد لنا داوتي قبل أربعين عاماً قائلاً إن ما تبقى له من متاع الدنيا من ريالات قليلة آنئذٍ كانت كافية فقط لتحمله من القصيم إلى الكويت، أما اليوم فإن الأجرة العادية للبعير الواحد من الداخل إلى الساحل تبلغ ٣٠ دولاراً. وقبل أشهر قليلة فقط[1] سعيت لاستئجار خمسة من الإبل بذلك السعر من الزلفي إلى الكويت دون جدوى. وأخبرني رجال لم يطعنوا في السن بعد عن أيّام كان يُشترى فيها بعير الأحمال بعشرين دولاراً. في حين أن سعرها اليوم يتراوح بين ٨٠-١٥٠ دولاراً. لم يكن البدوي في الجزيرة العربية أغنى قط مما هو عليه هذه الأيام، ولكن تدفق الذهب قد توقف، ولن يبقى في القريب العاجل من آثارٍ له في بيوتهم المؤقتة إلا بالقدر الذي يبقى من سيول الشتاء الجارفة في المجاري القاحلة بعد أن يُولّي الصيف.

في غياب الإحصاءات الدقيقة يكون من غير الممكن الجزم بالأهمية النسبية لموانئ الأحساء الثلاثة في ظل الظروف الراهنة. ومع أن القطيف تنافس بحزم لأخذ حصتها من تجارة الداخل لكنها لا تعتمد عليها اعتماداً تاماً. إذ تتمتع باحتكار لا يُنافس بوصفها عاصمة للإقليم في توفير احتياجات القطاع الزراعي في الإقليم المأهول بالسكان. أما الجبيل فإنها مازالت في مرحلة الجنين بالنسبة للتطور التجاري ولكنها من المحتمل أن تتطور سريعاً إن وجدت الدعم المالي اللازم لإنشاء الأرصفة البحرية والمستودعات. في حين أن العقير تستحوذ تقريباً بما لا يقل عن

(١) أكتوبر ١٩١٨م. (المؤلف).

نصف تجارة الداخل الكلية لساحل الأحساء، وتتمتع بالقرب من واحة الأحساء، إلا أنها فيما يبدو سيُقدر لهـا أن تتنازل عن ارتباطاتها بالداخل لمصلحة الجبيل فور اكتمـال استعدادات هذا الميناء للاضطلاع بهذا الدور، إلا إذا تمكن ميناء العقير، وهو من أفضل الموانئ في ساحل الجزيرة العربية، أن يتحرر من الكابوس الذي يعوق العمل فيه وذلك برفع الوحل من قاع البحر، أو بأي طريقة أخرى إذ أن الميناء لا يسمح الآن إلا بمرور المراكب ذات الحمل الخفيف[1].

أما الآن فإنَّ موانئ الأحساء تقع تحت رحمة البحرين، حيث إن الشيخ عيسى يفرض لمصلحة خزينته رسوماً على البضائع المتجهة إلى نجد حين يعاد تحميلها على البواخر في مياهه، وعند وصول هذه البضائع لموانئ الأحساء تخضع ثانية للرسوم الجمركية الخاصة بابن سعود، وهذا ما يجعل القدر الأعظم من تجارة وسط الجزيرة العربية تحول اتجاهها نحو الكويت هرباً من ازدواجية الرسوم، إذ أن البضائع المراد بيعها في أراضي ابن سعود أو ابن رشيد تخضع في هذه الحالة للرسوم مرة واحدة تدفع لشيخ الكويت سالم. وإضافة لما تدفعه الأحساء من رسوم جمركية مزدوجة على كل البضائع الواردة لاستهلاكها، فإن تجارها يجدون أنفسهم محرومين من بضائع أكثر جودة تتداول في أسواق الرياض وجنوب نجد بواسطة تجار شقراء الذين يستوردون احتياجاتهم من الكويت ويذهبون بها للعاصمة السعودية[2].

---

(١) الممر المائي يسمح فقط بعبور السفن ذات غاطس ١٢ قدماً. (المؤلف).

(٢) إن المسافة بين الكويت والرياض عن طريق شقراء تساوي تقريباً ضعف المسافة المباشرة بين العقير والرياض. ولكن لنفترض مثلاً أن حمولة بعير من الحرير الغالي الذي تبلغ قيمته ٥٠٠ روبية قد استُورد عبر البحرين (الرسوم الجمركية ١١٪)، ثم عبر العقير (الرسوم الجمركية ٨٪) ليصل إلى الرياض (أجرة البعير ٢٠ دولاراً) عندها ستكون كلفة الحرير قد بلغت ٦١٥ روبية (٥٠٠+٥٥+٤٠+٢٠). في حين أن الشحنة نفسها إن تم استيرادها من الكويت (الرسوم الجمركية ١١٪) للرياض عبر شقراء لإيجار البعير ٤٠ دولاراً) تكون التكلفة ٥٩٥ ريالاً. أما المواد الغذائية وهي أقل قيمة فإنها تستورد للرياض مباشرة من العقير رغماً عن ازدواجية الرسوم الجمركية. (المؤلف).

من الواضح أن أسس علوم الاقتصاد لم تجد طريقها إلى أروقة أمير الجزيرة العربية، ولذا فإنه ـ حسب علمي ـ لم يخطر لابن سعود الذي يخسر كثيراً من جرَّاء هذا الوضع أن يعترض على أحقية جيرانه في الإثراء على حسابه بسبب موقعهم الجغرافي، أو أن يتصدى لسيطرتهم واستغلالهم لهذا الوضع بقوة السلاح وهو أمر أكثر جدوى من الأحلام الهلامية في إقامة ميناء منافس عملياً على ساحله الخاص. ولكننا لابد أن ننظر بعين الاعتبار إلى أن هذا الوضع موروث من أيام الحكم العثماني، وأن أربع سنوات من الحرب مع سلسلة من المصاعب السياسية قد أثرت على إمكانية تجشُّم حل للمشكلة، أو حتى مناقشة المشاكل الاقتصادية للدولة السعودية. إنَّ تطوير العقير أو الجبيل أمرٌ باهظ التكلفة ويستغرق وقتاً طويلاً ويستدعي التضحية بكثير من الدخل في تلك الأثناء، في حين أن وسيلة بسيطة كعقد اتفاقية حول الرسوم الجمركية مع البحرين أو إنشاء نقاط[1] حول الكويت تحت حراسة الجند لتحصيل رسوم داخل البلاد يمكن أن تدرَّ مالاً كثيراً لخزينة الرياض يُمكن أن يُستخدم لإنشاء ميناء.

كانت مجموعات من الإبل تظهر وتختفي من وقت لآخر خلال اليوم على الكثبان الرملية في خط الأفق، وبدا صدر الساحل مفعماً بالحيوية والنشاط، حيث كان رجال المراكب وأصحاب الإبل يتجادلون وحِزَمُ البضائع بينهم، في حين اختلط أنين الإبل وهي تُناخ مع صياح أصحابها؛ وبدوي فظ يحدق فينا متعجباً من ملابسنا الإنجليزية الغريبة بينما كنا نتجول بينهم، ومع الإبل أتوا بحمير بيضاء

(١) يبدو لي أن فكرة إنشاء نقاط تحصيل الرسوم من الداخل هي فكرة غريبة على العرب، ولكن يمكن تحقيقها دون كثير عناء، حيث إن تحصيل الرسوم يمكن أن يتم بالطبع في عدد من الآبار، تعرف جماعياً باسميْ طوال ومطير، وأمثلة لهذه الآبار صفا وقرعا وحبة. (المؤلف).

عظيمة من الأحساء، والقرويون يجادلون من يودون استئجارها وكذا أصحاب الإبل. قضينا اليوم كله جيئةً وذهاباً نشاهد صوراً متعددة الألوان، ولكن لم تصل الإبل التي ستُقِلُّنا، وعندما غابت الشمس كنا نتساءل إن كان مقدَّراً أن تأتي الإبل في صباح الغد.

٣- من العقير إلى الأحساء

استيقظنا في صباح اليوم التالي مبكِّرين استعداداً لبداية باكرة، ولكننا كنا حديثي العهد بأساليب الجزيرة العربية، لذا أصابتنا خيبة الأمل. لم يكن هناك من أثرٍ لكل إبل الأمس، وكان عدد القادمين الجدد يقل كثيراً عن الأمس، بينما كانت المراكب ترسو متكاسلة على المرفأ، وبقي الشاطئ كما تُركَ بالأمس عند الغروب متسخاً بما يتناثر عليه من أربطة وأكياس، ولم يكن هناك من كائن حي. بدا لنا أننا لن نستطيع أن نبدأ رحلتنا في ذلك اليوم، وعلى هذا الأساس ذهبت لأحتجَّ لدى الأمير على إخلافه وعده، وأقرَّ الأمير أن الإبل لم تأت بعد وأضاف أنها ستكون بيننا عمَّا قريب، ولكنه في الوقت نفسه اقترح أن نبحث عن حمير حيث إنها أكثر راحة في الركوب، كما ذكر. كان هذا الاقتراح نذير شؤم حيث وضح جلياً أنه لم تُعدُّ أي ترتيبات من أي نوع من أجل رحلتنا، حتى وإن وصلت الإبل فسنُضطر إلى ركوب حيوانات نقل البضائع، وهذا ما حدث بالفعل. وبينما كنت أتحدث مع الأمير على متراس الحصن بدت خمسة من الإبل مبعثرةً في الأفق في منحدر الكثبان الرملية، صاح الأمير وقد شعر بالارتياح: «ها هي الإبل قد أتت»، وحيث إنه لم تكن هناك من وسيلة لتعجيل وصولها بالحديث مع الأمير، فلقد عدت إلى المخيم لأخبرهم بإمكانية رحيلنا.

وقبل أن نستقرَّ طويلاً مستسلمين لتأخير لا يُعرف مداه، جاءنا موكبٌ وعلى رأسه الأمير ومدير الجمارك وغيرهما ليخطرونا بأنَّ الإبل قد وصلت. وأتى معهم شخص بشوش ولكنَّه يحب التحدث بكثرة: سلطان بن سويلم الذي أخبرني بأنه شقيق أمير القطيف، ثم بدأ يحدثني عن مهمة سِرِّية في مسقط كان على وشك الاضطلاع بها بتكليف من ابن سعود، ثُمَّ ما لبث أن اجتاح المكان عدد لا حصر

له من الإبل والحمير مع سائقيها من الرجال والنساء، وتبع ذلك مشهد من الارتباك والفوضى لا يمكن وصفه حيث كانت الإبل تُناخ وأمتعتنا تتجاذب في كل الاتجاهات، وكان وراء الجهد الذي يبذله الرجال في فرز الأمتعة والأثقال تناسب حمولة كل من الحيوانات، عددٌ من النساء كنّ صاحبات القرار، يُصدرن أوامرهن بصوت حاد من وراء ما يُغطِّين به وجوههن من قطع القماش الأسود المصنوع من النسيج القطني الرقيق، وكان من الواضح أنّ اقتراحاتهن تحظى باحترام وقبول.

في تلك الأثناء كانت الحمير تحمل بما خفّ من متاعنا بينما بقت الأحمال الثقيلة على الأرض بإزاء الإبل التي ستقوم بحملها. ساد الهدوء مرة ثانية عندما نأت عن الموقع - مع سائقيها - الحيوانات التي لم تكن بنا حاجة لها. وقوضت الخيام ورُفعت الأحمال والكلُّ يستعد للرحيل. أُنيخت ثلاثة من خير ما كان لديهم من الإبل على البُعد لنركب نحن عليها، بينما كانت بقية الإبل تئن مزمجرة وهي تحاول النهوض شاكية من استبداد الإنسان، ثمَّ ترنحت في مشيتها قاصدة الكثبان الرملية وقد سبقتها الحمير في ذلك الاتجاه.

أشار الأمير للموكب بالتحرك وهو يهنئ نفسه بلا شك لحسن طالعه ولكنه وبَّخني بحزن على نفاد صبري في الصباح: "كل شيء جيد وهذه نهاية حسنة"، وفي النهاية ليس الفرق كبيراً بين الصباح والظهيرة، وقمت بتهدئة أحاسيسه المكدَّرة بكلمات طيبة وأهديت له ساعة يد، وقبل الظهر بقليل في يوم ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ركبنا المطايا وتحركنا في رحلتنا نحو الداخل.

كانت مجموعتنا تتكوّن مِنّا نحن الثلاثة على الإبل وطباخ ورجل آخر لأداء مختلف الأعمال اسمه أحمد، كنا قد اخترناه ونحن على المركب، ولكنه هجرنا عندما وصلنا الجشة دون أن يأخذ مِنّا أجراً ودون أن يستأذننا؛ كما كان معنا أربعة

مرافقين مسلحين زوَّدنا بهم الأمير، وخمسة عشر من الحمير المحملة بالأمتعة يسوقها ستة أشخاص. وأخيراً اثنان وعشرون بعيراً محملة بالأمتعة تحت إمرة علي من بني شريب[1] (*)، من بطون قبيلة آل مرة، وكان يرافقه ثلاثة رجال أحدهم شيخ طاعن خَرِف يغمغم بهدوء مُحدِّثاً نفسه طوال الوقت، ومعه أيضاً امرأتان وجميعهم من ذات القبيلة. كنا نحن وحراسنا راكبين طوال الوقت بينما كان الباقون ـ باستثناء الشيخ ـ يتبادلون المشي والركوب، ونالت النساء إعجابنا على مقدرتهن على القفز ـ كما تفعل القردة ـ من بعير إلى آخر لإصلاح الأحمال أو إعادة ربط الحبال عندما لا يكنّ ماشيات وهو أمرٌ كان أكثر حدوثاً لهنّ من الركوب.

حمار الأحساء الأبيض كبير كالبغل ولونه قشدي ويبدو وكأنه نسيج وحده، ورغم أنها تشابه حمير الصلب[2] التي رأيتها في مناسبات لاحقة إلا أن العين المجربة يمكنها أن تميزها بسهولة عن تلك. ويستخدم حمير الصلب أصحابها ـ وهم أشبه بالغجر ـ في رحلات الصيد في فضاءات النفود العريضة بالشمال، وهي مشهورة بسرعتها وبتحملها للعطش، بينما تُستخدم حمير الأحساء لمهام محدودة دون غيرها، لسحب الماء من آبار الواحات ولحمل البضائع بين الهفوف والساحل، وهي أثقل وزناً وأبطأ سرعةً ولكنها بدائل جيدة للغاية للإبل، حتى على الرمال، شريطة أن تجد ماءً للشرب على فترات معقولة؛ وحسب علمي فإنها لا تُستخدم

(١) عن قبائل بني مرة، راجع الجزء الثاني ص٢٩٦ . (المؤلف).

(*) هكذا وردت في الأصل وربما يقصد ابن شريم شيخ آل فهيدة من بني مرة. (المراجعون).

(٢) انظر ص٤٣٥ . (المؤلف).

على الإطلاق في الطريق الصحراوي بين الهفوف والرياض[1]. يقوم القرويون في الأحساء بتربيتها بأعداد كبيرة ويقال إن هناك حاجة لها في مكة والمدينة، ربما لأغراض التنقل، ولقد رأيت أنها تستخدم كثيراً في الرياض وشقراء والقصيم للري من الآبار. ويبلغ سعر الحمار الجيد من هذا النوع مئة دولار، وسعر الحمير متوسطة الجودة في المدى بين خمسين وستين دولاراً للواحد.

في خلال ربع الساعة الأولى لمسيرتنا كنا قد نزلنا من أعلى الكثيب الأول وبلغنا أسفل الكثبان الرملية تاركين برج المراقبة عن يميننا، كنا من أعلى الكثيب قد ألقينا نظرة للوراء على مرسى العقير ومن خلفه الامتداد اللازوردي الممتد لخليج البحرين، بينما كان أمامنا بحرٌ من الرمال المتموجة خضناها في اتجاه رقعة صغيرة داكنة في سواد (Suwad) حيث الأجمة ذات النخيل القزمية[2] والشجيرات التي يفصل بينها المرخ[3] والتي تقع في حوض على بعد ميلين من العقير. تحمل النخيل القزمية تمراً متناهي الصغر عديم الطعم لا يأكله إلا الجوعى من البدو، وبدت باتجاه الجندب على بعد كبير أكمةٌ تسمى القارة.

كانت القفر الموحشة تمدُّ حاجزاً رملياً طوله خمسون ميلاً [4]، بين البحر وواحات الأحساء؛ ويطوق من ناحية الأرض جبل قَطَر الذي يدخل جزءٌ منه في الماء، ومن ثمّ يندمج الحاجز الرملي مع رمال الربع الخالي؛ أما من ناحية الشمال فإنني أحسب أنه يتابع الخط الساحلي حتى الكويت. كانت الإبل المتعبة تعلو

(١) انظر ص٩١ . (المؤلف).

(٢) تسمى خيس (Khis). (المؤلف).

(٣) نوع من الوزّال. (المؤلف).

(٤) المسافات التي تُذكر في المتن هي مسافات تقريبية، وتعطي الخارطات معلومات أكثر دقة عنها. (المؤلف).

وتهبط أعلى التلال وأسفل الوهاد بخطى خافتة في حين كانت الحمير قد اتخذت مساراً آخر، فسرعان ما غابت عن الأنظار ولم تنضم إلينا مجدداً، إلا بعد أن نصبنا خيامنا للمبيت. إن ذرات الرمال في هذه البيداء التي تسمَّى بحر الأحساء بيضاء اللون، وقاعدتها ـ إن جاز لنا أن نحكم عليها من الصخور التي تبرز من حين لآخر فوق سطح الأرض وهي من الحجر الجيري، والغطاء النباتي يعمُّ على حدٍ سواء المنحدرات الرملية، حيث تسود الحشائش بأنواعها المختلفة، وكذلك الأحواض التي تنبت نباتات أكثر عصارةً. وكان المسار الذي سلكناه منخفضاً إلى أسفل من أثر مرور القافلات المتصل المتكرر.

بعد تخطِّي منطقة سواد بحوالي ثلاثة أميال ونصف، مررنا بمنخفض اللصاف حيث توجد شجيرات قليلة تدين ببقائها للمياه المالحة في الطبقة الأرضية القريبة من السطح. ثم مررنا بأبي خيالة بشقوبها ذات المياه العذبة بعد ميل ونصف من اللصاف، وبعد ذلك بقليل عبرنا حوض أم الذَّرّ، وهي كبقية المنخفضات المشابهة يبدو أنها تنحدر نحو البحر في اتجاه الشمال الشرقي، وإلى شرق المسار في هذه النقطة يقع الثقب المائي المسمى نبع، في حين كانت بئر الغينة على مسافة ثلاثة أميال نحو الغرب. وصلنا الآن تلاً خفيفاً من الحجارة الجيرية يسمى الجسرة ويمتد شمالاً وجنوباً لمسافة نصف ميل عبر الرمال المهجورة؛ وينقسم الطريق هنا إلى طريقين، أحدهما يقود إلى شمال التل في اتجاه بئر قضية، بينما اتبعنا نحن الطريق الآخر الذي يمرُّ بين كتفين من الصخور، وعندها وللمرة الأخيرة نظرنا خلفنا للبحر البعيد من وراء كثبان الرمال، ثمَّ نزلنا إلى منخفضات بريمان الضحلة حيث نصبنا خيامنا للمبيت.

صرنا الآن على بعد ١٥ ميلاً عن العقير، وعلى ارتفاع ٢٥٠ قدماً تقريباً فوق سطح البحر، وكانت تنتشر حولنا مجموعات من أشجار النخيل القزمية تصارع للبقاء في مواجهة الرمال المتحركة التي طمست تماماً حطام مبنى تركي كان في السابق نُزُلاً للمسافرين في طريق القافلات تحت حراسة الجنود. أخبرنا مرافقونا وهم يوقدون لنا نار المخيم أن المسافرين لم يكونوا يبقون في هذا المكان خوفاً من البدو، بل كانوا يسرعون بعد سحب الماء من ثقوب الماء الضحلة لحملها للحامية التركية التي كان المبيت داخلها آمناً خلافاً للمبيت خارجها. تقاسمنا أرض المخيم مع عبدالله بن شريدة وهو سليل أسرة من بريدة، وكان عائداً من رحلة في الداخل إلى مقر إقامته في البحرين، وكانت معه مجموعة من نسائه اللائي هجعن خلف حاجز من نخيل متشابكة، قمت أنا بمشاركة الرجال احتساء القهوة حول نارهم البهيجة، ولم يكن مرافقونا قد أعدُّوا للسفر عُدَّته لذا قبلوا دون تردد علبة من لحم البقر أعطيتها لهم من مستودعنا، في حين باتت النساء طاويات.

انقضى الليل دون أحداث سوى مرور ذئب؛ ولم توقظنا الطلقة النارية التي اندفعت لتصيب بدلاً من الذئب شاةً كانت مدَّخرة لغداء ابن شريدة في العقير، وفي الصباح أشاروا لنا على جسد الشاة الذي كان مازال دافئاً والذي ترك ليتعفن تحت شمس الصحراء. ازدرى رفاقنا البدو الجوعى الذين لم يرفضوا علبة اللحم البقري مساءً، هذا اللحم الذي لم يكن حلالاً. يكون التزام الرأي العام في المسائل المتعلقة بالأحكام الدينية قوياً طوال الوقت، رغماً عن أن لحم الطريدة يصير حلالاً بذبحها بعد موتها إذا داس الصائد على الزناد بسم الله الرحمن الرحيم.

حافظنا في سيرنا على الاتجاه الجنوبي الغربي وواصلنا المسير فوق كثبان الرمال في صقع يسمى نقيعة العيش، ومنها مررنا بأرض عالية تتلاحم الرمال العظيمة بها كالموج وتسمى العلا، وكنا نرى من حين لآخر كلما ارتفعنا لقممها تلال الأحساء في لمحات خاطفة، وكانت البرقا [1]وهي تلال ممتدة تبدو في ناحية الغرب؛ بينما كانت القارة أمامنا في اتجاه التلال المسماة الأربع تقع صوب جنوب الجنوب الغربي بعرض الطريق الممتد من قَطَر إلى الأحساء. كانت الأرض التي نسير عليها مغطاة بأعشاب الصحراء، وكنا نرى في كل اتجاه آثار سير قطعان الضأن التي ترعى في المكان، وهي أغنام بني هاجر كما قالوا لنا. وإلى الجنوب تقع مراعي آل مرة والمناصير، وفي اتجاه الشمال مراعي العجمان والعوازم.

على بعد ١٤ ميلاً تقريباً من بريمان يقطع الرمال الممتدة شريطٌ عريض من التربة المالحة وقد يكون مهده الجاف مجرى سابقاً للماء، وهو يمتد بين الشمال والجنوب معترضاً مسارنا، وجارياً من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، بيد أنني لم أستطع تحديد بداية أو نهاية هذا الشريط، كما أنني لم أتمكن من الحصول على هذه المعلومة بالسؤال لاحقاً، إلا أن المياه كانت مالحة في آبار شطر الواقعة في مسارنا في حين كانت مياه مريزب ومكّو عذبة وهما يقعان جنوب وشمال شطر، على التوالي، ويقعان مثلها على حافة الشريط المالح. بعد وصولنا شطر تعقبنا مهد المجرى المائي والذي يسمّى عادةً السبخة[2] في اتجاه الجنوب حتى النقطة التي ينحني فيها نحو الجنوب الشرقي، هنا، وبين مجموعة الشجيرات الواقعة عن

(١) ليست هي التي ذكرت سابقاً وإنما تعني هذه الكلمة الأرض المرتفعة وهي تبدو كثيرة الظهور في هذه المناطق. (المؤلف).

(٢) تعني المجرى المالح. (المؤلف).

شمالنا والتي تسمى سهل البرّاني، وبين حـصن قديم يسمى خوينق ـ لم يظهر لها ولكنه كان على بعـدٍ ما عن يميننا ـ دلفنا مـرة ثانية إلى قفـر من الرمال لنصل إلى رقعة من النخـيل القزمية تسمى الخـيسة والتي يبدو أنها نقطة التـقاء الطرق الثلاثة التي يربط كل منها الـعقير بالأحـساء. وكان أفـضل هذه المسارات هو ذلك الذي سلكناه. أمّا الآخـران فهمـا يجريان على الجانـبين على مسافـة ليست بالبعـيدة. الطريق الأصلي هو ذلك الذي يتفـرع عن طريقنا أمام تل جارسه ويتـبع خطاً عبر آبار قهـدية والزغين، وأبو المريس، مكّو وخـوينق، في حين أن الطريق الجنوبي ـ الذي لا يفضله المسافرون كـثيراً ـ يتفرع قرب أبي خيـالة ويقارب آبار النبع، غينة والمريزب ويلتقي بالطريق الرئيس في الخيسة مروراً بسهل البراني.

يقاطع المســار الآن عددٌ من التلال المتـوازية التي تغطي أساسـها المكون من الحجر الجيري طبقة خفيفة نسبياً من الرمال، ونمرُّ عبر طريق متعرج يسمى النقيرات ينتهي بإزاء حاجز عمـيق من الرمال المتحركة التي عبرنا كتلهـا المتلاطمة بكثير من العناء، نزولاً إلى عمقٍ غـائر أو مروراً بجناح منحدر، حـتى قبيل الساعـة الرابعة عصراً، وكنا نجدُّ في سـيرنا منذ الساعة الثامنة صباحـاً دون توقف. وعندما ارتقينا موجة الرمال الأخيرة في تلك الفلاة نظرنا إلى أسفل فرأينا مـشهداً محبباً جميلاً: منظر مـجمـوعـة عريضـة داكنة من النخـيل تتـوارى خلفهـا الشـمس التي تميل للمغيب.

٤- الأحساء

"لا إله إلا الله! لا إله إلا الله" هلل لله كلُّ رجل ارتقى ذلك المرتفع شكراً لله الذي ألّف بين الأضداد، خالق الليل والنهار، خالق البحر والأرض اليابسة راسم الصحراء والنبات. تقع الآن قبالتنا واحة الأحساء في خضم من منظومة شحيحة من الصحاري غير المتناهية، حثّنا على الإسراع الدخان المتصاعد من قراها الصغيرة المبعثرة، لئلا ندخلها بعد حلول الظلام.

مع أن الطرف الأدنى لحزام النخيل كان يبدو قريباً، إلا أنه كان على بعد ثلاثة أميال تستغرق ساعة كاملة بخطى الإبل المنهكة المتئدة. كانت الساعة قد قاربت الخامسة مساء قبل أن نعبر السهل الذي يفصلنا عن القرى، وأنخنا مطايانا في فضاء بين قرية الجشة والنخيل. ولإحساسنا بالألم والإنهاك جرّاء رحلة استطال يومها، تركنا رجالنا ينصبون الخيام ويتحدثون إلى القرويين الذين ما لبثوا أن جاؤوا ببضاعتهم: برسيم للجمال، وتمر للرجال، وذهبنا نتجول في بساتين النخيل. أزال عنّا النّصب خرير المياه في الجداول التي تشق الخمائل واستردننا بشرنا بالتملي في حقول البرسيم وفسيلات الحبوب النابتة وأشجار الفاكهة الدانية القطوف: الليمون والرمان والتين والعنب.

حين أرخى الليل ستره دون هذا المشهد طفقنا عائدين إلى المخيم لنجد أن الرجال الذين كنّا قد أرسلناهم للقرية لشراء ما يلزمنا لإقامة وليمة، قد قفلوا راجعين وليس في معيتهم سوى معزاة صغيرة لم يرضَ صاحبها أن يبيعهم إياها بأقل من خمسة دولارات، على أن هناك رجالاً آخرين بعثناهم فور وصولنا لإبلاغ الأمير بوصولنا الذي لم يكتف بتوفير كل احتياجاتنا فحسب بل زارنا بنفسه ومعه ابنه، وبعد أن شاطرنا شراب القهوة حول نار مخيمنا، أصر على أن أصحبه لشرب القهوة في منزله ريثما يتم إعداد العشاء في مخيمنا.

كان أحمـد بن سايل أمير الجـشة شيخـاً طاعناً في السن ويشكو من إصابة سببت له مرضـاً في العينين، ورغماً عن أنه ضعيف البصـر إلا أنه كان عائداً لتوه من مكة حـيث ذهب لأداء فريضـة الحج لأول مرة في الموكب العظيم الـذي غادر نجداً في الصيف. لقد استمر غيابه عن منزله مدة أربعة أشهر، وفي أثناء غيابه كان ابنه ناصر يضطلع بمسؤولياته الوظيفية وهو شاب بشوش وذكي يبلغ ستة عشر عاماً من العمر تقريباً. لم تلبث الردهة الضيقة في منزل الأمير أن امتلأت بالناس حيث قُرعت الطبـول لجمـعهم، وحُشـرت أنا في موقع الشـرف في الجوار غـير المريح للمصطـلى المتوهج الذي جلس من ورائه بعض الشـيوخ من أفراد عـائلة مضـيفنا يعدون الشاي والقـهوة حيث إنه كان أضعف من أن يتمكن من فـعل ذلك بنفسه. كان أحد هذه المجموعة ويدعى حمـود هو الذي أدار دفة الحديث، وهو فيما يبدو أحد سكان القـرية وقد يكون قريباً للأميـر، وبدا من حديثه وملاحظاتـه أنه مهتم وليس جـاهلاً بما يدور من أحـداث فـي العـالم. طرح عـدداً من الأسـئلة "أين عجيمي السعدون؟ وماذا حدث لعبدالله بن فالح وإخوته؟ هل صحيح ما يُشاع من أن الحكومـة البريطانيـة قد صادرت ممتلـكاتهم؟" وأسئلة أخـرى كثيـرة على هذا المنوال. لقد ذهب من قبل للبصرة في مهمة عمل، ولقد كان مهتماً جداً بمستقبلها وقد يفكر في الهجـرة إليها إن توطدت الدعوة السلفية بصـرامة في بلده الأحساء. وأخيراً دارت أكواب الشاي الذي يقدم دون إضافة الحليب إليه، بينما يوضع السكر في الإبريق مع أوراق الشاي، ويترك الإبريق بقرب النار ليبقى الشاي ساخناً ولكنه يصيـر ذا مذاق قارض بغـيض رغم وجود السكر، ويوزع في أكـواب من زجاج. ويكون هناك إصرار عـلى ضيف الشرف بقـبول الكوب الثاني والـثالث. ثم يؤتى بالقهـوة، والبن الذي يُستخـدم في شرق البلاد يؤتى به مـن الهند، إلا في بيوت

الأغنياء الذين يحتفظون بالبن اليمني عالي الجودة للمناسبات الخاصة حيث يُقدَّمُ المشروب ذو النكهة الممتازة للضيف بكل التباهي الذي تقدم به الخمر المعتقة في إنجلترا. أما في الجنوب فإن أفقر الفقراء قد يقتنع بألا ينال من القهوة حظاً، ولكنه يشعر بالإهانة إن قدمت له قهوة معدَّةٍ من بُن غير يمني. وبقدر ما كان العرب لا يفهمون كثيراً عن الشاي ولا يقدرونه، فإن العربي خبير بفطرته بالقهوة وهي المنبِّه الوحيد إذ أن الخمور والتبغ ممنوعان، وتُقدَّم القهوة في أكواب خزفية صغيرة يبدو أن اليابانيين قد تخصصوا في صناعتها. وتُملأ الأكواب لضيوف الشرف وليس لمن يُكره من الأعداء ـ كما قرأت أنا من قبل ـ هذه على الأقل تجربتي في نجد حيث سمعت انتقادات وتسفيهاً لما يفعله أهل الحجاز من تقديم القليل من القهوة للضيوف. أما ملء الكوب لعدُوِّك كإشارةٍ ليُعجِّل بالرحيل فقد يكون ملائماً لأخلاقيات المدن الكبرى: مكَّة ودمشق، وغيرهما، ولكنها بعيدة كل البعد عن المجتمع البدوي وقانونه ـ غير المكتوب ـ عن ضيافة الأيام الثلاثة التي يلتزم بها الضيف والمضيف على حدٍ سواء، دون أن يسيء أي منهم استخدامها.

عندما نهضت لأذهب احتجزوني بطريقتهم الودودة وقال مضيفي: «تطيب يا صاحب[1]، هات الطيب يا ولد»، ولأول مرَّة شاهدت السر البسيط الذي يُعدُّ به البخور. استُخرجت من خزانة بجوار الموقد مبخرة مصنوعة من خشب الطرفاء غير المصقول ومزينة بشرائط من صفيح، ووضعت في المبخرة جمرات متقدة ووُضع عليها غُصين من نبات الصبر المعطِّر، وينفخ الجمر مرة أو اثنتين تصاعد من المبخرة دخان نحيل بصورة لولبية، وبعدها مُرِّرت المبخرة على الحاضرين من يد

(١) كلمة صاحب بدأت وبسرعة تأخذ المعنى الذي تعنيه في الهند. (المؤلف).

إلى يد وكل من تلقاها يمسك بها للحظات تحت كل من الطرفين المتدليين من غطاء الرأس، وتحت لحيته وأخيراً وقبل أن يسلمها لمن يليه يمسك بها تحت أنفه ليشمَّ عطرها بشخير يبدو طبيعياً ولكن لا يمكن تقليده على الإطلاق، وتمرر المبخرة ثلاث مرات، ويَنفُخُ المضيف فيها لإذكاء نارها كلما مرت به. وبعد انتهاء الدورات الثلاث يُمكن لمن يريد الذهاب أن ينهض مودِّعاً.

رغم أنني عُدت متأخراً للمخيم، إلا أن وجبة المساء لم تكن جاهزة بعد، فانضممت للمجموعة التي تتحلق النار. حسب علمي لم يكن أيٌّ منهم قد تناول طعاماً منذ مغادرتهم العقير ما عدا علبة اللحم البقري التي تناولوها في الليلة السابقة مع ما تبقى من الجبن والبسكويت الذي حملناه معنا للغداء، وهذا الأخير حرصت على توزيعه بنفسي بينهم دون أن أنسى الامرأتين اللتين كان تقديرهما الواضح للطعام رمزاً لامتنانهما الذي لم يفصحا عنه.

وأخيراً تمّ إنضاج الطعام، وكانت قد تمت استعارة طبق كبير من القرية للمناسبة، وفي هذا الطبق رُصَّت أطراف الشاة عالياً على رابية من الأرز الذي تم إنضاجه بالبخار، وانطلقت كما هو متوقع همهمات دعاء الشكر من كل الشفاه: «الحمدلله والشكرلله بسم الله الرحمن الرحيم» ومُدَّت اثنتا عشرة يداً يُمنى نحو الطعام، وتلقى اثنا عشر فماً قبضات من الأرز، ومن ثم جرى تهافت على الطعام كالذئاب الضارية. لم أر من قبل مثل ذلك المشهد الغريب لرجال جوعى يجلسون لتناول اللحم على الضوء المتوهج لنار المخيم. ومددت أصابعاً أوهنها طول هجر الطعام ولكنها انكمشت عند لمس الأرز الحار، وطفقت أبحث بحذر حول أطراف الطبق لمواقع أكثر برودة، بينما استعصت مفاصل الشاة الساخنة أمام محاولاتي الجبانة، في حين أن اللقيمات التي وضعها أمامي ضيوفي المتنبِّهين لما هو عليه

حالي، عرضت لساني وأعلى فمي لتجربة أليمة فوق الاحتمال. وبينما كان التهافت مستمراً: التمزيق والابتلاع بدأت أفكر وأنا أشاهد أكوام اللحم والأرز تختفي بسرعة كبيرة ما إذا كان جزء من الطعام قد ترك جانباً للامرأتين اللتين كان لهما من الأسباب ما يجعلهما بنفس القدر من الجوع مقارنة بالرجال.

الجشة ـ أبعد قاعدة أمامية في اتجاه البحر ـ قرية صغيرة جداً تقع خارج إطار شريط النخيل على سهل من الحجارة الجيرية على ارتفاع ٣٧٠ قدماً فوق سطح البحر، وسطح الأرض من حولها متحفر، حيث تقلع الحجارة منها لأغراض البناء. كلُّ المنازل مشيّدة من كتل حجارة جيرية غير منتظمة الأشكال تُلصق مع بعضها البعض باستخدام خليط من التراب والأسمنت المحلي الخشن (الجص)، أما المنازل المفضلة فهي تطلى بجصٍ من حجر جيري ناعم[١] يوجد في مواقع مختلفة حول الطرف، وهي قرية تقع داخل حزام النخيل صوب الجنوب. قرية الجشة محاطة بالكامل بالأسوار، وهي قرية مُربّعة طول ضلعها الواحد ٣٠٠ ياردة وبكلِّ جانب باب. طرُقها ضيّقة ولكنَّها نظيفة، وليس بها مبان فاخرة، ويُقام بها سوق كلَّ يوم اثنين في موقع يتوسط ساحتها، لبيع منتجات البساتين المجاورة. يبلغ تعداد القرية ٣٠٠٠ نسمة، وهي آمنة ومزدهرة ولا يخشى أهلها الجفاف في بلادهم؛ بذات الأرض الخصبة. ومنذ مغادرة الحامية التركية لا يخشون عَدُواً. بلاشك يوُجد عدد من قرى واحة الأحساء التي لم نرها والتي تشبه الجشة مثل العمران في اتِّجاه الشمال، وطرف في اتّجاه الجنوب وغيرهما.

---

(١) لا شك أن هذا الأسمنت مصنوع من الجبْس، وهو يوجد بكميات كبيرة في كل مكان في صحراء الحجارة الجيرية. (المؤلف).

في صباح اليـوم التالي واصلنا مسيرنا. كان الطريق الضـيق يجري في اتجّاه الغرب مخترقاً قلب حزام النخيل، قاطعاً تارةً تلو أخرى شبكة مُعقَّدة من المجاري المائية يُسـمع لمائها خـريرٌ عندما تصطدمُ بسيـقان النخـيل المستخـدمة كجـسور أو بالمجاري الأسمنتية أو بالسياجات المقامـة من سعف النخيل لتحدَّ جانبي البساتين. وكان الطريق يقطع بين الحين والآخـر رقاعاً خضـراء متناثرة من البرسـيم ونباتات الحبوب، وشريط من الأرز يبدو بين الفينـة والأخرى وهو يصارع للبقاء في خضمّ مستنقعات كثيرة القصب. وكانت جذوع النخيل تصطفُّ في كلِّ مكان، بينما يُظِلُّ سعفُها المنتشر وفرةً من أشجار الفاكهة والخضراوات وكثيراً من الحشائش.

على بعد ميلين من الجشة تقع قرية تتَّخـذُ شكلاً بيضاوياً تسمى الجفر، بينها وبين النخيل التي تحيط بها أرض خالية من الأشـجار، ويوجد خارج أسوارها عدد من سقيفـات الحصير على غرار ما يُقام في الأحسـاء في أيام الأسواق، منها أيضاً يشتـري ويبيع حول هذه السـقيفـات جمهور سـعيد بينمـا يُهرع إليهم من جـميع الاتجاهات سكّان القرى المجاورة مع مـا يحملون من بضائع، حيث إن يوم الإثنين هو يوم السوق في الجـفر والجشـة على حدّ سواء، والذين لا يجـدون لبضاعـتهم رواجاً في أحد الأسواق يصعب عليهم اللحاق بالسوق الآخر. جاء هؤلاء راجلين أو راكبين على الحمير أو الإبل وبضاعتهم فوق رؤوسهم أو على ظهور حيواناتهم، وكل شيء يبدو قـابلاً للتسويق: التـمر عالي الجـودة، والتمر ذو المسـتوى الأدنى الذي يسـتخـدم غذاء للأبقـار، والبرتقـال والليمـون والقرع العـسلي والبـاذنجان والبامية، والبرسـيم، والحصر وسعف النخيل وألياف النخيل؛ في حـقيقة الأمر، كل ما يخرج من بساتينهم الغنية؛ والمشتـرون في معظم الأحوال هم صغار التجار الذين يجمعون هذه الأشياء لبيعها في مراكز أكبر، لأن القرية وكلُّ رجل بها مزارعٌ

يفلحُ أرضَه بيديه أو يعملُ في بساتين أو حقول الآخرين، لن تجد من أهلها من يشتري المنتجات البستانية.

قد يبلغ تعداد الجفر ١٥٠٠ نسمة؛ أمَّا الساباط وهي قرية صغيرة جداً تقبع في وسط النخيل على بعد نصف ميل شمال الجفر فيسكنها حوالي ٤٠٠ نسمة، في حين أنَّ سكان المركز(١) التي يطلقون عليها دائماً مركز القرى لقربها من جبل القَرى قد يبلغ تعدادهم ألف نسمة. هناك قرى أخرى تقع بين البساتين على جانبي الطريق ولكنَّني لم أحصُل على أسمائها.

تقع من وراء الجفر أجمل وأعظم حدائق الأحساء إذ تحاط بكثير من العناية والرعاية، وتصطفّ بها أشجار البرتقال والليمون بخضرتها المتناهية في انتظام بين صفوف من جذوع النخيل العظيمة. أولها حديقة المرضيَّة التي كانت فيما مضى مِلكاً خالصاً للتاج العثماني، وصارت الآن ملكاً خاصاً للملك السعودي؛ وهناك بستان «أبو ليلى» والذي يخلّد اسمه قصة عشق جرت أحداثها قبل سنوات عديدة، إذ هام صاحبها السابق حبّاً بجمال حسناء من الهفوف فباعَ حقوق أبنائه في هذا البستان نظير ليلة من النعيم قضاها في الصفقة الرابحة؛ وبستان آخر لم أسجِّل اسمه يملكه أحد تجار الهفوف من الطائفة الجعفرية (٢). ويمرُّ من خلال هذه البساتين العين الرئيسة التي تسمى برابر والتي تشكّل مع عينين أخريين صلاصل والوجّاج أساس نظام الرَّي في هذا الجزء من الواحة.

يمتدُّ حزام النخيل من الشرق للغرب بطول يبلغ أربعة أميال، ولعلَّه لا يقلّ عن ضعف ذلك الطول عندما يمتد من الشمال للجنوب، وتحيط به الصحراء التي

---

(١) المركز: إحدى القرى الشرقية بالهفوف، سميت بذلك لأنها اتخذت مركزاً للجند في العهد العثماني. انظر: الجاسر، المنطقة الشرقية ج٤، ص ١٦٠٣. (المراجعون).

(٢) من الشيعة. (المؤلف).

ترتفع على الغرب منه ارتفاعاً حاداً يصل إلى أربعين أو خمسين قدماً مكوِّنةً هضبة منخفضة؛ ويقع خلفها حزام نخيل آخر في واحة الأحساء الرئيسة، على ارتفاع أعلى من تلك الهضبة. وتتكون واحة الأحساء ـ وفقاً لما لديّ من معلومات- من هاتين الواحتين[1]: الواحة الشرقية والواحة الغربية، على اختلاف بينهما في الارتفاع يفوق مئة قدم، والمسافة بينهما من نهاية الواحة الشرقية إلى بداية الواحة الغربية التي تتوسطه، تبلغ حوالي ميلين. يترك الطريق الواحة الشرقية ليرتقي الهضبة عند قرية الفضول، وهي قرية دائرية في شكلها العام، وتقع على حافّة مقلع مستهلك للحجارة الجيرية. وعلى بعد ميل واحد في اتّجاه الشمال الغربي بإزاء حافة النخيل تقع القرية الصغيرة المنيزلة، وتبدو صخور البريقاء المنحدرة المسنَّنة جليّاً في اتجاه الشمال، في حين أنَّ القارة هي أقرب إلينا موقعاً في اتّجاه الشمال الشرقي، ولكن يُخفي حزامُ النخيل نصفهَا. قد يبلغ تعداد قرية الفضول حوالي ١٠٠٠ نسمة، والمنيزلة ـ وفقاً لتقديري لعدد سكّانها من على البعد ـ حوالي نصف ذلك العدد. ويقال إن الطرفَ التي لم أرَها مطلقاً ليست أصغر من الجشة وهي كما أسلفت اشتهرت بنوعية الحجارة الجيرية الموجودة بها، وهي تقتسم مع الفضول مياه كل من وجّاج وصلاصل، بينما تعتمد القرى في الجزء الشمالي على برابر. وعلى العموم -وباعتبار أن هناك قرى أخرى غير تلك التي ذكرتها، وأن هناك سكاناً في مساكن متفرقة داخل البساتين- فإنني أقدر التعداد الكُلي للواحة الشرقية بـ ١٥ ألف نسمة، ولكن لابد أن نتذكر أن نسبة ليست باليسيرة من بساتينها يمتلكها تجار وغير تجار ممن يقيمون في الهفوف.

تقع الهفوف، وهي عاصمة الأحساء على ارتفاع ٤٧٥ قدماً فوق سطح

(١) يبدو أن هناك قرى قليلة بالإضافة إلى الواحتين، وبها نخيل أيضاً. (المؤلف).

البحر، على الطرف الجنوبي للواحـة الغربية. اتَّخذنا طريقاً اتجـه بنا غرباً مع ميلٍ يسير إلى الجنوب من الفضول بخطٍ قُطري عبر الهضبة. وبعد أن سلك بنا الطريق مسلكاً جيِّد البناء على عين الوجاج السريع الذي ينبع من عينٍ في الواحة الغربية، قابلتنا سلسلة من أبراج الحراسة على أبعاد متقاربة، وكان معظمها مهجوراً منذ أن غادر الأتراك المنطقـة، ويقف حطامهـا شاهداً على السلام والأمـن اللذين يسودان الآن، على نقيض الفوضى وفقدان سطوة الحكومة التي كانت الديدن العام في أيام الحكم التركي. كـان "الباشوات" الأتراك يركـبون من محطة لأخرى في حـراسة عسكرية، وكان القرويون يبتعدون عن الطرق العامة حيث إن حُماة الأمن ما كانوا أقلَّ جشعاً ونهباً ممن يعكرون صفو الأمن، بل كان تحاشي ضررهم أكثر صعوبة.

حثثنا الخطى قاطعين الهضبة بعـد مسيرة أربعة أميال لنصل إلى طرف الواحة الغربية حيث يقع برج الحـراسة في العويميل، وقطعنا مسافة ميل آخـر عبر بساتين النخيل المسوَّرة لنصل إلى حافة فـضاء فسيح تبدو في نهايته القبة البـيضاء العظيمة لقصـر إبراهيم باشا[(١)] التي كانت تسـمو فوق الأسقف المسطحة لمـنازل الهفوف، والتي لـم تكن بـعيـدة عن المدخل. ودلـفنا عـبر هذا المـدخل بعـد لحظات للحي الشمالي الشـرقي للمدينة ويسمى الرفيـعة وتخطيناه لنخترق موقع سـوق الخميس العـريض لنصل إلى المـكان المقـصود: الـكوت أو القلعـة وهي رئاسـة الحكومـة الإقليمية.

أقمنا بالهـفوف لمدة يومين حتى بعد ظهـر يوم ٢١ نوفمبر (تشـرين الثاني) حيث خرجنا لساحـة المخيمات قرب حصن خزام استعـداداً لرحيل مبكر في اليوم

(١) المقصود به إبراهيم بن عفيـصان - والي الإمام سعود بن عبدالعزيز - فيـما يظهر - وليس إبراهيم باشا، مع العلم أن هذا الجامع والقصر الذي يحويه كانت عمارته قديمة وتعود إلى الربع الأخير من القرن العاشر الهجري، وإنما كان دور إبراهيم هذا هو الإضافة والتجديد. (المراجعون).

التالي، ساعتئذٍ نبدأ رحلة الصحراء الطويلة التي تنتظرنا. أثناء الفترة التي قضيناها بالهفوف كانوا قد هيأوا لنا سكناً في غرف واسعة بقدر كافٍ، ولكن لم يكن بها سوى القليل من الأثاث، كانت الغرف في الطابق الأعلى في أحد المباني الكثيرة التي تكوّن (السراي)، وهذا الاسم التركي مازال مستخدماً للمكاتب الحكومية. عند وصولنا السراي استقبلنا، ونحن نترجل عن المطايا، محمد أفندي ابن علي مدير قسم الإيرادات. وبعد دقائق قليلة رحَّبَ بنا بصفةٍ رسمية، من أعلى الدرج الذي يقود إلى غرفنا، عبدالله بن جلوي بنفسه، أمير الأحساء بكاملها بما فيها القطيف والجبيل والعقير التي يشرف إشرافاً عاماً على أمرائها. يمتُّ الأمير بصلة القربى لابن سعود نفسه حيث إنه من سلالة جلوي شقيق فيصل الكبير. قادنا الأمير إلى غرفة الاستقبال الخاصة بنا حيث بقي لدقائق قليلة يتحدث إلينا حديثاً لم يخرج عن الرسميات، وغادرنا بعدها مستخدماً باباً يفصل بين المبنى الخاص ومبنى آخر مخصَّص للمقابلات الرسمية، لكنه ترك وراءه سكرتيره خليل أفندي ليوفر لنا احتياجاتنا، وهذا الأخير تركي من الصالحية بولاية الموصل وهو مثل محمد أفندي من بقايا الإدارة التركية.

استُدعينا بعد الظهر لحضرة الأمير في مقابلة رسمية؛ أخذنا خليل أفندي عبر ساحة ضيقة اصطفَّ على جانبيها خدم يرتدون زياً موحداً: بِلْش[1] في لون اللهب ذا زئبر طويل، ويتمنطقون بالسيوف، ثم دلفنا إلى قاعة طويلة بها صفوف من الكراسي والمقاعد الطويلة، نهض عبدالله من طرفها البعيد لاستقبالنا، ودارت أكواب القهوة، قدموها إليَّ في البداية بإشارة من سيدهم ولكنني استنكرت أنا أن أُخصَّ بهذا الشرف دون الأمير، فأشرت في اتجاهه ولكنه وضع بحزم حداً

(١) البلش نوع من النسيج. (المراجعون).

للمساجلة قائلاً باقتضاب: «ما أشرب»، قالها رافعاً طرف فمه إلى أعلى بطريقة ملوكية خاصة، فاستسلمت وأخذت قهوتي، وما لبث أن تبعني هو؛ وكان هذا ـ بسبب إصراره ـ هو الترتيب للشراب كلما جلسنا معاً.

كان الأمير في منتصف العمر، متوسط الطول، ليس بالبدين ولا النحيف، له لحية قصيرة لكنها سوداء بالكامل، دقيق الملامح، كئيباً في هدوء ورزانة، تعوزه روح الفكاهة، متحفظاً ورسمياً في حديثه، ويُعد في نظر العامة، من الرجال العظماء في التاريخ الحديث للجزيرة العربية. ويأتي ترتيبه في الأهمية بالبلاد السعودية ثانياً بعد سيِّده فقط. ومنذ ذلك اليوم المصيري في عام ١٩٠٠م عندما وقف بجانب ابن عمه الأصغر في تلك المغامرة اليائسة التي جعلت سلالة سعود تحافظ على ملك الرياض[١]، حافظ هو على الثقة المطلقة لابن سعود، وكان خلال الفترة التي اتسمت بالصراع المستمر والتي أعقبت إعادة السيطرة على العاصمة، اليد اليمنى لجلالته ومستشاراً موثوقاً به. تمّ تعيينه أميراً على القصيم عند استعادة الإقليم من ابن رشيد، وبقي في تلك الوظيفة الصعبة الحساسة وأبدى فيها نجاحاً واضحاً حتى تركها في عام ١٩١٤م عندما استدعاه ابن سعود ليعيد النظام وهيبة السلطة للأحساء بعد الفوضى والارتباك اللذين خلفهما الحكم التركي سيئ السمعة.

تفرض العظمة ذاتها على بعض الناس، ومن هؤلاء عبدالله، الرجل المتواضع عديم الطموح الذي لا يحنُّ لشيء حنينه لحياة الهدوء والسكينة في مسقط رأسه، ولكن مزاياه هي التي فرضت عليه هذا النفس المتصل في الطرف الأبعد عن

(١) المقصود استعادة الرياض، لكن التاريخ المذكور ١٩٠٠م ليس صحيحاً؛ حيث إن استعادة الملك عبدالعزيز الرياض كانت في يناير ١٩٠٢م (المراجعون).

مسقط رأسه حتى صار وجوده في الأحساء أمراً لابد منه، ولا يُسمح له بمفارقة موقعه للحظة واحدة، لذا فإنه أذعن للأمر الواقع ووهب نفسه عاماً بعد عام لأداء المهمة التي أوكلت إليه بإخلاص متناهٍ وضمير حي، ولكن دون حماسة، مقسماً وقته بين السلوى التي يجدها في بيته وبين اهتمامات الدولة؛ وقلما يغادر الجدران الأربعة لمبنى الكوت الذي يدير فيه الجلسات العامة التي يحق للجميع حضورها، ويستمع فيها لما يقوله رعاياه أو يتلقى تقارير عن أفعالهم الحسنة والسيئة. ويثير اسمه رعباً له ما يبرره من تخوم الكويت إلى يبرين النائية، والجافورة في الرمال الجنوبية، وتمرُّ أحكامه القضائية دون معارضة إذ أكسبته عدالته التي لا تخفق وسرعة تنفيذه لأحكامه شهرة لا تُنكر. ويدير شؤون الحكم دون خوف أو محاباة، وإن كان ما يقال عن شغب وتمرد قبائل الأحساء في الماضي صحيحاً، فالشاهد على نجاح طريقته في الحكم وجود الأمن والنظام اللذين ينعم بهما الإقليم اليوم.

كان عبدالله في أحد الأيام جالساً يستمع لمظالم الناس حين دخل شيخ فقير من أهل الهفوف، وبدأ كالعادة مخاطباً الأمير: «طوّل الله عمرك يا الأمير»، ثم قال: «لقد كنت أمشي في الطريق العام عندما جاء رجل على صهوة جواد من خلفي، ولكني لم أره فلم أُخلِ له الطريق. وعندها ـ ويا للعجب ـ ضربني بعصا ولعنني، العدالة أيها الأمير». فسأله الأمير: «ومن كان الراكب؟». فأجاب: «كان ابنك فهداً». أمر عبدالله بمن يأتي بابنه، وعندما جاء خاطب الأمير الشيخ سائلاً: «هل هذا هو الرجل الذي ضربك، وهل هذه هي العصا؟» كان رد الشيخ: «إي والله». وهنا التفت عبدالله إليه وقال له: «إذن خذ هذه العصا واضرب بها الصبي بكل ما تملك من قوة، وإلا فإنني أقسم بالله بأن هؤلاء العبيد سيضربونك بها حتى تصرخ ثانية» وهنا هوى الشيخ بإزاء أقدام الأمير يستجديه أن يصفح عن

وقاحته، متوسلاً بأن يعفيه من عار رفع يده على أحدٍ من بيت سعود. أمر عبدالله ابنه: «تعال هنا إذن وذب بشتك»[1]، ثم ألبس الشيخ عباءة ابنه بيديه وصرفه بعد أن أعطاه بعض المال.

وفي مناسبة أخرى جاء أحد القرويين يشتكي من أن أحد البدو كان ماراً بجوار رقعة تخصه من البرسيم ليس لها سياج، فأدار ناقته لترعى فيها رغم اعتراضه. تمَّ استدعاء المتهم ولكنه أنكر التهمة. قال عبدالله: «حسناً، الأمر في غاية البساطة ننحر الناقة، فإن وجدنا البرسيم في جوفها، فإنَّ الشاكي سيأخذ اللحم تعويضاً له عما لحق بمحصوله من ضرر، أما إن لم نجد شيئاً فإن الشاكي سيدفع تعويضاً للمتهم بقيمة الحيوان».

تتراكم الحكمة عبر الدهور بمثل هذه البساطة وبالمعرفة العميقة للنفس البشرية، ورغم هذا فإن حكمة سليمان تبعث على التصفيق والاستحسان أكثر مما تلهمه الآخرين لمحاكاتها. وفي الجزيرة العربية يرفض قضاة الإسلام العرف البدوي غير المدوَّن وقانونه المعتاد، ليس بناءً على ما يحتويه من محاسن أو مثالب، بل على أساس أنه نتاج للجاهلية[2]، وأنه يعارض أحكام العقيدة الصحيحة.

لفظ الأحساء يعني الحجر الجيري[3]، ويُطلق على سهل الحجر الجيري الواقع بين الصمان الجرداء والحزام الرملي الشرقي، وبخصوصية أكثر للمكان المتاخم للواحتين التوأم. ولكن يستخدم الاسم للأغراض الإدارية بطريقة فضفاضة ليضم كل المنطقة التابعة لسيطرة الأمير.

(١) انزع عباءتك. (المؤلف).

(٢) تعني الجاهلية في المنظور الإسلامي التقليدي الفترة التي سبقت ظهور النبي، ولكنها تستخدم في اصطلاح أتباع الدعوى السلفية كثيراً لتعني الفترة التي سبقت ظهور محمد بن عبدالوهاب. (المؤلف).

(٣) ورد في قاموس هارفرد أن كلمة الأحساء تعني: قاع لمياه مغطاة بالرمال. وقد توسع فيدال في دراسة معنى كلمة الأحساء. انظر: فيدال، واحة الأحساء ص ص٢١-٢٥. (المراجعون).

وتحمل القرية الغربية بمفردها الاسم الأحساء، وهي كلمة تعني الهمس أو الهمهمة. أي أصوات الأنهار التي خلقها الله لتسقي أراضي الواحات الخصبة. أما في نجد فإن كلمة "حصى" هي الاسم السائد لكل صخرة أو حجر، والاسم "حجر" لا يستعمل إلا قليلاً جداً، ويتمّ تمييز الأنواع المختلفة للصخور بألوانها وليس بالمواد التي تكونها، وهكذا فإن الجرانيت الأحمر يطلق عليه حصى أحمر، والبازلت والجرانيت الرمادي والصخور البركانية كلها حصى أسود، والحجر البازلتي الأخضر هو حصى أخضر، وهكذا. وعلى قدر ما أذكر فإنني لم أسمع مطلقا اسماً محدداً لأي من أنواع الصخور، وفي ذات الوقت فإن البدوي العادي لا يعجزه معرفة اسم أي نبات. وعندما يركب فإن عينيه لا تفارقان الأرض بحثاً عن عشب تطعمه دابته التي يركبها، وبحثاً عن آثار عدو محتمل. وعند رؤية البدوي لبقعة من أشجار أو أعشاب أو أوراق نامية فإنه يقصدها على الفور. إن كل ثروته وكل همه هو الجمل الذي يركبه لذا فإنه يسعد كثيراً إن وجد له طعاماً في حين أنه نفسه قد يكون بلا طعام.

تعد الهفوف بمنازلها التي تبلغ ٦,٠٠٠، وتعدادها الذي لا يقل كثيراً عن ٣٠,٠٠٠ نسمة، تعد دون منازع أكبر المدن التي تقع تحت سيطرة ابن سعود، وهي مستطيلة الأبعاد تقريباً ويحيط بها إحاطة كاملة سور بأطوال متفاوتة تم بناؤه من كتل الحجر الجيري المحلي وجُصص بالطين في بعض أجزائه. تمتد المدينة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي تقريباً، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام بيّنة: الكوت والرفعة والنعاثل والتي يمكن أن نضيف إليها ضاحية الصالحية. يجري بإزاء السور

الغربي سياج من بساتين النخيل، وليس للسور مدخل محدد إذ أنه مُهدَّم جزئياً وبه فتحات يستخدمها الناس لاختصار الطريق بين البساتين. أمّا الحائط الجنوبي فإن له بوابة واحدة "باب نجد" وهي المعبر لكل الحركة الداخلة إلى المدينة والخارجة منها. هناك بوّابتان في الحائط الشرقي، الأولى "باب الصالحية" في الطريق المؤدي إلى "الطرف" في الواحة الشرقية والذي يمر عبر الضاحية التي يحمل اسمها الباب، والآخر "باب الجشة" الذي دخلنا المدينة عبره كما يفعل كل القادمين من مرافئ الأحساء، وأخيراً، للحائط الشمالي بوابتان إحداهما "بوابة إبراهيم باشا" التي تقود مباشرة إلى الكوت في جوار الجامع الكبير والحصن الذي يحمل اسم المصري[(١)] الذي كان فيما مضى نائباً عن السلطان[(٢)]، والثانية "بوابة الخميس" وتقود كما يوضح الاسم إلى سوق الخميس الذي يُنصِّف المدينة طولياً حتى مركزها، كما تقود البوابة أيضاً إلى الحميدية وهي قاعة المدينة في العهد التركي والتي حُولت الآن إلى مستودع يخص بيت المال. كان في هذا المستودع أثناء زيارتنا مخزون كبير من التمر، وكان يُسمع من خلال فجوات النوافذ طنين أعداد من الدبور لا حصر لها.

سوق الخميس هو شارع ترابي عريض، بعرض ٥٠ ياردة وبطول ٢٠٠ ياردة تقريباً، يَحُدُّه من أوله لآخره من ناحية الغرب خندق مائي، إضافة لحائط الكوت المرتفع الذي يُدخل إليه من هذا الجانب عبر بوابة شديدة التحصين بها شَعْرِيَّة حديدية. وفي ركن الكوت القريب من الحميدية تقع الشرفة المحصنة التي

---

(١) تقدم التعليق من أن اسم القصر يتعلق باسم إبراهيم بن عفيصان وليس إبراهيم باشا. (المراجعون).

(٢) هذا ليس هو الذي هزم القوة السعودية، ولكنه فيما يبدو كان مندوباً عن الحاكم في الإقليم عندما كان جزءاً من السيادة العثمانية قبل نهضة الأسرة السعودية الحاكمة. لكنني لم أتمكن من الحصول على أي معلومات دقيقة عن الجامع. (المؤلف).

يمتد منها حائط عالٍ في اتجاه الغرب ليلتقي مع الحائط الخارجي للمدينة، وهكذا يصير الكوت قلعة مربعة الشكل في مدينة محصنة. يوجد في داخل الكوت، إضافة للسراي، مسكن الأمير الخاص، ومنازل المسؤولين الآخرين، وحصن، وجامع إبراهيم باشا، كما يوجد السجن وعدد من صفوف بها منازل عادية ومتاجر مختلفة. وهكذا فإن الكوت مكتمل بذاته وبه استعداد كامل لتحمل كل ما قد يطرأ من حصار، إذ أن هذا ما كانت تتطلبه الظروف في العهد التركي إزاء أخطار الداخل والخارج، وقاية للمدينة في حالة الغزو الخارجي، ومكان آمن لجنود الحامية في حالات الثورات الشعبية. ولكن الأتراك مع مقدرتهم الممتازة على التنظير، فشلوا في تأمين أنفسهم نتيجة لإهمالهم؛ وفي ذات ليلة في ربيع عام ١٩١٤م[١] أفاق حُراسهم من النوم في حال جعل مقاومتهم عديمة الجدوى إزاء مهاجميهم، حيث قام مئة من الفدائيين السعوديين، الذين كانوا قد أمضوا وقتاً في الأنحاء دون أن يكتشف وجودهم أحد، قاموا بدفع الضباط والجنود المذعورين أمامهم، وبحلول الفجر كان كلُّ المبنى تحت قبضتهم، ما عدا جامع إبراهيم باشا الذي احتمى به القائد وبعض ضباطه مع عائلاتهم، كما لجأ إليه بعض من نجا من جنود الحامية إثر أحداث الليلة المربكة؛ تجمع هؤلاء لمقاومة المهاجمين. أمّا أهل الهفوف الذين لم يكن هناك سبب يدعوهم للتمسك بحكم الأتراك، وكذلك لم يكن لديهم الدافع بالقدر نفسه للتطلع للحكم السعودي[٢]، فلقد بقوا على الحياد. فُتحت بوابات المدينة والكوت لابن سعود صباح اليوم التالي بواسطة رجاله الذين تصرفوا خلال الأحداث بطريقتهم المميزة. وتم بسرعة دفع لغم تحت أرضية

(١) هذا التاريخ يشير إلى استعادة الملك عبدالعزيز الأحساء، لكن التاريخ المذكور ليس صحيحاً لأن استسلام الحامية العثمانية كان في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٣١هـ الموافق ٤ مايو ١٩١٣م. (المراجعون).

(٢) الصحيح وكما هو مدون في التواريخ المحلية التي أرخت لهذه الأحداث أن فرحة أهل الأحساء بدخول الملك عبدالعزيز ورجاله إلى منطقتهم كانت ظاهرة، بل إنها تمت بطلب منهم وليس إلى ما يذهب إليه المؤلف هنا وجه حق. (المراجعون).

الحامية، وتم تجميع كل ما حصلوا عليه من المسحوق الحارق ووضع في المكان المناسب للتفجير، ثمَّ تلقى القائد المتحصن إنذاراً مهذباً يعطيه مهلة للاستسلام، ولم يتردد القائد كثيراً في اتخاذ قراره إزاء الخيارين: إما الاستسلام غير المشروط أو الموت المفاجئ.

وهكذا صار ابن سعود سيّداً على الأحساء دون إراقة قطرة دم واحدة، وغادرت الحامية التركية البلاد دون أن يتحرش بها أحد، ولكنها ذهبت في حراسة حتى الساحل حيث استقل أفرادها باخرة ذهبت بهم للبحرين، واستسلمت حاميتا القطيف والعقير دون مقاومة وتلقتا نفس المعاملة، وزالت نهائياً الآثار الأخيرة للحكم التركي في أقاليم ساحل الخليج بالجزيرة العربية.

يبدو سوق الخميس مهجوراً في كل الأيام ما عدا يوم الخميس الذي تنصب فيه السقائف المصنوعة من الحصير في صفوف منتظمة، ويأتي إليه آلاف البائعين والمشترين. تتم المعاملات التجارية السريعة في التمر والمنتجات الزراعية المختلفة واللحوم، وأفخاذ الإبل الحمراء، وأعداد من الماعز والضأن حيث إن اللحم يؤكل في كل المنازل ـ عدا الفقراء ـ يوم الجمعة وهو يوم الصلاة الجامعة؛ يقوم بالبيع والشراء أرباب المنازل أنفسهم، ليست هناك أسعار محددة إذ تتم كل المعاملات بالمساومة والتراضي، ولا يتم شراء الضأن والماعز إلا بعد أن تقوم الأيدي المدربة بتحسسها وتقييمها.

تقع القيصرية شرق السوق، وهي شبكة من الممرات المعروشة أو غير المغطاة، وتقع فيها المتاجر الدائمة والبقالات، كما يؤمها بائعو الحاجيات النسائية والسلع الصغيرة؛ وتجار القماش؛ وبائعو السجاد؛ ومصنعو الأدوات المعدنية؛ وصانعو الأدوات الخاصة بالخيول؛ والمتعاملون في العملات وغيرهم. تكون هذه

الممرات مزدحمة طوال الوقت ـ باستثناء أوقات الصلاة ـ برجال المدينة والبدو الذين يبحثون عن الأسعار الجيدة والمتطلعون للشراء وبحوزتهم المال الذي يريدون أن ينفقوه. وتوجد في هذا السوق بصورة كبيرة بضائع من الهند، إضافة لبعض المنتجات المحلية من الأشياء المعدنية أو الخشبية أو الحديدية، وأباريق القهوة وحقائب السروج وإطارات السروج والمباخر والأحذية الخفيفة، وأخيراً، وليس آخراً، العباءات السوداء الموشاة أطرافها بالخيط الفضي أو الذهبي. التي اشتُهرت بها الأحساء. وباستثناء هذه السلعة الأخيرة لا يبدو أن بالسوق أشياء ذات مزية خاصة. كانت الأسعار متأرجحة، ولكنها كانت عالية على العموم.

أما سكان حي الرفعة الذي يضم القيصرية ويشغل كل الجانب الشرقي للمدينة، فقد كانوا من التجار وغيرهم. وكانت المباني ذات مظهر وسط من الخارج حيث إنها من الحجر الجيري المجصص بالطين، ولكنها بلا شك منمقة من الداخل بقدر ما يمتلك أصحابها من مال. ومن سوء الطالع أن الفرصة لم تسنح لنا ـ لقصر الفترة التي قضيناها ـ لرؤية أي من المنازل من الداخل باستثناء السراي.

يحتلُّ حي الكوت وحي الرفعة معاً ثلاثة أخماس المدينة، وما تبقى منها، أو القسم الجنوبي الغربي كان حي النعاثل أو الحي الفقير. الطرق في هذا الحي ضيقة وأقل انتظاماً مقارنة بالأحياء الأخرى، والمنازل أقل جمالاً إذ أنها غير مجصصة، وعلاوة على ذلك فإن بعضها مهدم. ويفصل طريق ضيق هذا الحي من الرفعة، وهو الطريق الذي يمتد من الحميدية إلى ميدان يُسمى القرين في واجهة باب نجد.

تقع ضاحية الصالحية خارج السور في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة، وهي ضاحية حديثة الإنشاء نسبياً، وتأخذ اسمها من حصن أنشأه الأتراك لحماية المدينة من هذا الجانب، كان معظم سكانها في السابق من الضباط والمسؤولين

الأتراك وعائلاتهم ممن ضاقت الكوت المزدحمة عن توفير سكن مناسب لهم. كان محمد أفندي والسكرتير خليل وقليل آخرون هم الباقين من سدنة النظام القديم، وهم الآن يخدمون سيدهم الجديد بنفس القدر من الحماسة والإخلاص التي كانت ديدنهم في الأيام الخالية، في حين ذهب الباقون. وكانت الشريعة الإسلامية السمحاء تسمح لمن تخلفوا باتخاذ الزوجات والذرية[1]، فأضاءوا لهم الحياة أثناء إقامتهم الطويلة الموحشة بعيداً جداً عن أوطانهم.

إدارة المدينة العربية غاية في البساطة حيث لا توجد خدمات تعليمية ولا اهتمام بالصحة العامة، ولا إضاءة، ولذلك ليست هناك مصاريف عامة، وبالمقابل ليست هناك ضرائب، عدا ما يمكننا تسميته "بالضرائب الملكية" وفي هذا المجال فإن الأحساء هي مصدر الرخاء للدولة السعودية إذ أنها الإقليم الوحيد ـ باستثناء إقليم القصيم الذي يأتي تالياً لها ـ الذي يرسل إلى الخزينة العامة فائضاً كبيراً من هذا العائد، بعد خصم المصاريف الإدارية المحلية. تأتي هذه الإيرادات من الرسوم الجمركية ومن الزكاة، ومقدار الزكاة هو عُشر[2] الناتج الإجمالي من كل المنتجات الرئيسة مثل التمر والقمح والأرز، وحصيلتها السنوية تبلغ حوالي ٦٠٠ ألف ريال، بينما تُعفى المزروعات الأخرى مثل الفاكهة والخضر والأعلاف وما إليها من هذه الزكاة وهي أيضاً معفاة من قيمة الاستئجار عند استغلال أرض النتاج (الأرض التابعة للدولة).

---

(١) لعل قصد المؤلف أن الدين الإسلامي يسمح بتعدد الزوجات لدواع مشروعة؛ منها ما ذكره المؤلف. (المراجعون).

(٢) الزكاة الشرعية للزروع هي العُشر لما سُقي بلا مؤونة (من مياه الأمطار وما شابهها) ونصف العُشر لما سقي بمؤونة (عن طريق المكائن أو السواني أو غيرها) وكل ذلك مفصل في مكانه من كتب الفقه. (المراجعون).

ورغم أن هذا النظام لا يتبع أسساً علمية في التصنيف[١] ولكنه على الأقل يتميز بتشجيعه للمزارعين لزيادة حيازاتهم من الأراضي الزراعية وبالتالي لزيادة الإنتاج لتوفير حاجة السوق. ورغم ما لهذا النظام من مزيَّة تحفيز الإنتاج إلا أنه أداة غير عادلة، كان الأتراك يطبقونها أيضاً في بعض أجزاء بلاد ما بين الرافدين. خذ مثلاً أراضي النخيل التي تُصنَّف كأرض "خراب"[٢] وهي خالية من المحاصيل المساعدة، فإن الضريبة عليها عالية إذا ما قورنت بالأرض "العمار"[٣] التي تشمل البساتين التي تحتوي على أشجار الفاكهة والخضراوات إضافة للنخيل. ولكن هناك بعض التعويض عما تفقده الخزينة من عائدات، إذ أن هناك ضريبة خضراوات، وهي ليست على كل ما يُزرع منها ولكن على ما يرد منها لأسواق المدن فقط. إنَّ هدف تشجيع إنتاج الخضر هدف ممتاز ولكن أحسن النوايا لا يمكنها أن تصلح السياسات الخاطئة، ثم إن حالة المزارع "الخراب" تزداد سوءاً مع الأيام. إضافة لمصادر الدخل المذكورة فإن هناك ضريبة قدرها دولار واحد على كل رأس من الإبل يدخل مدينة الهفوف، وكذلك فإن أصحاب سقيفات السوق التي تُنصب في يوم السوق أو في غيره من الأيام يدفعون عنها رسماً شهرياً قدره دولار واحد للسقيفة.

تقع مسؤولية جمع الزكاة على عاتق محمد أفندي وهو من مواطني الموصل، وخدم لمدة ثلاثين عاماً تحت الإدارة التركية، ثم آثرَ أن يبقى في وظيفته

(١) يبدو أن المؤلف يجهل كثيراً تنظيم الإسلام للمدخلات والمخرجات الزراعية، وهذا الموضوع مذكور بالتفصيل في كتب الفقه، وكتب الاقتصاد الإسلامي أيضاً. (المراجعون).

(٢) أرض غير مزروعة. (المؤلف).

(٣) أرض مزروعة. (المؤلف).

بعد جلاء الأتراك عن الأحساء، ويتقاضى راتباً شهرياً قدره مائتا دولار، إضافة للمنح التي يضيفها لحسابه، فليست هناك محاسبة، إن كان كشف الحساب الذي يُقدّم مقبولاً في ظاهره، وطالما أن أموالاً كثيرة تُرسل إلى الرياض على فترات زمنية غير منتظمة. إن النظام المتبع في التقييم السنوي للإنتاج الزراعي يعطي صلاحيات واسعة لمن يقوم بالتقييم، ولقد أسرَّ لي بعض الناس في الرياض أن ما يُقدَّم من بيانات في هذا الشأن لن يستطيع أن يصمد أمام تحقيق قضائي متخصص. يقوم ابن سعود بنفسه بأعباء وزير المالية، وفي هذا الإطار يقوم بمراجعة مصاريف خزينته بكل تفاصيلها، ورغماً عن هذا فإنه - فيما يبدو - لم يخطر له على بال أن خزينته كانت ستمتلئ بدرجة أكبر إن أصبح إداريو التحصيل تحت رقابة لصيقة متخصصة. إن خبايا مالية الأحساء يتكتم عليها بحرص شديد كل من محمد أفندي ونائبه خليل اللذين سيتسبب إبعادهما - إن حدث - عن هذا المكتب في نشوء فوضى مالية تستمر حيناً من الدهر. يتم تقدير الزكاة عيناً ولكنها تُدفع إما عيناً أو نقداً، وتقع مسؤولية جمع المستحق على الأهالي في كل قرية على عاتق أميرها، وهكذا يتجنب القرويون الكابوس المتمثل في حضور وحدات رسمية لتقوم بجمع هذه المستحقات، وحتى عمليات تقييم المحاصيل تقع على عاتق سلطات القرية مع خضوعها للمراجعة بأمر المدير.

على بُعد ثلاثة أو أربعة أميال في الاتجاه الشمالي الغربي للهفوف تقع المدينة الأخت المبرَّز، وتعداد السكان بها حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة. ولكن ليس لها شيء من رونق العاصمة، حيث إن طرقها ضيقة ومتعرجة. ومنازلها كما هو متوقع من الحجر الجيري بيد أنها ليست عالية وليست مجصصة، والأسوار التي تحيط بالمدينة

خالية من الحصـون، وما البوابات إلا فتحات لا معـالم لها؛ وتوجد بوابة في كل من الجهات الأربع، يوجد في واجهة البوابة الشـرقية ميدان متواضع، ويقع بطوال إحدى واجهات هذا الميدان منزل الأمير محـمد بن ثنيان الذي نزلت ضيفاً عليه في إحدى زياراتي لمدينتـه من الهفوف؛ عندمـا علم بزيارتي خرج من منزله متـمنطقاً سيفه ومُـحاطاً بعدد قليل من أتباعه، وقادني إلى المقعـد الطيني المغطى بالحصير، والذي يتصل بالحائـط ويُستخدم كمـقعد له عندما يجلس للقـضاء خارج الدار في مجلسه اليومي. ودارت أكواب الشاي والقهـوة على الجمع الصغير من أهل القرية الذين أتوا لرؤية الغريب. الأمـير محمـد بن ثنيان من أهل المدينة نفسهـا ويخضع أداؤه لإشراف الأمير عبدالله.

لم أجد وقتـاً لزيارة قرى الواحة الغربـية؛ ومن ضمن هذه القرى: الرُّقَـيقةَ التي تقع على بعد ميلين جنوب غرب الهفـوف، والشهارين في اتجاه الشمال على الحدود الشرقـية للواحة، ولقد رأيتـهما من مسـافة ليست بالبعـيدة، وعرفت من القرى الأخرى بعض الأسماء فقط[1]، ولكن يمكننا أن نقدّر أن التعداد الكلي لهذه القرى الناثية من هذا الجـانب لا تتعدى ١٠,٠٠٠ نسمة، مما يجـعل تعداد القرى الغربيـة ٦٠,٠٠٠ نسمة، وتعـداد كل الأحساء ٧٥,٠٠٠ نسـمة. لم تسنح لي الفـرصة لأزور أو أقـدر تعداد القطيف والجـبيل الذي لا أظن أنه يقل كـثيـراً عن ٢٥,٠٠٠ نسمة؛ وإن كـانت هذه الأعداد التقديرية قريبة من الصـواب فإن جلاء الأتراك عن الأحساء قد أضاف ١٠٠,٠٠٠ نسمة لتعداد البلاد السعودية.

(١) منها العيون والكلابية. (المؤلف).

تتمثل ثروة الأحساء في عيون المياه المعدنية والجداول الجارية والماء الوفير. ومنازل الهفوف التي لا تنعم بترف امتلاك بئر خاص قليلة، حيث إن الماء فيها على عمقٍ بين اثني عشر وعشرين قدماً، ولكن المياه تتفاوت عذوبتها حيث أن آبار أحياء الكوت والنعاثل عذبة، بينما نجد أن مياه معظم الآبار في الرفاع، وكل آبار الصالحية ذات مذاق مالح قليلاً؛ وتنبع الجداول التي تعتمد عليها كل بساتين الواحتين من عدد من العيون المنتشرة في الواحة الغربية، وتسيل في مجارٍ مكشوفة متتابعة الانحدار الطبيعي من الغرب إلى الشرق. ويتدفق الماء بوفرة طوال العام. ولكن طرق الري عديمة الجدوى وغياب أي نظام لضبط العمليات الزراعية والزراعة المتعاقبة في ذات الرقعة أنهكت التربة، وتشهد على هذه المأساة النخيل المتهالكة التي نجدها هنا أو هناك في الأرض "السبخة" أو في البستان. يصل عدد المصادر التي تستمد منها جداول الأحساء مياهها ـ حسب علمي ـ إلى عشرة، وهناك مصادر أخرى ولكنها ليست ذات جدوى من الناحية العملية، إذ نجد فيض الماء ينبثق من بين فتحات صغيرة بين الصخور، وهي تعزى توهمًا في اعتقاد العامة لسقوط النجوم. وأهمها فيض ماء كبريتي يسمى عين نجم، ويقع في تل صغير يحمل الاسم نفسه شمال المبرز.

أما الينابيع العظيمة فهي ما يلي:

١ ـ الينبوع الحار أو (عين الحارة) التي يتدفق منها الماء الساخن ليكوّن بحيرة كبيرة دافئة المياه تنتشر منها الجداول في اتجاهات مختلفة نحو بساتين النخيل حول المبرز[1]. تقع البحيرة على بعد ميل واحد شمال المدينة وتمتد ٤٠٠ ياردة طولاً

(١) وأيضاً ـ حسب اعتقادي ـ في الاتجاه المعاكس نحو واحة تسمي العيون، بيد أنني ما رأيت الجدول ولا الواحة بنفسي. (المؤلف).

و ١٠٠ ياردة عرضاً، وتوجد في حافتها رقاع النخيل وبئر واحدة أو اثنتين وبقايا بعض المساكن المهجورة. وهي من المواقع الجميلة في الإقليم ويقصدها الرجال والنساء للاستحمام، وفقاً للعادة فإن النساء يذهبن للطرف القصيّ من البحيرة حيث أن الصخور العالية وظلال إحدى بساتين النخيل توفر لهن بعض الخصوصية؛ ورغم أن الماء ساخن قريب الينبوع ودافئ في بقية البحيرة إلا أنه عديم الطعم وهو ـ وفق ما أستطيع تأكيده ـ لا ضرر منه على الإنسان.

٢- عين الخدود.

٣ ـ عين الحقل والمسافة بينهما ربع ميل، ويقعان في حزام نخيل على بعد ميل ونصف شرق الهفوف؛ وينبع كل منهما من قاعدة رملية لبركة صغيرة، ويمتد من كل بركة مجرى في اتجاه الجنوب حتى يلتقيا ليكوّنا بعدها نهر سليسل الذي ذكرناه آنفاً كأحد الأنهار التي تسقي الواحة الشرقية، وهذه البرك تحيط بها الأعشاب الوفيرة وتُزرع الرقاع المتصلة بها بالأرز، ثمّ إن مياهها دافئة أيضاً وذات لون أخضر جميل شفاف، بيد أن أطراف البركة منجرفة بفعل حركة المياه المتصلة.

٤ ـ عين أم الجمل، وهذا نبع صغير يقع بجوار الخدود، ويسقي عدداً قليلاً من حقول الأرز الواقعة بالقرب منه.

٥ ـ عين أم خريسان، وهذا يقع في مكان بالقرب من المبرز، ويجري محاذياً لطريق الهفوف، ويُعتقد أن لمياهه خصائص كيميائية غريبة إذ أنها لا تؤثر على الأصباغ الطبيعية ولكنها تُتلف دون استثناء الأصباغ الصناعية المقلدة، وتُجرَّب عباءات الأحساء السوداء بغمسها في هذا النهر. واستناداً على سواد لون مياهه، فلا بد أنه قد أنقذ كثيراً ممن كانوا سيشترون عباءات رديئة الصبغة.

٦ ـ المطيرفي.

٧ ـ جليجلة.

٨ ـ الجوهرية، يسقي الأولان قرى بذات الأسماء، بينما يسقي الثالث بساتين النخيل التي تعرف باسم البطالية بالقرب من الهفوف، ولم تسنح لي الفرصة لزيارة أي من هذه الينابيع. وأخيراً.

٩ ـ الوجاج.

١٠ ـ برابر، ولم أزر منابعهما اللذين يقعان حسب اعتقادي في مكان ما في الطرف الشمالي للقرى الغربية.

يتكون الكوت أو قلعة الهفوف كما أسلفت من وحدة مستقلة بها كل احتياجاتها، بوابتها إلى الخارج هي البوابة الشمالية، ولبقية المدينة بوابة ذات أبعاد ضخمة في الحائط المتاخم لسوق الخميس. توجد إلى الداخل من هذه البوابة برحة فسيحة أو أرض للمخيمات ويقف في أحد جوانبها، بجوار البوابة مبنى يشبه الحصن يستخدم بكامله الآن ـ كما أخبروني ـ كسجن. وعلى الجانب الآخر توجد القلعة الداخلية وهي حصن ضخم الحائط ويقوم في وسطه جامع إبراهيم باشا البديع الذي جمعت قُبته العظيمة ومئذنته المهيبة بين المعالم الرئيسة لفن العمارة البيزنطية والمعمار العربي الإسلامي، مما يجعل الجامع أجمل مبنى بلا استثناء في وسط وشرق الجزيرة العربية على إطلاقها.

كنّا بطبيعة الحال مهتمين جداً بفحص هذا الشيء الجميل من مواقع في الأحياء الأقرب إليه، وليس من سطح غرفتنا أو الأماكن الأخرى البعيدة عنه، لم تكن زيارتنا للجامع هي اهتمامنا الوحيد، ولكنّا رأينا أنه من المهم جداً أن نحصل على معلومات مباشرة عن الموجودات العسكرية التي أكد لنا خليل أفندي في لحظة تخلّى فيها عن الحذر عن أنها مخزنة هناك، وضمنُها ـ في أغلب الظن ـ المدافع الرشاشة التي قدمتها الحكومة البريطانية لابن سعود بمناسبة زيارته للبصرة في العام

السابق[1]، على أمل أن يستخدمها ضد ابن رشيد. وبعد قليل وضح لنا جلياً أن مضيفنا لم يكن يخشى كثيراً أن يعرض علينا كل مصادره الحربية. ورغم أنه أجاب عن اقتراحي الذي قدمته في البداية بعدم الممانعة «ما يخالف»، إلا أنني عندما طلبت من خليل أفندي ترتيب الزيارة للقلعة استنتجت أن سيِّده كان قد أوعز إليه أن يثنيني عن هذا الاقتراح إن وجد إلى ذلك سبيلاً. ولكنني كنت قد عقدت العزم على أن أرى الاثنين كليهما: الموجودات العسكرية والقلعة من الداخل. وأخيراً أثمر إلحاحي موافقةً، وأُعدت العدّة لهذه الزيارة. وفي طريقنا للحصن توقفنا قليلاً في "البرحة" التي أُفرد جزء منها ليصير إسطبلاً غير مغطى للخيول، فرأينا حوالي عشرين أو أكثر من الخيول العربية التي تخص الأمير، وكان بعضها من أجود الخيول، ثم تحركنا عبر أرض المخيمات إلى بوابة الحصن حيث استقبلنا رسمياً سليمان الحريقي القائد العسكري مع جزء من جند الحامية المحلية، حوالي خمسين منتظمين في ملابس بيضاء ناصعة ومسلحين ببنادق حديثة جيدة.

كانت كل القوة العسكرية الموجودة تحت إمرة عبدالله بن جلوي لحماية المحطات مثل العقير والقطيف والجبيل والأحساء نفسها؛ ولا تزيد هذه القوة -على أرجح الاحتمالات- على ٥٠٠ إلى ٦٠٠ رجل نصفهم تقريباً مقيمين في العاصمة. وقادنا القائد الآن حول الحصن، وكانت هناك بطول المتراس وعلى أبعاد متساوية حوالي سبعة عشر مدفعاً كبيراً من نوع بدائي عتيق، كلٌّ منها بجوار كُوَّةٍ في الجدار تستخدم لإطلاق نيران المدفع، وكانت كل المدافع بلا عربات، ولا فائدة منها على الإطلاق. كانت الذخيرة الحديثة والبنادق الصالحة للاستخدام مخزونة في غرف في الطابق الأسفل، وكذلك المدافع الرشاشة التي تم استلامها مؤخراً من الحكومة البريطانية، وعدداً من المدافع التي تطلق قذائف زنة سبعة أرطال، تم

(١) أي عام ١٩١٦م (١٣٣٥هـ). (المراجعون).

الاستيلاء عليها من الحامية التركية الأخيرة. كانت ثلاثة من المدافع الرشاشة الأولى مازالت في صناديق التعبئة التي أرسلت فيها وأُخرج من قبل مدفع واحد للمعاينة وقد يكون للاستخدام من وقت لآخر؛ ولكن المشكلة الحقيقية وخيبة الأمل الكبرى كانت في أن الرجال الأربعة الذين تم تدريبهم بواسطة السلطات العسكرية البريطانية في البصرة على استخدام مثل هذه المدافع الرشاشة قبل عام واحد قد تُوفي ثلاثة منهم، وكان رابعهم المتبقي على قيد الحياة: المسمى حسين قد نسي فيما يبدو معظم ما تعلمه هناك، لكل هذا لم يكن انطباعنا عن القوة العسكرية بالهفوف جيداً. ولابد أن أعترف أنه رغم اعتقادي في وقت مضى أن جنود ابن سعود قد يكونوا قادرين على الاستفادة الجيّدة من البنادق إن توفرت لهم، إلا أن تجربتي اللاحقة مع جيشه والنتائج المؤسفة التي حققتها مدفعية الشريف أثناء المراحل المختلفة للمناوشات حول الخرمة قادني لأن أؤمن بأن الجيش العربي ذو فعالية أكبر في غياب المدفعية وليس في وجودها. بعد معاينة تحصينات الحصن ذهبنا للقبة العظيمة التي تم تعديلها من الداخل فيما يبدو لتصبح ثكنة، كانت أرضيتها عارية من كل شيء سوى بعض الفُرُش المطوية الخاصة بالجند، بينما تدلت من أعلى القبة بسلاسل يبدو أنها كانت تستخدم في أوقات سابقة لتحمل المصابيح المعلقة أو "الشمعدانات". كانت زيارتنا ذات صبغة رسمية للحد الذي لم يسمح لي بأخذ قياسات أو أطوال القبة، وكان عليَّ أن اكتفي بأخذ صورة فوتوغرافية للقائد ونائبه الأول أمام بياضها الباهر الممتد.

الفصل الثاني

الصحراء الشرقية

١- الحزام

لقد كانت أيام إقامتنا في الهفوف مبهجة مُسرّة، ولكنها كانت قليلة جداً. كنّا في معية خليل أفندي وعدد قليل من التابعين الأوفياء المتمنطقين بالسيوف من حرس الأمير، وكنا أحراراً نتجول حيث نريد، تارة مشياً على الأقدام في تخوم المدينة وتارة أخرى على ظهور الخيل، إن سعينا لبلوغ حقل بعيد، حيث إن الأمير عبدالله وضع كل جياد الإسطبل الخاص به تحت تصرفنا، رغم هذا كان مظهرنا كأجانب معوّقاً خطيراً طوال الوقت لحرية حركتنا ومصدراً واضحاً لحرج كثير لمرافقينا؛ كانت الجموع تتجمهر عند توقفنا قليلاً أثناء سيرنا في المتاجر وكان الأطفال يترسمون خطانا في جماعات ويُهرعون من حولنا للتحديق بنا من أركان الطرق، وكل هذا لم يكن يتم في صمت طوال الوقت. كان مرافقنا عبدالله يُمطر الشباب غير المهذبين باللعنات والتوعد، ويحاول التوجه نحو السكن بطرق غير مطروقة كثيراً، بينما كانت رغبتنا الوحيدة هي التجول في أماكن الزحام لأطول فترة ممكنة. كان أسوأ ما نفعله نظرهم هو انتعالنا للأحذية الطويلة كاشفين لرؤوسنا في حضرة الأمير نفسه، إذ أن هذا التصرف فيه عدم توقير لشخص ذي مهابة وجلال. نحن لازلنا على مشارف البلاد السعودية وبين أناس ليسوا بجاهلين، لذلك قد يتحملون تقلبات وأهواء الشريرين غير الأتقياء من أمثالنا، ولكن ما أحدثناه من اضطراب هنا أنذرنا بما يمكن أن نلاقيه في المستقبل، وكانت نصيحة محمد وخليل قد أكّدت لي مَا اقتنعت به من أننا لن نجني سوى القليل إن أصررنا على تأكيد حاجز القومية والدين الذي يفصلنا عن أهل هذا البلد. وقررنا تبعاً لذلك ـ ولقد كان قراراً صائباً دون أدنى شك ـ أن نتخذ من لباس أهل البلاد لباساً لنا منذ اللحظة التي نفارق فيها الهفوف.

في هذه الأثناء كانت كل الترتيبات قد أُعدّت للرحلة التي تنتظرنا، بعد ظهر اليوم الحادي والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) انطلقت قافلة من الإبل في خطٍ طويل متخذة طريقها عبر سوق الخميس، مروراً بالطريق الذي يفصل أحياء الرفاع والنعاثل نحو باب نجد الذي استدرنا منه قليلاً في اتجاه الجنوب الغربي نحو حصن الخزام المربع. وكان علينا أن نبقى هنا للمبيت لنتمكن من سقيا الإبل للمرة الأخيرة عند فجر اليوم التالي، وللتأكد من أن كل شيء معد إعداداً جيداً قبل ولوج الصحراء. في حقيقة الأمر لم يكن كل شيء مرتّباً، لقد كانوا جميعاً يعرفون ذلك باستثنائنا، ولكن هذه كانت تجربتنا الأولى "للتبريز"[1] أو "التمرين" وهي بداية غير حقيقية للرحلة ومن دونها لا يذهب أي عربي في رحلة، أو يحقق واحدة بنجاح، حيث إنه في اهتياج المدينة وصخبها يفقد العربي كل مقدرته على التفكير الحقيقي المتزن، ويُمضي الوقت في شرب القهوة أو ـ إن كان من أهل المكان ـ يُمضي بين "حريمه" الوقت الذي ينبغي أن يُكرس للإعداد لمغامرة الغد، وهكذا فإن الغد يأتي ليجد أنه غير متأهب: حقائب السروج فارغة وقرب الماء مسرّبة، لذا فإنه يعتمد على ليل اليوم التالي لاسترداد ما خسره نتيجة لعدم التفكير.

لم نكن قد سرنا سوى ميلين فقط من الكوت، وبقي خليل أفندي الذي رافقنا حتى هذه النقطة منتظراً حينما كانت الخيام تُنصب وأمتعتنا تفرز من أجل تفتيش أخير، وهو ما أظهر نقصاً في قرب الماء وبعض النواقص الأخرى، وعندها غادرنا خليل أفندي لإحضار النواقص مع وعدٍ بأن يرجع إلينا عند الفجر؛ وتسلّل

(١) الاسم (مبرِّز) مشتق من نفس المصدر دالاً على احتمال أنّ المدينة الحالية لم تكن سوى موقع للسقيا للقوافل المغادرة للهفوف. (المؤلف).

بقية أفراد المجموعة بهذا العذر أو ذاك، معظمهم ليعودوا إلى منازلهم في المدينة لقضاء الليلة الأخيرة مع عائلاتهم، وتركونا مع الإبل والمتاع.

اهتبلنا فرصة الزمن المتبقّي قبل غروب الشمس فقمنا بزيارة الحصن الذي وجدنا في حراسته حامية قوامها عشرون جنديّاً جميعهم مسلحون ببنادق جيدة من أنواع حديثة، تحت إمرة قائد قمنا في معّيته بزيارة للداخل. وجدنا على المتراس وعلى أبعاد غير منتظمة وبفوهات متّجهة إلى الخارج من خلال فتحات في الحائط السميك، عشرة مدافع بدائية عتيقة دون عربات تحملها ودون تثبيت لها من أي نوع، لابدّ أن تاريخها يرجع على الأقل للغزو المصري في عام ١٨١٨م، ويبدو أنها لم تستخدم منذ ذلك التاريخ. ومن أحد الأبراج أطلعنا على منظر جميل لما يحيط بالموقع: بساتين الأحساء من خلفنا والصحراء من حولنا موسومة بروابٍ وتلال من ناحية الغرب حتى الأفق.

عند عودتنا للمعسكر شغلتنا أنفسنا بإكمال الاستعدادات لرحلة الغد، وبمساعدة القليل من الرجال الذين بقوا معنا والذين أبدوا كثيراً من الاهتمام والسرور بما نقوم به، شرعنا في تغيير مظهرنا لنصبح شبيهين بالعرب. إنّ عباءات الجزيرة العربية المصممة من أجل الراحة والوقار لا تختلف كثيراً عن عباءات بلاد الرافدين. أمّا الطربوش (Fez) وبقية الأشياء التي يصطنعونها في العباءات محاكاةً لأهل المدن في العراق فهي فوق طاقة الكثيرين، وقد تُرى من وقت لآخر في خصوصية المنازل، يَدّعى بها بعض أهل الأحساء والقصيم الأناقة. أما غطاء الرأس الثقيل الخاص بميزوبوتاميا فهو نادر الوجود في أيّ مكان بالجزيرة العربية باستثناء القصيم؛ وليست هناك اختلافات أخرى فيما تبقّى. أمّا الدشداشة أو الثوب الكتّاني الطويل فهو يُلبس من الداخل ومعه السروال الكتّاني الفضفاض الذي

يضيق لدى الخصر باستخدام شريط أو خيط يُشدُّ من خلال الحاشية، ويكون طرف السروال الأدنى ضيقاً جداً بحيث لا يسمح بمرور أخمص قدم أوربية عادية. وفوق هذه الملابس يُرتدى الثوب وهو قميص فوقي ولكنه طويل وفضفاض وبأكمام طويلة؛ وفوق الثوب يأتي الزبون أو الكوت وعادة يكون لونها في الغالب ذا بريق، وتصل أو تتعدّى حدود الركبة؛ وفوق كلّ هذا تُلبس العباءة -تسميً عباءة في ميزوبوتاميا، ولكن في العادة تسمّى بشت في الجزيرة العربية- وهي في الغالب سوداء أو بنيّة اللون مع تطريز من الخيط الذهبي أو الفضيّ. ويلبس على الرأس غترة وهي بيضاء اللون أو حمراء وبيضاء، وتثبّتها على الرأس عصابة بسيطة مصنوعة من الصوف الأسود أو الأبيض بعرض بوصة واحدة، وهي مضغوطة قليلاً ولكنها ليست مفتولة، وتُلبس في دائرتين؛ ويكمّل الزِّي الصندلُ في القدمين.

أمّا الطبقات الفقيرة التي تضمّ معظم البدو فهم لا يلبسون في العادة سوى دشداشة أو ثوب إضافةً للبشت إن كانت لهم القدرة على ذلك حماية من البرد أو في المناسبات الخاصة التي يزورون فيها المدينة؛ أما غطاء الرأس الذي لا يكون في أغلب الأحيان سوى قطعة قماش متسخة فإنه لا غنى لهم عنه.

يطوّق العربي خصره فوق "الزبون" بحزام جلدي ويثبته بشرائط تمر بالكتف، وفي هذا الحزام يُقحم الجنبية من يمتلكها، وهي خنجر صغير معقوف، بينما تتدلى البندقية من الخلف في وضع طولي لسرج المطيَّة، وترمى العباءة إلى الخلف في العادة أثناء الركوب ولكنها تكون قريبة طوال الوقت تحسباً للحاجة إليها، وتستدعي اللياقة لبسها عند دخول مدينة أو قرية، أما في الخلاء فإن التلويح بالعباءة لدى الاقتراب من مخيم للبدو أو قافلة فإنه يعني غياب النوايا السيئة، إذ

أن "الغزو" أو الجماعة المهاجمة يخلفون وراءهم أشياءهم الثمينة قبل مغادرتهم دورهم.

كانت الامرأتان اللتان صاحبتنا من العقير ما زالتا معنا، وكذلك مجموعة الرجال. ارتدت النساء أثواباً خارجية فضفاضة، لون ثوب الأولى أحمر، وثوب الثانية أسود، فوق سراويل تحتانية سوداء، واستخدمتا مناديل للوجه وخُمراً سوداء تغطي رؤوسهن وتتدلى لتغطي الأكتاف والصدور. ولم تكن أقدامهن في حاجة لحماية. ويبدو أن هذا هو زيّ النساء من الطبقات الفقيرة في أغلب الأحيان.

بعد ارتدائنا الملابس العربية وفراغنا من تناول وجبة العشاء المكوّنة من لحم الضأن وخبزٍ خالٍ من الخميرة وتمر - كان الأمير قد تفضل بها - تهيأنا للنوم ونحن نأمل أن يشهد الغد بداية رحلتنا.

٢ ـ الصُّمان

كان المعسكر في حالةٍ من الحركة والنشاط عندما استيقظنا صباح اليوم التالي؛ عاد المتغيبون، وأرسل خليل أفندي أحد أتباعه، وعبدالله مع النواقص؛ وكانت الأحمال معدَّة وكل منها بجوار دابة، ولم يستغرق تقويض الخيام ولفها وربطها سوى لحظات قليلة، وأشرقت الشمس ونحن نتناول إفطارنا على عجل عاقدين العزم على أن نقطع شوطاً بعيداً قبل أن تنحسر برودة الصباح.

وكان كل شيء مُعداً، ولكن كانت أمامنا على الأقل مئة وخمسون ميلاً، أو مسيرة قرابة خمسة أيام في صحراء لا ماء بها. في هذه الحالات فإن العربيّ الذي لا تغيب مطيته عن تفكيره يترك أمر سقياها إلى اللحظة الأخيرة؛ كانت آبار الرقيقة على بعد نصف ميل في اتجاه الجنوب، وتذرعنا نحن بكل الصبر الذي استطعنا استدعاءه، بينما كانت الإبل تعلُّ من الماء وتنهل.

وفي النهاية، وقبيل الساعة الثامنة صباحاً كان البعير الأخير يزمجر وهو يتمايل أثناء وضع الأحمال على ظهره، معبّراً عن سخطه من استبداد الإنسان؛ وكان هناك حوالي ستة من الرجال يجلسون بجوار نار المخيم التي بدأت تخمد وهم يحتسون ما تبقى من قطرات القهوة، ثمَّ نهض من بينهم قائد القافلة وهو يصيح: «يا الله، توكلنا على الله»، وتسلقنا المطايا، دون مهارة، لنجلس على السروج بينما كان رفاقنا يمسكون لنا بمقاود الإبل المناخة حتى نستوي على ظهورها، ثمَّ نهضت المطايا وهي تئن بينما تحدث أطرافها ذات الجلد القوي صوتاً على الأرض الحجرية، وبدأت سيرها في أعقاب قافلة الأمتعة.

تمتد أمامنا صحراء الصمان الجرداء دون حواجز، من الباطن في الشمال حتى بحر الرمال الجنوبية، ومن تلال الرمال في الشرق إلى الحاجز الرملي المركزي

في الدهناء. تحمل أقسام هذه البيداء الشاسعة أسماء محددة ولكنها ليست ذات أهمية، لأنها ليست سوى قفار موحشة من الحجارة الجيرية عديمة الفائدة، وهي تكون في أحد المواقع صقيلة ناعمة مسطحة كالبحر، وفي موقع آخر منحدرة ومتموجة، وفي كل الأوقات تؤزُّها الرياح وعوامل المناخ الأخرى فتتمحور في شكل تلال قصيرة حادة أو رواب، وكأنها حواجز صخرية على الساحل.

كان مسارنا في اتجاه الجنوب الغربي حيث تلال ملدة ذات القمة المسطحة، ونحو الشمال كانت هناك قمة أبو غنيمة المنخفضة وجبل فار ذي القمتين ومن خلفها منخفضات معمة وتل الغوار نحو الغرب؛ وإلى الجنوب من ملدة تقع هضبة التامتين ذات القمتين المسطحتين.

وعلى البعد في نفس الاتجاه تشرئب تلال ويسة والخرماء. وكان المسار الذي تعمق في الأرض الصلبة من جراء سير أجيال من الإبل التي تسير بخطواتها الخافتة عليه، يشقُّ وادياً عرضه ميل واحد نحو قمة جبل ذات حدبة بينة يقال له العثمانية في طرف تلال الغوار. ومن ذلك المكان المرتفع نظرنا إلى الخلف للمرة الأخيرة فبدت لنا بساتين النخيل الداكنة في الأحساء، على بعد ثمانية عشر ميلاً.

كنَّا نجدّ في المسير في مناطق وعرة لا معالم لها، نعبر من حين لآخر أراضي منخفضة بها بعض العشب، واقتربنا من خط داكن منخفض يحدّ تلالاً أمامنا، ووصلنا إليه بعد مسيرة خمسة وعشرين ميلاً منذ بداية الرحلة. وعنده نصبنا خيامنا أسفل جُرف حاد يُعرف باسم غار الشيوخ، وسُمي هكذا لأن ابن

سعـود أو أحد أسـلافه كان قـد زاره مرة واحـدة أو أكثر. والغـار ليس إلا سلسلة صخـور تنتأ على ارتفـاع أربعين أو خمسين قـدماً [1] مظللة مـا تحتهـا بظلٍ لطيف يستخدمه للمقيل كل من يصل إليها بعد عناء رحلة طويلة في الصحراء. وبما أننا كنا نضرب في الصـحراء متـحملين حـر النهار كله تحت وهج الشمـس التي شق أمرها علينا وهي تضـرب الأرض الحجـرية بفـيض من لهب، فإنـنا لم نأسف على قطع الرحلة لنرتاح قـليلاً في ظل تـل رملي مريح ونـحن نراقب الإبل المنهكة تُقـاد إلى المرعى، والخيام تُنصب والنيران توقد مع اهتمام بإنجاز كل ما يتعلق بالمراح[2].

وقد كانت لنا ترتيبات خاصة بنا في شـأن مؤن الطعام، كما كان الحال في السابق؛ وكـانت لنا ست من قِرب الماء[3]، في حين كان لكل من الآخـرين قربة خاصة به، ولكن تجـربتنا مع قِصر نظر البدو في رحلتنا للأحـساء أملت علينا أن نضيف شوالاً من دقيق وآخر من الأرز لمخزننا لمصلحة المجموعة، ولقد كان حسناً أن فعلنا ذلك إذ أنه بـاستثناء تابعي عـبدالله الذين صحـبونا كحـرس خاص، لم يكن أي من الآخرين قد أحضر شيئاً سوى التمر.

كان قوام قافلتـنا أكثر من ثلاثين من الإبل وحوالي خمسـة وعشرين فرداً، وكان المسؤول عن كل ما يتعلق بالرحلة ـ والذي حـرص على تعيينه محمد أفندي

---

(١) كان بلجريف الذي بالغ في تقدير ارتفـاع هذه الصخرة قائلاً إنها ١٤٠٠ قدم، قد أضاف لقصّـته مسحة من لون محلّي، إذ أخبـر عن قرية تختبئ في التلال الرمليـة المجاورة للصخرة. كان أقرب مـصدر للماء على بعد عشرين ميلاً. (المؤلف).

(٢) مكان للمراحة، ولكنها من ناحية عملية تُستخدم فقط للأماكن التي يتُوقَّف فيها لقضاء الليل. (المؤلف).

(٣) القِربة جـمعهـا (قرب) مصنـوعة من جلد كامل للمـاعز أو الخراف. وجـلد الجـمـل الكامـل مِزادة (Mizada) يُستخدم أيضاً لحمل الماء لمجموعة كاملة. (المؤلف).

ـ هو عامر، وهو دوسري الأصل ولكنه رجل حضري إذ تعاقبت أجيال من أسرته في الإقامة بالهفوف، وهو يمارس المهنة المربحة: قيادة القوافل من الهفوف لداخل البلاد، إضافة إلى أنه يشارك سيده محمد أفندي في امتلاك عدد من الإبل مخصصة للاستئجار. كان عامر خنوعاً بدرجة ما ومُدمناً للغناء، يغني مقاطع بمفرده فيجيبه الآخرون، ولم يمارس إلا قليلاً من السلطة على القافلة، وكان يتشاحن طوال الوقت مع حرّاسنا الذين ما تركوا فرصة إلا استغلوها ليشيروا له أنهم يستمدون سلطتهم ليس من سيّده ولكن من سيّد سيّده، عبدالله بن جلوي نفسه، الرجل الثاني لابن سعود، وأنهم لا يعبأون بمحمد أفندي على الإطلاق دعك عن أن يكترثوا لمخلوق مثله. ورغم هذا لابد لي أن أُسلّم مع الامتنان له، إذ أن عامراً -فقط- من كل المجموعة كان يمتلك معرفة لصيقة بالبلاد التي قطعناها، وكان على استعداد طوال الوقت لنقل هذه المعرفة للآخرين. كان خصمه الرئيس هو عايض، وكان مثله رجلاً حضرياً من الهفوف ولكنه كان قحطاني الأصل، وهو دائم التفاخر وذو مظهر خادع دقيق الملامح، يلبس طوال الوقت زبوناً ذا ألوان باهرة، وهو متغطرس وعديم الفائدة، وكان كثيراً ما يُسرع ليعد القهوة لنفسه لهذا ولذاك مِمّن يسمون أنفسهم حرّاسنا، أما الخادم سعود فلقد كان متعجرفاً ومتحفظاً ومتجهماً، وكان مثل رفيقه يتباهى في ثياب مبهرجة، وكان شبيهاً بصاحبه في كل شيء، أما عبء حراستنا ـ إن كنا نحتاج لحراسة ـ فلقد وقع على عاتق صالح وغارب وهما من نوع آخر من الرجال، أفظاظ مرحين، يمزحون ويغنون معظم الوقت، ولكنهم ما كانوا ليترفعوا عن أن يساعدوا الآخرين من حين لآخر في نصب الخيام أو التحميل.

كان هؤلاء ـ كما نحن ـ يركبون "الذلول" أو مطايا الركوب التي لا تنقل

من المتاع إلا بقربة الماء التي يحـملها كل راكب. بينما كانت الأمتعـة موزعة على جمال البدو المستأجرة أو التي جُلبت لهذا الغرض.

وكان رفـاقنا من أربع قبـائل: الدواسر وآل مُـرَّة -وهم الذين رافقـونا في رحلتنا للهفوف، بما فيهم النساء- وقحطان وبني هاجر، ومن القبيلة الأخيرة ذيب وهو يتقـاسم مشيخـة جزء القبـيلة المسمىّ من آل محـمد مع محمـد بن طعزة، ويرافقـه في هذه الرحلة ابنه، وكانا في طريقـهما للرياض امتـثالاً لاستـدعاء ابن سعود لهم ـ إن كان مـا قالاه صحيحاً ـ لاسـتلام حافز نقدي اعترافـاً بخدماتهم الخاصة.

اكتملت مجموعتنا بشخصين من الهفوف ألْحقَا نفسيهما بنا دون دعوة ابتداءً من قلعة خـزام، وكانا في رحلة عـمل للرياض على ظهري حـمارين صغـيرين جداً، وكانا بـفضل بدايتهما المـبكرّة في المسير يجاورانا في الرحلة بطريـقة تدعو للإعجاب، وأظهـر الحماران أنّهما لا يقلاّن عن الإبل في تحـمّل العطش إذ أنَّهما لم يُسقيا قطرة ماء لمدّة أربعة أيّام ونصف. ورافقنا أيضاً، درويشٌ غير كامل العقل في طريقه لبيت الله، مـا كان له ما يركبه إلاّ قـدميه لتحمله عـبر ٨٠٠ ميل من الصـحراء؛ رأى أن يرافـقنا حتـى الرياض ليحظى منـا بالطعام والماء وبالركـوب أحياناً؛ ولم يخب ظنُّه وقدّم وافر شكره لربّه ولمن أحـسنوا إليه في لهجةٍ مكسورة بلسـانٍ هجين غير مـبين، ولسبب مـا سار عليـه منذ البداية لقبُ السِّـندي وكان يسـتجيـب دون تردّد عند مناداته به. قال إنه قـد أتى من قارمسيـر ولكن لغـته ومضات من ذكاء عندما اختبرته بما استطعت استحضاره من البشتو، ولابد أنّه قد سافر مسافات طويلة على قدمية آتياً من بلاد بعيدة وسيعود إليها ثانية كما أتى بعد أن يستمد القوة من البلد الحرام.

عندما غـربت الشمس من وراء الأفق ترك كلٌّ من يسـتجـيب لنداء الصلاة

العملَ الذي يؤدّيه واتّخذ موقعه في صف المصلّين الذين وقفوا خلف علامة نصف دائرية خُطَّت على الرمال ممثلةً القبلةً أو اتجـاه مكّة؛ وقف أحدهم أمام الصف ليؤم المصلّين، وبقراءة ما يُعـتاد قراءته في الصلاة كان يركع ويسجد ثـم ينتصب واقفاً، وكانوا يتابعونه فيما يفعل عدداً معروفاً من المرات حتى يصل لصيغة الختام "السلام عليكم ورحـمة الله" التي يقـولها الإمام مـديراً رأسه نحـو اليمين والشـمال، ثم يقتدي به المصلون، ومن ثمَّ يعود الجميع لمهامهم التي يضطلعون بها.

في صباح اليـوم التالي، ٢٣ نوفمبـر (تشرين الثاني) تحركنا مـبكِّرين، وسرنا لمسافـة اثني عشر مـيلاً في اتجاه الجنـوب الغربي عبـر مساحـات قاحلة من الأرض الحجرية المنخـفضة تعرف باسم نعَلَة وتمتد من التل المنخفض الـذي تكوّن صخرة غار الشيوخ جزءاً منه حتى حدود وادي الفروق. كانت المنعطفات والمنخفضات هنا وهناك مكسـوة بنبات الثـمام القـاسي وبعض الأعـشاب الأخـرى. وفي أثناء النهار مـررنا بقطعان من الإبل تخصّ فرع ابن دعاث من قبيلة قحطان، إذ كانت ترعى وهي تتجه على مهل نحو الشمال بحثـاً عن مراعٍ جديدة حيث إن الأمطار لم تكن قد بدأت في الهطول بعد، إذ يتحتم على البدو التحرك الدائم في النصف الثاني من موسم الجفاف إن كانوا يريدون الاحتفـاظ بحيواناتهم على قيد الحيـاة. تذهب الإبل لترد الماء قرب الهفوف كل أربعة أو خمسة أيـام، ولكن عندما تهطل الأمطار في الصحراء فإنها تمد الإنسان والحيوان بما يكفيهم من ماء.

وادي الفـروق الذي مررنـا إزاءه بقافلةٍ تتـجـه من نجـد للأحسـاء، هو وادٍ عريض أو سـهل من التربة الرمليـة يمتد من الجنوب للشـمال في قلب الصـحراء ليـغيب في قناة الصـحابـة عند طرفهـا الجنوبي بعـد أن يتلقى الماء المتصـرف من

المرتفعات الواقعة على جانبيه من الشرق والغرب. لم أتمكن من التحقق من هذه المعلومات السماعية لذا لا يمكنني أن أجزم بصحتها. كان الوادي يجري لستة أو سبعة أميال على عمق عشرين أو ثلاثين قدماً تحت سطح الصحراء وتحده من الغرب هضبة ربيداء الوعرة التي دخلنا إليها متخذين طريقنا عبر وهدٍ منحدر إلى وادي الشجرة الذي سمي هكذا لوجود ثلاث شجرات سَنْط على مقربة من الموقع الذي يلتقي فيه مع وادي الفروق. كانت هذه أول الأشجار التي نراها منذ أن فارقنا الهفوف، ولعلها الأشجار الوحيدة التي تُرى من الطريق في جميع اتجاهات الصحراء بين الأحساء وسهل الترابي الواقع بعد أبو جفان. كنا قد تجاوزنا كثيراً قافلة الأمتعة، وكانت شمس بعد الظهيرة تضرب البيداء بعنف؛ وحان وقت صلاة العصر؛ وكان عايض يحتفظ بمعدات القهوة، لذا قضينا ساعة لطيفة تحت ظل تلك الشجرات الهزيلة، التي عسكر بقربها قبل قرن من الزمان جنود إبراهيم باشا، وتجشموا الصعاب محاولين حفر بئر بالقرب منها دون نجاح.

أوصلتنا مسيرة ثلاثة أميال لشعبة وهو تجويف ذو أعشاب في هضبة ربيداء؛ كنَّا قد سرنا أكثر من خمسة وعشرين ميلاً وقد أخذ منا التعب كل مأخذ، لذا نصبنا خيامنا للراحة في هذا التجويف من قلب البيداء غير المنتهي.

واصلنا سيرنا في صباح اليوم التالي على الهضبة ذات الكتل الصخرية العارية إلا من غطاء متباعد من شجيرات خفيفة شائكة تُدعى الشبرم، مع ركام من حجارة موضوعة هنا وهناك في شكل هضبات صغيرة مستديرة لترشد البدو الضاربين في الأرض أو المسافرين التائهين إلى الطريق. قادتنا الخطوط المتقطعة المتعرجة للطريق إلى داخل سهل عار يمتد دون تموج في كل الاتجاهات نحو الأفق

البعيـد، هذه البيداء الممتـدة يسمونها الصُّمَّان وبعد التل الذي يحدها مـن ناحية الغرب يقـع حزوم الصُّلْب وهو سـهل يزداد عرضه تدريـجياً وتتـخلله بين الحين والآخر تلال خفيفة.

التربة في الصُّمَّان رملية في بعض الأحيان، وأحياناً أخرى تغطيها الحصباء، ثم تجد رقاعاً من تربة خليط من الطين والرمل، ويقع هنا وهناك وهدٌ به أجمة من شجيرات سنط قـصيرة تسمى عوشز، حيث تبقى بهـا مياه الأمطار لبعض الوقت لتعطي الحـياة للنباتات الصـحراوية. ويقع في طريقنا أحـد هذه الوهاد ويعظمونه باسم روضة الحني، في حين أن وهداً آخر وهو روضة البيـضاء هو الذي أقمنا فيه مخيمنا في الليلة الثالثة لمغادرتنا للهفوف، على مرأى من رمال الدهناء. نحن الآن على وشك مفارقة صحراء الصُّمَّان المقـفرة، التي قُدر لي أن أجدد معرفتي بها في مناسبتين لاحـقتين خلال إقامتي في الجـزيرة العربية، وهي بما فيـها من رتابة وما تسببه من نَصَب، قد يكون هناك ما يُشبـهها، ولكن بكل تأكيد ليس هناك صحراء تفوقها في ذلك المضمار في العالم كله.

تنتـحي كل جمـاعـة أو "خبـره" (Khubra) في المخـيم جانـباً بمعـزلٍ عن الآخرين، يتـجمع أفراد كل قبـيلة معاً ويكون أبناء المـدينة مجموعـة واحدة؛ وكل مجموعـة تتحلق حول نارها، وإبلهم تحيط بهم كمصدات لهـواء الشتاء البارد. في تلك الليلة رحّبت بي الجماعة حول نار الهواجر[1]، وجلست فوق جلد خروف بين ذيب وابنه وقاسـمتهم وجـبتهم البـسيطة المكونة من الأرز المطبـوخ والسمن، وهذا الأخير هو الترف الوحـيد للبدو في الجزيرة العربية، ومن سـخائهم أفاضوا من هذا

(١) جمع هاجري أي: بني هاجر. (المؤلف).

السمن في الجزء الذي يليني من القصعة، على افتراض ـ وهو ما يفترضونه في كل شيء ـ أن ذلك الذي يمنحهم السرور يسرُّ كلَّ البشر. وبعد الفراغ من الوجبة جلسنا نرتشف القهوة بعد أن دقُّوا البن في "هاون"[1] من نحاس ذي مِدَقَّة من رخام. والرخام أو نوع من الحجر الأخضر كما أعتقد، يُقتلع من المذنب في جنوب القصيم وتُصنع منه المِدَقَّات ذات الأطوال المتباينة، بعضها بطول قدمين أو أكثر، بواسطة نُحَّات الحجارة في عنيزة وبريدة، ويصدرونه إلى كل أنحاء الجزيرة العربية. وفي بعض الأحيان تُستخدم مِدقات نحاسية، ولكن الحجرية هي المفضّلة.

وعلى ذِكر الحجارة فلقد أخبروني عن الجافورة التي وجدوا بها حجراً متنقلاً بديعاً، وهو يتنقل ـ كما قالوا ـ بإرادته مخلّفاً وراءه أثراً ليُقتفى، ولقد سمع بهذه القصّة من قبل عبدالله بن جلوي، فأرسل من يُحضر له عينات منها من الرمال الجنوبية، وبعد وقت قليل عاد الرُّسُل بحجرين اثنين وُجدا ماشيين؛ وفي تلك الليلة دعا عبدالله ضيوفاً لسطح منزله، وهناك أُطلقت الحجارة أمام الجمع لاستعراض قدراتها، ولكنها خذلت تطلّعات المشاهدين المتعجبين حين فشلت في إظهار أقلّ علامة من علامات الحياة، وفشلت التجربة، ولكنَّ البدو تمسكوا بإفادتهم أنهم رأوها تسير. لقد كنتُ آمل أن أحصل أنا نفسي على عينة منها، ولكني غادرت الجزيرة العربية خائب الرجاء. ما هو وجه الصدق في هذه الظاهرة؟ هذا ما لا أستطيع أن أجزم به، ولكن قد تكون الحركة الظاهرية لهذه الحجارة على الرمال هي في حقيقة الأمر نتيجة لتحرُّك الرمال نفسها. هناك المزيد حول الجافورة في الجزء الثاني من هذا الكتاب[2].

---

(١) نجرة (Niqra) من الواضح أن المقصود به النجر (الهاون). (المؤلف).

(٢) راجع الجزء الثاني، ص٣٠١ .

إنهم لا يسأمون الحديث عن الغرائب؛ يقولون إنَّ هناك ثقب ماء في الجزء الشمالي من صحراء الصُّمَّان، وهو عميق إلى حدٍ ما، ويمكن الحصول على الماء من أسفله بإزاحة التراب، ولكن لا ينبغي للشخص أن ينزل بحثاً عن الماء دون الاستعانة بحبل لضمان الخروج من الثقب، إذ يقال إنَّ رجلاً في حائل، أبيض الشعر والسحنة، كان قد فقد لونه الطبيعي قبل حوالي عشر سنوات نتيجة لتجربة مرَّ بها في العالم التّحتي أسفل الثقب، حيث ارتفع الماء فجأة ليحيط به ويحمله عبر قناة سِرية، حيث بقي في الأسفل لبضعة أشهر لا يأكل سوى العشب، ثم ظهر مجدداً ليحكي تجربته في مكان بعيد عن ثقب الماء الأصلي. وفي حقيقة الأمر توجد في الصقع المسمى دحول (Duhul) ـ أي ثقوب الماء، والتي مررت بها لاحقاً ـ متاهةٌ بها دهاليز خفية، ويبدو أنها طبيعية، ويدخل إليها الرجال بحثاً عن الماء، وقد يضلُّ فيها الشخص طريقه إن استمرأ المغامرة وأوغل في المسير.

كانت لذيب -كأحدِ شيوخ القبائل التي عاشت في العهد التركي على النهب وابتزاز المال بالتهديد في الطرق بين الأحساء والساحل- اتصالاتٌ مع السلطات التركية. الأمر الذي جعله -إضافة لزيارته للبحرين- معتاداً على رؤيته للبريطانيين وعلى معرفة بمكانتهم وسمعتهم. تنبَّأ أحد العرَّافين مؤخراً بانتصار بني الأصفر على المسلمين في سبعة أشهر أو سبع سنين أو سبعين سنة، وقال له أحد الضباط الأتراك «أعطنا أحداً غير السلطان عبدالحميد وستبقى الإمبراطورية العثمانية قوية، ولكن مع محمد رشاد سيتضاعف البؤس». في يقين العرب أن إنجلترا تقع شرق بلادهم، ألا تأتي سفن الإنجليز من الناحية الشرقية؟

رغم أنهم شيوخ قبيلة كبيرة، إلا أن ذيباً وابنه لم يكونا يرتديان سوى ثياباً قطنية فضفاضة، وكانا حافييْ الأقدام، رغم أنهما كانا يسحبان على أجسادهما ليلاً عباءاتهم المصنوعة يدوياً من الصوف الخشن، كما يفعل الآخرون. ربما منَّ الله عليهم في الرياض بملابس خير من ملابسهم هذه لأن الليالي ستكون باردة في رحلة العودة، إنَّ خير العرب يحتقر من يستنكف عن سؤال الله.

ويطوف بني هاجر من حدود الكويت لساحل قطر، وحدودهم الغربية هي وادي الفروق، وأقسام القبيلة الرئيسة هي آل محمد. يقودها شيخان مشاركة، والمخضبة ولها فرعان: المظافرة ويزيد (Yazid)[1]، ويتحالفون جميعاً مع شافي ابن سالم ويخضعون له كشيخ الشمل. ويوجد المناصير أو أهل منصور وآل مرة نحو الجنوب ولكن بتداخل مع مسارات الهواجر. ونحو الشمال تجد بني خالد، ومقرهم القطيف التي يشتركون في حيازة بساتين النخيل بها. وهناك قبيلتا إمارة الكويت: العوازم والرشايدة، هذا إن لم نذكر قبيلة العجمان الذين كانوا في السابق حكاماً وملاكاً للأحساء، ولكنهم يعيشون الآن في بلاد شيخ الكويت. وتتجول قبيلتا قحطان والدواسر من أقصى الجنوب الغربي إلى حدود الأحساء، حيث تتداخل مساراتهم بين الأحساء ووادي الفروق مع مسارات المجموعات الشرقية؛ ونجد غرب الوادي قبائل الدواسر وقحطان وسبيع والسهول مع آل مرة في الجنوب ومطير في اتجاه الشمال.

(١) هكذا في الأصل الإنجليزي، وربما يقصد آل زيد. (المراجعون).

٣- الدهناء

قطعنا الآن في مرورنا شريطاً ضيقاً ذا أعشاب صحراوية نحو أرض منخفضة تتدرج في الانحـدار حيث تتناثر في الحـصباء والرمـال قطع من جلمود الحـجارة الجيرية. هذه هي الملسونية (Malsuniyya)[١] ملتقى السهل مع الرمال والتي تمتد لأربعة أميال لتنتـهي فجأة في مكان ما قبل الوصول إلى الدهـناء نفسها في أرض الصلبيبخ المنبسطة المجدبة التي تكسوها على مدّ البصر من ناحيتي الشمال والجنوب حجارة لافتة للنظر[٢]، أبلتها العوامـل الطبيعية فصارت أسطوانيـة الشكل، كما تكسوها شظايا الصـخور. بعد مسـيرة خمسـة أميال دلفنا فجـأة إلى طريق مرتفع عريض من نفس التكوين يسـمّى الجسرة ويمتـد مثل الإسفين (الوتد) لمسافـة أربعة أميال أخرى في الدهناء التي يلتحم حاجزها الرملي بالتدريج مع الجسرة.

يلتف مرتفع الجسرة بحدة نحو اليسار وعرضه الآن لا يفوق عرض الطريق، وتطوّقه بحار الرمـال. وأخيراً وطئت أقدامنا الدهناء، ومـررنا فوق التل الأوّل ما يقرب من مَعْلَمٍ متهوّم لا اسم له من ركـام الحجارة. إنّ المسار الذي كان حتى هذا النقطة غائراً في تربة الصـحراء الصُّلبة، أصبح الآن تحت رحـمة الرياح والأمطار؛ وبعـد خطوات قليلة بلغنا هضبـة رمليـة يتوجّهـا ركامٌ من الحـجارة تسـمى رجم الشويعر. ابتداءً من هذه النقطة فإنّ من يقصـد الذهاب لموقع السقيا التالية لابدَّ له من حادٍ ماهر أو بوصلة توجِّه مساره، إلاَّ إذا كان من الحظّ بحيث يجد آثار القافلة

---

(١) ورد الاسم في خرائط المساحة العَسكرية -الطبوغرافية- مقياس رسم (١: ٠٠٠, ١٠٠٠) باسم المنسونية -بالنون- والملسونـية: أرض صلبة تقع غـرب الصلب الجنوبي. انظر: الجاسـر، المنطقة الشرقـية. ج٤، ص١٦٨٦. (المراجعون).

(٢) لسوء الحظ فإنني لم آخذ معي عينات من هذه الحجـارة لفحصها، ولكن إن كان لي أن أثق في ذاكرتي، فإنها لم تكن مختلفة عن بعض عينات أحضـرتها معي إلى وطني من موقع بالقرب من سدوس في جبل طويق وهي التي صنفت كمرجان وإسفنج العهد الجوراسي (المرجاني). (المؤلف).

التي سبقته قبل أن تمحوها الرياح؛ وحتى في هذه الحالة فقد ينخدع، إذ أنّ كميّة العشب في الدهناء تفوق كثيراً ما يوجد في الصحراء على جانبيها، ولذا فإنّ البدو يفضّلونها لرعي حيواناتهم، ويا لهول ما يصيب المسافر الذي يتعقّب خطى إبل ترعى.

رغم هذا فإنّ الناس قد بالغوا في تضخيم أهوال هذا الحاجز الرملي. ونحن سنعبره كما عبره بلجريف قبل خمسة وخمسين عاماً؛ ولكن ما لم تكن الطبيعة ذات السطوة قد تقدمت عبر السنين مزيلةً العقبات المخيفة التي كانت تحمى بها أسرار الجزيرة العربية من عيون الغرب المتطفلة منذ أزمان سحيقة، فإنني أجد نفسي حراً لأذكر أنّ بلجريف قد اعتمد على خيالات نشأت في تلك الصورة الرهيبة. وباستثناء الخطر الناتج عن ملاقاة أناس ذوي نوايا عدوانية ـ وهو أمرٌ أصبح الآن في ذمة التاريخ ـ فإنّ أيّ شخص يتخذ الاحتياطات العادية من التأكد من الاتجاه الصحيح عند المسير، وحمل ما يكفي الرحلة من الماء لا يخاف شيئاً عند عبوره الدهناء. ويعد عُرف العرب بقيامهم بهذه الرحلة مشياً على الأقدام من (أبو جفان) إلى الهفوف دون حمل طعام أو ماء، اعتماداً على قوّة الاحتمال لديهم وعلى الصدفة التي قد تقودهم ليلتقوا بقوافل في الطريق أو بالبدو المتجوّلين، ويصل هؤلاء إلى غاياتهم دون حدوث ما لا يحمد عقباه.

يقع أمامنا مرتفع من الأرض لا تبدو له نهاية، مكوّن من تلال رملية وآكام متناثرة، وفيه حشائش وأشجار قصيرة أرى بها الجفاف الطويل؛ كان المسير سهلاً وكان الفرق بين التلال والوهاد لا يتعدّى ثلاثين أو أربعين قدماً مع تدرّج سهلٍ معتدل، وكنّا قد تخطّينا سبعة عشر ميلاً بالتقريب[1] قبل أن ندلف إلى الرمال

---

(١) منذ أن غادرنا آخر مخيم أقمنا فيه. (المؤلف).

الحقيـقية، كانت الإبل ـ وقد قـضت أربعة أيّام بلا ماء ـ قد بدت عليهـا علامات الإجهاد؛ لذا قرّرنا أن نتوقف للمـبيت منذ الوصول إلى تلال بني بَـدَالي المزدوجة الخفيـفة التي تبعد ثمانية أمـيال من الحدّ الشرقي للرمال، حـيث بلغ ارتفاعنا فوق سطح البحر ١٥٥٠ قدماً.

بُذلت بعض المحاولات لإقناعنا بمواصلة المسير ليلاً، إذ أنّ العربي يسافر عادة ليلاً في المناطق الخالية من الماء، وفي حقيقة الأمر هو يسافر نهاراً وليلاً مع التوقف أحياناً لتناول القهوة الأثيرة لديه، ولكنّنا كنّا قـد أوضحنا سياستنا في الهفوف؛ إنَّنا لا نسعى لقطع المسافة فحسب، ولكنّـنا نودُّ أن نرى البلاد ولهذا نحن على استعداد لنسافر للـحدّ الذي يريدونه أثناء النهار ولكن فقط أثناء النهـار. ادَّعْوا أنَّ نوايانا لم تُفهم تماماً وأنَّـهم كانوا متأكدين أننا سـنوافق على المسير ليلاً في الجـزء الأخير من الرحلة، لذلك تصرفـوا بحريّة فيما يـحملون من ماء، وكثيـراً منهم بلا ماء الآن، إضافـةً إلى أن أحد الذئاب مـزّق إحدى القـرب. وبهذه المناسـبة، وجـدنا إحدى القرب الخاصة بنا في الصباح أقل مـحتوىً مما كانت أثناء الليل، قد يكون السبب ـ وهذا افتراض منّي ـ أن جنياً عطشاناً قـد أخذ منها دون أن يراه أحد. ورغم كل ما سيق من حجج بقـينا صامدين في عزمنا ألاّ نتحرك قـبل الصباح. وفي تلك الليلة لم يكن هناك قهوة أو عشاء حـول نيران المخيّم، إذ أنّ الماء ـ وهو قوام الاثنين ـ لم يكن موجوداً، وما كان موجوداً منه ادُّخر بحرص لمسيرة اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي قام الجميع مـبكّرين يحثّون بعضهم البعض ويتعجّلون الرحيل، وكانـت الأصوات القلقة تحثّ الجمع للتـحرك المبكر إن كنّا نودُّ أن نصل إلى موقع السقيا قبل حلول الظلام. لقد ادّخرنا مواردنا المائية جيداً لدرجة أنه رغم وصول البعض أحياناً لقرب الماء التي تخصُّنا، فلقد كنّا نحتفظ بقربتين من مجموع

الست القرب التي بدأت بهـا الرحلة، ولكن بقية أفـراد المجموعـة كانوا في وضع يؤسف له، وقبل أن نسـير طويلاً وضح أنَّ عسرهـم كان خطيـراً، وهنا ظهر على الفور تفـوُّق البدو على رجـال الحضر. البـدو يتحـمَّلون العطش بكلِّ الجلد الذي جبلوا عليه، بينما انفـصل عايض ورفاقه عن المجموعة واتجهوا نحـو القفر بحجة البحث عن حيوانات يصطادونها، إذ أنَّ آثار قطعان من الغزلان كانت تقطع طريقنا على مسافـات متقاربة، ولكنّهم ذهبـوا في حقيقة الأمـر بحثاً عن رعاة مـتجوّلين يستجدون أو ليحصلوا على مخزونهم الشحيح من الماء.

لم يلحقوا بنا مجدَّداً إلاَّ بعد أن تخطَّينا الدهناء بمسافة طويلة، ولـم يسعفهم الحظ في مطاردتهم للغـزلان، ولكن رغم نفيهم الحـازم إلاَّ أنّه كان واضـحاً أنَّهم كانوا أكـثر حظّاً في مـسعاهم الرئيس. ولكنَّ هذا لم يمنـعهم من اعتـراض قافلة صغيـرة مرّت بجانبنا كانت في طريقـها للهفوف وأخذ ضـريبة ماء منها قـبل فترة قصيرة من وصـولنا للموقع الذي خيمنا فيه. وعند احتـجاجي على هذا التصرُّف أجاب عايض بكل غطرسة أهل المدن ـ ولكن مع شيء من المنطق ـ بحجّة معاكسة بأنَّ اختيارهم لم يكن قد نشأ من فراغ حينما دخل هو ومن هم مثله في خدمة ابن سعـود لحمـاية الطرق العامّة من السـلب والنهب الذي يمارسه أمـثال هؤلاء الذين أراحهم من ثقل مائهم «اللي ما يَظْلم يُظلم»؛ إن البدو لا يحترمون إلاَّ من يفرض احترامه بالجـبروت والاستبداد. لقد كـان هناك شيء لا يمكن الردّ عليه في المنطق البسيط لذلك الوغد دون شك، ولكنّ الأمر كان سيعد أكثر قبولاً لي لو أنّه أشرك زملاءه العطشى في الغنيمة التي عاد بها من رحلة النهب.

بعد أن تخطّينا تلال بني بدالي وصلنا بعد مسيرة عشرة أميال إلى مزعلات، وهو طريق رماله أعمق والروابي فيه أعلى، هِمْنَا فـيه على وجوهنا بلا هدف فيما

يبدو لستة أميال، تارةً على ذروة أمواجٍ من رمال تـقاذفتها الرياح، ومرّة نسير على حواشيهـا، وتارة أخرى على وهاد متماسكةٍ رمـالُها، ويتوافق اسم هذا المكان مع طبيعته إذ يســمّونه مساكن الغضب إذ ترزح الإبل تحت وطأة مصاعـبه، والمسار فيه غير محدّد المعالم. وفجأةً وجدنا أنفسنا وقد تخطيّنا الدهناء، على طريق ضيّق في أرض خالية من الكثـبان الرملية يسمى المربخ، وينتهي الطريق بعـد مسيرة ثلاثة أو أربعة أميـال أخرى على حافة ســهل العرمة. كانت معـالم تلال الرمال من خلفنا أكثر تحـديداً على هذا الجانب مقارنةً بالجـانب الشرقي، وتمتد شمـالاً وجنوباً نحو الأفق البعيـد الذي ينأى كلما تقدمنا، ولونه البـرتقالي يغمق كلما سـعت الشمس نحو المغيب. لم نرَ خلال سيرنا كلّه بعد ذاك كثـباناً عالية من الرمال حيث اختفى تعاقب التلال الرملية واخـتفت سهول الشمال الواضـحة المعالم، ومن هذا الجانب بدت لنا الدهناء كـحزام رملي مـنخفض ليس إلاّ، لا شيء يميّـزها عن الأصقـاع الرمليـة في الهند وغيـرها سـوى أنّ لونها مـائل إلى الحُمـرة. وفي تقديري فـإن عرضهـا من تل الجسرة وحتى الحـافة الشرقيـة للمربخ، لم تكن أكثر من خـمسة وعشرين ميلاً أو في المتوسط مسيرة يوم واحد.

٤- السهل الداخلي

كم هو مخيفٌ الحاجز المتجهّم الذي يحمي لبّ الجزيرة العربيـة من الآفة المهلكة التي تسمّى التدخل الأجنبي والنفوذ الأجنبي، ترتـفع طبقة تتلوها طبقة من المحيط في الشرق حتى الهضبة الوسطى، في البداية هناك الشريط الرملي الساحلي الذي يرتفع بعد مسافة خمسين مـيلاً من سطح البحر إلى ارتفاع يبلغ ٣٥٠ قدماً؛ وبعده الصمـان التي تعلو متدرجة، ولكن بانتظام لارتفـاع إضافي يبلغ ٩٠٠ قدم على امتداد مسافة ٩٠ميلاً، وبعدها الدهناء التي تصعد في مسافة ٢٥ ميلاً لارتفاع بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ قدماً فوق سطح البحـر؛ ثمّ تبقّت هناك على البعد القلعة نفسها خلف آخر خطوط دفاعها من السهل المتدرج.

إنّ لمر الجسرة الحجري المرتفع في الشرق ما يقابله في الغرب، وهو الجاري الذي دخلناه الآن، وهو شـريط طيني يغطيـه بكثرة ثمـام خشن وحـرمل طريّ، ويدخل في كثبـان المريخ مثل الإسفين. وعندما تقدّمنا تحـولت الرمال على جانبي الجاري فجأة إلى منحدر لطيف تغطيه الحجـارة وصار الشريط منخفضاً بعرض ميل واحد، وارتفع جانباه ليكوّنا تلالاً خفيفة، بينما انتشر نحو الشمال والجنوب سهل العرمة الممتد إلى ما لا نهاية لينتهي في أقصى الغرب في حافة خفيفة تأخذ أطرافها لون الشمس الجانحة للغروب.

لم نزل بعـيديـن عن الماء، وكانت فـرصـتنا بلوغ الآبار قـبل حلول الظلام ضعيفة. ورغم هذا واصلنا سيرنا بأقصى سـرعةٍ لهذه الحيوانات المنهكة أن تبلغها. قطعت مسـارنا غزالة منفردة، كانت الأولى التي نراها في الصحراء رغم أننا رأينا عـدداً لا يحصى من آثـارها في الدهناء، وطاردها عـدد من البدو دون جـدوى، عطشى ولكن قلوبهم شجاعـة؛ وبعد قليل مررنا بدوسري يقود قطيعـاً صغيراً من

الضأن ويتجه نحـو الأحساء ليبيعـها هناك يوم الخميس القادم في سوقـها الكبير، وصحنا بوهن طالبين منه الوقوف لنبتاع منه لحماً للعشاء، وباتفاق الجميع قررنا ألاّ نتقدم أكثر. لدينا اللحم، رأسان من الضأن الجيد اشـتريناهما بعد مساومات كثيرة بعـشرة دولارات لـلرأس، ولكن لم نكن نملك الماء الذي نطبخ به هـذه الوجبـه. أرسل اثنان من أقوى الإبل لإحـضار قربة مـاء أو اثنتين من (أبو جفـان)، ونصبنا نحن خيامنا انتظاراً لقدومهما. وفي النهاية وبعد أن يئسنا من عودتهما تناولنا وجبة من اللحم البقري المعلب واستسلمنا للنوم. وعند منتصف الليل صحونا من سباتنا على صيـحات الفـرح التي استقـبلت بها الإبل العـائدة. كان كلّ شيء قـد صار جيداً، عاد المرح والابتسام وشـفيت غلّة الظامئين بشرب الماء القراح وسرت الروح في فحم نيران المعسكر لطبخ اللحم، ثم استسلمنا للنوم كرّةً أخرى.

واصلنا سيرنا صـباح اليوم التالي في منخفض (الجـاري) عبر نفس الأرض الفسيحة المهـجورة التي لم يخفّف من رتابتها سوى جبل ناءٍ صغـير يقال له فرحة وتلّ منخفض قصـير يسمى ثنايا بلال ويقع عن شمـالنا في اتجاه الجنوب الغربي. ورأينا عن يميننا على نفس البعد مجموعـة من شجيرات تسمى روضة الهلال وهي موضع سقيا بديل (لأبي جفان)، وتقع على طريق جانبي في اتّجاه الشمال ويلتقي في نهاية الأمر بالطريق الذي سلكناه في الدهناء، لكن الميـاه به أقل غزارة من مياه (أبو جفـان)، ويرده في الغالب أولئك الذين يسـافرون من الـريـاض في عجـلة من أمـرهم عبـر الطريق المباشـر من آبار العقـلة للروضة تجنّبـاً لطريق أبو جفـان الطويل.

وصلنا لنهاية الجاري بعد حوالي أربعة أميال سرناها من مخيمّنا حتى وصلنا مجمعاً للأمطار، بعد ذلك ينحدر الطريق انحداراً لطيفاً نحو الغرب، وصار سطح

السهل الآن أكثر وعورة مع وجود هضاب عارية خفيفة هنا وهناك حول الطريق. تخطّينا قافلة عظيمة متّجهة من القصيم نحو الشرق وهدفها البحرين، وصاحبها تاجر ثري من عنيزة رافقها هو ونساؤه وأطفاله. كانوا قد فارقوا (أبو جفان) في منتصف نهار اليوم السابق وقضوا ليلتهم في سهل أسفله يسمى روضة الضلة وبه كثير من الشجيرات، ووصلناه نحن بعد ذلك بقليل وهو «مكان مفضل للمبارزة» أو موقع للراحة تفضله القوافل القادمة من (أبو جفان)، حيث تعاد من هذا الموقع إلى آبار السقيا قرب الماء التي تفرغ أثناء وقوفهم به ليلاً لتملأ من جديد قبل بزوغ فجر اليوم التالي حيث تبدأ القوافل رحلاتها نحو الصحراء. عند دخولنا للشجيرات مرَّ عن شمالنا ذئب ضخم لم يصبه أيّ عيار من وابل الطلقات النارية التي أطلقت صوبه عند ظهوره.

تحوّل سطح السهل الآن إلى هضاب تنتشر فيها الصخور الجلمودية الملساء، ظهرت الأرض الرأسية خشم وسيع[1] جليّاً أمامنا، ثم وصلنا فجأةً إلى حافة أرض عميقة تجري في اتّجاه الجنوب الغربي. وأخيراً هذه هي (أبو جفان)، وتحت أقدامنا في المهد الحجري للمسيل تقع الآبار التي تحدثنا عنها وحلمنا بالوصول إليها كثيراً في الأيّام الخمسة الفائتة. استغرقت الرحلة ١٢٤ ساعة منذ أن بدأنا سيرنا من حصن خزام، حيث ذاقت الإبل طعم الماء للمرة الأخيرة عند آبار رقيقة.

كانت المطايا تنزل من صخرة ناتئة إلى أخرى نحو الآبار متجشّمةً عناءً كبيراً على الصخور الجلمودية الملساء، وبالقرب من الآبار كانت أيدى من سبقونا

---

(١) ينطقها أهل الجنوب أسع (Asa). خشم تعني أنف، وخشم تعني أنف صغير، وخشوم (الجمع)- أنوف. ويُشار لسلسلة الأراضي الرأسية بخشوم العرمة Khushum Arma. (المؤلف).

منشغلة بسحب الماء وملء الأحواض الترابية التي تحدُّها الحجارة، لتشرب منها حيواناتهم والحيوانات الأخرى التي في طريقها لتلحق بهم. كانت هناك جماعة أخرى متّجهة إلى الأحساء ولكنهم كانوا قد أتمّوا السقيا وما حبسهم عن المسير إلاّ الوقوف لتبادل الأخبار مع الجماعات الأخرى. أناخ رفاقنا الإبل وأنزلوا عنها أثقالها قبل قيادتها إلى أحواض الماء التي تزاحمت وتدافعت البهائم لتجد مكاناً حولها، وتمدُّ رقابها الطويلة نحو الماء لتسحبه في جرعات طويلة، ثمّ تتوقّف للحظات ريثما تهزّ شفاهها المتنفخة لتنفض عنها ما يتقاطر منها من ماء، ثمّ تهوي ثانيةً نحو الأحواض التي يجهد الرجال أنفسهم ليملؤوها بسرعة تفوق السرعة التي تسحب بها الماء الأعناق الممتدّة.

كان مكان راحتنا قد هُيِّئ بالسجاد والفراش تحت ظلّ صخرة عظيمة ناتئة فخلدنا للراحة. مسيل «أبو جفان» هو شق غائر في السهل وهو مجرى للسيول تتناثر فيه الصخور الجلمودية الملساء بعرض ستين ياردة وتحدّه صخور عالية يبلغ ارتفاعها من خمسين إلى مئة قدم، وفي منتصفها توجد الآبار وهي في مجموعها حوالي خمس وعشرين كما يقولون، ولكن ثلاث آبار فقط هي التي في الخدمة، وبعض ما تبقّى قد ردمته الأنقاض والبعض الآخر قد نضب معينه. خير الآبار الثلاث يسمى القموص والماء فيه ـ كبقية الآبار ـ على عمق اثني عشر قدماً وتحدّها من الداخل دون انتظام كتل من الحجارة الجيرية تأثر أعلاها بمروز حبال البئر عليها على مدى القرون. المياه في الآبار الثلاث عذبة ووفيرة، وتربة المسيل بين صدوع الصخور تربة رملية وتعلوها في كل مكان «الجلّة» وهي روث الإبل، بيد أنهم قاموا بتنظيف مساحة ضيقة في وسط المكان لاستخدامها كمصلّى، وتمّ تحديد أبعاده بإحاطته بالحجارة بطريقة منتظمة مع تحديد المحراب بالطريقة نفسها. لابدّ أنّ

أجيالاً من القوافل المـارّة قد رفعوا أصواتهم هنا في الصلاة حامـدين لله وشاكرين لفضله ريثمـا تتروّى إبلهم. وفي مثل هذه المواقع حيث تكون الحـجارة في متناول الأيدي، فإنَّ المسلم الورع قد يقضي ساعة أو اثنتين من سـاعات فراغه دائماً يمجّد به الله ذا القدرة غير النهائية، كمـا كان البدوي في السابق يزجي وقت فراغه أثناء الرعي بعمل نصب تذكاري من ركام الحـجارة يحدد به أرض المرعى، وهو أمر ما زال الرعاة يفعـلونه. إنَّ الحجارة في الصحـراء أدوات تسلية آسرة وكثيـراً ما كنت ألحظ وأنا أقـوم في صحـراء قاحلة بمسـح أرض لا حيـاة فيـها، أنَّ رفـاقي يبنون بالحـجـارة أشياء مختلـفة، أشاروا لأحدها يومـاً قائلين لي انظر: «هل تكتب اسم هذا؟» وكانت تعلو وجوههم ابتـسامات عريضة، وسألتـهم: «وما هو الاسم حتى أكتبه؟» وكـانت الإجابة: «يا صاحب اكتب ترى اسمه -- المطوّع»، ثم اسـتغرقوا في ضحك مجلجل مرح، وكـتبت دعابتهم الصغيرة فوراً بما فـيها من جلافة وبما ينقصها من ورع. لقد كنت دوماً أتعجّب لماذا تتنقّط الصحراء بهذا الكم الهائل من نصب (رجوم) الذكرى، والإجابة وضحت الآن، ثمّ إنّ وظيـفتها أيضـاً هي تحذير الغافلـين.

«اشرب وافسح المجـال للآخرين» هذا هو حكم العرب في الصـحراء، قلّما يخيّمـون بجوار بئر إلاّ بالقرب من قـرية أو "منزل" الرعاة. والحكم منطقي إذ أنَّ شحّ الميـاه يجعل الآبار تجـمع الرجال الأضـداد الأمناء وغيـر الأمناء؛ الأصـدقاء والأعداء، وتكون القافلة النائمة تحت رحمة مجرم يمرّ بالطريق. مرّت فترة القيلولة تحت الصخـرة الناتئة الظليلة بسرعـة كبيرة، وكـانت شمس ما بعد الظهـيرة تشعّ بضراوة على الأرض الضيّقة بينما كنا نحمّل الجـمال بأثقالها، ثم بدأنا المسير. كان المسيل يجري بين المنحدرات الصخرية الشـاهقة في اتجاه الجنوب الغربي، وتتصرَّف

مياه هذا الجزء من سهل العرمة القاحل من خـلال حافته الخارجية إلى داخل سهل الترابي، الذي يصرّف بدوره المياه نحو الجنوب لأخدود الصحابة الكبير، ولكن إن تعقَّبنا المسيل فإنهّ يذهب بنا إلى الجـنوب أكثر ممَّا يجب، لذا يخترق طريق الرياض الجانب الأيمن للمـسيل من خلال فـتحة تقود إلى هضـبة وعرة وينتـهي في جرف العرمـة الغربي الذي يتمـيّز بشدّة انحـداره. باتباع هذا الطريق مـررنا بجبل سنام الحوار الهـرمي في طريقنا إلى الهضبة مـنها إلى شفيـر الجرفي. ومن هنا لاح لنا منظر خلاّب حيث كانت الأرض الرأسية خشم وسيع وخشيم رضي تقف كحراس لمدخل سهل الترابي العظيم الذي يمتد بخضرته وشجـيراته حتى خطّ التلال البعيدة وساحل شديدة المنخفض في اتجاه الجنوب محدداً إقليم الخرج في الشمال.

قادنا حادينا الآن جانباً لشفيرٍ ذي صـدوع كثيرة، حيث تقع تحتنا على عمق ١٥٠ أو ٢٠٠ قـدم أيكةٌ ذات بهـجـة تحفّـهـا أشـجار السـنط وأشجـار برقـوق الصحراء[١]، وتحيط بهـا من جنبات ثلاثة جـروف متـجهِّمـة الصخـور، شديدة الانحدار، تسندها كتلٌ من الأنقاض المتراكـمة، وتطلُّ من الجهة الرابعة أو الجانب الغربي ـ دونما سـاتر ـ على السهل الذي يقع خلفـها. كان المـسار الضيق المتـعرّج ينحدر انحداراً شديداً نحو حافة المنحدر الصخري الشاهق، ومن ثمَّ نحو الصخور المنهـارة الانزلاقيـة ليصل إلى الأيكة في الأسـفل. ترجّلنا وسـقنا الإبل الرافضـة للمسير نحو الشفيـر، ثمَّ أخذت الإبل زمام المبادرة ووصلت إلى القاع دون حادث مؤسف. اسم الأيكة يناسب طبيعتها، إذ تُدعى أبو خشبة[٢].

---

(١) السدر. (المؤلف).

(٢) يسمى هذا المنحدر: درب الخشبي. (المراجعون).

هبطنا نحن مشياً على الأقدام، ثمّ ركبنا المطايا، وما لبثنا أن دلفنا إلى سهل الترابي. لقد كان مسارنا منذ أن تحـرّكنا من الهفوف وحتى وصلنا لهذه النقطة إلى الجنوب قليـلا من الاتجاه الغـربي، ولكن ابتداء من الآن سـيكون مـسارنا شـمال الأتجاه الغربي. يقع عـن يميننا في الاتجاهين الشمالي والجنوبي، وعلى مـدّ البصر جرف العـرمة شديد الانحدار والذي يعلو علـواً فجائياً من السـهل إلى ارتفاع بين ٢٠٠ إلى ٤٠٠ قـدم، حيث يكثـر تردّد النسور والوعـول، ولا يستطيع الإنـسان ارتقاءه من هذا الجـانب إلاّ في نقاط محـددة حين يجد مسـاراً عملياً يمكن اتّبـاعه للصعود، وتجري عن شمالنا بعـرض السهل التلال التي ذكرناها آنفاً. تشق السهل كلَّه أخاديدُ السيول التي تنحدر جنوباً في اتّجاه الصحابة.

سرنا لبعض الوقت تحت الجرف، وبعد أن تخطّينا كتفاً ضخماً لجبل ينتأ عن الجرف كقلعة عظيمة، وجدنا أنّنا قد اقتربنا من خشم وسيع الذي شمخ فوقنا تحت ضوء بدر ساطع كقلعة مهيبة، فنزلنا لنخيِّم للمبيت قبل أن نبلغه بنصف ميل.

منذ أن فارقنا الهفوف كنا نستمتع طوال الوقت بنسمات شمالية رقيقة لطَّفت الشمس المتّقدة نهاراً وجعلت الليالي ممتعة، وكان الطقس يزداد برودة بوضوح كلما ارتفعنا إلى أعلى. وفي ذلك الصباح في مخيّم الجـاري سجّل جهاز قياس الحرارة الخاص بي ٤٨,٢° فهرنهايت في الساعة السادسة صباحاً، ولكن أثناء النهار تغيّرت الرياح فجأة إلى رياح جنوبية دافئة ومستقرة استمرت لبعض الوقت، (وهي تسمى كوز Kos، وقفزت بدرجة الحرارة التي بلغت في السـاعة الحادية عشر ونصف في الليلة السابقة (٢٦ نوفمبـر "تشرين الثاني") ٥٥,٤°، إلى ٧٣,٤° في الوقت نفسه من اليوم التـالي عندما خيَّـمنا ليلاً للمبـيت في الترابي. ولكنّ التحـوّل في اتّجاه الرياح كان عـارضاً، وسرعان مـا انحرفت لتكون شمـالية مرة ثانية بعـد منتصف

الليل، ثمّ تحوّلت إلى عاصفة هوجاء هوت بخيامنا فوق رؤوسنا قبل أن نتمكّن من الزحف خارجها. وعندها هدأت الريح فجأة فخلدنا إلى النوم آمنين في العراء بجوار حطام خيامنا. وفي صباح اليوم التالي سجل جهاز قياس الحرارة ٦٢,٦ْ في الساعة السادسة والنصف صباحاً حيث كانت تشوب الهواء برودة شتوية، وتأخّر قيامنا بسببٍ مختلف وهو ضياع أحد الإبل.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة قبل أن تُحمَّل الإبل لتبدأ المسير. لقد كان المسير عبر سهل الترابي تغييراً محبباً للنفس بعد المتاهات المقفرة التي تركناها خلفنا. قضينا وقتاً طويلاً من النهار قبل أن تستعيدَ الشمسُ قوّتها فتفقدَ النَّسماتُ الشمالية الباردة مفعولها. كان العشب الأخضر وفيراً هنا وكذا كانت المجموعات المتناثرة من شجيرات السنط الصغيرة. وكان يشقّ الخضرة من آن لآخر شريط أسود من أخاديد السيول التي تهوي منحدرة من جرف العرمة إلى أسفل بعرض السهل، إذ أنَّها كانت مجاري لأنهار بركانية. كما كانت الروابي المتناثرة تبدو كنقاط على السهل. وإلى الشمال كانت تقع تلالٌ منخفضة بينما كانت أكمات الأبرق والرهاية تبدو بارزة أمام الجرف، حيث أنَّ الأول كان يرسم طريق (درب الحج)، وهو أحد طرق القوافل بين الرياض والأحساء، ويلتقي بطريقنا لدى آبار العقلة. بدا الأفق الشمالي أكثر قرباً بسبب التلال التي كانت تفصلنا عنه والتي كان يمكن تقدير بُعدها، وهي تلال حزوم عسيلان (Huzum Sailan)[1] والدُّغم، وخلف هذا الأخير كانت توجد آبار المياهية التي ترسم طريقاً آخر بين الرياض والأحساء. كان الطريق المباشر بين الأحساء وإقليم الخرج لا يمرُّ بـ (أبو جفان)، بل يرد

(١) كذا ورد الاسم في النص الإنجليزي والأصح أنه عسيلان وفي خرائط المساحة العسكرية، مقياس رسم (١ : ١٠٠٠,٠٠٠) موقع مجاور له باسم قلبان عسيلان. (المراجعون).

سالكوه الماء في آبار وسيع بالقرب من نقطة التقــاء سهل الترابي بأخدود الصحابة، وبذا يمرّ جنوب تلال شديدة.

لقــد كان للحـيوانات هنا وجـود أكبـر ممّا مرّ بنا منذ بداية الرحلة، كــانت الغزلان تلوح على مـرمى البصر منا، وكــانت محاولات مطاردتها تبـوء بالفشل، كما عبرت مسارنا حبارى وكــان طيرانها البطيء يقلل من سرعتها. يمكنك اصطياد هذا الطائر ـ كما هو الحال في الهند ـ بسهولة باستخدام المراوغة إن أبعدت مخالبه عن يدك، ولكن كل من يحـاول أن يصطاده بطريقــة مـباشـرة لا يحـالفه سـوى الفشل. تمتد الأرض هنا بسطحها الذي يجعّده البلور الصخري وتنقّره حفر الضب ذي الجلد المتين والسرعة الفائقة والذي يستـمتع البدو بأكله. وهناك أيضاً للجربوع مسكن ومستقر، ويمكن نبش الأرض لاستـخراجه من الجحور إن بدأ البحث عنه فور ولوجه الجـحر، وهذا الجربوع أيضــاً يعد من الطعام الـشهي. كنّا أيضاً نرى العـقاب والنسور حيناً بعد حين وهي تحلق عالياً فوق صخور العرمة الشاهقة.

وهنا أيضاً يوجد رعــاة من الدواسر وسبيع يرعون قطعانهم، كـما مرّت بنا أثناء النهار قــافلة متجـهة نحو الأحـساء. إنّ الشوّان أو عناصــر رعاة الأغنام في القبــائل الكبيرة يحتلون مكانــة اجتماعـية أقل، مقارنة بالبـدو الذين هم رعاة إبل وأهل غارة، ليس إلا.

سرنا أثــناء النهار بخطى مـتمهـلة فوق السهـل الذي كان يبدو بلا نـهاية، وأخيــراً لاحت أمامنا رابية جـبل عقلة الصغـيرة، وواصلنا المسيـر نحوها، ولكن كانت الإبل قد نهلت الماء من قبل حتى اكتـفت، وكان معنا من الماء ما يكفينا لذا نصبنا خيامنا للمبيت قبل أميال قليلة من الآبار، بعد أن بلغنا الحافة الشرقية لمنحدر الجبيل الممتد.

بدأنا مسيرنا في صباح اليوم التالي في الساعة ٦:٤٥، وكانت درجة الحرارة حينها ٤٨,٢ْ فهرنهايت، بفعل النسمـات الشمالية الصحوة التي هبّت على السهل العارى. ثمَّ وصلنا آبار العقلة بعد أكثر من نصف ساعة حيث وجدنا تسع أو عشر آبار، بيد أن المستخدم منهـا كان ثلاث آبار فيـما يبدو، تقع فـي منخفض رملي ضحل وسط تلال وهضـاب عارية؛ وكانت الأرض سوداء حـول حواف الآبار من آثار مخلّفات الخـراف التي كان أحد قطعانها ما زال في الأنحـاء منذ الليلة الماضية في انتظار السقيا قـبل الخروج للمرعى. استعرنا من الرعاة أوعـية جلديّة مشدودة إلى إطار من الأغـصان المجـدول، وكان الماء يُسـحب من البـئر ليُـصبّ في هذه الأوعية، ولكن الإبل اكتفت بشم حافتها العلوية دون أن تشرب منها.

واصلنا المسير على سهل الجبيل العـاري إلا من مجارة تستره، ونحن نصعد برفق من تلٍّ لآخر، الآن على منخفـض رملي، ومرّةً بعرض مهد سيـول متقطع، وتارة أخرى فوق منحـدر موحش، حتى هبطنا بعد مسـيرة خمسة عشـر ميلاً من نقطة البداية، إلى أرض عميـقة: شعيب[1] أبا الناس الذي يأتي فرعاه من الشمال ليلتقيا هنا فيكوِّنان أخدوداً واحداً يجرى نحو الجنوب على عمق عظيم ليدخل في النهاية إلى وادي السلي. هذه المنطقة لا تختلف عن (أبو جفان) إلاَّ أنها خالية من الآبار. خلدنا هنا للراحة لفترة وجيزة، ووجدنا أنفسنا بعد ثلاثة أميال أخرى فجأة على شفا جرف شديد الانـحدار، بينما ظهرت أمامنا بعد الحافة الخـارجية للجبيل أرضٌ ذات تلال خفيـفة ومن خلفها وعلى المدى البعيـد في اتجاه الغرب لاح برج طويق العالي.

(١) مجرى مائي جاف. (المؤلف).

يبدو سهل العرمة والجبيل في الصورة العامة للمنطقة كمقدمة للطريق نفسه، وكلّها تشكّل نسخة مصغرة للسهل الهضبي العظيم الذي يكوّن العمود الفقري للجزيرة العربية، إذ نجد في كلا الحالتين منحدراً يتدرّج بلطف ممتداً من الشرق لمسافات طويلة حتى يبلغ خطاً متجهّماً من الجرف المندفعة شديدة الانحدار تعترضه من جهة الغرب كحاجز من حصن عظيم. بيد أنّ الهبوط هنا لم يكن صعباً، إذ وجدنا أنفسنا بعد قليل في وهدٍ دائري يمتدُّ ـ كما الخليج ـ داخل التل ويُحاط من جوانب ثلاثة بجرف شديدة الانحدار، بينما كانت الجهة الرابعة مغلقة بخطٍّ من المرتفعات الوعرة العارية. وعبر هذا الخط قادنا الطريق؛ ابتداءً على أرضٍ مسطحة ثمَّ ما لبث أن انحدر عبر أخاديد نحو الوادي الرملي العريض، وادي السلي.

لم يبق الآن بيننا وبين الرياض سوى مسيرة يسيرة. نصبنا خيامنا بجوار شجرة سنط منفردة في الوادي بينما كانت أراضي الجبيل الرأسية المهيبة من خلفنا وخشم العان في الشمال الأقصى، وخشم السلي بجوار مخيمنا، وخشم الهيث (Khashm al Hith)[(١)] في الجنوب. بينما بدت قمّة طويق الطويلة المسطحة شامخة في سماء المساء، بينما غلّف الأجواء ضباب من رمال فوق تلال دريبات الخيل المسنّنة، التي تقع الرياض من خلفها. «حقق هدفَك نهاراً، وليس ليلاً»[(٢)]. هذه مقولة عربية مفضلة، حيث إن يوم العرب يختم بصلاة العشاء، وتكون ساعات الظلام ملكاً خالصاً للرجل، يقضيها بين أهله وأصدقائه، وليس من اللائق أن يطلب الغريب أن يُلتفت إليه، وأن تشمله الرعاية والضيافة والكرم في هذا

(١) كذا ورد الاسم في النص الإنجليزي والصواب أنه هيت -بالتاء- وهو دحل في جبل الجبيل. (المراجعون).
(٢) صبح الدار ولا تمسِّيها. (المؤلف).

الوقت. وثمَّ سببٌ آخر، فلقد جاء في الأثـر أن على الإنسان أن يتحقق من موقع هبوطه قبل أن يقفـز، وفي الظلام لا يستطيع المرء أن يميز بين منازل الأصـدقاء والأعداء، لذا فالنصيحة أن تقترب من الخيام العربية نهاراً وأن تتقدم إليها بحذر إذا اتفق أن بينك وبين أيٍ من الرجال دمٌ وثأر.

أطلقنا الإبل لترعى في الوادي، وتجمعنا حول نار واحـدة لنسترجع تفاصيل الرحلة الطويلة الـتي قطعناها، ولنغـمس للمرة الأخـيـرة أيدينا في إناء مـشتـرك للطعام. نسينا التفاصيل الدقيقة لرحلتنا والمصاعب التي اجتزناها في خِضم الفرحة المشتركة، وقـام رفاق الرحلة المعوزون الطماعون دون شعور منهم بالخـجل بتقييم الخدمات التي قدّموها لنا. دارت أكواب القـهوة تارة إثر أخرى واستُخدم "هاون" مقلوب ليـقوم مقام المبـخرة، وأخرج عايض بعض أغـصان من نبات الصبـر كان يحفظها بعنايـة في تجاويف جيوب في السرج. واسـتخرج كلٌ من المدخنين، ذيب وعايض وواحد آخـر أو اثنين غليونه، وهم يتحدثون أثناء ذلك بـصوت منخفض عن تَنَسُّكِ العاصمة، حيث يتابع رجال الحسبة المتخلفون عن أداء الصلوات المتعاقبة المستمرة باستخدام العصا، وحـيث يلقى المدخنون ملاحقة لا هوادة فيها من رجال السلطة في الرياض والهفوف.

كتبت الآن لابن سعود رسالة أخبـره فيها بالموقع الذي بلغناه، وهيّأنا أنفسنا للراحة بينما خرج ذيب وعـايض راكبين في ضوء القمر ليسبقـونا بأخبار قدومنا. وفي صباح اليوم التالي ـ آخر أيام نوفمـبر (تشرين الثاني) ـ أفقنا مبكرين، وتركنا قـافلة المتاع لتلحق بنـا، وتقدمنا في جـماعـة قليلة في آخـر مرحلة من مـراحل رحلتنا. تقـدمنا عُلواً وهبوطاً مرتـقين أعلى المنحدر وهابطين نحـو الوادي، حتى قـدمنا إلى سطح آخر المنحـدرات الطويلة: دريبـات الخيل، ارتـقيناه لعلو شـاهق

قاصدين رابية مُسننة هي قمة المنحدر، وفي نهاية الأمر بلغنا القمة. "لا إله إلا الله! لا إله إلا الله". لاح لنا من تحتنا في ثنيات الوادي خطٌّ أخضر زُمرّدي، إنها حدائق الرياض، وبدت الحصون الطينية للعاصمة السعودية بصورة مبهمة من خلال منظر من النخيل.

الفصل الثالث

العاصمة السعودية

١- الوصول إلى الرياض

ترجّلنا عن المطايا، وبينما نحن وقوف على قمة المنحدر نُمعن النظر في تفاصيل المشهد الذي نراه إزاءنا، أقبل ثلاثة من الخيالة يعدون سريعاً نحونا وارتقوا المنحدر، وقفزوا برشاقة إلى الأرض، وتقدموا نحونا مرحبين على أعتاب الرياض. كان أحدهم هو عايض الذي كان قد سبقنا كما أشرنا من قبل، وهو الذي قام بالتعريف برفيقيه: أحدهما من موالي البيت الملكي اسمه سعيّد، والآخر ـ وكان المتحدث باسم المجموعة ـ هو إبراهيم بن جميعة رئيس تشريفات ابن سعود وقائد حرسه. لقد اتخذت من إبراهيم هذا موقفاً شخصيّاً منذ النظرة الأولى، ولسوء طالعي صار قدري أن أتعرف عليه عن قرب خلال الأشهر التالية.

وبعد تبادل التحايا الرسمية كما هي العادة، ركبنا جميعاً متحركين ببطء منحدرين من التل متوجهين صوب النخيل. كان إبراهيم بمظهره المهيب وملابسه الأنيقة، يسير بإزائي متبادلاً معي الأخبار والشكوى ممتطياً صهوة جواد صغير، بعظمةٍ طبيعية لدى العرب. وفي منتصف المنحدر كان في انتظارنا جماعة أناخوا مطاياهم بقربهم، وعندما وصلنا إليهم وقف زعيمهم مُحيياً، وتعرفنا عليه. لقد كان ذلك الرجل هو الكولونيل هاميلتون الوكيل السياسي في الكويت، وكان قد وصل إلى الرياض عن طريق القصيم قبل أسابيع ثلاثة.

ركبنا والمجموعة الأخرى، معاً لحافة حزام النخيل حيث توقفنا انتظاراً لفتح أبواب المدينة، إذ كنّا في وقت الظهيرة من يوم الجمعة، وكان كل الرجال كبيرهم وصغيرهم متجمعين في الجامع الكبير لأداء صلاة الجمعة الأسبوعية، ولهذا السبب

كانت تغلق كل أبواب المدينة في وجه الداخلين إليها والخارجين. ترجلنا في طريق ترابي يمرُّ بين بساتين النخيل المسورة، وجلسنا ننتظر في ظل حائط عالٍ لأحد البساتين حتى يُعاد فتح الأبواب. وفي هذه الأثناء كان النحيب المستمر لعجلة بئر مجاورة أثناء سحب الماء منها يوضح مدى الصمت القاتل الذي يلف المدينة، وكذلك كان النداء الروحي لمؤذن يدعو الناس للصلاة.

وفجأة سُمع حفيف أوراق الشجر، وعُلِمَ بطريقة ما أن الأبواب قد فتحت لآخرها. وبُعثت الروح وتواصلت الحياة في العالم الذي بدا ميتاً قبل قليل. حينذاك نهضنا وأعدنا السروج على المطايا، وتحركنا مرةً أخرى خلال أسوار الحدائق، ومنها دلفنا إلى أرض خلاء لنجد أننا ننظر لأسوار الرياض. كانت بيوت البدو السوداء تتناثر هنا وهناك بجوار المدينة، فشققنا طريقنا بينها نحو البوابة الشمالية[1] التي دخلنا المدينة عبرها مارّين بطريق ترابي وتخطينا حصناً ذا أبراج[2]، وحشود المصلّين الخارجين لتوهم من الجامع يحدّقون بنا. سرنا ببطء نحو ساحة القصر التي امتلأت بالناس، وأنخنا رواحلنا بقرب بوابة القصر ثم دخلناه تحت قيادة إبراهيم، عبر ممر طويل مزدحم نحو ساحة داخلية، وارتقينا مجموعة من درجات السلم يصطف فيها موالي مسلحون ورجالٌ من الحرس، ثم دلفنا إلى ممرٍ مُشابه مزدحم، ثم ذهبنا خلال ردهة إلى المكتب الملكي[3].

---

(١) يبدو أنه يقصد البوابة المعروفة ببوابة الثميري أو بوابة الأحساء وهي شرقية وليست شمالية. (المراجعون).

(٢) المقصود هو حصن المصمك. (المراجعون).

(٣) يسمون هذه الغرفة "ديوان" أو "مكتب" حيث يدير فيها ابن سعود المهام التي لا يمكن الاضطلاع بها في حضور جمهرة من الناس. (المؤلف).

نزع كل منا خُفّه قبل الدخول، ثم دلفنا إلى غرفة كبيرة مربعة ليتلقانا بترحاب كبير شيخ مُسن قصير القامة، يميل إلى البدانة، ولعينيه بريق؛ قادنا إلى أريكة ذات وسائد في أحد أركان الغرفة بجوار نافذةٍ مفتوحة. تيقنت بإيحاء من شعور داخلي أنَّ هناك شخصاً آخر في الغرفة، كان يحجبه عند دخولنا عمود قائم في وسط الغرفة، قوامٌ لرجل دولةٍ فارع الطول مستقيمه، يكسوه رداء أبيض متدلٍ، ومن فوقه عباءة لونها بني فاقع. وقف بوجهه العطوف الرجولي متنحياً إلى الجانب كأنه بسبب الخجل. كان هذا هو ابن سعود نفسه[1]: عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، إمام الدعوة السلفية وحاكم البلاد السعودية، والآخر كان أبوه عبدالرحمن ويسمونه تأدباً الإمام. لم يحدث بعد ذاك أن رأيتُ الأب والابن معاً، وإنني أرى أننا محظوظون إذ قدمنا يوم الجمعة حيث نلنا شرف مشاهدة أمرين متميّزين في النظام السعودي: إغلاق أبواب المدينة لحين الفراغ من صلاة الجمعة، والمراعاة اللصيقة للأعراف التي تحكم العلاقات الأسرية والتي قلّ أن نجد لها مثيلاً. ففي يوم الجمعة من كل أسبوع وبعد صلاة الجمعة ـ التي لا يخرج الإمام الورع من عُزلة منزله في هذه السن المتقدمة إلا لها ـ يقوم الإمام بزيارة رسمية لابنه في القصر. وفي هذه الجمعة تصادف أن وصلنا نحن في اللحظة نفسها التي جاء فيها الإمام للزيارة. ورغم أنَّنا حضرنا بصفتنا مبعوثين رسميين للحكومة البريطانية لنلتقي بحاكم البلاد، إلا أن الذي استقبلنا وأكرم وفادتنا لحظة وصولنا، في قاعة المقابلات الرسمية كان والده، بينما كان ابن سعود نفسه يجلس متنحياً في ركن قصي، متواضعاً ومُقللاً من قدر نفسه في حضرة والده، كما أمرته المبادئ الإسلامية.

لقد رأيت في الهند أباً وابناً تضمهم غرفة واحدة، الأول يجلس القرفصاء

(١) بنحو هذا يوصف تواضع الملك عبدالعزيز إذا كان بحضرة والده، وقد نقل عنه مواقف مشابهة تدل على تواضعه مع والده وبره به. (المراجعون).

على الأرض، والآخر محامٍ تلقى تعليمه في جامعة إنجليزية يجلس في ارتياح وتراخٍ على كرسي وثير ذي ذراعين، وهو يقود الحديث. وبينما كانت تبدو على الوالد الجالس القرفصاء علامات الحب والفخر بولده الناجح، فإن الابن كان خجلاً نوعاً ما من انتمائه لأبيه. إنهم في البلاد السعودية مازالوا بعيدين عن هذه المرحلة من الحضارة[1]، ومازالت قوانين العالم القديم محلّ التقدير، ملزمة للسيد والمسود، لن يدخل الرجل غرفة عُلوية إن كان يعلم أن أباه في الغرفة الدنيا، وفي المحفل العام يجلس الابن في أوضع مكان إن كان أبوه موجوداً.

جلس الإمام عبدالرحمن الآن في مقعده بجوار النافذة مشيراً لنا لنتخذ مجلسنا في مقعدين بجواره، وتقدم أحد الموالي بالشاي أولاً ثم بالقهوة، وفي كل مرة كانت تقدم للإمام أولاً ومن بعده نحن ثمَّ يذهب بها لابن سعود. وكان الحديث ـ كما يُتوقَّع في مثل هذه الحالات ـ رسمياً تسوده عبارات المجاملة. وبعد دقائق قليلة نهض عبدالرحمن عن مقعده مُبدياً ملاحظته: لا بدَّ أننا مرهقون بعد رحلتنا الطويلة، ثم غادر الغرفة دون أن يضيف شيئاً. تقدم الآن ابن سعود ليحتل المقعد الشاغر ودارت أكواب الشاي والقهوة مجدَّداً. صار الكوب الأول الآن يذهب إليه، وتواترت عبارات المجاملة كرَّة ثانية، شكرته على الترتيبات التي قام بها لتسهيل رحلتنا، كما هنأته على السلام والهدوء اللذين يخيمان على البلاد نتيجة لحسن إدارته، وأبدى هو عظيم سروره لاستقبال مبعوثي الحكومة البريطانية، وسأل عن صِحة عدد من الأصدقاء الذين كان قد تعرَّف عليهم عند زيارته للبصرة قبل اثني عشر شهراً، واستمر الحديث على هذا المنوال حتى اقترح هو أننا قد نحبّ أن نخلد للراحة بعد إجهاد الطريق.

---

(١) هذه ليست حضارة وإنما هي تخلف! لأن جميع الأديان والأعراف والتقاليد الإنسانية تحتم على الولد احترام أبيه، وقد جاء الاسلام وأكد هذه العلاقة وقواها. ويبدو أن المؤلف قد استحضر الموقف الذي شاهده في الهند، عندما رأى الموقف المثالي الذي وقفه الملك عبدالعزيز مع والده. (المراجعون).

استأذنا للخروج، فقادنا إبراهيم إلى مقرّ إقامتنا، الذي كان الكولونيل هاميلتون قد سبقنا بالسكن فيه، وهو جناح مكون من ثلاث غرف وحمّام في الطابق العلوي لساحة الدار، وهو جزء من الجناح الشرقي للقصر وتفصِله عن قاعة الاجتماعات ساحة صغيرة مكشوفة رباعية الزوايا، قادتنا منها مجموعة من الدرجات إلى بابنا الخاص. وكانت بقية ساحة الدار مخصصة فيما يبدو لسكن موالي القصر وأسرهم، أما الأبواب التي تقود من الجزء الخاص بهؤلاء إلى جناحنا فقد أُحكم إغلاقها بالمزالج لتفصلنا تماماً عن هذه المنطقة. يوضح هذا الجناح كيفية تصميم المنازل لدى أثرياء الرياض. قد تستخدم درجات السلم الخارجية كمدخل خاص لابن سعود نفسه، بينما تكون الأبواب الداخلية لاستخدام الخادمات من الداخل. يحتوي الجناح على غرفة كبيرة في الوسط تقومُ على أعمدة ثلاثة مع وجود ساتر عرضي يحجب ثلثيها عن أعين القادم من الباب الداخلي، حماية لمن بالداخل من النظرات الفجّة عند فتح الباب للسماح بدخول الخدم، هذه الغرفة للاستقبال، وبها باب يقود إلى غرفة نوم مُربَّعة تصغرها. أما الغرفة الثالثة فهي مستطيلة الشكل وغير ضرورية فيما يبدو. وهي تقود - كما يكون الحمّام أيضاً - إلى صالة صغيرة على رأس الدرجات الخارجية. يتكون الحمام من مدخل صغير يؤدي إلى غرفة الاستحمام، ومن خلفها المرحاض وهذا الأخير غرفة صغيرة ليس فيها من أثاث سوى كومة من حجارة، الغرض من وجودها واضح، ومنصّة طينية عالية بعض الشيء وبها مجرى ينحدر نحو حفرة في الوسط. بينما تتكون موجودات غرفة الحمام من آنية ماء نحاسية أو قصديرية. أما أثاث بقية الغرف فهو الحصير والسجاد والوسائد مع قليل من الكراسي الخرِبة المغطاة بنسيج فاخر، ولعل

الكراسي أحضرت خصيصاً لاستخدامنا. هذا ما يمكن أن تعده جناح سكن نموذجي بالرياض، وكان قدري أن صار هذا منزلي لفترة بلغت سبعين يوماً موزعة على عدد من الشهور التي تلت زيارتي الأولى.

أعقب وصولنا بفترة وجيزة إحضار وجبة أميرية جلسنا لها على حصير فوق الأرض، لنتناول من صحافٍ وأطباق متنوعة من الخضراوات والمأكولات الشهية الأخرى إضافة لمقدار وافر من الأرز ولحم الضأن. شاركنا طعامنا إبراهيم والـمُلاَّ عبدالله بن عبدالله منشئ الوكالة الكويتية الذي رافق الكولونيل هاميلتون في رحلته. بعد أن تناولنا الوجبة زارنا شاب وسيم الطلعة: عبدالله بن سعيد أفندي، وهو عربي من الموصل وزوج ابنة محمد أفندي الذي التقيت به في الأحساء. كان الشاب قد درس الطب لسنوات عديدة في القسطنطينية وحصل على دبلوم طبي، وقضى شهوراً عديدة في باريس. لقد كان مقيماً ـ فيما يبدو ـ في البصرة قبيل اندلاع الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا، ومنذ ذلك الوقت ذهب للهفوف ليتزوج أو لأنه كان متزوجاً من ابنة مواطنه محمد أفندي. وبما أن الصلة بينه وبين بلده قد انقطعت بعد نشوء الخصومات والحروب في بلاد الرافدين، فلقد آثر أن يبقى في الجزيرة العربية في فترة الحرب وعرض خدماته لابن سعود الذي وظفه كمستشار له في مجاليْ الطب والسياسة معاً. كان عبدالله يتحدث الفرنسية بامتياز، وبما أن ابن سعود كان قد انتدبه خصيصاً للاستجابة لطلباتنا فلقد صار رفيقاً دائماً لنا وصديقاً نعتزُّ بصداقته.

قضينا ما تبقى من وقت ما بعد الظهيرة في إفراغ محتويات حقائبنا وترتيب أمرنا في مقرّنا الجديد. وبعثنا بالخطابات والهدايا التي أحضرناها لابن سعود،

ووزعنا هباتٍ في شكل مال وعباءات لرفـاق رحلتنا من الأحساء للرياض. ثُمَّ قُدِّمَ لنا العـشاءُ في السـاعة ٥:٣٠ مـساء، وكـان لدينا بعده وقت فـراغ قضـيتـه في الاستـحمـام الذي كنت في حاجـة حقـيقـية له. وفي السـاعة ٧:٣٠ مـساء تمّ استدعاؤنا للاجتماع الرسمي الأوّل مع ابن سعود.

٢- الرياض: المدينة وضواحيها

قضيت عشرة أيام في العاصمة السعودية في هذه المناسبة، وكان وقتي مزدحماً بالأعمال الرسمية الخاصة بمهمتي وبالمناقشات المطوّلة مع ابن سعود فيما يختص بالأمر الذي أتى بنا إلى بلاطه، لذا لم يكن لديّ سوى القليل من الفراغ فلم أتمكن من دراسة الحياة والسمات الطوبوغرافية لمدينة الرياض بالتفاصيل التي تمكنني من وصفها بطريقة عادية، ثم إنني كنت مقتنعاً بجدوى ترك هذا العمل الكبير لجهد يُبذل مستقبلاً في الشهور التي تنتظرني آملاً أن أستطيع أن أسهب فيه رغم ما يتطلبه من جهد عظيم، وإن لم يكن أمامي مجال لأن أزيد أو أصحح أو أحسن الصورة الحية التي رسمها قبل خمس وخمسين سنة الرحالة المنحدر من أصل يهودي ويليام جيفورد بلجريف للمدينة وسكانها بعد أن أقام بها اثنين وأربعين يوماً متنكراً في هيئة طبيب سوري أثناء العهد الصارم لحكم فيصل، جدّ مضيفنا.

ولكن لن يكتمل أي تقرير عن البلاد السعودية في العصور الحديثة دون رسم صورة سريعة لمدينتها الرئيسة، وللحياة التي تنبض بها شرايينها. ولعل المرحلة التي وصلت إليها الآن في سردي لتجوالي في الجزيرة العربية هي اللحظة المناسبة لأجمع شتات القطع المتناثرة من المعلومات والانطباعات التي تجمعت كيفما اتفق في أوقات متفرقة أثناء إقامة امتدت لمدة سبعين يوماً، تمثل ثلاث فترات مختلفة تفصل بينها فترات امتدت أشهراً عديدة. ثم إن ما يشجعني الآن أن أحاول إعادة رسم هذه الصورة - رغم أنه قد سبقني لهذا العمل فنان عظيم - أسبابٌ مختلفة: في المقام الأول، لابد أن تقلب الأحوال والانتفاضات السياسية والاجتماعية التي صاحبتها قد تركت آثارها - ليس فقط المعنوية بل المادية أيضاً - على عاصمة الدولة السعودية

في المدى الطويل للسنوات التي انقضت منذ زيارة بلجريف؛ ثانياً: لقد كانت الظروف التي أقمت في كنفها بالرياض مواتية لعمل كهذا، إذ كان بإمكاني أن أحمل وأن أستخدم بِحُرِّيَّة بوصلة وأدواتٍ علمية ما كان يجرؤ بلجريف أن يضمها لمقتنياته الخاصة بصيدليته المتنقلة، وأخيراً وليس آخراً أقولها بكل تواضع ودون ادعاء شخصي بالعصمة من الخطأ، لقد كانت هناك مرات زلَّ فيها بلجريف، قد يكون بسبب النسيان أو لجنوحٍ زائدٍ لاستخدام الخيال أو لأسباب أخرى.

سأعاود الحديث عن بلجريف قريباً في سياق هذا الكتاب[1]. بدأنا رحلتنا من شرق البلاد حتى بلغنا التل المنخفض: دريبات الخيل وعندها نظرت من حافته إلى أسفل للمرة الأولى لأرى الرياض"[2]، الهدف الرئيس لرحلتنا الطويلة، عاصمة نجد وعاصمة نصف الجزيرة العربية، التي تقع في أعمق أعماقها"، عندما رأيت المشهد أمامي لأول وهلة عجبتُ إن كان حقيقة متفقاً مع الوصف الذي أطلقه سَلَفِي بلجريف منذ النظرة الأولى من حافة التل المقابل بفيضٍ من خيال شاعر، وبحثت عبثاً عن "التلال الزرقاء والقمم المثلمة لليمامة"[3] في الخلفية الجنوبية للمدينة. كما بحثت عن "السهول الخصبة" في نفس الموقع "والتي كانت تنتشر فيها البساتين والقرى بكثافة"، وبحثت دون جدوى عن المنظر الطبيعي الأوسع والأكثر تنوعاً من ذاك الذي يتلقاك عند دخولك دمشق "إذ تمتدُّ على مد البصر سهول أكثر اتساعاً وجبال أكثر انحداراً، ثم إن الجمع بين الجدب المداري والخضرة المترفة، وبين الاكتظاظ بالسكان والطرق الصحراوية المقفرة أمرٌ لا يمكن أن تقدمه سوى الجزيرة العربية، وإزاءها تبدو سوريا عديمة الحرارة والمتعة، وتبدو إيطاليا رتيبة مملة"[4].

(١) انظر الجزء الثاني ص١٦٨ . (المؤلف).

(٢) ويليام جيفورد بلجريف (W.G.P) الجزء الأول ص٣٨٨ . (المؤلف).

(٣) يشير إلى ما أشار إليه بلجريف في رحلته عن قول عمرو بن كلثوم:

وأقبلت اليمامة واشمخرت ... كأسياف بأيدي مصلتينا ... (المراجعون).

(٤) ويليام جيفورد بلجريف (W.G.P) الجزء الأول ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

كان أمامـي من الجدب المداري والطرق الصحراوية مـا يكفي وزيادة، وكان يقع أمامي حـوض ضحل يتخذ شكل الإجّـاص (الكمثرى) تحيط به أراض عـالية مقفرة. وهذه القفار المهجورة المكونة من الـصخور العالية هي التي أفرزت أطرافها خطوطاً ضيقة خضراء أو سوداء في ذلك التجويف وهي واحتا الرياض ومنفوحة. ويفصل بين الواحتين ذلك اللسان الضيّق الـذي وقفنا عليه والذي يبرز من المنحدر المقفر، ويمـتد بينهما في اتجـاه الجنوب الغربي نحو صَدْعٍ في المنحـدر التالي الذي تبدو منه رقـعة أو اثنتان من النخـيل المتناثرة لتعيِّن مـوقع واحة الباطن، ومـجرى وادي حنيـفة الذي يخـطُّ لنفسـه مسـاراً في قلب طويق. كـانت الأبراج الطينيـة العظيمة تطل في هدوء فـوق هامات النخيل بالقرب من الطرف الشـمالي للواحة، وفي الأماكن الأخرى كانت الأبراج أو المنازل تبدو من خـلال النخيل، كما كانت أبراج المراقبة في طريق منفوحة لاتزال تحكي قصص القتال القديم.

منذ اليوم الأول لوصولي إلى الرياض كنت أنظر من الأراضـي المرتفعة نحو الرياض لأرى المشهـد نفسـه من كل جانب من جوانب حـوض الرياض. من كل موقع كان المنظر واحـداً لا يتغير: سـترٌ من النخيل على خلفية من الصـحراء، ما عدا جهة الجنوب حيث إن انحـدار الحوض كان في ذلك الاتجاه، لذا يُرى من هنا كلُّ المدى للواحتين، ويبدو مظهرهما معاً كشكلٍ معين كبير من النباتات التي تتخذ مجرى وادي حنيفة قاعدةً لها.

سأتحدث عن منفوحـة والباطن في فصلٍ لاحقٍ[1] أصف فيه زيارات قمت بها لهـذه المواقع. يفصل واحـة الرياض عن منفوحـة الشريط الصـحراوي الذي ذكرناه، ويفـصلها عن الباطن منحـدرُ طويق. وتمتد واحة الرياض من نقطة تبـعد

(١) راجع ص ٥٤٣ . (المؤلف).

المسافـة نفسها عن منـفوحة والباطن في الجـانب الأيسر لوادي حنيفـة، وتمتد في ارتفاع حتى تبلغ حوضاً ضحلاً يتَّخذ بالتقريب شكلاً ماسياً تشير أركانه للاتجاهات الأربعـة، ويبلغ طوله ثلاثة أميـال من طرفـه الجنوبي حتى حـديقة الشـاميـة في الشمال، بينمـا يبلغ عرضه أقلّ من ميل واحد في أعـرض قطاعاته وهو الذي تقع فيـه المدينة نفسها والتي تـطوِّقها بإحكام بساتين النـخيل الكثيفـة من كل الجوانب مـاعدا الجـزء الشمـالي الشرقـي الذي تتناثر فيـه بسـاتين قليلة صَوْبَ جـبل (أبو مخروق) التي يبدأ منـها مجرى الشمسيـة المائي، الشريان الرئيس للواحة، والذي يجري نحـو الحديقة الـتي تحمل اسمـه، ومن ثمَّ يجري متـخطّياً الحـائط الشرقي للمدينة نحو منفوحة.

بُنيت مدينة الرياض على منصّة خفيفـة من الحجارة الجيرية، تتوسطها الربوة التي يقف شامـخاً فوقـها ـ ليعلو على كلِّ المنـازل المحيطة ـ المبنى المهيب للقـصر الملكي. إنَّ خارطة بلجـريف للعاصمة السعـودية لا تعدو أن تكون شيئـاً أكثر من تخطيط تقريبي من الذاكـرة، تصف المدينة بأنها ذات حدود مستطيلة مـتناسقة مع انبعاج واضح إلى الداخل في الركن الـشمالي الشرقي، ويمتد عرضـها من الشرق إلى الغرب بما يعادل نصف الامـتداد من الشمال للجنوب. لابدّ أنّ اختـلافات قد طرأت على تخطيـط المدينة على مـدى نصف قـرن من الحـروب والاضطرابات، ولكن الخارطة جدُّ مـبهمة وتفتـقر إلى التعريفـات لتصير مقنعـة، رغم ما بها من بعض التفاصيل الداخلية الممتازة، وهي من نواحٍ كثيرة قد تعطي انطباعاً عن المدينة آنئذٍ أكثر من أن تكون وصـفاً لرحّالة زارها حديثاً، فهو قـد حدّد أبعاد المدينة على شكل الحرف الإنجليزي (L)، ووضع القصر في زاوية الحرف (L).

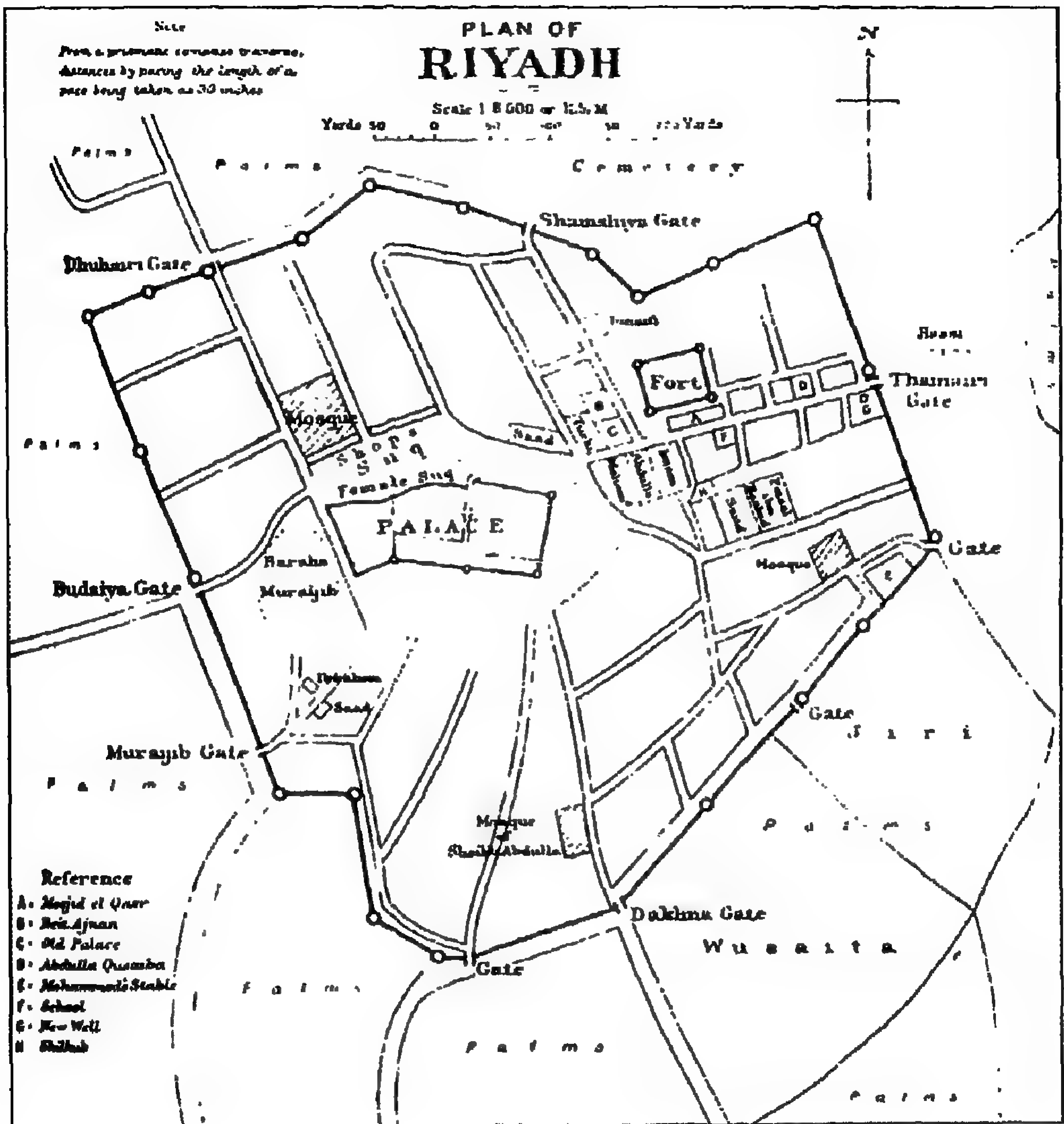
كم ساعة سعيدة قضيتـها بصحبة البوصلة والكراسـة، أقيس أطوال أسوار

المدينة في مسعىً للوصول إلى فكرة تقارب الصواب عن شكلها وأبعادها واتجاهاتها، وكان هذا الجهد عُرضة لمقاطعة ذوي الفضول الاتّهامي، بيد أنني أصررت على المضيِّ قُدماً حتى أنجزت المهمّة، ويمكن أن ترى في الخارطة المرفقة أنَّ العاصمة السعودية تتخذ شكلاً غير منتظم ذا واجهات عديدة، ويمكن مع الاستعانة بقليل من الخيال اعتبارها مثلثاً أسطوانياً متساوي الأضلاع بخطٍ قاعدي يفوق طوله ٦٠٠ ياردة في الشمال، وتكون قمته في الجنوب مع مساحة للسطح تبلغ مئة فدّان، وبطرق تنتشر في كل الاتجاهات نحو المحيط من منطقة دائرية تقريباً تقع في الوسط، وفيها يقع القصر.

تُحاط المدينة تماماً بحائط سميك من طوب طيني خشن مجفف في الشمس، ارتفاعه بالتقريب خمسة وعشرون قدماً، يعلوه إطار تصميمه على شكل أنياب سمك القرش. وتوجد على أبعاد متقاربة حصون وأبراج حراسة صغيرة[1] أكثر تواضعاً، وهي في معظم الأحوال أسطوانية وتستدقّ قليلاً في اتّجاه القمة، ولكنَّ القليل منها مربع الشكل أو مستطيلَه، وأطوالها في المدى بين ثلاثين وأربعين قدماً وفي أغلب الأحوال تنتأ قليلاً عن خط الحائط نحو الخارج من أجل فاعلية أكثر للقدرات الدفاعية. الجزء الأعظم من هذا الحائط وحصونه ـ كما يبدو هذه الأيام ـ وعلى وجه الخصوص في الجانبين الشمالي والشرقي هو بناء حديث نسبياً، إذ أنَّ الاحتلال الرشيدي للعاصمة السعودية كان قد اتّسم بتحطيم دفاعات المدينة القديمة، الأمر الذي قاد في النهاية إلى إبطال فعل المحتلّين أنفسهم حين تمكن ابن سعود من دخول المدينة متخطياً حطام أسوارها دون أن يراه أحد، ولكن الأسوار والحصون في الجانبين الغربي والجنوبي سُمْكُها أكبر وتماسكها أعظم، كما يوجد

---

(١) أعتقد أن عددها الكلي ٢٢. (المؤلف).



خارطة الرياض

حوض يشبه الخندق، ويبدو أنَّ كلّاً هذا الجانب هو جزء من الدفاعات القديمة التي تعود للزمن الذي كانت العداوة بين منفوحه والرياض فيه مُستعرة وقوتهما متماثلة؛ ومما يقوي هذا الانطباع وجود أكوام من ركام المباني في أطراف الواحة من الناحيتين الجنوبية والغربية التي قد تكون قرئ صغيرة محصّنة أو نقاطاً أمامية والتي استُغلّت في بنائها الصخور الجيرية الكثيرة الموجودة في المنحدرات القريبةَ، والتي مُلّط جزء منها بالطين، وكذلك يدعم هذا الانطباع أن أجود بساتين النخيل وأكملها نُمواً هي التي ترتفع بطول الحائط، وتقع في هذه الجوانب، وكلّ هذا قد يشير إلى أن الأسوار في هذا الجانب كانت ـ كما هي الآن ـ تكوّن الحدود الأصلية للمدينة في هذا الجانب.

من المتعارف عليه بين أهل المدينة أنَّ كومة ضئيلة من الركام تُعرف باسم حجر اليمامة، على بعد ربع ميل من المدينة الحديثة في الاتجاه الشمالي الشرقي صوب مزرعة الشمسية هي الموقع الأصلي لمدينة الرياض، ولكن ضآلة ما تبقّى من ركام قد يؤكد رأياً مفاده أنَّ ذلك الموقع القديم لم يكن سوى قرية صغيرة ترجع إلى عهد ما قبل إنشاء الرياض، عندما كانت منفوحة ذات سيادة لا تنازع على الحوض كُله.

هناك تسع فتحات في محيط أسوار المدينة، وهي مجموع البوابات؛ توقف استخدام بعضها إلاَّ كمنافذ لبساتين النخيل المسوَّرة الواقعة بالقرب منها. وأهم البوابات العاملة: الثميري، والظهيرة، أولاهما في الجانب الشرقي من المدينة، وهي المخرج المعتاد للطرق الرئيسة المتّجهة نحو الشمال والشرق، وأيضاً للطريق الجنوبي المتّجه نحو منفوحة. والبّوابة الثانية في الركن المتجه للوشم والقصيم

وطريق الحجاج الغربي المتّجه لمكّة. وتليها في الأهميّة بوّابات دخنة والمريقب، في الجزء الجنوبي الغربي. وهناك بوّابة بلا اسم بينهما. وكلّ هذه البوابات تقود إلى الطرق الجنوبية والجنوبية الغربية. وهناك بوّابة البديعة التي تقود إلى الباطن، وأخيراً بوّابة الشمسيَّة وعن طريقها يمكن الوصول للطريق الشمالي.

إن التنظيم الداخلي للطرق غير متماثل باستثناء الالتقاء الطبيعي ـ الذي تحدثنا عنه سابقاً ـ لكل خطوط المواصلات الرئيسة في المنطقة الوسطى. الطريق الرئيس داخل المدينة هو الذي يصل في خط مستقيم بوّابة الثميري بالقصر، ثمَّ يتجّة عبر السوق نحو بوابة البديعة، مع فرع ينفصل عنه في زاوية قائمة في الطرف الغربي متَّجهاً للسوق ومنه لبوابة الظهيرة.

تحتلّ مساحة السوق كل الفناء المكشوف شمال القصر، وتنحدر نحو الغرب في منحنى حاد، وهي مقسّمة إلى جزأين بينهما حائط. يخُصص القسم الذي يقع بين هذا الحائط وسور القصر للنساء فقط وفيه بائعات الخضراوات والمواد التموينيَّة المنزلية وما إليها، بينما يخصَّص الجزء الآخر للرجال، وهو الأكبر ويتكون من حوالي ١٢٠ متجراً متواضعاً يصطفّ جزء منها على جانبي الشارع العريض، بينما يصطفّ الجزء الآخر ـ ظهراً لظهر ـ على جزيرة ضيقة ليست بالطويلة في منتصف الشارع العريض، وتتَّخذ بعض المتاجر في الجانب الذي يقع على يسار السوق الحوائط الخارجية للمنازل السكنية العادية، ظهراً لها، والبعض الآخر يتخذ الحائط الجنوبي للجامع الكبير نفسه ظهراً. في أيام السوق وأثناء ساعات الذروة في الأيام العادية يعجّ السوق بالحركة والحياة، وتعرض المتاجر مجموعات من البضائع المتنوعة ابتداءً بالأقمشة المستوردة، ومروراً بالمصنوعات الجلديّة المخلية والسروج، ووصولاً إلى سلسلة السلع كالشاي والبن والسكر والبهارات واللحوم والأرز

واحتياجـات الحياة الأخرى كالأشياء التـرفيهية وتلك التي تحقّق الرغـبات المختلفة كالبنادق والذخيرة والساعات ومناظر الميدان. ماهي السلعة التي لا تجدها؟.

وتقـفل الطريق قطعان الخـراف التي تكون مجـالاً لكثيـر من المساومـات بين أصحابها ومـن يريدون الشراء الذين يمرّون من بهيمةٍ إلى أخرى بصـبر الرجال الذين يودّون أن يحـصلوا على أجود الأسـعار وإلا فـلا، يتـحسّـسون الأجـزاء المختلفـة للحيوانات التعيسة بأنامل مدرّبة. ويمرُّ هنا أو هناك أحد التجار أو الباعة المتجوّلين بين الحشود الصاخبة محاولاً بيع بندقيـة أو منظار ميدار أو إحدى عباءات الأحساء ويرفع صوته مـعلناً آخر سعـر حصل عليه محـاولاً الحصول على سـعرٍ أعلى. ومن وقت لآخر يمرّ جمل محمَّل بالعلف أو حطب الوقود فيخترق حشود الناس والبهائم كيفما اتّفق متخيّراً طريقه بين المارّة دافعاً إيَّاهم جانباً بحمله المنتشر في غير ما اتّساق.

وفي ساعات الصلاة يتـغيرّ المشهد فجأة؛ إذ عنـد سماع صوت المؤذن تغلق المتاجر وتختفي الحـشود للوضوء ويطوف المطوعون(١) خلال الطرق الخالية، وبعد لحظات تمتلئ الطرق مـجدّداً بالناس وهم يسـيرون ببطء ووقـار وأعينـهُم مشرئـبة بخشـوع نحو المساجد. وبعـد نهاية الصلاة تفـتح المتاجر أبوابها ومـرّةً أخرى تملأ الجلبة ساحة السوق. وهكذا يتعاقب الضجيج والصمت طوال النهار.

الجامع الكبير أو جامع الرياض هو مبنى مستطيل فسيح، طوله حوالي ستين ياردة وعرضة حوالي خمسين ياردة ويواجه بابه الرئيس السوقَ من خلال فتحةٍ بين المتاجـر التي تصطف على حائطه الجـنوبي في حين أنَّ القبلة ـ أو اتّجـاه الصلاة ـ الذي اتّخذ المبنى اتجاهاته في ضوئه ـ تكون على شكل انبـعاج يسير (محراب) إلى الجنوب قليـلاً من اتّجاه الغـرب في الحـائط الغربي وهو الأطول. وتوجـد أبواب مساعدة بجوار الباب الرئيس وكذلك في الحائط الشرقي. تنقسم مساحة الجامع من

(١) رجال الحسبة. (المراجعون)

الداخل إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأوسط منها فناء مكشوف يحتل حوالي ربع المبنى في حين أنّ القسمين الآخرين معروشان بأسقف مسطّحة منخفضة وتسندها في صفوفٍ عديدة أعمدة حجرية ضخمة ليكوّنا رواقين (ليوانين) معمّدين مسقوفين لراحة المصلين أثناء ساعات النّهار القائظة. تزيّن هذه الرواقات في الأوجه الداخلية المواجهة للفناء الأوسط المكشوف صفوفٌ من أقواس مُسنّنة بطريقة المعمار السعودي النموذجي ذي المزايا الجمّة رغم أنّ العمل بسيط وغير مصقول. يحتل الرواق في الجزء المتقدّم الذي تقع فيه القبلة حوالي نصف المساحة الكلّية للجامع تاركاً ربع المساحة للرواق الآخر. أسقف الجامع عارية عن الجماليات والزخارف وهي محاطة بمتراس حقيقي مع شكل مربّع منخفض تعوزه البراعة بالقرب من وسط الجانب الشمالي يُستخدم كمئذنة إذ أنّ المآذن المعروفة في مساجد البلدان الإسلامية الأخرى عمل يحرمه السلفيون المتمسكون الذين يعدون زخرفة أماكن العبادة من عمل الشيطان[1]. يوجد في الركن الجنوبي الشرقي نتوء مشابه ولكنه يصغره كثيراً بينما يرتفع محراب القبلة قليلاً فوق مستوى السقف.

إضافةً للجامع الكبير والقصر فإن المبنى الوحيد المتميّز معماريّاً في المدينة هو الحصن[2]، وهو مبنى عظيم مربع الشكل أسواره ضخمة ومعاقله الناتئة عنه في الأركان الأربعة عظيمة الثقل. ويقع الحصن إلى الشمال قليلاً من الشارع الرئيس، تقريباً. في منتصف الطريق بين القصر وبوابة الثميري. يعود تاريخ

(١) المؤلف يخلط بين المآذن والزخارف، والواقع أن الزخارف في داخل المساجد منهي عنها لأنها تشغل المصلي عن الخشوع في الصلاة، ومن هذا المنطلق ليس في المساجد التي رآها المؤلف في المملكة العربية السعودية شيء من هذه الزخارف. أما المآذن فليست محرمة كما يدعي المؤلف، وهي منتشرة بأشكال وارتفاعات مختلفة. (المراجعون).

(٢) حصن المصمك. (المراجعون).

الحصن بالشكل الذي هو عليه الآن لحوالي نصف قرن، أي للجزء الأخير من عهد الإمام فيصل أو بداية عـهد ابنه وخليفته عبد الله الـذي يدين الحصن ببقائه له. لا يستخدم الحـصن الآن إلاَّ كمستودع للأسلحة، وسجن ومـستودع عام، إذ أنَّ ابن سعود وجد أنَّه وقد امتدت أوقات السلم التي بدأت بعودته من المنفى تبرز الانتقال إلى قصـر جدّه الفسـيح الذي يليق أكثر بدوره كـملك عظيم مقـارنةً بذلك البرج المحصَّن الذي كان عمّه يسعى بالإقامة فيه.

لعله لا يوجد في كلّ ما يتبع لابن سعود من بلاد ـ باسـتثناء محتمل لحصن بريدة ـ مبنى كقصر ابن سعود الملكي في امـتياز واتّساق أجزائه، وفي جماله وفي تمثيله لكلّ ما هو بديـع في المعمار الحديث للجزيرة العـربية. ولعلّ أهمّ مزاياه هي البساطة الفاتنة لتصميمه مع غياب شبه كامل للزخرفة؛ صرحٌ مناسب جداً لتوفير ـ ليس فقط الرفـاهيةـ بل الأمن أيضاً لمن يعيشـون بين أسواره. كان جزء كـبير من الجناح الغربي للمبنى أثناء زيارتي مخرّباً بعض الشئ وكان البناؤون منشغلين بإعادة ترتيبه بعد التَّشَوُّش الذي صاحب أعمال الـصيانة والتعديل، إذ كانوا يسعون أيضاً لزيادة المباني الداخلية فيه لمواكبة النمو المـتزايد لعائلة ابن سعود والعاملين بقصره، والذين كانت مساكنهم تحتلّ موقعاً وسطاً بجوار الحائط الجنوبي وتتَّصل بواسطة ممر بالجزء المقابل من القـصر الملكي في منتصف الحائط الشمالي الذي تقع فـيه قاعات الاجتماعات والمكاتب المركزية للإدارة.

وكان المدخل الرئيس لهذا الجانب يفتح شـرقاً من مبنى ناتئ به كُوَّات ويقود مباشـرة إلى الزحام الذي يحاصرُ الداخل في كل الأوقـات والذي يمكن رؤيته من عدد من النوافذ المشعّرة في حجـرة ابن سعود الخاصة في الطابق الأوّل الذي يعلو

الجزء الناتئ فوق البــاب مباشرةً. أمّا الجزء المخـصص للموالي والخدم من الجنسين الذين يحتلّون فناءً في الركن الشمالي الشرقي، وللمطابخ والإسطبلات التي تنتشر في الجزء الجنوبي الشرقي من المبنى. وفي الجانب الشرقي بابان منفصلان. وتوجد المعاقل المحـصّنة في ملاحق القصر وتفـصل بينها مسـافات منتظمة وتوفّر الحـماية للقصر. لكنَّ أكـثر الأجزاء مجالاً وأناقةً في كل المبني هي بلا شـك أكثر الأجزاء التي يراها المقـبل على القـصر بطول الطـريق الرئيس القادم من الـبوابة الشـرقيـة للمـدينة؛ حيـث يرى في الركن البرج الواسـع والامتـداد العظيم للسـور الطيني بفتحاته المثلثة الصغيـرة والحاشية التي تعلوه من الأبراج المدرّجة التي تفسحُ المجال في الطرق الأبعد، للـبرج الكبيـر وللحائط الذى يرتفع أوسطه ممتـداً نحو الداخل ليحـاذي البرج الكبـير في ارتفـاعه. كلّ هذه الأجـزاء تشكّلُ صورةً رائعـة لهذه الواجهة التي تقع قبالة الفناء المربّع والسوق.

كان سطح الجـزء المرتفع من الحائط مـخصـصاً لاستـخدامي ليـلاً في فصل الصيف، ومن ذلك الموقع المطلّ على المدينة كلها كان بإمكاني أن أفحص بدقّة ليس فقط الأسقف المجاورة ولكن المنطقة المحيطـة كلها طولاً وعرضاً. كانت توجد على هذا الحائط سـارية طويلة رقيقة تشـبه سارية العلم ولكنهـا كانت في حقيـقة الأمر لمصباح، وكان المصـباح العظيم القائم عليها قد تمّ شـراؤه من بومباي. وكان يرُفع على السارية كلّ مـساء ليضيء الأسطح العـديدة للقصر والتي ينـتشر فيـها سكان القصر للاستمتاع بنسيم الليل البارد. كان المصباح يدلّى عادة عن ساريته ويطفأ قبل منتصف الليل بقليل، أو عندما يهجع ابن سعـود للنوم، ولكن أثناء شهر رمضان، كان المصباح يُترك مضيئاً طوال الليل ليـضيئ لجماعات المصلّين، وكانت إزالته قبيلْ بزوغ الفجر تعطي إشارة للمدينة بأسرها بأنه قد حان وقت الإمساك.

لقد كـان القصـر بكتلته غيـر المنتظمة يغطي الجـزء الأعظم من الأرض في وسط المدينة، وكانت مساكن الأسرة المالكة تحتل وفقاً لتقديري التقريبي حوالي ربع مسـاحة المدينة كلّها، بينما كـانت المساجد التي يبلغ عـددها بين خمسة عـشر أو عشرين[1] دون أن تتحلّى بإبداعات معمارية، إضافـةً للجامع الكبير والحصن تحتل في مجملها حوالي المساحة نفسـها. بينما كان النصف المتبقي من المساحة التي تقع داخل إطار الأسوار مكتظة بمساكن عاديّة لا تستحقُّ وصفاً خاصاً لها.

تتخلّل بسـاتين النخيل الكثيفة المـدينة كلّها ما عدا التي في الاتجّـاه الشمالي الشرقي. وفي كثير من هذه البساتين توجد مبانٍ تستخدم كمساكن ريفية عندما يودّ أصحابهـا الهروب من نمط المعيشة الرتيب داخل المديـنة. وفي داخل هذه البساتين توجد آبار عميقة لسحب الماء (قليب)، وتكون واسعة جداً في حالات كثيرة ويبدو أنَّها تعمـل ليلاً ونهاراً إذ أنّ أزيز بكرات السحب لا ينقطع. وتتـشابه هذه الآبار، ويُمكن أن نأخذ مثالاً لهـا تلك البئر التي تتوسَّطُ وتسقي حديقـة تسمىًّ الوسيطى وهي حـديقة رائعـة تقع على الجـانب الجنوبي الشـرقي للمديـنة ويمتلكها الإمـام عبدالرحمن. مساحة فوهة هذه البئر العظيمة حوالي عشرة أقدام مربّعة في السطح وتستدقُّ قليـلاً نحو الأسفل حتى تبلغ سطح الماء الذي يبـعدُ في المدى بين أربعين وخمـسين قدماً عن سطح الأرض. وتشـقُّ الآبار عبر الصـخور الجيـرية الصُّلبة، ويُقوى الجزء الأعلى منها حـتى حوالي ثلث عمقها تقوية إضافـية بألواح صخرية

(١) يتلو الجامع الكبـير في الأهمية مسـجد آل الشيخ، ويقع شرق القـصر ويُسمى هكذا نسبـة لرئيس علماء الدعـوة في التسلسل الهـرمي الوهابي، الشيـخ عبدالـله بن عبـدالوهاب(*) الذي يؤم المصلين في هذا المسجد في كل الصلوات باستـثناء صلاة الجمعة حيث يؤم المصلين بالجامع الكبيـر. وللإمام عبدالرحمن مصلّـى خاص في منزله، وهناك مـصلى آخر في القـصر يصلّي فـيه ابن سـعود عادة عندمـا لا يذهب للجامع الكبير، وهناك مسجد آخر بطول الحصن، ويقع بينه وبين الشارع الرئيس. (المؤلف).

(*) المقصود به الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ. (المراجعون).

تلصق إلى بعضها بطريقة خشنة، ويعلو فوهة الحفرة بناء فوقي ثقيل، مثلث الأبعاد يسمى عِد وتُبنى الدعامات والأجزاء المساعدة من جذوع النخيل وخشب الأثل معاً. ويُزود عمود (العد) الأعلى المتعارض بست بكرات (محَّالة) على كل جانب؛ اثنتي عشرة بكرة في مجموعها، بينما يُزود العمود القاعدي الذي يرتاح على تجويف مَبْنَى البئر ماراً فوق فوهته بعدد مماثل من البكرات (دراجة)، وتجرى على البكرات حبالٌ متينة مصنوعة من القنب، ويكون أحد طرفيها مربوطاً بالأوعية الجلدية (القِرَب) ـ والقربة الواحدة مصنوعة من جلد ماعز بكامله ـ وتُسحب من فوق البكرات العليا، ويُربط الطرف الآخر للحبال بحمير الأحساء القوية. وفي هذه الحالة، وفي آبار أخرى تُستخدم البغال والحمير[1] معاً، وهناك حبال أرفع تجري فوق البكرات السفلى وتربط أطرافها بالحيوانات من جانب، وبأعناق القرب المثقلة بالحجارة من الطرف الآخر. وعلى كل من جانبي فوهة البئر هناك منحدر حاد يعتمد طوله على عمق الماء في البئر، ويُربط كل واحد من الحمير بقربة ماء واحدة بالحبلين السميك والرفيع. ويكون على كل جانب ستة منها. وتبدأ الحيوانات في التحرك صفاً أسفل المنحدر وبهبوطهم ترتفع القرب ملأى بالماء، وعندما تصل الحيوانات نهاية مهبطها تكون القرب قد وصلت إلى مستوى العمود الأعلى، بينما يتدفق الماء من خلال أعناقها بجرها فوق البكرات السفلى، وتفرغ محتوياتها من الماء في خزان مبني يقع تحتها مباشرة، ومنها يسيل الماء عبر القنوات التي تقوم بتوزيعه على المزرعة. وعندما تصل الحيوانات أسفل المهبط تقف هنيهة ثم تستدير، كل منها على مركز خاص بها، ويرتقي صف الحيوانات المهبط كما نزلت أسفله، وبهذا الفعل تتدلى القرب المثقلة نحو الماء. وتتكرر هذه العملية إلى ما لا نهاية.

(١) لا تستخدم الإبل في آبار الرياض مع أنها أكثر استخداماً في المناطق الأخرى. تقوم الأبقار والحمير الهزيلة بهذه المهمة في القرى الفقيرة. (المؤلف).

ورغم مـا يبدو على هذه الطريقـة من بدائية إلا أن عـملية استخـراج الماء البسيطة هذه تعمل ـ كـما يبدو ـ بكفاءة ودون مصاعب. وقد يحتـاج الأمر أحياناً لبعض الإصلاحات للأجزاء الخشبية وسطح مهبط الحيوانات، ولكن أسوأ ما يمكن أن يحدُث في الأحوال العادية هو أن ينقطع أحد الحبال باحتكاكه مع البكرة، وفي هذه الحالة تبـقى بالطبع القربة المثـقلة في قاع البئـر، ولابد لأحدهم أن ينزل إلى البئر حامـلاً طرف حبل آخر ومستخـدماً الحبل الرئيس. وبعد إنجاز مـهمة إصلاح العطب يتم سحب الرجل فـوق القربة حتى ارتفـاع البكرة ومنها يقفز إلى اليـابسة بحركة رياضية رشيقة.

يمتلك ابن سعـود البغال التي تـعمل في بعض مزارع الرياض، وقـد حصل عليها من الحامية التركية السابقـة للأحساء. رغم أن بئر الوسيطى تعد بئراً نموذجية في شكلهـا العام لكل آبـار الواحة، وبالطبع لكل وسط الجـزيرة العـربية، لكنهـا ليست الأكـبر. فهناك مثـلاً بئر في مزرعة تـسمَّى الحوطة تديرها أربعة عـشر من الحمير، سبـعة في كل جانب، بينما بئر عتيقة يمكن أن تُدار بـثمانية حيوانات في كل جانب. وقد أخبروني ـ مع أنني لا أتذكر أني رأيتها ـ أن "قليباً" تُدار بعشرين من الحيوانات. عشرة على كل جانب.

حدثني ابن سعـود مرة عن فن السباحة كـما يعرفه العـرب، ولعله من غير الطبيـعي أن يكون هناك عنصر من البشـر يعيشـون في بلادٍ الماءُ فيهـا بهذا الشُّح ويعرفون السباحة، دعك عن فنونها. ورغم هذا فإن العرب بارعون فيها، وحدثني ابن سعـود أنه يعرف رجـالا يقفـزون داخل هذه الآبار من العـمود القـاعدي ثم يخرجون دون أن يصيبهم أذى، ووعـدني بترتيب عرض لمهاراتهم في هذا الباب،

ولكني لسوء الحظ نسيت أن أذكِّره بالأمر ولذا لم أشاهد هذا العمل الفذ. يختلف عمق الماء في هـذه الآبار بالطبع باختـلاف المواسم، ولكن نادراً ما يفوق عـمقـها خمسة وعشرين أو ثلاثين قدماً، إن وصل إليه.

توجد كبرى المقبرتين في الميدان الخالي الذي يقع بين بوابة الشمسية وبساتين النخيل المحيطة بذلك الجانب الذي يشمل مزرعة الحوطة ويمتد في اتجه الشمال نحو الشمسية. والمستقـر الأبدي الذي يتخذه أهل الرياض داراً لهم حين تنقضي آجالهم على الأرض لا يعدو أن يـكون أرضاً قفـراً بها نتـوءات ترابية خفـيفـة وركام من تراب، مشهد يذكـر الأحياء بأن الحياة إلى زوال حيث يرقـد تحت النتوءات الترابية الأمير والمزارع جنبـاً إلى جنب دون تمييز، ورغم أن من قامـوا بدفن من يحبونهم يتذكرون مواقع قبورهم ويزورونها من وقت لآخر ليسألوا الله لهم الرحمة، إلا أن أبناء هؤلاء الأحياء ينسون تلك المواقع، ولم يستطع أي منهم ـ أو لعله لم يشأ أي منهم ـ أن يشير لي إلى قبـر فيصل الكبير أو أي من سلالتـه، بل لست متأكداً إن كان هؤلاء يرقدون في هذه المقـبرة أم في المقبرة الثانية التي تصـغرها والتي تسمّى المقبرة الملكية وتقع إلى الشرق من هذا الموقع في الجانب الشمالي من مجرى سيول الشمسية حيث يدفن أعضاء الأسرة المالكة الآن[1].

في منتصف الطريق بين المقبـرتين، وأمام البوابة الشرقية الرئيـسة يقع مصلى العيد، وهو فضاء فسيح عـارٍ، مستطيل الشكل، يحيط به سور طيني منخفض مع وجود محـراب يشير للقبلة في وسط الجـانب الغربي، هذا المصلى يُستـخدم فقط

(١) المقصود المقبرة المعروفة الآن بمقبرة شلَّقا. (المراجعون).

لصلاة العيدين، وهو من الاتساع بحيث يسع كل المصلين الرجال بالمدينة. أما النساء واللاتي يُسمح لهن بأداء صلاة العيد فإنهن يُصلين خارج سور المصلّى، في الساحة الواقعة خلفه.

هذه هي المعالم الرئيسة للرياض، العاصمة السعودية، ملكة صحراء الجزيرة العربية، تجلس على عرش من الصخر وتسترها النخيل عن الصحارى المقفرة التي تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، فينعكس خواء وخراب الصحارى على القلوب المجدبة لسكان المدينة.

٣ ـ الأيام الأولى في الرياض

لم يستغـرق الأمر وقتاً طويلاً لأعلم أن ابن سـعود رجل ذو طاقة لا تفنى، رجلٌ يضع شؤون دولته فوق كل اعتبـار، لا يدخر نفسه ولا من يعينونه على شأن الدولة لأداء ما يتطلبه هذا الأمر. وهبـه الله بنية جسمية ممتازة، وقـامة قلَّما تجدها بين العرب، حيث أن طوله يبلغ حوالي سـتة أقدام وثلاث بوصات، ويبدو طويلاً جداً في الثـياب البـسيطة المتـدلية التي يفضـلها، لا يخلد إلى النوم إلا لسـاعات محدودة، قد تكون أربع ساعات بالليل وساعتين بالنهار، وليس له من وقت فراغ للترويح إلا بمقـدار ما تسمح به أعبـاؤه الكثيرة، فيـما عدا ذلك فهـو حريص في مراعاة أوقات الصلاة، ولكنه عفوي وغـير منتظم في تناول وجبات الطعام. أما ما تبقى من وقت فهو مكرّس لأداء مسؤولياته بوصفه حاكماً للبلاد وراعياً لشؤون بيته الذي يهتم به اهتـماماً شخـصياً عظيـماً، ربما لأنه يستحـضر تجارب من سبـقوه. التجارب الـتي تعلم منها أن الملك الذي هو في نفس الوقت رب أسرة كـبيرة، لا يمكنه أن يهمل إنشاء علاقات شخصية مع أفراد عائلته دون أن يكون لهذا الإهمال مردود سلبي عليه. ولعل التوجه الواضح نحو الافتتان بالزوجة في حالة ابن سعود ما هو إلا تطور طبيعي لِسِمَـة تقدير الحياة الزوجية في شخصـيته، وهو أمر يجعله لا يقل كفاءة كرأسٍ للأسرة عن كفاءته كرأسٍ للدولة.

يمكن الحكم على مـقدرة ابن سـعود على العـمل من تجربتي خـلال الأيام الأولى للفترة التي قضيتها بالرياض. لقد وفدتُ إليه في مهمة من حكومتي بأوامر أن أناقش معه بعض المسائل، وأن أقدم تقريراً عن الوضع في وسط الجزيرة العربية فيما يتعلق بالحرب التي كان يُؤَمَّلُ أن يتخذ ابن سعود بشأنها موقفاً أكثر إيجابية مما اضطلع به حتى ذلك الوقت.

كانت سياسة حكومة صاحب الجلالة، كما يمثلها الحاكم المدني لبلاد ما بين الرافدين موجهة لتحقيق ثلاثة أهداف. أولاً: إنشاء علاقات صديقة بين الدول العربية المختلفة التي التزمت بمناصرة الحلفاء؛ ثانياً: تنفيذ كفء لمحاصرة حدود الأعداء المتاخمة لبلاد العرب؛ وأخيراً استغلال الموارد العسكرية للدول العربية الصديقة في الاتجاه المناسب في كل حالة. كان ابن سعود مع علمه بمقدرته على إعانتنا، ورغبته في ذلك، متفهماً للمزايا التي قد يجنيها لشخصه إن تبنى سياسة تعاون معنا لتحقيق هذه الأهداف. كانت أولى هذه المزايا هي دعم وتأمين موقفه فيما يختص بعلاقاته مع جيرانه، وثانياً، دعم الحكومة البريطانية المالي له، وهو أمرٌ ذو أهمية قصوى في نجاح التنمية الصحيحة لبلاده التي مازالت ترزح تحت الآثار التي خلفتها فترة الاضطرابات والنزاعات التي سادت في المنطقة طويلاً.

لم يكن هناك ما يجنيه بالتأخير، ثمَّ إن بزوغ نجم شريف مكة الذي احتل موقعاً قيادياً في السياسة العربية صار نذيراً يتهدد مستقبله ويستوجب أن يتبنى سياسة قوية، كان الوقت ملائماً لاتخاذها. كان وصول البعثة البريطانية لبلاده قد أمده بالفرصة المطلوبة لينظم أمره داخلياً، ولقد أمسك بهذه الفرصة بحيوية مميزة. توالت الاجتماعات مع بعضها في سرعة مذهلة، وعند نهاية اليوم الخامس لإقامتي وجدت بعملية حسابية يسيرة أنني من مجموع ١٣٢ ساعة قضيتها منذ ساعة وصولي وحتى منتصف ليل يوم ٥ ديسمبر (كانون الأول)، قضيت ما لا يقل عن ٣٤ ساعة (أكثر من ربع كل المدة) في محادثات رسمية مع ابن سعود، دعك عن الوقت الذي استغرقته المناقشات غير الرسمية مع مساعديه الذين كانوا يقومون بزيارتنا في جميع الأوقات بين اجتماع وآخر لاستجلاء بعض النقاط التي تمت إثارتها من قبل، أو للتمهيد لقضايا لم تُطرح بعد.

شـعرتُ فـي هذه المرحلة، بعـد تغطيـة وإعادة تغطيـة كل الشـأن المتـعلق بالتكليف ـ وأظنُّ أنَّ ابن سـعود شاركني هـذا الشعور ـ بأننا قـد سبـرنا غور كل القضـايا التي بحـثناها. وتمكنت من كتـابة تقرير عـما دار بيننا مـن مداولات مع توصيات رفعتـها للسلطات البريطانية لترى فيها رأيها. وبعـد إرسال ما تقدم كانت طبيعة الجزء المتبقِّي من وقت إقامتي أقل مـشقة، فتمكنت من السير من حين لآخر لأرى شيئاً عن المدينة وما حولها.

ودَّعت الكولونيل هاميلتون بعد ظهر يوم ٤ ديسمبر (كانون الأول) وهو يعدّ العدّة للرجـوع للكويت؛ وحتى ذلك الوقت كـان الكولونيل يصحـبني في معظم لقاءاتي الملكية، الـتي كان يحضرها أيضاً المقـدَّم كنليف أوين، ولكن بدرجة أقل، إذ أنه كان يحـضر عندمـا يكون هناك احتمـال لمناقشة أمـور عسكرية، بينمـا كان يساعـد ابن سعـود في محـادثاته ابن عمـه ومعـاونه السيـاسي أحمد بن ثـنيان، وعبدالله أفندي ولكن عندما وصلت مناقشاتنا مـرحلة متطورة وبدت فيها علامات التطويل الذي ليس له ما يُبرره نسبة لتباين الآراء حول ما يُطرح في الاجتماعات، تجرأت وطلبت من ابن سعود عقد اجتـماع ثنائي بيننا. وفي بداية اجتماع المواجهة ذاك وضعنا اللمسات الأخيرة لما اتفقنا عليـه ودام الاجتماع لمدة خمس ساعات في خصوصية في غرفة صغيرة مريحة مجاورة للسكن الملكي.

شرَّفنا ابن سعود مـرةً بزيارتنا في غرفنا، وجاء مباشـرة في أعقاب الرسول الذي بعثه ليبلغنا بزيارته لدرجة أن المقـدّم أوين وشخصي لم نجد سوى القليل من الوقت لنزج بغليونينا وعُلب التبغ والأشياء التي تشـبت عادتنا السيئة، خلف وتحت وسـائد الأريكة، ليدخـل زائرنا ببطء إلى جو يُـثقله الدخـان المنفـر، بعد تبـادل التحايا، اتخذ مجلسه بيننا وكأنما لم يلحظ شيئاً، ولكنّا لم نُترك هكذا ببساطة، إذ

أن أحد الموالي ممن جاءوا في معية سيدهم لعريننا ظهر مجدداً بعد قليل وهو يحمل مبخرة، وبعد أن مررها على كلٍ منّا تركها على الأرض أمامنا ليطهر الهواء ذي الرائحة الكريهة. لقد كانت تلك المرة الأولى، ولكنها لم تكن الأخيرة التي يفاجئني فيها ابن سعود بالجرم المشهود، ولكنه لم يفش سِرَّ إدماني للتدخين ولو تلميحاً، ولم يشك في أنني كنت ملاذاً لمن كانت لهم نفس العادة السيئة من رجاله، رغم أنه لم يكن يخفِ اشمئزازه عندما يُثار في مناقشاتنا موضوع التدخين الذي كان يمنعه في حدوده.

كان الترويح الوحيد لابن سعود أثناء إقامته في عاصمته هي رحلات يقوم بها أحياناً على قدميه أو على ظهر فرس لأماكن مناسبة داخل المدينة أو في أطرافها. كانت إحدى هذه النزهات التي حضرتها في هذه الأيام قد رُتبت بمناسبة الوداع الرسمي للكولونيل هاميلتون، وتمت بعد ظهر اليوم السابق لسفره، ولتسهيل قيام مبكر في اليوم التالي كان الكولونيل قد أرسل خيامه وأمتعته خارج المدينة لأرض المخيمات، بالقرب من مزرعة الشمسية حيث اجتمعنا مع ابن سعود وعدد كبير من أفراد عائلته وحاشيته، وقد أتوا جميعاً على ظهور الجياد، لقد كان موكباً مهيباً وهو يشق طريقه إلى خارج المدينة يرتقي مجرى رملياً وابن سعود يقود الركب، وثلاثتنا على مقربة منه مع أطفال العائلة المالكة، وكل منهم يمتطي صهوة مُهرٍ تناسب حجمه تحت رعاية موالي القصر.

عندما تخطينا الأسوار نهض ابن سعود بطوله الفارع فوق الركاب واستدار على السرج نحو تابعيه مترنماً بمطلع مقطع شعري لأنشودة حربية مفعمة بالحيوية، وما لبثت المجموعة الخلفية أن تابعت إنشادها، وما لبث الموكب أن شرعت جياده في الخلب وتفرقت بهم السبل حينما دلفوا إلى السهل الفسيح، ثمَّ نظم الفرسان

أنفسهم في مجموعتين لأداء عرض عسكري؛ وبإشارة معينة بدأ الاحتفال ـ كان الفرسان يركبون متجهين نحو زملائهم مارين خلال بعضهم، ثم يرجعون للخلف، ويتقدمون مجدداً مُلتفين حول بعضهم والجياد تعدو مسرعة، والفرسان يُطلقون صيحات تحدٍّ عالية والسيوف والبنادق مُشرعة عالياً كما في حالة الحرب لدى العرب، ولكن لم يكن هناك إطلاق للرصاص، إذ أنَّ للذخيرة سعرها في الجزيرة العربية، أو على الأقل في وسط الجزيرة العربية، ولذا لا تُهدر في العمليات القتالية الزائفة. كان يتوَسَّطُهُم ابن سعود، رجلٌ عظيم على جواد رائع، وأبناؤه الكبار يتمتعون باللهو كما يفعل الآخرون ويهتمّون بأن يتَّخذوا أوضاعاً ملائمة للتصوير عندما يسرعون على ظهور جيادهم بالقرب من الرّبوة التي اتَّخذتها موقعاً أشهد منه العرض، ومعي آلة التصوير.

وعندما أخذوا حِصّتهم من الترويح تجمَّعنا مجدّداً في ظلّ حائط مزرعة الشمسية على ربوة ترابية رحبة وتبادلنا الحديث لبعض الوقت حتىّ حان موعد الذهاب لخيام الكولونيل هاميلتون حيث كانوا يُعدُّون القهوة. كان الوقت قد قارب المغيب: وقت صلاة المغرب وسرعان ما اصطفّ الحشد في الفضاء من خلف ابن سعود. ومن على بُعدٍ يحترم العبادة، كُنَّا نرقب التوافق المنتظم للركوع والسجود والرفع لعبادة المسلم. شعيرةٌ تدعو للإعجاب، لبساطة متناهية والتزام صارم. وبنهاية الصلاة كانت النزهة قد بلغت غايتها، وتَرَكَنَا ابنُ سعود وجماعتهُ عائدين للمدينة، وتخلَّفنا نحنُ في مخيّم الكولونيل هاميلتون لشرب الشاي، ثمَّ لحق بنا عبدالله أفندي الذي أحضر معه بأمرِ سيّده زوجيْن من المارية[1]، تلك الحيوانات الرائعة التي تعيش في الصحاري الرملية، كان الزوجان مكتملي النمو؛ جلدهما

(١) يشبه بقر الوحشي الإفريقي. (المؤلف).

أبيض وقرناهما طويلان مستقيمان؛ لقد كانتا هديّةً إلى ملك إنجلترا[1]. عُدنا إلى المدينة قبل حلول الظلام، تاركين وراءنا الكولونيل هاميلتون في مخيمه الذي كان عليه أن يقوّضه قبل الفجر.

وتمّ تقديمي في هذه النزهة لأوّل مرّة لتركي، الابن الأكبر ووريث ابن سعود. وهذه أول مرة أراه وكان قد قضى شهوراً عديدة في القصيم في قيادة الجند في ذلك الإقليم، وقد عاد لتوّه للرياض للنقاهة بعد نوبة حمّى قاسية ألمّت به هناك. كان صَبِيّاً وسيماً ذا أخلاقٍ سمحة، وكان شاحب اللون قليلاً نتيجة للوعكة التي كانت قد أصابته. ولكن لم يكن في قوامه النحيل وتقاطيعه الناعمة ما يُشير لتمتُّعِهِ بالمزايا البطولية التي أجمع الرأى العام على نسبتها إليه[2]. كان قد بدأ حياته العسكرية عندما بلغ الثامنة من العمر، وهو الآن القائد الثاني للجيش بعد والده، ولمّا يزل في الثامنة عشرة.

كان من بين الأبناء الذين حضروا تلك المناسبة محمد وخالد وأعمارهما تسع وست سنوات، على التوالي. وحضرها أيضاً فيصل وفهد وسعود، وأكبرهم في الثامنة من عمره وهم أبناء أحبّ إخوان ابن سعود إليه: الراحل سعد الذي كان مقتله في عام ١٩١٥م[3] على أيدي قبيلة العجمان أمراً لم يطوه النسيان ولم يتم العفو عنه، ولمّا تزل النائحات يَنُحنَ عليه: بيد أنّ الحقَّ يُقال، لقد جلب سعد هذا المصير لنفسه. كان الموقف من العجمان والرغبة في الأخذ بثأر أخيه من الموجِّهات

(١) وصلت إحدى هذه الحيوانات إلى انجلترا في مايو (آيار) ١٩٢٠م كهدية لصاحب الجلالة الملك، وبأمره نُقلت إلى حدائق حيوان لندن في يوم ١٤ مايو (آيار). لقد كانت هذه هي الأنثى، ولا أدري ما الذي حدث لرفيقها. (المؤلف).

(٢) توفي تركي الأول ابن الملك عبدالعزيز في هذه السنة التي رآه فيلبي فيها، وكانت وفاته بسبب الحمى الإسبانية. سنة ١٣٣٧هـ التي راح ضحيتها عدد كبير من أهل نجد، وسميت هذه السنة في نجد سنة الرحمة لكثرة من مات فيها. (المراجعون).

(٣) راجع ص ١٧٦ . (المؤلف).

الأساسية لسياسة ابن سعود[1]، لقد استحوذت على تفكيره وهيمنت عليه وكان يؤثر بها على أحاسيس من يستَمعون إليه عند الحاجة لذلك. لقد اتّخذ أرملة أخيه زوجة له، كان معها طفل منه في هذا الوقت وأنجبت في أبريل (نيسان) الذي يلي طفلة، وكان يعامل هؤلاء الأيتام كأنَّهم أبناؤه من صلبه. وإنَّ مأساة سعد حدث مهم في سجل حكم ابن سعود، رغم أنّها حادثةَ ليس إلاَّ ـ ولعلها لن تكون الحادثة الأخيرة.

تشرفنا في يوم آخر بدعوة للقاء الإمام عبد الرحمن الذي لم نره منذ لقائنا الأول معه في مكتب ابن سعود. ذهبنا، المقدّم كنليف أوين وشخصي من صحبة من جاء إلينا بالدعوة لمنزل الشيخ الكبير، مبنى كبير ولكنّه ليس فخماً، يقع على الطريق الرئيس في واجهة الحصن. دلفنا من خلال الباب الخارجي لفناء تحيط به أسوار طينيّة تزينها لوحات خشنة من الجص، وارتقينا مرتقى متعرجاً من الدرجات للطابق الأول ودخلنا قاعة الاجتماعات، قاعة طويلة خالية، طولها أربعون قدماً وعرضها نصف ذلك، وارتفاعها حوالي ثمانية عشر قدماً، ويتوسَّطُها صفٌّ من الأعمدة المجصَّصة يستند السقف إليها. وكان السجاد يغطي الأرض، وفي أحد أركان الغرفة أُلقي مسندان للمرافق على كلٍ من جانبي مجلس الإمام، وقليل من وسائد الظهر ليميل الزوار إلى الوراء متّكئين عليها. ظهر الإمام بعد وقت قليل من وصولنا ودارت أكواب القهوة بينما كنَّا نتحادث مع مضيفينا.

لقد زار بغداد في شبابه قبل أربعين سنة، ومنذ ذلك الوقت زار البصرة مَرَّة أثناء فترة نفيه، قبل حوالي عشرين عاماً. وباستثناء هذا فإنّه لم يذهب لأبعد من البحرين والكويت التي قضى فيها وأسرته أيّام المنفى الاختياري عن نجد. لقد قام

(١) ما ذكره المؤلف هنا غير صحيح؛ لأن الملك عبدالعزيز اتخذ سياسة العفو والصفح عن جميع الذين حاربوه ولم يحمل في نفسه أي كراهية أو عداء لأحد. كما لم تتأثر سياسة الملك عبدالعزيز بالرغبة في الانتقام على الإطلاق. (المراجعون).

خلال الصيف الماضي في صحبة ابنه محمد والقافلة السعودية للحج على أمل تحقيق الطموح العام لكلّ المسلمين الملتزمين بالإسلام، ولكنّ مصاعب الرحلة الطويلة كانت فوق طاقة تحمّل عظامه المتعبة، لذا اضطُرّ للعودة إلى داره بعد أن وصلوا إلى المرحلة الخامسة في اتجاه الأراضي المقدَّسة، وترك محمداً ابنه والآخرين لأداء الفريضة. لقد كان احتفالاً دينياً ذا شأن، كان الأول من نوعه تحت رعاية الملك الجديد للحجاز. لقد ذكر أن النجديين الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج لم يكن عددهم يقل عن ٧,٠٠٠ [1] فرد، رجالا ونساءً وأطفالاً.

تحدث عبدالرحمن بكثير من الحماسة عن علاقة الصداقة التي صاغتها الحرب بين بَلَديْنا، لقد شاهد في شبابه المبكّر بداية التحالف الحالي عندما زار المقدّم لويس بيلي[2] بلاط والده فيصل، وتحدّث بفخر أيضاً عن المقام العظيم الذي اكتسبه ابنه، وعن روابط الولاء التي توحّد العائلة المالكة في هذه الأيّام حول عبادة الله وخدمة الوطن. يزور ابن سعود أباه على الأقل مرّةً في اليوم عندما يكون في مقرِّ سكنه بالعاصمة، ولا يضطلع بأي عمل هام دون أخذ مشورته، وفي غيابه يقوم الإمام بأعباء وواجبات الإدارة، ثمّ إن الإمام يُبدي اهتماماً شخصيّاً بتنمية أعماله الخاصة وأعمال الحكم، ولكن بدا من الإمام في السنوات الأخيرة ميلٌ متزايد لعدم الحركة، إذ أنَّه نادراً ما يخرج - أو لعلّه لا يخرج من منزله - إلاَّ لأداء صلاة الجمعة في الجامع الكبير وزيارة ابنه في قصره في طريق العودة، ويقضي

(١) كان تقدير العدد متضارباً لحد كبير، مثلاً أخبرني محمد نفسه أن تابعيه كانوا ١٧,٠٠٠ فرد، ولكن لعل الرقم ٧٠٠٠ أقرب للحقيقة. (المؤلف).

(٢) كان هذا في عام ١٨٦٥م عندما قام بيلي الذي كان حينها المندوب السياسي المقيم لجلالة الملك في الخليج العربي؛ زار الرياض مع بعثة بريطانية صغيرة. راجع "تقرير عن رحلة للعاصمة السعودية، الرياض في وسط الجزيرة العربية" للمقدم لويس بيلي، بومباي ١٨٦٦م. (المؤلف).

كثيراً مــن الوقت في الصلاة في مسجدٍ بداره أو في القراءة والتـأمل، إذ يشعر أنّ أجل الحياة الدنيـا ليس ببعيد ولم يَبقَ إلاّ القـليل من الوشائج التي تربط بينه وبين الدولة السعيدة التي بنى عليها آماله وأعماله دون تراخ منذ أيّام الشباب الأولى.

من الطبيعي أنّ بقاءنا في العاصمة السعودية في ضيافة ابن سعود لم يمر دون تعليق، ورغم أنّنا لم نواجه باسـتهجان بيّن أو عداء تجـاه أيٍ منّا، إلا أنني فهمت من تعليقات مضيفنا أنّ هناك انتقاداً خـفياً لسياسته؛ ولقد قرأ عليّ ذات يومٍ خطاباً طويلاً بلا توقـيع يحذّره مُـرسِلُه من أنّ الإنجليز قـد أتوا إلى نجد بغـرض الطمع، ورغم أنّهم قد يعطونه ما يريد مقابل مساعدته لهم في تنفيذ مخطّطاتهم، فإنّ هذا لا ينبع من حبّهم له وأنّهم سوف يبتلعونه عندمـا يخدم هذا الأمر أغراضهم. لقد كان خطـاباً من متطرّف جـاهل، ولكنّه أظهر اتّجـاهاً في الرأي العام، واتخـذناه تحـذيراً لنا لأهمـيّة توخّي غـاية الحـذر في تجوالنـا وسط العامّـة، مـثل ما فـعل الكولونيل هاميلتون الذي سبقنا إلى المقدّم كنليف أوين كـانت استجابته لهذا الأمر جزئيّـة، وذلك تحت إلحاح منّي رغم جهوده التـي بذلها عن اقتناع كان بعـيداً كل البعد عن مظهرٍ شبيهٍ بالعرب.

فرّقت بين أعضاء مجموعـتنا أيضاً عادات أكل الطعام، إذ أنّ هاميلتون وأنا اكتسبنا مقدرة كافية لاسـتخدام أصابعنا بحيث كنا نجلس مع زوارنا الذين شاركونا الطعام دون خرق لقـواعد المائدة الخاصة بهم؛ بينما كان سكوفـيلد يجاهد برجولة لتقـفّي آثارنا، لكن نجـاحه كان مـحدوداً مع اللحـم والأرز والحساء؛ أمّـا كنليف أوين، فقـد كان يُفـضّل استـخدام السكين والشـوكة والملعـقة عند تناولنا الـطعام منفردين في غرفنا. لقد كنا، هاميلتون وأنا محقّين في وجهة نظرنا؛ أنّ من يسافر في جزيرة العرب عليه أن يتعلم التـصرّف بطريقة العرب في كلٍّ شأنه. ليس لديّ

ظلٌ من شك، ولا أتعاطف مطلقاً مع الحكم المجحف الذي يدين البريطاني عندما يخفي هويته كضابط بريطاني، وكرجلٍ نبيل، ولعلّ هذا الحكم هو الذي كلف شكسبير حياته في عام ١٩١٥م[١]، وهو الذي يزيد مصاعب السفر في بلاد متعصبة. ولكن خاصيات المسافرين هي ظواهر غريبة تعتمد على المزاج الفردي وعلى الظروف المتّصلة بكل حالة، ولا ينبغي مناقشتها باستخفاف، وعلى كل مسافر أن يتخذ قراره بنفسه معتمداً على تجارب من سبقوه بالقدر الذي ينطبق على حالته، ولكن إن كان هناك من يطلب نصيحتي في زمن كهذا فلن أتردّد في أن أنصحه باتّباع المبادئ والطرق التي اقترحها كارلو جوارماني المستشرق الإيطالي الذي توغّل في بلاد شمّر وكتب آراءه[٢] "على بوّابة حائل ترقد جثّة متعفّنة ليهودي إيراني ذبحته العامّة لادّعائه الإسلام وامتناعه عن ترديد الصيغة.... إن كان مصيره حزيناً، فقد جلبه لنفسه واستحقه. عندما يقرر الإنسان أن يخاطر بحياته في مغامرة عظيمة فلا بدّ له أن يستخدم كلَّ وسيلةٍ في مقدرته وأن يعد نفسه لتحمل جميع نتائج مغامرته. لقد ظنّ بعضُهم أن الذي مات هو أنا. ولقد أخطَر صديقٌ تعوزه اللباقة أسرتي فحزنت عليَّ حزناً حقيقياً، بينما كنت أنا طوال الوقت في صِحَّة ممتازة آكل الأرز (التمن)، ومؤدياً (الركعات) لربي - في أعماق قلبي - ولمحمد بشفاهي، بكل التوقير المطلوب".

لقد جعلت الظروف المحيطة بمهمتنا الامتثال لأمور تتعلق بالالتزامات الدينية غير ضروري، وربما غير مرغوب فيه. ولكن عبدالله بن جلوي كان مُصراً على أن نرتدي الزي العربي تحسباً لما قد يقابلنا في الصحراء. ولم يكن ابن سعود أقل

(١) راجع ص ٥٦٤ . (المؤلف).

(٢) صفحة ٥٤، شمال نجد، كارلو جوارماني، ترجمة السيد د. كاروثرز، مطبعة القاهرة الحكومية، ١٩١٧م. (المؤلف).

حرصاً لأن نخفي أنفسنا عن العامة بقدر ما نستطيع أثناء إقامتنا في بلاده، وذلك لمصلحة الطرفين. هو ونحن.

كانت وجباتنا يُؤتى بها إلينا من المطابخ الملكية، حيث كانت مجموعة الطهاة المحترفين يقومون بإعداد كميات كبيرة من الأرز واللحم لسكان الدار ومضيفيهم، أما المأكولات الأكثر نَعومة في قائمة الطعام فقد كانت من إعداد الخادمات، وكنّ خبيرات في صنع الخبز وإعداد الكيك والحلويات والخضراوات المطبوخة ومرق التوابل وأصناف البيض وما إليها. وكانت هذه الأصناف تقدَّم فقط لابن سعود والمقربين والأسرة، وبالطبع لنا نحن. كانوا يأتون إلينا قبل أن ننهض من مضاجعنا في الصباح بالشاي مع الفطائر وعسل نحل يؤتى به من الطائف. وبعد ساعة أو ساعتين يأتي مجموعة من الموالي بإفطارنا؛ في البداية يفرشون على الأرض بساطاً من حصير ويضعون في منتصفه إناءً معدنياً يتكدس فيه إلى ارتفاع كبير أرزٌ يتصاعد بخاره، ويمتلئ الإناء بقطع ممتازة من لحم الضأن، ويضعون حول هذا الإناء الأطباق الثانوية، آنية الحساء أو صلصة المرق وتطفو عليها قطع صغيرة من اللحم والعظم وكلها ساخنة جداً وتضاف وفقاً للمذاق على الأرز، وهناك أيضاً الآنية المليئة بلبن النوق أو لبن الشياه المخثر، وأطباق من التمر وآنية الماء العذب. والخبز يحيط بكل هذا، بعضه بالخميرة والبعض الآخر من دونها، ثم هناك أطباق الحلوى المهلبية المصنوعة من اللبن والسكر والبهارات، أطباق من كيك مقلي يعمل في شكل كرات صغيرة ويسمونه (لقيمات). «سمّ» "أي يمكنكم أن تبدؤوا الآن"، هكذا يقول ابن مُسلَّم كبير مشرفي الضيافة الذي لا يتخلف إلا نادراً عن الإشراف على مدِّ مائدة طعامنا. ونقف نحن عند سماعنا لندائه، ويتقدم أحد الموالي يحمل إبريقاً وإناءً للغسيل ومنشفة وقطعة من الصابون، ويمرُّ كل منا بذلك الإجراء

الرسمي فنغسل أيدينا، ثم نتخذ مواقعنا على الأرض حول البساط مع من يتفق وجوده من ضيوف ونبدأ في تناول الطعام الموجود أمامنا، ومن ثمّ يتخذ الآخرون، ثم تُقدم القهوة. كان الشاي دائماً في متناولنا إن أردنا شربه أثناء فترة ما بعد الظهيرة، وكانت القهوة مُعَدَّة طوال الوقت. وكان العشاء تكراراً مطابقاً للإفطار الذي وصفناه، ويقدم بعد حوالي ساعتين من مغيب الشمس، رغم أن البيت الملكي كان يتناول الوجبة في العادة بعد صلاة العصر بقليل.

كان عبدالله سعيد أفندي رفيقنا الدائم، سواء كان ذلك أثناء تناول الوجبات أو خلال غيابنا خارج القصر أو في اللقاءات الملكية، وكان في ظاهره ملتزماً بالتعاليم السلفية التي تمنع التدخين بينما تقرّ تعدد الزوجات. ولكنه تأثر بنشأته الأوربية حيث كان آحادي الزوجة رغم أنه كان لايزال صغيراً بالقدر الذي لم يُتح له وقتاً طويلاً ليغير آراءه حول هذا الموضوع، وكان مولعاً بالتبغ الذي كان يُدخنه بالطبع متستراً أو في غرفنا، وكان يعد أن صحراء الجزيرة العربية ما هي إلا ملجأ مؤقتاً له في فترة الحرب العاصفة، وكان يُلمح عن رغبته في أن يجد وظيفة مناسبة في مرحلة لاحقة في بلاد ما بين الرافدين التي يعدها إحدى مقاطعات الإمبراطورية البريطانية، رغم أنه لم يحلم بأن تكون بلاده ـ مدينة وولاية الموصل ـ تحت السيطرة البريطانية. وفي الوقت نفسه كان دائم التعبير عن إعجابه الذي لا تحدّه حدود، بابن سعود الذي كان يعده مثالاً مدهشاً لإمكانية حكم البلاد العربية بأيدٍ عربية في ظل الظروف المواتية، الظروف التي لم تعد موجودة بسبب الأتراك إما في بلاد ما بين الرافدين أو في أي جزء آخر من الإمبراطورية العثمانية مترامية الأطراف. كان عبدالله سعيد أفندي قد تشبع أثناء فترة نفيه الاختياري بمعرفة السياسة في الجزيرة العربية، الدراسة التي هيأتها له وظيفته الطبية قليلة الأعباء

بالبلاط السعـودي، وكانت مقدرته على أن يطبق بذكاء الدروس التي اسـتمدها من تجارب عريضة على المشاكل الخاصة بالجزيرة العربية، إضافة لعادته المكتسبة في النظر إلى الأمور من زوايا مختلفـة، قد جعلته مستشاراً لابن سعـود لا يُقدّر بثمن، وكان وسيطاً كفـئاً بينه وبيننا في النقاط الصعـبة التي كانت تستوجب دراسـة حريصة من الجانبين قبل أن تُطرح للنقاش في الاجتماعات الرسمية.

كانت مـعرفته باللغـة الفرنسية، واهتـمامه الجمّ بشؤون العـالم خارج إطار الجزيرة العـربية، وفوق ذلك مزاجه المحـبّ للحياة والمتعـة قد جعلت صحبـته لنا مصدراً لسـعادة مستـمرة أثناء الأيام الأولى لإقامتنا في بلدةٍ غـريبة غير مُـرَحِّبة؛ وعندمـا غادرت الـرياض في رحلتي للبـحر الأحـمـر كان هو الذي بقـي ملبيـاً لاحتياجات رفاقي الذين خلّفـتهم ورائي حتى أوصلهم بسلام إلى الخليج العربي، ومضت بعض الشهور قبل أن أراه ثانية، إذ أن منزله وزوجتـه الحبيبة إلى قلبه كانا في الهفـوف، ولـم يكن هناك من شيء يسـتطيع أن يبعـده عن تلك البلدة. ليس لديّ شك أن المقـدم كنليف أوين يمكن أن يكون شـاهداً للخـدمات التي لا تقـدر بثمن التي قـدمها له ولسكوفيلد أثناء فـترة الأسابيع الستّـة التي بقيا فيـها بالجزيرة العربية بعد مغادرتي للرياض.

كان أحمـد بن ثنيان أيضاً أحد المرافقين الملازمين لنـا في هذه الفترة، ولكنه كان ذا مزاج وشخصية مختلفة مـقارنة بعبدالله سعيد أفندي، رغم أنه كان قد نال نفس الحظ من التعليم، وله من المكتسبات ما لزميله. كان أحمد بن ثنيان شاباً في حوالي الثامنة والعشرين من العمر وكان بياض لونه غريباً على شخص من الجزيرة العربية، وكـان مظهره يفوق كثيـراً عمره الحقيقـي، خلواً من الأسنان وذا بنية جد ضعـيفة تنم عن تأثره بمرضٍ مـا، وهو ما تم تشخـيصه بعـد عامين، أثناء زيارته

لإنجلترا مع بعثة لوسط الجزيرة العربية، كداء السكري، ولقد كان أحد أفراد العائلة المالكة، ابن عم من الدرجة الثالثة أو الرابعة لابن سعود، وحفيد عبدالله بن ثنيان الذي دان له عرش نجد ١٨٤٠-١٨٤٢م[1] تابعاً لسلطان تركيا، وتحت إدارة خورشيد باشا، آخر مندوب تركي في وسط الجزيرة العربية، ثم فقد هذا العرش عندما استعاد فيصل سطوته التي قاطعها الأتراك مرتين بتدخلهم. فأوى بعدها عبدالله والد أحمد في منفى اختياري أو لعله قسري، وأقام أخيراً في القسطنطينية حيث وُلد وترعرع أبناؤه الأربعة، والذين بقي ثلاثة منهم هناك بينما خرج أحمد في رحلة تحقيقاً لرغبته في أن يرى شيئاً من العالم.

حطّ رحله في البحرين بعد فترة قضاها في تونس والقاهرة، وبعدها جاء إلى بلاد أجداده حيث استقر سعيداً بالفرصة التي سنحت له ليتحلل من مسؤولية خدمة حكام تركيا في مغامرتهم المتهورة التي بدؤوا السير فيها. وكانت بنيته الضعيفة سبباً في أن يفكر في اتجاه الدراسة والأدب بدلاً من اتخاذ مستقبل أكثر نشاطاً. كانت اللغة التركية بالطبع، لغةً أم ثانية له، ولقد سمعته وهو يتحوّل من اللغة العربية إلى تلك اللغة دون أن يلاحظ أنه قد أصبح يتحدث بلغة لا تُفهم. لقد تمكن أيضاً من معرفة الفرنسية بدرجة كبيرة، وما زال يتحدثها بطلاقة، ولكن ليس بنفس براعة عبدالله، إضافة لمقدراته اللغوية المكتسبة فلقد كان قارئاً جيداً للأدب العربي ولتاريخ أوربا والشرق. تعرف ابن سعود على مقدراته واصطفاه في أقرب الدوائر الاستشارية له. ورغم أنه لم يتمكن ـ وفقاً لتقديري ـ من أن يخلص بفائدة كبيرة من تدريبه المبكر أو أن يصبح رجل الساعة مثل عبدالله، إلا أنه تفوّق عليه بميزتين، حيث لم يكن من العائلة المالكة فحسب، ولكنه كان ملتزماً بالدعوة السلفية على نطاقيْ الفكر والممارسة معاً. ورغم اعتداده بنفسه بوصفه سليلاً

(١) حكم عبدالله بن ثنيان خلال الفترة من ١٢٥٧ - ١٢٥٩هـ، (١٨٤١ - ١٨٤٣م). (المراجعون).

مباشراً لرجل حكم البلاد حقيقة، فلقد كان حريصاً على أن يُخفي هذا الشعور في حضرة ابن سعود، ولعله لم يكن يحلم أو يرى نفسه أو ذريته في أقصى حالات جموح الأحلام وقد آل إليهم حكم الرياض. ولم يشك ابن سعود إطلاقاً في صدق ولائه له، إذ كان ذا وجود دائم في مقابلاتنا الرسمية مع ابن سعود في هذه الأيام عندما كانت أسرار الدولة تناقش بِحُرية. لقد كان للرجل إلمام ممتاز بتاريخ نجد وبسلالة سعود الحاكمة وكان حديثه عن هذا الجانب ممتعاً، ولكن آراءه عن السياسة العالمية أقل إلى حد ما، لعل ذلك ناتج عن تقييمه للأمور من منطلق التكيُّف مع معايير الدعوة السلفية غير القابلة للتطبيق(١).

قضينا في أحد أيام إقامتنا فترة ما بعد الظهيرة في زيارة الحصن بعد أن حصلنا على إذن بذلك بحجة أن المقدَّم كنليف أوين بوصفه ضابطاً للمدفعية ستسعده إتاحة الفرصة له لتفقد مدفعية ابن سعود، وقد يكون في وضع يسمح له بتقديم النصح فيما يختص بصيانتها. وعلى جانب الميدان الواقع أمام الحصن وفي مواجهة بابه الوحيد أشاروا لنا لمبنى مربع خالٍ من الزخرفة ويسمى بيت عجنان (Bait Agnan)(٢) ، وهو مقر السكن الرسمي للحاكم الرشيدي على الرياض في أيام الاحتلال الأجنبي، وكانت على قمة الحائط الأمامي نافذة خشبية ضيقة، وهي التي جلس عليها ابن سعود وعددٌ قليل من رفاقه الشجعان طوال الليل يقرؤون آياتٍ من القرآن ويحتسون القهوة وهم يراقبون طوال الوقت باب الحصن الصغير

---

(١) معايير الدعوة السلفية هي نفسها معايير الإسلام الحقيقي، ولذلك فهي صالحة لكل زمان ومكان. (المراجعون).

(٢) هكذا وردت في الأصل كما هو واضح من الرسم الإنجليزي، لكن الصحيح أنه بيت عجلان. (المراجعون).

عبر الميدان حتى بزوغ الفجر الذي شهد الصراع الأخير مع قوات الرشيديين واستعادة سلالة آل سعود الحاكمة للرياض.

دخلنا عبر بوابة الحصن لنجد أنفسنا في بهو صغير تحيط به أسوار عالية، وكان ما تبقى من المساحة الداخلية تحتلها مستودعات وغرف الحراس. . .إلخ وهي ما لم نُدْعَ لتفقدها إلا أننا رأينا عبر فتحةٍ لباب مطلّ على البهو، رجلين يبدو أنهما يقضيان فترة سجن، بينما أتت من باب آخر ثرثرة لا انقطاع لها من هُراءٍ غير مفهوم صادر عن امرأة محتجزة في إحدى زنزانات السجن بسبب الجنون. كان أحد الأبواب الشبيهة يقود إلى مستودع الأسلحة نفسه والذي لم نَرَهُ من الداخل حيث إن كل المدفعية المحلية والتي تتكون من قطعتين ميدانيتين ـ على قدر من القِدَم ـ كانت قد استخرجت للبهو لنتمكن من تفقدها. كان كلا المدفعين يستخدمُ ذخيرة سعة سبعة أرطال، وكان أحدهما مدفعاً تركياً قديماً، وهو الذي كانت هناك إمكانية لصيانته، والآخر كانت صناعته ألمانية وكان يحمل رقماً واسماً ألمانيين وبه علامة تظهر تاريخ ١٨٧٢م. ويبدو أن الذخيرة الموجودة كانت تخص المدفع الألماني، وهي بعض قذائف من طرازٍ قديم وبعض قذائف شظايا، وكلها قد فعل بها الصدأ ما فعل.

منعتني ارتباطات رسمية أثناء هذه الفترة من أن أستجيب لدعوة مضيفنا لحضور إحدى اجتماعاته العامة، وهي متعة أجلتها لزيارة لاحقة. كانت المناسبة الاجتماعية الوحيدة التي شهدتها بخلاف نزهة الشمسية، حفلَ زواجٍ أقامه ابن سعود لأحد أعضاء الأسرة المالكة، نسيت الآن من هو. كان كلاهما، العريس والعروس قد تزوّجا من قبل، فلم يتضمن الحفل شيئاً من البهرج والاحتفالات المعتادة حتى بين العائلة السعودية عند زفاف فتاة عذراء لشاب لم يتزوج من قبل،

ولم نشهد شيئاً سوى جمع من الرجال من أفراد العائلة الملكية وبعض ضيوف الشرف[1] الذين تناولوا العشاء. دار الحديث بطبيعة الحال عن موضوع الزواج والطلاق.

كانت الزوجات اللائي استحققن اهتماماً خاصاً متصلاً من ابن سعود هنّ اللائي أنجبن له أطفالاً، طلقهن بعد ذلك أم لم يفعل، إذ يُفرد لكلٍ منهن منزلاً وترتيبات خاصة بهنّ ليقمن بتربية الأطفال الملكيين، ثم إنهن ـ كقاعدة عامة ـ لا يتزوجن بعده خلافاً للزوجات اللائي يطلقهن قبل أن ينجبن له. تعيش أم تركي، الوارث للعرش، في هذا الوقت مع ابنها دون زواج جديد حيث طلقها ابن سعود منذ عهد بعيد. وهو يحتفظ في العادة بزوجات ثلاث.

كانت الزوجة الرئيسة لابن سعود أو الملكة التي كانت تشاركه السكن الملكي، والتي ولدت له أحبّ أبنائه إليه محمداً وخالداً هي ابنة عمه الجوهرة بنت مساعد وهي امرأة ـ بكل المقاييس ـ ذات جاذبية وجمال، وكانت وفاتها التي حدثت أثناء وباء (الأنفلونزا) في شتاء عام ١٩١٨م[2] صدمة قاسية له، وكانت سبباً لحزن أكبر من حزنه على ابنه الأكبر وابنين آخرين فقدهم في نفس المناسبة[3]. وعندما زار ممثلوه إنجلترا بعد عام أخبروني أن مكانها كملكة لم يُملأ،

(١) كان في هذه المناسبة أن تعرفت على فيصل الدويش، وهو شعلة قيادية بين "الأخوان"، وحتى وقت قريب كان زعيم قبيلة مطير. (المؤلف).

(٢) تعرف باسم الحمى الإسبانية، وتسمى في نجد سنة الرحمة والتي كانت في عام ١٣٣٧هـ. (المراجعون).

(٣) توفي في هذه السنة أيضاً ابنه الكبير تركي. وكذلك ابناه فهد الأول، وسعد. (المراجعون).

وأن مكان إقامتها قد تُرك على حاله الذي كان عليه قبل وفاتها. احترامٌ مذهل لذكراها وللمكانة التي احتلتها في شعوره ووجدانه.

كانت أرملة شقيقه سعد من زوجاته، وكانت وفاة شقيقه في معركة مع المتمردين من العجمان قد أورثته ـ كما أسلفت ـ حزناً قاهراً. وكانت زوجته الثالثة بنت الدخيل التي كانت في هذا الوقت بالقصيم حيث تقيم فيما يبدو بصفة دائمة ولا ترى زوجها الملكي إلا عندما تأتي به مهام الدولة لجوارها، ولكنها مازالت في عصمته حيث إن ابن سعود لحق بها في خريف ١٩١٨م بمناسبة زيارته للقصيم فيما يتعلق بترتيباته للحملة ضد حائل. الزوجة الرابعة كانت بنت السديري، بنت العائلة البارزة في إقليم سدير(١). ويبدو أنها طلقت أثناء غيابي عن الرياض في الشتاء؛ لإنني وجدت ابن سعود عند عودتي حراً للزواج مرة أخرى. حدث الطلاق بدون شك عندما غادر ابن سعود إلى الصحراء لقضاء وقته الاعتيادي السنوي في مخيمه في بداية فصل الربيع من ذلك العام، حيث إن عادته ـ كما أسلفت ـ أن يحتفظ بمكان شاغر لزوجة أخرى ضمن ما حددته تعاليم الإسلام المنصوص عليها في القرآن والتي تقتصر على أربع زوجات فقط في وقت واحد خاصة عندما تكون عنده نية الغياب عن مقره الرئيس لمدة زمنية معينة.

كان طلاق والدة تركي كما يبدو أمراً محزناً ولابد أنّ ابن سعود قد أجبر عليه نتيجة لإحدى المسائل القليلة التي تقيد الشريعة الإسلامية في هذا الشأن، إذ أن الشريعة الإسلامية تمنع الزواج من أختين في نفس الوقت، وقد تصادف أنّ ابن

---

(١) هي حصة بنت أحمد السديري. (المراجعون).

سعود كان بالأحساء، فتزوج من فتاة اكتشف ـ ليس بعد إكمال إجراءات الزواج فحسب، بل بعد دخوله بها ـ أنها أخت والدة تركي[١]. وما كان بالإمكان تصحيح هذا الخطأ إلا بطلاق الأخيرة وهو ما أبلغها به عن طريق رسالة بعثها إليها.

لقد كان يتعامل مع رباط الزوجية بشهامة الفارس للحد الذي عرّض فيه نفسه لتهمة الافتتان والخنوع للزوجات، ولكن لابد أن نتذكر أنّ ابن سعود استغل حريته لعقد زيجات من هذا النوع لأهداف سياسية، وكان غرضه هو لمّ شمل العناصر المتناثرة والمتنافرة التي تكوّن شعب بلاده عن طريق الولاء لشخصه، حيث أنه لا يوجد الآن إلا القليل من العائلات العظيمة في وسط الجزيرة العربية التي لم تُسترض في هذا الوقت أو ذاك بعلاقة زواج به شخصياً أو بأفراد آخرين من العائلة المالكة. ثم إن التحالفات الناتجة عن هذه العلاقة لا تتأثر بالطلاق الذي لا يشكل وصمة عار في أعرافهم. أما الزيجات التي تقود إلى إنجاب أطفال للبيت الملكي خاصة الأطفال الذكور فإنها تعود بفائدة عظيمة على جميع من له علاقة بالأمر. ومن ناحية أخرى فإن ارتباطه الطويل الوفي بابنة عمه الجوهرة، وسجله الذي لا تشوبه شائبة كابن وأخ وأب، هو في حد ذاته دليل على امتلاكه لمؤهلات جد عالية في تقديره للحياة العائلية.

كان ما رأيته عن هذا الجانب من شخصيته يقلُّ كثيراً عما كنت أطمع أن أراه، ولكن الإشراقات التي علمت عنها في هذا الوقت أو ذاك عن مضيفي في

(١) مثل هذا الزواج الخطأ كان كثير الحدوث، وكان يحدث غالباً نتيجة للرضاع المشترك. (المراجعون).

قلب محيطه الأُسري، مثلاً في وجود والده، أو في معية أبنائه الصغار أو أبناء إخوته، وخاصة في الجو الحرّ للنزهات في مزارع النخيل حول الرياض، أو في صحبة إخوانه وأبناء عمومته، حملت كلها قصصاً تسرُّ النفس علمت عن أمرها من مسؤولي البيت ومن الموالي، فأظهرت الحياة الداخلية لابن سعود بين تلك الأسوار الطينية العظيمة لقصره. لا تمضي أيام قليلة إلا ويكون ابن سعود قد أكمل دورة في تفقد ذويه إذ يزور أباه في مكانه ويزور أبناءه وإخوانه وبالذات أخواته اللائي يتعامل معهن بحُرية ويستغرق في صحبتهن في صخبٍ ومرح كأبناء المدارس، وكانت هذه الأصوات المرحة تصل إليَّ في غرفتي عبر الأبواب المغلقة التي تفصل غرفنا عن البهو الكبير المخصص في العادة لنساء القصر.

كانت نورة كبرى أخواته والتي كان كثيراً ما يُخاطب بنسبته إليها (أخو نورة)[1] وفقاً لتقليد عربي رائع، كانت مسؤولة عن الإشراف على كل ما يتعلق بشؤون القصر الداخلية؛ المطبخ وإدارة شؤون الموالي والإماء ومستودع المؤن وما إليها. وتبدو وفقاً لشهادة من يعرفونها مرحةً وآسرة كما أنها مقدّرة ونشطة. أما بقية الأخوات وعددهن حوالي خمس عشرة، وأعمارهن في المدى بين الثلاثينات وأعمار الأطفال، إذ أن الإمام عبدالرحمن يواصل إنجاب الأطفال وهو في هذا العمر المتقدم. هؤلاء الأخوات يساعدن أختهن الكبرى في أعمال المنزل، كما يفعل الإخوان لابن سعود نفسه بإعانته على أمور الدولة. بلغ عدد أطفال ابن سعود

(١) يُلقب ابن رشيد حاكم حائل بنفس الاسم الذي صار في حالة تلك السلالة الحاكمة لقباً يورَّث؛ ولكن الأمر ليس هكذا في الرياض، إذ أن ابن سعود يُسمى هكذا لأن (نورة) هو الاسم الذي تصادف أن سميت به أخته الكبرى. وهو في العادة يُكنى (أبو تركي) نسبة لابنه الأكبر، ولكن نادراً ما يخاطب باسم عبدالعزيز أو ابن سعود. أما الغرباء فهم يخاطبونه بلقب الإمام وفي حالات أقل شيوعاً: الحاكم. ولكن عندما يتحدثون عنه للآخرين يقولون: الشيخ أو الإمام. (المؤلف).

سبعة أبنـاء وحوالي اثنتي عشرة بنتاً، ولكن الأبناء ـ يا حسـرتاه ـ قد تقلصوا الآن ليصيروا أربعـة، إذ إن تركي وفهد وسعد: الابن الأكبر، والثـالث والأصغر توفوا في شتـاء ١٩١٨-١٩١٩م مخلفين سـعوداً، الوريث فـيمـا يبدو ـ وإخوانـه لأبيه فيصلاً ومحـمداً وخالداً ليترسموا خطى والدهم ويحفظوا تراثـه وتقاليده. وفقاً لما أعلمه، فإن تركياً لم يترك ذرية من ورائه رغم أن زيجـاته المتعددة نتج عنها ـ فيما أعتقد ـ ابنتان، ولكنهما توفيتا في عمر الرضاعة.

تتكرر وفاة الأطفـال بصورة فظيـعة في الجزيرة العـربية، والسـبب الأساس للوفيات هو الجـدري، ورغم أن الظروف لم تساعدني لعمـل إحصاءات لمثل هذه الوفيات إلا أنني قمت بعـمل حسابات تقريبية بنيتهـا على إجابات من التقيت بهم وسألتهم عن الأمر، والخلاصة هي أن مـا بين سبعين إلى ثمانين بالمئة من الأطفال الذين يولدون في الأراضي السـعـودية لا يعيـشون أكـثـر من سنوات قليلة، هذا بالطبع أمرٌ فظيع، تزيده سوءاً ويلات الحرب وإزهاقهـا لأرواح من يعيشون ليبلغوا سن الرشد. وليس هناك عدد كبـير من الشيوخ كبيري الـسن في الجزيرة العربية. أما الآن وقد انتشرت بكثرة الأسلحة الحديثـة بين العرب مقارنة بما كان عليه الحال سابقاً، فـإنه يصعب علينا أن نتخـيل السرعة الكبيـرة التي سينخفض بهـا التعداد لشعب تتسـبب النسبة العاليـة لوفيات أطفاله في خفـضه إلى درجةٍ مخيـفة ما لم تُتخذ الإجراءات التي تُكبحُ بها الرغبـة في إدارة الحروب التي يُحيطها العرب بهالةٍ من الاحترام(١).

وهذا هو على وجه التحديد ما يحاول ابن سـعود تحقيقه منذ أن نجح بفضل حملات عنيفة متلاحقة من استئصال خطر الحروب، وفوق هذا فلقد شعر بالحاجة

(١) ما أشار إليه المؤلف يعكس الأوضاع في تلك الفترة المبكرة التي تبدلت نتيجة لجهود الملك عبدالعزيز التي شملت الجـوانب الصحيـة ونشر الأمن والاستـقرار، كمـا أدى إلى تقليص عدد الوفيـات بين الأطفال. (المراجعون).

للاستفادة من مزايا الطرق الطبية الحديثة في بلاده، ولا يقتصر الأمر على عبدالله أفندي الذي تسبب وجوده في تحسُّنٍ عظيم في الرعاية الطبية مقارنةً بما كان عليه الحال، وذلك بفضل تدريبه الأوربي في المجال الطبي. وفوق ذاك استقبلت الرياض خلال الأعوام القليلة الماضية مرَّتين دكتور هاريسون التابع للبعثة الطبية الأمريكية بالبحرين. لقد سمعت عندما كنت بالرياض في شتاء ١٩١٧م شائعات عن زياراته، ومنها أن مغادرته بعد الزيارة الأولى[1] كان قد عجل بها بعد أن اكتشف مرضاه أنه كان يلفّ العقاقير التي يُعطيها لهم في أوراق من الإنجيل المترجم إلى اللغة العربية، ولكن دعوته لزيارة العاصمة أثناء وباء الإنفلونزا (١٩١٨-١٩١٩م) يدل على أن استخدامه للأوراق الدينية لذلك الغرض - إن كان استخدامه لها حقيقياً - لم يؤثر كثيراً على شعبيته، وفوق هذا فإن الجزيرة العربية ليست مكاناً مناسباً للتبشير الديني، رغم أن لها من الأسباب ما يجعلها ممتنة للعمل الطبي الممتاز الذي قامت به البعثة الأمريكية على طول ساحل الخليج العربي لسنوات عديدة.

رغم أن ابن سعود كان سعيداً في الإطار الأسري، إلا أنه لا يستطيع أن ينسى التحذير الذي كتب بوضوح في سجلات تاريخ سلالته الملكية من جراء النزاعات الأسرية. وأخيراً العلاقات غير المرضية بينه وبين شيخ الكويت، كل هذه الأشياء أسهمت في تذكيره بأنه قد تربَّع على عرشه، ليس بالحق الوراثي، ولكن بمقدرته وتفوقه الذاتي. لقد أدركنا كل هذه المعطيات، كولونيل هاميلتون وأنا منذ الأيام الأولى لإقامتي في الرياض. عندما استغللنا الفرصة التي سنحت لنا لمناقشة

(١) أثناء صيف ١٩١٧م. (المؤلف).

الأمر برمته مع مضيفنا، وحيث كانت الحكومة البريطانية على علاقات طيبة معه ومع سالم شيخ الكويت، وكانت حريصة على إعادة العلاقات الطيبة بينهما في أسرع وقت.

تدين عائلة آل سعود، وعلى وجه الخصوص يدين الحاكم السعودي الحالي لمحمد بن صباح ولأخيه مبارك ـ الذي خلفه بعد أن قتله ـ لما لقوه في الكويت من كرم الوفادة والعون الصادق إبّان نفيهم عن ديارهم إلى الكويت أثناء العقد الأخير من القرن الماضي. كان مبارك بطلاً كبيراً وكان المبدأ الذي اهتدى به خلال فترة حكمه هو الاعتماد على صداقة بريطانيا العظمى كوسيلة وحيدة لإنقاذ دولته الصغيرة من مصير ابتلاع الإمبراطورية العثمانية لها، وهو الذي عاش حتى رأى الجيش البريطاني يضع حداً للآمال التركية في تحقيق ذلك الهدف، وبعدها مات فخوراً بذلك في ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٥م.

لقد بقيت العلاقة بين نجد والكويت خلال كل هذه الفترة علاقة سليمة طيبة[١]، ثم إن سياسة جابر بن مبارك وخليفته استمرت على نفس النهج حتى حدثت وفاته الفاجعة بعد حكمٍ دام ثمانية عشر شهراً، ولم يخلف أحمد[٢] أباه جابراً، ولكن خلفه أخوه الطموح سالم الذي جلس على سُدّة الحكم منذ ذلك الوقت وحتى الآن، والذي ارتبط توليه السلطة ببداية التدهور في العلاقات الودية التي سادت أثناء حكم أسلافه مع ابن سعود. لقد كان الاعتقاد السائد أن سالماً

(١) كان هذا بلاشك عائداً بقدر كبير للعمل الممتاز للراحل و.هـ. سي. شكسبير الذي سافر كثيراً ـ بوصفه الوكيل السياسي للكويت في السنوات التي سبقت اندلاع الحرب الكبرى ـ لبلاد ابن سعود مقيماً أطيب العلاقات مع ذلك الحاكم. (المؤلف).

(٢) كان هو الذي ترأس بعثة الكويت لهذا البلد في خريف عام ١٩١٩م إنابةً عن عمّه، ثمّ خلفه بعد وفاته في فبراير ١٩٢١م. (المؤلف).

الذي كان مؤيداً للمذهب المالكي، كان في أعماقه متعاطفاً مع الأتراك. ولكن مهما كان الأمر فلقد كان موقفه بلا شك عدائياً نحو ابن سعود طوال الوقت، وبرهن على هذا العداء بإيوائه لقبيلة العجمان في أرض الكويت نقضاً لعهد جابر في السابق بألا تكون الكويت ملجأ لهذه القبيلة.

لقد كانت مشكلة قبيلة العجمان لهذا السبب من أسس المشاكل بين نجد والكويت، والتي كانت الحكومة البريطانية حريصة على تسويتها لمصلحة جميع الأطراف. لقد هجر العجمان ابن سعود في معركة جراب في يناير (كانون الثاني) ١٩١٥م، وفي الصيف اللاحق قتلوا أخاه سعداً في معركة بالأحساء.

عندما حضرت فيصل الوفاة ورّث عرشه لابنه الأكبر عبدالله، مع علمه بأن مواراته التراب سيعقبها نزاع عنيف بينه وبين ابنه الثاني سعود الذي تنتمي أمّه لقبيلة العجمان.

كان الخطر المستقبلي يهدد المسيرة إذن، وكانت النذر القاتمة واضحة لكل ذي بصر، وسرعان ما تحطمت الدولة ذات النظام والنسق، التي بناها فيصل بصبر جم، تحطمت تحت أقدام ابنيه. وعندما يئس عبدالله من الحفاظ على حكمه بمفرده لجأ لعون محمد بن رشيد حاكم حائل الذي كان آنئذٍ أقوى رجل في جزيرة العرب، وكان سعود حينها قد احتلّ الرياض والذي خلا بهروب أخيه الحائل. ولكن قبل أن تمضي سنوات عديدة اضطر لمجابهة كل قوة جبل شمّر، ووقعت معركة حاسمة في جودي (Judi)[1] بصحراء الأحساء، تقريباً حوالي العام

(١) كذا ورد الاسم في النص الإنجليزي، والصواب أنها: جودة. (المراجعون).

١٨٨٥م، هُزم سعود وقتل في المعركة وانهارت قضيَّة من ادّعى أحقية العرش[١]، ولكن عبدالله أيقن في ساعة نصره أنه قد باع وطنه لمنقذيه. فقد قرر محمد بن رشيد ضم الأرض السعودية لإمارته الخاصة، وأمضى عبدالله بقية أيامه ضيفاً رهيناً بحائل حيث توفي دون أن يخلف ذرية[٢].

في هذه الأثناء لجأ من تبقى من أسرة آل سعود للعيش في أجزاء متفرقة من الجزيرة العربية مفضلين ذلك على العيش في وطن يخضعون فيه لإرادة المغتصب، لجأ أبناء سعود للحجاز، بينما انسحب عبدالرحمن الابن الرابع لفيصل[٣] مع أسرته وأنجاله الصغار إلى سواحل الخليج العربي. بقيت الأرض السعودية تحت وطأة حكم حائل لأكثر من عشر سنوات، بينما بلغ هؤلاء الأطفال مرحلة الرجولة. وفي حائل خلف محمد بن رشيد بعد وفاته[٤] عبدالعزيز، ابن أخيه.

ولقد كان عبدالرحمن الذي آلى على نفسه الاضطلاع بمسؤولية تحرير الأرض وذلك بالتشجيع المتصل والعون الصادق من مبارك حاكم الكويت. وبدأ أول تحرك

(١) ما أشار إليه المؤلف هنا به أخطاء كثيرة فقد حدثت معركة (جودة) في عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) التي انهزم فيها جيش الإمام عبدالله ولم يقتل الإمام سعود فيها بل انتصر، ثم دخل الرياض في عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م). (المراجعون).

(٢) ما أشار إليه المؤلف هنا خطأ فقد توفي الإمام عبدالله بن فيصل في الرياض بعد يومين من عودته من حائل في عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م). (المراجعون).

(٣) تُوفِّي محمد، الابن الثالث دون أن يخلف ذريَّة من بعده، ولا أدري إن كانت وفاته سابقة أم لاحقة لسقوط الرياض في يد ابن رشيد* (المؤلف).

* تعليق: الواقع أن محمد بن فيصل بقي في الرياض بعد أن غادرها الإمام عبدالرحمن، كما أقره الأمير محمد بن رشيد على إمارة الرياض بعد نزوح الإمام عبدالرحمن وأسرته عنها. (المراجعون).

(٤) توفي الأمير محمد بن رشيد سنة ١٣١٥هـ، ولم يعقِّب. (المراجعون).

جاد في ١٨٩٩م أو ١٩٠٠ حين تحـرك عبدالرحمن ومـبارك بكامل قواتهمـا نحو القصيم[١] ـ بينما كان عبدالعزيز، الابن الأكبر لعـبدالرحمن وقد بلغ عمره ثمانية عشـر عاماً، قـد تحرك ويصحـبتـه أتباع قليلون باتجاه الرياض نـفسهـا في هجوم مباغت. والتقت القـوات الأساسية للمجموعتين فـي منخفض الطرفية المالح أثناء هطول الأمطار، وكـان النصـر حليف ابن رشـيـد بعد مـذبحـة عظيـمة أضـرّت بالجانبين. ولقد أكّـد بعض الذين شهدوا المعركة أن ميـاه الأمطار قد اختلطت مع دماء القتلى لتكوّن نهراً أحمر اتخـذ طريقه نحو حوض الملح ذي البياض الثلجي. كانت الأنبـاء المؤكدة التي وردت عن هزيمـة عبدالرحـمن قد جـعلت عبـدالعزيز يتراجع عن مغامـرته دون أن يحقق شيئاً. عندها تنازل الأب رسمـياً عن حقه في عرش الرياض لابنه الأكبر[٢].

لم يُضع الأخير وقتاً في الاضطلاع بالمسـؤولية التي أُلقيت على عاتقه، وفي شتاء ١٩٠٠-١٩٠١م[٣] تحرك من الكـويت في مجمـوعة قليلة لكنهـا مخـتارة

---

(١) المقصود حـملة الشيخ مبارك المعروفـة بوقعة الصريف والتي تـسمى أيضاً وقعة الطرفيـة، وكان ذلك عام ١٣١٨هـ. ١٩٠١م. (المراجعون).

(٢) هذه المعلومات التي أوردها المؤلف غير دقيقة. والواقع أن الملك عـبدالعزيز استطاع خلال حملته الأولى على الرياض عام ١٣١٨هـ/١٩٠١م دخول الـرياض ثم بدأ يحاصر القلعة حـتى علم بهزيمة جيش مبـارك الصباح فطلب منه والده إخلاء الرياض فـفعل. أما مسـألة تنازل الإمام عبدالرحـمن عن الحكم لابنه عبدالعـزيز فقد حصلت بعد نجاح حملة الملك عبدالعزيز الثانية على الرياض واستعادتها، وتحديداً بعد عودة الإمام عبدالرحمن من الكويت إلى الرياض عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م وليس كما ذكرالمؤلف أنه بعد حملته الأولى. (المراجعون)

(٣) الصحيح أن ذلك حدث في عام ١٩٠١ وبداية ١٩٠٢م . (المراجعون).

بعناية، بلغ أفـرادها مائتي رجل[١]، منهم صـديقه الوفي، ابن عـمه عبـدالله بن جلوي، وعندما شـارفوا بلوغ العاصمـة أوقف مجموعـته الصغيرة واخـتار منهم خمـسة عشـر فقط[٢] من الصناديد وتقدم بهـم نحو العتمـة، مُخلّفاً وراءه بقـية المجموعة مع أوامر بالرجوع من حيث أتوا إن لم يسمعوا شيئاً عن أخبارهم بحلول صباح اليوم التالي. "انظروا، لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن إن لم تصل إليكم رسالة منا صباح الغـد، عجّلوا أنتم بالابتعاد، واعلموا أن قد نـفذ فينا أمر الله". هكذا قال لهم ابن سعود.

دخلت المجموعة إلى المدينة تحت جُنح الظلام من خلال الأجزاء المهدمة في سورها، واتخـذوا طريقهم نحو منزل الحاكم الرشـيدي المواجه للحصـن. وقرعوا الباب ففتـحته إحدى النساء. كان الحاكم قد ذهب للحـصن حيث كانت عادته أن يقضي به الليل زيادة في الحـرص، دون أن يعود لمنزله إلا بعد بزوغ الفـجر؛ رغم هذا دخل عبدالعزيز وأتباعه ووضعوا كل النساء معاً في غرفة واحدة وأقاموا عليهن حراسة مع التحذير من مغبّة صـدور أي صوت منهن. ثم اتخذوا موضعهم بجوار

---

(١) الصحيح أن عدد من خرج مع الملك عبدالعزيز من الكويت أربعون رجلاً. (المراجعون).

(٢) الواقع أن الملك عبدالعزيـز عندما خرج من الكويت جمع حوله عدداً من رجال الـبادية بلغ عددهم نحو ألف وأربع مئة مقاتل، وقام الملك عبدالعزيز بشن غارات متتالية ضد القبائل الموالية لابن رشيد، وتطورت الأوضاع بعدها حتى ضايقته الدولة العثمانية، وتفرق جيشه، ولم يبق معه إلا الأربعون الذين خرجوا معه من الكويت، ومـعهم ثلاثة وعـشرون آخـرون، وهؤلاء هم الذين دخلوا مع جـلالته الرياض، وعندمـا وصلوا مشـارف المدينة، في موضع يقال له الشقـيب -تحول الآن إلى حديقة عـامة على الطريق الدائري بجوار مصنع الأسمنت- أبقى هناك ثلاثة وعشرين رجلاً. ودخل بأربعين. (المراجعون).

نافذة مزوّدة بشبكية مُطلَّة على الفناء الواقع أمـام الحصن، ومن هناك قاموا بالمراقبة طوال الليل وهم يقـوّون أجسـادهم بالتـمر والقـهـوة التي أخذوها من مـستـودع الحاكم[1]، ويُقوون أرواحهم وعزيمتهم بقراءة الـقرآن حتى بزوغ الفجر، وحينذاك فتـحت أبواب الحصن الضـخمـة وخرج الحاكم ومـعه حـراسه نحـو المنزل. كان الشجعان الستة عشر ينتظرون قدومهم بجانب الباب الذي تركوه مُشرَعاً بينما كانت سيوفهم وبنادقهم مصـوبَّة نحو العدو القادم إليهم[2]. وكانت لحظات من الصراع العنيف هي التي حـسمت الأمر، وبعـدها نادت الحشـود المذهولة بعبـدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل ابن سعود سيِّداً على أرض آبائه.

لقد عاش العجمان في حدود الصحراء حياة غير مستقرة، متحالفين مع ابن رشيد مرة ومع سالم كرة أخـرى، ولكن في هذا الوقت الذي أكتب فيه هذا (شتاء ١٩١٧م) مكنهم سالم من اللجوء إلى بلاده رغماً عن تعهّد جابر السابق بألاّ تفعل الكويت ذلك، وكـانت الحكومة البريطانـية بطبيـعة الحال راغـبة في إزالة مـصدر متوقّع من مصادر الفـتنة بين نجد والكويت. لذلـك كـان الاتفـاق الـذي عقـدنـاه -كولونيل هاميلتون وأنـا- مع ابن سعود، بعد مناقشة الأمر من جـميع جوانبه مع مصدر عظيم للرضا لنا بصفتنا ممثلين للحكومة البريطانية. كان الترتيب الذي اتفقْنا

(١) أورد فؤاد حمزة رواية على لسـان الملك عبدالعزيز عن أحداث استرداد الرياض وجاء فـيها أن الملك ورجاله كانوا يأكلون من تمر كان معـهم وليس من مستودع الحاكم كما أشار المؤلف هنا. انظـر: فؤاد حمزة. البلاد العربية السعودية. ص٢٣، وانظر أيضاً: الطريق إلى الرياض (دارة الملك عبدالعزيز ١٤١٩هـ). (المراجعون).

(٢) الثابت أن عدد أفراد المجموعة التي هاجمت الحصن في البداية ستة رجال بالإضافة إلى الملك عبدالعزيز، ثم شارك بقية الأربعين. (المراجعون).

على بنوده أن يقوم سالم، بإبعاد قبيلة العجمان عن أرضه ولكن في مقابل ذلك يتعهد ابن سعود بقبولهم ضمن رعيته إن كانوا هم مستعدّين أن يخضعوا له بضمانات مناسبة؛ ثمّ يتنازل ابن سعود للشيخ سالم عن الحقّ المتنازع عليه والخاص بتحصيل الضريبة من قبيلة العوازم الرعوية التي تتنقّل بين الأراضي الكويتية وأراضي نجد وفقاً للموسم. وكان الاتفاق الأخير مع ابن سعود أن يتعاون تعاوناً صادقاً مع الشيخ سالم في حصار أرض العدو التركي بالتأكّد بألاّ يمر أحد ـ إلاّ من يحقّ لهم ذلك ـ من نجد ليشتري مؤناً من الكويت. لم يقبل العجمان في حقيقة الأمر الخيار الذي طرح عليهم ليذعنوا لحاكمهم الشرعي، ولم تَزُل نهائياً الاحتكاكات بين نجد والكويت، ولكن تحقق شيء من الحرمان الرسمى لقبيلة متمردة، من حماية القانون، وستسنح لي الفرصة لاحقاً لأوضح كيف توصّلنا لحلٍ لمشكلة الحصار.

في الوقت الراهن تسببت الترتيبات التي توصلت إليها مع ابن سعود في تمهيد الطريق لتحقيق الغرض الأساسي لمهمّتي وهو أن أجعل ابن سعود يتعهد ويواصل المسيرة حتى النهاية بشن حملة رادعة ضد حائل[1]. هذا الأمر استوجب مناقشات مطوّلة عن الطرق والوسائل اللازمة لتحقيق هذا الهدف، ونتج عنه أن أرسلتُ مقترحات لتدرسها الحكومة البريطانية، وذلك قبل أن أغادر الرياض في رحلتي للحجاز؛ ولكن يمكن الحديث عن هذه الأمور في الوقت الملائم،

(١) لم يقبل الملك عبدالعزيز بطلب بريطانيا؛ لأنه كان يهدف لتحقيق تأسيس الدولة السعودية الموحدة وليس لخدمة أغراض بريطانيا. (المراجعون).

أي عندما يحين الوقت لتسجيل ما صارت إليه حملة حائل في خريف ١٩١٨م.

عندما غادرت بغداد، كنت على ثقة من أنّ ضابطاً يمثلّ المندوب السامي بمصر سيلحق بي في الرياض بقصد أن ندرس معاً الوضع السياسي في وسط الجزيرة العربية وانعكاساته على المشكلة العربية بكاملها، وعلى الأخص على الوضع في الحجاز. لقد كان معروفاً تماماً أنّ العلاقات بين ابن سعود والشريف لم تكن وديّة رغماً عن تحالف كلّ منهما معنا، ولكنّ الأمر الذي لم يكن معلوماً لنا هو أنّ طموحات الشريف كانت متناقضة تماماً مع تصوّر ابن سعود للدور الذي كان مقدّراً له أن يؤديه على المسرح العربي. كان الشريف في حقيقة الأمر قد بدأ يتظاهر بأنهّ القائد الطبيعي للقضية العربية، وانتحل لنفسه دون تفويض أو أيّ مسوّغٍ آخر، لقب ملك البلاد العربية. لكن الخطوات التي كان يأمل اتباعها للحصول على الاعتراف لم تكن معروفة لأحد غيره. كان الشريف يتلقّى في الوقت الراهن دعماً كبيراً من الحكومة البريطانية، وكانت حملة فيصل المقترحة لمهاجمة حدود فلسطين، إضافةً لما تضمّنته من مناوشات تمهيديّة على خط الحجاز للسكة الحديدية، قد جعلته يفكّر هو ومستشاروه فيما قدمه إلى ذلك الادّعاء. كان الباب ما زال مفتوحاً أمامه لتبنّي سياسة وفاق مع جيرانه العرب، وظنّ بعض المراقبين الأكفاء ـ رغم أنني أعترف بأنني لم أشاركهم هذا الرأي ـ أن حكاماً مثل ابن سعود والإدريسي سيوافقون في نهاية الأمر على التضحية باستقلالهم مقابل نيل شرف تبعية الملك. وأقول اختصاراً، إنهّ مهما تكن الأسباب فليس هناك مسوغ

لليأس من إحداث تفاهم سلمي بين الوحدات المختلفة لحلفائنا العرب. لقد كانت الزيارة المقترحة لضابط يأتي من مصر للرياض خطوةً في هذه الاتجاهات.

ولكن سرعان ما اتّضح أنّ الشريف ليست له الرغبة في المساهمة على تنفيذ هذا المشروع، وسمعت عندما كنت بالرياض عن رفض الملك السماح لأيٍ من الضباط البريطانيين بالتوجّه نحو نجد من الغرب بحجّة أنّ الطريق الذي سيسلكه ليس آمنا. كان ابن سعود ـ من أجل مصلحته الخاصة ـ عظيم الاهتمام بأن يجد الفرصة ليشرح بنفسه بعض الأمور للسيد رولاند ستورز[1]، وهو الضابط الذي تمّ اختياره ليمثل المندوب السامي في بعثتنا، لذا فإنهّ التمس مني على الفور أن أقترح عليه أن يأتي عبر البحر الأحمر إلى البحرين، ولكني بينت له أنه ليس لأن الرحلة طويلة فحسب، بل تصبح الزيارة بلا معنى مالم يتمكّن السيد ستورز من القدوم بعد تباحثه مع الملك، وكان منطقي كافياً لإقناعه، ومن ثَمَّ أيّد بكلِّ الصدق الخطّة الماكرة التي اقترحتها عليه.

قد يكون من الضروري أن أعترف بأنّ دوافعي في تقديم ذلك الاقتراح كانت مزيجاً متنوعاً، ولم تكن قد بُنيت حقيقةً وفقاً لما يتطلّبه الوضع، ولكنَّ هذا أمرٌ يسير ربما ندمتُ على ما فعلت. قلت لابن سعود إنّ الشريف رفض الموافقة على تأييد مشروع زيارة مستر ستورز بسبب الأخطار التي تحف بالرحلة، وقلت له «هناك طريقة واحدة تضمن حضوره، دعني أذهب ـ في حراسة توفّرها لي ـ لآتي به من الطائف».

(١) أصبح الآن حاكماً عسكرياً على القدس. (المؤلف).

كان ابن سعود واعياً ـ كما كنت أنا ـ باحتمالات مثل هذه الخطّة. كان سرعان ما ينفجر في لحظات يفقد فيها السيطرة على أحاسيسه فتجرفه بلاغته بقوّة دافعة: « أَلَمْ يكن هو حتّى وقت قريب القائم مقام الأتراك في أرض الحجاز؟ من هو إذن ليسمّى نفسه ملكاً، ملك العرب؟» لكنَّ الذي ألهب ابن سعود بالضغينة كان الراتب السخي الذي يناله غريمه من الحكومة البريطانية، ولم أستطع أن أوضّح لابن سعود أن ما يُدفع للشريف كان اعترافاً بخدمات عظيمة يقدِّمها أو يُتوقَّع أن يقدِّمها في شأن الحرب ضد القوات التركيّة. وفي لحظات الصراحة كان ابن سعود يعترف بأنهً كان يتوقع أن يُعامل على قدم المساواة مع غريمه في المجالين السياسي والمالي، كما أنه كان يطالب بألاّ ينتهك الأخير حقوقه في السيادة، إذ أنّه برهن على رغبته في فعل ذلك بادّعائه السيادة على قبائل عتيبة وحرب التي تعيش داخل حدود نجد.

بيد أنّ ابن سعود كان في الوقت الراهن حريصاً على أن يُحيل إلى مصلحته رفض الشريف لتشجيع مهمة السيد ستورز، وقد أعطاه اقتراحي الفرصة لتحقيق هذا الهدف. «والله يا صاحب» هكذا قال لي «لا حول ولا قوة إلا بالله». في رحلة مثل هذه ـ كما هو الحال في كل وقت ـ فإنَّ الأمر كلّه بيد الله، لكنني سأرسلك مع جماعة من رجالي للطائف كما اقترحت، وإن شاء الله ستصلها بخير، لأنّ الشريف يكذب حين يقول إن الطريق محفوف بالمخاطر. "وتمّ ترتيب الأمر على نحو ما اقترح. وكان لابد من التحرك السريع إن كان لنا أن نحقق الهدف الرئيس للرحلة. وفي مساء يوم ٥ ديسمبر (كانون الأول) بعثت برسولٍ

لأخطر المسؤولين ببغـداد بقراري، ومضت الأيام الثلاثة التاليـة في عذاب الترقُّب خوفـاً من أن أتلقَّى أوامر أو معلومات تتـعارض مع تنفيـذ خطَّتي، ولكن حالفني الحظ، وكنت قد وصلت سالماً إلى جدّة في الطرف الآخر للجـزيرة العربية، حينما استلمت الرسالة القادمة من بغداد.

الفصل الرابع

طريق الحجاج

١ ــ الدرعيّة

في صباح يوم ٩ ديسمبر (كانون الأول) كان هناك نشاط وتحرّك دؤوب في القصر. كان الوعد أن يؤتى بالإبل صباح اليوم السابق ولكنها لم تصل إلاّ مساءً، وها هي الآن ترقد متلوية متذمّرة في ساحة القصر في خضمّ جمهرة كبيرة من الناس تجمّعوا ليشهدوا مغادرة القافلة، إذ أنّ مغادرة أو وصول قافلة هي حادثة عظيمة في بلدات البدو. حيث يُمكن تلقّي الأخبار من القادمين، ويتم الترحيب بالأصدقاء والأقارب العائدين بعد غيبة طويلة، وفي حالة المغادرة فإنّ للمسافر أصدقاء يودّعونه ويذكّرونه بتسليم رسائل أو إنجاز مهمّة عند بلوغه غايته. كانت تناخ إلى الداخل أربعةٌ من المطايا (ذلول)، سروج مُزيّنة بأغطية مزركشة وحقائب رفيعة المستوى وشُربات طويلة. واحدة كانت لي والبقية لزعماء الجماعة المرافقة لي. وفي غرفنا كانت الفوضى ضاربة بأطنابها جرّاء حزم الأمتعة وتوزيع المهمات لمجموعة من التابعين الذين لا يجوز أن يُنسى أيٌّ منهم، رغم أنّه كان من الصعب استحضار ما فعلوا أو ماذا فعل معظمهم في الأيام العشرة السابقة ليستحقوا ما يأخذونه، وفي الساعة العاشرة صباحاً عندما أصبح كلُّ شيءٍ مُعداً بالنسبة لي، أتوا بالإفطار، وبعد تناول الوجبة أوصلوني لغرفة مكتب ابن سعود لأودّعه.

خاطبني ابن سعود قائلاً: «اكتملت الآن الاستعدادات، لقد خصصت لك مجموعة كبيرة من خير إبلي وسيسير كلّ شيء كما نود» أمامك طريق طويل وشاق، ولكن لا تهتم ولا تحزن، لاحول ولا قوة إلاّ بالله، ليس هناك شيء تخافه، معك رجال من كلّ قبيلة، رجالٌ صناديد ومخلصون. ترفقوا بالحيوانات ولا تحمّلوها فوق طاقتها، ولكن سافروا باضطراد، وعُد دون تأخير إذ أنني سأترقب عودتكم بتلهف، انظر سوف أُعطي تعليماتي النهائية في وجودك للرجال

الذين وضعتهُم على رأس مجموعتك.» واستجابةً لدعوته أتى أمامنا رجلان، إبراهيم بن جميعة وسعد اليميني، وهذا الأخير كان رجلاً طويلاً نحيلاً، وضفائر شَعره الطويلة المجدولة تتدلّي على كتفيه حول مُحَيًّا بالغ الوسامة، لافتاً للنظر، وكان بادي التهذيب. أمرهم ابن سعود بقوله: فهوى كلاهما إلى الأرض واتكأوا على أحد الأعمدة بينما كان يصدر إليهم أوامر تفصيلية لكيفية المسير، «وعندما تصلوا الطائف»، واصل أوامره: «انظروا، الدبرة بيد الله، ثمّ بيد ها الرجّال هذا، أطيعوه دون سؤال في كل شيء ولا تعارضوه البتة، انهضوا، توكلوا على الله.» ثمّ نهضوا، وتقدّم كلّ منهم نحو الإمام مقبلين سيّدهم على الأنف كإذن بالتحرك. ونهضت لألحق بهم. «ضع ثقتك في الله» هكذا قال لي، «في حفظ الله، وداعاً».

عندما نزلت وجدت الذلول المخصصة لي وقد أُقتيدت لساحة القصر، وهناك في خضم الحشد العظيم قمت بوداع أخير، وركبت مطيّتي التي نهضت متعثّرة مزمجرة، وتمايلت بي ببطء عبر السوق المكتظ ونحن نتوجّه نحو بوابة الظهيري[١] في الركن الشمالي الغربي للمدينة، ومن ثمّ تقدّمنا متّخذين طريق الطائف، ابتداءً من هذه الرحلة سأكون منفرداً في كلّ تجوالي في الجزيرة العربية، فلقد عاد الكولونيل هاميلتون إلى الكويت، وخلّفت ورائي المقدم كنليف أوين وسكوفليد بالرياض، حيث قاما بزيارة منطقة الخرج[٢] في الفترة التي أعقبت سفري وقبل أن يغادرا الرياض في اتجاه الساحل ليبحرا من القطيف في طريق العودة.

---

(١) الصواب: الظهيرة كما تقدم. (المراجعون).

(٢) لقد كانا بلا شك أول أوربيين يزوران الإقليم بعد بلجريف، راجع الجزء الثاني ١٦٨ . (المؤلف).

اتّخذنا الآن مساراً في اتجاه الشمال الغربي، وأفسح شريط النخيل المجال سريعاً لمنحدرٍ عارٍ مُكوّن من الصخور الجيرية الكلسية، ارتقيناه متابعين طريقنا بطولِ مجرى مُثلّم، تاركين رابيتي المغرزات وأبو مخروق الوعرتين عن يميننا، وممر وادي حنيفة الضيق، الذي تتوسّطه رقاع نخيل الباطن الداكنة، عن شمالنا؛ رماله في تموّج خفيف وتقاطعه ـ على أبعاد ـ مجاري السيول المتجهة نحو الوادي، وكان أكبرها شعيب المغيدر، على بعد ثلاثة أميال ونصف من الرياض، حيث أرضيّة المجرى حجرية رمليّة، ويجري من المرتفعات التي تقع عن يميننا نحو الوادي في الباطن، وفي مكان ما قبالة هذا المجرى يوجد بيت ريفي (قصر) في وسط رقعة زراعية صغيرة من نخيل زرعت منذ عهد قريب، ورقعة من الحبوب. وعلى بعد ثلاثة أميال كانت هناك بئر تمّ حفرها حديثاً على جانب الطريق بالقرب من قرية وواحة عرقة التي بدت قمم نخيلها عن شمالنا من خلف شاطئ مجرى وادي حنيفة.

بعدها يقع تموّج رملي عارٍ يهبط إلى الأسفل، ويُعرف باسم هيشات الدرعية، سرنا على رابية بارزة يتوّجُها نصبٌ من ركام من الحجارة يسمى رجم سعود وهي علامة بارزة في تاريخ نجد المضطرب، إذ أنّ إبراهيم باشا زرع مدافعه على هذا المرتفع في عام ١٨١٨م ليقوم بالقصف العنيف الذي تسبّب ـ بدعمٍ من خيانة حدثت بالداخل ـ في استسلام القوى السعودية، وفي تحطيم مدينة الدرعية الأبية، وسببت الخوف المؤقت لسلالة حاكمة كانت دولتها قد امتدّت لأقصى حدود الجزيرة العربية، السلالة التي أحسّت بالنتائج الباهظة التي تأثرت بها المدن المقدّسة، مكّة والمدينة.

سرعان ما وصلنا حافة وادي حنيـفة، ووقفنا حيال أنبل الآثار في الأراضي السعودية، مدينة الأموات وفي وسط نتـوء بيضاوي عظيم في السهل الرملي تقف صخرة ضخمـة وتصطفّ حول قاعدتها ـ حاجبة لها ـ رقـاعٌ مُدرَّجة من الحبوب، وحدائق النخيل ومزارع الخضراوات، في حين تتوّج قمّـتها بقايا الحصون والقصور المتداعية لمدينة الدرعيـة التي كانت فيما مضى العاصمة ذات المجـد لسعود الكبير، «الإمبراطور» المتوَّج على الجزيرة العربية كلِّها. كانت الأراضي المنخفضة من السهل في اتجاهيْ الشـمال والشـرق مكسوّة بغابة مـن النخيل تتوسطهـا قرى كـان أهلها المزارعـون هم الذين آل إليهم الإرث الخـاوي لاسم ذي شـرف، مع وادي حنيفـة بمهده المغطى بالحصباء البلورية يتلوّى حول صخرة في الوسط متجهاً نحو الجنوب، ماراً عـبر النخيـل، مقسـماً إيّاها لجزء شـرقي وآخر غربـي. كان الوادي من كلّ جوانبـه مطوّقاً بجروف صـخرية عبـوسة ترتفع عمـودياً لتضـاهي الحطام المتراكم العظيم للحائط الحجري في المحيط الخارجي، الذي تجـد فيه بين فينةٍ وأخرى برجاً ذا شقوق أو حصناً متداعيًا، وفي وسط مشهد الخراب هذا ينتصب في سكينة ركام الحجارة كنصبٍ تذكاري لسعود، رجل الدرعية.

هبط الطريق نحو الوادي من خلال فجوة في الجـرف الصخري، ثمَّ عبر بنا مهد السيـول، كنا قد قطعنا مسافة عشرة أميال منذ أن غادرنا الرياض، وهو إنجازٌ كاف لليـوم الأوّل من رحلة طويلة، فضـربنا خيامنا للمـبيت تحت الصـخرة التي تتوسط المجـرى، قبـالة القرية الصـغيرة مَلْوي تجـولت بين أنقاض المدينـة القديمة والجدار الخارجـي في صحبة سـعد اليميني حـتى مغيب الشمس، حـيث رجعت للمخيم لتناول العشاء، ثم للخلود للنوم.

تتميّز الأنقاض الموجودة على الصخور عن بقية الدرعية باسم طريْفة[1] (Turaifa)، وهي مهجورة تماماً، كانت أجزاء المباني القديمة رغم ما أصابها من دمار ما زالت منتصبة، عمود هنا وحائط هناك وقنطرة متداعية وباب بلا منزل صورة لخراب عظيم. كانت كل المباني طينية سميكة ما عدا الأعمدة التي كانت كتلاً صخريَّة جيرية يثبتها الطين إلى بعضها ويملّطها من الخارج. كانت القناطر مسنَّنة وغير مزيّنة وتقف على دعامات من الأعمدة. كانت قصور عائلة آل سعود والمساجد الرئيسة ومبانٍ أخرى عامّة وبيوت الضيافة ومنازل العظماء تحتلّ الجناح الشرقي من المدينة، بينما كانت منازل الطبقات الفقيرة والعمال والحرفيين والآخرين تتجمع فيها في الجانب الغربي للصخرة الذي كانت تتناثر فيه بقايا منازل متواضعة.

كان هناك ميدان فسيح في الركن الشمالي الشرقي للمدينة، ولابدّ أنّه كان ساحة السوق العامّة. وأن الطرق المحيطة به كانت تشكّل الجزء التجاري من المدينة. لابدّ أن الحياة في تلك الأيام التي شهدت ميلاد الدعوة السلفية كانت قريبة الشبه بالحياة في الرياض في هذه الأيّام حيث بُعثت روح الجهاد السعودية من جديد، وأن نظرنا الآن لعبدالعزيز بن سعود وللشيخ عبدالله[2]: الحاكم وكبير العلماء في الدولة الإسلامية القائمة الآن، يمكننا أن نرى فيهم أسلافهم الذين وضعوا حجر الزاوية للحركة السلفية: سعود بن سعود[3] ومحمد بن عبدالوهاب، أولّهما الراعي وثانيهما الداعي بالدعوة المتجددة، كما يمكننا اليوم أن نرى في البدو الذين يقضون أيامهم في الصلاة، ويجاهدون في سنّ البلوغ أو في سنّ متقدّمة فك طلاسم الحروف الهجائية أو يستظهرون من غير فهم كلام الله، يمكننا أن نرى فيهم أولئك

(١) هكذا وردت في الأصل وصحتها الطريف. (المراجعون).

(٢) الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ. (المراجعون).

(٣) هكذا وردت في الأصل الإنجليزي، لكن صحة الاسم محمد بن سعود. (المراجعون).

المحاربين الأقوياء الذين عـاشوا في السابق، والذين كانوا يتدفقـون على بلاط أمير بَعينْهِ من الأمراء الكثيرين الذين كانوا في الأنحاء في ذلك الزمان يَشُدّهم إلى ذلك البلاط ما يُشاع عمّـا يقال فيه من حديث مُلهَم: وفي إحدى القاعـات الشهيرة كان محمد الواعظ يختـار من القرآن والسنّة مقاطع منتقاة من أجل تحـقيق رسالة بسيطة من الدعوة والإرشاد بين البسطاء، لقد هجر البـدو الله بعد أن صرفتهم عنه الحجج الكلاميـة والتعقـيد الشـعائري، ورجال الدين المتطفلين الذيـن يجاهدون من أجل ذواتهم قـد هجـروا طريق الله وارتدّوا إلى طـريق الملذات الوثنـي. هؤلاء يمكن إعادتهم لجادة الطريق بكنس خيوط العنكبوت الكهنوتية التي أحاطت بالعقيدة النقية التي بُعث بها النبي الذي رعى الغنم، وفي تلك القاعـة القديمة رُوع يوماً العاطلون مدمنو القهوة بحديث محمد بن عبدالوهاب:

"استمعوا لما يقوله رسول الله: "قد افـترق اليهود إلى واحد وسبعين فرقة، وقد افـترق النصارى إلـى اثنتين وسبعين فـرقة، وستـفتـرق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كُلهم إلى النار إلا واحدة".

استـهـواهم هذا الحـديث وأيقظ فيـهم روح حب الاسـتطلاع، والنتـيجـة معروفة. ففي تلك الأيام كما هو الحال هذه الأيام تكتظ قاعات الأمراء وبيوت الله بأعداد مـتزايدة من الرجـال الخائفين الذين يبحـثون بإلحـاح عن طريق الخلاص، طريق الجنة، لقد وجدوه في ساحات القتال النائية في جزيرة العرب. وحول قصر الدرعية الذي اشـتُهر بكرم فيـاض يسبغ على الغرباء الذين يحلون ضيـوفاً عليه، والذي عُرفَ بـالإنفاق السخي عـلى طلاب العلم، حول هذا القـصر كـان يوجد سوق صغير يحتال عـلى البقاء في ظروف غير مستقرة ليوفر احتـياجات مجموعة صغيرة فقيرة من سكان القرية. ما أشـبه الليلة بالبارحة، لقد كانت الدرعية القديمة

في كل النواحي نموذجاً قامت على غراره الرياض الحديثة، التي بُنيت لتحلَّ محلها، حيث قامت بإرادة الله على أنقاض المدينة التي كانت منافسة لها، والتي صارت أولى ضحاياها[1].

تتكون الدرعية الحديثة من خمس قرى متناثرة، تقع اثنتان منها: العودة والعلب على الجانب الأيمن من مجرى العواصف المطرية في أعلى الوادي، بينما تقع بقية القرى: مَلْوي، والظهرة، وغصيبة تقريباً في خط متصل تطوِّقه غابة النخيل على الجانب الأيسر من القناة التي تقع عليها ملوي. كل هذه القرى غير مسورة ومبانيها طينية، وليس لها معالم بارزة. قد يكون تعداد السكان بها جميعاً في حدود ٧٠٠٠ نسمة، أكثرهم من المجموعة القديمة من قبيلة بني تميم، قسم أبي حنيفة[2]، لقد استقروا هنا وعاشوا ـ كما يؤمنون ـ منذ عهد الجاهلية[3] وأعطوا اسمهم للوادي. لقد كان مقرهم الأصلي في الجبيلة التي تقع أعلى الوادي، والتي زرتها في مناسبة لاحقة، ولقد هاجروا منها بعد أن دمرها أمير العيينة[4]. أما بقية عناصر السكان فهم مهاجرون أصولهم من قحطان والدواسر، والجماعة التي لابد من وجودها بني خضير الذين ينتهي نسبهم لموالي أرقاء هم من تخلَّفوا من القبائل المتنقلة التي كانت تندفع بعرض شبه جزيرة العرب منذ أزمان سحيقة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، من اليمن إلى العراق مطرودين

(١) منفوحة، راجع ص٥٤١ . (المؤلف).

(٢) المقصود بنو حنيفة والمعروف أن بني حنيفة لا يرجعون إلى بني تميم، وهما قبيلتان عدنانيتان. (المراجعون).

(٣) كلمة «الجاهلية» تعني قبل محمد، وتستعمل هنا بمعناها الأصلي القديم وليس بالمعنى الذي يستخدمه السلفيون في العادة لتعني الفترة التي سبقت ظهور محمد بن عبدالوهاب. (المؤلف).

(٤) ابن معمر. (المؤلف).

من البلد المزدهر الطيب: الجزيرة العربية إلى السهول الخصيبة لبلاد ما بين الرافدين وقد يكون السبب انهيار سد مأرب العظيم[1]، وكما يقول العرب «اليمن مهد العرب والعراق مقبرتهم».

يحدث أربع أو خمس مرات أو أكثر أن تصطدم العواصف المطرية الشتوية والربيعية بجروف طويق الصخرية فيجري السيل الجارف متلوياً نحو بطن الوادي فيضطرب السيل من جانب لآخر عبر مجراه المتعرج متسارعاً نحو الرمال الجنوبية ضارباً الجرف دون أن يترك أثراً على الصخور التي لا تلين. ولكنه ينشر الخراب والفوضى بين الحقول والحدائق غير المحمية، وبعد ساعات قليلة تنحسر العاصفة ويمضي السيل لحال سبيله وتترقرق مئات الجداول الصغيرة على الوادي المغطى بالحصباء لتكوّن بِركاً صغيرة ومستنقعات، وتعود الحياة للتربة العطشى لتتمكن من حمل عبء إنبات محصول جديد. وتجد الوادي بطول مجرى السيل وقد تمت تقويته هنا وهناك ليقاوم السيول، وذلك بإنشاء جدران متينة من ضمّ الصخور. تُحتجز الصخور من سهل الصخور الجيرية في شكل كتل مستطيلة طولها قدمان، وتوضع الكتل باتساق، واحدة فوق الأخرى دون تجصيص لارتفاع عشرة أقدام أو أكثر. ويبلغ ارتفاع الوادي حوالي ٢٢٥٠ قدماً فوق سطح البحر، أو حوالي ٤٠٠ قدم فوق الرياض، ولابد أن قمة الصخرة الوسطى تفوق ذلك بمئة قدم.

بدأت السحب تتجمع أثناء الليل من جهة الجنوب، وهذه مقدّمة لأول عاصفة في الموسم، سجل مقياس الحرارة ٥٤,٥° فهرنهايت في الساعة العاشرة والنصف مساء. كانت خيمتي تزن أربعين رطلاً، وكان الباقون يحتمون بخيمتين كبيرتين من قماش القنب. وفي صباح اليوم التالي، كان الظلام مخيماً حينما أيقظوني في الساعة الخامسة والنصف صباحاً: أضاء هلال يعادل ربع القمر الهيكل

(١) حدث هذا في القرن الأول الميلادي. (المؤلف).

الكئيب للمدينة الميتة، وردَّدت الجروف الصخرية المحيطة بها صدى الاستجابة المهيبة لجموع المصلين لصلاة الفجر. ورغم أن الوقت كان مبكراً إلا أن مجموعة من أهل القرية كانوا قد تجمعوا حول المخيم، وكانوا في غالبهم نساء وأطفال، ليجمعوا مخلفات الإبل التي تجمعت بعد قضاء ليلة كاملة، وتقدم من كانوا أكثر جرأة نحو خيمتي ليستجدوا، حتى طردهم سعد بأن رماهم بالحجارة والشتائم.

ركبنا مطايانا في السادسة والنصف صباحاً، وتحركنا عبر مجرى السيول، وفي دقائق قليلة تجاوزنا الطرف الشمالي للصخرة الوسطى، ثم اصطفت بساتين النخيل على جانبي الوادي، ولاحت على الجانب صخرة خفيفة يغطيها حُطام قرية درست، واختفت النخيل لبعض المسافة لكنها سرعان ما عاودت الظهور على الجانبين عندما اقتربنا من قرية العودة، قرية صغيرة قوامها عدد من البيوت المبعثرة على الجانب الأيمن من الوادي، وبعدها قلَّت النخيل ثم ما لبثت أن أفسحت المجال لغيضة كثيفة من شجيرات الحَوْر[1] القزمية، الممتدة بكل عرض الوادي الذي يضيق في هذا الموقع ليبلغ ٣٠٠ ياردة، ثم ازداد عرض الوادي ثانية عند بساتين نخيل الدرعية الأخيرة التي كانت تتوسطها قرية العِلْب التي يحيط بها سور قصير غير منتظم. أما هذه النخيل فهي ملك خاص لعبدالله بن جلوي أمير الأحساء.

ينحني الوادي هنا بحدَّة متجهاً إلى الغرب قليلاً من اتجاه الشمال، ثم يواصل مسيره في خط مستقيم عبر سهل رملي عارٍ عرضه حوالي ٤٠٠ ياردة، تحدّه الجرف الصخرية على الجانبين على ارتفاع بين خمسين إلى سبعين قدماً،

---

(١) الغاف. (المؤلف).

كانت تبدو على الرمال قطرات متفـرقة من مياه الأمطار التي هطلت ليلاً. واصلنا سيرنا هكذا لأكـثر من ميلين لنصل إلى دائرة عـريضة تكونت نتيجـة لالتقاء أودية ثلاثة: وادي حنيفـة من الشمال وشعـيب الملقى عديم الأهمية من الشـرق، حيث تقع قرية الملقى الـصغيرة ونخـيلها التي يمتلكهـا ابن سعود، ووادي العـمارية من الغرب، وفي منتصف الدائرة تقع آثار قرية صغيرة بادت منذ زمان.

٢ ـ وادي العَمَّارية وجبل طويق

يجري في أعلى وادي حنيفة الطريق الذي يقود للوشم والقصيم، وهو الطريق الرئيس لقوافل الحجاج، ويلتقي به ممر الحيسية المريح الذي هو أقل الممرات المخترقة لحاجز طويق، وعلى ذلك الطريق تقع بقايا المدن القديمة الجبيلة والعيينة وسدوس[1]. ويقع أعلى العمارية طريق قصير لكنه أكثر وعورة. وقفنا للتشاور عند مفترق الطرق، حيث فَضَّل بعض أفراد المجموعة الطريق السهل، بينما حبَّذ الآخرون الطريق الأقصر، وكان اختياري هو الذي يحسم الأمر. أغرتني المدن القديمة، لكنني كنت آمل أن أراها في طريق العودة عندما يتوجب علينا ارتقاء طريقنا نحو الشمال، ولم يكن الطريق الآخر حسب علمي قد تمّ اكتشافه، لذلك قررت أن نتخذ طريق وادي العمارية، فتحولنا ناحية الغرب.

كان الطريق يخترق وادياً وعراً تتناوبه الرمال والحصباء والتربة الطفالية، وكان عرضُه ٤٠٠ ياردة ويجري بين جروف صخرية كالحة ارتفاعها سبعون إلى مئة قدم، وبها كتوف صخرية تنتأ بعد فواصل على كلٍ من الجانبين، وبعد مسيرة ميلين اعترضنا حائط صخري وقف بعرض الوادي محولاً إياه لاتجاه الشمال الغربي عبر حطام قرية كبيرة مهجورة تعرف باسم شجرة أبو قباس لوجود مجموعة من شجيرات الطرفاء بقيت وحيدة مع برج حراسةٍ وحيد من قرية كانت مزدهرة في زمان مضى. بقي القليل من النخيل الميّتة أو تلك التي تحتضر، وهذه وتلك هي الحصيلة التي بقيت من بساتين النخيل الكثيفة التي كانت تحيط بالقرية في عهدها

---

(١) تقع سدوس في وادٍ آخر يبعُد قليلاً عن الخطّ الرئيس للطريق. (المؤلف).

الذهبي، وحول هذا كله كانت هناك بقايا جدار كان يحيط بالقرية، طوله ٧٠٠ ياردة ونصف هذا الطول بالجانبين، وبقيت في الوسط خرائب منازل سُوِّيت بالأرض، ويقال إن المدينة هُجرت نتيجة لفترات ممتدة من الجفاف.

بعد أن تجاوزنا الآثار القديمة بقليل تحولنا ثانية تجاه الغرب في اتجاه جبل العمارية المخروطي الواضح للعيان. وتقع أمام الجبل كتلة داكنة من النخيل، ومن خلفها خط داكن يمثل هضبة طويق. وبعد مسيرة ثلاثة أميال عبرنا تلاً خفيفاً ناتئاً بعرض الوادي من جهة اليسار ووصلنا إلى قرية العمارية التي وقفنا بها للراحة لوقت قصير ولتناول وجبة كانت الحاجة إليها ماسَّة وكانت الأصوات قد ارتفعت منادية بها منذ أن تجاوزنا الملقى.

تتكون بلدة العمارية من مجموعتين من النخيل مع وجود قرية في كل منها، كانت القرية الجنوبية مهدمة تماماً باستثناء الآبار (القلبان) التي تسقي رقعة ممتدة من النخيل وأرضاً زرعت بالحبوب، بينما كانت القرية الشمالية مربعة في شكلها، طول ضلعها ١٠٠ ياردة، مع رقعة نخيل صغيرة إلى أحد الجوانب، وكانت المنازل بها شديدة الانتظام بحيث كانت الجدران الخارجية لها تكون حاجزاً واقياً متصلاً أشبه بسور خارجي، وكانت الأركان محصنة بأبراج قصيرة. ولم تكن هناك بوابات عامة إذ كان لكلٍ من المنازل أبوابها الخاصة التي تقود إلى الخارج. كان جزء من السكان البالغ عددهم ٥٠٠ نسمة من الدواسر، والجزء الآخر من قبيلة عنزة، قسم الصقور الذي كان ينتمي إليه الأمير محمد بن بركة الذي تصادف أن كان نسيباً لسعد اليميني، لذا انضم إلينا لتناول القهوة إذ كنا قد فرغنا من تناول الوجبة. ويقع الجبل المخروطي بالقرب من القرية، إلى جانبها الغربي. وبينهما

كانت توجد المقبرة المطابقة للتعاليم الوهابية[1] حيث لا ترتفع القبور عن الأرض، فقط تحـدّها حجارة لا يتـعدى طولها قـدماً واحداً، يوضع أحـدها بجانب الرأس والآخر بجانب القدمين.

إنّ وجود التلال والروابي المختلطة بغير انتظام، والتي تحيط بالرياض، تجعل من الصعب أن نحدّد أين تبـدأ الحافّة الشرقية لسـهل طويق. لابد أنّ وادي حنيفة هو الذي يحدّ السهل من جـهة الباطن، وحتى في هذا الموقع ينبعج السـهل جزئياً خلف واديه من جهة اليـسار، أمّا في الناحية الشماليـة للباطن فإنّ أنسب الخطوط للحدود الشـرقيـة لطويق هي الحدود الغربـية لمدينة الرياض التي تتـصل بها تلال المغرزات و«أبو مـخروق» وصولاً إلى بنبـان ومروراً بطول الحـافة الغربيـة للشريط الرملي المسمى عـرق بنبان ثم إلى أعلى الوادي الذي يفـصل سهل طويق والأودية في شـمال طويق أو سـدير عن سـهل العـرمة. وهذا يعني أننـا منذ اللحظة التي غادرنا فـيهـا الرياض كنا نرتقيـه بتدّرج، والآن وبعد أن تجـاوزنا العمـارية وجدنا أنفسنا في وسط الهضبة الرئيسة رغم أننا لم نبلغ قمتها بعد.

ثمّ وجدنا أمامنا وادياً عريضاً يتلوّى في نصف دائرة نحو الجنوب ونحو الغرب، بين تلال مُسنّنة يبلغ ارتفاعـها ٤٠٠ ـ ٥٠٠ قدم. وكانت بعض التلال المنخـفضة التي تجري ـ بعد فواصل ـ نحو الوادي في الأسفل، تنحدرُ من التل الواقع عن يميننا والذي كان يرتفع من خلفه تلٌ أعلى يحد الحافة الداخلية للهضبة الأعلى. كان الطريق يتعرج فوق هذه التلال المنخـفضة المنحدرة إلى الأسفل يُغالب بين مـوضع وآخر منحدراً وعراً شديد الانحدار وذلك لتفادي الالتفاف المطوّل حول مجرى السيول.

---

(١) الواقع أن التعاليـم التي وصفها المؤلف بأنها وهابيـة هي التعاليم الإسلامـية الصحيحـة التي تتعلق بدفن الموتى وعدم وضع القباب أو رفعها عن الأرض. (المراجعون).

بعد أن قطعنا من جهة اليمين رافداً عريضاً للوادي يسمى شعيب مزيرعة، وصلنا بعد ساعة ونصف من العماريَّة إلى موقع التقاء مجريين يكونان النواة للوادي نفسه. كان شعيب ضبيع ينحدر من الهضبة العالية في الشمال الغربي، كما انحدر من الجنوب الغربي شعيب سقط الذي سلكناه في ارتقائنا إلى أعلى، واتَّصلت روافد بهذا الشعيب من الجانبين أبوطي وأبو سوس والحدَّاوي وروافد أخرى. كان مجرى السيول الضيّق الذي تغطيه الحصباء يجري من أحد جانبي الوادي إلى الجانب الآخر، وكان عرضه لا يزيد على ٣٠ ياردة ويضيق أكثر عند مروره بين الجرف الصخرية ـ التي تحدُّهُ من الجانبين ـ كلَّما ارتقى المرتفع، متعرجاً ليصل إلى قلب طويق. وكانت تتلقانا بين الحين والآخر مظاهر للحياة. فقد فرّت أربع حبارى مبتعدة عن طريقنا عندما ارتقينا وادياً جانبياً تكتنفه الشجيرات، ولاح لنا قطيع من الخراف يرعى فوق التلّ الذي يعلو أبو سوس بينما كانت راعية الخراف، وهي سيدة من الدواسر على القمّة تراقب تحرُّكنا، بينما كان ثوبها الخارجي بلونه القرمزي الزاهي يعطي مسحة ملوّنة لجانب التلّ الرماديّ الكئيب، وفي طريقنا لأعلى الوادي كان بعض الأطفال الصغار يرعون قطيعاً من الحملان حديثة الولادة، وخلف منحنىً للوهد كانت توجد ثلاث سقيفات تخص القريدان وهي فرع من شمَّر.

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر عندما ارتفعت الأصوات منادية بالتوقّف. لقد كانت هناك صيحات مماثلة في الصباح تنادي بالتوقّف لتناول الإفطار بعد ساعتين من التحرك، كان حينها طامي السلامي الذي يلقبونه (الجمل) ويلقبونه (الباشا) هو الذي قاد المطالبة بالتوقف صائحاً أنَّه سيموت إن لم يأت الطعام على الفور، وعندما رفضت التوقُّف حينها ارتفعت بعض الهمهمات التي هدّأتُها بأن أمرتُ بتوزيع خبز عليهم ليأكلوه أثناء المسير. حيث يحافظ الطعام على الروح

المعنوية للعرب بطريقة فعّالة. وعندما توقفنا أتى إليَّ سعيد القحطاني وهو شاب لطيف نحيل، وكان قائداً للجزء الأوّل من الرحلة، وقال لي "والله يا صاحب ينبغي أن نخيّم لقضاء الليل هنا نظراً لوجود الأعشاب وحطب الوقود، ووالله لن يكون هناك عشب أو وقود بعد هذا المكان ولمدّة يومٍ كامل في مسيرتنا." وارتفعت الصيحات عاليةً مؤيدةً لهذا الرأي، ولكن كان واضحاً أنَّ الرضوخ سيشكّل سابقة جدّ سيئة، وكان واضحاً أيضاً أن سعيداً كان يكذب رغم التأمين الكامل لما يقوله إبراهيم وبقية المجموعة، ورفضت هذا الاقتراح أيضاً، وارتفعت الهمهمات ثانيةً، أي نوعٍ من الرجال هذا الذي يرفض أن يأخذ الأمور برفق؟ لابدّ أنّه رجل مجنون، وقلت لهم: «إن شاء الله سيرينا الله موقعاً غنياً بالعشب والحطب لنخيِّم فيه».

بعد ساعة أعلنوا بعبوس وتجهُّم أنهم سيقفون لأداء صلاة العصر. فكان ردّي عليهم: «حسناً جداً؛ توقفوا أنتم لأداء الصلاة، ولكنني سأواصل المسير متمهلاً». ولكنَّ الراكب قليل الخبرة لا ينبغي أن يحاول المسير منفرداً، حيث توصلت لهذه النتيجة بعد دفع الثمن. عندما حثثت الذلول للمسير نَظَرَتْ حولها بقلق بينما ترجّل الآخرون للصلاة. كنّا الآن نجتاز الجزء الأضيق والأكثر وعورةً من الممر، حيث كان المجاز ضيقاً وطويلاً بطول سلسلة من الصخور تغطيها صخور جلمودية مدوّرة ويحفُّ بها جرف حاد بطول ستة أقدام وينحدر إلى قاع المجرى، واصلت محاولتي لحثّ الحيوان للمسير باستخدام كعب قدمي واستخدام العصا، ولكني زجرت الذلول وهي توجّه نظرات للحيوانات المناخة من خلفنا، وتقدمت متمايلةً ثم أسرعت، ثم تولّت أمر نفسها مُلتفتةً إلى الوراء ومضت في سباق مجنون عبر سلسلة الصخور وهي تعدو مسرعة، وتمسّكتُ بالسرج وأنا أجرُّ العنان دون جدوى، حتى بلغنا الخط الذي وضع للصلاة ثم جلسنا حتى انتهاء الصلاة، ثم وجهت الكلام لمرافقيّ موبخاً إيّاهم عندما واصلنا المسير: «ألا ترون أنّه كان من الواجب أن يرافقني واحد منكم

أو اثنان بينمـا يؤدّي الآخرون الصـلاة نظراً لقلّة تجربتي ولما تعـلمونه من تصـرّفات الإبل؟ ألم يكلفكم ابن سعود برعايتي؟ «ورد سعـد اليُميني»: «كان ينبغي عليك أن تتوقف أثناء أدائنا للصلاة. إن جـاء عباس باشا نفسه ليمنعني من الصـلاة سأصليها رغم ذلك في وقتهـا المحدّد. وسألتهم ومن هو عباس باشا؟» ولـم يعرف سعد من هو، وانفجر الجميع ضاحكين مِمَّا أشاع جواً من المرح بين الجميع.

وصلنا الآن شـعيبـاً صخـرياً شديد الضـيق والانحدار، وعـانت الإبل كثـيراً لارتقائه، وبوصولنا للقمّة وجدنا هضبة متّسعة تحدّها عن شمالنا سلسلة تلال الحمراء التي تمتد بين الشرق والغـرب محاذيةً لمسارنا، لتنحدر من جهة الـيمين إلى متاهةٍ من الأخاديد العميقة والممرات الضيقة، وعلى البعد امتدت مرتفعات طويق طيَّةً إثر طيَّة، وتلاً فوق تل. وسرعان ما بلغنا مهد مجرى سيول ضحل صغير يجري نحو الأسفل من سلسلة الحمراء في انحدار حاد وهو يشقّ ألواحاً عظيمة من الصخور الجيرية نحو الوهد العـميق لشـعيب مـخالب، وهنا كـان المهد الرملي تنقّطهُ شـجيـرات السنط ومفروشاً بالحشائش الصحراويّة. وكانت الساعة قد قاربت الرابعة عصراً. قلت لهم: «ماهذا الذي أرى؟ إنّـني أرى العشب والوقود هـنا». وأجابوا جمـيعـاً دون خجل: «نعم، نعم» فتوقفنا.

عندما كـانوا ينصبـون الخيام، مـشيت مع سـعد نحو إحـدى جرف الحـمراء العالية، وأحضـر معه بندقيته ليصطاد وعلاً إن تـصادف وجوده بقربنا، ولكننا لم نَرَ شيئاً منها. وأخذت غليوني وجلست لأقـوم بمسح للمشهد في ارتخاء، سألته: «لماذا لا تدخّن؟» فأجـاب: «إنّ الغليون مع إبراهيم، ولكنّي سـأجذب نفـساً أو اثنين من غليونك بعد أن تفرغ منه». وأعطيته غليوني. لاح بعيداً في ناحية الغرب لمعانٌ ذهبي للرمـال من وراء طويق الذي كانت حـافتـه الخارجـية تـلقي بظلال داكنة على ذلك

الذهب. أشــار لي سعد باتجــاه الشمــال لمواقع الحيـسيـة وسدوس، وكانــت سحب العاصفة المتراكمة الداكنة ترقد على التلال الـبعيدة، بينما كان لمعان البرق ينبئ بقدوم العاصفة الشديدة. وغابت الشمس في وهج مـتألق، فنزلنا إلى المخيّم. وتقع الهضبة التي تُعرف باسم الظهرة على ارتـفاع ٣٠٠٠ قدم تقريباً فوق سطح البـحر، وكانت أعلى قمة لسلسلة تلال الحمراء تعلو ذلك بحوالي ٢٠٠ قدم.

بللتنا قطرات من الغـيث في أول المساء، وازدادت شـدة الريح باضطراد مع تقدّم الليل؛ وفي الساعة ١١:٣٠ مساء سجل مـقياس الحرارة ٦٠,٨ْ فهرنهايت، وكانت السمــاء مثقلة بالسحــاب، بينما كانت الرياح تصـفر فوق الهضبـة القاتمة، ويقطر بعض الرذاذ على الخيــمة أحيــاناً، لقد كان يوماً شــاقاً طويلاً قطعنا فيــه ما يقارب ثلاثين مــيلاً فوق أرض صـعبة وعـرة. وتجمّع إبراهيم وسـعد وطامي في خيــمتي، بدأنا نعـرف بعضنا، لقـد اختلفنا في النـهار، ولكنَّ العرب لــهم ذاكرة ضعيفــة للأحداث البغيضة، وتفــهموا بسهولة أو تظاهروا بفهــمهم قلقي وحرصي على عدم تضييع الوقت قبل الوصول إلى هدفنا. بدأ طامي يسلينا بقصصه الداعرة عن مغامراته العاطفــية وغاراته، ما كان منها حقيقيــاً أو من صنع الخيال، وما كان منها في الماضي أو المستقبل. لقد كان في بداية حياته بدويا يعيش مع البدو معتمداً على ذكائه الفطري، يغير ويـنهب ليوفر لنفسه ولأسرته الطعام، واتخـذ في مسيرة حيــاته سبع أو ثمــاني زوجات، وأنجب عـدداً من الأطفال ذهــب جلُّهم ضحـية للجدري الذي يحصد أرواح الأطفال في الجزيرة العربية حصداً، وبقيت له من كل أبنائه بنتــان، تزوجت إحــداهما وهي والدة حـفيــده الأوحـد، والثانيـة طفلة في الخامسة من عمرها، واستقرّ منذ عهد قريب مع إحدى الزوجات في بريدة، وكان لا يكفـّ عن مدح جـمالها وخـلالها وعفّـتها. وطامي رجل نــاضج في منتصف العمر، لم ينل الشيــب إلاّ من شعرات قليلات تتوسّط ضفائره المجـدولة ـ ولحيته

المشذّبة، وهو شديد التأنُّق، وفوق ذلك، فهو شاعر لا بأس به ومغنٍ أيضاً له صيت بين سكان الجزيرة العربية المحبين للغناء. كان في وقت مضى صنيعة لابن رشيد، لكنهّ الآن ـ ومنذ سنوات عديدة ـ التحق بخدمة ابن سعود[١] الذي قدّر فيه بديهته الحاضرة ومعرفته بالعالم وخلوّه من الرواسب والأحكام المسبقة فاستخدمه في الكويت والعراق ولمرافقة الضباط البريطانيين الذين يزورون نجد. كان قد صحب قبل الحرب الكولونيل الراحل و.هـ.س. شكسبير في جزء من رحلته عبر الجزيرة العربية عام ١٩١٤م. واختير مؤخراً ضمن الجماعة التي كانت سترافق السيد د. ستورز في رحلته التي كان قد تقرر أن يقوم بها عام ١٩١٧، وأخيراً رافق كولونيل هاميلتون من القصيم للرياض[٢].

بدأ اليوم التالي بارداً وثقيل الظل، وكانت سماؤه ملبَّدة بالغيوم، وبلغت القراءة في مقياس الحرارة في الساعة السادسة صباحاً ٥١,٨° فهرنهايت. واصلنا سيرنا عبر الهضبة التي تشكل جرف طويق، خاصة في اتّجاه تل جبل علية نحو الجنوب، والذي كان يفوق مسيرة حوالي ساعتين رأس وهد سقطة وحافة جرف طويق. وكان يجري بين الشمال والجنوب خط طويل غير مستقيم من الجُرف الصخرية العظيمة التي كانت تنتأ عن السهل الأسفل في ارتفاع عمودي لتحاذي حافة الهضبة ارتفاعاً. وقفنا نحن فوق الهضبة على ارتفاع ٦٠٠ـ٨٠٠ قدم فوق السهل الأسفل. ونتأت عن هذا الخط الصخري أراضٍ رأسية مهيبة هنا وهناك مُطلّةً على السهل الذي التحم في طريقه نحو الغرب ببحر عريض من الرمال. كان وهد

(١) بعد مغادرتي للجزيرة العربية جلب على نفسه غضب ابن سعود فالتجأ إلى ملك الحجاز، حيث مات وهو في خدمته عام ١٩١٩م. (المؤلف).

(٢) من الرياض لبريدة. (المؤلف).

سقطة يقع قبالتنا مباشرة، وبين جرفه الناتئة شديدة الانحدار وجلمود صخره الملقي كان ينحدر ممر ضيق وعر شديد التحدّر طريقه نحو السهل في الأسفل وهو يتلوّى بين السلاسل. لقد ترجلنا لنقود الإبل أو ندفعها أمامنا، كان الوهد ضيقاً في البداية ولكنه بدأ في الاتساع تدريجياً كلما هبطنا المنحدر، والجرف يرتفع ويرتفع فوقنا كلّما هبطنا. وكانت تتعلق هنا وهناك كتل صخرية ضخمة من الجلمود وصخور الصلصال على حافة الهاوية. وعندما انحدرنا إلى منتصف الطريق رأينا مَسَلّةً رقيقة من الصخر تبرز من الجرف الصخري عن شمالنا.

وفي النهاية بلغنا القاعدة، وعندما نظرنا خلفنا رأينا منظر الصخور الوعرة كحصن ذي أبراج. صخور عمودية تتّخذُ شكلاً نصف دائري وينتأ عن وجهها ثلاثة عشر برجاً مكوّراً، وامتدت من جانبي نصف الدائرة جرف طويق المتعددة المتجهمة العبوس، ولم يخلّف سيرنا أثراً على المسار الذي سلكناه، لقد كان الحاجز المنيع يستعصي على القياس، وقفنا الآن والسهل أمامنا وارتفعت عن يسارنا أراض رأسية لا اسم لها، وفي الناحية الجنوبية بدا تل وأراضي الصقورية الرأسية، وعلا من الخلف ساحل علية، وإلى اليمين انحنى الجرف دائرياً ليتّجه نحو الشمال، ثم ليختفي عن النظر. يقع أمام الصقورية تلاَّن خفيفان يحيطان بِقُرىَ المغرفية والمزاحمية ويخفيانهما عن النظر، وهي تقع على الطريق المؤدية من الرياض إلى الغطغط والذي يعبر سلسلة جبال طويق من خلال ممر أبا القدّ. بُنيت هجرة الغطغط وهي بلدة حديثة للإخوان في موقع عاصمة قديمة لمملكة اليمامة، وتقع على بعد أميال غرب المزاحمية على حافة نفود جو. وكانت تقع بيننا وبين التلّين المنخفضين بقايا القرية القديمة البليدة.

٣ ــ ما وراء طويق

صار جبل طويق من خلفنا، وكانت القرى التي ذكرناها في نهاية الفصل السابق بعيدة جداً عن مسارنا بحيث لا تتسنّى لنا زيارتها. وعلى كلٍ كان من الخير ألاّ نزور الغطغط. أمّا المزاحمية، بلد سعيد القحطاني فلم تكن أفضل من جارتها الكبرى، ورغم أنها قرية قديمة إلاّ أن معظم سكانها كانوا ممن نذروا أنفسهم للدعوة الجديدة، وكان سعيد من هؤلاء، لكنه لأعوامٍ خلت كان يبحث عن رزقه في شواطئ اللؤلؤ بالساحل، وحينها جرّب حظّه في تجارة اللؤلؤ في سيلان، وقادته الصدفة إلى زنجبار، لذلك تعلّم التسامح وأتى للدعوة الجديدة بتسامحه. سكان هذه القرى التي تقع في إطار إقليم سبيع والسهول والدواسر. ويقال إنّ تعداد السكان في الغطغط يعادل تعدادهم في الرياض[1]، ولكنهّم في حدود ٨٠٠٠ نسمة، وعدد السكان بالقريتين الأخريين قد يكون ٥٠٠ لكلٍّ منهما.

ينحدر السهل من قاعدة طويق نحو وادي ضرما الذي يُسمّونه في أغلب الأحيان البطين، والجزء الأول من الوادي مسطح وبه أشجار خفيفة مبعثرة ويسمونه الروضة. وعن اليمين يجري جرف طويق الذي يحجبه في بعض المواقع كتلٌ من ركام الحجارة. تنتأ إحدى هذه الكتل إلى الخارج في شكل هرم علوي تعلوه مَسَلّة صخرية غريبة تسمى الخنصر، رغم أن البعض مِمّن يعرفون المنطقة، ومن هؤلاء طامي الذي كان خبيراً فيها، يدّعون أنّ لها اسماً آخر غير مهذب، ومن هنا فأنا أشك أن يكون هذا الاسم موجوداً في هذه الأنحاء، لكنني لا أستطيع أن أجزم إن كان يخص المكان بالتحديد، على كلٍ أنا أفضّل الاسم الأكثر تهذيباً.

(١) ما أشار إليه المؤلف غير صحيح لأن المصادر التي قدرت عدد سكان هجرة الغطغط بين ٧٠٠ و ٥٠٠ بينما عدد سكان الرياض يزيدون على ذلك بكثير. (المراجعون).

قـدمنا الآن نحو منحـدر يرتفع إلى الأعلى تدريجـياً وتغطّيـه حجـارة من الصخور الجيرية، تُسمى حزم الصفيرة. ومن هنا كان بإمكاننا أن نرى جرف طويق وهي تمتد في مـهابة وجلال على مدّ البـصر في اتجاهي الشمـال والجنوب. عندما بلغنا نهاية المنحـدر القصير شديد الانحـدار ولَفَّ بنا المسار إلى بطين، وهو وادي رملي عرضه مـيلان وتحدّه من ناحية الغرب ثلاث تلال تمتـد من الشمال للجنوب في خط مستـقيم تقريباً: أبو طلح في الجنوب، والمشمـرة في الوسط، والبرقة في الشمال. كانت تلوح على البعد إلى الشرق من برقة رقاع نخيل ضرما، وكان يقع خلف التلال حاجز نفـود جو الرملي، وترتفع خلفه صخرة بازلتيـة عظيمة تسمى المعـانيق (Al Maanij)[1]. كـانت المنازل الريفـيـة تتناثر في الوادي عن يسـارنا، مجموعات صـغيرة من بيوت محصّنة في وسط مساحات أرض مـخصصة لزراعة الحبوب التي تسقى باستجلاب الماء لها من آبار تقع داخل المنازل.

بلغت هذه المجموعـات في جملتها إحـدى عشرة، وانتشرت على مـساحة شاسـعة من الأرض، وأهم هذه المجـموعات هي رقـاء، وصفاء، وجـفران، وأم الخشائف، وزنيـقة. وكانت الأخيـرة تقع تحت تل مشمرة أمـام ربع إلى المعانيق. كانت لنا الرغبة الأكيدة في زيارة ضرما حيث كان سعد ـ وفقا لما سمعته بعد أشهر عديدة ـ يزور فيها فتاةً تزوّجها فيـما بعد. لذلك بعثت بقافلة المتاع بالطريق المباشر مع توجيهات بأن تنتظرنا في المعانيق، بينما درنا نحن مرتقين أعلى الوادي في اتجاه ضرما التي كـانت تعلو من خلفها الكتل الصخرية المثلّمـة لجبل قريدان الواقع في الحدود بين العـارض والمحمل. وسرعـان ما أفسحت الرمـال المجال لتربة طفـيلية

(١) كذا ورد في النص الإنجليزي، والصواب أنها المعانيق -بالقاف- وهو اسمها القديم. وتسمى أيضاً معانيق بدون أل التعريف. (المراجعون).

امتدت دون تغييـر حتى بلغنا حزام نخيل حزومة بعد أن تجـاوزنا بقليل بيوت قصر شعلان القريبة من تل برقة.

اشتملت ضرمـا على حزامي نخيل كثيفين، المسافة بينهـما حوالي ربع ميل، وامتدت بالتـقريب من الشرق إلى الغرب بعرض الوادي، وطول كلّ منهـما حوالي نصف ميل وعرضه ربع ميل، كانت تتخلّل النخـيل منازل ريفية تشبه القلاع، بينما كانت القرية نفسها مربعة ويحيط بها جدار تزينه أبراج صغيرة في الأركان، وموزعة ـ بعد فواصل ـ بطول كل حائط. تقع القرية إلى داخل حزام النخيل الشمالي، كان طول كل حـائط حـوالي ٣٠٠ ياردة، وعلى مـا رأيت لم تكن هناك سـوى بوابة واحدة تقع في الركن الشمـالي الغربي. كان الفضاء بين حزامي النخـيل وحولهما أرض مـخصـصـة لزراعة الحـبوب الـتي كانت تُسـقى من آبار في داخل الحـدائق المسوّرة. عندما شـارفنا حزام النخيل الخارجي ظهـر لنا رجلٌ من سكان القرية التي لم نكن نودّ دخولهـا، وقدّم لنا دعـوة حريصة لتناول المرطّبـات في منزله. كنا في حقيقة الأمر قد توقفنا لفـترة قصيرة قبل ذلك لتناول الإفطار، ولكني رضخت أمام إصرار الرجل لأن متاعنا الذي تقدّم به بعض جماعتنا ليخيموا في المعانيق كان عذراً كافياً لنا للاعتذار إن كان هناك إصرارٌ لاحق للمبيت أيضاً.

تقدَّمنا مضيفنُا عبدالله النفيسي ماشياً بطول المسار الذي يمرّ عبر حزام النخيل الأول وعبـر الفضـاء الذي يقع خلفه، ثمّ دلف بنا عـبر بوابة القرية نـحو منزله، حيث قادنا إلى غـرفة صغيرة متـواضعة، مستطيلة الأبعاد. وجلسنا علـى الحصير حول موقـد القهوة. وشرع مضـيفنا في خطوات العملية المتبعة التي حمس فـيها البن، ثمَّ صبَّهُ في إناء أصغـر، وهكذا حتى تمّ إعداد المشروب المنعش، ثمَّ وُزعت فناجيل القهوة، وما لبث أن أتى بطبقٍ كبير به تمر ممتاز، وفي وسط هذا الطبق كان

يختبئ إناء به أقط وهي قطع مضغوطة من مخيض اللبن تُسحق وتُخلط مع سمن مذاب، وأدلينا نحوه، وكلٌ منا يأخذ التمر فيغمسه في الأقط قبل أن يأكل، ومن ثمَّ يرمي النوى على الحصير. لقد فضلتُ أن أتناول التمر دون الإقط بعد أن جرَّبت كليهما، وعندما سكن منا الجوع، أزاح عبدالله الطبق وشرع في إعداد مشروب بديل عن الشاي يسمى زنجبيل ويتكوّن من ماء مغلى يضاف إليه الزنجبيل وهو مليّن معتدل. وانتهت الضيافة بإمرار المبخرة حول الحضور. وأيقن رفاقي عندما كنّا نجلس هناك أن وقت الصلاة قد حان، فنهضوا، ودون طقوس خلعوا عباءاتهم وطرحوها أرضاً وشرعوا في الصلاة، بينما واصلنا الحديث أنا وعبدالله وأحد القرويين أو اثنان منهم، كانوا قد حضروا لرؤية الزوار. وفي حالات كهذه فإنَّ العرب لا يُخضعون الصلاة لطقوس خاصة من أي نوع.

كان مضيفنا ورفاقه قد أدّوا صلاة الظهر في المسجد، وهي صلاة منتصف النهار اسماً ولكنّها تؤدى في الحقيقة بعد حوالي ساعة أو أكثر. لم يكن وقت العصر قد حان بعد. يتمتع المسافرون بمزيّة اختصار الصلوات اليوميّة الخمس[1] إلى ثلاث أوقات، صلاة الفجر تصلى منفردة، ثم هناك صلاة بين العصرين وفيها تجمع صلاتا الظهر والعصر تُصلّى في أي وقت بعد دخول وقت الأولى وقبل دخول وقت الثانية[2]، ثم هناك صلاة المغرب عند مغيب الشمس وتجمع معها صلاة العشاء. وتؤدى كل صلاة بتفاصيلها، وفي حالة صلوات الجمع تنتهي صلاة الظهر وصلاة المغرب بالخاتمة" السلام عليكم ورحمة الله" قبل أن يُشرع في الصلاة التالية: العصر

(١) هو ما يسمى بالتخفيف. (المؤلف)

(٢) الصواب وقبل خروج وقت الثانية. (المراجعون).

والعشاء. وكل هذه الصلوات تسبقها الإقامة التي ينادي بها الإمام وليس المؤذّن[١]. عندما يحين وقت الصلاة ويكون المسافرون في الطريق يؤذّن أحدُهم للصلاة أذاناً يختلف عن الأذان التقليدي بأن يضاف الله (لا إله إلاّ الله) مرتين في النهاية[٢]. وبعد الأذان يُتخيَّر موقع مناسب للصلاة، وتناخ الركائب، ويخطّ الإمام ـ بعد التأكد من اتّجاه القبلة ـ خطاً على الأرض مع تقويس في منتصفه يشير إلى اتّجاه الكعبة. ويتخّذ الإمام موقعه خلف هذا التقويس بينما يصطف الآخرون خلفه عندما يقيم الصلاة، وتختلف الإقامة عن الأذان بأن تضاف إليها عبارة «قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة» ليشير إلى أنه سيُشرع في أداء الصلاة.

عبدالله النفيسي هو أحد مواطني قريةٍ عُرفت بشجاعةِ أهلها. كان ضمن قليلين يُحسدون لأنّهم «بيَّضوا وجوههم» ببسالتهم في ميدان الحرب، إذ أنَّه كان أول رجل يصعد إلى جدار حصن الكوت عندما هاجموا الهفوف. والبسالة في القتال جزاؤها في نجد تهليل جماهير الناس وعرفانهم بما فعله البطل. وفي تلك المناسبة أُعلن في معسكر ابن سعود «لقد احتلينا الكوت، عبدالله النفيسي كان أول رجل يصعد إلى حاجز شرفة الحصن بيض الله وجهه». وإنَّ إنقاذ رجل جريح تحت وابل النيران يعد عملاً بطولياً ـ كما هوالحال عندنا ـ ويستحقّ «التبييض». يعُرف رجال الحرس من أهل قرى العارض في كل الأرض السعودية بأنه لا مثيل لهم في ساحة الوغى.

إنّ تعداد سكان ضرما، إضافة لمن يسكنون في المنازل الريفية الواقعة خارج

---

(١) الإقامة يقوم بها عادة المؤذن، لكن لا مانع أن يقوم بها الإمام، والصلاة في السفر تكون جمعاً وقصراً أي تقصر الرباعية إلى ركعتين فقط وتبقى صلاة المغرب ثلاث ركعات. كما هو مفصل في كتب الفقه. (المراجعون).

(٢) هذا خطأ من المؤلف لأن الأذان لا يختلف في السفر عن الحضر وليس فيه زيادة. (المراجعون).

حدودها والذين يبقون بـها فقط أثناء فصلي الشتاء والربيع لزراعـة وحصاد القمح والشعيـر، لا يتعدَّى ٦٠٠٠ نسمة، إن لم يكن أقل، رغم أنهم يدّعـون بفخر أن فيهم ٢٠٠٠ من المقـاتلين الذين يُمكن استدعاؤهم عند الحاجة. وغـالبية السكان من قبيلة عنزة التي ينتمي إليها عبـدالله، وينتمي الباقون لقبائل بني تميم والدواسر وسبـيع وقحطان، وقد يكون هناك آخـرون أيضاً. تقع القرية على ارتفـاع يُقارب ٢٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، أي أنها تعلو الرياض بثلاث مئة قدم.

ينحدر البطين في اتجاه الجنوب إلى شعيب الأوسط[١] وشعيب لحا وكلاهما يخترق سلسلة طويق من الغرب للشرق ليصبّ في وادي حنيفة عند الحائر التي تحد الطرف الجنوبي لإقليم العـارض. ويقع رأس البطين في إقليم المحمل حـيث تسيل مجموعة من السيول التي تنشأ في طويق فتصب جميعها في مجرى مشترك.

بعد قضاء ساعة في القرية استأذنّا مضيفنا في الركوب، ولـم يأنف من قبول خمـسة عشر دولاراً قـدّمناها هدية له، ثمَّ توجَّهنا باتجاه الجنوب الغـربي في اتجاه الرمال. ويـعد ميلٍ ونـصف الميل بلغنا ريع البرقـة وهو منخفض في تـلال برقة، ودلفنا بعدها إلى منخفض جو السيـباني، وسطحه رمليٌّ في البداية ثمَّ ما تلبث أن تغطّيه تربة طفـيلية سهـلة التفتيـت يغلّفها الملح. عُـدنا مرّة ثانية لطريق الحـجاج الرئيس الذي يربط بين وسط نجـد ومكَّة، وهو يميل جنوباً إلى ضرمـا بعد اجتـياز حاجز طويق من خلال معـبر الحيسية. وبعد مسيرة أربعة أمـيال من ضرما تجاوزنا آبار جو السـيباني الأربعـة ودخلنا رمال نفود جـو، وما أن تجاوزنا منحـدراً رملياً لطيفاً حتـى بلغنا الموجة الأولى وبعدها تجشَّمنا مؤونة تخطي مـوجة من الرمال إثر

(١) تعرف أجزاؤه السفلية باسم شعيب البعيجة.

موجة حتى ارتقينا قمّة النفود. وعندها أطللنا على مشهد بديع للوادي من خلفنا، ولحاجز طويق الصخـري الممتد؛ وشاهدنا عن يسارنا على البعد نخيل المزاحمية، ومن خلفنا مباشرة نخيل ضرما؛ وأمامنا كانت الرمال تبدو بلا حدود، وما من شيء يقطعها على مَدّ البصر سوى كتلة المعانيق الداكنة التي ترتفع من منخفض ضيق يقع تحت أقدامنا تقريباً.

إنَّ الهبوط نحو الوادي مع أنه أقصر من ارتقائه، إلاّ أنَّ مدى انحداره بلغ أبعد الحدود، ولقد عجبت أيّما عجب من مقدرة الإبل على السير في مثله، بيد أنني بدأت اكتسب الخبرة في ركوب الإبل، وكنت ـ وفقاً لنصيحة رفاقي ـ أترك مطيتي تحني رأسها إلى أسفل أثناء هبوط المنحدرات الحادّة، وأجذب عنانها إلى أعلى فقط عند وصولنا لقاع المنحدر استعداداً للصعود التالي، وهكذا فإنّها تسير تارة بانحراف، وتارة أخرى باستقامة، وكرّة ثالثة مائلةً عبر كتلة رملية عظيمة، وتدفع الآن بعنقها الطويل لتنتزع عشباً جيداً من تلك الأعشاب التي توجد دائماً في المنحدرات الحادَّة. وفي النهاية بلغت الذلول القاع فترجّلتُ وتنفَّست الصعداء. وقد استغرق الارتقاء من الحافة الشرقية للرمال حتى بلوغ القمَّة خمسين دقيقة، بينما هبطنا إلى المعانيق في ربع ساعة. ويبلغ ارتفاع قاعدة المعانيق ٢٢٥٠ قدماً فوق سطح البحر، بينما يزيد علو قمتها بمئة قدم، ويزيد ارتفاع قمَّة النفود على ثلاثة أميال ولكنها فاقت في صعوبتها ومستوى الانحدار بها كلَّ ما مررت به لاحقاً، ويبلغ طولها من الشمال للجنوب حوالي خمسة عشر ميلاً أو أكثر.

بدأ السَّحاب الذي كان قد تفرَّق أثناء النهار يتجمَّع ثانيةً بعد أن انطلقنا من حزومة مستأنفين سيرنا، وبعد وصولنا للمخيَّم أصابتنا قطرات قليلة من المطر. وكان الليل معتماً وبارداً وبلغت درجة الحرارة في الساعة ١١:٣٠ ليلاً ٥٢,٧ فهرنهايت. وفي صباح اليوم التالي ارتدى العالَمُ حلَّةً قاتمة عابسة، وبلغت درجة

الحرارة ٤٩,١ ْ في الساعة السادسة صباحاً، واحتجبت السماء وراء سحاب كثيف رماديّ اللون قليل النشاط، وعندما تحركنا في الساعة السابعة صباحاً كان السّديم يبعث الرذاذ فتسري البرودة فينا إلى العظام.

بعبورنا لمنخفض المعانيق دخلنا رمال نفود قنيفذة وهو امتداد جنوبي لذراع الرمال المطوّقة المترامية الأطراف، والتي تجري منحدرة بطول الحدود الجنوبية للوشم. وفي هذه النقطة يبلغ عرضها من الشرق للغرب عشرة أميال، وهي في طبيعتها رمال لطيفة الانحدار تخلو من التلال العالية ومن الموجات المتلاحقة ولا تشكل عائقاً خطيراً للمسافرين، وتمتد نحو الجنوب حتى تبلغ كتل الجرانيت أو البازلت في البخرا وخشم الظبي ـ اللائي رأيناهما خلال مسيرة اليوم على بعد عشرة أميال تقريباً ـ والتي تقع فيها مصادر شعيب نساح وهي من أعظم المصارف التي تقاطع الطرق، وتنفذ خلال حاجز طويق في طريقها إلى السهباء.

قطعنا بعد مسيرة أربعة أميال منخفضاً عريضاً، وحينها كان يقع عن يميننا خشم ذويبان البارلتي. وبعدها دخلنا مُجَدَّداً للمنحدرات الرملية، وواصلنا السير عبر طريق لا معالم له، بينما بدأ الطلّ في أول الأمر ينبعث رذاذاً لطيفاً، ثمّ انهمر الوابل، ولكننا واصلنا المسير، وكانت كل خطوة نخطوها تُزري بنا، فابتلّت ملابسنا مرّة إثر مرّة حتى بلغنا الحافة الغربية للنفود بعد الساعة الحادية عشر صباحاً بقليل، فقرّرنا أن ننصب خيامنا هناك فاخترنا منخفضاً رملياً، وأطلقنا العنان للحيوانات لترعى، وجُمع حطب الوقود ونصبت الخيام وشرعنا نجفف ملابسنا بالقدر الذي تيسر لنا. والتمست الراحة لبقية النهار في حماية خيمتي الجيدة، بينما كان الغيث يهطل خارجها بلطف دون أن يتوقّف إلاّ لفواصل قليلة.

انخفضت درجة الحرارة بعد الظهر بقليل لتبلغ ٤٥,٥ْفهرنهايت، وقبل الساعة الثالثة بعد الظهر بقليل كانت الحرارة قد انخفضت لتبلغ ٤٢,٨ْ فهرنهايت، وبعدها ارتفعت في الساعة الخامسة إذ بلغت ٤٦,٤ درجة، ولكن عندما بلغت الساعة ٦:٤٥ مساء واجهت أبرد يوم مرَّ بي أثناء إقامتي بالجزيرة العربية. ولا أدري إن كان الأمر عائداً لبرودة الطقس أم للطعام الخشن لكنني شعرت أنني لست بخير فهجعت إلى مضجعي مبكراً لأنام، إذ أن مظهري كان يدعو للرثاء أثناء تناول الوجبة بعد أن تناولت جرعة قوية من البراندي. كنت قد قرّرت قبل مغادرتي للرياض أن أشارك كلَّ رفاقي حياتهم كما هي. لذلك خلّفت ورائي كل شيء باستثناء زجاجة واحدة من البراندي وزجاجة من عصير الليمون وزجاجة من عقار الكينين المركَّز، إضافة بالطبع للتبغ. واصطحبت كلّ ما تقدّم باستثناء التبغ، ليستخدم كعلاج عند استنفاد كلّ وسيلة أخرى. عندما بلغت الساحل لم تكن زجاجة عصير الليمون قد فتحت بعد، وكانت زجاجة الكينين كما هي، ولكنَّ التبغ استُهْلِكَ بصورة خطيرة، ولم أكن المسؤول الوحيد عن ذلك.

كان الغيث يهطل باعتدال عندما خلدتُ إلى النوم، واستمر لذلك طوال الليل دون انقطاع. وعندما أيقظوني في الساعة السادسة صباحاً، بعد صلاة الفجر، كان الحال كما هو، وانخفضت درجة الحرارة فبلغت ٤١,٩ْدرجة، هي أدنى درجة حرارة سجلّتها في الجزيرة العربية باستثناء حالة سُجّلت في مناسبة أخرى. قاومت إغراءً قوياً بمواصلة الاستلقاء على فراشي، ولكن عندما انقشعت السحب في الساعة ٧:٣٠ صباحاً حَصَّنت نفسي ضد استجداءات جديرة بالشفقة لمواصلة البقاء وأصررت على التحرّك. وكان حسناً ما فعلتُه لأن الأمطار هطلت مجدّداً بعد ربع ساعة، ولو أنَّها داهمتنا قبل أن نغادر مخيّمنا لكان من الأرجح ألاّ نغادره ذلك اليوم.

بعد عشر دقائق من تحرّكنا مررنا خارج نفود قنيفذة لندلفَ إلى سهل المرّوت الفسيح الذي يسمُّونه أحياناً الجلة والذي سرنا فيه ونحن نرتقي باضطراد، ولكن بلطف، مسافة تجاوزت عشرين ميلاً. كانت التربة رملية في الجزء الأكبر من الطريق، بينما يظهر من حين لآخر، شريط مغطى بحصى أسود أو تل خفيف من الصخور الداكنة. وهكذا ارتقى بنا الطريق نحو الغرب طبقة بعد طبقة بألطف تدرّج حتى بلغنا هبوطاً يسيراً حتى حافة نفود دلقان. وقد تركت الأمطار أثرها على السهل حيث امتلأت بالماء كلُّ نقرة في الأرض أو منخفض فصارت بركاً، فملأنا قرب الماء من هذه البرك إذ أنَّ مياه الأمطار تفوق في عذوبتها بكثير مياه الآبار لأن مياه الآبار في هذه المناطق رغم أنَّ المعلوم عنها أنّها عذبة إلاَّ أنّها ذات نكهة مالحة أو معدنية.

يمر طريق الحجاج الذي يعبر السهل بآبار تبراك على بعد ثلاثة أميال من الطرف الشرقي للسهل. وهنا توجد ثلاث آبار في الخدمة المستديمة، فماؤها عذب وهي على عمق عشرين قدماً فقط، وتوجد حولها كثير من الآبار المتداعية المهجورة. وعلى بعد ستة أميال منها توجد آبار سديرة، وكنا قد تركناها عن يميننا، ثم هناك آبار دلقان التي تقع آبار الأنجل على بعد أميال منها ناحية الشمال.

توقّف هطول الأمطار الذي دام ثلاث ساعات متصلة، قبل الساعة الحادية عشرة صباحاً بقليل، وتوقفنا في رقعة فسيحة من الشجيرات تسمى حمض إذ أنّ بها ما يكفي من حطب الوقود. حيث تناولنا إفطارنا هنا وجفّفنا ملابسنا بينما كان رفاقي يتذمرون بمرارة من البرد ويحتجّون بأن السير في ظلّ هذه الظروف القاسية مخالف لعادات العرب. ولم تكن حالي أفضل من حالهم ولكنني حاولت أن أعزّيهم عندما أخبرتهم بأن نصف أيام السنة في بلادي شبيهة بهذا اليوم.

صرنا نرى من الحيوانات أكثر مما رأينا منذ بداية الرحلة. كانت الغزلان تنفر مبتعدة عند إحساسها بنا، وكان الحمام تحلّق في الفضاء مرتفعة من الوهد الذي تقع فيه آبار تبراك والذي احتمى به أثناء العاصفة، بينما كانت أسراب القطا تتحلّق برك الأمطار، والغربان تطير مسرعة في أجواء السهل. كما كنّا نمرّ بين الفينة والأخرى، بمجموعات من السقيفات السوداء الخاصة بالرعاة من قحطان، هنا قطيع من الخراف والماعز، وهناك مجموعة من النياق الحبلى، وكنّا كثيراً ما نرى الحملان الصغيرة وقليلاً من صغار الإبل حديثي الولادة، إنّ فترة حمل الناقة تبلغ ثلاثة عشر شهراً، ولابد ألاّ يزيد الفاصل بين الحمل والآخر على عشرة أو أحد عشر شهراً وإلاّ تناقصت أعداد القطيع.

تمكنّا من الموقع الذي نزلنا به عند منتصف النهار من أن نطّلع على مشهد مترامي الأطراف للمنطقة التي تحيط بنا. وكانت تطلّ في اتجاه الجنوب المعالم البارزة: خشم الظبي والبخرا، بينما كانت تبدو خلفهما كتلة جبلية أخرى في اتّجاه الجنوب أيضاً مع ميلان يسير إلى الشرق، تسمى المبركة، وسبب التسمية أنها تشبه لبادة الكتف لدى الإبل، ولم تكن فيما يبدو سوى أرض رأسية لجرف طويق بالقرب من الوادي الذي يجرى منحدراً إلى الحريق والحوطة، كما بدا أمامنا على البعد ساحل سلسلة جبال العرض، من وراء نفود دلقان بمسافة، أمّا في اتّجاه الشمال فلقد كان المشهد رتيباً على مد البصر.

تمكنّا من رؤية واضحة لمرتفعات العرض عندما حللنا فوق تلال سديره، وشاهدنا أيضاً الجبل البارز ذا القمتين "إذني شمال"[1] الذي يتخذ موقعه على قمة

(١) يقال لهما أيضاً شمالات، واسمهما القديم ابني شمال، وهما جبلان طويلان شمال غربي مدينة القويعية. (المراجعون).

تلك المرتفعات، ويتكون تل سديره نفســه من الصخور الداكنة، ويقع خلفه بعرض منخفض ضيق خط نفود دلقان الذي دخلناه مباشرة بعد أن عبرنا الآبار التي استمدَّ اسمه منها. وعدد هذه الآبار ثلاث بعد استبعاد عدد من الآبار المهجورة، ومياه هذه الآبار الثـلاث ليست عـذبة تمامـاً، وعلى عمق ثلاثين قـدمـاً، وتبطّنُ ببناء داخلي وتحيط بها دائرة رملية واسعة، اتّشح لونها بالسواد من مخلفات الخراف. وعلى بعدٍ ما من هذه الدائرة بقـيت آثار بعثة الحج النجدية العظيـمة التي حلّت في هذا الموقع في الصيف الماضي وقضت ليلةً به. وقد أشار زميع البقمي ـ الذي كان قائداً لبعثة الحج كمـا هو قائدنا الآن ـ قائلاً «هناك كـانت خيمـة محمد بن سـعود[1] وهناك مسجده وهناك على البعد ياسعـد، كانت خيمة والدتك وأخواتك اللاتي رافقنه في الرحلة». بقـيت على الأرض الآثار الدائرية في المواقع التي نصبت عليـها الخـيام، وخطوط الصلاة الطويلة، والأخشـاب المحروقة في مئة من المواقـد وأكوام الخشب الذي لم يستخـدم حينها، بقيت كُلُّها دون أن تطمـس لتدل على الموقع. ويقال إنّ عدد أفراد وفد نجـد للحج كان سبعة آلاف كما أسلفنا. كـان عبدالرحمن والد ابن سعود قد بدأ رحلة الحج من الرياض ولكنه قطعها من جرّاء صعوبة الرحلة، وقفل عائداً للرياض من هذا المخيم ذاته أو من الذي يسبقه بجوار آبار تبراك. كان عبدالله أفندي أيضاً ضـمن تلك المجمـوعة. لقد كـان حج العام ١٩١٧م مـعلماً بارزاً في تاريخ الجزيرة العربية.

إن نفود دلقان امـتداد جنوبي لنفود السر العـريض، الذراع الأخرى للرمال المطوّقـة. وفي هذا الموقع لا يعدو عـرض نفود دلقـان ميلاً واحـداً، ولا تحفّ به المصاعب، بل هناك مـسار واضح المعالم يتهـادى عبر منحدراته اللطيـفة. وعندما

(١) هو محمد بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود. (المراجعون).

بلغنا الحافة الغربية لنفـود دلقان تنحينا جانباً لنقيم مخيـمنا للمبيت في وادٍ عميق.
كنا الآن على مشارف مسارات عتـيبة الرعوية. منذ أن بدأت رحلاتي من الساحل وحتى هذه الـلحظة لم يكن ضرورياً اتخـاذ احتيـاطات للسلامـة بمحاولة إخـفاء وجودنا أو بحماية مخيمنا، ولكن تغير الحال الآن، لقد تنحّينا عن الطريق لتجنّب عابري الصدفة، وأقمنا مخيّمنا في وادي عميق لإخفاء نيراننا، وكان من بيننا أربعة رجال من قبيلة عـتيبة وهم الآن مسؤولين عن سـلامتنا، وكانوا بين الحين والآخر يخرجون ليرتقوا الروابي الرملية المحيطة بـنا ويعلنوا للملأ: «انظروا يارجال عتيبة، هذا أنا جرمان رجل من برقا، وهأنذا أقـول لكم نحن رجال ابن سعود في طريقنا للشريف، لذا لا يتـحرشن أحدٌ بنا، ومن يسـمع قولي هذا فليأت إلينا ليـشاركنا عشاءنا، أو ليشرب القهوة معنا، مـرحباً بكم. ولكن لا تتحرشوا بنا، فإن حصل فلا تدّعـوا لاحقاً أنكم لم تدروا من نكـون وما هي صفـتنا». لاقت هذه الدعوة وغيرها آذاناً صمّاء، ولم يعكر صفونا أحد طوال الليل.

٤- مرتفعات نجد

يمتد أمـامنا على مدّ البـصر سهل حـدبا قذلة المنبسط الـفسيح بين الشـمال والجنوب بين الخطين المتوازيين، خط نفود دلقان مـن خلفنا جبل العرض المنخفض الممتد أمامنا، وتعلـو فوق هذا الأخير قِمتّا «إذني شـمال» المزدوجتين نحو الجنوب قليلاً من اتّجـاه الغرب، وإلى الشمـال كانت سلسلة من التلال المسنّنة تمتـدّ حتى يُفقـدُ أثرها في الغمام البعـيد، وإلى الجنوب كان سهل الحـجارة الجيرية الفـسيح العاري يورث الملل، ولم يقـاطعه سوى تسنُّنٌ يسـير يميّز البـقعة الواقعـة على بعد أميـال قليلة من القمـتين العظيمتـين، والتي كان علينا أن ندلف عن طريقـها إلى مرتفعـات نجد باستخـدام وادي القويعية كان عـرض السهل بين خمسـة عشر إلى عشرين ميلاً، وكان انحداره باتجاه الجنوب بانحراف يسير نحو الشرق.

لـم يتمكن إبـراهيم من الاستيـقاظ لأداء صلاة الفـجر لإصـابته بالآلام في الحلق وتيبُّسٍ في العنق نتيجة للبلل الذي أصابنا مؤخراً، كما أنهم لـم يوقظوني إلاّ بعد أدائهم للصـلاة رغم أوامري لهم بإيقـاظي قبل النداء. تحلّق الرفاق بحـثاً عن الدفء حول نار المخيم وهم يحـتسون القهوة، بينما كنت أنا أعـدّ العدّة للتحرّك، وعند الساعـة السابعة كنا فوق سـروجنا. وكانت السماء صـافية بعد أن انقـشعت الأمطار والسحب منها، وكان الهواء منعشاً بيد أنّه لم يكن بارداً عندما بدأنا سيرنا على السهل الرملـي في الاتجاه الجنوبي الغربي. وكـانت الإبل ترعى أثناء مشيـها الأعشاب الصحراوية التي ذبلت من جراء الجفاف الذي امتدّ عبر الخريف، وأخيراً بلّلها القطر، وستخضرّ قبل أن نقفل راجعين. أنستنا بؤس اليومين السابقين البهجةُ التي عّمتنا من المقدار القليل من الربيع، وكيف أن الإبل تزداد سمنةً بعد أن ترعى الحشـائش التي تنمو لتـحاذي سروجـها طولاً، وكـيف أنّ سنامَ كلٍ منها يسـتدير

ويرتفع. إنّ الرجل العربي متفائل حقيقي، ينسى آلام الماضي، ويأسى لمصاعب الحاضر فقط طالما استمرت، ولايذكر المستقبل إلاّ ويحلم بالخير. يصفون ما تبلغه الحشائش الصحراوية طولاً في الربيع بـ «هاالطول»، وهم يبالغون فيها ويزيدون، بحيث تقفز إلى ذهني صورة غابات من سهول الأعشاب التي لا يمكن اختراقها. هي الأحلام تتجاوز كثيراً أقصى ما يمكن الحصول عليه من الربيع، ويُعظّمون ما يصل إليه سنام الإبل في وقت الربيع تعظيمهم لما يصير إليه حال من يُتَوفّى عقب دخوله الجنّة. وفي كلتا الحالتين تنتظرهم خيبة الأمل[1]. ما أفقدتهم السنوات المتعاقبة من التجارب المريرة مع الربيع أملهم في أنّ جنّة الإبل قد صارت قاب قوسين أو أدنى، هل تعجب إذن إن لم يتمكّن شيء في الأرض من هزّ اعتقادهم الراسخ في وجود جنة للإنسان؟.

أوصلتنا مسيرة ثمانية أميال لشريط ضيّق من الرمال المتراكمة، نسخة مصغرة للنفود تدعى الدغيبس وتجري قُطرياً عبر السهل ابتداءً من جوار قمتي «إذني شمال» نحو الجنوب الشرقي لتتّصلَ بنفود دلقان بالقرب من أقصى طرفه الجنوبي.

عند رؤية شجيرات الأرطى الجافة، وهي خير حطب الوقود بالصحاري، صدرت الصيحات من كل اتّجاه ملتمسةً الوقوف، لكننا كنا بعد في أول النهار فأصررت على مواصلة المسير. استغرقنا قطع الشريط الرملي خمس دقائق فقط، كنّا بعدها نتهادى مرّةً ثانيةً فوق السهل في طريقنا لغايتنا البعيدة. توقفنا في منتصف النهار لتناول الإفطار؛ وفي الساعة الثانية بعد الظهر كنّا قد قطعنا حوالي عشرين ميلاً، ونفذنا من خلال سهل حدبا قذلة نحو سفوح الروابي في جبال

---

(١) وصف الجنة وما فيها من النعيم ثابت بنصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. ويأتي كلام المؤلف هنا قبل إعلان إسلامه. (المراجعون).

العرض في موقع التقاء اثنين من مجاري السيول: وادي الحرملية الذي يخرج من قلب «إذني شمال» لينحدر إلى السهل على بعد أميالٍ شمال هذه النقطة، ووادي القويعية الذي يقطع حاجز العرض من الغرب إلى الشرق. يجري الواديان بعد أن يلتقيا باسم الحرملية نحو الأسفل باتجاه الجنوب، ليبلغ القناة الرئيسه لوادي السرة.

اتخذنا طريقنا الآن على مهد وادي القويعية المغطى بالشجيرات القصيرة والذي يتفاوت عرضه بين الميل ونصف الميل، وسرنا بين جُرف قائمة من الحجر الجيري التي تتخللها أكتاف الجبال التي ترتفع لتبلغ ثلاثين إلى خمسين قدماً فوق سطح الوادي. استدرنا حول ذراع ناتئة من الجرف العالي تركناها عن يسارنا حتى صرنا على مرأى من بساتين النخيل المتناثرة لقرية القويعية نفسها؛ منظر خلاَّب لخصوبة خضراء في وسط بقعة مقفرة. كان هذا التل البازلتي أو ذاك المجرى المليء بالحصباء السوداء الداكنة هي التي تكسر حِدّة رتابة اللون البُنيّ للصخور الجيرية المحيطة بالمكان؛ بينما البراعم الصفراء والسيقان الخضراء الداكنة للشجيرات الشبيهة بالمِكنسة والتي تسمى قرضي والتي تسبق في الظهور كل أعشاب الصحراء مرتدية سترة الربيع استجابة لأمطار الشتاء، كانت تظلُّ لتمنح الراحة من مرأى شجيرات السنط البنية والرمادية البيئة، وإلى الحشائش الذابلة. كان مجرى العاصفة المتعرج المغطى بالحصباء ينحدر في منتصف الوادي .

لم تكن القرية سوى كتلة مستطيلة مكوّنة من منازل طينية متواضعة يحيط بها سور خارجي، وتزين أركانها الأربعة أبراج صغيرة، إضافة لبُرَيْج في منتصف كل من الجانبين الطويلين للأسوار. وتقع القرية بالقرب من ضفة الوادي الأيسر، وتبلغ أبعادها ٢٠٠×١٠٠ ياردة، ويعلو القرية هرم، ويستند الهرم على الصخور الملساء الضخمة الواقعة بالقرب من سفحه، والتي كان الصغار من صبيان القرية

ـ فيما نقل لي ـ يلهون في الأعياد والعطلات بالتزلق عليها. إنه ليصعب على المرء أن يصدّق أنّ ممارسات بهذا الطيش يسمح بها الملتزمون لأبناء هذا الجيل، ويبدو أن هذا آخر ما تبقّى من مرح العالم القديم. كانت أفضل الآبار توجد في أسفل هذا المنزلق، وكان اسمها جدّ مناسب: ريق البنات.

نأت المدافن المحلية إلى الجزء الأبعد من القرية، وهي خير الأمثلة للمقابر في الدولة السعودية التي رأيتها، لم تكن سوى غابة من الحجارة تحدّد معالم القبور في جانبي الرأس والقدمين، وباستثناء هذه الحجارة لم يكن هناك ما يميّزها عن الأرض المسطحة المحيطة بها. زرت هذه المقابر مع سعد، بينما كان يُردّد تارة تلو أخرى، متكئاً على قوس سرجه، مهمهماً بالتحيّة المعتادة للأرواح التي انتقلت إلى الحياة الأخرى: «السلامُ عليكم دار قوم المؤمنين، أنتم السابقون ونحن اللاحقون».. إلى آخر السلام. إنَّ عبادة الأموات سواء كانوا صالحين أو مجرمين، والتضرّع من أجل أن يشفعوا للأحياء لدى الله تعالى هو من المحرّمات لتابعي الدعوة السلفية، ولكن لا بأس من الدعاء ليُدْخِلَ اللهُ في رحمته من ذهبوا عن الحياة واقفين بين يديه للحساب. ثمّ إنّ إذلال النفس للأحياء، بالتأمّل والتفكير فيما يؤول إليه أمرهم إذا ما صاروا تحت الثرى في مكان كهذا ـ فهو عمل مرغوب فيه يُثاب فاعله. إنّ الموت لا يغيب عن عيني وتفكير المسلم التقي الورع، وهو لا يذكر اسماً لمتوفى دون أن يضيف (الله يرحمه).

تقع بين المقبرة والقرية أرض زراعة الحبوب، وهي مقسّمة إلى مربّعات صغيرة، أُفرغت فوقها أكوام صغيرة من السماد العضوي[1] المعالج للتربة. كانت

(١) تسمىّ "سماد" وهي خليط من النفايات العضوية ومخلفات الخراف المسموقة بينما تسمى مخلفات الخراف التي لا يضاف إليها شيء من الدمن. (المؤلف).

سلسلة من بساتين النخيل تمتدُّ أعلى وأسفل الوادي بطول ميل ونصف. ولاسيما أسفل القرية، وكان عددها حوالي خمسة عشر بستاناً تختلف مساحاتها بين فدان واحد وأربعة أفدنة، وكان كلٌّ منها محاطاً بسور طيني منخفض وبه قصر أو بيت ريفي محصّن تكون بداخله البئر أو (القليب) من النوع المعتاد في نجد كُلها. وتقع البلدة في منطقة تسودها غارات النهب البدويّة، ويشكّل القصر ملاذاً آمناً للمزارعين في البستان عندما يلوح الخطر، إذ لا يهاجم البدو أسواراً يتّقي الرجال في حِماها، وبما أنَّ الآبار تقع في داخل هذه البيوت المحصّنة فلا يمكنهم البقاء في الخارج لمحاصرتها، بيد أنّ هذه الأخطار لم تكن حتى وقت قريب هي كلّ ما ينساه سكان القويعية، وأغلبهم من قسم بني زيد التابع لقبيلة بني تميم[١].

ذهب إبراهيم مع بقية المجموعة للقرية بينما تجولنا، أنا وسعد في الأنحاء، وعند عودتنا وجدنا أنّ الإبل قد أُنيخت خارج البوابة الجنوبية في انتظار العلف الذي كان قد أُحضر محمولاً على الرؤوس، بينما كان إبراهيم، بأوامر مني يعتذر - دون رغبة منه - مخاطباً الأمير سليمان بن جبرين من بني زيد بأننا لن نتوقف لأننا في عجلة من أمرنا. بيد أن هذا الاعتذار لم يكن مقبولاً لدى الأمير على الإطلاق، كيف له أن يحتمل أن نمرَّ أمام بابه المُشْرَع لنذهب ونتناول وجبةً مع غريمه؟ فقدّم الالتماس إليَّ، وتنازلت نتيجة لإلحاحه، الأمر الذي سرَّ رفاقي كثيراً، فتقدّمنا راجلين عبر البوابة وسرنا على طريق ترابيّ ضيق لبيت الأمير.

(١) الصحيح أن قبيلة بني زيد ترجع إلى قبيلة قضاعة القحطانية. (المراجعون).

كانت قاعة القهوة غرفة صغيرة، أرضها رملية لا يكسوها حصير أو سجاد، وانتظمنا جلوساً متكئين على الحائط على جانبيْ الموقد الذي جلس مضيفنا بإزائه ليعدَّ القهوة والشاي لضيوفه. وفي هذه الأثناء كانت هناك ترتيبات أخرى تجرى على قدمٍ وساق لضيافتنا دون أن أعرف كنهها. وبعد الفراغ من أمر القهوة والشاي ذهب الأمير لبرهة وقفل راجعاً ليعلق أنَّ الغداء قد أُعِدَّ لنا. «سَمُّوا»[1] قالها لنا الأمير وهو يقودنا لنرتقي الدرج الضيّق لندلف إلى شرفة في الطابق الأعلى في مواجهة القاعة الداخلية. وهنا أيضاً دارت أكواب القهوة والشاي عندما اتّخذنا مواقعنا متكئين على الحائط، ثمّ ما لبث أن ظهر عدد من الخدم يحمل بعضهم حصائر دائرية كبيرة[2] وضعوها في وسط الشرفة، وأتى البعض الآخر بآنيةٍ الطعام وفيها مقدار وافر من طعام اصطنع من القمح يقال له اللقيمي وفوقه لحم الضأن. يُشبه اللقيمي ـ لحدّ التطابق ـ الجريش الذي يُعرف في الأنحاء الأخرى من نجد، وكذلك ـ فيما أعتقد ـ البرغل السوري. وهي عصيدة مصنوعة من الدقيق الكامل مخلوطة مع خبزٍ فطير، ويرش عليها السمن بكميات كبيرة. كنا قد تناولنا إفطارنا قبل وقت قليل ـ وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ليس إلاَّ، ورغم هذا فإنَّ زملائي ما تهاونوا في القيام بما يجب تجاه الوجبة الوافرة، ولم أفشل أنا في أداء واجبي، مع أسفي لأن مضيفي صار منهمكاً في حملي على الأكل ولم يجد ما يكفي من وقت للتحادث معي في أمور أخرى.

---

(١) قولوا "بسم الله". (المؤلف).

(٢) الحصائر الدائرة -تسمى سفرة- وتصنع عادة من خوص النخيل. (المراجعون).

قـد يبلغ تعداد القـرية ٣٠٠٠ نسـمة. وحـتى حلول الوقت الذي تمّ فيـه الاتّفاق الذي تحـدثنا عنه آنفاً، كان سليـمان صاحب السلطة الإدارية الوحـيدة في إقليم العرض وما كان هناك من يراجعه سـوى ابن سعود الذي كان بعيداً عنه، لذا كان سليمان من الناحية العملية حاكماً مطلقاً في مجاله المحدود. لذا فإنهّ لم يسعه إلاّ أن يقبل بما فرضه عليه سيده، حلاً للمـشكلة المتمثلة في خلافه مع أمير مزعل وغيـرته منه. كانت هذه القـرية بسبب وقوعـها على الطريق الرئيس لحـجاج مكة مركزاً تجارياً للقـرى المجاورة التي يأتي سكانها سنوياً في أوقات معلومـة لاستبدال البضـائع التي تصل من العالم الخارجي والـتي تأتي بها القوافل القـادمة من الحج بمنتجـات بساتينهم ومـزارعهم. أمّا في الأوقـات الأخرى، فإن الاتصـال بالعالم الخارجي يـصير جـدٌّ محـدود إلاً من هذه القافلة أو تلك الـتي قد تمرّ أحيـاناً من الحجاز سالكة طريقهم متجـهة إلى شقراء. وليس في هذه المنطقة سوى القليل من النشاط التجاري والثراء.

عندما واصلنا مسـيرنا مرتقين الوادي، سرعـان ما أفسحت الحجـارة الجيرية المجالَ للبازلت، وضـاق الوادي ليصير عرضـه نصف ميل أو أقل بين الجرُف التي تحدّه أو بين التـلال المتفرقـة، بينما كان ارتفـاعه بين سبـعين ومئة قـدم. وبعد أن صعـدنا لقـمة أحد المـرتفعـات الصغـيرة في الوادي أصـبح بإمكاننا أن نرى بلدة مزعل. وهذه البلدة يسكنها قسم العرافا من قبيلة بني خالد.

تقع القرية نفسها والجزء الأعظم من مزارعها في منبعج دائري للوادي تنتهي إليه أربعة شـعاب نازلة من الصخور البـازلتية المحيطة بهـا، اثنان من كل جانب، وأعظمها شعيب نخور التي تقع القـرية في الموقع الذي يلتقي فيه الشعيب بالوادي

بعد أن يأتي من ناحية الشمال، بينما يجري شعيب المخر من الجنوب ليصل إلى مدخل المنبعج، والشعيبان الآخران اللذان لم أتمكن من معرفة اسميهما يأتيان إلى الدائرة من الجنوب والشمال، على التوالي.

يقف القصران المهرمان حارسين للمدخل الشرقي للبلدة، ويوجد خلفهما ثلاث بقع صغيرة من أشجار الأثل وبين هذه الرقاع والقرية يوجد اثنا عشر بستاناً كلها مسوّرة وتشبه بساتين القويعية إلا أن النخيل هنا تتخللها أعداد أكبر من أشجار الأثل، بيد أن قصور الحدائق أكثر تهدُّماً وهناك قليل من الحدائق الميّتة ـ خاصة تلك التي تقع تحت ضفة الوادي اليسرى ـ أو هي في طور الاحتضار. حجبت بعض الحدائق مدخل شعيب النخور، وبدت حدائق أخرى كنقاط داكنة فوق جانب الوادي الصاعد. إنَّ وجود حلقة من التلال الصخرية السوداء حول القرية ووجود هياكل سوداء لجذوع النخيل الميتة تعطي انطباعاً بأن القرية كانت ضحية لحريق مُدمر عظيم، ولكنهم يقولون إن شحّ الماء هو الذي تسبب في الدمار الذي يلفّ القرية برداء بئيس.

كانت القرية التي نصبنا فيها خيامنا للمبيت تقع على ارتفاع ٢٨٥٠ قدماً فوق سطح البحر وبُنيت تقريباً في شكل مربع طول ضلعه ١٣٠ ياردة ويحيط بها سور طيني متواضع به بعض الأبراج. أما الطرق والمنازل فقد كانت متواضعة ومتسخة، ولكن قاعة الأمير ـ التي دُعينا لها لتناول القهوة، وليس للعشاء ـ كان بها بعض من حصيرٍ مُلقى على الأرض الرملية. وقد حضر لاستقبالنا عدد من أهل القرية، وكان منهم سليمان العريفي عمّ الأمير(١)، وكان يرتدي ثياباً فاخرة

(١) كان أمير مزعل أثناء زيارة فيلبي: عبدالله بن محمد العريفي. (المراجعون).

وزبوناً مطرزاً ويتـمنطق بحزام يتـدلى منه سـيف أنيق، وكان في مظهـره هذا على النقيض من مظهر ابن أخيه الذي كان يخفي ملابسه الرثة تحت عباءة عادية الصنع. اتخذ العم مـوقع الصدارة وجلست أنا عن يساره وكـان ابن أخيه جـالساً عن يمينه متولياً شأن القهوة وموقدها. كان الحـديث باهتاً ومتقطعاً تم فيه تجاهلي حتى أدخل الأمير فجأة موضوع الحرب التي لم يكن يعلم عنها إلا القليل من المعلومات الخاطئة سألني الأمـير: «كم من الوقت بقـيت مصـر في إيدي الإنجليز؟»، ومـتى كان طرد الأتراك منها؟ إن الإنجليز هـم أصدقاء ابن سعود ـ إي بالله ـ وإنَّ أصـدقاء وأعداء ابن سعود هـم أصدقائي وأعدائي، ولكن إن شـاء الله لن يمضي وقت طويل حتى يدين كلُّ الإنجليز بالإيمان الحق».

سعيت أنا لإلقـاء الضوء على ما يجهلونه، بينما أضاف إبراهيـم مسحةً من حديث الأسـاطير: «لقد تلقى مـئات ممن التحقـوا بخدمة الشـريف دروساً في فن الطيران، إي بالله، ولقد قابلت عدداً مـن الطيارين الذين عادوا إلى نجد». حاولت أنا أن أُشكك في دقة هذه الإفـادة، ولكن إبراهيم أكد للمجـموعة أنه ما قـال غير الحق. وسأل إبراهيم الأمير «هل لديك كاتب؟»، حـينها أتوا بكاتب القرية الوحيد صبي دامع العينين عمره اثنتا عشرة أو أربع عشرة سنة، أخذ بالقلم والورقة وجلس على ركبتيه أمـام إبراهيم وكتب ما كان يُمليه عليه بيدٍ طفـوليةٍ، في ضوء المصباح الزيتي الخافت. لقد كان خطاباً لابن سعود يخـبره فيه بوصولنا لهذا الموقع سالمين. بحثنا دون جدوى عـن شاة نشتريها لوجـبة المساء التالي، ولكننا أصـبنا النجاح في استئجار أربع أو خمس من الإبل لتشارك في حمل جزء من ثقل متاعنا من الجمال الذي أتت بها من الرياض والتي كانـت قد بدت عليها علامات الإجـهاد بعد رحلة

١٥٠ ميلاً من السفـر المتصل تحت ظروف مناخية غير ملائـمة. يُقدر تعداد السكان في مزعل بألفي نـسمة، وكان عبدالله ـ الأمير ـ قد صدمني كرجل محدود الذكاء وليسـت له حماسة إلا للإيمان الحق ولابن سعود.

كان الظلام يلف المـكان برداء أسود عندما أيقظوني فـي صباح اليـوم التالي قبل صـلاة الفجر. وكانت الـسماء قد تلبّـدت الآن بالغيوم، وبعـد أن شرعنا في المسير بقليل أظلم المشهد بضباب باردٍ كثيف اخترقناه ونحن نرتقي الوادي لبلدة ابن سعدان[١] التي تتكون من قريتين صـغيرتين أو مجـموعات منازل غيـر مسورة لا يفوق تعدادها ٣٠٠ نسمة، وعلى بعد ميل واحد من مزعل، وبعد أن عبرنا ثمانية أو تسعة بسـاتين صغيرة للنخيل سـقـينا حيواناتنا من حوض حجري خـارج أكبر هذه البـساتين التي كـانت تمتد حـولها مـساحـة كبيـرة من الأرض المعدّة لـزراعة الحبوب.

اتسع الوادي الآن ليصير سهلاً عارياً يتخذ شكل المروحة، وانتشرت الروابي البازلتية على جانبيه وهي تلوح كـالطيف من خلال الضباب. وظهر ثعلبٌ رمادي اللون يعدو مسرعاً ليلتجئ للقفار الصخرية. وتبعه كلبان لكنهما فشلا في المطاردة فقـفلا راجعين للقـرية. وعندما انقشع الضـباب بفضل الشـمس التي بزغت رأينا جماعـة صغيرة أمـامنا على البعد تسـافر في نفس اتجاهنا. وتقدم طامي لتـقصّي حقيقتها وعاد بعد قليل ليخبرنا أن عـريساً يعود مصطحباً عروسه من القويعية التي تم فيـها حفل الزواج في اليـوم السابق قاصداً بيـته في الرويضة. كـانت العروس

(١) هي بلدة الجفارة وأسرة السعدان من سكانها. (المراجعون).

أرملة وكانت تحمل معها رضيعاً من زوجها الراحل، وكان معهما خادمة. إن الزواج[1] في وسط الجزيرة العربية هو شأن بسيط يتم بلا طقوس. حيث يذهب العريس إلى قرية عروس المستقبل، وبعد صلاة العصر تكتمل كل المتطلبات الشرعية في وجود شهود يمثلون كُلاً من الجانبين. ويصاحب زواج الشاب بفتاة عذراء في العادة وليمة صغيرة وهي التسلية الوحيدة المعروفة في البلاد السعودية القاسية الجائعة، وفي بعض الأحيان يُستغنى حتى عن هذه الوليمة، وبعد صلاة العشاء يذهب العريس لعروسه.

صار عرض الوادي الآن حوالي أربعة أميال، وكانت تتناثر فيه الصخور الجيرية الناتئة، بينما كنا نمر بين الحين والآخر فوق أو بين ألواح عظيمة وأكتاف صخور مسامية صاغتها عوامل التعرية أشكالاً بالغة الروعة. وكانت التربة في غالبها تربة طفلية مع طبقة خفيفة من الرمال التي تتناثر فيها الحصباء وتكسوها بكثافة شجيرات الحمض، بينما كانت في مهد الشعيب ـ البالغ عرضه ميلاً واحداً ـ كثير من أشجار السنط المتناثرة، ورقاع متفرقة من أراضي الحبوب التي نُظّفت استعداداً لزراعتها حول سلسلة من المنازل الريفية المسورة التي بلغت في جملتها سبعة منازل وتكوّن بلدة القويع وكانت تمتد أمامنا سلسلة الجرانيت الطويلة التي تسمى الجد وهي العمود الفقري للعرض ومستجمع كل أمطارها، وهي ممتدة شمال وجنوب قمتي «أذني شمال» العاليتين وتمر عبر الكتل الجبلية محيرقة، والأمار،

(١) راجع ص١٦٢. (المؤلف).

وجفار (Jafar)[١] والقمة البعيدة الفرع[٢]. كانت السحب العاصفة تتجمع بكثافة وبلونٍ قاتم على هذه السلسلة الجبلية كلما تقدم بنا المسير، وكانت مطايانا تجفل بعصبية كلما سمعت صوت الرعد من على البعد، وأمسى البرق يضيئ أمامنا القمم ويبدا لنا حينئذٍ أننا نواجه وابلاً ماطراً وشيكاً، ورغم هذا واصلنا المسير بعرض الوادي الذي كان قد انحنى مستديراً يتخذ طريقه صوب الشمال الغربي، والذي كان مهده قد تغطى بالنبات الجديد للحشائش الخشنة وشجيرات السنط الشوكية.

وأخيراً، وعلى بعد اثني عشر ميلاً من مزعل بلغنا أعتاب الجد وطريق الحجاج. كان الطريق محفوراً بعمق في الأرض الصخرية الصلبة، وارتفع بنا عبر منحدر لطيف إلى فرجةٍ ضيقة ثم إلى سرج من صخور يربط قمة الأمار عن يسارنا بتلٍّ لا اسم له عن يميننا. وعند هذه النقطة لابد أننا كُنَّا ـ وفقاً لتقديري ـ على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر أو نحو ذلك، ولابد أن كتل الجرانيت على جانبينا وكتلة محيرقة القريبة منّا في اتجاه الشمال كانت تعلو هاماتنا بما لا يقل عن ٧٠٠ قدم، بينما بدت لنا القمم العالية أكثر هيبة وجلالاً: إذني شمال، والجفارة، والفرع، ولم يكن ارتفاعها ليقل عن ٤٥٠٠-٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، ويمكننا أن نقدر ـ دون أن يكون في الأمر مغالاة، أن الارتفاع العام لقمة

---

(١) كذا ورد الاسم في النص الإنجليزي، والصواب: الجفارة. (المراجعون).

(٢) خلف هذه القمة يقع التوأمان لحصاة قحطان اللذان يرتفعان من رمال نفود الدحي لارتفاع يقارب ٥٠٠ قدم، لكنهما الآن واضحان لنا من خط سيرنا. وهما كما أعتقد من الجرانيت. (المؤلف).

سلسلة الجد كـان لا يقل عن ٣٥٠٠ قدمـاً فوق سطح البحـر وأن أعلى نقطة في السلسلة قد تعلو ذلك بارتفـاع ١٠٠٠–١٥٠٠ قدماً أخرى. إن الشريحـة الواقعة بين «إذني شمـال» وبين نقطة تقع إلى الجنوب من الأمار تتطرف نحـو الشرق من خلال شـعيبي الحرملـية والقويعيـة اللذين ينحدران على التـوالي من كتلتي «إذني شمال» ومحيرقة ليلتقيا في الموقع الذي ذكرناه آنفاً، ثم يتجه الوادي المشترك جنوباً حتى وادي السِـرّة. ولعلنا لن نتـعدى الحقـيقـة إن افترضنا أن الجـزء الجنوبي من السلسلة يتـصرف مبـاشرة نحو وادي السـرة نفسه، أمـا في اتجاه الغـرب فإن كل السلسلة تتصرف منحدرة إلى وادي السرداح الذي نهبط إليـه الآن عبر فرجةٍ ضيقة تغطيها الحشـائش. أما مهد الوادي الذي كان يتجه جنوباً مـوازياً للسلسلة فقد بدا أبيض في لونه لما يغطيه من حـصى المرو المتباين الأحجام، وصـخور المرو الصُّـلبة التي تنتأ فيـه أحياناً. أنخنا مطايانا لتناول الإفطار في هذا الموقع الذي كـان المشهد المحيط به عظيمـاً، حيث كانت «إذني شمال» تلوح صوب الشـمال، وكل المعالم المهيبة تبـدو صوب الجنوب حتى تبلغ خط فرع المعتم. ينحدر مجرى صـغير نحو الوادي من تلال الأمار، وفي هذا المجـرى توجد بئر مـياهها مالحـة وتعرف بنفس الاسم: تل الأمار، وهذا الاسم بصيغة أخرى (الامارية) يُستخدم في المنطقة كاسم بديل لسلسلة الجد التي يكون تل الأمـار جزءاً منها، كما يستـخدم كذلك لسلسلة العرض كلها، ولكن الاسمين الجد، والعرض هما الأكثر شيوعاً.

ازدادت سحب العاصفة كثافـة وقتامة بينما كنا نتناول إفطارنا، ودوّى الرعد ليصم الآذان من الجـهة الشـمالية الـتي وقفت كتلهـا الصخـريّة الكالحة بأنواعـها الأرجوانية والزرقاء الداكنة قبـالة الظلام المتجمِّع. أسرعنا في طريقنا، وعند بلوغنا

الجانب الأبعد من الوادي ولجنا حزاماً قوامه سلاسل وروابٍ من ركام الصخور تسمى السريديح وتشكل وقاءً لسلسلة العرض من الناحية الغربية، ثمّ مررنا بطول تلّ خفيف مكون من صخور رمادية تعرف باسم أم القلات وبها برك الماء الذي يتجمع بها عقب هطول الأمطار. واصلنا سيرنا مسرعين عبر متاهةٍ مربكة تتكوّن من صخور المرو والشست والجرانيت الأخضر، وداهمنا المطر فأسرعنا ونحن نسحب عباءاتنا لنغطي بها رؤوسنا، ولم نكن نرى مواطئ أقدامنا، وتعاظم الوابل المنهمر حتى بلَّلنا تماماً، بينما كانت الصخور من حولنا تفرغ ما يهطل عليها من الماء في المجاري المنحدرة بشدة. دام هذا الحال ساعة، وبعدها وجدنا أنفسنا وقد أصابنا البلل حتى العظام ـ قد تجاوزنا متاهة التلال السفحية وقد وقف عنّا سيل السماء، وأطلّ علينا منظر بديع لم نكن لنطمع أن نرى خيراً منه، كان يبدو أمامنا وادٍ عريض تغطيه الشجيرات وتلمع فيه مياه الجداول الصغيرة التي تخترقه، والغدران التي تنتشر في أنحائه وقد عمرت بمياه المطر، ومن خلفه التلال الجرانيتية الحمراء للسلسلة الحمراء، وقد غسلتها مياه الأمطار فأصبحت تتلألأ تحت وهج الشمس الباهر.

صارت الآن كل سلسة العرض وراء ظهورنا، ثلاثون ميلاً قطعناها ونحن نسير باتجاه الجنوب الغربي حتى تخطيناها، ولو عبرناها في خطٍ مستقيم من الشرق للغرب، لَفَاقَ طولُ ذلك الطريق عشرين ميلاً. وأهم المعالم البارزة في هذه الناحية من سلسلة العرض هي سلسلة الجد الوسطية المرتفعة ذات الكتل الجرانيتية، وإلى الشرق منها تقع هضبة خفيفة من الحجر الرملي وتتخللها الصخور البازلتية بكثافة؛ بينما يقع في اتجاه الغرب وادي السرداح، وتلال السريديح السفحية التي لم تكن

سوى كـومة مبعـثرة من صخور الجـرانيت والشست والمرو. وتتجّـه السلسلة كلها جنوباً نحو وادي السرّة حيث تضيع في خضم رمال نفود الدحي ابتداءً من خط يقع إلى الجنوب قليلاً من الدوادمي وحيـث تنتهي بقايا السلسلة تماماً في مواقع السـقيا في مـاسل ومغـيراء. وإلى الشـمال من ذلك الخط وفـقاً لما أسـتطيع تأكيـده تقع موجات نفـود الشقيقـة الرملية التي تمتدّ مرتفـعةً حتى حدود القصـيم. قد يكون امتـداد العرض من الشـمال للجنوب حـوالي مئة مـيل، وقد قطعناه بـالقرب من وسطه محـاذاة لخط تقع فيه واحات خـصبة: القـويعية، ومزعل، وابن سـعدان، والقويع. ويقـال إن هناك رقاعاً صغـيرة مزروعة إلى الشـمال والجنوب من طريق الحجاج. تلك الـتي تقع إلى جنوب الطريق هي الرين وبلدة أخرى زرعهـا حديثاً «إخوان» عتيبة[1]، والحلوة، وتبعد إحداها عن الأخرى مـسافة ميلٍ واحد، وكلها تبعـد حوالي عشرين مـيلاً جنوب مزعل، بينما يقع على بـعد عشرة أميـال نحو الشمال قـصر السيح، وهو يقع ـ إن جاز لنا أن نستـنتج من الاسم ـ على مجرى غدير تغذيه الينابيع قد يكون منشؤها في وسط الفرع.

تقع القريتـان الأخريان ـ فيـما يبدو ـ على مـجرىً مائي ينحـدر من جانب الجفـارة؛ هذه البلدان الثلاث صـغيرة المسـاحة وقليلة النخـيل. بينما يتـجمع إلى الشمال من طريق الحجاج عدد من القرى الصغيرة عند سفح «إذني شمال»: الخنقة في شعـيب الحرمليـة في اتجاه الشـرق على بعد عـشرة أميـال شمـال القويعـية؛

(١) الصواب أن هجر الإخوان التي في الرين وما حولها -جنوب القويعية- قد بناها الإخوان من قحطان، أما هجر عتيبة فتقع في ناحية الغرب مثل هجر عروى، وستام وغيرهما.. (المراجعون).

والسديري وجزالا في اتجاه الجنوب الشرقي. ومحيرقة في اتجاه الجنوب الغربي، أسفل الجانب الغربي للتل الذي يحمل الاسم نفسه. ونُخيلان في اتجاه الشمال الغربي على بعد اثنى عشر ميلاً من مزعل، وأخيراً داحس التي تقع على بعد أربعة أو خمسة أميال إلى الشمال الغربي من نخيلان. وفي كل هذه القرى هناك رقاع لزراعة النخيل والحبوب ويقوم عليها رجال من سكان الجبال بهم نوع من الجلافة ولا يختلطون كثيراً بغيرهم، ولا إبل لهم ولا يمتلكون من وسائل التنقل سوى مُهُرٍ جبليةٍ قوية صغيرة الحجم، كما يستخدمون أبقاراً ذات حجم مشابه لحرث الأرض. ولعل تعداد كل سكان العرض باستثناء المقيمين على جانبي الطريق لا يتعدون ٣٠٠٠ نسمة، وإن كان هذا التقدير صحيحاً، فيتبع ذلك أن جملة تعداد المقيمين بمنطقة العرض بكامله قد يكون بين ٨٤٠٠ - ٨٥٠٠ نسمة. ورأيت أثناء مرورنا قطعاناً من الخراف السوداء ترعى في أنحاء القويع، ولكن كان هذا المشهد هو كل ما رأيناه من علامات الحياة البدوية. بينما كانت الأرانب البريّة كثيرة في نفس هذا الوادي وكذلك في وادي السرداح.

كان أفراد المجموعة قبل أن تهبَّ علينا العاصفة في مرحٍ وحبور وكانوا يجرون فيما بينهم سباقات في العدو لمسافات قصيرة جداً تصاحبها رهانات صغيرة تبلغ ثلاثة أو أربعة دولارات يدفعها الخاسر، وكنت أنا الشاهد عليهم ـ وكما اتضح لي لاحقاً ـ ومن يُفترض أن يوفر قيمة الرهانات. كنت قد فكّرت أن أشجعهم على هذه التسلية ففرضت عليهم أن أدفع أنا قيمة الرهان نيابة عن الخاسر في سباق بين طامي وزميع، وعندها افترضوا على الفور أنني مسؤول عن دفع

قيـمة كل الرهانات السابقـة وهو افتراض لم أكن لأسـتطيع أن أروغ عنه بشرف، ولكن كان عليّ أن أضع حداً للأمـر عندما أصبح سيرنا مـهداً بأن يصبح سلسلة من السـباقات، بيـد أن هذه التجـربة أوضحت لي طمـع رفاقي، وفي مناسـبات لاحقـة قررت أن أسـتـغلّ هذا الطمع في المراحـل الأخيـرة من مسيـرة اليوم، وذلك بأن أحـدّد خـطاً بعيـداً للنهاية مـعلناً عن جائزةٍ ينالهـا أول من يصل إلى الغـاية، مع جائزة إضـافيـة لأول من يصل إلى خط النهاية مـن مجمـوعة قـافلة الأمتعة.

إنَّ العربي لا يجيد العدو لمسافات قصيرة، ولكنه لا مثيل له في العدو مرتقياً جانب تل تتناثر فـيه حجارة القداحـة، ولقد دهشت وأنا أراهم يتدافـعون مرتقين جروفاً شديدة الانحـدار بعيداً عن الطريق، دون أن يهتموا بالجـروح البليغة وأنهار الدمـاء التي تسيل من أقـدامـهم الجريحـة، ولكنني أسـتطيع أن أحثَّـهم على أن يخضعوا لتجربة تحمل لمسافات طويلة. وكان زميع يبزّ بقية الرفاق في السرعة وفي التمـتع بالصِّحَّة رغم أنه كـان على أعتـاب الخمسين من العـمر. لقد كـان قائدنا الأول، بينما كان سعيد هو القائد الثاني على طول الطريق منذ بداية مسارات عتيبة الرعوية حتى حدود الحجاز.

وُلِدَ زميع في بلاد البقوم وهاجر وهو في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره إلى نجد ولم يَزُرْ بعدها موطنه حـتى صيف ١٩١٧م عندما اختاره ابن سعود لقيـادة قافلة الحج إلى مكّة، ولكن رغم هذا ـ كمـا أعلن هو نفسه ـ فإن مـشاهد طفولتـه قد حُفـرت في ذاكرته بوضوح لـلحد الذي يستـحضر فـيه معـالم مراتع

الطفولة وكأنه قد غادرها بالأمس. وفي خلال كل الفترة التي قضيتها في الجزيرة العربية لم ألتقِ بمثيل له في النزعة الجغرافية ومعرفة تفاصيل المواضع. لقد كان يتعرّف على أي من أسماء الهضاب الصغيرة والتلال بدقةٍ شديدة. لقد كان عضواً في الدائرة الداخلية «لإخوان» الدعوة السلفية، ولقد جلب على نفسه سخطاً متعاظماً من ابن سعود باحتجاجه القوي على اختياره ضمن مجموعة السفر التي رافقتني في هذه الرحلة. ولأنه أُجبر على مرافقتي رغماً عن اعتراضه، فلقد بقي بعيداً عني حتى اليوم الذي وصلنا فيه إلى مزعل، ومع أنه كان أحد قادة مجموعتنا إلا أنه كان يفضل أن يجلس إلى مائدة الخدم حتى لا يشارك كافراً طعامه. ولكن عندما توثقت صلتي بأفراد المجموعة وعلمت بقدراته الخاصة كقائد وجدت نفسي مضطراً لأن أحتج لدى إبراهيم عن سلوك زميع، ونتيجة لهذا فلقد أُجبر على الركوب إلى جانبي. لقد كانت الدولارات العشرة التي حصدها لتفوقه في السباق هي الخطوة الأولى لبداية المعرفة بيننا، والتي نضجت بسرعة لتصير صداقة حميمة، بيد أن هذه الصداقة ما لبثت أن ذَوَتْ بنفس القدر من السرعة عندما افترقنا ليعود إلى الجو المخدر للبلاد السعودية. لقد مضت أيام بعد اقترابه مني قبل أن يجازف بفرص السلامة من الإثم ويشاركني الطعام، وحينها اكتشفت أنه يمد يده اليسرى لطبق الطعام إذ أن يده اليمنى كانت مشوّهة، فلقد وُلد دون أصابع في يده اليمنى. وبعد أن توثقت صلتي به حصلت على كثير من الفوائد بسبب معرفته الخارقة للعادة بالأراضي العالية التي كنّا نمر بها، ووجدته خير دليل لشرح الأفكار البدوية. أخبرني مرة بكل بساطة وجِدية أن الرعد هو نتاج صيحة الملائكة وهزهم السحب ليهطل الغيث في الأراضي التي يختارها الله.

قادنا منحدر لطيف إلى منخفض وادي جربوعة ذي الشجيرات الصغيرة المنتشرة، وارتفعت من خلف الوادي هنا وهناك بعض القمم المخروطة الجرانيتية فوق روابي وتلال سلسلة الحمراء. كانت قِمَّة زَعَّابة في اتجاه الغرب هي التي تعيِّن موقع الرويضة التي كنا نسعى للوصول إليها؛ وقمم أم المدق، والمغرة، والخرص ـ بهذا التتابع ـ باتجاه الجنوب، ويفصل كلاً منها عن الأخرى تلال منخفضة غير محددة المعالم. وكان المطر قد بللنا حتى الجلد. وارتفعت بعض الأصوات مطالبة بالنزول وإيقاد النار لتجفيف ملابسنا، ولكن الشمس التي سطعت في أعقاب العاصفة المطرية، وفرص اشتمال غدائنا على اللحم في حالة صبرنا حتى نبلغ الرويضة، هي التي أقنعت الجميع بمواصلة المسير.

كان منخفض جربوع ممتداً باتجاه الجنوب بعرض يقارب الميلين، وكانت تربته خليطاً من الرمال ومن التربة الطفلية، وانتشرت فيه أشجار السنط التي بلغت أحجاماً كبيرة، وكان يمر من طرفه الأبعد معبر عريض تكتنفه الشجيرات الصغيرة، ويقود إلى منحدر لطيف بين تلال وأكمات من الشست الرمادي، ثم يصل إلى تل جرانيتي يخرج منه واديان: الخنقة، والجربوعي ويسيلان عبره نحو الأسفل عن يميننا من قلب سفوح جبال الحمراء إلى وادي الجربوعي. وبعد ذلك علمنا أن عصابة من المغيرين من قبيلة قحطان كانوا في شعيب الجربوعي عند مرورنا به، ولكن شغلتهم دون شك العاصفة المطرية وما تبعها من تجفيف أنفسهم من آثارها عن ترقب مرور ضحايا تمكن مباغتتهم. لقد نزلنا وأوقدنا نيراننا على الجانب الآخر من المنخفض، ولابد أننا قد لفتنا انتباههم أثناء الليل، ولكن فيما سمعنا

كان عـددهم أقل من أن يسـمح لهم بالمجازفـة بمهاجـمة جمـاعتنا التي تفـوقهم عدداً.

توقفنا على التل لصلاة العـصر، وبعدها تم قتل ثعبـان وهو يحاول الهرب ليحتمي بالشـجيرات. والاسم الذي يطلقونه على جميع الثعـابين «داب» وجمعها «ديبان»، ثم تقوم التسـمية المحلية بتقسيمـها إلى «حيّة» و«حنيش»، ويطلق الاسم الأول ـ فيمـا أعتقد ـ على كل الأفاعي الخـبيثة الغادرة، بينمـا يُطلق الاسم الثاني على ما تبقى من الثعابين السامـة، بيد أن معلوماتي هذه ليست عن علم كامل. إذ أن العربي ـ على سـبيل التعمـيم ـ لا يعرف معلومـات بسيطة عن الزواحف التي تتناثر متفرقة في صحاريه غير النهائية.

كانت قمم سلسلة الجد تبدو قائمـة من خلفنا بينما كنا نتقدم فوق سلسلة من التلال المنخفـضة والتي كانت تجري من خلفـها سلسلة التلال الرئيسـة، أو العمود الفقري للـحمراء مبتـدئاً من تل عروى البارز في الشمـال ومارّاً بطول سلسلة من الهضاب الجرانيتية الصغيـرة المدورة والتي تُعرف في مجموعها باسم عريويات، ثم قاطعاً أمـامنا لتل طحي المسنن البديع، ومن هناك متجـهاً صوب الجنوب في خط متعرج. كان يقف قبالتنا مبـاشرة جبل زَعَّـابة المخروطي القمة، وبتخطينا له نفذنا إلى سهل طفالي كـبير، وفي منتصـفه كانت تقف بساتين النخـيل وقرية الرويضة المسوّرة: عاصمـة إقليم الحمراء. كان الجزء الأكبر من البسـاتين العشرة في طريقه إلى الهلاك، وكانت مـوزعة حول القرية وتفصـل بينها مسافات بعـيدة. واتخذت

القرية الصغيرة شكلاً مستطيلاً غير منتظم طولها حوالي ١٠٠ ياردة وعرضها ٥٠ ياردة ويؤمها سكان لا يتعدى عددهم ١٠٠٠ نسمة معظمهم من قبيلة السهول، وهم كل من تبقى من القبيلة في غرب نجد بعد أن كانت قبيلة مزدهرة بعضها من البدو والرعاة، والآخرون مستقرون حتى انتقلوا إلى سهول شرق الرياض.

وكانت الأسوار تحيط بالقرية تماماً، بينما كانت الطرق والمنازل متواضعة للحد البعيد رغم أنني لا أستطيع أن أحكم على ما هو عليه حال المنازل من الداخل، إذ أن الأمير كان خارج القرية في زيارة للرياض، ولم يَدْعنا أحد لننعم بضيافته. لقد كانت مضيفة الأمير في توفير ما يحتاجه المسافرون العابرون قد انتقلت إلى مسؤول صغير يسمونه "النايب" الذي أحضر خروفاً لنا وعلفاً لحيواناتنا رغماً عن هطول الأمطار التي صاحبها الرعد والبرق والتي تزامنت بدايتها مع بلوغنا القرية، ثم استمرت بعد ذلك لبعض الوقت.

كانت القرى أو بالأحرى المنازل الريفية والتي تفصل بينها مسافات قصيرة تتخذ مواقعها على سلسلة جبال الحمراء، وكانت تحيط بها حقول الحبوب. إحدى هذه القرى كان اسمها جربوعة، والأخرى خنيفسة وتقع كلتاهما في سهل وادي جربوعة، بينما تقع الخرص، والمغرة أسفل التلال التي تحمل الأسماء نفسها. أما خريصة ومشاش العرجان فلقد كانتا شمال المغرة بينما كان قصر طحي يقع تحت صخرة طمي شديدة الانحدار. وكانت توجد إلى الشمال الغربي من الرويضة حقول الحبوب وبيوت قصر ساحب الريفية وفي غرب الرويضة، حول أو قريباً من طريق الحجاج كانت تقع القصورية، والحفيرة، وسعديّة، ورقاء السعدان. ووفقاً لما

استطعت التحقق منه فإن هذه هي كل المستوطنات بالحمراء، ولا يتعدى تعداد السكان المقيمين بها ـ بما في ذلك الرويضة ـ ٢٠٠٠ نسمة.

تبدأ سلسلة الحمراء الجبلية متجهة نحو الجنوب من الخط الذي يربط الشعراء بالدوادمي، هذان المكانان يقعان على بعد ثلاثين ميلاً، على التوالي، وإلى الشمال الغربي والشمال الشرقي من الرويضة، وتمتد جنوباً إلى جبل صحابة المرتفع في الطرف الجنوبي لسلسلة تلال عروى ـ عريويات ـ طحى. تقع قرية الرويضة على ارتفاع ٣٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتعلو قمم السلسلة الجبلية الرئيسة ذلك الارتفاع بحوالي ٥٠٠ قدم أخرى، ولكن كتلة صبحا المنعزلة لا يمكن أن يقل ارتفاعها عن ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، بل لعلها أعلى من هذا، وهي وفقاً لتقدير العامة، أعلى الجبال في مرتفعات نجد. تمتد سلسلة جبال الحمراء من الشرق للغرب لمسافة تقارب عشرين ميلاً تجري بطول الطريق الذي سلكناه من منخفض جربوعة إلى القصورية، وقد تقل هذه المسافة قليلاً بقياس خطٍ مباشر بين القريتين. كانت كل هذه «الديرة» مِلكاً لقبيلة مطير العظيمة فيما مضى من زمان مع بعض الوجود لعناصر من سبيع والسهول، وكانت تعيش كلها في سلام، ولكن ضغوط قحطان من الجنوب الغربي وعتيبة من الغرب أدت إلى إجلاء هذه المجموعة، وفي الوقت الحالي فإن الأطراف الجنوبية لسلاسل الحمراء والعرض ـ بما في ذلك صبحا وجبال الحصاة تقع تحت سيطرة قحطان الذين ينافسون عتيبة من أجل المراعي التي تقع جنوب طريق الحجاج مباشرة، بينما تسيطر قبيلة عتيبة بلا نزاع على سلاسل الحمراء إلى الشمال من ذلك الخط وعلى كل العرض حتى الفرع تقريباً.

توقف المطر عن الهطول في الساعة ٩:٣٠ مساء ولكنه عاود الكرّة في الساعة الثانية صباحاً، ونتيجة لهذا فإنه لم يتم إيقاظي في الوقت المعتاد، ووجد رفاقي فرصة كافية لتجفيف أنفسهم بجوار النار المشتعلة قبل أن نستعد للمسير في الساعة السابعة صباحاً. تحولت التربة الطفلية الغنية للسهل إلى مستنقع حقيقي، وأثناء الساعة الأولى من مسيرنا فإن الإبل عانت كثيراً وواجهت مشقة واضحة في اقتلاع أقدامها من الأرض المبتلة، ثم ارتقى بنا الطريق إلى أرض أكثر صلابة حتى بلغنا مجمع أمطار السلسلة الجبلية، وبعد تخطيه صار الانحدار نحو الغرب في اتجاه سهل حلبان. وقادنا الطريق الآن بين سلسلتين منخفضتين من التلال تبعد إحداها ميلاً واحداً عن الأخرى حتى بلغنا موقعاً من التل الرئيس ينبعج فيه نحو الغرب مكوناً دائرة عريضة تقع فيها بيوت القصورية الريفية. وقد أوضحت لنا بعض الفجوات في سلسلة التلال مشهداً بعيداً للضلع الثالث لمنظومة المرتفعات، سلسلة دمخ الجبلية من وراء السهل، ورأينا لأول مرة من هذا الموقع جبل صبحا العظيم.

مررنا في طريقنا بمقبرة صغيرة تدل بلا شك، على مشهد لوقعة بين القبائل حدثت في الماضي، ثم رأينا بعد ذلك بقليل رجلين على البعد يمتطيان ناقة واحدة تسير صوبنا، وما أن وقع بصرهما على موكبنا المهيب حتى استدارا هرباً بأقصى سرعة نحو القصورية حتى اطمأنا بعد أن سمعا صيحاتنا لهم فوقفا حيث كانا انتظاراً لقدومنا. واستقينا منهما المعلومات المقنعة من أن الطريق أمامنا كان ـ على الأقل حتى وقت قريب ـ آمناً خالياً من العوائق.

وصلنا القصورية الآن، وهي مجموعة قوامها ستة منازل ريفية محصنة تتناثر في رقعة كبيرة صالحة للزراعة، كان جزء منها قد أعد لزراعة محاصيل الشتاء بينما

كان الجزء الآخر قد خلا لتوه بعد حصاد محصول الدخن. كان هناك طريق يقود من هذا الموقع نحو الجنوب حتى قصر الحفيرة الذي يقع على الجانب الغربي مرتقياً المنحدر الذي وجدنا أنفسنا بعد أن بلغنا قمته ـ وقد تخطينا منظومة الحمراء بكاملها ـ في مواجهة سهل حلبان الفسيح الذي تحده من الجانب الآخر سلسلة تلال دمخ الممتدة. ولم تكن هناك مستوطنات لسكن الأهالي إلى الغرب من القصورية حتى الخرمة وهي مسافة تبلغ ٢٠٠ ميل استغرقت منا لقطعها ستة أيام ونصف.

يمتد عرض سهل حلبان خمسة عشر ميلاً ويقطعه قطرياً من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مهد سيول ضيق يسمى شعيب حلبان والذي يبدأ بالقرب من سلسلة تلال عريويات لينحدر إلى آبار حلبان في الطرف الجنوبي لسلسلة تلال بازلتية طويلة تسمى سمرا حلبان، ومن ثمّ يجري جنوباً نحو وادي السِرّة، يغطي السهل الواقع على جوانب الشعيب وروافده التي تجري نحوه من الشرق والغرب غطاء نباتي كثيف من الشار وأنواع مختلفة من السنط، وكان الوهط بفروعه العارية الجافة وأشواكه الكبيرة الشبيهة بالمخالب أكثر شيوعاً من بقية النباتات. ويتجه طريق الحجاج صوب الجنوب الغربي من القصورية إلى الآبار التي تبعد مسافة تقارب عشرين ميلاً، ولكن الأمطار أغنتنا عن الاتجاه نحو الآبار، لذا سرنا بطريق مباشر يتجه إلى غرب الجنوب الغربي عبر قلب سلسلة جبال دمخ، إذ لم تكن الإبل في حاجة إلى السقيا، كما أن قرب الماء كانت تُملأ كلما دعت الحاجة من غدران الماء التي خلفتها العاصفة المطرية في كل منخفض وفي كل صدعٍ بين الصخور.

دلفنا إلى سلسلة جبال دمخ من الطرف الشمالي لتلال سمرا حلبان، ونصبنا خيامنا لقضاء الليل في تجويف رملي تحيط به الروابي البازلتية التي تمكنت من إحدى قممها أن أطّلع على مشهد جميل بدت فيه الصورة الظلية للتل الجرانيتي

الرئيس، أمام خلفية للشمس المائلة للغروب في تألقها البهي. كنا الآن على ارتفاع ٣٢٥٠ قدماً فوق سطح البحر، بينما كان ارتفاع قمة تلال سمرا حوالي ٣٧٠٠ قدم في المتوسط، كانت كتل الجرانيت الضخمة المسماة غرور، ونسيفة، وكحيلة، والفريدة والتي تشكل جميعاً العمود الفقري للسلسلة، والتي تقع بنفس هذا الترتيب من الشمال للجنوب، باستثناء كحيلة التي تقع إلى الشرق قليلاً من نسيفة، كانت تنتشر في مسافة قد بلغت عشرين ميلاً. وهذه الجبال شمخت ليصل ارتفاعها ـ فيما يبدو لي ـ ٤٥٠٠-٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وكان أعظمها غرور.

كان بمقدوري أن أرى على البعد في اتجاه الجنوب نهاية سلسلة عظيمة من الكتل الجبلية تسمى عذقان، وهي تقع إلى الجنوب الغربي من صبحا، وتقع ـ افتراضاً ـ في وسط رمال الدحي، واشتُهرت بأنها لا تقل ارتفاعاً عن أعظم الجبال بمرتفعات نجد. ولكننا عندما نقيِّم التقديرات المحلية لارتفاعات الجبال علينا أن نتذكر أن العرب يجهلون تماماً معيار ارتفاع سطح البحر، كما يجهلون حقيقة انحدار الكتلة القارية نحو الجنوب، لذا فإن صبحا التي تُعد أعلى جبال نجد تقع بعيداً إلى الجنوب، ورغم أن قمتها تنتصب عالياً مقارنة بالسهل الذي تقف عليه إذا ما قورنت مثلاً بجبل غرور، إلا أن الأخير يتميز بأنه يقف على قاعدة أعلى بكثير من ذلك السهل، ولذا فإنه من المحتمل ألا يختلف الاثنان في الارتفاع فوق سطح البحر. وعلى كل فإن أي محاولة لتقدير ارتفاع هذه القمم لابد أن يكون بالضرورة ضرباً من التخمين، بيد أن منهجي في هذا التوثيق هو أن أبتعد عن المبالغة في كل الأحوال.

وفقاً لما أخبرني به زميع من البيانات ـ التي لم أجد الفرصة لاحقاً للتحقق من صِحتّها ـ فإن جبل النير العظيم والذي يعلو فوق الشعراء في اتجاه الشمال هو الأساس لسلسلتي جبال الحمراء ودمخ معاً، أما سلسلة تلال عريويات ـ وهي جزء

من سلسلة جبال الحمراء ـ فإن امتداداتها تجري في اتجاه الشمال الغربي، وهذه الامتدادات هي تلال مجيرة وثهلان، وتجري نحو قاعدة النير، في حين أن الامتداد الآخر الذي يتفرَّع من سلاسل الجبال التي تعلوها جميعاً سلسلة دمخ، فهو يجري منحدراً في اتجاه الجنوب الغربي حتى يقف دون بلوغ طرف غرور الشمالي بأميال قليلة.

في صباح اليوم التالي، ١٧ ديسمبر (كانون الأول)، بدأنا سيرنا مبكرين، وعبرنا بصعوبة وحذر ممراً ضيقاً متعرجاً بين الروابي البازلتية التي انتشرت باتجاه الشمال من ناحية سمرا، ثم دلفنا إلى المنخفض العريض المليء بالشجيرات، والذي يفصل ذلك التل عن السلسلة الرئيسة، وسرنا فوقه في اتجاه الجنوب الغربي نحو مرتفع يصل بين صخور نسيفة، والفريدة. لقد شاهدنا هنا ـ كما كنّا نشاهد من حين لآخر أثناء النهار - كثيراً من الحيوانات، كما كانت الأرانب البرية تقفز مبتعدة وسط الشجيرات وقطعان صغيرة من الظباء تعدو مسرعة عند اقترابنا منها، إلا أنها تقف هنيهة احتجاجاً على إقلاق أمنها وسكونها قبل أن تهرول في اشمئزاز، بينما الغربان تلهو بالقرب من غدران الماء، ومجموعة كبيرة قوامها اثنتا عشرة من الحبارى تصفق بأجنحتها وهي ترتقي جانب الوادي. كانت معظم الشجيرات من السنط، والوهط، والسمر، والسلم، والطلح الذي يحمل الصمغ، ولقد رأيت للمرة الأولى على أشجار الطلح كثيراً من القلادات المتدلية من قطع الصمغ الشفاف ذي اللون الكهرماني. وكنا أيضاً نجد هنا وهناك أحجاماً عظيمة من شجيرات «مكنسة الصحراء»، وكانت الأغصان المزهرة لإحداها تمتد بعيداً بحيث أن ستة عشر من الإبل تجمعت حولها ـ دون تدافع ـ وهي تقتات الأغصان الرطبة حتى ما بقي منها شيء، وكانت الأرضية الرملية المنخفضة مغطاة بعشب الثمام وبأجمات صغيرة من العرفج لم تستعد حيويتها بعد، من جفاف فصل الخريف.

بعد بلوغنا المرتفع انحدرنا بطول ممر شريطي عريض يغطيه الحصى الأسود بين أكتاف جبال نسيفة والفريدة. وفجأة غاب أمام أعيننا تحت الثرى جربوع، فقفز ستة من العرب للأرض وبدؤوا مهمتهم بسرعة باستخدام الأيدي وعصيّ الإبل يحفرون جحر الجربوع، وما لبثوا أن أتوا به منتصرين، وبينما كنا نناقش احتمالات ذبحه فوراً والاحتفاظ به للوجبة التالية، والأيدي تتداوله، انزلق الحيوان الصغير إلى الأرض ولاذ بالفرار وهو يقفز مبتعداً في سرعة لا تصدق، وتبعه ستة من أسرع رجالنا، ورغماً عن المعوقات التي تتمثل في أن كل ما يحيط بذلك الحيوان كان غريباً عليه ويعمل ضده، وأن الرجال يتبعونه حيث ذهب إلا أن تميزه بالمراوغة والسرعة وقدرته على المحاورة هيّأت له الخلاص، وعاد الرجال خائبي الرجاء مكتئبين لضياع طعام شهي رغم أن مقداره ضئيل. يأكل كل البدو الجربوع باستثناء قبيلة حرب، ولقد أبدى أفراد هذه القبيلة في مجموعتنا فرحتهم بما حدث، وهم يلومون رفاقهم على أكل حيوان يعد قذراً بمعايير الشريعة الإسلامية[١].

مررنا الآن على حزام منخفض ذي تلال سفحية، ووقفنا على أعتاب سهل السِرَّة، وكانت تجري من خلفنا سلاسل دمخ الجبلية الداكنة التي كان امتدادها من الشرق للغرب ـ في خط مستقيم ـ يبلغ عشرة أميال. وخلف سهل السرة كان يرقد حزام نفود السُّرة الذي تنقطه نتوءات بازلتية هي مخايط بقممه المخروطية الخمس، وجنيح الذي يشابه ـ كما يوضح الاسم ـ أجنحة مفردة لغراب أسود سقط على السطح الرملي، إضافةً لنتوءات أخرى. وكانت تظهر في الساحة الخلفية ثلاث سلاسل من التلال البازلتية الممتدة: العلم نحو الشمال ويصل إلى نقطة تقع إلى الغرب من موقعنا الذي كنّا فيه، والزيدي وهي سلسلة طويلة جداً وتعد امتداداً ـ بعد فاصل رملي ـ

(١) الصحيح أن الشريعة الإسلامية لم تعد الجربوع قذراً، وهو مما يؤكل لحمه. (المراجعون).

للسلسلة الأولى، وتقع في أقصى الجنوب، ثم أخيراً، سرّة الجرذاوي نحو الجنوب الغربي، وهي ذقان ذقان البعيدة التي لا تبدو منها سوى قمتها.

بعد أن عبرنا شريطاً سهلياً يتناثر فيه الحصى الأسود على مدّ البصر، دخلنا إلى مهد السيول الذي تغطيه الحشائش والشجيرات وهو وادي قحقح الذي تسيل عبره مصارف المنحدرات الغربية صوب دمخ فتصب في اتجاه الجنوب الغربي في الموقع الذي يلتقي فيه بوادي السِرة الذي تخطُّ مهده الرملي هنا وهناك مجارٍ من الحصى الأسود، والذي بلغناه بعد مسيرة خمسة أميال. يرتفع هذا الوادي العظيم على جنبة سلسلة تلال العلم، ويجري صوب الجنوب بطول الحافة الشرقية للنفود، التي تحمل اسمه، والتي تفصله عن سلسلة جبال الزيدي ثم يجري الوادي نحو الجرذاوي: الحاجز الصُّلب الذي ينثني عند بلوغه إلى الخلف في اتجاه الشرق، ليجري بطول الحافة الشمالية لصبحا والحصاة، مجمِّعاً في طريقه تصريف أودية حلبان، وجربوعة، والسرداح، والحرملية. ومن هناك يجري وادي السرة العظيم بين نفود ضاحي في الجنوب ورمال دلقان وقنيفذة في الشمال حتى حاجز طويق الذي يخترقه الوادي في طريقه لمخرج السهباء عن طريق مجرى وادي البرك[1] لقد كان الجهل بوجود وادي السُّرّة وباتصاله بمصرف السهباء عبر مجاري البرك والعقيمي هو الذي قاد الجغرافيين للتسليم بأن انحدار شبه الجزيرة العربية يضطرد نحو الشمال الشرقي، على افتراض بُني على معرفة جزء فقط من الحقيقة، وهو أن المصرفين الرئيسين وادي الرمة ووادي الدواسر يتجهان تلك الوجهة، ولكن المعلومات التي توافرت الآن تستدعي تعديلاً لتلك الفرضيَّة.

سأوضح في المقام الأوّل أن وادي الدواسر لا يتجه صوب الشمال الشرقي، بل إلى الجنوب قليلاً من الشرق، وثانياً فإن الشبكة النهرية (السُّرة ـ البرك ـ

---

(١) راجع الجزء الثاني ص٣٧١ وما بعدها . (المؤلف).

العقيمي ـ السهـباء) تجري ـ على الجملة ـ نحو الشرق من قلب مرتفـعات نجد عبر حاجـز طويق لتصل إلى البـحر جوار النتـوء الجبلي الداخل في البـحر بقَطَر، مما يستـوجب أن نفرق بين الجانبـين. وأخيراً فـإنَّ دراسة مسـتويات ثلاثة من الأودية توضح أن منظومـة السـرّة تقع على ارتفاع أعلـى من الاثنين الآخرين، إذ تفـوق ارتفاع الرمة بحوالي ٨٠٠ قـدم، ووادي الدواسر بحوالي ٤٠٠ قدم، لذا لابد أن نستنتج أنه بينمـا أن الانحدار الرئيس لشبه الجزيرة يجـري من الغرب إلى الشرق، أي من جبـال الحجاز في اتجـاه الخليج العربي. إلا أن هناك سلسلة تلال مـركزية تجري فيما يبدو في اتجاهٍ شمـالي شرقي بعرض شبه الجزيرة، على طول خط تجرى فيه سلاسل جـبال هضب الدواسر[1]، والمنخرة، والزيدي، والعلم؛ وهذا يسبب تحويلاً للانحدار العام باتجاه الشمال وباتجاه الجنوب على جانبي هذه السلسلة الممتدة نحو وادي الرمـة في الشمال، ووادي الدواسـر في الجنوب. لذا فإنَّ انحدار شـبه الجزيرة العربية يتخذ بعضاً من مميزات سقيفة ذات قمة عريضة مسطحة وانحداراتها شمالية وجنوبية لطيفة من كلٍ من الجهتين، في حين أنَّ الكل ينحني إلى أسفل من الغرب إلى الشرق، أو بعبارة أخرى فإن سطح شبه الجزيرة تَشُقُّه بالتقريب في اتجاه انحداره الأساسي ثلاثُ أودية عريضـة لكنها ضحلة، ووادي الدواسر من بين هذه الأودية الثلاث هو الأعلى وهو يحتل موقعاً وسطاً بين الواديين الآخرين.

ابتداءً من هذا الموقع فإن المرتفعات ستشكل مشهـداً كثير التعقيد، بحيث إن تفاصـيل معالمهـا تبدو كألغـاز يصعب جداً حَلُّهـا. خلافاً للوحـدات الثلاث من منظومـة المرتفعات التـي قطعناها، وهي سلاسل جـبلية واضـحة المعالم تمـتد من الشمال للجنوب، وتفصل بينها أودية مُحددة المعالم أيضاً فإن خير وصف للوحدة

(١) وتسمى أيضاً هضب آل زايد، وهي هضـاب متفرقة فيـها مياه، لكل ماء فيـها، وكل قنة اسم يعرف به، تقع غرب وادي الدواسر. ابن جنيدل، عالية نجد، ج٣، ص١٣٢٢. (المراجعون).

الرابعة أو لقسمها للتسهيل وحدة الزيدي. إنها بحر واسع من الرمال التي تتقاذفها الرياح وتنقطها بعد فواصل متقاربة وغير منتظمة جزرٌ صخرية طويلة أو صخور بازلتية معزولة، ومما يزيد التعقيد هو أن العرب الذين لم يكتفوا بأن اخترعوا اسماً لكل صخرة وتل بل رسموا حدوداً للرمال نفسها في أشكال كروية وأعطوا اسماً لكل كرة. هذا النفود هو بلا شك امتداد شمالي لصقع رمال الضاح العريض الذي يجري نحو الجنوب، والذي ينتهي ـ وِفقاً لما استطعت التحقق منه ـ في مكان ما جنوب خط العرض الذي يمر بسجا. إن المسافة بين الطرف الشرقي لنفود السرة والحافة الشرقية لوادي النعيم في الاتجاه من الشرق للغرب، تقارب أربعين ميلاً، ولكن طريقنا الذي سلكناه والذي تابع بالضرورة أيسر المسالك كان أكثر طولاً من تلك المسافة المباشرة.

تحدُّ هذا الطريق من جهة الشمال سلسلة جبال العلم والرمال التي ترتفع منها، ومن جهة الجنوب لنفود السِرّة التي تنحدر في الوسط ثلاثة أميال وسلسلة تلال الجرذاوي، وتقاطع هذا الحزام أمامنا النفود التي لم تشكل سلاسل تلالها الرملية الأربعة عائقاً كبيراً لمسيرتنا. أنخنا رواحلنا لنقيم مخيمنا عند سفح تلال الزيدي حيث وجدت الإبل ما تحبّ من النصي المتوافرة، وهي أكثر حشائش الصحراء قيمة وأوّل ما يجدُّ الرعاة في طلبه، وهي تنمو منتشرة في كل هذا الطريق الرملي الذي اشتُهر بأنه أحد أجود المراعي في غرب الجزيرة العربية. ورغماً عن هذا عبرنا كل المنطقة دون أن نرى مظهراً ينمّ عن وجود بشري بها إلا أنني تلقيت تأكيداً بأنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يعجّ المكان بقطعان وأسراب حيوانات عتيبة.

وَطنّا العزم في اليوم التالي للتغلب على الصعاب المتمثلة في عبور الشريط المركزي الذي يتضمن سلسلة جبال الزيدي في الجنوب ونفود الصَّخَّة إلى الشمال

منها، فوجدنا كتلة جرانيتية حادّة مقوَّسة الظهر يسمونها ختزير. دخلنا بينها وبين جبل جُنيِّح لسهل من الحصباء تحيط به رمال السُّرة، وتداخلت هنا نفودات الصَّخَّة لتصير متاهة لا سبيل للخروج منها. وكانت ترتفع عن يسارنا أعلى قمة لسلسلة أخرى من الصخور البازلتية تدعى كَرْش [1] وكانت تقع إلى الوراء قليلاً وهي تتبع للقسم الثالث (أو الغربي) من هذه المنظومة. مررنا من سهل دارات الجُنَيْح لنرتقي ممراً رملياً ترتفع فيه بين الحين والآخر صخور الحجر الأخضر البازلتية التي أضافت مسحة من لون بهيج على اللونين الغالبين في رتابة: صفار الرمال وسواد الصخور البازلتية. هبطنا بعد هذا نحو منخفض مالح يدعى جو الدحو وهو يجري منحدراً نحو الجنوب بطول جانب سلالة الزيدي لنجد في أسفلها، في مهد جو، على بعد عشرة أميال تقريباً الآبار المالحة التي تدعى مريفق. وكانت بعض أجزاء المنخفض تلمع كالثلج الناصع تحت وهج الشمس بفضل ما يكسو الأرض من أملاح.

كانت تتناثر من خلف المنخفض بعض الصخور السوداء التي تحدد موقع آبار الصخة والتي وصلناها بعد دقائق قليلة. وكانت الآبار توجد في مجموعتين في وسط تجويف عريض تحيط به من كل الجوانب أكوام رملية عالية تتخذ شكل حدوة حصان[2]، ولعلها كانت خير ما رأيت من نوع هذه الظاهرة في كل تجوالي. سطح القاعدة منبسط ومُمهَّد مع بعض الزوائد من الحجر الأخضر في الطرف الشمالي، وفي المنتصف كانت توجد ستة أو سبعة آبار تحدّها قوالب من صخور الحجر الأخضر وتحتوي على كثير من المياه على عمق خمسة أقدام فقط، إلا أن مياهها كانت مالحة، وبعد أن شربت الإبل، استحمّ فيها الرجال، والمياه في هذه

(١) يوجد إلى الجنوب من هذه التلال، سلسلة تلال أخرى قمتها تدعى أذن، ترتفع من وسط الرمال. (المؤلف).

(٢) هذه التجويفات الشبيهة بحدوة الحصان -وتسمى فلج- كثيرة فيما يبدو، وهي من الصفات المميزة للنفود شمال جبل شمَّر. (المؤلف).

الآبار غير صالحة لشرب البشر، ولكن الطبيعة أعدّت للأمر عُدَّته[1]، إذ أنه يمكن الحصول على الماء العذب في الركن الشمالي الغربي من القاع بعد تجشّم مؤونة إزاحة الرمال لعمق قدمين أو ثلاثة. وكان هناك عدد من الحفر المبعثرة التي أُزيحت عنها الرمال عبر الأزمان، والتي كانت تخلّف وراءها قليلاً من الماء المخلوط بالطين، وهي تعطي كميات غير محدودة من المياه العذبة إن صبر الإنسان على كشط الرمال.

كان العرض الأقصى للقاع ميلاً واحداً بالتقريب، وكان يجري في اتجاه الشمال والجنوب، وكانت المنحدرات الرملية أكثر انحداراً وأعلى ارتفاعاً في موقع المنحنى من الحدوة في الجانب الجنوبي أكثر منه في الجانب الشمالي، حيث اختلطت صخور منخفضة سوداء بالرمال. وكانت التربة طينية خالية من النبات باستثناء شجيرات قليلة متناثرة من الشار، رغم أن الموقع يبدو في ظاهر الأمر مكاناً ملائماً للاستيطان الدائم، إن وجد العرب أن يستوطنوا في مثل هذا الموقع المعزول عن كل حضارة. لقد سبق أن خطرت الفكرة لابن سعود في سياق مشروعه لتوطين «الأخوان»، ولكنها لم تجد حتى الآن سوى القليل من الاستجابة في أوساط البدو، ولن تستطيع سوى قبيلة عتيبة من وضع يدها على موقع كهذا. لقد قام ابن سعود في حوالي عام ١٩١٢م ـ وهو الذي لم يتوغل حتى الآن[2] إلى الغرب من الصخة ـ باتخاذ هذه الآبار قاعدة قام منها بهجوم مشهود على عتيبة ليعود بعدها متوجاً بأكاليل النصر ومحمّلاً بالغنائم. ورغماً عن هذا فإن قبضته على هذه القبيلة ـ التي ينازعه الشريف عليها ـ كانت على الدوام غير مستقرة،

(١) الصحيح أنه ليس للطبيعة أي قدرة في هذا الجانب، بل هي رحمة الله تعالى بمن خلق. (المراجعون).

(٢) ولكنه في مايو (آيار) ١٩١٩م تخطى هذا الموقع ثانية في طريقه إلى الخرمة وتربة اللتين تقعان خلف الصخة بكثير، لقيادة العمليات الحربية التي أدت إلى نصره الحاسم على القوات الشريفية التي كان على رأسها عبدالله، ابن الملك.

ورغم أن حركة الإخـوان قد تلقت مؤخراً اهتمـاماً كبيراً من قـادة القبيلة، إلا أن مزايا وجود حماية ذات ولاء لا تخالجه الريبة في مـوقع كهذا يمهد السبيل للسيطرة على القبيلة.

بارتقائنا للمنحـدر الرملي من الطرف الجنوبي لقاعدة الصخـة وصلنا بسرعة إلى التل المنخفض المندسَّة الذي سرنا بجانبـه في اتجاه الجنوب الغربي حتى خرجنا إلى سهل رملي عـريض يسمى شعـيب الردّادي حيث نصـبنا خيامنا للمـبيت في حمى بعض الصخور الناتئة من الحجر الأخضر، وأطلقنا الإبل المتعبة لترعى عشب النصي الوافر.

كنّا في صـباح اليوم التـالي قد أعـددنا كل العدّة للسـير قبل الـنداء لصلاة الفجر، وبينما كـان رفاقي يؤدون الصلاة لاحظتُ أنا للمرة الأولى في أدنى الأفق باتجاه الجنوب صليب الجنوب الذي يسمونه النعيم. إن شعيب الردادي الذي نقطعه الآن ـ وفقاً لما أخبرني به زميع ـ هو منخفض غـير نافذ وليس مجرًى مائياً، إذ أن ميـاه الأمطار التي تنصـرف إليه من التلال المجـاورة تمتصـها الرمـال ياحر، كـما يسمّـونها. عبـرنا الآن الطرف الشمـالي لسلسلة تلال كرش التي تمتـد جنوباً لعدة أميال نحو القـمة الرئيسة التي توجد أسفلهـا آبار كويكب المالحة[1]. يُقال إن مياه هذه الآبار ومياه الـمُحْـدَث التي تقع على بعد عشرين ميلاً في اتجـاه الشمال أسفل إحدى الصخور العظيمة، وكذلك مـياه البديعة التي تقع إلى الأمام في الاتجاه الذي نسير فيـه، يقال إنها كلها ذات أثر ضار بالإنسان رغم أنها تسـتخدم للأبقار. وتقع إلى الجنوب الغربي سلـسلة تلال عقار التي تجـري بين الشمال والجنوب، وبمتـابعة السير قابلتنا سـلاسل التلال البازلتية التي تتناثر فيهـا الرمال: بويبيات التي تركناها

(١) هماج. (المؤلف).

إلى الجنوب الغربي منّا؛ وإلى الجنوب الغربي من هذه السلاسل تقع صخور أو سلاسل وعْلة، والأروسة، وإلى الغرب منها شعثان، وكانت هذه الثلاثة تكوّن امتداداً متقطعاً لخط عُقار ـ بويبيات.

مررنا بعد ذلك بسلسلتين مزدوجتين من التلال تسمى أبو نبتة لندخل إلى نفود البشارة الفسيح الممتد نحو الشمال على مد البصر، ثم سرنا عبره إلى سلسلة تلال البديعة التي تعلوها روابي الحمّة وأم الجواعر التي تقع عن يسارنا. كانت آبار بديع تقع في منخفض طيني ضحل من الجانب الذي يواجهنا من سلسلة التلال، والتففنا حول الحافة الشمالية لتلال البديعة، ثم قادنا منحدر رملي لطيف إلى الأسفل نحو وادي النعيم. يقع الآن من خلفنا القسم الرابع والأخير من مرتفعات نجد، وقد قطعنا ديرة عتيبة من هذا الجانب إلى ذاك دون حوادث، ولم نلتقِ بأحدٍ من رجال القبيلة باستثناء الرجلين اللذين هربا أمامنا للقصورية.

كنا قد عبرنا وادي الحرملية نحو أصقاع مرتفعات نجد في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٤ ديسمبر (كانون الأول)، والآن خرجنا منها نحو وادي النعيم في الساعة التاسعة صباح ١٩ ديسمبر (كانون الأول)، وقطعنا خلال الأيام الخمسة حوالي ١٥٠ ميلاً في أكثر من أربعين ساعة من السير المتصل. لقد أعطيت في هذه الصفحات وصفاً مفصلاً إلى حدٍّ كافٍ ـ إن لم يكن مفرطاً في التفاصيل ـ للمعالم العامة لهذه المرتفعات الكئيبة ذات العدد الضئيل من السكان والتي لا تقل مساحتها عن ١٠,٠٠٠[1] ميل مربع. لقد خرجت منها مع احتمالٍ بألا أعود إليها ثانية، أسِفاً على أن السرعة التي فرضت عليّ بسبب الغرض من رحلتي لم

(١) ليس هذا الطريق الذي يشق المرتفعات في رأيي سوى الطرف الشمالي لسلسلة متصلة من الجبال: هضب الدواسر ـ منخرة. . إلخ. والتي تنتأ عن أراضي عسير الجبلية في اندفاع عريض نحو الشرق مع نزعةٍ تدريجية لتحويل اتجاهه صوب الشمال، وإن كان هذا الأمر صحيحاً فإن طريق مرتفعات نجد يكون المقابل الجنوبي لجبال شمّر وهي أيضاً ذراع تنتأ نحو الشرق من جبال شمال الحجاز. (المؤلف).

تسمح لي بأي انعطاف عن المسار الذي كان يسلكه الحجاج عبر القرون مسرعين - كما فعلنا - في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، ومدركاً أني قد تركت في مرتفعات نجد التي يسمونها عن حق "المرتفعات الحقيقة لوسط الجزيرة العربية" والتي حاولت أن أعرف حدودها، وتركت لجولة المستقبل كثيراً من المسائل المعقدة التي لم أسعَ لحلِ عقدها، وكمّاً من الأسرار الخفية التي لم أسبر غورها. لقد انطبعت في مخيلتي ذكريات عن السلاسل الجبلية العظيمة الثلاث وعن فوضى موجات الرمال المتلاطمة أو الصخور البازلتية المتلاحمة التي تكمل الحاجز الرابع، وعن العواصف التي تعزف فوق كتلة الجرانيت الضخمة المصمتة التي تسمى «إذني شمال»، وعن الجبال العظيمة التي تُرى في أقصى الجنوب تقريباً، وعن البساتين الساحرة والقرى المتواضعة والمنازل الريفية ذات الأبراج، أحمل عن كل هذا ذكريات يحول دوني ودون التعبير عنها عيٌّ وحصر، ولن يَعْفُوَ عليها الزمان طال أم قصر.

٥ ـ منطقة سبيع

وادي النعيم منخفض ضحل يبلغ عرضه حوالي الميل الواحد، ويفصل طريق المرتفعات عن سهل الشفا العادي المترامي الأطراف الذي يمتد صوب الأفق إلى الجنوب والغرب والشمال. ولم نكن لنرى معالم في ذلك الفناء الفسيح لولا القليل من الروابي الصخرية الخفيفة التي تناثرت فوق سهل الحصباء، حتى رأينا سداً ترابياً يعرف باسم عرق سبيع، ورأينا في الوقت نفسه قمم وتلال هضب الدواسر وهي سلسلة عظيمة من الجرانيت فيما يبدو، تجري من الغرب إلى الشرق مخترقة نفود الدّحي، بينما يفصل هضب الدواسر عن سلسلة جبال السوادة ـ التي تقع بينها وبين الحصاة ـ وادي القمرة ذي الحصباء، وبين مجاري المياه الشحيحة بهذا السهل توجد منازل قحطان والقراء وعيفاره الصغيرة على بعد خمسين أو ستين ميلاً إلى الجنوب من طريقنا.

تشكل الحدود الشمالية لسهل شفا خط وادي الرمة الذي يربط حرّة كشْب – أو حرة الحرب كما يُسمونها دائماً– بقرية سجا التي تبعد حوالي أربعين ميلاً إلى الشمال الغربي من موقعنا ذاك في وادي النعيم، ويرتفع سهل الشفا تدريجياً نحو الغرب ارتفاعاً طفيفاً. وتمرّ فوقه عواصف الشتاء والصيف دون اعتراض وهي في طريقها من جبال الحجاز إلى مرتفعات نجد. وينزل الغيث على السهل ولكن في أحيان نادرة. أما الأمطار التي انهالت على رؤوسنا قبل أيام فلم يسعها أن تبلل رماله وحصباه، ويقال إن هذا السهل الصحراوي الفسيح لم تَسْقِه السماء لسنوات عديدة خلت. كان قفر الحصباء الرتيب يمتدُّ في كل مكان دون أن تتخلل حصاه الأسود والبني والرمادي شجيرة إلا ما قد يُرى في أوقات نادرة من ورقة عشب قد

ذَوَت. ورغم هذا فإنهم يتحدثون عن سنوات خالية كان البدو يتجولون في صحبة أسراب وقطعان الماشيــة ليرعوا النباتات الغنية المترفـة التي تتسبب أقل الأمطار في انتزاعها من باطن هذه التربة البكر.

رأينا عند دخـولنا السـهل عن اليمين والشـمـال سلاسل قـصيـرة من تلال منخـفـضة، بـرقة النـعيم والصـوّان، وتوقـفنا في منتـصف النهـار في هضـبـة العوشزيات، وعندما تابعنا المسـير نحو تل الحومية الذي كانت توجـد عند سفحه آبار مالحة، ظهرت على البـعد في اتجاه الشمال الغربي هضبة أبو الهـران الصغيرة والقمم المخروطية المتناثرة لسلسلة هتيميات (١).

نصبنا خيـامنا للمبيت بالقرب من هضبـة مسيجيـرة الواقعة في سلسلة تلال حاسيات المنخفضة المهلهلة، وعلى مرمى البصر من الوادي الطويل لنفود سبيع.

صرنا الآن في مأمن من المخاطر التي تكمن بين المرتفعات، إذ لا يمكن لعدوٍ أن يتقدم أثناء النهار دون أن يسبق وصوله إنذارٌ طويل الأمد، ولكن لم يكن هناك وقاء يحـجب نيران المخـيم ليلاً عن قطاع الطرق المتـسللين إن كان منـهم أحد في الأنحاء. لم نرَ أحداً منذ أن غادرنا القصورية لأربعة أيام خلت، ولكن أثناء النهار الذي انتهـى لتوّه كنا قد لاحـظنا مخلفـات بعض الخراف التي مـرّت قبل يوم أو يومين مما يدل على وجود بعض الرعاة في مكان قريب. حـيّا نزولنا بالمخيم سرب ضئيل من جراد الخريف الجائع، ولكن تحطمت آمالنا في الحصول على وجبةٍ شهية عندما فـحصنا الحـشرات البـئيسـة، وقنعنا بالجلوس إلى عشـائنا المكوّن من الأرز وحصيلة صيد اليوم أرنب برية وحيدة. خلدت إلى النوم تحت بعض الأعشاب بين ثلاثين من الرجال. لقد كان أمراً ساراً أن نجلس ـ كما جلسنا تلك الأمسية ـ حول

---

(١) أكبر القمم المخروطية هي بركة عرادة وتقع في الطرف الشمالي للسلسلة. (المؤلف).

نار المخيم نحتسي فناجيل القهوة، بينما أدخن أنا ـ منفرداً ـ ونناقش ما جرى في الأيام الطويلة المضنية التي مضت، ونستطلع ما قد يمر بنا في الأيام القادمة. لقد قرَّعوني على مطالبتي القاسية للرجال والإبل ببذل الجهد المتصل، وقالوا لي إن العرب قد تمرسوا على تحمل المصاعب والإجهاد عندما يكون الأمر ضرورياً، لكنهم لم يلتقوا منذ ولدتهم أمهاتهم برجلٍ يبدو مستمتعاً بها. وعرض طامي تجاربه مع الرحالة الإنجليز الذين عرفهم والذين كانوا أكثر اعتدالاً، بينما عارضت أنا حُجته بأن استشهدت بتقارير أوردها نفس هؤلاء الرحالة عن الكسل الذي لا بُرء منه لبعض رفقائهم العرب. تجمَّدت أحاديث المزاح على شفاهنا عندما شقَّ الصمت والظلام من حولنا عواء خفيف متصل. قال أحدهم: «انصتوا إنه ذئب». وقال الآخر: «ها هو يعوي مجدداً، لعله كلب سلوقي لإحدى مخيمات الرعاة، لكنه صوتٌ قريب، ولم نَرَ أثراً للناس عند المغيب» قال ثالث: «كلا، إنها إشارة بدوي مستكشف يدعو رفاقه».

تمّ إخماد النار، وخلد الرجال للنوم بينما تبعثر رجال الحراسة في الاتجاهات الأربعة للمخيم، وكانوا يصيحون واحداً إثر آخر معلنين من أين أتينا وإلى أين نذهب دون استجابة من الظلام المطبق. قضى الحراس ليلهم متيقظين، وفي الصباح وجد الباحثون آثار الذئب الذي أقلقنا، بالقرب من المخيم.

بعد مسيرة أميال قليلة بلغنا قمّة الشفا التي ينحدر الطريق بعدها بلطف نحو الرمال التي انتصبت في جانبيها الجنوبي والغربي، على التوالي، جبال كبد وأشهلية. وبدأت بعض الشجيرات المتفرقة والأوراق العشبية تنقّط السهل القفر، وأسرع سرب كبير من الظباء مبتعداً عنّا متجهاً نحو النفود، وفي الوقت نفسه أخبر من كانوا في مؤخرة الركب أنهم قد رأوا ركباناً في الشمال الأقصى، كانوا ثلاثة وقفز أحدهم على الفور، لا لغرض سوى أن يحيط رئيسه علماً بوجودنا؟ وبعدها

مسحتُ أنا الأفق مستخدماً نظارة الميدان لأجد طياً في الأرض يكون قد ابتلع الاثنين الآخرين، ولكن دون جدوى. وبعد قليل من النقاش قررنا أن نواصل سيرنا. كنَّا الآن ندخل إلى السدّ الرملي المسمى عروق سبيع، بطول أخدود محدد المعالم ذي مهدٍ طيني عرضه ميلان ويحيط به سدّ ترابي عالٍ عند المدخل، ثم يضيق عرضه باضطراد حتى يصير ربع ميل بعد مسافة قصيرة. يأخذ المجرى اسمه الخدود من اسم خط غير منتظم من الروابي البازلتية المنخفضة التي تكاد الرمال أن تغطيها في الجوار، ويجري الأخدود في اتجاه جنوب الجنوب الغربي لمسافة تبلغ ثلاثة عشر ميلاً، ويُغني المسافرين من جهد قطع أمواج الرمال المتلاطمة في النفود لمسافة تبلغ ثلاثة أرباع عرضه كله.

انصرف تفكيرنا كثيراً للرجال الثلاثة وللمخاطر التي قد ينذر بها ظهورهم المفاجئ، هل كانوا سُلابا ضائرين؟ كنا تحت رحمتهم لأنهم بلا شك يعرفون طريقنا كما نعرفه نحن، كان باستطاعتهم ملاحقتنا أو أن يكمنوا لنا في أي موقع في طريقنا أو يهبطوا علينا ليلاً في الوقت الذي يختارونه. لقد كان الخيار الذي يفرضه العقل هو أن نُسرع في طريقنا بأقصى سرعة ممكنة، أيّدت أنا هذا الاقتراح بقوة، ولكن إبراهيم الذي كان قد استحوذ على تفكيره أنه لم يفطر بعد، كان له رأي آخر: «دعونا نترك وراءنا وسمنا ونتوقف للإفطار في أول موقع ملائم، ياجرمان انزل واترك وسْمَنا[1] على الطريق» هكذا أمر إبراهيم، واستجاب العتيبي للأمر مخططاً على الرمال وسوم ابن سعود، والشريف وقسم برقا من قبيلة عتيبة، وسبيع. كانت هذه هي طريقة الصحراء البسيطة في التفاهم، البديل الذي يتّخذه البدوي للكتابة، وهي كافية للإعلان عن ممتلكات من القطعان وغيرها، وعن هوية

(١) هذه هي العلامات القبلية للبدو، بدائية وبسيطة وتمكن الأمّي من التمييز بين ممتلكات إحدى القبائل أو الأقسام عن غيرها. (المؤلف).

مجموعاتٍ مسافرة، وكانت كافية على الأقل لتحذِّر المغيرين المتجهين صوب هذه المجموعات. وسألتهم: «ولكن هل يكفي هذا؟ ما الذي يمنع أي قافلة مسافرة، سواء كانت في حراسة الرفاق أم لا، من ادّعاء هوية مختلفة لئلا يتعقبهم أحد، أو أن تقوم بعض عصابات السلب نفسها بالخداع لتسوق الآخرين نحو كمين؟» كانت الإجابة بسيطة وحاسمة: «لا يفعل أحدٌ مثل هذا الفعل قط» سيتداعى كل النسيج الذي يشدُّ المجتمع القبلي إن انتهكت قوانين الصحراء.

رأيتهم لأول مرة يضعون الوسوم على المنحدرات الرملية مستخدمين نبات الغضا الرشيق، وهو من النباتات اللبنية، وذا صلة بنبات الحمض الوضيع واسع الانتشار، وشبيهٌ بالطرفاء. نبات الغضا هذا تأكل الإبل قليلاً منه إن لم يكن هناك نباتٌ غيره، ولكنه من خير حطب الوقود أينما وُجد، لاسيما في القصيم وجنوب نجد. تابعنا مسيرنا مرتقين الخدود بعد توقف يسير من أجل الإفطار، وفي منتصف فترة العشية خرجنا من المجرى عن طريق طَرَفِهِ الجنوبي نحو أمواج الرمال. وجشمنا حيواناتنا المنهكة جهداً عظيماً على أمل أن نبلغ السهل الذي يقع خلف النفود، قبل مغيب الشمس.

كان طامي وحيلان، وهما من عتيبة، وأبو نوره، وهو من حرب، متقدمين قليلاً أمام زميع وأنا وقليل من الآخرين، بينما كان إبراهيم ومعظم المجموعة بما في ذلك قافلة المتاع يسيرون خلفنا بمسافة ما، كانوا في أسفل منحدر رملي طويل ارتقيناه نحن بصعوبة ومعاناة، وكانت بحار الرمال المقفرة تتلاطم حولنا في خضمٍ من الفراغ. وتوقف قادة الركب فجأة وهم يصيحون: «صديق، صديق، صديق» بأصوات مختلفة، وكنّا نحن قد بلغنا الموقع قبل أن نعلم ما حدث، ووجدنا أنفسنا وقد أحاطت بنا اثنتا عشرة بندقية على بعد عشرين ياردة. رغم كل حيطتنا فقد

سرنا مباشرة نحو كمين، بنادقنا غير المعبأة تتدلى من حافات السروج، وصرنا بالكامل تحت رحمة مُباغتينا، بينما كان مجمع القافلة الرئيس بعيداً خلفنا يجاهدون للإسراع بأقصى ما يُستطاع من سرعة.

وفي هذه الأثناء لم يكن هناك ما نستطيع فعله سوى أن نرفع أيدينا قبالة فوهات بنادق تنذر بشؤم وأن نتفاوض مع خصمنا، ثم ساد هرج ومرج وصياح لم أسمع مثله إلا نادراً. خرج ثلاثة أو أربعة من معارضينا من مخابئهم بين الشجيرات، ثيابهم رثة ورؤوسهم حاسرة، بينما أزاح الآخرون بنادقهم المصوبة نحونا، وفي المفاوضات التي تلت ذلك كان كلٌ منهم يصيح بأعلى صوته، والجميع يصيحون معاً، ولم أفهم كلمة مما قيل. كان رفاقنا الحراس من عتيبة متأخرين خلفنا، لكنهم تقدموا الآن نحو واجهة عراك الكلمات. «سلام عليكم»، «وعليكم السلام»، لقد انطلقت كلمات السلام وزال التوتر. قال لي سعد: «تعال معي» وتبعته مستجيباً، بينما تجمَّع الأصدقاء والأعداء على قمة سلسلة التلال للتوادد. قال لي إبراهيم: «دعنا نخيم هنا للمبيت»، فوافقت بعد قليل من همهمة، إذ لم يكن هناك كبير أملٍ في أن نصل إلى الحافة البعيدة للنفود، وكانت الرياح الشمالية قد بدأت تهب مُدَوِّمَة الرمال في هذا الاتجاه وذلك حتى صرنا لا نرى ما حولنا إلا قليلاً.

نصبنا خيامنا ـ نحن ومن كانوا أعداءنا حتى وقت قريب ـ جنباً إلى جنب في تجويفين متقاربين، واقترحت أنا أن ندعوهم ليشاركونا عشاءنا، ولكن اقتراحي لم يجد القبول؛ في المقام الأول كانوا يجهلون حتى هذه اللحظة أن القافلة التي أوقعوها في الكمين كانت تضم رجلاً إنجليزياً، واكتشاف وجود نصراني بيننا قد يسبب لهم الأسف على الاعتدال الذي أبدوه في لحظات تفوّقهم المطلق، ثم إنهم بلا شك سيُشيعون هذا الأمر عندما يواصلون رحلتهم، وقد يكون فيه ضررنا؛ وثانياً لم يكن لدينا سوى الأرز والتمر في مخزن الطعام، ثم إنهم كانوا قد ذهبوا

للخلود للنوم. كانت الحجج أقوى من أن أجد رداً عليـها، فخلدت للراحة راضياً بما عُكس لي من أنَّ هويتي لم تكن بالوضوح الذي توقعت أن تكون عليه.

كانت القافلة صغيـرة، قوامها اثنا عشر رجلاً من تجار شـقراء، كما قيل لي، يصحبهم حمّالون ومرشدون، وكـانوا في طريق عودتهم من الخرمة محملين ببضائع مستوردة عن طريق الحـجاز. وكان الطريق قد أخذ منهم مأخذه فكانوا أكـثر إجهاداً منّا، وحذَّرهم مرشدوهم من اقتراب ما ظنوه قافلة مـغيرة، عدد أفرادها كبير بالقدر الذي لم يكن ليسمح لهم بمقـاومة ناجحة في حالة المواجهـة. لذا قرروا أن يأخذوا زمام المبـادرة ومزيّة الموقع المتـفوق، وبعد ذلك توكلوا علـى الله وقرروا أن يبيـعوا أرواحهم وبضائعهم بأعلى ثمن، وإن كان ممكناً أن يدفـعوا ثمناً للنجاة. كان إهمالنا هو الذي مكنهم من النجاح الكامل، ليجدوا ـ لفرحـتهم ـ أن أغراضنا كانت سليمة مثلهم تماماً. هذه هي هموم وأخـطار الصحراء اليومية، لقد كنّا نسـير يوماً بعد يوم متعبين كل التـعب، ولكن دوماً في حذر، ولكن قبل ساعة أو سـاعتين تلقينا إنذاراً بأن نكون على أُهبة الاستعداد، ورغماً عن ذلك كنا في اللحظة الحرجة بعيدين عن حرّاسنا، وكنا في ظروف غير هذه سندفع ثمن غلطتنا غالياً.

أخبرنا رجـال القافلة الأخرى أن الإقليم الذي يقع أمامنا في حـالة اهتياج، وأن الطريق الذي يقود إلى مكة من الخرمة لم تكن قبيلة البـقوم لتسمح باستخدام سبـيع له بأمر من الشريف. وكان الأمـير المحلي من بني ثور وهو قسم من قـبيلة سبيع لمقاومة انتـهاكات من يسعى للسيادة عليهم، ويُتوقع أن يسـتعر القتال في أي وقت. كانت هذه أنبـاء مفيـدة لنا وكافـأناهم على معلوماتهـم بأن حذّرناهم من مغـيري عتيـبة وقحطان الذين سمـعنا عنهم كثيـراً دون أن نرى إلا قليلاً منهم في الإقليم الذي كـان عليهم اجـتيازه بعـد ذلك. تركناهم صـباح اليوم التـالي وهم يتدنون قرب نارهم في ساعة باردة من الفجر وواصلنا سيرنا المتقطع فوق الرمال.

كنّا نمرّ في طريقنا بوهاد طينيـة مالحـة بعض الشيء، وبعد ثلاثة أمـيال من المخيم خرجنا من سلسلة التلال الرملية الأخيرة بالنفود لنجد أنفسنا في سهل عظيم الاتساع. كـان عرض شريط عرق سـبيع الرملي الذي قطعناه لا يتجـاوز عشرة أو اثني عشر ميلاً لمـن يقطعه عبر خط مستقيم من الشـرق إلى الغرب، بيد أننا اتبعنا طريقاً يفوق ذلك بأمـيال عديدة، إذ أننا سرنا بطول منخفض الخدود والمـنخفضات الأخرى التي لا تحـمل أسماءً. ويقال إن شريط عـرق سبيع يمتد من تـلال البقراء التي تقع على بعد حوالي ثلاثين ميلاً صوب الشمال، إلى سلسلة هضب الدواسر التي تقع بعيداً إلـى الجنوب، بطولٍ كُلي للشريط يبلغ حوالي سبـعين ميلاً، ولديّ من الأسباب التي سأفصلها لاحقاً [١] ما يجعلني أعتقد أنه يسـتمر كحاجز صُلب معترضاً الأجزاء العليا من وادي الدواسر، في اتجاه الركن الشمالي الغربي من بحر الرمل العظيم الربع الخالي. كـانت رمال عرق سـبيع تبدو لي وكأن لونهـا رمادي باهت وتتشحُ كثيراً بالسواد، لعله بسبب وجود حبيبات بازلتية.

يمر طريقنا الآن صوب الجنوب الغربي فوق سهل سبيع في اتجاه سلسلة تلال منخفضة بعيدة تتوسطها كـتلة ضخمة عالية تدعى تين، وكانت سلسلة تلال حِسَّن تقع في اتجاه جنوب الجنوب الغـربي، وبدت أيضاً رابية صغيـرة تسمى غريمد تقع بين الطرف الأيمن لسلسـلة حِسَّن وبين تين، بـينما ارتفع في اتجـاه الجنوب الجـبل البارز مزدوج القمـة: الغراميل (Gharamin)[٢]. أما ما تبقى من السـهل المتسع فقد كان عارياً إلا من سلسلة من روابٍ بازلتية منخفضة تدعى رغيلات.

كان السهل ذا سطح مـتباين التشكيل، وعندما دلفنا إليه كـانت التربة طفلية أو طينية شققـتها حرارة الشمس، ثم أفسحت المجال لشـريط منخفض من الكثبان

---

(١) راجع الجزء الثاني، ص٢٧١ . (المؤلف).

(٢) كذا ورد الاسم في النص الإنجليزي والصواب: الغراميل باللام. (المراجعون).

الرمليـة، ثم قادتنا الرمال إلـى شاطئ رملي مليء بالحـصباء، ترتفع عـنه شرائح صخـرية، ثم تحول السطح إلى سهل رحب من تربة طينيـة مشقـقة غير مـسطحة تغطيها بقايا غابة من الطرفـاء اقتلعتها السيول من جذورها وجففـتها الشمس حتى قاربت الاحـتراق. كان المكان كُلُّه مكتظاً بالنبـاتات، عرفج، وحمض، وغـضا، وشـجيـرة تشـبـه المكنسـة تدعى التنضب (Tandham)[(١)] قـريبة من القـرضى، والأعـشاب العـادية. وقد انـتشـرت في أحد المواقع كـتلٌ من بناء قـديم مدفـون لمجموعة من الآبار المنسية التي لا اسم لهـا. وبعد هذا الموقع بثلاثة أميال أو أربعة توقفنا بإزاء أقصـى روابي رغيلات من جهة الجنوب، في رقـعة من السنط. ويقع على بعد ميلٍ واحد غرب هذه البقعـة رقعة داكنة من النباتات تحد الطرف الشرقي من أخدود وادي سبيع وتسمى ظلماء بسـبب النباتات الكثيفة التي تغطي المهد من هذا الجانب إلى ذاك. من هنا تُصَـرَّف المياه التي تأتي من جـبال عسيـر في موسم الأمطار نحو السـهل، الذي يبقى سطحه المجـعّد وشجـيراته المقتلعـة من الجذور شواهد على مرور السيل الذي يتكئ في السنوات الاستثنائيـة التي ينهمر فيها المطر بغزارة، على حاجـز عرق، وقد يخترق حـدوده متجهاً نحـو المنحدرات التي كان طريقنا يجري عليها.

بعد مسيرة ثلاثة أميال بلغنا أثراً من آثار الماضي، حصناً مهجوراً منذ زمان، وهو حصن القنصلية الآيل للسقوط، والذي يعود تاريخه إلى أيام الدولة السعودية الأولى، إذ كان حينهـا معقلاً لحـراسة الطريق بين عاصمة سـعود الكبير وأقـاليمه البعـيدة: مكة، والطائف. ولم يبق من الحـصن سوى هيكل لحـوائط دون أسقف يتوسط مقبـرة تقليدية صغيرة، ولعلها مـقبرة حديثة العهد نوعـاً ما لدفن الحجاج

(١) كذا ورد الاسم في الأصل الإنجليزي ولعل المقصود التنضب كما هو مـثبت. وهي شجرة كبيرة تنبت في الأودية، وهي غير منتشرة. (المراجعون).

الذين يختطف أرواحهم مَلَك الموت وهم في طريقهم إلى مكة. وكانت هناك أيضاً مجموعـة من سبعة آبار تمّ حفرها لعـمق خمسة وعشرين قدمـاً في تربة صخرية عارية، ولم تكن الآبار مبطـنة، وكانت تحتوي على كمـيات وافرة من الماء، رغم أنها كـانت مالحـة بعض الشيء. تجدون هنا الدعـوة للنزول من أجل سقـيا الإبل وملء القرب من البئر الوحيدة التي اشتُهرت بعذوبة نسبية في مياهها. حلَّقت فوق رؤوسنا أسرابٌ من طائـر طهيوج الرمـال (يشبه الدجـاج)، وبقيت الصـقور التي أزعجها اقترابنا بعيداً فانتظرت في صبر حتى نخلي لها المكان، كما شوهدت الظباء التي نجت من كل محاولاتنا الفاشلة لاصطيادها منذ أن بدأنا الرحلة.

واصلنا مسيرنا على بعدٍ يسيـر وبمحاذاة أخدود وادي سبيع الذي سمقت من خلفه قمّـة جبل برام المخروطية في خضم السـهل المقفر. وبينما كنا نتـقدم كانت الأرض تزداد وعورة وتموجـاً مع غطاء كثـيف من الطرفاء التـي اقتلعت بكثـافة، ويتمـيز هذا الطريق الذي يُقال إنه يمتـد دون انقطاع نحو الغرب في اتجاه الجـبال، يتميـز دون بقية السهل باسم الطرفاء. ولاحت لنا في الأفق الآن كـتل حمم حرّة النواصف البركانية، وكانت صورتها الجانبيـة كما رأيناها من موقع مخيمنا تمتد في إطار ٤٠ درجة من البوصلة من الجنوب إلى الجنوب الغربي.

كان اليـوم التالي من أيام الإجهاد والمشـقّة؛ وقد انقضت سـتة أيام لم نذق فيها سـوى الأرز والتمر. وجاء التنويع في مناسبـتين فقط باصطياد أرنب بري في كل حالة. فاتفقنا جميعاً على بلوغ الخرمة قبل حلول الظلام، وزاد الأمر سوءاً أن الذلول التي تقلُّني أصابها حجـر صوان في خُفها بعد ظهر اليوم السـابق فأعطبها. وسببت لي مشيتها العرجـاء، إضافة لإجهاد عدد من الأيام المتصلة، ألماً شعرت به في كل أجـزاء جسـمي، وفي هذه الظروف اضطررت لامـتطاء ذلول ـ كنت قـد

رفضتها من قبل في الأيام الأولى للرحلة لخشونة سيرها ـ وذلك استعداداً في ذلك النهار لمسيرة متصلة لإحدى عشرة ساعة ونصف الساعة، دون توقف إلا لمرَّة واحدةٍ استغرقت نصف الساعة. وكان تعبي وألمي يزداد مع كل خطوة حتى بلغتُ عند وصولنا لغايتنا من الإجهاد منتهاه.

ما بَرِحَ مسارنا موازياً لوادي سبيع ولكنه صار يتباعد عنه شيئاً فشيئاً ببطء شديد. وكانت الأرض التي سرنا عليها وعرة مرتفعة ذات تموج لطيف، وتكسوها الحصباء التي تتخللها جداول من الحجارة السوداء والصخور الساقطة من حرة النواصفَ. ويقاطعها ـ في اتجاه الجنوب الشرقي، نحو تلال حصان والغراميل ـ فرعان عريضان من وادي سبيع يسمونهما، على التوالي: وادي مقسان وشعيب حذاق، والمسافة بينهما ميلان وتغطيهما بكثافة شجيرات السنط ورقاع متفرقة من الطرفاء. لم يكن من شيء يكسر رتابة المشهد سوى المنظر البعيد لسلسلة جبال حرة النواصف السوداء، التي كانت أعلى قممها تبدو أكثر دكانة كلما اقتربنا منها، وكان أحسن مشهد لها هو الذي رأيناه عندما توقفنا في منتصف النهار في حوض مقسان، وكانت أعلى قمم السلسلة ـ مرتبةً من الجنوب للشمال ـ هي قوس والصفيراء والخال، والتي تقع فيها بلاشك منابع وادي سبيع.

كانت الذلول التي تركتها والتي تمت تغطية خفها بصوف خشن بعد انتزاع الحجر منه، قد خصصت لسعد الذي لم يُخفِ المشقة التي يلقاها من سيرها فتأخر خلفنا، ولم تكن مطيتي بخيرٍ من تلك فانضممت إليه في المؤخرة، ولكن إبراهيم لم يشأ أن يتركنا بمفردنا في ذلك الألم، لذا كان يتوقف بين الحين والآخر منتظراً قدومنا، وكان يُصِرُّ ـ بكل ما في العالم من حسن النيَّة ـ أن يحث ذلولي للخبب، أو يحدث أصواتاً بلسانه لتشجيعها دون مراعاة لراحتي. وقد اعترضت كثيراً دون

جدوى، إذ أنه لم يفهم قط سبب اعتراضي، فوطنت العزم على تحمل نتائج عرضه لخدماته، مجاهداً النفس رغم تزايد ضيقي لأُظهر الاحترام والود لقائد مسيرتنا، لكنني أخبرت سعداً في الأوقات التي كنا نبقى فيها منفردين شيئاً عن شعوري لعلمي أنه صديق حميم ومرافق مرح لمعذِّبي، متوسلاً إليه أن يتدخل لئلا اضطر إلى أخذ الأمور بيدي. وكانت سحنة إبراهيم الداكنة تنم عن الدماء السوداء التي تجزرت في أرومته التي انحدر منها، ولكنه كان مع هذا وسيمًا جداً بالنسبة للعرب وكان فخوراً بدرجة غير عادية بخصل شعره المدهونة المجدولة التي كانت في لون الغراب الأسحم، ولكنه كان مثالاً لخيلاء الرؤوس الخالية، وكان ذا فسق فج. ولم يكن حديثه يقل دعارةً وفسوقاً عن حديث طامي وبعض الآخرين، لكنه لم يكن ليُجمله بلمحةٍ من طرافة أو ذكاء.

كانت طباعه في الوجبات مقززة مُنفرة، وبقدر ما كنت أتحاشى الجلوس إلى جانبه، كنت أجده طوال الوقت جالساً بجانبي، وعندما كنت آوى إلى خيمتي كل ليلة لأقرأ أو لأكتب كان يتطفل عليّ ويغلق مدخل الخيمة بسحب مصراعيه ليجلس للتدخين سراً، وكان الخوف من اكتشاف زملائه له يلاحقه طوال الوقت، وكان ينفث الدخان إلى الخارج من أعماق رئتيه مُدعياً الاستمتاع وملحقاً إياها بالبصق، وفي الوجبات كان يصرُّ على إطعامي، وعند امتطائي للدابة يصرُّ على مساعدتي، وفي الحالة الوحيدة التي كان يمكنه أن يساعدني فيها بطريقة مفيدة، أعني في تهدئة احتجاجات الرفاق المطالبين بسير أكثر راحة، كان على الدوام يقف في صف المجموعة، وكان يصفق استحساناً كلما أبديت تعليقاً، وعندما كنت أنتزع نفسي من جواره لأدخل في حديث مع آخرين كان ينضم إلى مجموعتنا في لحظة ويحتكر الحديث. وإزاء كل هذه المحن التي استمرت خلال الأسبوعين الماضيين دربت نفسي على التحمُّل في صمت لوجوده المتخلل المتصل، لأنه كان

الأمير الذي عينه ابن سعود للرحلة، وحتى هذا اليوم الأخير من مسيرنا للخرمة التزمت الهدوء رغم أن كأس الكربِ والمضايقة كان قد أوشك أن يفيض.

في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر رأينا قرية السلمية مختبئة بين نخيلها والطرفاء في مهد الوادي عن يميننا، بينما ظهرت داكنة أمامنا على البعد نخيل الخرمة. وبدا حصن كتزان الخَرِب بين القريتين على ربوةٍ على الجانب الأيسر للوادي، كان هذا القصر في أوقات خلت في حيازة فرع بني عامر من قبيلة سبيع قبل أن ينافسهم على المنطقة بنو ثور، ومنذ ذلك الزمان البعيد وحتى الوقت الحالي فإنهم أقاموا في الخرج حيث أنشأوا هجرة للإخوان في الضبيعة التي زرتها لاحقاً، كما ذهبوا إلى شرق نجد.

وصلنا الآن المجرى العريض لوادي سبيع الذي تتبعناه بطول جانبه الأيمن المرتفع بينما كان الأثل والنخيل يحد مجرى الوادي عن يميننا. وبعد حوالي نصف ميل قطعنا الوادي على نحو مائل، وبعبورنا مهد السيول الذي تغطيه رمال بيضاء عميقة، دخلنا حزام النخيل الرئيس. وقد كوّنت جذوع النخيل الكثيفة مع سعفها الأخضر المتشابك طريقاً مظللاً، وتابعنا مساره المتعرج لبعض الوقت حتى خرجنا إلى فضاء مكشوف، به بعض رقاع مربعة صغيرة عبقرية الخضرة، نباتات صغيرة من الحبوب والبرسيم، وفي وسطها كانت هناك قرية لا شكل لها، تناثرت بيوتها في غير ما اتساق، تلك كانت قرية الخرمة نفسها.

تجمع حولنا أطفال القرية إضافةٍ لرجل عاطل أو اثنين، بينما كانت النساء يختلسن النظر بخجل من الطرق الجانبية ونحن نعبر من طريق خارجي لخلاء يقع في الجزء الشمالي من القرية حيث أنخنا الرواحل ونصبنا الخيام في فضاء مثلث الأبعاد يقع بين ساحتيّ دارين أمام جمهور متزايد باستمرار من النظارة المتعجبين. كانت الشمس قد أوشكت على المغيب بينما كان يلازمنا طوال الوقت الفضوليون،

ولم يكن لدي سوى القليل من الوقت للتجول ولفحص الشكل الخارجي للقرية وما يحيط بها قبل أن يحلّ الظلام ليمحو كل المعالم إلى الأبد، إذ أننا كنا في طريقنا خارج القرية في اليوم التالي قبل أن ينقشع اللمعان المعدني للفجر الكاذب مفسحاً المجال للضوء الخافت الذي يعين بداية اليوم. وقد جعلتني أحداث السنة اللاحقة أندم بمرارة أن الظروف لم تكن مواتية لتسمح بإقامة أطول وفحص أكثر لهذا الموقع الذي لا يبدو ذا أهمية ليكون له ذلك الدوي المصيري في تحديد مسار التاريخ، لعله يكون المقبرة للرمز (اليوطوبي) الخيالي للوحدة العربية، أو لعله، من يدري، يكون الوتد الذي سيُطرق عليه الرمز ليتحول إلى حقيقة. الخرمة الواحة الصغيرة في الصحراء التي لم ترها عيون أوربية سوى مرة واحدة على مر الحقب والدهور سُمع اسمها أثناء شهور صيف ١٩١٨م في أروقة ومباني الحكومة البريطانية البعيدة. وحلّ العام الجديد والسماء ملبّدة بغيوم المعركة الفاصلة المشابهة لمعارك القرون الوسطى، وكان يُحرك الفرق المتحاربة الحديثة كما كان يفعل في الأزمان السحيقة الطموح السياسي. وكانت هذه الفرق المتحاربة تنظم صفوف القوات استعداداً لمعركة في وادي سبيع.

إن مجريات الصراع بين الشريف من جانب وجيش ابن سعود من جانب آخر يقع خارج إطار هذه الأجزاء، إذ أن الاصطدام المسلح الأول لم يحدث قبل شهر يونيو (حزيران) من العام التالي لتنتج عنه هزيمة القوات الشريفية التي أرسلت لاستعادة سلطة الشريف على الواحات المتمردة، ويكفي هنا أن نشير إلى أن هذه المصادمة الأولى قد تبعتها في الشهور الأخيرة من الحرب الكبرى مصادمتين شبيهتين أديتا إلى نتائج مشابهة، وتفاقمت المشكلة وازدادت حدة رغماً عن محاولات الحكومة البريطانية للتدخل بين الجانبين، حتى حُسم الصراع في مايو (آيار) ١٩١٩م في معركة عظيمة دارت أحداثها في ظلمة الليل، ليس في الخرمة

ولكن في تربة وكانت نتيجتها نصراً حاسمًا ساحقًا للسعوديين الذين فاجأوا معسكر الأعداء أثناء نومهم، وهزموهم وغنموا كل ما وجدوه من بنادق وذخائر ومعدات. وهرب عبدالله، ابن الملك وقائد الحملة في ملابس نومه في جماعة صغيرة من مرافقيه، مخلِّفاً وراءه ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ من جنوده قتلى في أرض المعركة. وقد أثارت أنباء هذه الهزيمة الذعر في الطائف التي هجرها أهلها وقد أخذ الهلع منهم كل مأخذ أمام الهجوم المتجه صوبهم. وهربوا جميعاً عدا ـ هكذا تمضي الرواية ـ امرأة مُسِنَّة من عائلة الشريف بقيت في قصرها معلنةً أنها تعرف ما يكفي عن سجل ابن سعود مما يجعلها لا تتوقع سوى المعاملة الكريمة على يديه. وفي حقيقة الأمر لم يتابع ابن سعود انتصاراته، وتركت عودته للرياض مسألة الخرمة كمصدرٍ متوقع للاضطرابات في مستقبل الجزيرة العربية، رغم أنه وحتى هذه اللحظة قد اكتسب مزيّة ما انفكَّ متمتعاً بها، ليس فقط سيطرته على الخرمة بل لواحة البقوم التابعة لتربة أيضاً.

ندمت لأسباب متعلقة بالمسح الجغرافي أنني لم أتمكن من الكشف عن الأجزاء العليا من الوادي ولكن عندما تركت الخرمة كنت قد خططت أن تكون عودتي من الطائف عن طريق مجريي تربة ورنية، وذلك لإزالة الغموض عن مصدر ومسار، ليس فقط وادي سبيع، ولكن مجريي تربة ورنية أيضاً، ولكن أُحبطت خطتي لأسباب خارجة عن إرادتي، ولا أستطيع والحال هذه، إلا أن أستقي حقائق الوصف الجغرافي لهذه الممرات من واقع ما رأيت أثناء رحلة الذهاب. تطلعنا من الخرمة من خلال كتل حرّة المكونة للنواصف فَبَدَتْ لنا قمم أبو شداد ورايان، إضافة لتلك القمم التي بدت لنا من قبل، بينما التقى بها من الشمال خط سلسلة جبال حضن الباهت البعيد مكوناً زاوية تقع فيها ـ كما بلغني ـ قرية دوحة تربة على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب الغربي من الخرمة، وهي ـ في

تقديري ـ تقع كالأخيرة في مهد وادي سبيع[١] في الموقع الذي يدخل فيها الوادي إلى السهل من كتل الحرة التي ينحدر منها، إن كان هذا صحيحاً فيتبع ذلك أن الوادي لابد أن ينحدر هبوطاً في اتجاه الشمال الشرقي لمسافة عشرين ميلاً أو أكثر ليبلغ القرية المهدمة والواحة المهجورة التي تسمى غارية الواقعة في النقطة التي يفترق فيها فرع شعيب شعبه العام عن المجرى الرئيس. ويستمر هذا الأخير مباشرة نحو الخرمة التي تنتشر قريتها وبيوتها الريفية المبعثرة أعلى وأسفل مهد المجرى لمسافة قد تبلغ أربعة أميال، ومن ثمّ ينحدر المجرى إلى الشمال قليلاً في اتجاه الشرق مجتازاً حصن كنزان وقرية السلمية الصغيرة التي ذكرناها آنفاً، ليخرج في النهاية عند غيضة ظلماء، ماراً في طريقه بمجموعة آبار وتّع، والحنّو، والشظو، والحجيف، ويريدة، وحنفا الواقعة على هضبة برام.

إن التسمية المحلية بما يميزها من دقة وتفاصيل فهي في نظري ضبابية، وهي تقسم مجرى الوادي إلى ثلاثة أقسام تُعرف بأسماء وادي تربة ووادي الخرمة ووادي سبيع، وهذان الأخيران في حقيقة الأمر وادٍ واحد، ورغم أننا لا ينبغي أن نهمل احتمال أنَّ مجرى تربة مختلف عن مجرى سبيع، واحتمال أنه قد يكون المجرى الأعلى أو أن يكون فرعاً لوادي رنية، إلا أن الأرجح في رأيي أن مجرى تربة لا يعدو أن يكون الجزء الأعلى من وادي سبيع. أما وادي رنية[٢] الذي تقع واحته ـ إن كانت معلوماتي صحيحة ـ على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب من القنصلية، ويكفي هنا أن نقول إنه يرتفع بالتأكيد ـ كما هو الحال مع وادي سبيع ـ إلى طيات حرَّة النواصف، ويلتقي في النهاية مع أودية بيشة وتثليث ليكوّنوا وادي الدواسر العظيم.

(١) تعرف الأجزاء العليا من الوادي باسم وادي تربة. (المؤلف).
(٢) راجع الجزء الثاني ص٣٠٣ . (المؤلف).

كانت قرية الخرمة تقع بكاملها في مهد الوادي ولكن على شريط من الأرض يرتفع قليلاً عن مجرى السيول، وتتكون من عدد من مجموعات غير مسوّرة من المنازل الطينية، وكانت المجموعات مبعثرة في غير ما اتساق، والمنازل شبيهة بالمنازل المعتادة في نجد كلها، ولكن كانت توجد هنا وهناك منازل من طابقين ذات مظهر يبز ما عداها حسناً، وتريح النظر قليلاً من وضاعة المكان، وتنم عن وجود بعض الذين اعتادوا السكن في منازل أفخر ـ بقدر ما ـ من تلك التي توفرها قرى الصحراء. ولقد ثبتت صِحة هذا الافتراض إذ أن القرية كانت تضمّ فئة قليلة، ستين أو سبعين من التجار المغامرين من شقراء وعنيزة ومواضع أخرى من نجد اتخذوا من الخرمة مركزاً لأعمالهم ولتصريف بضائعهم التي يحملونها في تجارتهم بين نجد ومكة. إن الأوضاع غير المستقرة للإقليم الواقع بين حدود الحجاز وقرى أقاليم نجد عاقت ولاتزال تعوق فكرة أن تكون هذه التجارة كبيرة في حجمها، ثم إن الحصار الذي يفرضه الشريف على القرية لابد أنه قد جعل الوضع أكثر اضطراباً من السابق، ولكن يمكننا أن نفترض أن هؤلاء التجار الأجانب يحتكرون في الأحوال العادية التعاملات التجارية المحلية إذ يشترون السمن والمنتجات البدوية الرعوية الأخرى لبيعها في أسواق مكة، ويبيعون للرعاة وللقرويين البن والسكر والأقمشة وبضائع أخرى يجلبونها من الساحل. أما التعامل التجاري مع نجد التي تستمد تمويناتها العادية من الساحل الشرقي بصفة أساسية فلابد أنه ذو طبيعة متقطعة، رغم أن تجار الخرمة يتاجرون دون شك في جرار ماء زمزم، وهي رغم أن لا حاجة لها في نجد نفسها، إلا أن الحاجة لها في الأحساء عظيمة جداً.

أما بقية السكان فإن الدائمين منهم يبلغ عددهم ٤٠٠٠ نسمة، رغم أن هذا العدد ـ كما أكّد لي الجميع ـ يرتفع إلى ١٠,٠٠٠ عند حضور البدو للموسم السنوي؛ صرام التمر. وبالقرية عناصر من الأشراف لا يتعدون مئتي فرد، إضافة

لرجال قبيلة سبيع شبه المستقرين والعبيد المحررين الذين ما عادوا أرقاء رغم أنهم مازالوا يُسمون عبيداً. وعلى هؤلاء يقع عبء فلاحة الأرض التي يسلمون نصف حصادها لأصحاب الحقول والبساتين من الأشراف أو من قبيلة سبيع، ويُسمى من يفلح الأرض الكدّاد. وأفراد قبيلة سبيع هنا هم في الغالب من فخذ بني ثور، بينما الأشراف الذين استقروا هنا منذ أمدٍ بعيد ـ كما فعلوا في تربة ـ يتمتعون بحق وراثي للسيطرة على المجتمع كله. ويتجول البدو طوال العام في معية قطعانهم في سهل سبيع وفي رمال عروق سبيع وسهل الشفاء الفسيح ليبلغوا وادي النعيم البعيد، ولكنهم يزورون قريتهم حوالي بداية شهر رمضان(١) ويبقون هناك حتى نهاية موسم جذاذ (صرام) التمر.

أمير القرية في الوقت الراهن هو خالد بن منصور بن لؤي، سليل عائلة الأشراف القيادية، خَلَفَ عمه أو ابن عمه الأول غالب بعد وفاته لأربع سنوات خلت، ولقد جلب على نفسه غضب الشريف فيما يبدو، في صيف عام ١٩١٧م لأسباب أجهلها، وزُج به في السجن بمكة، وبعدها أطلق سراحه بعد توسط من الشريف عبدالله الذي بقي معه خالد منذ ذلك الوقت ـ أو على أقل تقدير حتى وقت قريب ـ في حصار المدينة، ولا أستطيع أن أجزم(٢) إن كان حتى وقتها في صحبة الأمير عبدالله، عند زيارتي للخرمة، لكنه بكل تأكيد لم يكن في الخرمة التي كان أخوه سيف قائماً فيها بأعباء الأمير، أو على الأقل كان قائماً بها حتى شنَّ حملته بمؤازرة بني ثور ضد قوات البقوم التي كان يقودها أمير تربة.

---

(١) وهذا يعني أنه عندما يحل شهر الصيام في نهاية الصيف، فإنهم يبقون لفترة الشتاء والربيع في الأراضي الرعوية حيث يكون الماء متوافراً في الصحراء. (المؤلف).

(٢) كان قد قام بزيارة الرياض في حوالي ذلك الوقت، ويبدو أنه بعد أن هجر عبدالله في الشهور الأخيرة من السنة، جاء إلى ابن سعود ليلتمس عونه في الصراع الذي أوشك أن يُفرض عليه من قبل الشريف، أو الذي بدأ حقيقةً بتهديدات البقوم التي ترك لها أخاه حارساً للقرية في غيابه. (المؤلف).

ثبت أن المعلومات التي استقيناها من تجار شقـراء كانت صحيحة، لقد هجر القرية تقـريباً كل الرجال الأقـوياء باستثناء الـقليل من التجار، وكـان الجمع الذي تجمهر ليطـلع إلينا مكونا بصفة رئيسة من الأطفال في الواجـهة ومن النساء اللائي كنَّ يختلسن النظرات الحيـيَّة بكل الفضول الكامن في عنصـر النساء، من خلفهم. كانت احتياجاتنا المتـمثلة في تأمين العلف والغذاء قد وفرها النايب، وَدَنا منّا قليلٌ من التجار بحـثاً عن أخبار عن مـواطنهم الأصلية البعيـدة. كان أحد هؤلاء رجل أسفار، خدم ـ فـيما يبدو ـ الحكومة التركيـة في سوريا أو في طريق الحج كجندي وفقـاً لروايته، ولكن على الأرجح كـحارس حج، وكـان قد عاد لـتوه من زيارة للرياض سمع فيـها احتمال وصـول زوار إنجليز، لذا لم يُخفِ هذا الرجل تشكُّكه من هويتي، بيد أن هذا الأمر ـ ولدهشتي ـ أعاق فـضول القرويين الآخرين، رغماً عن تداول تساؤلات حيَّة حول طبيعة ومهمة وكيل ابن سعود ـ إذ كنت أدَّعي هذه الصفـة ـ الذي يمتطي ذلولاً يزين سرجهـا غطاء مزركش ذو بهاء وجـمال. ولكن إبراهيم رتّب الأمر مع الرجل بحيث يُبقي شـكوكه لنفسه حتى نغادر المكان.

كان التأديب الذاتي الذي اسـتمر طويلاً بتناول وجبات متـواضعة، قد انقطع في تلك الأمـسية بتناولنـا لوليمة دسـمة تتكون من فـخذ جـزور ضخم مع الأرز والخضراوات التي حصلنا عليهـا من بساتين البلدة. لقد كان الحظ حليفنا إذ وصلنا في يوم توفّر فيه اللحم لدى القصابين. إذ لا يمكن في غيـاب البدو الحصول على الضـأن والماعز. ويقنـع القـرويون الباقـون بالقـرية بما يحصلون عليـه من لحم في الأحيان التـي ينحر فيها جـمل. كان لحم الإبل الذي تذوقته الآن لأول مـرة خشناً وعسير المضغ ولكن لا بأس به، ولـم يكن يختلف كثيراً عن لحم البقر الرديء.

صرنا الآن على بعد أميال قليلة من الحدود الغربيـة للأراض السعودية[1]، على ارتفـاع ٣٦٥٠ قدمـاً فوق سطح البـحر، على بعـد حوالي ٤٠٠ مـيل عن الرياض. سندخل غـداً حدود الأراضي المقـدسة الحـجازية، الميـاه في الخرمـة[2] متوافرة على عمق أقدام قليلة في الأراضي الزراعية المرتفعة، ويمكن الحصول عليها في أي مكان من المهـد الأصلي لمجرى السـيول بحفـر بوصات قليلة فـي الرمال، وكانت الميـاه ممتازة في جودتهـا، بنفس القدر من العذوبة الـتي تجدها في الطريق الذي قطعناه ابتداءً من الساحل الـشرقي. هبطت درجة الحرارة التي كانت مسـتقرة لأيام خلت حول متوسط بلغ ٥٥ْ فهـرنهايت، أو أعلى بقليل عن ساعات البرودة التي تسبق الفجر، هبطت فجأة في سـهل الطرف المعتم لتصل إلى ٤١ْ في الساعة الرابعة عـصراً. لكن الانخفـاض كان مؤقـتاً وكان ناتجـاً عن هبوب ريح شمـالية حادّة، ولكن خلال اليومين التاليين عادت درجة الحرارة إلى معدلاتها الطبيعية.

---

(١) هذا التحديد قبل ضم الملك عبدالعزيز الحجاز وتوحيد البلاد. (المراجعون).

(٢) يبدو أن سيلاً عظـيماً قد غمر الوادي قبل حـرب تربة (آيار ١٩١٩م) بقليل، ونتيجة لهذا فـإن مساحات كبيرة من المجـاري احتفظت بعمق لا بأس به من الماء لبعض الوقت. ولقد قـيل لي إن أسماكاً من بعض الأحجام قد وُجدت حقيقة هناك. (المؤلف).

الفصل الخامس

الأرض المقدسة

١ ـ السهل الشرقي والتلال السطحيّة

تعرف الأرض الواقعة بين الجانب الأيسر لوادي سبيع وشعيب شعبة باسم الطرف؛ وهو نسخة مطابقة للطرف في الجانب الآخر للوادي، ويمتد بعرض ستة أميال صوب الغرب في اتجاه مسارنا، بدأت كتل النواصف السوداء تبتعد تدريجياً عن مرمى أبصارنا من خلفنا، بينما كانت سلسلة حضن تلوح في الأفق أمامنا، متعاظمة كلما جد بنا المسير.

«اذكر الله» صاح زميع التَّقي عندما قادنا هابطاً بنا المنحدر نحو شعيب شعبة وكان كلٌّ من الآخرين حين يعبر الحدود ينزع عنه طيشه المعتاد وتتشح سحنته بمظهر جاد وهو يذكر اسم الله. كان مهد الشعيب عريضاً، تفصل ثلاثة أميال بين جانبيه المنخفضين وكانت تكسوه بكثافة شجيرات السنط، كان هذا الشعيب هو الحد المتعارف عليه بين قبيلتي سبيع والبقوم، رغم أن هذا الأمر مازال محل نزاع بين الحجاز ونجد. ومنذ أن بدأنا رحلتنا حتى بلوغنا هذا الموقع كنا نسير في تخوم قبائل تخضع لسطوة ابن سعود التي لا تُنازع، ولكن بعد هذا الموقع سندخل أقاليم أجنبية، وبما أننا غرباء أتينا من إقليم يخضع للحصار فسنكون عرضة للإعاقة إن وقعنا في أيدي حراس الطرق الذين كان علينا أن نتجنبهم ببذل أقصى ما في وسعنا. لذلك تحركنا بحذر وبنادقنا مشرعة استعداداً للاستخدام الفوري ونحن نشق طريقنا عبر مسار كثيف الأشجار.

اتضح أن مجرى شعبة الذي ينبثق كما أسلفنا من وادي سبيع عند المستوطنة المهجورة القرية هو مجرى مائي ليس قليل الأهمية لمن يضطلع بمشروع وصف المياه في الجزيرة العربية، إذ أنه آخر الروافد من الناحية الجنوبية للنظام الصرفي الشمالي الشرقي العظيم الذي يُكوِّن عقبة ووادي الرمة. أما الجانب الأيمن لمجرى شعبة فإنه يشكل الحد الفاصل بين ذلك النظام الصرفي وبين بقعة حيادية ـ إن جاز لنا أن

نستخدم هذا النعت لنشير إلى منطقة ليس بها مخرج صرفي، ولذا تُضطرُّ للتخلص من مياهها السطحية بالامتصاص ـ متدخلاً كحاجز هائل بينه وبين النظام الصرفي الجنوبي الشرقي الذي لا يقل عنه أهمية، والذي يُحيط بجبال عسير ومرتفعات نجد وإقليم الدواسر والجزء الجنوبي من حاجز طويق وإقليمي الأفلاج والخرج. وتتمُّ تغذية شعبة بعدد من المجاري المائية التي تصرف مياه الجانب الشرقي لسلسلة حضن ثم يتجه في النهاية نحو شعيب جارين، ومن ثمَّ يتجه عن طريق وادي المياه ـ وكلاهما ينحدر من الطرف الشمالي لسلسلة جبال نجد وجبل النير نحو وادي الرمة إلى الغرب من حدود القصيم. ولكن هل تُضيف هذه القناة في حقيقة الأمر لحجم سيول الرمة في أي من السنوات التي لا تكون أمطارها غزيرة بصفة غير طبيعية؟. هذا أمرٌ مشكوك فيه، إذ أنه بمقارنة قاع هذا الوادي الصغير مع قاع وادي سبيع في الخرمة، فإن الأخير ـ في الظروف الراهنة ـ يحمل النصيب الأعظم من السيول التي تنحدر عن حرّة من خلال المجرى العريض في وسط سهل سبيع نحو رمال عرق دون أن يخلف وراءه سوى مجرى هزيل يسيل بطيئاً هابطاً منحدرات شعبة الضيقة ليحيي فقط الأيكات التي تقع في مراقيه.

دلفنا الآن إلى سهل لطيف التموّج يسمّى الشرقي، ويمتد من الجانب الأيسر لشعيب شَعبة حتى سفح سلسلة حضن، وتقاطعه ـ بعد فواصل ـ في اتجاه الشمال الشرقي ثلاث مجارٍ مائية عظيمة هي أظعان، وعكتان، وقرينات، وكلها تسيل عبر منحدرات في سلسلة جبال حضن لتصبَّ في القناة الأساسية. وتتعاقب في هذه المنطقة التلال المكوّنة من البازلت الخشن مع امتدادات من الحصى الأسود الفاحم وَخَبَث البراكين، وتلطفها أشرطة عريضة من شجيرات السنط التي تحدُّ جوانب القنوات.

صاح قادتنا فجـأة: «إلى الوراء، إلى الوراء، اهبطوا إلى أسفل التجويف». لاحت أشكال غريبـة أوضحها على البعـد السراب الذي كان يضيئ بـوهن القفار السوداء. قال أحـدهم: «انظروا هناك قوم، مئات منهم!»، ومـددت نظّارة الميدان إلى آخر: «إي بالله! قـوم! لم يرونا، ويسيـرون في طريقهم»، وأكد لنا الأخـبار السيئة آخـر، وقال: «انظر لقد توقفوا، لقد رأونا، اهبطوا واتجـهوا إلى اليمين في التجويف». سرنا للأمام مفارقين للطريق بينمـا أبقى مرشدونا الجماعة تحت المراقبة وهم يتبعـون كِفاف المنحدر. وتوقـفنا مرّة أخرى لنتبينهـم، وبدا لي الأمر وكأنهم خط طويل من الإبل يسيرون بطول سلسلة تلال منخفضة. قال زميع بحزمٍ وفرح: «هؤلاء ليســوا قوم عرب يروون الما». كان البـعض لايزال يصرُّ على رأيه الأول، لكنهم أقروا أن هذه الجماعة مهما كان كنهها ـ فإنهم كانوا يسيرون بعيداً عنّا. يبدو أنهم لم يرونا، وإن فـعلوا فإنهم يحاولون تجنُّبنـا. كان الأمر كـما يُرام. وواصلنا سيرنا. بعد ساعة عبرنا أرضاً بها آثار حديثة لإبل ترعى وفي طريقها لمراع جديدة. لقد كانـت مخاوفنا غير ذات أســاس، وأثار فضولي الفـرق بين «قوم» و«عرب»: الاسم الأخـير يُطلق فـقط على الرعاة المسـالمين وعلى البدو في دورهم أو عنـدما تثقـلهم معوقـات كالأمـتعـة والمؤن وغيـرها، وبعبارة أخـرى، تطلق عامـة على التجمـعات التي لا يخشى منها الضرر. أمـا «القوم» باستثناء مـعناها اللغوي فهي تُستخدم بتـساهل «للغزو» أو أي جماعة مغيـرة، وهذه الجماعات تؤدي هذا الدور عادة دون أن تحمـل أثقالاً، متأهبـة للانقضاض. اختلطت آثار صـغار الإبل وآثار قليل من الخيول مع الآثار الثقيلة للأبقار الضـخمة الحلوب، لقد مروا من هنا قبل ساعـة أو نحوهـا، وكُتبـت قصتـهم هنا على السـهل ليقـرأها كلٌّ من يمرُّ بذلك الطريق.

توقفنا في منتصف النهار في شعيب أظعـان، وكانت تحيط بالموقع مجموعة من تلال صخرية منخفضة تغطي الرمـال أجزاءً منها، كان تل أظعان قريباً منا إلى جهة اليمين، ومن خلفه في اتجاه الشمـال تلال الثويري والحزم الأحمر. مررنا بعد مسافة برابيـة إلى اليمين تسمى ساق وبعدها عكتـان؛ ومن هناك واصلنا سيرنا في اتجاه حـضن الذي كان يدنو مِنّا طوال الوقت، وتوقـفنا لفترة وجـيزة قبل مـغيب الشمس على بعد بعض الأمـيال إلى الشرق منه، في مهد شعـيب قرينات، وبينما كانت الخيام تُنصب خرج مرشدونا لتفـقد المكان من فوق الصخور والتلال المحيطة بنا. وقد صـحبتُ أنا إحدى هذه المجمـوعات إلى تل منخفض حـيث رقدنا على وجوهنا لئلا ينكشـف أمرنا، وتابعنا تحرك مجمـوعة صغيرة يتـجولون في الأنحاء على البعـد مستخدمـين النظارات. كان هناك خمسـة على الإبل يقودون ثلاثة من الخيل، وهم بلا شك مرشدو جماعةٍ مغـيرة يتتبعون خطى الإبل التي كانت ترعى والتي مررنا بهـا أثناء النهار. قد تكون جمـاعة النهار من قبيلة سـبيع في حين أنَّ هذه المجموعة من البقوم، وهي لم تكن ـ بالتأكـيد ـ تشتبه في وجودنا في الأنحاء ولم تعرف أنها أثارت اهتمامنا. وهـم على الأرجح لن يقعوا على آثارنا قبل حلول الليل، لذا عدنا إلى المخيم آملين ألا يقطعوا علينا مصادفة. كان زميع حارسنا الآن وقائدنا يعلن كلمة سر الصحراء، ولم يعكر صفونا شيء.

شهـد اليوم تبادل المطـايا؛ كنت قد بدأت اليوم وأنا على ظـهر الذلول التي كنت أعلوها في اليـوم السـابق، ولكن المشقـة التي أعـانيهـا أصبـحت واضحـة للجميع، بحيث اتفقوا جميعهم على التغيير، خاصة أن التأخر وراء الركب أصبح غير محتمل في ظل الظروف التي تغـيرت. وتنازل لي طامي عن مطيته، وجربت لأول مرة متـعة ركوب ذلول مثاليـة. لم يكن في حمرا ـ وهذا اسمـها المشتق من

لون جلدها الرملي القاتم ـ عيب أو شائبة. كـانت الوحيدة ـ وقد دربها طامي منذ صغرها ـ التي تستجيـب لمناداتها باسمها، كانت الهمسة فقط كافـية لتجعلها تلوي عنقها لتأخـذ طعاماً من يد راكبها، وكان كل الطعام سـواء لديها، حزمة تبن، أو كومة من تمر أو شـريحة من خبز أو حـتى كتلة من لحم الإبل البارد. كـان سيرها مثاليـاً ومبهجـاً إن مشت أو عَدَت، وكان اليـوم بالنسبة لي يوماً وصل غـايته في المتعـة، وما كان ليـشوهه من شيء سـوى تفكيري في أني قد انـتزعت من طامي الحيوان الذي أحبّـه وهام بحبه، وبعد هذا، وحتى نهاية الرحلـة لم أمتطِ غيرها. وكنت فخوراً ومدركاً بأنني قد ركبت ذلك الحيوان الجـيّد كخيرِ ما يركبه أي رجال في جزيرة العرب.

تمتد سلسلة حضن لمسافـة تقارب خمسة عشر مـيلاً من الشرق إلى الغرب، وتبرز عن الحـرّة بجوار تربة، إلى الشمـال من طريق الحجاج الـذي يمر بينها وبين امتداد شمالي ذي طبيعة مختلفة بعض الشيء، وتكوّن سلسلة حضن تلال صخرية غير منتظمة تغطيها الرمال وتقاطعها أودية كـثيفة الشجيرات. وقد سرنا في البداية فوق مرتفع وعر تغطيه حجارة القداحة، وفي طيّات ذلك المرتفع تقع آبار بريم بين هضبتين بارزتين هما بريم وبريمة. وإلى الوراء، في الجانب الشمالي للحضن الذي يبلغ ارتفاعه هنا أكثر من ٥٠٠ قدم فوق مـستوى السهل، يُقال إنّ هناك نضحان، نضح الصلبة وحَرَضَة في الشعيبين الصغيـرين المسميين باسميهما، واللذين يتحدان مع المجرى الذي يصـرف مياه بريم وهو في طريقه ليلتـقي بالشعبة. أثنـاء عبورنا لهذا الشعيب بدأت حمرا تعرج مما أصـابني بالذعر، وبدأت تضرب خفها بالأرض لتخلص نفسـها من شوكة أليمة. اسـتطاع جرمان الذي كان بجواري من انتـزاعها دون عناء مستخدماً أدوات بدائية يحملها لهذه الغاية كل راكب. عندما توقفنا لهذه

العملية سمعنا من وراء التلال التي حجبت الآبار عن أنظارنا أصواتاً لا يمكن أن تخفى علينا تنمُّ عن وجود أعراب يستقون، وعجبت لهم كيف لم يتخذوا الاحتياط الواجب بإرسال مراقب على قمة التل حتى لا يؤخذوا على حين غرة، وعندما عادت حمرا لسابق عهدها أسرعنا، أنا وجرمان لنلحق برفاقنا الذين كانوا قد خلفونا بعيداً إلى الوراء.

يتكون صقع البرقة الذي عبرناه الآن من تلال منخفضة تغطيها الرمال، وتجري موازية للجانب الشمالي لحضن ولمجموعة من الأودية الرملية الضيقة التي تجري باتجاه الشمال بين نتوءات في السلسلة تشبه أصابع اليد، يجري أولها ممتداً ليقاطعه طريقنا بين هضبتين عظيمتين إحداهما صخرية والثانية رملية. تجري هذه النتوءات في اتجاه الشمال الغربي مكونة حاجزاً واقياً للصقع كله، وإلى الشمال من هذا الحاجز يقع ركام التلال الرملية والصخرية لمجموعات سيسد والبتيلة، والمجموعة الأخيرة هذه تميز المشهد.

عندما ارتقينا حافة التل الثاني من تلك التلال الشبيهة بالأصابع، برز أمام ناظرينا مشهد عجيب، وللحظةٍ دبَّ الذعر بين صفوفنا حين امتدَّ أمامنا على مدّ البصر وادٍ أخضر عريض تنقطه الشجيرات وتقاطعه ـ بعد فواصل منتظمة ـ نتوءات مصفوفة تبرز عن السلسلة الرئيسة، وهناك على المنحدرات وفي التجويفات كانت أفواج لا حصر لها من الخراف السوداء ترعى العشب في صحبة الرعاة، وقطعان الإبل الضخمة ترعى صغارها حديثي الولادة، وتناثرت هنا وهناك سقيفات البدو السوداء. لقد اقتحمنا حياة البقوم الآمنة، تجمع الآلاف منهم هنا للتمتع بنباتات الصحراء التي أسرعت بها إلى الوجود أمطار الشتاء. وكما يفعل قطيع من الظباء عند رؤيته لمتطفل، الوقوف برهة، والتحديق ثم الانطلاق فراراً، كذا كان الحال في الوادي عند ظهورنا المفاجئ؛ إذ بعد لحظات من السكون ساد هرجٌ عظيم، قام

الرعاة بمعونة كلابهم بدفع أفواج الماشية لهذا الجانب أو ذاك مرتقين المنحدرات، وبرز النائمون خارجين من خيامهم، وركبت مجموعة منهم الخيول متجهين صوبنا.

كان الأمر يبدو كأن الساحة قد أخليت استعداداً للقتال، تقدم زميع مع اثنين آخرين ركوباً لمقابلة القادمين، بينما تحرك بقيتنا بهدوء نحو أحد جوانب الوادي انتظاراً لنتائج اللقاء، ورأيناهم يلتقون ويتجاذبون على الفور حديثاً ودياً يتبادلون فيه أخبار الشرق والغرب: «سلام عليكم يا مسلمين! وعليكم السلام! هلا مرحبا يا زميع! كيف أنت؟ كيف أنت؟ كيف أنت؟ حالك طيب؟ لله الحمد الله على العدل. كيف حالك؟ كيف أنت؟ وش العلم؟ كيف الأمير[1]؟ جاكم المطر؟ إي بالله ضاربنا في نجد. وشلون الخد؟ والله جيد، ربيع! هكذا يحيي الرجل من يلتقي به في الصحراء. تكون التحية من القلب بين الأصدقاء، ويعيها كلاهما، وتكون أكثر شكلية بين الغرباء، وحينها يستحضر الرجل في ذهنه طوال الوقت الأعداء البعيدين الذين يطلبون ثأراً، وإن دعا الحال يستعد للتحرك السريع لاتخاذ الموقع المناسب. ولا تغفل أعينهم الحريصة القوية الملاحظة أياً من التفاصيل، وعندما يتفرقون تبدأ كل مجموعة في الحديث عن الأخرى: «هل رأيت ذلك الجواد؟ والله حيوان مثالي، وذلول ذلك الرجال، إنها ظبي[2] بمعنى الكلمة، غزال»، وهكذا.

(١) لا يستخدم أيٌّ من البدو الأدنين هذا اللقب لابن سعود دون أن يُصححه الإخوان" الملتزمون بعبارة "أيّ أمير؟" أنت تقصد الإمام، إنَّه في خير حال" وهكذا. (المؤلف).

(٢) الذلول الأصيلة تكون خفيفة وسريعة وكثيراً ما تُقارن بالظباء التي هي مثال الخفّة والسرعة لدى العرب. ظبي وظبية هي من أسماء الإبل المعتادة. (المؤلف).

كانت كل الأنظار متجهة نحو الوفد المفاوض، ولدى عودته رجع الوادي لحياته الطبيعية.

وانتشرت القطعان مجدداً في المراعي. وتابعنا المسير وهُرِع الرجال نحونا لمعرفة الأخبار، وسألونا عنها من على البعد حتى قبل أن يبادروا بالتحية، ثمّ ما لبثوا أن التحموا بمجموعتنا لتبادل التحايا والحديث، وساروا إلى جانبنا حتى اكتفوا منه، ثمّ ابتعدوا فجأة عائدين لما كانوا عليه، كان أحدهم رث الهيئة والزّي ويجلس متقلقلاً على مؤخرة راحلته الضخمة وساقه العارية مندسّة تحت جذعها، ساومناه ليبيعنا تلك الراحلة: «إنها والله تساوي ١٢٠ دولاراً، ولكني سأكتفي بمئة من أجلكم»، وقلنا له: «إننا نريد مطيّة لا يزيد ثمنها عن خمسين أو ستين دولاراً، وإن جملك هذا لا يساوي أكثر من ذلك، هيا سنعطيك ستين دولاراً». واستمرت المفاوضات أثناء الفترة القصيرة التي توقفنا فيها لتناول الإفطار، ولكنّا لم نتفق، فواصلنا سيرنا. وكنا قد انتدبنا طامي وسعداً أثناء السير لزيارة خيام عبدالله، أمير تربة الذي كان قد التحق بالبقوم ليقوم بتنظيمهم نيابة عن الشريف ليقوموا بدورهم بحملات ضد سبيع. وقد عبّر الأمير لمندوبينا عن بالغ أسفه لتجاوزنا مخيمهُ دون أن نعطيه الفرصة لاستضافتنا وإطعامنا.

بلغنا في نهاية الأمر سلسلة التلال الأخيرة في مرتفعات البرقة وتطلعنا إلى الامتدادات العارية لسهل ركبة الذي كانت تنتشر فيه خيام عتيبة السوداء طولاً وعرضاً حتى جبال الحجاز البعيدة التي كنا نسيرُ نحوها. كنا نتجه في سيرنا نحو قمة جبل تشبه ظهر السرج، وكان ذاك يسمُ موقع الطائف. قطعنا خلال يومين من السير حدود البقوم من الشرق للغرب. وإلي الجنوب من حدودهم كان يبدو سفح النواصف بالقرب من تربة، وإلى الشمال منهم خط يجري من الشرق للغرب من شعيب شعبة حتى الأطراف الشمالية للتلال الفرعية لحضن. كان ذاك الصقع

بكامله يكوّن السـهل الشرقي، وقد تبلغ مـساحة حـضن ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ ميل مربع ويسكنه ٣٠٠٠ من الرعـاة، إضافة إلى عدد مساوٍ مـن المستوطنين في تربة. يقل عدد أفراد قبيلة البُقوم بما فيها من العبيد، وإضافة لأشراف تربة عن أفراد قبيلة سبيع الذين يحـدّ منطقتهم من الناحيـة الشمالية الخط المستـقيم الذي يجري -إلى الشـرق من وادي النعيم- من الركن الشـمالي الشـرقي لمسارات الـبقوم. أمـا من الناحيـة الجنوبية فـإن منطقتـهم يحدّها الخط الذي يربط جـريذية بالطريق الجنوبي لعرق مروراً بواحة رنية. أمّا منطقة عتيبة الممتدة فهي تحيط بمناطق هاتين القبيلتين، وهم يشتركون في الجنوب مع قحطان في مـساراتهم، وفي الشمال مع حرب وفي الجانب الغربي مع قبائل الحجاز. أما قسم الثـبتة فهم يتوغلون في الجبال ويحتلون سفوحها بين الطائف ووادي الشامية.

دلفنا الآن لوادي ركـبة، سائرين نـحو الجنوب الغربـي، والوادي ما هو إلاّ متاهة رملية ممتدة بها كثير من الأعشاب الصحراوية ورقاع من شجيرات السنط التي تمتد من خط يربط -من الجنوب للشمال- بين عـشيرة ومران. ويجري بين سلسلة جبال الحجاز وحضن من جانب، وجبال عـسير من جانب آخر. كانت قمم جبال عسير التي تظللها السحب تبدو في الأفق البعيد. ويُسمى الجزء الجنوبي من السهل الجراد، قيـل لي إنه مكوّن من رمال بيضاء ناعـمة تغطيها الحـشائش غطاء خفـيفاً ولكنها خالية من الشجيرات.

كانت تلك ليلة عيد الميلاد، وأقمنا خيامنا بعيداً هناك في السهل على ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فـوق سطح البحر، وكـانت محطتنا التي نسـعى للوصول إليـها على مرمى البـصر. كانت تحيـط بنا خيام البدو السـوداء، وكان الهواء بارداً ومنعـشاً، وأضاء البـدر المكتمل ذلك المكان الآمن حـيث كان البـدو يراقبون قطـعانهم. لم

أتمالك نفسي من أن أعـود بأفكاري القهقرى لأكـثر من ألف وتسعمـائة عام حيث كان المشهد شبيهاً بهذا عندما اسـتقبل الرعاة البسطاء بدايات حدث قُدّر له أن يُغير وجه التاريخ.

كانت درجة الحـرارة قد تراجعت لتبلغ ٤١ْ فـهرنهايت في الرابعة صـباحاً، عندما نهضنا في اليوم التالي استعداداً للمسيرة الطويلة التي كانت بانتظارنا، إذ كنا قد عـقدنا العزم أن نبلـغ الطائف عند مغيب الشـمس. وتركنا الأمتـعة من ورائنا لتلحق بنا إذ لم يكن هناك خـوف من قطاع الطرق، وركبـنا ومعي اثنا عـشر من الرفاق في الخامسـة صباحاً، وسرنا بخفة في ذلك الصـباح البارد. وتراجع ساحل حضن من خلفنا شيئاً فشيئاً، وإلى الجنوب الشـرقي من قمة الرقبة الشبيهة بالمسلّة انتصـب على البعـد من سهل جـراد تلّ يُسمى العنت، بينمـا سمـا ذلك الشكل المخروطي لساق في الجـزء الجنوبي من حضن ليسم الموقع الذي يختـرق فيه طريق الطائف سلسلة الجبال في طريقه لتربة، وفي الجنوب انتصـبت من جبال عسير قمة تور الأخضر، وبدا أمامنا التل الشبيـه بظهر السرج بالقرب من الطائف، وكذا كل سلسلة جبال الحجاز.

توقفنا بعد ثلاث ساعات لفترة وجيـزة بالقرب من سلسلة صخرية منخفضة تدعى البرث لتناول الإفـطار الذي تكون من لحم ضأن بارد وأطواق الخبـز. وبعد مسـافة أخرى عـبرنا هضبـة الحمراء المنعـزلة ذات الصخور الحـمراء التي تقع عند سفحـها آبار المبعوث. وعندما اقـتربنا من حافة التلال بـدا السهل في الارتفاع مع تموج لطيف، وجرى عن يمـيننا من خلاله خط من الشجـيرات يحد مـجرى وادي عـقيق، وبدت تلوح في الطبـقـات الخارجـية للتـلال السطحـية الواقـعة أمـامنا

مجمـوعات صغيرة من النخـيل. وفي نهاية الأمر، بعد أن قطعنا خـمسة وثلاثين ميلاً في مـسيرة دامت ست ساعات بلغنا حـافة الوادي الذي يخرج في هذا الموقع إلى السهل، والذي يجري بين ضفتين منخفضتين في اتجاه الشمال نحو عشيرة التي تقع في مهده، ومن ثم يتجاوز آبار تنضبة على بعـد ثلاثة أميال أخرى متجهاً إلى سلسلة بيسان الصخرية الواقعة على بعـد عشرين ميلاً إلى الجنوب من مَران. وفقاً لإفادة زميع الذي قـاد قافلة الحج من موقعٍ إلى الشرق من الخرمـة، وسار بها عن طريق عشيرة، فإنّ المـاء لا يصل إطلاقاً هذا الموقع أو لا يتعدّاه إلا نادراً، ولكنهم يعتقدون في الطائف أن وادي عقيق يجـري، أو على الأقل يتفرعُ منه رافد يجري في اتجاه الشمال إلى المـدينة، كما يعتقدون أن ميـاه وادي الطائف تصب عبر هذا المجرى، في سنـوات الغيث العمـيم لتصل إلى المديـنة التي تضم قبـر رسول الله (ﷺ). إن كانت وجهة النظر المحلية هذه صحـيحة، فلابد أن يكون وادي العقيق الذي ينزل من التـلال الواقـعـة خلف الـطائف، فـرعـاً للمـجـرى العظيم وادي حمض[1] الذي يُصرِّف الماء نحو الغرب، والذي وَجَدَ داوتي مصدره في تجواله في حرّة خيبر التي ينزل منها أيضاً وادي الرمـة. كان عرض سهل ركبة حوالي أربعين ميلاً بمحاذاة طريقنا.

وهكذا تخطينا صحراء الجـزيرة العربية ذات القفار الصاعـدة الممتدة، المكونة من الرمال والسهول البلقع، ووجدنا أنفسنا أمام حاجز التلال العظيم المقابل للبحر الغـربي. ووقف أمامنا مـباشـرة في منتصف المـهد الرملي للعـقيق وعلى ارتفـاع ٤٠٠٠ قدم فـوق سطح البحـر منزل ريفي منفرد بالقـرب من رقعـة صغـيرة من النخيل، في قلب مزرعـة للحبوب تبلغ ثلاثين أو أربعين فداناً، مقـسمة إلى رقاع

(١) تمّ إثبات هذه الحقيقة بواسطة السيد د.ج.هوجارث مستشهداً بالشريف فيصل في ورقة حديثة قرئت أمام الجمعية الجغرافية الملكية. (المؤلف).

صغيرة مـربعة تحف بها سدود من رمال، وتسـقى من الآبار، ورأينا في أعلى مهد السيول رقـاعاً أخرى من نخيل وقـرية صغيرة؛ وكلٌّ هذه المنطقـة ابتداءً من المنزل الريفي وإلى أعلى تسمى الأخيضر.

تتبعنا مـجرى الوادي إلى أعلى متجـاوزين بساتين النخيل إلى بركة صـغيرة يغذيهـا نبع، حيث سقـينا الإبل العطشى بالقرب من القـرية الصغـيرة المكونة من مجمـوعة غير منتظمة قـوامها منازل من الطين والحجارة بُنيت على منحـدر هضبة منخفـضة. وكان انحـدار المرتقى يزداد حِدَّة كلما تقـدمنا، تارة في مهد السـيول المتـعرج وتارة بعـيداً عنه، وكـان المهد يتـلوى منحدراً إلى أسـفل في وسط تلال منخفضـة وسلاسل صخرية موزعة في غـير انتظام. وبعد أن ارتقينا مسـافة ميلين متجاوزين الأخيضـر، مررنا بقرية صغيرة أخرى تحيط بها النخـيل وأشجار الفاكهة في سفح تلٍ صغيـر توّج أعلاه حصن متهدم مبني من الحـجارة، وبعد ذلك بقليل ارتفع بنا طريقٌ طويل شـديد الانحدار تغطيـه صخور جلمـودية إلى دَكَّةٍ عظيـمة يوجد أسفلها سد صُلب من الكتل الصخرية. يتم هنا حجز السيول النازلة لتمتص التربة مياهها في أعلى الخزان، ومن ثم تُزرع بالمحاصيل. عندما واصلنا سيرنا فوق وحول محيط روابٍ لطيـفة الانحدار تركنا من يسارنا مجمـوعة أخرى من النخيل وقرية صغيـرة، حتى بلغنا قرية صغيرة أخرى تقع علـى الجانب الأيمن للعقيق في وسط منطقة كبيرة من الحدائق وبساتين النخيل والأراضي الزراعية. وعلى نتوء في الجانب الأيسر برز قصر «بَهِي» مكون من ثلاثة طوابق، كُسيت واجهته بالجص أو الأسمنت الأبيض، لقد كان مـسكناً لشريف في المنطقة. كان القصر يبـدو جميلاً جداً أمام ناظِريَّ، بعد أن تعودت طويلاً على مرأى أكواخ الطين والصلصال، وهو يتوسط الصخور المعتمة الكئيبة متلألئاً تحت وهج الشمس.

ارتكب إبراهيم خطأ فادحاً، فقد كان وقت صلاة العصر قد حان، وكان بإمكانهم أداء الصلاة قبل دخول القرية، ولم يكن الأمر ليصير سابقة إن صلَّوا دون وضوء كما فعلوا مراراً وتكراراً في الصحراء عديمة الماء[1]، ولكن إبراهيم قضى بأن تكون الصلاة بعد الوضوء من بئر القرية، ولم أعترض أنا لحرصي الدائم على ألا أتدخل في معتقداتهم. أنخنا إبلنا، وأسرع رفاقي ليتوضؤوا من البئر، ثمّ اصطفوا للصلاة بينما اتكأت أنا على الحمرا بحثاً عما يُظللني عن الشمس. ولكن سرعان ما انتبهت للقرويين رجالاً وأطفالاً يتجمعون حولي متعجبين، أي نوع من الرجال هذا الذي لا يُصلي مع رفاقه؟ غضبت على إبراهيم لما عرضني له من إذلال غير ضروري. وفور قضائهم للصلاة امتطيت راحلتي على عجل مبتعداً عن المشهد ومعي طامي وبدر ومناحي وقليل من الآخرين. ولم يتمكن إبراهيم وسعد لتعبهم من اللحاق بنا قبل مرور نصف الساعة، وحينها عرفت سبب صلاتهم بالقرب من البئر. لقد استبدلوا بملابسهم التي صبغتها الرحلة ملابس أخرى تلائم دخول مبتهج بالنصر إلى المدينة. وكان إبراهيم حريصاً أن يبدو -مهما تكن الظروف- بمظهر آسرٍ أمام شباب وفتيات الطائف، لقد مشط شعره ولحيته ثم جدل ضفائره السوداء الفاحمة، كانت ملابسه متألقة لامعة، وبدا سرواله التحتي الأبيض الناصع من تحت الجزء الأسفل من زبونه، ثم كان اختياره المبدع المدهش لملابس خضراء فاتحة اللون، تعلوها عروات لونها بُني مائل إلى الحمرة، من النمط الكشميري؛ وفوق كل هذا أتت العباءة المهيبة بلونها القشدي الأصفر الشاحب، يحفُّ إطارها كثير من التطريز الذهبي، وفاحت من جسده رائحة نافذة لعطر زيتي قوي، ولم يكن خجلاً من كل هذا المظهر. وارتدى الآخرون أزياء الأعياد، كل

(١) لم يوضح المؤلف هذه النقطة، لأن عدم وجود الماء يغني عنه التيمم، والذي يظهر أن هذا ما كان يقوم به هؤلاء المسافرون مع عدم تيسر الماء. (المراجعون).

بطريقتـه الخاصة، ولكن إبراهيم كـان محطّ أنظار حُساده. ورغـماً عن هذا كنت أعتقـد أن طامي وبدر، ابن أخ الدويش زعيم كل قبيلة مطيـر كانا في قمصـانهما القطنية المتسخة وعباءاتهما البالية أكثر جمالاً في بساطتهما الرجولية.

قليلاً ما يخـرج البدوي الحقيقي مـرتدياً ألواناً فاقعة، إذ أنها سـمة للموالي وبني خضـير الذين ولدو لموالٍ، ويقلدهـم في هذا الشأن غيـرهم من سكان المدن الصـغيـرة المتأنقين الذين يظنون أنهم بـهذا الفـعل يقلدون سكان المدن العظيـمة. وكثـيراً ما كان إبراهيم يقـدم لي محاضـرة عن بساطة ملابسي، ولم يكن ليـفهم إهمالي المتصل لنصيحتـه؛ لقد كان الأمر لديه يرقى لمرتبة الجريمة أن يدخل الرجلُ المدينة بعد رحلـةٍ طويلة، في ثياب صبـغت الرحلة لونها، إن كـان يملك الوسيلة لاستبدالها بغيرها.

ارتقـينا الآن مهـد السيـول الذي ينحدر بين الجـبال والصـخور الجلمـودية العظيمة، حـتى بلغنا تلاً خفيفـاً يفصل بيننا وبين قرية القيم الصـغيرة. والتفّ بنا الطريق حول الجانب الأقرب للقرية ليدخل بنا ممراً ضـيقاً بين الجبال العالية. نظرنا من قمة الممر إلى الأسفل حيث وادي الطائف الواسع تلفُّه غلالة ضبابية من الغبار وتقع في خلفيتـه كتل برد وقرنيت العالية، قـممٌ بالغة الفخامة لـلسلسلة الرئيسة؛ كانت صورها الظلية ترتسم أمام الشمس التي تسعى للاختباء عند وقت المغيب.

٢- الطائف

كانت فرحتنا عظيمة حينما رأينا غايتنا أمامنا بعد مسيرة خمسة وأربعين ميلاً من السفر المنهك، وإحدى عشرة ساعة على السروج، ولم نتوقف خلاله، إلاّ وقفتين قصيرتين. كانت الشمس الآن ترنو من أعالي التلال، وأسرعنا نجدّ المسير نازلين عبر المنحدرات والأودية، متجاوزين بعض القرى الصغيرة التي تحيط بها البساتين والحقول. ولم يكن هناك ما يلفت أنظارنا المتعبة حتى بلغنا قصر شبرا الرخامي العظيم ذا الطوابق الأربعة، قصر علي باشا كبير الأشراف السابق وابن عمّ حسين بن على ملك الحجاز. كانت تحيط بالقصر حدائقه البديعة. لقد دهشت لرؤية المبنى الفاتن الرائع ومرقاه العظيم ذا الدرجات، الذي يقود إلى الباب الخارجي، والنقش الشبكي المترف على النوافذ. ودهشت لرؤية كلّ هذا في الجزيرة العربية. أمّا رفاقي الذين لم يغادر معظمهم الصحراء، فقد وقفوا مشدوهين أمام هذه العظمة. يقف هذا القصر على مسافة ميل واحد شمال المدينة على الطريق العام الذي يجري عند هذه النقطة عبر ممرٍّ مُثَلَّم تحدّه أشجار التوت.

بعد ياردات قليلة استقبلنا حرس شرف من الشرطة المحلية، حوالي اثني عشر شرطياً يقودهم رقيب، يلبسون زياً غريباً، معطفاً قطنياً أزرق وبنطالاً، ويكتمل الزِّي بحزام عريض وبندقية. وعند إصدار الأمر لهم - في لغة إنجليزية ركيكة فيما أذكر - أدّوا التحية على طريقتنا، واستداروا يساراً ليسبقونا مرتقين الطريق في صفّين غير منتظمَيْن. وقد بذلت جهداً كبيراً لأقاوم الابتسام للدهشة التي انطبعت على وجوه رفاقي الذين لم يروا شيئاً كهذا من قبل. وبقى إبراهيم إلى جانبى بتباه وفخر في مقدمة موكبنا الذي كان يزداد تضخُّماً كلّما تقدَّمنا لانضمام حشود من الأطفال إلى الموكب؛ ورأيت بين هؤلاء الأطفال واحداً ذا بشرة بيضاء كلون بشرتي، لعلَّه من بقايا الحرس التركي. وهكذا قبيل غروب شمس يوم عيد الميلاد دخلنا الطائف

من خلال فتحةٍ في الحائط بجوار ثكنات الجند. وبعد دقائق قليلة أنخنا رواحلنا أمام باب المنزل الذي خُصِّصَ لنا، وهو منزل علي أفندى أمير أو قائد الشرطة الذي قابلنا عند الباب ونحن نترجّل عن المطايا.

كنّا قد بعثنا بعد بلوغنا شعيب قرينات برسائل مع زبار، وهو من قبيلة حرب وحيلان العتيبي، نعلنُ فيها عن وصولنا. ولقد كان أمراً مقلقاً أن أكتشف الآن أنّ هذا هو الإعلان الأوّل عن زيارتي التي كنت آمل أن تكون السلطات المحلية على علمٍ بها عبر رسالة برقية من بغداد، ولقد كنت آمل في حقيقة الأمر أيضاً أن يأتي ضابط إنجليزي من مصر ليلتقي بي هنا ويصحبني لدى عودتي إلى نجد. ولقد خاب ظنّي في الأمرين معاً، ولكنّ الأمير المحلّي أرسل إلى مكّة يسألهم إبلاغه بالأوامر فيما يختص بزيارتي. وفي هذه الأثناء كنت أُعامل معاملة ضيف شرف في لطفٍ وكياسة عظيمين، وبكرم وسخاء.

قادنا بعضهم عبر فناء ضيق مكشوف، ثم عبر بنا ممراً قصيراً نحو قاعة الاستقبال المرتفعة التي يكسوها السجّاد والمتكآت، والتي كانت مفتوحة من أحد الجانبين على فناء خارجي صغير نمت في وسطه شجيرات قليلة يحيط بها سرخس ونباتات أخرى في مزهريات. وكانت تفتح على هذا الفناء غرفة صغيرة خصصت لنومي، وغرفة أخرى كبيرة ملاصقة لبقية رفاقي. وكان الحمّام على الجانب الآخر من الممر الذي دخلنا عبره، ذا أرضية من بلاط حجري وحوض من المرمر، يأتي إليه الماء البارد والماء الساخن عبر أنابيب من صهريجين. وكانت تتدلى ستارة حمراء عظيمة من حلقات على أحد جوانب قاعة الاستقبال لتعطي مزيداً من الدفء في الأمسيات. وكانت هذه هي الغرف التي وُضعت تحت تصرُّفنا، مكتملة المرافق ومريحة لأقصى درجات الراحة، ولا أدري إن كان هذا الجانب هو المنزل برُمَّته، أم أن له أجزاءً أخرى، بيد أنّه لم يكن هناك اتصال بين هذا الجانب والمباني المجاورة التي أعتقد أنّ أسرة مضيفينا كانت تحتلها.

إنّ كرم الضيافة العربي الراقي، ودون شك، لا يسمح بأن يترك المضيف ضيوفه وشأنهم عند وصولهم، حتى وإن كانوا متعبين من جرّاء رحلة طويلة شاقّة؛ بل على العكس من ذلك فإنَّه يُتوقع من الضيف ألاَّ يبلغ مكان مضيفه بعد رحلة طويلة، أو بمعنى آخر ينبغي أن يرتِّب شأن مسيره بحيث يتوقف على بعد ساعة أو ساعتين من مكانه المقصود على أن يصل إليه في صباح اليوم التالي وهو نشطٌ ومستعدٌّ لما يتطلَّبه كرم الوفادة. ولكنّا بوصولنا المتأخر انتهكنا قانون العرب، ودفعنا الثمن بأن صار علينا أن نتحمل ضيافة نشطة متصلة قام بها مضيفنا الودود منذ لحظة وصولنا حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، وعندما التمست الإذن للخلود للراحة، وفي كل هذا الوقت لم أتمكّن من الهروب منهم إلاّ لفترة نصف ساعة استمتعت فيها بترف الاستحمام بالماء الدافئ.

كانت وظيفة علي أفندي كأمير للشرطة تتضمن تنظيم وتدريب وإدارة سبعة وعشرين شرطياً هم قوّة شرطة الطائف. وكان يضطلع بمهام ضيافتنا بمساعدة سكرتيره عبدالله أفندي، وضابط العائدات المحلّية[1] سراج أفندي وهو رجلٌ لطيف، ودود، هادئ، ذو عقل، ذكي واتّزان في صرامة. كان علي أفندي يبدو في الخامسة والخمسين من العمر، طويل القامة نحيلها، يلبس رداءً بلون قشدي، ودود ومضياف للغاية، ولكنه لا يتمتع بكثير من المعرفة أو الذكاء. أمّا عبدالله الذي كان يذكرني كثيراً بخليل أفندي رجل الهفوف، فلقد كان مسؤولاً نموذجياً للنظام التركي. وكان رجلاً بارعاً ذا معلومات كثيرة متباينة لكن في غير ترتيب. وكان هو الذي استولى على ناصية الحديث الذي تمّ فيه تناول معلومات متنوعة ـ لكنها جدّ سطحية ـ في النحو والتاريخ والجغرافيا والسياسة والدين وكلّ شيء آخر، مما دعا زملاءه وزملائي للإعجاب به. كان رجلاً حلو الحديث، وكان عندما

(١) كاتب تكريجية (Takrijiyya) أو كاتب الضرائب. (المؤلف).

يتحـدث عن أشياء قريبـة من موطنه يفضي إليّ بمعلـومات مفيـدة عن الطائف وما حولها.

عندما جلسنا على الوسائد في الديوانية بعد وصولنا، نحتسي أكواب القهوة والشاي أتـى ممُثلٌ لأميـر الطائف للترحـيب بي نيابة عنه. وكـان هذا المندوب هو محمد علي: رجلٌ قوي البنية، وسيم الطلعة، في منتصف العمر، وهو فيما يبدو رئيس المراسم والتشريفـات لدى الأمير، وبعد دقائق قليلة اسـتأذن في الانصراف، ربّما ليخبر سيّـده أننا مستعدّون لاستقباله، إذ أنَّ الأخير حـضر بعد قليل بنفسه. حمود بن زايد كـان شاباً لطيفاً في العشـرين من العمر بالتقريب، وقوراً وصـامتاً وتعوزه اللباقة إلى حـدٍّ ما، ولا يُبدى ذكاءً في الأمور العامّة. لم يكن في حـقيقة الأمر أميراً بالأصالة، لكنّه كان فقط يقوم مقام عمّه الشريف شرف الذي كان بعيداً مع الجيوش المحاربة، فيـما أظن في معيّة الشريف فيصل. وكان شـاكر أخو حمد الأكبر، ضـمن مجموعة مسـاعدي الشريف عبدالله، وكان مـقدّراً له أن يكتسب شهرة سيئة في العام التالي كقائد لعددٍ من الحملات التأديبية المشؤومة ضد متطرفي الخرمـة العنيدين الأشاوس، وكـان ثلاثة من إخوانه الذين يصغـرونه مقيمين مـعه بالطائف، أحدهم علي الذي يصغره بعامين، وكان الآخران طفلين.

كان الحديث كـما يُتوقَّع في مثل هذه المناسـبات، رسميـاً. اعتذرت أنا عن وصولي الذي تمّ دون إعـلان، ولكنّهم أكدوا لي أنّ المسؤولين بالطائف يتـشرّفون بوجـودي الذي لايُشكّلُ عـبـئـاً على الإطلاق. ولم أكن علـى علمٍ بما يدور في سـاحات الحـرب منذ أن فـارقت البحـرين قـبل سـتـة أسـابيع، فتـلقيت الأنبـاء بالانتصارات العظيمة في فلسطين وباحتلال القدس. كانت أعمدة صحيفة «القبلة» التي تصدر يومـياً في مكّة وتصل إلى الطائف خـلال أربع وعشـرين ساعة مليـئة بالتغييـرات الكبيرة التي أحدثتهـا الحرب، كان العدد الأخير من الصحـيفة يناقش

أهميَّة مبادرة ألمانيا السلميّة الأخيرة. كنت قد تلقّيت معلومات مغلوطة بأنني سأجد في الطائف خطاً للهاتف وآخر للبرقيات، بيد أنّ هذا لم يكن صحيحاً، ولكني شعرت أنّ مضيفيَّ ـ مهما كان الأمر ـ ليسوا بمعزل ـ عن التفاعل مع العالم كما هو الحال مع سكان وسط الجزيرة العربية. على الأقل، يناقش الناس هنا أحداث العالم ـ وإن لم يكن بذكاء ـ فور حدوثها.

كان رفاقي يجلسون في الغرفة في صمتٍ وجلافة كأطفال مشاغبين، متعجبين من الطباع السهلة واللطف الذي يمتاز به هؤلاء الرجال. عربٌ أمثالُهم ولكنهم متحضّرون. مسلمون أمثالهم، ولكنهم يمارسون فصلاً معقولاً بين ما تُمليه عليهم عقيدتهم وبين راحتهم. سألني بدر في اليوم التالي: «متى سنتحرك من هنا؟ إنّ هواء المدينة مغلق حبيس، وأنا أحنّ إلى الصحراء والإبل والخيام السوداء». ضحكت بصوت مرتفع وأنا أعلم ما يوسوس به صدره، إنّه من «الإخوان» ولقد أصبح يشارك مؤخّراً في مرح وسمر مجموعتي، كان في البداية ينأى بنفسه عن الآخرين، إنّ بقاءه قليلاً وسط رجال المدينة سيفيده. كانت روحه التي أدفأها الإلف مع الطبيعة في الصحراء قد كبحتها العقيدة. كان شاباً في مقتبل العمر ولم يتعدّ خمسة وعشرين ربيعاً، وله صوت عميق يميز أبناء مطير، وكان يُكنّى (أبوسبعة) أي طفل ابن سبعة أشهر، كنايةً عن ولادته قبل الموعد. كانت هذه الأيّام بالنسبة له، وهي التي يرافق فيها كافراً ويقيم فيها في المدن العظيمة ـ إذ أنّه من هذه الرحلة رأى الطائف ومكّة وجدّة للمرة الأولى ـ كانت كالربيع الدافئ الذي يزيل الضباب المُغلّف لسلوكه. بدا لي لفترة قصيرة ـ وهو ذو الطبيعة الطفولية ـ وكأن إيمانه بدأ يضعف أمام إغراءات المال القذر والمتعة الحسيَّة. لكنَّه عاد من جِدة ليغمره الإيمان الذي تعرفه أرضُه، ولم أره بعدها.

انسحب الأمير، وشيّعه محمد علي. أمّا عبدالله وسراج فقد ذهبا لتناول

وجبة العشاء بين أهليهم، بينما أعطى علي الإشارة لإحضار طعامنا، وترك تابعاً، وهو علي ورتبته في الحرس عريف ليَستجيب لطلباتنا. أتوا بعد قليل بحصيرين دائريين كبيرين وفرشوهما فوق السجاد في منتصف القاعة، ووضع على كلّ حصير إناءٌ معدني تملؤه أوصال الخراف التي تكوَّمت عالياً فوق أرزٍ يتصاعد بخاره، وكان لونه الأبيض بياض الثلج يقف على إنضاجه في المياه المتسخنة، والذي قد تعوّدنا على تناوله في الصحراء. كان هذا هو عشاء يوم عيد الميلاد الذي تحلَّقنا حوله أنا ورفاقي الاثنا عشر لنخلِّف منه العظام العارية ليس أكثر. ونهضنا لنغسل أيدينا لمتابعة الجلوس في مقاعدنا حول الديوان، لنتناول القهوة.

كان العريف علي، يؤانسنا مُحَدثاً إيّانا عن نسبه في قريش، وعن احتلال الطائف في الأيام الأولى لنهضة العرب، وعن أشكال الصخور في الطريق إلى مكّة، وعن حقول الحبوب التي يزرعها متسلّقو الجبال من قريش وثقيف، على جوانب وقمَّة جبل كرا. في الأيام التي سبقت احتلال العرب للطائف ـ والذين خدم معهم بنفسه ـ كان هناك ـ كما يُقال ـ حامية تركية في الثكنات. وسألته إن كان قد رأى أوربياً من قبل، أم أنّني كنتُ أول من عرفه منهم. كان ردّه: «نعم، عندما كان الأتراك هنا كان يحضر ضباط ألمان لتدريبهم، كان هناك حوالي اثني عشر منهم، لكنهم ما كانوا ليخرجوا من الثكنات نهاراً على الإطلاق ولم يختلطوا بأحد، كنَّا نادراً ما نراهم، ولكنهم كانوا كفارا ولا يصلون ولا يخافون الله، وعندما كان المسلمون يتجهون صوب مكة لأداء صلاة العشاء كانوا هم يطلقون موسيقى صاخبة». عندما وصلت إلى جدة لاحقاً ووجدت الشريف وقد صدمه اقتحامي للأراضي المقدسة، أشرت للاقتحام الألماني كسابقة، ولكن قصة علي تم إنكارها بشدة وادّعى الشريف أنها بلا أساس. من الجائز أن العريف كان واهماً حين اعتقد خطأً أن الأتراك الأناضوليين ذوي البشرات الشاحبة هم ألمان. وأنا أذكر

القصة هنا كما أخبرني بها آملاً أن تقوم السجلات السنوية للمسؤولين الألمان بنفيها أو تأكـيـدها بما لا يدع مـجالاً للشـك. وعلى كل، فـإن زيارتي لم تكن الأولى لأوربي للطائف، وسأذكـر قصة كنت أجـهلها حـينها. كان تجـوالي قد تطابق مع تجوال داوتي لأول مرة في الطائف، وهو الذي أتوا به كمجـرم إلى هنا لمحاكمته، استضـافه الشريف الكبير بنفـسه وأكرموا وفادته قـبل أربعين عاماً، ثم أُرسل إلى جدة معززاً مكرماً. وكان الطريق الذي اتبعـته لاحقاً نحو الساحل يتطابق إلى حد كبير مع طريقه. وقـبل داوتي زار العاصمة الصيفية هامـيلتون وهورخرونيه ويجوز أن هناك غيرهم[1].

لحق بنا الأمير علي بعد تناوله لوجبة المساء، وجاء عبدالله لاحقاً، وجلست أتحادث معهم حتى أوشك الليل أن ينـتصف، وشعرت بالإرهاق فذهبت لأرتاح، بعد أن أعطيت أوامري لئلا يوقظني أحدٌ في الصـباح لأي سببٍ من الأسباب، إذ بعد السلسلة الممـتدة من الأيام الطويلة والليالي القـصيرة، صارت لديّ مـتأخرات نوم تعاظم قـدرها، وبعد لحظات قليلة كنت قد تدثرت في وسط لحـافات العرب الناعمة فوق أرض غرفتي الصغيرة وخلصت من الوهن إلى النوم العميق.

كانت الساعـة قد بلغت التاسعة صبـاحاً عندما استيـقظت لأجد العالم في حركة دؤوبة، بدأت منذ وقت طويل، كان إبراهيم ـ لحـسن الطالع ـ بعيداً يتسوّق في المدينة، وبناء على رغبـتي أحضر سعد الشـاي ومعه تشكيلة من أطعمة شـهية مُترفة، خبز محلي صُنع بالخمـيرة، وجبن قشدي، وعسل نحل طازج من الجبال، ورمان وسـفرجل. سأتذكر لوقت طـويل الترف الممتع لتلك الوجـبة التي جلست أثناءها أحادث سعداً عن خطايا إبراهيم. عندما علم مضيفي بأنني استيقظت دخل

---

(١) وفي عهد أكثر حداثة، وبموافقة الشريف ـ افـتراضاً ـ زارها الكولونيل فيكري الوكيل البريطاني بجدة في صيف عام ١٩٢٠م. (المؤلف).

عليّ، فتحادثت معه وأنا لازلت أضطجع على فراشي، ولم أغادر موقعي ذاك قبل الساعة ١٠:٣٠ صباحاً، حيث استحممت بماء دافئ وبدّلت ملابسي. وقد كانت قافلة الأمتعة التي تركناها خلفنا في سهل ركبة قد وصلت ـ كما أخبروني ـ في الساعة الثامنة صباحاً، وهكذا قطعوا المسافة ـ التي قطعناها نحن في اثنتي عشرة ساعة ـ في عشرين ساعة. والآن استدعيت كل المجموعة لأعطيهم هدايا نقدية، لكل رجل وفقاً لدرجته. وبعد الفراغ من هذا الأمر، اقترحت على إبراهيم وسعد أن يختار كل منهما لنفسه عباءة من حِزمة العباءات التي أحضرتها لأوزعها على من يمكن أن يكونوا مضيفينا في الطريق. ولم أكن أعلم أن بالحزمة عباءة واحدة عالية الجودة وسط أعداد من العباءات الأخرى التي تقل عنها جودة، ولقد تصادف أن سعداً عثر عليها. وبدأ إبراهيم يبحث في الحزمة وهو ينظر إلى اختيار سعد نظرات حسد، عله يجد رفيقة لتلك، ولكن عندما لم يجد مثلها استدار إليّ قائلا في برود: «مافي شيء يجوز لي»، وكان ردي: «كيفك»[1] وأنا مستاء من فعله، وسجّلت نقطة أخرى ضده، وعلمت صباح اليوم التالي من سعد أنه قد تنازل عن عباءته ليرضي صديقه ذا المزاج السقيم، واحتفظت بهدوئي أيضاً خوفاً من نشوب خلافات بيننا.

بعد منتصف النهار بقليل بُسطت أمامنا وجبة نهارية خفيفة قوامها الخبز والتمر وفطائر الخضراوات وأطباق صغيرة تحتوي على لحم مفروم. وكان رفاقي قد تناولوا إفطارهم كما فعلت، ولكن عندما انفردنا بأنفسنا لم يشعروا بالحرج من انتقاد كمية الطعام التي قُدِّمت لنا في هذه الوجبة. إن المتعارف عليه من عادات الطائف أنهم يتناولون وجبة رئيسة واحدة في اليوم، هي وجبة العشاء وتُتناول بعد

(١) كما تريد. (المؤلف).

مغيب الشمس، عند الاستيقاظ وفي متتصف النهار يتناولون وجبات خفيفة فقط؛ لقد بدا لي نظاماً ممتازاً.

أثناء فترة ما بعد الظهيرة أخبرني رسول الأمير أنه يتوقع مني رد زيارته التي كنت قد أعلنت عن رغبتي في القيام بها، وقمت بصحبة مضيفي بالسير بطول الطريق الذي سلكناه عند قدومنا. وبلغنا فناءً مثلث الأبعاد ذا حجم متوسط هو أرض مخيمات القوافل القادمة أو البرحة، ومنها رأيت الثكنات المربعة المنخفضة ناحية اليسار مكوّنة قاعدة المثلث: وفي رأسه، إلى يميننا أو نحو الشرق برز جامع ذو مئذنة طويلة تعلوها شرفة المؤذن الدائرية، وذروتها دقيقة كمطفئة الحريق، وكانت مختلفة عن المنابر المنخفضة للمساجد في نجد. على كلٍ من جانبي الجامع كان يجري طريق عريض يقود إلى متاهة من الأزقة التي تحيط بها المتاجر التي تكوّن السوق المحلي. وكان حول البرحة وقبالتها عدد من منازل حجرية جيدة البناء وذات طابقين، كان معظمها مجصصاً بالجص الأبيض. وكان المنزل الذي يقف قبالة الجامع في بداية الطريق الشمالي هو منزل الأمير، الذي وجدت حموداً ببابه منتظراً قدومي عليه، حيث قادني بكياسة سهلة نحو غرفة كبيرة نظيفة، جدرانها الداخلية مجصصة أيضاً، وكانت أرضها مغطاة بالسِّجاد وتحفُّها المساند بطول جوانبها. وظهرت من فجوة في أحد أركان الغرفة خزانة حديدية ضخمة حفر عليها اسم الجهة المصنّعة في النمسا. لقد كانت أعواد الثقاب النمساوية رغم سنوات الحرب الطويلة، معلماً بارزاً في السوق المحلي.

أجلسني حمود بجوار المساند في أحد الأركان، واتخذ موقعه عن يميني وجلس علي عن يمينه هو، بينما جلس أخوه علي عن يساري. وبعد مضي وقت قليل قَدِم علينا رجلان، كان أحدهما تاجراً والثاني سليل أسرة الأشراف حسين بن جودي الذي كان ذا نفوذ بيِّن في المدينة، وكان يتلو الأمير مباشرة في الترتيب

والمقام. لم يكن حمـود قد غادر الحجاز قط، ولم يكن لديه الكثير مما يقوله عن نفسه. علق الأمـير: «السفر لا يروق لمواطن يسكن الطائف التي وضـعها الله في جنة حقـيقـية، حيث الموقـع المثالي والمناخ المعتـدل، وليس هناك الكثيـر مما يمكن اكتسابه بالتجوال في تهامة المهلكة أو الصحراء القاحلة حولها. ولم يكونوا يعرفون إلا القليل عن العالم خارج هذا الإطار، ولم يكن ليهـمهم. أما شريف مكة الذي كانوا يشـيرون إليه دائمـاً باللقب المبجّل "سـيّدنا وسيّـد الجميع" لـم يكن يشجع الأشراف للمجازفة بالسفر إلى الخارج».

في فصل الصيف يتضاعف تعداد سكان الطائف في الظروف العادية، ولكنه يصل إلى ثلاثة أضعاف بقدوم تجار مكة ووجـهائها عند هروبهم من حرِّها الرهيب في سهولها الخانقة، ولكن الشـريف أوقف زياراته السنوية للمدينة الصيفية منذ أن بدأ انتفاضـته ضد الأتراك، نسبـة لمسؤولياته الجمـة فيما يتـصل بالحرب. وقد دار حديثٌ قبل الحـرب عن توصيل الخط البرقي بين مكة والطائف، ولكن تمّ تجـميد المشروع في الوقت الراهن. كانت معظم المنازل الكبيرة المنتشرة في ضواحي المدينة خاليـة في وقت زيارتي، أو كانت في أيدي وكلاء عن أصـحابها، وكـانت الأسر المحلية فـقط هي التي تقطن المدينة، أما التـجار الذين أفقـرهم توقف الغارات من السهول فقد نزح معظمهم إلى مكة وجدة ليجربوا حظهم مع تجارة الحرب.

قد يصل تعداد المدينة ٥٠٠٠ نسـمة، ولكن يزداد هذا العدد كثيـراً بإضافة سكان قرى الوادي وسفـوح التلال من حولها. أما في الصيف فـإن العدد قد يبلغ ٢٠,٠٠٠ في كل المنطقة، يأتوا ليـتمتعـوا بالمناخ الجبلي المعتـدل بعد رحلة اثنتي عشـرة ساعة من مكة بالطريق المبـاشر الصعب: طـريق الخراف، وهو طريق يمكن استخدامه ـ مع الحذر ـ بواسطة البغال بتتبع سلسلة جبل كرا الذي تبلغ قمته أعلى المراقي في السلسلة الرئيسة الشفـا، وقد يكون ارتفاع القمة بين ٨٠٠٠ - ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر؛ أما ارتفاع الطائف فهو ٥,٤٠٠ قدم فوق سطح البحر.

يكون الضأن ونحل الجبال وأشجار الفاكـهة الموجودة بالوادي وسفوح الجبال مصـادر للتجـارة بين السكان المحليين. يتـمتع عـسل نحل الطائف بشـهرة عالـية مستحقة في الجزيرة العربيـة كلها. لقد تذوقته في الرياض من قبل، إذ أن المخزون الكبير الذي عـاد به الحجاج في صيف ١٩١٧م لم يكن قـد نفد في أغسطس من العام الذي يليـه، وهو الوقت الذي غادرت فيه العـاصمة للمرة الأخـيرة. إنّ له سوقاً رائجة في مكة وبين سكان مرتفعات الحـجاز البؤساء الخشنين، ويحتل عسل النحل الموقع الذي كان للتـمر في وجبة العربي. ويكوِّن عـسل النحل ولبن الضأن الغـذاء الرئيس لسكان الجبـال، كمـا أنّ التمـر ولبن النوق يكونانه في الصـحراء العربية. أمّا البضائع القابلة للتـسويق من المنتجات الرعوية فهي اللبن والجبن ولحم الضأن، وتزوّد بسـاتين الطائف مكة بالسفرجل والرُّمّان والخـوخ والمشمش والعنب والبطيخ والشمـام والقرع وخضـراوات مختلفـة. وهناك بساتين نخـيل في القرى الدنيا مـثل الأخيضر، والقـيم، والمريسية، ولكن ليس فـي الطائف نفسها. كـما توجد أشـجار البرتقـال والليمون هنا وهناك، ولكـن ليس بوفرة. لابد أن الوادي يكون بهـيجـاً في بداية الربيع والصـيف عندمـا تزهو الحدائـق، أمّا في منتـصف الشتـاء، فلقد رأيت الأشـجار ذابلة ومـجرّدة من أوراقهـا ومن أزهارها، وبدا لي المشهد كـئيباً بعض الشيء، وتنتصـب قصور الأغنياء الشامـخة باردة وعارية وفي خلفيتها السلاسل الصخرية القاتمة.

كانت القمم الرائعـة لسلسلة قرنيت وكتلة برد الداكنة الشبيهـة بظهر السرج هي كل ما يستطيع المرء رؤيتـه من الشفا بالتطلع إليها من الوادي، كـما كان جبل كرا الذي يقع خلف الشفـا محجوباً عن النظر. وقد كـان تخطيطي أن أرتقي لقمّة جبل كـرا، حيث وعدنـي العريف علي بأن يُريني الحدائـق وحقول الحـبوب التي تتشبث بوهن بجوانبه شديدة الانحدار. ولكن تخطيطي لم يضع في الاعتبار ما قد

يأمر به الملك، ولم يتحقق مشروعي. قبائل الجبال هي قريش وثقيف وقسم الثبتة من قبيلة عتيبة، ولكن الأشراف يقطنون معظم الوادي؛ الأشراف هم السلالة المنحدرة عن النبي (ﷺ).

استأذنت الأمير في الانصراف بعد أن سمح بكل الود والترحاب بأن أتجوّل في مدينته بكل حرية لأرى ما أود رؤيته منها، فقضيت الساعات التي بقيت لمغيب الشمس متنزهاً على الأقدام في صحبة مضيفي في أطراف المدينة، لأعود في المساء لمقرّ إقامتنا المريح المبهج، حيث شملنا كرم الضيافة قبل العشاء وبعده بحيث لم يدع مجالاً للشك في وُدٍّ وجميل مشاعر أصدقائنا الجدد. لقد تشرفت كثيراً بزيارة إمام جامع ابن عباس الكبير، وهو رجل دين مُطَّلِع، يحدثني عن مهامه ويناقش شؤون العالم بطريقة أوضحت لي أن إدارة الجامع وأداء الشعائر الدينية لم تستحوذ على كل وقته واهتمامه. يقع المسجد خارج البوابة الجنوبية مباشرة، وهو بناء أنيق تصطف فيه أعمدة حجرية مزخرفة في اتجاه الداخل حتى البهو المكشوف، وفي وسطه ترتفع قبتان متناسقتا الأبعاد، أولاهما تقف على ضريح عبدالله بن عباس[1] وليُّ الطائف وراعيها، والقبّة الثانية فوق ضريحين لأبناء الرسول: عبدالله الطيب الطاهر، ومحمد الحنفي[2]. وفي أحد أركان المربع ترتفع مئذنة دقيقة تشبه تلك التي وصفناها آنفاً، ولكنها أطول قليلاً. ويقع المدخل الرئيس للمسجد في الجانب الجنوبي، وهو فقط قوس مزخرف وفي وسطه باب. كان المسجد قد بُني فيما يبدو بمبادرة من أحد الخلفاء العباسيين وعلى نفقته، ويزوره

(١) العباس عم الرسول وجدّ السلالة العباسية، مدفون بالمدينة. (المؤلف).

(٢) الصحيح أن عبدالله ولد بعد البعثه ومات ودفن بمكة. أما محمد الحنفي فإن اسمه الصحيح محمد بن الحنفية وهو ابن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-. (المراجعون).

الحجاج كثيراً لاسيمـا النساء اللائي يسعين للزواج أو الإنجاب، ويقال إن بركة ابن عبـاس لا تخيّب رجاء الزوجـة العاقر الورعـة. لم أغامر بدخـول المبنى المقدس، ولكن رفاقي النجـديين أخبروني عندمـا اختلينا بأنفسنـا أن ما أسموه بالممـارسات الوثنية التي تمارس بالداخل قد صـدمت مشاعرهم الرقيقة؛ لقـد رأى بعضهم ـ قد يكون للمرة الأولى ـ طلب الشفاعة من الأولياء، وهو أمرٌ تعلموا أن يعدوه خطيئة لا تغتفر.

في صباح اليـوم التالي أيقظوني ليخبروني أن الأمـير قد بعث مستـفسراً إن كنت قد أفـقت، لقد تسلّم خطاباً من الشريف ويود أن يأتي لإبلاغي بمضـمونه. ارتديت ملابـسي بأقصى ما تمـكنت من سرعة وذهـبت للديوانية، حـيث وجدت حمـوداً وبعض مرافـقيـه في انتظاري ويحيط بهم رجـالي. وبعد التـبادل المعـتاد للتحايا، أخبرني بأنه قد تسلم أوامر من الملك. اشرأبّ إبراهيم والآخرون بأعناقهم في لهفـة ليسمـعوا، فأعطيـتهم إشارة بأنني أود منهـم أن يغادروا المكان، وأعطى حمود إشـارة مماثلة لمرافقيـه ليتركونا منفـردين. عندها أعطاني الخطاب المرسل من سكرتير الشريف باسمي، والذي كان نصّه المترجم كما يلي:

«صاحب الفخامـة نائب ومبعوث الحاكم السيـاسي والمدني للعراق! السلام والتحية! ثانياً لقد أبلغنا أمير الطائف بوصولكم مع مرافقيكم إلى الطائف في جوار صاحب الجلالة سيدي الملك، الذي يعبر عن سروره ويأمرني بأن أرسل إليكم هذا الخطاب للترحيب بكم ولـلتعبير عن رغبـته في أن تكون رحلتكم سعيدة ومـبشرة بخيـر. وأود أيضاً أن أخبـركم بأن حامل هذا الخطاب، أحمـد بن هزاع قد كُلِّف بمرافقتكم من الطائف إلى جدة ليوفر لكم كل ما ترغبون فيه وليؤمن حراستكم في الطريق. وإن كان لرفـاقك الرغبة فـي زيارة مكة المباركة، فـمرحباً بهم. وأختم

بالاحترام والتحية. ١٢ ربيع الأول ١٣٣٦هـ. من مساعِد، مدير الترجمة، نيابة عن نائب سكرتير الشؤون الخارجية».

كانت الأوامر التي تلقاها الأمير متطابقة إلى حد كبير مع ما ورد في خطابي. بينما كان الاختلاف أنه تم التركيز بصورة تدعو للريبة، على ضرورة اصطحابي لكل رفاقي معي. وبما أنني كنت أتوقع أن أعود أدراجي لنجد عبر الطائف، فإن هذه الأوامر الصريحة ـ التي تبينتُ على الفور دوافعها، والتي أبدت الأيام صِحّة توقعاتي لها ـ سببت لي قدراً غير يسير من الارتباك، بيد أنه لم يكن من الممكن أن أشير لشكوكي، ولكنني أصررت رغم هذا أن أخلّف ورائي ما ثقل من الأمتعة، إضافة لمعظم رفاقي. ومن حسن الطالع فإن الإعياء الذي سببته رحلة الرياض الطويلة التي أحالت عدداً من الإبل لحالة من الإجهاد الكامل كانت تستوجب فترة أطول من الراحة حتى تتعافى تماماً قبل أن نخاطر بها في الشروع في رحلة العودة. وبعد كثير من الاعتراض والجدل استجاب الأمير لمتطلباتي العاجلة، وتم الترتيب بأن تقوم جماعة مختارة منا بالسفر صباح الغد على أن يبقى الآخرون ليرعوا إبلهم في أطراف الطائف.

لقد أضعتُ كثيراً من الوقت الثمين في اليوم السابق مستمتعاً بالراحة التي كنت في حاجةٍ حقيقية لها، لأني كنت أتوقع أن تطول إقامتي بالطائف لعدد من الأيام على أقل تقدير، ولم يكن هناك وقت لنضيعه الآن، لذا أمضيت بقية اليوم في الاستكشاف النشط لكل الوادي في رفقة العريف علي وثلاثة من الرفاق (الجندرمة) الذين كان نشاطهم الذي لا يفتر مدعاةً للإعجاب. وعندما غربت الشمس كنت قد تفقدت المدينة وما حولها، وزرت تقريباً كل قرية في الوادي. وأروني وهم يشعرون بالفخر ثكنات الأتراك القديمة. لكن فشلي في زيارة أوثان

اللات والعزّى لم يكن مبرراً، رغم أنني لم أكن وقتها أعلم بوجودهما، وهو ما سبب لي الكدر لاحقاً. كان داوتي[1] قد أعطى وصفاً كاملاً لهذه الأوثان، التي كانت الطائف بسبب وجودها، ووجود الضرائح التي تحدثنا عنها آنفاً، تتمتّع بسمعة فاسدة كموطنٍ للوثنية القديمة والحديثة.

يتكوّن وادي الطائف من قسمين منفصلين، كلاهما بيضاوي الشكل، ويربط بينهما ممر عرضه نصف ميل يجري بين صخور ديمة والطرف الشمالي لسلسلة تلال شرقرق. كان القسم البيضوي الأصغر الذي يضم قرى القيم يمتد بين الجنوب الشرقي والشمال الغربي، بين هذا الممر والطريق الذي تطلعنا من فوقه نحو الوادي عند حضورنا الأول، وكان امتداد سلسلة شرقرق يحيط بهذا القسم الأصغر من جهتي الجنوب والغرب، كما كان هناك سائراً مشابهاً يحيط به من جهة الشمال والشرق، وعبر هذا الجزء يسيل وادي العقيق ويغذيه بالقرب من جبل ديمة التقاؤه بوادي وَجّ قناة الصرف الرئيسة لكل منطقة الطائف.

تقع مدينة الطائف نفسها تقريباً في وسط القسم الأكبر الذي يمتد بالتقريب بين الشمال والجنوب، ويحيط به من ناحية الشرق منحدرٌ منخفض عارٍ تنقطه التلال والروابي، ومن ناحية الغرب سلسلة تلال شرقرق، ومن ناحية الجنوب تلالٌ منخفضة تتراجع نحو السلسلة الرئيسة وتتصل بخط شرقرق بواسطة أربع روابٍ ظاهرة تسمى مضون، والصخرة، وأم الأدم، وأم الشياع، بهذا الترتيب من الشمال للجنوب. وبعد مسافة قصيرة خلف هذه الحدود الغربية ترتفع سلسلة تلال أعلى من تلك، تسمى الغمير التي يقوم على أكتافها في اتجاه الجنوب الغربي جبل برد. وكوّنت رابيتان أو ثلاثة خطاً في اتجاه الجنوب كامتداد لجبل ديمة، بينما كانت

(١) كتاب داوتي: .C.M.D، الجزء الثاني، ص ٥١٥-٥١٦. (المؤلف).

سلسلتان منعزلتـان تبرزان من وجه سلسلة شرقرق ليقفـا بينها وبين الطريق، بينما كانت سلسلة مسيرة تقع عند التقاء قِسمي الوادي. أما موقع ريع الأخضر، وأكابر على بعد ربع ميل إلى الشمـال الغربي من الطائف، وإلى الجنوب الشرقي من هذا الأخير تمتد سلاسل تلال ريع الشهـداء ومجار الشاش، وقراحين؛ هذه هي التلال المحيطة بالوادي.

ينحدر مـجرى وَجّ من أعالي برد، وينقسم إلى قـسمين في جنوب الطائف منحدراً على جـانبيه ليصل إلى الوادي، ثمّ لـيلتحم مع العقيق في حـدود القيم. ويأتي العقيق منحـدراً من جانب الغمير ويمر عـبر فجوة في شرقرق لـيسيل بعدها متخطياً ديمة نحو منطقة تيم، ثم يتقدم كما أوضحنا من قبل. إضافة لهذه الخطوط الرئيسـة الثلاث التي تضطلع بأعبـاء التصريف في هذه الناحـية. يوجد أيضـاً نهر يسمى العين ومصـدره في سفح برد، ويغذيه نبعٌ فعَّال، ويجري طوال الـعام عبر قناة خفيَّة مـتخطياً المدينة ليصل إلى حدائق شبـرا ولعدد قليل من القرى التي تقع شمالها ليسقي طوال العام ودون انقطاع أغنى جزء في الوادي. ولا يدري أحد ممن سألتهم إن كان ذلك المجرى طبيعياً أم صناعياً. بيد أنه لم يكن هناك من أثر بطول ذلك المجرى للممرات الرأسـية التي توجد في أي من نظم الخرز[١]. ولكنني على درجة كبيرة من اليقين أن القناة التي تظهر إلى سطح الأرض كجدول سريع بعرض قدمين على بعد نصف ميل إلى الجنوب من قصر شبرا، قد أنشأها الإنسان.

تتوزع القرى في مجموعات صـغيرة حول القسم الشمالي من الوادي، وإلى الشرق من الطرف الشـمالي للطريق الرئيس تقع قـرى شبرا، وأم خبـز، وقملة،

(١) قنوات الري. (المراجعون).

وحزم، ومليسة. وتعد شبرا آخر قرية في هذه المجموعة من ناحية الجنوب ولا تحتوي على مبانٍ كثيرة إضافة للقصر العظيم الذي يقف وسط حدائق فسيحة غنّاء تغذيها مياه قناة العين وغدائره الموزّعة للماء بلا توقف. كانت معظم الأرض هنا خضراء، وكان محصول الحبوب الجديد قد بلغ ارتفاع ست بوصات فوق سطح الأرض، وكانت بقية المساحة غابة من أشجار الفاكهة يصعب اختراقها، وكان حراس القصر الذي كان لسوء الطالع مغلقاً بحيث لم نتمكن من دخوله، يعيشون في إسطبل طيني، وكانت تعيش في أحد أجزائه، وراء قضبان حديدية قوية أربع نعامات مكتملة النمو، وكانت تطعمها من خلال السياج عجوز شمطاء بشعة المظهر، يبدو أنها كانت مسؤولة عنها. ولايزال النعام موجوداً في أصقاع الصحاري بالجزيرة العربية، خاصة في صحراء الحماد الشمالية، وفي الربع الخالي، حيث تجري مع المارية (بقر الوحش الإفريقي)، ولكن أحداً من رفاقي لم يكن قد تمعَّن في إحداها من قبل، فوقفوا فاغري الأفواه في إعجاب أمام الوحش الضاري ذي النظرات الفارغة الذي كان يغرب بجلافةٍ بقوائمه على البرسيم الذي قذفوا به إليه. وقالوا: «في حقيقة الأمر ليست النعامة إلا ناقة برجلين اثنتين، أو أن الناقة نعامة بأربعة أرجل، لا حول ولا قوة إلا بالله». كانت توجد بالقرب من القصر بئر سحبٍ تعمل بطاحونة للهواء، كانت القرى الأخرى التي تقع في الشمال تحتوي على مجموعات صغيرة من الأكواخ التي تتوسط حقول الحبوب والبساتين.

تقع قرية العقيق المنعزلة وسط مساحة كبيرة من أرض الحبوب تحيط بالوادي. وهي إلى الغرب من الطريق الرئيس، وعلى بعد ربع ميل من قصر شبرا، وكانت الذرة قد زرعت حديثاً وكانت النباتات المتبرعمة قد بدأت تظهر بكثرة في التربة البنية. وعندما كنت أتجول في الجوار التقى بي قروي مسنٌّ رث الثياب، وقد

بادرني بالحديث وبدأ يستجدي بطريقة فظّة نوعاً ما. وبما أنني لم أكن أحمل معي شيئاً فقد تخلصت بصعوبة من صُحبته المزعجة. وأثناء السؤال أخبرني بأنه يقيم ويمتلك قطعة صغيرة من الأرض في العقيق.

على بعد مسافة قصيرة غرب الطائف كان هناك شريط من قرى شبه حضرية، أبعدها من ناحية الشمال كانت النجمة التي كانت تقع تحت المنحدر الصخري الشاهق لرابية أم الصحفة. وفي هذه القرية بدأ عون، وهو أحد أشراف الماضي الكبار الذي لايزال الناس يحبسون أنفاسهم عندما يتحدثون عن عظمته وجلاله، بدأ في بناء قصر لنفسه بجوار بئر يغذيها أحد عيون الماء، ولم يتمكن خلفاؤه من بعده من إكمال المشروع. وبدا المبنى ذو الأعمدة العارية والحوائط غير المكتملة التي تقف دون أسقف كأنقاض مبنى قديم عظيم يأتي من طيّات التاريخ. أما القرية التي تليها جنوباً فهي قروى، وهي تضم عدداً من الدور المزخرفة الخاصة بتجار مكة الأثرياء، وتحيط بها البساتين. وإلى الجنوب منها تقع قرية سلامة الشبيهة بها. وإلى الجنوب من هذه، كانت تقبع في سفح جبل الصخرة قرية متنة وهي مجموعة أكواخ من الطين والحجارة.

كانت بساتين وقرى الحويّة وشهار تقع على بعد نصف ميل أو أكثر إلى الجنوب من الطائف، وكانت الأخيرة تقع عند سفح تلال القراحين ومجار الشاش. وتكتمل قائمة ضواحي الطائف بذكر قرية اليمانية التي تقع على الجانب الأيمن لمجرى وج. وتشتمل هذه البلدة على مجموعة صغيرة من بيوت متواضعة، بناؤها من الطين والحجارة وصفائح الكيروسين الفارغة، ويسكنُها الفقراء من المهاجرين اليمنيين، ومن الحدادين والصفاحين الشبيهين بالغجر، ومن المتسولين، وهم بقايا الحجاج الذين تقطعت بهم السبل فلم يتمكنوا من العودة إلى ديارهم.

وبالقرب من هذا المكان كانت توجد المجزرة المحلية، بعيدة عن المدينة، ولعلها من بقايا العهد التركي، وبناؤها من الطين العادي.

مدينة الطائف مربعة في شكلها وطول أي من أضلاعها ٣٠٠ ياردة، وكانت في السابق محاطة بسور من الطين والحجارة، يتناقض مظهر بقاياه المحطمة الآن مع هيئة المنازل الجميلة والقصور العظيمة التي تقع داخله. ويحتلُّ الجزء الأوسط من المدينة السوق الذي تبقى حجمه وأبعاده أكبر بكثير من الاحتياجات الفعلية للسكان المستديمين، رغم أنه بلا شك قد صُمِّم ليستوعب تجارة الصيف. ولم أجد في طرقات المدينة المتعرجة وأزقّتها نظاماً، ولم يكن هناك تماثل أو تناسق. كان مربع وسط المدينة غير منتظم الشكل، وكان في نهايته مسجد الهادي(١) ومكاتب الأمير المتواضعة وقاعة محكمته. وكانت مساكن الفقراء تحيط بالسوق من ناحيتي الجنوب والشرق. أما في الشمال والغرب فكانت تصطف قصور الأغنياء. وفي الركن الجنوبي الشرقي، داخل الأسوار، كانت توجد مقبرة قديمة توقف استخدامها منذ عهد بعيد، وكانت المقبرة الجديدة قد توسّعت حول ضريح ابن عباس خارج الأسوار. وكان يحتلّ الركن المقابل حصنٌ مصمت الجدران أقيم فوق نتوء طبيعي، وهو من بقايا الدولة السعودية(٢) إذ أنّ سعود الكبير هو الذي أمر ببنائه بعد أن دخل الحجاز. والحصن مربّع كامل، أركانه مدوّرة وأسواره ذات فجوات، وعلى جوانبه كانت توجد بعض آثار قصفٍ، بيد أن بنادق قوات الشريف لم تترك عليه آثاراً ذات شأن عند انتزاعه للمدينة من قبضة الأتراك. ورغم أن سور الطائف لم يعد قائما، إلا أن بواباته الثلاث، التي كانت مداخل للمدينة في الماضي، مازالت قائمة على الأجزاء المتبقية من السور، باب السيل في الجانب الشمالي، ويقود إلى

---

(١) يُقال إن مجموع المساجد بالمدينة أحد عشر مسجداً، ومدرسة واحدة. (المؤلف).

(٢) وفقاً لرواية ابن سعود، رغم أنه يستند على مرجع، ويبدو لي أن الصرح يعود لعهد أقدم بكثير. (المؤلف).

الطريق الرئيس، وباب الريع في الجـانب الغربي، ويقـود إلى الطريق المبـاشر إلى مكة، الذي يمر عبـر جبل كرا، وأخـيراً باب ابن عبـاس في الجانب الجنوبي، في اتجاه مسجـد الولي الراعي. وكانت توجد بجوار باب السيل بقـايا مسكن الشريف وبيت الحكم وكلاهما حطمته مدفعـية الأتراك على سبيل الانتقام من تمرد الشريف على سيـده المتمـتع بحق الولاء، سلطان تركيـا، قبل أن يسلموا المدينـة للشريف عبدالله.

لم يكن علي ليسأمَ مـن الحديث عن حصار العرب للطائف ووقـوعها تحت أيديهم، أَلَمْ يكن هو أحـد الذين راهنوا بالكامل عـلى الجهـاد؟ أَلَمْ يكن هو الآن عريفـاً في شرطة الطائف؟ شرح لـي أثناء تجوالنا تفاصـيل الحصار الذي تم وفـقاً لطريقة الحـصار المتقطع التي ينتهـجها كل العرب، والذي دام لمدة ثلاثـة أشهر في نهاية صيف وخريف ١٩١٦م. وكانت قوات الملك قد أخضعت مكة وجدة، وكان عبدالله، ابن الملك قد أُرسل لسحق ما تبقى من قوات الأتراك في جنوب الحجاز، أو بمعنى آخـر لإخضاع الطائف. احـتل العرب شـرقرق وسـلاسل جبليـة أخرى باستخدام مـواقع قصف متقدمة على جبال ديمـة والصخرة، بينما قلل الأتراك من خطوطهم القتالـية بأن كرّسوا جهـدهم للدفاع عن الطائف نفسها إضـافة للثكنات والمواقع الأمامية في أم الصحفة وأكابر، وهذه الأخـيرة كانت متصلة بالثكنات عبر خندق عميـق، وأخبرني محدثي وهو يـحاول أن ينتزع إعجابي بـهندسة الحروب الحديثة: «عبـر هذا النفق كان يمكن للعدو أن يتصل ويتواصل مع مواقعـه المتقدمة دون أن يعرض رجلاً واحـداً لنيران القوات المحاصرة القاتلة». لم يكن مـهمة هذه القوات المحـاصرة يسيرة وهم يحـاولون نقل مدافع الحصـار عبر الممرات الجـبلية، وتشهد حالة الثكنات المتـهدمة التي ركزوا على قصفها على العـمل الجيّد الذي قام به رماة المدفعية المصريون.

كانت الثكنات تتكون من فناء عظيم مستطيل الأبعاد تحيط به مبانٍ منخفضة لنوم الجنود وأخرى للطعام، وفي منتصف الفناء كان ينتصب مبنى من طابقين على قدرٍ من الكِبر، وهي غرف الضباط، ولم يسلم أيٌّ منها من القصف العنيف. ارتقيت إلى الطابق الأعلى عن طريق كتل من الحطام التي احتلت موقع الدرج القديم، حيث وجدت غرفاً بلا أسقف تمتلئ بشظايا خشبية وركام من كتل المباني المنهارة. وكانت توجد حول غرفة الضباط العامة بيوت صغيرة لسكن الضباط، فقدت معالمها أيضاً، وتقع وسط ما يبدو كأنه حدائق زهور. وكان القائد قد انتقل أثناء الحصار ليسكن في قبو سرِّي تمَّ بناؤه خصيصاً من كتل ضخمة من الحجارة في أحد أركان فناء الثكنة، ولكن كان بعض الخائنين يعينون العرب من داخل أسوار المدينة. وقد أشار علي بفخر إلى فجوة ضخمة في سقف القبو سببتها قذيفة محكمة التوجيه من المدفعية المصريّة، ولكن لسوء الطالع كان القائد خارج القبو في ذلك الوقت. فقرر وهو يهنئ النفس بالسلامة ألا يتعرض لمخاطر أخرى، فنقل قيادته إلى الطابق الأرضي من منزل أحد التجار في المدينة، ونقل أتباع الشريف هذه المعلومات سريعاً إلى قيادة المدفعية في الصخرة وكانت النتيجة أن انهار قصر التاجر فوق جثث عائلة صاحب الدار، ولكن القائد التركي كان خارج قيادته للمرة الثانية. وفي صباح اليوم التالي استسلم الأتراك وخرجت الطائف وإلى الأبد من قبضة الإمبراطورية التركية.

في صباح يوم ٢٨ ديسمبر (كانون الأول)، وبعد أن اكتملت الاستعدادات للسفر، أمرت إبراهيم للخروج بالإبل إلى باب الساحل انتظاراً لقدومي، وقادني مضيفي لأودّع الأمير الذي وجدناه في قاعة المحكمة في السوق جالساً في شرفة نافذة مُطِلَّة على السوق في غرفة في الطابق الأعلى ممتلئة بجمهور من البدائيين المنتظرين في صبر وضوضاء كما هو حال العرب، كلٌّ ينتظر فيما يبدو، دوره في

المثول أمام كـرسي العدالة في الشرفة. وكـان حسين بن جودي يساعـد حمود في نظر القضـايا، جالسـاً إلى يمينه فوق مـقعد النافـذة، بينما وقف إلى يسـاره أحد الأعيان، شيخٌ ـ فيـما أعتقد ـ من عتيبة يسـمى قُلَيِّل، وكان الشيخ يقوم بدورين، كشاهد خبير وكمستشار للادعاء أو الدفاع في القضية المعروضة أمام الأمير. مررتُ عبـر الحشود بصـعوبة وجلست بناءً على دعـوةٍ من الأمير في الشـرفة، بينه وبين حسين وأنا أتوسل إليـه أن يستمر في الاسـتماع للقـضية حتى يفـرغ منها دون أن يعيرني انتبـاهاً، واستجاب لالتماسي وتمتعـت بفرصة متابعة مجـريات قضية يُنظر فيها وفقاً للقانون البدوي.

كانت القضـية المطروحة قضيـة قتل فيما يبـدو. وقف المدَّعي والمدَّعى عليه أمام كرسي القضاء، كلٌّ يدافع عن قضيته، وأصواتهما ترتفع لتبلغ مرحلة الصراخ الغاضب ثمّ تهـدأ بنفس القدر من الفـجاءة لتصـير همسـات منخفضـة، وتتخلَّل مجريات القضية فواصل من لعلعة مرتفـعة ضاحكة أو همهمة ضاحكة منخفضة، حينما يواجـه هذا الجانب أو ذاك اندفاع خصمـه بقذيفةٍ مضادة من بديهـة حاضرة لَماحة. ولم يكن الأمـر هنا، كما بدا لي بوضـوح، قضيـة حياة ومـوت، ولكنها كانت مسألة تسوية في الإطار العام الذي تُمليه العادات البدوية، ورغم أنني فهمت القليل من لهجة سكان المرتفعات الأجلاف التي كانت تدار بها القضية، لكنه صار واضحاً من ابـتسامات الطرفين إزاء أمر المحـكمة، أن وليّ القتيل كـان راضياً بألا يقتل القاتل شريطة أن يدفع المبلغ الذي قُيِّمت به حياة القتيل. العين بالعين والسن بالسن ليست جزءاً من قـانون البدو. إن الخصومة الدموية التي جلبـها القاتل على نفسه بفعلته، يُعطي الخيار لولي الدم بأن يقبل بالثمن عيناً أو نقداً.

شقَ شيخ مسنٌ طريقه نحو مجلس الأمير وبدأ في قراءة مدح طويل من تأليفه عن تميز إدارة الإقليم. صبر الأمير في حلم على المحنة، ثم صرف المنتهك لحرمة المكان بأن نفحه قليلاً من المال. وقفت أنا مُستأذناً في الانصراف وتقدمني الأمير يتبعه معاونوه وهو يصرُ على أن يصحبني إلى البرحة حيث ركبنا مطايانا أنا والرفاق لنبدأ مسيرتنا نحو الساحل. كنت أتوقع أن أعود لهذا المكان الذي قضيت فيه وقتاً جميلاً مبهجاً رغم قِصَرِه، ولكن توقعاتي كان مقدراً لها أن تخيب، إذ أنني لم أعد إلى الطائف بعدها. ما كنت لأبخل بإنفاق القليل أو الكثير ليُسمح لي بزيارتها ثانية، وبالتجول في جبالها بين رجال عشائرها الذين لم ألتق بهم إلا للمحةٍ خاطفة في تلك القاعة المكتظة بهم. هم عرب بلا شك، لكن لا شيء يجمعهم برعاة الصحراء.

٣- وادي فاطمـــة

تتبعنا دربنا الذي سلكناه قبل أيام قليلة لنهبط الوادي عـبر قصر شبرا للقرية الأولى القيم حيـث فارقنا طريقنا الذي أتينا عبره لنسـير هذه المرّة بطول قناة وادي العقيق الذي كانت تقف فيه ـ بعد فواصل ـ مجموعات من المساكن هي التي تكوّن القيم. ارتقـينا لفترة وجيـزة سلسلة وعرةً تغطّيهـا الحجارة لنتخطى بسـاتين نخيل وقرية المريسـية الواقعـة بين مجمـوعة من الروابي عن يميننا، وبعـد خطوات قليلة عبرنا العـقيق، وهو هنا بعرض ربع ميل وتغطّيـه الحجارة، عبرناه للمـرة الأخيرة أسفل قرية رغاض التي تـسامت على قمّة سلسلة تلال خفيفـة عن يسارنا. ينحدر مجرى السيـول من هذا الموقع عبر سفوح التلال نحو القرية التي أدّى فـيها رفاقي الصلاة بينما كان الطريق يرتقي بنا إلى أعلى. يلتقي بالمجرى في القيم رافد صغير في شعيب يُسمّى باسم القرية، ويغذّيه أسفل ذلك الموقع شعيب جديرة كما يغذّيه أيضاً الـصرف السطحي للسـهل الذي تحيط به المرتفـعات من كل جـانب، والذي تغطّيه الشـجيرات. يميل هذا السـهل قليلاً من الغرب إلى الشـرق، وتحيط به من ناحية الغـرب سلسلة من تلال طويلة منخفضة تسمّى رحـاب، من خلف العقيق، ومن ناحية الشمال ـ قبالتنا ـ تحيط بالسهل سلسلة تلال تُسمّى الوديرة.

تقع جـديرة ـ القرية الأخـيرة في منطقـة الطائف من ناحيـة الشمـال ـ إلى الخلف قليلاً في غيضة من أشجار السنط، على مسافة ربع ميل إلى يميننا، قبل أن نعبرَ المهد الرملي للشعيب الذي يمرّ عبـرها ليلتقي بالعقيق. وبالنظر ناحية الجنوب الغربي من هذا الموقع تَمكنّا من الرؤية الجـيدة لمجموعة من جبـال السلسلة الجبلية الرئيسة، قرنيت بأجزائه الناتئة المعقّدة التي تشـير نحو السماء، وبرد، وجبل شبيه بظهر سرجٍ عظيم قاد طريقنا في سهل ركبـة. قد يكون هذا الجبل هو كرا نفسه أو جزء منه، لكنيّ لم أستطع على كلٍ معرفة اسـمه. سرنا متقدمين نحو ربع الوديرة

وهو ممر وعر شديد الانحـدار فوق سلسلة وديرة التي تخفي وراءها متاهة مـعقّدة من مجاري السيول التي توجد بها كتل الجلمود الصخري التي حملتها السيول على مرِّ الأزمـان فتعـاظمت بها حتى صـارت أكواماً ضـخمة، كـما كانت توجـد بها سلاسل صـخرية وروابٍ. تنتـأ سلسلة الوديرة مكوّنة زاوية قائمـة مع رحاب في جوار الأخيضر لتصير مستجمعاً مهماً للأمطار. فقد كانت كلّ مجاري السيول التي تنحدر من الجوانب الشرقيـة للسلسلة الرئيسة إلى الجنوب من هذا الخط تصب في العقيـق، بينما تلك التي تنحدر من الشمـال تصب في اتجاه الشرق لبعـض المسافة لتنحني بعدها مسـتديرة باتجاه الشمال والشـمال الغربي في منطقة سفـوح الجبال، حتى تخرج في النهاية لتلتقي بقناة وادي فاطمة الرئيسة الواقعة في الجانب الجنوبي من الحجاز؛ في حين أن وادي حمض يقع في الجانب الشمالي منه.

يقسم الجغـرافيون المحليون الحجاز إلى خمـسة أقسام طولية ليسـهل التعرف عليها وهي: ١ ـ القسم الساحلي أو المنطقة الحارة، ويقع بين البحر وسفوح الجبال ويسمى الـتهام أو تهـامة. ٢ ـ سـفوح الجبـال الغربيـة أو الصدور. ٣ـ الشـفا أو السلسلة الفقرية للجبال العالية. ٤ ـ سفوح التلال الشرقية أو مناهي أو الأطراف. ٥ ـ الشرقي، أو الصحراء الشرقية.

كان الإقليم الوعـر أمامنا ممتلئاً بأشـجار السنط، ويقاطعـه مجريان رئيـسان للسيول وعدد لا يُحصى من المجاري الصغيرة. وقد تتبعنا في البداية شعيب عميزة ثم شعـيب رجيـفة، وهذا الأخيـر سُمِّي على كـتلة من الصخور الجلـمودية التي تكوّمت إلى أعلى كمعبد تاريخي عظيم تهـاوى متحطماً بفعل الزمن. وكانت تقع عن يميننا سلسلة من أكوام مماثلة تسمى الجلة، وتعرّج بنا المسار عبر متاهة الصخور ومجاري السـيول، حتى خرجنا بعـد حوالي ثلاثة أميال فجـأة إلى السهل الرملي

العريض، سهل السيل الصغير، الذي يجري من الغرب للشرق، مع ميلٍ تدريجي قليل، باتجاه الشمال. كانت نباتات الربيع المخضوضرة تنتشر هنا بوفرة، كما كانت البذور تتبرعم، وتعطر الهواء المتعرض لأشعة الشمس بالزهور الأرجوانية لنبات الزعتر. وتوقفنا ساعة لتناول وجبة منتصف النهار الممتعة التي تكوّنت من الخبز وعسل النحل والجبن والرمان. ففرغت من تناول الطعام واستدفأت بأشعة الشمس مستلقياً على الحشائش وأنا أدخّن غليوني في أمان في صحبة مصيّص الدليل والرفيق وشيخ قبيلة الثبتة التي تمتلك كل هذه المنطقة من التلال السفحية.

كان الشيخ أسمر اللون، ولا يقل عمره عن ستين عاماً، وكان محافظاً على قوامه، أشيب الشعر، كما كان طيباً ويتمتع بروح دعابة خشنة. الثبتة ـ فيما ادّعى ـ هي الفرع الأم لكل عتيبة الذين هم سادة الإقليم الجبلي حتى يومنا هذا، وهي التي أنجبتهم في أزمان قديمة، لذا فإن لهم السيادة على عشائر الروقة وبرقا الكبيرة التي ترعى سهول غرب نجد. كان الشيخ يحمل غليوناً أجعد من طين، وأعجبه تبغي فأثنى عليه، وبقي معي ليدخن بينما ذهب رفاقي بعد أن حفروا الأرض الرملية ـ وفقاً لنصيحته ـ بعمق حوالي ست بوصات ليحصلوا على الماء، فتوضأوا واصطفوا للصلاة. نظر إليهم حينما بدأ الإمام في قراءة سورة الفاتحة ووجّههم ببساطة بأن يستديروا لليسار قليلاً لا تشملوا أي لا تتجهوا صوب الشمال بهذا القدر، وحوّل الإمام وجهته دون أن يقطع صلاته، بينما حذا المصطفون خلفه حذوه. ووفقاً للبوصلة التي كنت أحملها كان الاتجاه درجتين إلى الجنوب من الغرب. كنّا حينها على بعد حوالي اثني عشر ميلاً شمال الشمال الشرقي من الطائف. بعد هذا الموقع كانت مراقبة رفاقي في أوقات الصلاة مصدراً للمتابعة بالنسبة لي، إذ أنهم عندما اقتربنا من البيت الحرام فقدوا كل إحساس بالاتجاهات، وفي حالات كثيرة كانوا يتجهون إلى مصيّص ـ أو لمن تولى القيادة بعده مستفسرين عن الاتجاه قبل أن يخطوا

على الأرض محرابهم للصلاة. وفقاً للمبادئ السلفية، فإن الصلوات لابد أن تؤدى في الاتجاه الصحيح، وفي الوقت الصحيح وبعد إكمال الوضوء الصحيح[1]. إن اتجاه الصلاة مهم جداً لأن الخطأ فيه يُبطل الصلاة. أما بالنسبة للآخرين فإن وقت الصلاة أهم من الوضوء الذي يمكن الاستعاضة عنه إن لم يكن الماء متوفراً دون أن تفسد الصلاة. وفيما يختص بوقت الصلاة فإن هناك وقتاً ممتداً يمكن أن تقام فيه صلاتا النهار عند جمعهما، ولكن ليس هناك فسحة من وقت عند صلاة الفجر وعند غروب الشمس، التي ينبغي أن تؤدى أولاهما عند أول بزوغ الفجر الصادق، والثانية عندما يتوقف الإشعاع الصادر عن الشمس الغاربة، ولا يجوز أن يبدو شيء من قرص الشمس الملتهب أثناء الصلاة في الحالتين.

نبع: سلسلة تلال منخفضة كثيرة الكتل، وتكون الجانب الأيسر للسيل الصغير، وقمتها بين ١٠٠ إلى ١٥٠ قدماً فوق مستوى قاع مجرى السيول. عبرنا السلسلة من خلال ممر منخفض لنصل إلى ممر جبلي وعر يتجه بنا صوب الشمال الغربي بطول مهاد سيول متعددة حتى بلغنا وادي طلح وهي قناة رملية تنقطها أشجار السنط بعرض يبلغ ثلاثين ياردة وتجري في اتجاه الشرق لتلتحم في النهاية بالسيل الصغير. وبعد انحدار قليل في هذا الطريق، تركنا الشعيب وضربنا طريقنا مرتقين رافداً لوادٍ صغيرٍ شديد الانحدار، وكان طرفه الأعلى يبدو مسدوداً تماماً باعتراض سلسلة عرضية.

(١) هذا هو ما نصت عليه الشريعة في القرآن والسنة وليس مستحدثاً بقيام الدعوة السلفية. (المراجعون).

كان هذا هو ريع المنحوت[1] أخطر الممرات في طريق القوافل العام بين مكة والطائف. كان المدخل للممر من الجانبين هو وادٍ ضيق شديد الانحدار وتحيط به من كل الجوانب الجبال العارية القاسية. كما يُمكن لعدد قليل من رجال القبائل ذوي السلاح الجيد والعزيمة الماضية أن يسيطروا عليه أمام جيش كامل، ورغم هذا لا يوجد هنا معقل أو حراس، قال لي مصيّص: «لقد اختلف الزمن في السابق كانت الفوضى تعم هذا المكان، وما كان للقوافل المسالمة أن تمر دون أن يدفعوا إخاوة لقبيلتي، والآن كلنا نتمتع بالأمن تحت ظل أمان سيدي وسيد الجميع». لم يَغْفَل الأوائل عن الأهمية الطبيعية لهذا المر، إذ أن قمة السلسلة إلى يميننا كانت تتبعثر فيها حجارة من بقايا حصن تعرّى، ولكن يمكن لأساسه أن يُرى، وفي أسفلها نُحت في الصخر ممرٌّ ضيق، وعلى جانبيها يمتد الطريق حتى الأودية الضيقة إلى الأسفل منه، والطريق معبّد بكُتَلٍ من الحجارة، ويحيط به من الجانب ذي الانحدار الشديد حاجزٌ من الحجارة. وكان المرتقى من جهة الجنوب متدرجاً بلطف بينما كان الهبوط من بعده مضطرباً وشديد الانحدار، لابُدَّ أن العرب قد تمكنوا من قهر المستحيل عندما أحضروا مدافعهم عبر هذا الطريق لحصار الطائف، أو لعلها كانت فقط مدافع جبالٍ أحضروها فوق ظهور البغال، إذ أن الطريق ـ كما بدا لي ـ لا يسمح بمرور عربات تمشي على عجلات مهما كان نوعها، ولعل الأمر أكثر صعوبة على الإبل.

تتبعنا الآن المنحدر السريع لشعيب الراقد، وعرضه ثلاثين إلى خمسين ياردة، بين منحدرات صخرية شاهقة ترتفع لمئتي قدم أو أكثر. وبعد هبوط استمر لمسافة ميلين، بلغنا مهد سيل الغربان، ومررنا بقطيع من خراف عتيبة السوداء في دائرة

(١) يقع بين السيل الكبير والسيل الصغير، بين واديي طلح وركاك، يبعد عن الطائف ٤٢ كيلاً شمالاً. البلادي، معجم معالم الحجاز، ج٨، ص٢٨٢. (المراجعون).

متسعة من أشجار السنط، ثم تنحينا جـانبا لنرتقي ممراً شديد الانحدار تغطيه الحجارة الجلمودية المدوَّرة، ويُسمى ممر ريع الزلالة. وفيما أعتقـد فإن الصخرة العجيبة التي رآها داوتي[(١)] تقع على رأس سيل الغربـان والتي شاء الحظ العاثر ألا أراها، إذ أن مسيس كان عـجلاً للوصول إلى غايتنا قبل حلول الظلام فلم يخـبرني بوجودها، إلا بعد حين، حيث صارت العودة إليها غـير ممكنة. يُقال إن شعيب الراقد يصب في السيل الكبير.

تمكنت الإبل بصعوبة وبمعاناة كبيرة من بلوغ قمة ممر الزلالة الذي تطلعنا منه نحو الأسفل لنرى مجـرى السيل العريض جارياً بين تلال منخفضـة تحيط به جبال ديمة العـالية، وكذلك سلـسلة الجبال الـتي تقع عن يسارنا. وكـان الهبـوط شديد الانحدار وكان السـير فوق الكتل الجلمودية الملساء خـادعاً وخطيراً، وارتجّت الإبل مع كل خطوة بمفاصل مـتيبسـة، حتى بلغنا القاع خـارجين إلى تلٍ رملي. كانت الشمس قد هبطت عن مستوى قمم الجبال عندما بلغنا حافة السيل، وعندها تلقانا رسلُ الملك الذين قادونا إلـى مجموعـة من الأكواخ الصخـرية المتواضعـة المسوَّرة بسياج من سعف النخيل في جزيرة صغيرة مرتفعة قليلاً عن مهد الأخدود. كانت تقع قبالتنا على الجـانب الأيسر لمهد السيول قرية الـسيل، مجموعة متـواضعة من أكواخ حجرية يسكنهـا رعاة من الثبتة، وعن يسارنا كانت تقع الجـبال العالية التي ينحدر منها السيل الكبير صوب الشـرق حتى يصل إلى سلسلة تلال منخفضة تبعد عدة أمـيال عن يميننا والتي يمر عليـها طريق حجـاج نجد حتى عـشيرة التي تبـعد عشرين ميلاً. كانت حصيلة مسـيرة اليوم هي عشرون ميلاً، هبطنا خلالها ١٥٠٠ قدماً، إذ أن السيل تقع على ارتفاع ٣٨٥٠ قدماً فوق سطح البحر.

---

(١) كتاب داوتي: .C.M.D، الجزء الثاني ص ٥٢٨. (المؤلف).

كانت المجموعة التي قابلتنا هنا تتكون من أحمد بن هزاع الأخ الأصغر لأمير المضيق، وابن عمه ابن سعد وكلاهما من الأشراف، ومعهما حوالي اثنا عشر تابعاً منهم عبد من التابعين الشخصيين للشريف. وقد رحبوا بنا بودٍ عميق حار، ولم يدخروا وسعاً من أجل راحتنا في تلك البيوت الصغيرة المتواضعة. وقَبِل أحمد وابن عمه والعبد ومصيّص دعوتنا للعشاء، فأمضينا أمسية سارة في صحبتهم. كان أحمد قد أمضى بعض السنوات طالباً للعلم في دمشق التي عاد منها قبل الحرب مباشرة قاطعاً الطريق الذي يستغرق أربعين يوماً على ظهور الإبل، لكنه كان يفزع عند التفكير في تلك التجربة، ويبدو أن رأيه قد استقرّ بأن يقضي بقية حياته بين بساتين البرتقال في قريته وبين مكة. كان معظم الحديث في تلك الليلة يدور حول مسألة الإحرام، لقد قطع رفاقي كل هذه المسافة وفي ظنهم أن توجهنا إلى جدة سيكون عن طريق مكة، وأنهم سيتمكنون من زيارة البيت الحرام في طريقهم.

السيل هي الموقع التقليدي الذي يقف فيه حجاج نجد وجنوب الجزيرة العربية ليستبدلوا بثيابهم العادية ثيابَ الإحرام البيضاء التي لابد أن يتم الحج فيها من هذا الموقع بعد الوضوء في بئر القرية القريب، ثم يركبون حاسري الرؤوس، ولابد أن يبقوا كذلك حتى نهاية الجزء المهم من الشعيرة حيث يطوفون بالبيت الحرام سبعة أشواط، لإكمال ما يتبقى من الشعائر. وفي أحسن الظروف فإن الأمر كله مضجر ويسبب كثيراً من التعب الجسدي من جراء البرد في الشتاء والحر في الصيف. لهذا كان قد تقرر سابقاً أن يرتدي المعتمرون ملابس الإحرام في الصباح الباكر. وأن نسير بجدٍ واجتهاد إلى أقرب مكان لمكة نختاره لقضاء الليل، ومن هناك يدخل رفاقي المدينة دون أن يضيّعوا وقتاً ليعودوا بعد أداء الشعيرة للمخيم ليرتدوا ملابسهم العادية من جديد بحلول الليل. بيد أن ترتيبات الشريف غيّرت خططهم؛

فقد كان علينا أن نسير عن طريق المضيق لنقضي فيها الليل، وهي تبعد مسيرة يوم تقريباً عن مكة. كان رفاقي البؤساء يواجهون احتمال بقاء يومين على الأقل دون غطاء مناسب، وكانوا موزعين بين الرغبة في التخلي عن مشروع العمرة وبين الخوف من عواقب مثل هذا التخلي. ورفضوا ـ لإخلاصهم ـ اقتراحي بأن يتركوني لأتابع رحلتي مع رجال الشريف على أن يقوموا هم بتنفيذ خطتهم الأصلية، ليلحقوا بي بعدها في المضيق. لن يسامحهم ابن سعود على هذا الهجر.

رغماً عن هذا شعرت بالحرج من أن يثور كل هذا الجدل بسببي. أنا بنفس القدر من الصلاح مقارنة بعدد كبير من سكان مكة نفسها، ولو كان الأمر بأيدي رفاقي لكان دخولهم إلى مكة في صحبتي شيئاً يسرهم، ومن ناحية أخرى فإن خطة الشريف لم تكن معلومة لنا، لكن أحمد كان يرى أنه قد يخرج من المدينة ليتلقاني في الطريق. وخطرت لإبراهيم ومضة من إلهام: "انظروا، لا يُسمح لشخص محرم أن يلقي بالاً أو يُحيي أي إنسان حتى يؤدي فروض الاحترام لله في بيته الحرام، وإن فعل شيئاً كهذا فإن حجه باطل[1]. ومع هذا فإن حدث أن الشريف خرج لملاقاتنا، كيف سنمتنع عن تحيته؛ لا لندع فكرة العمرة نهائياً". وبعدها وجد اقتراحي بأن يتركوا العمرة تحت كل الظروف، ليؤدوها في طريق العودة من جدة، قبولاً من الجميع، ولم ينغص أحلامهم تلك الليلة التفكير في الاستحمام بماء بارد في قشعريرة الصباح الشتوي.

إن نظام الصرف في تلال السيل مُعقّدة بشكل لافت للنظر. ينحدر القسم الجنوبي من الجانبين نحو الأسفل حيث يتجه مجرى السيل شرقاً لأربعة أو خمسة أميال، ثم ينحني ناحية الشمال نحو كتلة من التلال المنخفضة. ويسير عبرها حتى

(١) يلاحظ أن المؤلف يخلط بين الإحرام للحج والإحرام للعمرة، فالوقت ليس وقت حج. ثم إن المحرم يجوز له أن يحيي ويتكلم مع الناس ولا يفسد إحرامه للعمرة أو للحج. (المراجعون).

تتم تغذيته في مـوقع ما من مسرة، بتدفـق السيل الصغير، ثم يلتـقي بأحد روافد وادي فاطمة، ويسـمى حراضة. أما القسم الأوسط الذي يعـرف باسم بحيطة فإنه ينحدر كسـابِقِه إلى الأسفل من الجهتين ليـصل إلى مهد مركزي للسـيول، يجري منحدراً صـوب الغرب نحو فتـحة عظيمة في سلـسلة الجبال الرئيسـة التي تسمى انسومين فيعبرها نحو وادي اليمانيـة، الذي يتحول عندما يقترب من وداي فاطمة، في جوار مستـوطنة صولة إلى الغرب ليمر هو الآخر عبـر فتحةٍ في سلسلة المدرّج إلى مكة. كان داوتي قـد سافر عـبر هذا الوادي حتى بلغ صـولة ومنها دلف إلى وادي فاطمـة في طريقه إلى جـدة، وتقع في هذا القـسم أيضاً قرية الـزيمة وقرى أخرى. أما القسم الثـالث فتفصله عن القسم الثاني سلسلة تلال منخـفضة تسمى صنيفرة، وتشتـمل على مثلث صغير تحيط به الجـبال من كل جانب، وينحدر إلى أسفل صوب الشمال نحو حراضة.

تبلغ المسافـة من السيل حتى مدخل حـراضة ثلاثة أميال فـقط. فوق صقع رملي تغطيه الشـجيرات قطعناه في الصبـاح الباكر من اليوم التـالي عابرين سلسلة تلال صنيـفرة بالقرب من أعلـى هضابها التي تسـمى صنفرة، والتي تـلقب جدة العبيد إذ أن العـبيد يُلقبون صنافرة. حراضـة وادي رملي يبلغ عرضه بين ٥٠ إلى ٤٠٠ ياردة وتحدّه جـبال تعلوه لارتفاع ٣٠٠ و٤٠٠ قدم على جـانبيه، ويستـمر هكذا لمسافة مـيلين حيث يلتقي به مجـرى سيول عريض من جـهة اليمين. وهذا المجرى في حقيقة الأمر هو مجرى السـيل نفسه رغم أنهم يطلقون عليه محلياً في هذه النقطة اسم وادي بعـش. وفي هذا الموقع تخطينا حـدود الثبـتـة لندخل إلى حدود هذيل، وهم بكل المقاييس قبيلة رعوية، وذات علاقة بعيدة مع قبيلة حرب، وتعيش في سقيفات من الصوف بالغة الصـغر قد لا يتعدّى ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أقدام، بين جبالهم الوعرة شديدة الانحدار. وتمتـد القبيلة بطول وادي فاطمة حتى

حدود تهامة، ويهتمون بالنحل ويرعـون الضأن ويقومون بزراعة رقاع محدودة في مدرجات تسقى بماء السيول في الوادي، ويقومون أيضاً بتربية نوع من الإبل الجبلية شديدة الصغـر وكثيرة التـحمل، ويُقال إن باستطاعـتها أن تتسلق جـوانب الجبال شديدة الانحدار بنفس مقدرة الأغنام. تركنَا مصيّص في السيل ذاهباً لبعض شأنه، وكان قد قطع المسـافة بين الطائف، هو وتابعه، بالتتالي على بغلة جـيدةٍ وجحش مُعتلٍ، وكان الأخير ينهار عدداً من الممـرات خلال اليوم تحت وطأة الأمتعة الثقيلة التي كان عليه أن يحملها مع حمله لراكبه.

بعد مسافة ميل واحد بلغنا ملتقى للأودية: حراضـة الذي كنا نسـير فيـه و بيري، وهو مهـد سيول عريض يأتي من الشرق ليـقترن في هذا الموقع مع وادي فاطمـة أو وادي الشامـية وهو الاسم الذي يطلقـونه عادة على الأجزاء الـعليا من وادي فاطمة والذي كانت جـموع الحجاج الشاميين تأتي عن طريقه عـاماً بعد آخر عبر الـقرون لزيارة بيت الله. أما الطريق الساحـلي البديل الذي يمر من المدينة إلى مكة عن طريق رابغ فـإن المسـافرين ينأون عنه في فـصل الصـيف بسبب الحـرارة الحارقة لبلاد تهامة المنخـفضة. ولكن في وقت تسلط هذيل وقطعهم للطريق الذي يمر بعيـداً عن الساحل، كـانت بعثـات الحج تختار ـ من باب أقـل الضررين ـ أن تتعرض لأخطار الحرارة الشديدة في ذلك الطريق الساحلي بدلاً عن التعرض للبلاء من المضايقات الفجة التي يتسبب فيها الإنسان. ولم يفشل الأتراك في حل مشكلة مثل فشلهم في إدارة أو فـهم القبائل العربية. لقـد كان العلم التركي طوال الوقت يرتفع بدون استقرار مُطِلاً على مـشاهد العنف والسلب والفوضى في هاي ومنطقة الفرات وفي الأحساء وفي اليمن والحـجاز، وهذه أمثلة قليلة. أما الآن فإن الأمن يسود كما لم يفعل من قبل، وفي كل مكان يستكن في أعماق قلوب الرجال فرح

صامت بذهاب الأتراك وانقشاع غمّة استبدادهم الظالم وجشع مسؤوليهم. إن وادي فاطمة آمن الآن للمسافرين، كأمن طرق الأحساء؛ ويجتهد الرجل الفظ في العراق في تحوير سيفه إلى شفرة محراث، ولم يبق إلا اليمن التي مازالت حالات النهب والسلب مستمرة بها رغم أنها قد أوشكت على الانحسار(1).

في الموقع الذي دخلنا عبره إلى وادي فاطمة، كنا على بعد ثمانية أميال من السيل وعلى بعد ثلاثين ميلاً تقريباً إلى الشمال من الطائف، ومن هذه النقطة تحول مسارنا باتجاه الغرب مع بعض الميل، تارة إلى الشمال وتارة إلى الجنوب. كان عرض الوادي يتأرجح بين ٢٠٠–٥٠٠ ياردة وارتفعت الجبال على جانبيه عالياً لارتفاع بين ٤٠٠ إلى ١٠٠٠ قدم فوق سطح المهد. هبطنا لمسافة ثلاثة أميال لنبلغ أوّل آثار للزراعة في أم الخير، وهي قرية صغيرة بها ثلاثة أو أربعة أكواخ حجرية متواضعة، أسقفها من الطين، وتقع على أحد جانبي صقع فسيح، يغطي الطمي تربته، وصنع فيه الإنسان مصطبات مدرجة لزراعة الحبوب، ووجدنا بها بعض الخراف ترعى الجذامة بعد أن تمّ حصاد الموسم السابق. تعتمد زراعة المصطبات هنا على السقيا من السيول، إذ يحول السيل الهابط عن مجراه باستخدام حواجز من التراب والأخشاب، ليسيل نحو قطع الأرض المربعة المحاصرة بالسدود من كل جانب. وبعد أن يتم إغراق هذه القطع مرة أو مرتين بهذه الطريقة، وتبتلُّ التربة وتصبح جاهزة، تنثر فوقها البذور وتترك ليتم الإنبات ولتنمو حتى وقت الربيع حين ينزل الحاصدون عن جبالهم ليملؤوا من الغلال مرابدهم. ويجري عدد

(1) كتبت هذه السطور في ١٩١٩م، قبل إعداد معاهدة السلام التي أخرجت اليمن عن السلطة العثمانية وقبل التمرد في بلاد ما بين الرافدين التي عرقلت مؤقتاً التنمية السلمية في البلاد والتي كانت تتم تحت حماية بريطانيا العظمى. (المؤلف).

من مهادي السيول هابطة نحو الوادي في هذه النقطة، ومنها خران من الجنوب، ونمرة وأم الطخر من الشمال، وطلع أيضاً من الشمال وهو ينحدر سريعاً من جبل عالٍ يقال إن في قمته تقع قرية صغيرة تسمى حلينة، وسط بساتين من نخيلها.

بعد مسافة أقل من ميل واحد في الاتجاه الأسفل انحنى الوادي مستديراً حول رابية بازلتية بارزة اسمها يلائم شكلها، تسمى خشم الغراب[1]، واستمر في اتجاه الجنوب الغربي عبر عدد من رقاع المصاطب المدرجة المزروعة بالحبوب، والتي رأيت في إحداها عملية بناء السدود حولها. كانوا يستخدمون ثورين صغيري الحجم بعد أن ربطوا عليهما لوحاً خشبياً ثقيلاً يجرون به التراب ليكوموه في المكان الذي يريدون، وبعدها يُوطأ السدُّ مراراً وتكراراً حتى يصير صُلْباً. واصلنا سيرنا هكذا لمسافة ستة أو سبعة أميال، حيث تجري الروافد هنا وهناك منحدرة نحو الوادي: رافد غلوة وإزحل من اليسار، وصامو من اليمين، وهذا الأخير توجد في أعلى مجراه قرى وبساتين نخيل صُفَيّة. ثمّ رافد القرضة والقطبة من جهة اليسار، وبعدها تنتأ سلسلة تلال عالية من جهة يسار الوادي صوب الغرب. رأينا من هذا الموقع الذي يحد نهاية وادي الشامية وبداية وادي الليمون وهو الاسم الذي يطلق على الجزء التالي من وادي فاطمة، رأينا أولى نخيل قرية المضيق.

قادتنا خطوات قليلة لحديقةٍ سقينا عند حافتها إبلنا من غدير تخر مياهه خريراً، يُسمى عين البردان وهو نهر دائم المياه مصدره في جانب التل عن يسارنا، وهو يغذي قرية المضيق بكاملها بالماء. تقدمنا لنجد أن الجرف شديد الانحدار على

(١) منقار الغراب. (المؤلف).

جانبي الوادي وقد أحالته لممر ضيق، وبـدا لنا من ورائه فجأة جمال وادي الليمون المداري، فسـحرت أعيننا ببهـائها بساتين البـرتقال والنخيل ومزارع الموز وحـقول الحبـوب التي بدأت لتوها في الإنبـات وحقـول البرسيم، وقد اختلطـت ظلالها الخضراء المتباينة وتداخلت أمام خلفية جبلية مقفرة. وبرزت على جانبي الجبال قمم وعرة يصل ارتفاعـها إلى ألف قدم، بينما تناثرت هنا وهناك هضاب منخـفضة من الصخور تتوجها قرى بُنيت من حجارة تم نحتها بخشونة. لم أرَ في جزيرة العرب كلها جمالاً كهذا، ولم أصادف في تجوالي اللاحق أيضاً مثيلاً لها. يمكن أن تكون الطائف بهذا الجمال في زمن الربيع، ولكن الطبـيعة هنا كانت على هذا القدر من العظمة دون أن يزينها أو يزخرفها البشر.

تم استقبالنا هنا من قبل موكب مهيب، كان على رأسه الشريف حوذان أمير المضـيق، والشيخ مـساعِـد سكرتير الملك، وكـان الأخيـر يركب بغلاً بدينـاً وافر الحسن. وبعد تبادل عبارات الود والترحاب قادونا إلى أسفل الوادي لسفح الهضبة التي وقفت عليها القرية الرئيسة للمنطقة، وارتقينا عبر ممر ضيق شديد التحدر لمنزل حوذان في قمـة التل، فترجلنا وقادنا صاحب الدار نحو المضـيف أو قاعة الزوار، وهي غرفـة مسـتطيلة مفروشـة بالسجـاد والمساند ومـزخرفة بعـدد من البهـرجان الأوربي، وبأشرطة وخيوط تستخدم للزينة، كـما اكتظت الغرفة بالطرف والتحف العتيقة، وكان كل هذا الزخرف بلا نبضٍ أو حيـاة. كان حوذان شيخاً جليلاً لطيفاً صامتاً لا يتحدث إلا لماماً، وكان أكبـر سناً من أخيه أحمد. انضم للمجموعة في المضيف عدد من إخوانهما الصغار وبعض شيوخ القرية، حيث دار الحديث رسمياً ومقيَّداً كما يُتوقع في مثل هذه الحالات، واحـتكر الساحة مساعِد وكان هو المتعلم الوحيد وسط هذه المجموعة واسـتحق بهذا الفضل أن يُتنازل له عن شرف الجلوس

بجواري، كما ألقيت على عاتقه مسؤولية تسلية الضيف الأوربي الزائر. فتح مساعد شنطة يد جلدية صغيرة ـ كانت فيما يبدو لا تفارقه ـ محاولاً أن يُدخل في رَوْعِنَا باتخاذه الحيطة والحذر عند فحصه لمحتوياتها بأنها تحتوي على أوراقٍ للدولة ذات أهمية قصوى، وأخرج منها لسروري برقية وكالة رويتر الأخيرة وصحيفة فرنسية أو اثنتين، تاريخهما قديم، وتحدث عن علم عن التطورات الأخيرة للحرب والأوضاع التي نشأت عنها. ولقد علمت منه لأول مرة بوفاة كولونيل مود. وكان الموضوع الرئيس للحديث بالطبع هو احتلال القدس وما تبع ذلك من أحداث في فلسطين.

ما لبثت أن أصابني الضجر من مساعد وفكرت في هروب قصير من صحبته بأن اقترحت أن نقوم بزيارة المزارع. تم اختيار أحمد لمرافقتي وتجولت في وادي الليمون حتى مغيب الشمس. يمتدّ الوادي بطول ميلين تقريباً من الحديقة التي دخلنا إليه منها إلى رابية مخروطية تسمّى اللوية. ومن خلف الوادي تقع سلسلتان أكثر ارتفاعاً: المُدَرّج وحرض، الأولى عن يسارها والتالية عن يمينها، وبينهما ينحدر وادي اليمانية باتجاه مكة من خلال فتحة ضيقة. يبلغ عرض الوادي في المتوسط نصف ميل، ويجري من خلاله مجرى السيول المغطى بالحصى، والذي يجري بطول أحد جوانبه نهر عين البردان خلال حقول خضراء ومزارع حتّى تنضبَ مياهه فيها. من أهم معالم هذه المنطقة بساتين البرتقال والليمون السكري التي تنتشر بوفرة في كل مكان رغم أنها تعرضت قبل عامين لهجوم عنيف من الجراد. كانت مجموعات من النخيل وورقات نباتات الموز تتخلّل حدائق البرتقال، كما كانت مزارع الفلفل والباذنجان والبقوليات وخضراوات أخرى تتعاقب مع

أشرطة طويلة من البرسيم[1] والقمح. كنَّا نرى هنا وهناك جذامة دخن تمّ حصاده مؤخراً. ومررنا عبر صفوف من سياج ياسمين البر أو ما يشابهه من المتسلقات، كما رأيت شجيرات قطن كثيرة. ويمكن زراعة القطن هنا بلا شك كمحصول منتظم ولكنّ الحاجة إليه قليلة، والطلب الشديد للفواكه في مكة استهلك كل الأرض وطاقة كلّ الناس.

يعتمد المزارعون في العادة على عين البردان للريٍّ، ولكن طاقتها محدودة، وفي مواسم السيول الوفيرة فإن الحقول المحاطة بالسدود إلى الأسفل يتم إغراقها ثم زراعتها بالحبوب كما هو الحال مع الأجزاء العليا من الوادي. وفي تقديري أنّ تعداد المضيق يبلغ ١٠٠٠ نسمة يتكونون من الأشراف الذين يملكون المزارع والحقول، ومزارعيهم من الأرقاء المحررين ورجال القبائل الآخرين. والمناخ الذي يسود في هذا الوادي الذي يقع على ارتفاع ١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر هو مناخ شبه مداري، معتدل في الشتاء، وخانق وغير صحّي في حرّ الصيف. كما يعتقد الأهالي أنه يوجد هنا ما لا يقل عن ٣٠٠ عين تختبئ في وادي فاطمة ظهرت منها إلى السطح حوالي سبع وعشرين عيناً، ولكن أخبرني مساعد أنّ الملك يولي عنايته الجادة للتنمية الزراعية في الحجاز. لقد تم إنشاء قسم للزراعة منذ عهد قريب، ويُتوقع أن تثمر تحرياتهم وجهودهم في تحويل الأفدنة القاحلة في وادي فاطمة إلى أراض غنية لزراعة الحبوب وأشجار الفاكهة.

عند عودتنا مدوا أمامنا وجبة وافرة قوامها الأرز ولحم الضأن مع الخضراوات، وبعض معجنات مكة ذات المذاق الطيب التي أحضرها مساعد معه. وبعد أن دارت أكواب القهوة تُرِكْنَا، مُساعِد وأنا منفردين في المضيف. ناقشنا

(١) يسمونه هنا برسيماً، ولكن الاسم العام في نجد هو القت. (المؤلف).

لبعض الوقت أموراً سياسية عامّة، ثم تطرقنا على وجه الخصوص للأمور السياسية في الجزيرة العربية. كان مساعد يشير في حديثه للشريف تارةً بلقب "جلالة الملك" وتارة أخرى" سيدنا وسيد الجميع". ثمّ استغرقت أنا في قراءة البرقيات والأوراق التي أحضرها معه، بينما كان هو يسطر لسيّده أول انطباع أخذه عن شخصي؛ وبعد ذلك بقليل استدار كلّ منّا في مضجعه مستسلماً للنوم.

كان قد تقرر من قبل أنّنا سنقضي الليلة التالية في الوزيرية حيث إننا سنجد ـ وفقاً لرواية مساعد ـ كل الترتيبات معدّة لاستضافتنا، لذا استأذنّا الشريف حوذان في السفر. وبناء على ذلك بدأنا مسيرتنا بعد الساعة الثامنة صباحاً بقليل هابطين للوادي. وبعد أن عبرنا مهد سيول الشعبة واللويّة القادمين من اليسار، استدرنا صوب الغرب بطول سفح جبل اللويّة حتى بلغنا منبعاً دائرياً فسيحاً في الوادي تقع فيه حقول الحبوب وتنتشر فيه البيوت الحجرية لبلدة عين الجديدة التي أخذت هذا الاسم من أحد العيون العديدة التي تمّ اكتشافها منذ عهد قريب، والتي يُعتمد عليها لري هذه الأراضي. ويفيض ماء هذا النبع ـ الذي وقفنا حياله لنسقي الإبل ـ في أعلى المنبعج ليصبَّ في حوض صغير صافي، مسوّرٍ من جهات ثلاث، بينما ينحدر بلطف إلى الأسفل من الجهة الرابعة لتصل إليه الحيوانات. بدت عن يسارنا فوق كتف جبل اللويّة المنخفض بساتين نخيل قرية صولة في وادي اليمانية الذي ترقد في أعاليه قرية الزيمة. كان مسارنا بعد ذلك بمحاذاة سفح سلسلة تلال حرض صوب الغرب. وكان يلوح خلف صولة إلى الجنوب مشهد لا نهائي من الجبال العالية في اتجاه جبل كرا حيث يجري الوادي ابتداءً من هذا الموقع باسم وادي الزبرة ويصير عرضه ٢٠٠ ياردة بعد قرية عين الجديدة، وتنتشر فيه رقاع من حقول المصاطب المدرّجة، وكان يظهر من حين لآخر كوخٌ حجري.

بعد مسيرة ثلاثة أميال أخرى بلغنا الجبل المخروطي العالي أبوخصف، والذي يقال إن مكة ترى من قمته، والذي يجري الوادي ليستدير عند سفحه تجاه الشمال الغربي صوب سلسلة بازلتية طويلة منخفضة مسطحة القمة تسمى وضاف، اقترن الوادي هنا بوادي ضرعة ثم استدار ثانية نحو الغرب؛ ورأيت في أعلى ضرعة ثلاث كتل عظيمة تسمى السوداء وهي التي يجلب سكانها الخجولون أجود عسل نحل يمكن الحصول عليه في الحجاز. يدل الاسم على أنها من تكوينات بركانية وتنتمي لمنظومة الحرة العظيمة التي تمتد شمالاً لتصل المدينة وما بعدها، وكانت تبدو عن اليمين عن قرب قمة عقر التي تعلو ككتلة مكونة من عدد أقل من الجبال.

يجري الوادي الآن بعرض ٥٠٠ ياردة بين سلسلتي وضاف ونبع إلى عين مبارك، حيث وقفنا لنتناول وجبة شهية من المعجنات التي قدمها مساعد والتي أصررت أن يشاركنا فيها كل رفاقنا مما أدّى لاستيائه، تركتهم لينالوا قسطاً من الراحة بينما خرجت متجولاً حول المستوطنة لأرى النبع المحاط بالأسوار مثل عين الجديدة، ولأرى مزارع الخضراوات الممتدة التي رأيت فيها، بوفرة، البطيخ والجزر الأبيض والبقوليات وخضراوات أخرى؛ وكانت توجد هنا وهناك مجموعات من المساكن الحجرية ومجموعات صغيرة من النخيل.

عندما عاودنا المسير تركنا الوادي يجري إلى الشمال متجهاً قليلاً نحو الغرب، وسرنا صوب الجنوب الغربي لندخل في متاهة من التلال المنخفضة والتي تقع في حافتها قرية الريان التي بنيت مساكنها من الأحجار، بعد هذا مررنا بمخيم صغير لقبيلة لحيان وهي فرع الأراضي المرتفعة لقبيلة حرب وكان في خيامها الصغيرة قليل من النساء والأطفال. مررنا الآن بطول ممر ضيق يسمى ريع اللواب

نحو شواطين وهي مجموعة من تلال منخفضة تمتد بلا انقطاع من هذا الموقع حتى الجانب الأيسر للوادي حتى الوزيرية. كانت عن يسارنا سلسلة صخر جبلية من البازلت تُسمى سمرة، لتنتهي في قمة تدعى لاسلوسية.

كانت مسيرتنا الآن قد طالت أكثر مما توقعنا، بناء على ما أعطونا من معلومات، وأسرعنا عبر فتحات عريضة كثيفة الشجيرات بين الجبال بينما انحدرت الشمس نحو الغرب، توقفنا لصلاة المغرب ثمّ واصلنا المسير بينما بدأ الظلام يلقي ظلاله السوداء حتى دخلنا ثانية في وادي الزبرة. وبحثنا دون جدوى عن الترتيبات التي ادّعى مساعد، بثقة، وجودها. وفي نهاية الأمر نصبنا خيامنا في حافة قرية الوزيرية التي تبدو مهجورة، بعد أن أرسلنا من يسعى وراء الرعاة ليجلب لنا شاة نذبحها لعشائنا. اقترح مساعد دون خجل أن نقتسم. أنا وهو، البقية الضئيلة التي بقيت من غدائنا، لكنني رفضت الدعوة قائلاً إنني سأولم أو أصوم مع رفاقي. وبعدها خلدت للراحة بعد عناء يوم طويل شاق لأنام حتى يتم إعداد العشاء، وتركته مضطرباً إزاء الانهيار التام لكل ترتيباته، تم إيقاظي في الساعة ١٠:٣٠ ليلاً بالإعلان عن أن العشاء قد تم إعداده. وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير عندما سكنت الحركة في المخيم بهجوع الجميع إلى النوم استعداداً لاستيقاظ مبكر صبيحة اليوم التالي، إذ أعلنت لهم عن العزم الأكيد في الوصول إلى الساحل في الغد. وأعلنت لرفاقي عن نيتي في أن أهب عباءة لكل رجل يصل إلى جدة بحلول ليل الغد. عندما كنا في الوزيرية التي ترتفع ٧٠٠ قدم فوق سطح البحر أو أقل، لم نكن نبعد عن مكة أكثر من عشرة أميال في اتجاه الشمال، وحوالي عشرين ميلاً في خط مستقيم عن المضيق.

قلت لهم عندما بدأنا سيرنا منحدرين إلى أسفل الوادي: «كل واحد فيكم عليه بنفسه، وبأقصى سرعة، تذكروا جدّة والعباءات» استجابت حمرا لضربات

كعب الحذاء وتقدّمت الركب بسيرٍ متمايل في صحبة حادي المسيرة، وهو من مكّة، وكان يمتطي جملاً سريعاً خفيف البنية (قعود)، أظنه من سلالة عرقي، كانت مطايانا، أنا وهو، خير ما في المجموعة كلها، وسرعان ما تركنا رفاقنا وراءنا على البعد، لكنهم كانوا يجدّون السير خلفنا. لم يكن هناك فرق بين حمرا وقعود، وبينما كنت راكباً طفقت أفكر في المساومة لشراء القعود الذي كان في إمكان صاحبه أن يبيع رأسه عن طيب خاطر ولا يفكر في بيعه، لقد أشرف على تربيته بنفسه منذ أن كان صغيراً، كان مساعد في المؤخرة، وكان يعاني كثيراً فوق ظهر بغلته تلك.

كان عرض الوادي بضعة أميال، بين سلاسل غير محددة الأشكال من التلال المنخفضة، وكان طرفاه يتقاربان حتى بلغنا نقطة بالقرب من قرية جمون ضاق فيها الوادي ليقل عرضه عن ميل واحد بين سلاسل جبلية إلى اليسار، وجبل الصدر الذي يتخذ موقعه فوق هامة جمون، إلى اليمين. يقطع طريق الحجاج الساحلي الوادي في هذه النقطة في اتجاه تقريبي بين الشمال والجنوب ليحد نهاية وادي زبارة وبداية القسم الثاني من وادي فاطمة الذي يُسمى وادي مر. كانت تحد هذا الجزء من الوادي من جهة اليمين ثلاث كتل جبلية عظيمة، الصدر والمكسّر وضاف، ويفصل بينها ممران منخفضان هما فاق الرميضي وفاق الكريمي بينما كان الطرف الغربي لضعف ينحدر إلى أسفل إلى سلسلة تلال شيبة المنخفضة في نقطة شمال الهدا، وكان يجري إلى اليسار الإطار الخارجي المنخفض لتلال مكة. كانت قرى جمون وأبو عروة وهميمة ومقوّى مع عريشاتها ـ أو مجموعة أكواخ القصب ـ وبساتين النخيل الكثيفة تمتد بطول سطح الصدر والمكسّر، بينما كانت ترقد في وسط الوادي الآبار المتفرقة وأراضي الحبوب بالمرشدية التي كان قسمها الرئيس

يحتوي على قرى أبنيتها حجرية تحيط بالمباني البيضاء المجصصة الفاخرة الخاصة بالأشراف والتي تقع عند ملتقى وادي الشميسي الذي ينحدر من الجبال إلى اليسار، ووادي مر.

بعد مسيرة حوالي اثني عشر أو ثلاثة عشر ميلاً منذ الصباح، توقفنا قبالة دار أنيقة خاصة بالشريف محسن، الذي قام أخوه وهو شيخ مسنٌ لطيف، وأقرباء آخرون باستضافتنا للإفطار الذي احتوى على المعجنات والمربى والشاي والقهوة واللبن الطازج، واستنفد مضيفونا الجهد والوسع لإقناعنا بالبقاء لتناول وجبة ذات شأن. كان جبل الشميسي يقع عن يسارنا وهو الذي يمتد خلاله طريق مكة ـ جدة عابراً قرية الشميسي التي كانت بها حامية صغيرة من جند الشريف، وكانت تقع عن يميننا فوق بعض التلال المنخفضة وتحت ضعف بساتين النخيل المخفَّرة في ريكاني التي كانت في يوم ما قرية مزدهرة، لكنها تدهورت إلى حالها البائس هذا نتيجة لشح مياه الآبار فيها؛ وبين هاتين النقطتين يكون الوادي بعرض ميل واحد ولكنه يختنق بعدها بالتلال الرملية التي يتلوى خلالها مهد السيول شاقاً طريقه بصعوبة. كانت الرمال مغطاة بغطاء كثيف من الشجيرات.

يبدأ وادي فاطمة ـ باسمه هذا ـ من هذا الموقع ليجري في اتجاه الجنوب الغربي صوب البحر بين تلال وروابٍ يتناقص ارتفاعها بسرعة شديدة. ثمّ لاح لنا من خلال فرجةٍ في تلال الشميسي، إلى اليسار من موقعنا، وبعد حوالي ميل من دار محسن، طريق مكة ـ جدة وخط الاتصال البرقي، وهو العلامة الأولى التي أراها من علامات المدنية الحديثة منذ أن حططت قدمي على الساحل الشرقي للجزيرة العربية. وبعد أن هبطنا مسيرة ميل وصلنا إلى الطريق الرئيس، وسرعان ما بلغنا حداء التي كان بها بستان نخيل كبير مع عدد يسير من بيوت حجرية ومسجد

مهيب وعدد من المتاجر المتواضعة. وتابعنا سيرنا دون توقف مارين بإزاء الأعمدة الحجرية الأربعة التي تحيط ببئر أم القرون. وبعد مسيرة ميلين بلغنا حصن بحرة الذي انتصب فوق نتوء منعزل في وسط الوادي حاملاً علامات القصف العنيف لمدفعية الشريف. توقفنا هنا لمدة نصف ساعة حتى تلحق بنا قافلة الأمتعة، وقضيت تلك الفترة في صحبة موظف الاتصالات البرقية وفي تفتيش الحامية المحلية التي برز جنودها من البيوت الحجرية الصغيرة التي كانت تقوم مقام الثكنات. تقدم مساعد الآن أغبر ليرسل عبر الأسلاك لمكة وجدة نشرات عن تقدُّمنا. اقترحت أنا أن نرسل برقية لبغداد لكنه اعترض بأنه لا يجوز لكافرٍ أن يرسل رسالة عبر أسلاك الأراضي المقدسة، ولكن في النهاية وبعد كثير من الإلحاح وافق على تحقيق رغبتي. وتركت رسالة برقية على أمل أن يقوموا بإرسالها، لكنني لا أدري قط إن كانت قد وصلت إلى الطرف الآخر.

تقع قرية بحرة الكبيرة التي كان بناء مساكنها ومرافقها من القصب خلف القلعة مباشرة، مررنا عبر طرقها الرئيسة، وكانت المتاجر في كل مكان، والمعاملات التجارية السريعة تلهب الحركة في القرية، إذ أن الطرقات كانت تفيض بالمشترين، ويبدو أنهم من رجال القوافل والمسافرين بين الساحل والمدينة المقدسة. كان حشداً مختلطاً: البدو من الجبال والعرب العاملين في النقل والزنوج بدرجات ألوان مختلفة السمرة من الحبشة والسودان، وبعض الهنود. كان المسجد يبدو وكأنه المبنى الصلب الوحيد، بينما كانت البقية أكواخ من الحصائر والقصب والألواح الخشبية.

عندما عبرنا القرية خارجين منها، دعوتُ أنا لبذل مجهود عظيم خلال الجزء الأخير من الرحلة. كان مساعد قد استبدل ببغلته ذلولاً، وأسرعنا في المسير على

أنغام الأغاني البدوية ونحن نميل في سيرنا نحو الجانب الأيمن من وادي فاطمة. تقدمنا الجماعة، أنا والحادي للمرة الثانية وتدفق من خلفنا الحشد. مررنا سريعاً بالقرب من معقل سُديان الصغير الذي تقيم فيه حامية صغيرة. وبعد حوالي ميل بلغنا محطة البجادية التي تحرس مدخل مجموعة جبال الساحل التي سرنا خلالها فوق طريق عريض لطيف التدرج، لنقابل فيها بين الفينة والأخرى جماعات من الإبل في طريقها إلى مكة وقد أصابها الإرهاق من ثقل ما تحمل فوق ظهورها. لاحظت هنا كما هو الحال مع جبال الطائف أن القوافل لا تسير بطريقة الانتشار بعرض الأرض كما تفعل في الصحراء، لكنها تسير في خطوط طويلة، وكل حيوان يُربط إلى الذي يسبقه، أنف لذيل.

بعدها مررنا ببرج حراسة دائري صغير يسمى نقطة البيضاء نسبة للجص الأبيض الذي طُليت به جدران المبنى. ثم بلغنا صخرة عالية تسمى كثانة يعلوها برج مراقبة في ممر ضيق، ونزلنا نحن من أعلاه لنبلغ غاراً يُسمى غار الصولية عند سفح وادي يحمل ذات الاسم، ويجري إلى أسفل خلال الجبال نحو وادي فاطمة. كان قطاع الطريق فيما مضى من زمان يكمنون وسط السلاسل الصخرية التي تشبه المغارات ليهاجموا الحجاج، أما الآن فقد رأينا بأم أعيننا مسافرين منفردين، وحتى النساء، يسافرن بلا رفقة من موقع لآخر في طريق الحجاج دون خوف.

تابعنا الوادي حتى أعلى مراقيه، حيث توجد محطة حراسة ريع الأحمر فوق الهضبة التي كانت أكشاك بيع المرطبات تصطف عند سفحها. كانت إحدى القوافل المسافرة من مكة قد توقفت لتوها هنا، وعندما مررنا بهم كانوا قد هموا بالركوب. حثّ أحدهم ـ وكان فيما يبدو شريفاً ـ مطيته ليحاذيني وكنت أسيرُ حينها منفرداً، وتساءل: «من أين أتيت أيها الشيخ». فأجبته إجابة عائمة: «لقد

حضـرت من نجد»، وتركته يسـتنتج ما يريد، إذ أنه ليس من العقل الإفـصاح عن الهوية لأي سائل من عابري الطريق. وتجاذبنـا أثناء سيرنا الحديث لبعض الوقت، وسأل مجـدداً: «إنه بلا شك طريق طويل ذلك الذي قطعته، ومـا هي أخبار تلك المناطق؟». وكإجابة لسؤاله أكدت له أن ابن سعـود في صحة جيدة وأن الغيث قد هطل بكثرة. ثم فـارقني وهو لا يعلم أنه قد تجاذب الحديث مع كـافرٍ في الطريق المقدس مع إنني أعلم أن ذلك غير صحيح.

قادتنا فـرجة عريضة ارتقـينا الطريق عبرها إلى برج حـراسة متهـدم يسمى مزعل، استقر فوق سلسلة تلال منخفضـة. لقد قلّت الآن كثافة التلال أمامنا لنرى ما يشبه السهل القفر الذي ينتهي إلى سلـسلة صخرية منخفضة يعلوها برج حراسة الرغامة. وبـدا لنا بعد البرج، ودون أن نتوقع، شـريط أزرق ضيق ارتاحت لرؤياه أعيننا التي أعـيتها الصـحراء غير المتناهيـة برمالها وسهـولها وصخورها. ابتـهجنا لرؤية الأفق الناعم للبـحر الغربي. وغـمرت الفرحـة قلوبنا ونحن نحث الرواحل على الإسراع. كـان من بيننا ـ ومنهم بدر ـ من لم يروا البحر من قـبل. صاحوا: «لا إله إلا الله»، «لا حول ولا قوة إلا بالله».

نظرنا من الرغامة حيث تجمع حشـد من الناس حول أكشاك المقاهي. نظرنا إلى أسفل إلى قصور جدة المرجانية المغلفـة في ضباب الظهيرة، وبدا أمامنا شاطئ رملي. كنا ستة في المقدمة، وكان الآخرون خلفنا على بعد. قلت لطامي: «مزيدا من الحداء حتى نسرع أكثر» وبدأ طامي في إنشاد أغنية المخيم، التي ما كانت تملك حتى الإبل المنهكة سوى الاسـتجابة لها بحثاً عن الراحة وعن الـعشب الوفير عند بلوغ الغاية. وأخيراً قاربت الرحلة المنهكة من بلوغ منتهاها، وعند منتصف فترة ما بين الظهيـرة، في اليوم الأخير من العـام، عبرنا من خلال باب مكة، لقـد تحقق الهدف، وعبرنا الجزيرة العربية من البحر إلى البحر.

٤- جـــدّة

جدّة، ميناء مـكة، وكما يوحي اسمهـا فإنها الموقع الذي دفنت فـيه حواء، جدّة العنصر البـشري. كان عليّ أن أترك الحديث عن جـدة لآخرين هم أقدر مني على الكتابة عنها، ولكن لن تكون سجلات تجـوالي في الجزيرة العربية مكتملة إن لم أكتب عن إقـامتي التي دامت أسـبوعين بين جدران تلك المديـنة، وعما فـعلته خلالهـا وعن الانطباعات التي حـملتها مـعي عن تلك المدينة المرتمية في أحـضان البحر الأحمـر. وهي التي يعرفها عبر القرون الحـجاج من المسلمين الذين يُحيون أول ما يحيون مـبانيها ومآذنها التي يلفـها الضباب، عندما يأتون عـبر البحر وهم يرون فيها مدخلاً لبيت الله.

كنّا قـد نظرنا إليهـا من فـوق سلسلة تلال الرغامـة، نحـو الصورة الظليّـة للمدينة وفي خلفيتها البحر الأزرق مبتهجين بانتهاء الطريق. والآن وبعد أن اقتربنا وجدنا أنفسنا في وسط ركام مبعثـر الأنقاض،وهو منظر يميز مداخل كثير من المدن في الشرق، حفرٌ في الأرض وشقوق ضخـمة الأبعاد، هي التي اقتلعت منها مواد البناء عبر العصور، وأكوام من النفايات والمخلّفات، وكانت توجد هنا وهناك وسط هذا الخضم متاجر وغـرف متواضعة أقيمت في هذا المتسع ليـسهل وقوف القوافل بإزائها لإنزال حمولاتها أو لاستلام بضائعـها. وفي حافة أرض المخيمات الواسعة هذه استـقبلنا رجل بدين يركب مهـراً صغيـراً جداً كان لا يكاد يحـتمل وزنه ولا يستطيع أن يجاري سرعة إبلنا المتعجلة. لم أتبين اسمه ولا أستحضره الآن، ولكنه كان رجـلاً مرحاً تبدو عـليه سيمـاء النعمة، وكـان يحتل في مشـروع بلدية جدة وظيفـة لا يقل عن مسـؤول الصحة العـامة، ولقد قـابلنا في الموقع المناسب، في وسط جبل الركام الذي هو من صميم نشاطات وظيفته. كانت تلال النفايات عالية بالقدر الذي لم تكن تُرى معه أسوار المدينة.

مررنا عبر صفٍ من متاجر متواضعة، ودلفنا من خلال البناء الصُّلب لقوس باب مكة، ثم من خـلال السوق الفسـيح المتشـعب المتنوع المكتظ بالناس، والذي أعاد إلى ذاكرتي الأحيـاء التجارية في مدن الهند العظيمة. وبينمـا كنا نسير خلف دليلنا سمعنا نداءً من الطابق الأعلى لقصر منيف، توقف قائدنا، وتبع ذلك الطرق المعتاد للعصي على أعناق الإبل عندما يُراد إناخـتها. دخلنا من خلال بوابة القصر العظيمـة وارتقينا مـجمـوعتين من الدرج حيث كـان في استـقبالنا حـاكم المدينة الشريف محـسن، الذي استضافنا في منـزله الريفي لتناول طعام الإفطار في ذلك الصباح.

بعد أن أخـذ بيدي حيّاني بقـبلة على جبهـتي وقادني نحو غـرفة استقـباله الخاصة، حـيث أجلسني إلى جواره على مقـعد النافذة ذي الوسائد، وكـان يوجه رفاقي ليـجلسهم إزاء الحـائط، ثم دعا بالقهـوة، وأمطرنا بالأسئلة والتـحايا التي تتبادل عند لقاء العـرب، كانت لحيته كاملة، وخَطَّها المشـيب قليلاً بفعل السنين، وكانت ملامـحه الطيبة تعطيـه مظهراً مبجلاً لا يتـفق والسمعة التي يتـمتع بها إذ اشتهـر بأنه رجل قوي طموح ذو مكر ودهاء، وفوق ذاك جبـار يستطيع حكم بدو جبـال الحجـاز الذين لا يسهل قـيادهم. ابتهـج بمظهري وقال لي: «والـله كأنك عبدالله ابـن الشريف. في الواقع قد تكون هو، أيضاً يلبس كـافية حمـراء رقشاء وشريط الرأس الأبيض، حتى لحيته تشبـه لحيتك، كل شيء ما عدا العيون، إذ أن بشرته بيضاء أيضاً مثلك»، ثم مشى نحـو جهاز الهاتف حيث أبلغ الملك المقيم في مكة خبـر وصولنا، ونقل أيضـاً تحياته لنا. دارت أكـواب القهوة مـجدداً ثم ذهبنا لنمتطـي الرواحل التي أخذتنا للوكـالة البريطانيـة التي تقع داخل الحائط الشـمالي بالقرب من ساحل البحر.

إنّ كـرم الضيـافة الـبريطاني لا يختـلف في جـميع بـقاع العـالم، ولذلك السبب، وليس لعدم تقدير مني للكرم الذي أُضـفي عليّ خلال الأسبوعين التاليين في استراحة السائحين، سأترك تفاصيل أحداث إقامتي تحت سقف الرائد باسيت، القائم بأعمال البـعثة البريطانية وزملائه لخيال قرائـي. مضت الأيام سريعاً، وكان هناك الكثيـر من العمل الذي يتطلب الإنجاز والتـفكير الكثير، وكنت قلـقاً لأعود لابن سعود دون تأخـير لا مبرر له. قام الشـريف محسن بإعداد التـرتيبات لسكن وضيافـة رفاق طريقي الذين كنت أزورهم بين الحين والآخر مصطحـباً بعض أفراد البعثة البريطانية.

أدبر العام الـقديم مفـسحـاً المجال للعـام الجديد الذي كانت أيـامه الأولى مشحونة باحتمالات جد خطيرة قد تحدد مستقبل الجزيرة العربية، كنت قد خرجت لتـوي من محـادثات مضنيـة مع الحاكم السـعودي، وأتيت الآن لأرض خـصمـه الرئيس، ولابد أن يكون لمحادثاتي مع ابن سعود أثرها الكبير على ما قد يتقرر في هذه الأيام عند لقـاء الشـريف والسـلطات البـريطانيـة. كـان على القـائد د.ج. هوجارث الذي يرأس مجموعة المسـاعدين للمندوب السامي البريطاني في مصر أن يحضر لجدة ليجري تلك المحـادثات، ووصل صباح ٦ يناير (كانون الثاني)، لكن الملك تركنا في قلق من التـوقعات، لا ندري إن كان سـيحضر أم لا، رغـماً عن وعد أوّلي منه بأنه سـيحاول التغلب على كل العـقبات، خاصـة المتعلقة بصِـحته ليحـضر لملاقاة ضيـوفه الذين أتوا بالبر والبـحر، لكنه لم يحضـر إلا بعد يومين، وعندها بدأ العمل الحقيقي.

يبدو أنه لم يكن للملك قصر في جدة، إذ أن المبنى العام الذي يُعرف باسم الحكومة كان يحتوي فقط على قاعـات المحكمة ومكاتب الحكومة الأخرى الخاصة بالإدارة المحلية، لذا اتخـذ الملك رئاسته في قصـر رائع يخص الشريف طه والذي

يقع إلى الشرق من الوكالة، حيث ذهبنا صباح يوم ٨ يناير (كانون الثاني): أنا والقائد هوجارث مع مترجم إيراني داهية، صغير الحجم يدعى روحي[١]، والرائد باسيت للاجتماع الأول مع جلالته، لم تصاحب مراسم اللقاء كثير من الأبهة أو الهالة، إذ أن الملك استقبلنا في بهو علوي كما كان سيفعل أي زعيم عربي في مثل هذه الحالات. وعند ظهوري دعاني بطريقة لا تخلو من دعابة ملكية، «نجدي» ودعاني أيضاً «لورنس نجد»، وفي مناسبات عديدة «ابني» وهو تحبُّب لم يَجُدْ به على رفاقي لسبب ما. كانت القهوة أقرب للقهوة التركية منها للعربية، وأظن أننا قد تلقينا أيضاً مشروباً بارداً بينما كنا نجلس على الكراسي، وليس على الأرض. كانت حيثيات هذه المناسبة شكلية بالكامل ولم يتطرق للموضوعات المثيرة للجدل.

بدأ القائد هوجارث بإعلان مالي ما كان إلا ليسعد الملك الذي قبل أيضاً علماً أمريكياً صغيراً أرسله معجب أمريكي رمزاً لتقديره لخدمات الملك للعالم. وفي المقابل أعلن الملك أنه بقيادته للثورة العربية لم يكن يرمي لشيء سوى خدمة مصالح العالم بأسره، وخاصة العالم الإسلامي الذي يرى جلالته يقيناً أن رفاهيته ستبقى رهينة بمشيئة وعون بريطانيا العظمى. وانتقل الحديث لخطط فيصل وكيف أن الترتيبات قد أعدت للتقدم شمالاً. وقال الملك إن دمشق ستهب لمساندته، وبعدها يمكن التنسيق مع بغداد. تحدثنا أيضاً عن ابن رشيد الذي كان من المفترض أن يكون في تلك اللحظة سجيناً في المعسكر التركي في الحجر التي كانت تحاصرها قوات الشريف، بيد أنها لظروف المناخ غير المواتية، وانعدام العلف قد اضطرت للانسحاب منها لموقع أفضل.

(١) كان من مواطني تبريز، وأظنه كان من الطائفة البهائية. كانت خدماته للحكومة البريطانية ذات قيمة عظيمة جداً. (المؤلف).

اختُتِمَ الاجتماع في مناخ من النوايا الحسنة والتفاهم بعد أن أوصلت أنا تحيات سير بيرسي كوكس، وبعد أن تناقشنا في تفاصيل الصعوبات التي واجهت الملك في رحلته من مكة إلى جدة في الليلة الماضية. ورغم عمره ـ لابد أنه كان في ذلك الوقت لا يقل عن ستين عاماً ـ كان الملك يحتفظ بحيوية بدنية كشاب في شرخ الشباب، ورغم أنه كان يفضل ركوب البغال إذ أن ركوبها أكثر راحة من الإبل، فلقد قلل من شأن الرحلة التي قطعها تقريباً دون توقف.

رغم أنه أخذ نصيباً وافياً من حياة البدو وأظهر علمه الدقيق بتفاصيل ما يستأثر بفكر وحياة البدوي وهي الإبل ونباتات الصحراء وما إليها، وهي موضوعات يتحدث عنها بمتعة بيّنة وبطريقة آسرة، إلا أن الملك حسين كان في مظهره ومضمونه معاً يذكّر الشخص بمجاهد إيراني أو بمفتي تركي، وليس بالعرب. وهو مهذبٌ في طبعه ومتحضر في تعامله، وهو لطيف، وئيد ويتأنى بعض الشيء في حديثه. وهو ينم عن انحداره من أصل عربي، فقط عند لحظات العواطف الجيَّاشة، حينها يطرح جانباً العبارات التشريفية السمجة التي استعارها من التربية التركية، ويعود إلى فترات فصاحة العرب وبلاغتهم الطنانة، ويتحدث بالنبرات الصادرة ملء الفم التي لا يمكن أن تُسمع إلا في تجمعات البدو. كان يخاطبنا جماعياً "حضرات الأفاضل" أو "حضرات الأعزاء". لقد درّب من هم بالبلاط بأن يخاطبوه أمام العامة باللقب المهيب "جلالتكم"، رغم أن أمثال الشريف محسن والآخرون من أنصار المدرسة القديمة لم ينسَوا اللقب الذي يجلب السرور والأكثر ملاءمة، "يا سيدي". كانت كلمات أجنبية مثل الكلمة التركية أدبسيز (adabsiz) [1] ترد كثيراً في حديثه.

اعترافاً بفضله في الثورة ضد الأتراك، كانت الحكومة البريطانية قد أنعمت

---

(١) كلمة تركية تعني،غير مؤدب. (المؤلف).

عليه بسمة ولقب "ملك الحجاز"، ولكنه رأى أن هذا الوصف ليس كافياً للدور الذي وطن العزم على الاضطلاع به في الجزيرة العربية. فلقد انتحل لنفسه لقباً أشمل "ملك بلاد العرب" أو "ملك الديار العربية"، ولقد فشلت كل المحاولات لإثنائه عن انتحال هذه الصفة، وكانت حجته الدامغة الكافية أنه لأن يُصبح ملكاً للعرب نتيجة لمخاطبته بهذا اللقب أسهل من أن يكسب الحق في مخاطبته بهذا اللقب بأن يصبح ملكاً للعرب.

لم تفتَّ هذه الحلقة المفرغة في عضده، لكنه قدم احتجاجات للسلطات البريطانية في مصر وفي غيرها والتي كانت تخاطبه "ملك الحجاز" في ردودها على مكاتباته التي كان يزيلها بلقب ملك بلاد العرب. بيد أنه كان أكثر احتجاجاً على مكاتبات ابن سعود مخاطباً إياه بشريف مكة رداً على مكاتباته المذيلة بتوقيع ملك العرب. لم تكن أحلام قيام الإمبراطورية العربية تحت إمرته في تلك الأيام، إلا هاجساً صغيراً من همومه، لكنه عاش ليرى تلك القلاع التي بنيت عالية تتداعى، ليس بفعل الذين قاوموا طموحاته منذ البداية، ولكن من ابنه الذي ائتمنه على قيادة جيوشه في الشمال والذي صمَّم يوم العقبة إن لم يكن قبله على أن ينحت مملكة لنفسه مستقلاً عن مشاريع والده. كان هدف الوحدة العربية في تلك الأيام، والتي وضع السير مارك سايكس قبل وفاته آماله في حدوثها، مازالت تلوح بحجم كبير في الأفق السياسي، ولكن السراب كان قد بدأ في الانحسار قبل أن تمتد الأيدي لتمسك به. ولم يبق من كل ذلك النسيج شيء سوى لقب ملكي ومملكة الحجاز القاحلة. والآن بعد أن انقشع التشاحن والجدل لا يملك الفرد إلا أن يتعاطف مع الملك حسين وأن يعكس أنه لربما أمكنه تحقيق جوهر أحلامه لولا أنه تعلق بظلالٍ من طموحات عظيمة بعيدة المنال.

تبع لقاءنا الشكلي الأول مع الملك لقاء تمهيدي طويل بعد ظهر اليوم نفسه

حول الأمـور التي أتت بنا للقائه، وتبع ذلك لقاءات شـبيهة في اليـومين التاليين. وعندئذٍ اتضح لنا أن أي آمـال في الوصول لتـفاهم بين الملـك وابن سعود كـانت وهماً بعيد المنال. امـتنعت أنا عن حضور الاجتماعات اللاحقـة حتى اليوم السابق لسفري حيث حضرت ـ دون كبير رغبة ـ اللقاء الأخير من أجل وداع الملك.

لم يكن هناك من شك في أن الملك كـان يعد ابن سـعود في هذه الفـترة ـ ولعله محق في تصوره ـ العقـبة الرئيسة أمام تحقيق طموحاته. ولـم يكن مستغرباً والحال هذه، أن يعدني، وأنا المبعوث الرسمي للبـلاط السعودي، أن أكون محبذاً لمساعـدة ابن سعود في قضـية الوقوف مع بريطانيـا، وأن ذلك هو الهدف الرئيس لمهمـتي في نجد. وهذا ما جـعله يعاملني بحـذر وبرود. لسوء الطالع فإن أخـبار زيارتي للحجاز لم تبلغ الملك حـتى وصلت إلى الطائف، ولعلنا نجد له العذر في أن يشك أن حضوري إلى بلاده كان نتيجـة لمشروع دبرته الحكومة البريطانية بليلٍ. وعلى أي حـال لم يكن هناك سـبب يجـعله راضيـاً عني لأنني أوضـحت له أن الذريعة التي رفض بهـا السماح لضابط إنجليزي للذهـاب من بلاده إلى نجد ذريعة واهية ولا يمكن الدفـاع عنها، كمـا كنت أظهر استيـائي وسخطي للاتجاه المتـشدد الذي انتهجه في هذه الاجتماعات كلما وردت أمور تخص ابن سعود.

لم يُخفِ الملك اعتراضـه على أن نستغلّ خدمات منافِسـه لتنفيذ خططنا في أي صورة من الصـور، كما أنه لم يُخْفِ عـدم اقتناعه الراسخ بابن سـعود، وأنه يخشى أنّ تعاملنا مع وسط الجزيرة الـعربية قد يضطُّره لتغيير التـعهّدات التي التزم بها كلّ طرف تجـاه الآخر. ووضح أنّه يضع وزناً مبـالغاً فيـه لتلك "المقررات"[١] كما سمّاها، أكـثر مما تستوجب في حقيقة الأمر. وعندمـا سُقنا الحجج لنبرهن أنّ خدمات ابن سعود قد تُستغل للمصلحـة من أجل تعزيز القضية المشتركة، كان ردّه

(١) اتفاقيات أو عهود. (المؤلف).

أنّ له مشـاريعه الخاصـة التي نضجت وأنها كـانت كافيـة جداً لتحـقيق الأهداف المرئية، وكان يتوسّل إلـينا أن نثق به وأن نترك مقاليد الأمور بيـده، مع التأكيد بأنّ كل شيء سيجري كما نشـتهي في الوقت المحدّد. ليس من الضروري أن نذكر هنا تفاصيل المحـادثات إذ أنها فيمـا يخص أهداف مهمتي التي أتيت مـن أجلها، قد فشلت بعد أن وصـلت إلى طريق مسدود، ممّا لم يترك لي خـياراً سوى أن أطلب من جلالته أن يسمح لي بأن أعود أدراجي من حيث أتيت.

أعود الآن لأمر آخر؛ عندما بدأت رحلتي من الطائف قـاصداً جدّة استجابة لدعـوة الملك، كنت قـد نظمت شأني بأن تـركت نصف المجمـوعـة المرافقـة لي بالطائف، إضافة لكلّ الأمتعة الثقيلة مع أوامر مشدّدة لمن تركته في قيادة المجموعة أن يبقى هناك طوال الوقت حتى عودتي. كان هذا الأمر يضمن أن تنال أشد الإبل إنهاكاً ما تحـتاج إليه من راحة، كما كـان يحتّمُ عودتي إلى الطائف، ولكنّ دهائي في التخطيط لم يكن ذا جـدوى إزاء الأحداث التي تلت والتي كانت خـارجة عن إرادتي. لقـد ثارت شكوكي حـول نوايا الملك بـدايةً عندمـا أصدر أمـره لأمـيـر الطائف، وأكدتها إشارة عابرة من سكرتيره مساعد، عندما قابلته في المضيق حيث قال إنني بالطبع لا أفكّر في العودة إلى نجد عن طريق البر، وأنّ الأمر سيكون أكثر يُسراً لو أنني ركبت البحر عوضـاً عن ذلك. واقترح في تلك المناسبة أن أبعث في طلب بقية المجموعة، لكنني أكّدت له حينها أنّ نيّتي في حقيقة الأمر هي أن أعود أدراجي عن طريق البر بالطريقـة التي قَدِمْتُ بها. لم يحدث تغيـير في هذا الأمر حتى اليوم الثالث بعد وصولي إلى جدّة عندما أخطرني إبراهيم بعفوية أن الشريف محسن قد اسـتقبل رسالة هاتفية من مكة تفـيد أنّ الملك قد كتب لجماعـتي مخيّراً إياهم بين البقاء بالطائف أو زيارته في مكة، وأنهم قد وصلوا بقـضّهم وقضيضهم إلى مكة في ذلك اليـوم، لم يكن لهذه المعلـومات سوى مـعنى واحد، وتـأكدت

شكوكي بعـد حديث مع مسـاعد في اليـوم التـالي، إذ أنّه اقتـرح أن تلحق بي المجموعة في جدة ماداموا قد بلغـوا مكّة. قدّمت احتجاجاً حول الإجراء الذي تمّ دون علمي، وألححت على مساعد أن يقوم بعمل ترتيبات فورية لإعادتهم للطائف حتى تنال الإبل نصيباً من الراحة استـعداداً لرحلة العودة، وفي الوقت نفسه كتبت خطاباً للملك شاكـراً إيّاه على تفضلّه بدعوة رفاقي لمكة ومـعرباً عن أملي في ألاّ يكون وجودهم قد سبب مضايقات، والتـمست إليه أن يعيدهم للطائف في أقرب فرصة استعداداً لرحلة الإياب.

لكنهم بقوا في مكة رغم كل ما أبديتُه من اعتراض، ولقد صار واضحاً الآن أن الملك لا ينوي السماح لي بالعودة عبـر أراضيه، ولكن هذا الأمر بلغ مداه في نهاية اجتماعنا الثالث معه، إذ أنني عندما تيقّنت أن لا فائدة تُرجى من النقاش مع الملك في الأمر الذي أتيت من أجله، طلبت الإذن منه للسفر بحجّة أنني قد أطلت بقائي بجدّة لفترة أطول مما يستـدعي الأمر. وحينها أفصح عن نواياه، إنّه لا يفكر في السـماح لي بالعـودة عبـر أراضيـه، إذ أنّ قدومي عـبرها قد أثـار كثيـراً من التعليقـات والشكوك بأنّه قد باع أراضيه للإنجليز. وأجبـته «هذا بالضبط هو الذي يقوله السعوديـون أثناء وجودي في نجد، لكنّ ابن سعود أخرسـهم». كان من غير المجـدي أن أقارعـه الحجـة وقد وضّح أنّ نواياه كـانت النيل من ابن سعـود[1]. وانقضى الاجتـماع بصورةٍ مفـاجئة بعض الشيء مع توتر عام بـين الحاضرين. لم تكن بي حاجـة للبقـاء في مكان بغيض كـهذا، وبعدها لم أرَ الملـك حتى ذهبت لوداعه في اليـوم السابق لمغادرتي جدة عن طـريق البحر، وفي تلك المناسبـة كان

(١) حتّى لا يظُن أحدٌ أنّ الملك كـانت له دوافع أخرى، لعله من المهم أن أذكر هنا أنّه قد قدَّم بنفسـه الدعوة لضباط إنجليـز لزيارة الطائف في الصيف السابق. بل لقد سـمح في حقيقـة الأمر لأحدهم بزيارة المكان نفسه أثناء صيف هذا العام، ١٩٢٠م. (المؤلف).

الاتجاه العام هو تجنب الحديث في السياسـة، وأعرب الملك عن آماله عندما نهضنا مستـأذنين في الانصراف ـ في أن نقبل في القريب العاجل وجـهة نظره القائلة بألاّ فائدة ترتجي من الاجتماع. عندها أجبته: «لقـد بعثتني الحكومة البريطانية إلى نجد لأرى حقيقـة الوضع هناك بنفسي، وأنه لسوء حظي أنني حضرت بقناعـة مختلفة اختلافـاً بيّناً عن تلك التي تؤمنون بها جلالتكم». كـانت هذه الملاحظة جديرة بأن تقود إلى مشهد آخر استطاع هوجارث أن يتفـاداه بلباقة. وكانت النتيجة أنه عندما تقدمنا لمصافحته بخضوع وتـذلل خصني بشرف طبع قبلة على جبهتي، وقلت له: «إنني آسف جداً أنّ زيارتي لجلالتكم لم تثمر عن نتائج طيبة».

لم تترك لي الارتبـاطات المتّصلة في الأيّام الثـلاثة الأولى وقتاً لاسـتكشاف المدينة وضواحـيها، أو للتعـرف على سكانها الأساسـيين وعلى زوارها. ولكن ما آلت إليه الاجتـماعات الملكية من التـدني المفاجئ الذي ذكرته آنفاً، هـيّأ لي حريّة التجول في الأيّام الأخيرة من إقامتي. كان القصـر العالي الخاص بالبعثة البريطانية في الناحية الغربية للبوابة الشـمالية للمدينة، وكانت مطلة على السور وعلى خليج صغـير قـبالة ثلاث أو أربع قـرى صغـيرة من أكـواخ الحصيـر تعرف كلهـا باسم الرويس[1] وهي منطقة تأوي المهربـين وتجار الرقيق الذين لم يكونوا يثيرون اسـتياء الزوار فحـسب بل كانوا ينفرونهم باسـتخدام العنف ضدهم. أنشـأ ضباط البعـثة البريطانية مـيداناً للجولف في جزء من الجبل يـدخل في الخليج، وكانت تحدّه من جانبه الشرقي شبكة مـن الخنادق أقامتها الحامية التركـية الأخيرة، وتكمّل الصورة في هذا الجانب الثكنات المحلية التي ينتصب فوقها علم الشريف ذو الألوان الأربعة

(١) الرويس: كانت ضـاحية تقع شـمال جدة على ساحـل البحر الأحمـر، ثم اتصلت بجدة فصـارت أحد أحيائها. البلادي، معجم معالم الحجاز، ج٤، ص١٠٦. (المراجعون).

في مكان الراية العثمانية، والمقبرة ذات الأسوار العظيمة التي كان أبرز معالمها القبة الخضراء لضريح حوّاء.

كان هناك طريق قصير تحفّ به أشجار تكافح من أجل البقاء، ويقود عبر البوابة الشمالية لواجهة الثكنات، وهي بناء حديث ضخم يقف أمام أبوابه عدد من المدافع، بعضها في الخدمة والبقية معطّلة. كانت قيادة الحرس المحلّي في داخل هذا المبنى وكان معهم المسؤولون العموميون لإدارة الشريف بقيادة اليوزباشى قيسوني الذي كان فيما مضى ضابطاً في الجيش المصري، ولكنه يحتل الآن منصب وزير الحرب في إدارة الحجاز. لقد سرني أن أتناول القهوة معه في غرفته، وفي التحدث معه باللغة الإنجليزية التي كان يتحدثها بصورة مقبولة جداً. لا أستطيع أن أجزم إن كان وزيراً جيداً للحرب، لكنني لا أملك أن أشكو من استقباله لي، إذ كان حاراً وودّياً، أو من نقصٍ في اهتمامه بالمشاكل السياسية السائدة آنئذٍ وهو موضوع كان يتحدث فيه بحريّةٍ واستقلالية وهو شيء يُستغرب من عضو في حكومة الملك. لقد كان كريماً إذ زوّدني بصور فوتوغرافية جيدة لمكة وضواحيها، وقادني إلى سقف المبنى حتى أتمكّن من رؤية أكثر وضوحاً لجدة وللجبال التي تحجب ساحل البحر من جهة الشرق.

تركته مع التماس مني بأن يستخدم نفوذه لدى الملك فيجعله يراجع قراره بشأن عودتي براً إلى نجد. ولكنّي عندما رأيته مرّة ثانية وأنا في طريقي للقاء الأخير مع الملك، همس في أذني في عجلة بأنّه قد حاول وفشل. وبدا لي في مجمل الأمر رجلاً ذا كفاءة عالية وذا عهد. وإن كان هذا الضابط نموذجاً لضباط الجيش المصري، فإنّ علينا أن نهنّئ السلطات البريطانية في مصر بنجاح طرقها في إعداد الجيوش. قابلت ضابطاً آخر من رجال الشريف عند زيارتي لقيسوني في الثكنات وهو منير بن عبدالله، من مواطني بغداد، وحارب ضد القوات البريطانية

في بلاد ما بين الرافدين في كوت الزين، وأُخذ أسيراً بعدها في الناصرية. وقد تمّ اختـيـاره من بين سجـنـاء الحرب في معـسكر بورما، فأُطلـق سراحه ليـحارب في صفوف الشريف، ويبدو راضياً جداً عن موقعه.

كان سقف مبنى الثكنات يطلُّ على المقبـرة التي قمت بزيارتها أيضاً لأشاهد عن قرب ضـريح حواء، وهو البناء المـتميّـز الوحيـد بين تلك الأسوار، والمقـبرة حظيرة طويلة ضيقة مـستطيلة الشكل تحيط بها أسوار منخفضة بيضـاء مجصصة، طولها حـوالي سبعين أو ثمانين قـدماً وبعرض أقـدام قليلة، وفي موقع في وسط الحظيرة التي من المفتـرض أنها تضمّ رفاة أم الجنس البشري، يقف الضـريح نفسه الذي تعلوه القـبة الخضـراء، وبدت فوق لوحين من حجـارة مجـوفة لتحـد سِرّة حواء، ويغطي الضريح قماش مربع مبـهرج من النوع المعتاد في أضرحة المسلمين. وقفت بإزاء الباب حارسة الضريح وكانت مـعها واحدة أخرى أو اثنتان، إحداهما فتاة وقحة، لم يـكن ليتنازلن عن نصيبهن من الهبات التي يفتـرض أن يقدمها كلّ زوار الضريح، وسمـحت لي الحارسة حين نفحـتها قدراً ضيـئلاً من المال أن ألقي نظرة سريعة على الرفات المبجَّل.

كان يحيط بمدينة جـدّة حائط متصل من الجهات الثـلاث: الشمال والشرق والجنوب، وكـانت تتواصل هذه الأسـوار في واجـهة البـحر أيضـاً إلاّ أنّ مبـاني السلطات الجمركية ومباني أخرى رسمية وتجارية، هي في غالبها مبانٍ حديثة خالية من اللمسـات الجماليـة، كانت تمتد حـتى أعتاب السـاحل، وفي دار البلدية كان سليمان قابل، العمدة أو رئيس البلدية وموظفوه يقومون بتصريف أعباء مناصبهم. وهنا أيضاً توجد النُّزلُ العظيمة التي يقيم فيـها الحجاج من جميع بقاع العالم، كلٌّ في الموقع المخصص لمواطنـيه، وذلك عن طريق وكلاء من مـواطنيهم، وفي الأيام

التي يقضـونها بجدة في رحلتي الذهاب والإياب. جدة مـيناء كثير الحـركة وعدد سكانها متأرجح بحيث يصعب عليّ أن أضع تقديراً له.

تقع خارج الـركن الجنوبي الشرقي للمـدينة منطقة ممتـدة للتكارنة، قوامـها أكواخ من الحصير، وهي مأوى للعمال والحرفيين الذين يأتون من الساحل الشرقي الأفريقي بحثاً عن عمل. ومن خلف هذه المـنطقة توجد الكنيسة وهو الاسم الذي يطلقه العرب على المقـبرة الصغيرة التي تضم الأوربيين وأمثالهـم والذين يفاجئهم الموت أثناء إقامتهم في الساحل المقفر لأرض المسلمين المقدسة.

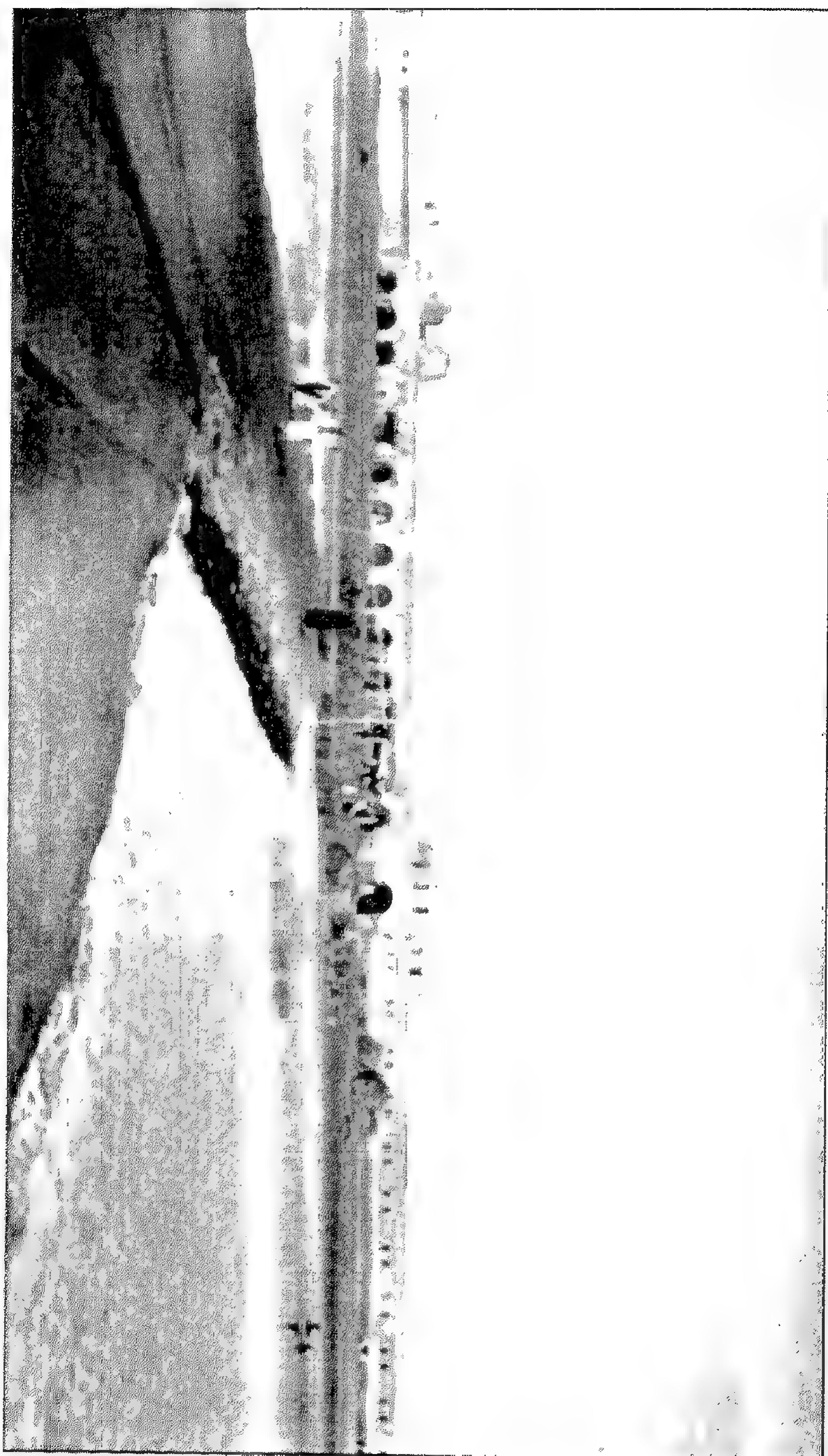
تضم المدينة خليطاً شرقياً حـقيقياً، من الثراء والفقر، فهـناك قصور عظيمة لرواد التجارة والمشروعات المختلفة، حوائطها من الحجارة القرنفلية وتحليها الأعمال الخشبية المزخرفة، تقف جنباً إلى جنب مع البـيوت المتواضعة المتصدّعة التي أبلاها الزمن؛ هناك المساجـد، الكبير منها والـصغير، ومـآذنها التي تستدقّ عند بلوغـها عنان السماء، تعلو فوق كتلٍ من المباني المربعة الفسيحة؛ وأسواق مزدحمة تصطفّ فيها المتـاجر القائمة التي تتقي الشمس بواسطة أسـقف مركزية، في هذا الموقع من الخشب وقمـاش القنّب المعرّض للتلف السريع، وفي ذاك من الحـديد المموج. في كلّ مكان تتلقـاك المتناقـضات، الضـوء السـاطع، الفخـامـة والوضاعـة، الغبـار والاتساخ، وفوق كل هذا ارتفعت أعـلام أمم كثيرة(١) في خضمٍّ عدد لا يُحصى من شعارات الجزيرة العربية الموحّدة.

في نهاية الأمر بلغت إقامتي بجـدّة مداها، وبعد ظهر يوم ١٤ يناير (كانون الثـاني) لحق بي في السـاحل رفاقي في رحلـة الصحـراء الذين قـدموا مـعي من الرياض، ومع كلمات الوداع الأخـيرة التي ظلّت تدوّي في أذنيّ، وشـعوري بأن

---

(١) أعلام بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا وهولندا. (المؤلف).

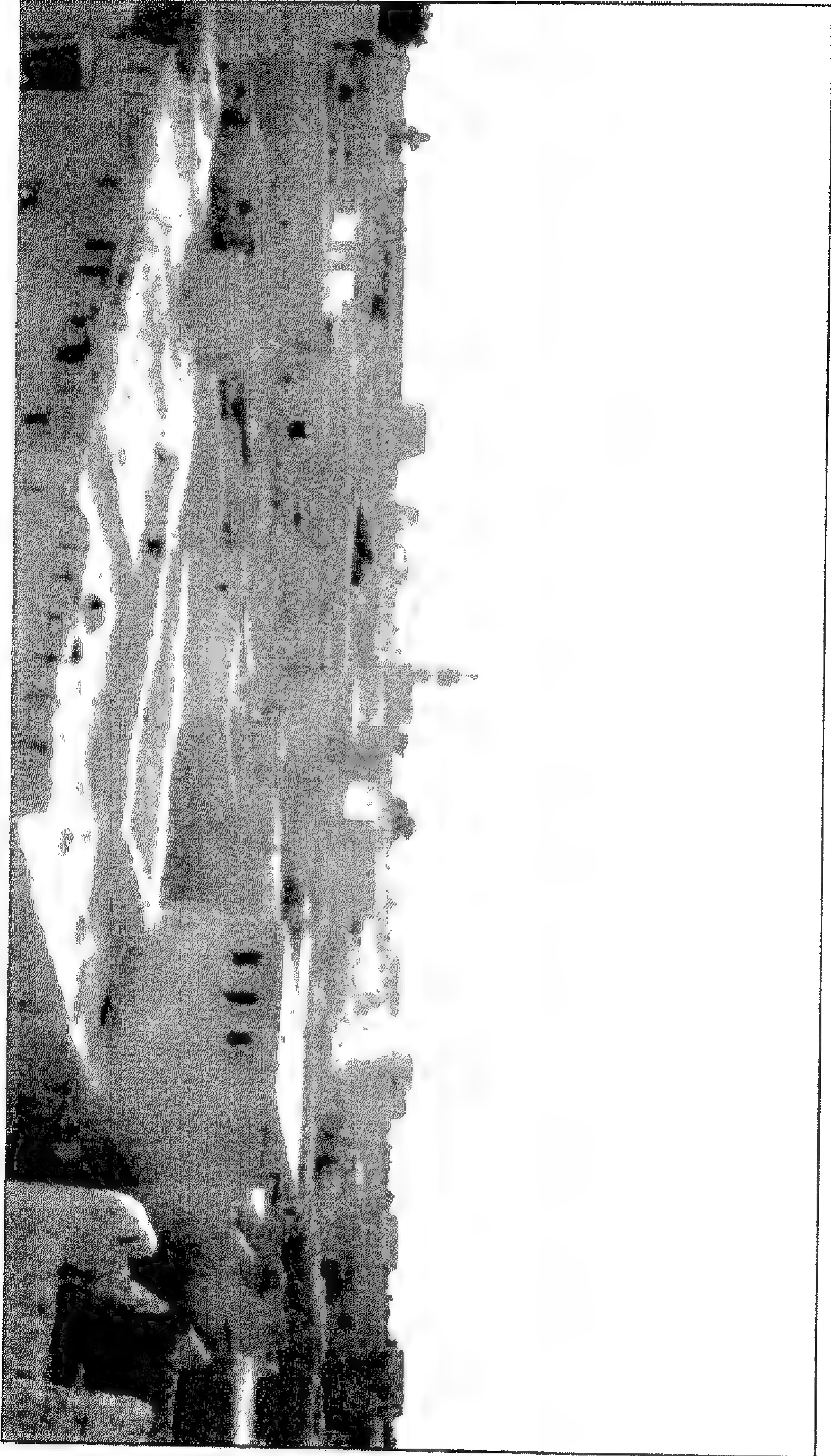
الأمل ضئيل فـي أن أراهم ثانية، ركبت القارب البـخاري الصغير لألحق بالـسفينة البريطـانية هاردنج التي كانـت تقف في الميناء الخارجي لتـحمل القـائد هوجارث وشخصي إلى مصر. لم أكن قد أتيت من العـاصمة السعودية لهذا الغرض، لكنّ حكم الشريف ما كان قابلاً للاستئناف.



حصن ومستودعات عقير - جتي



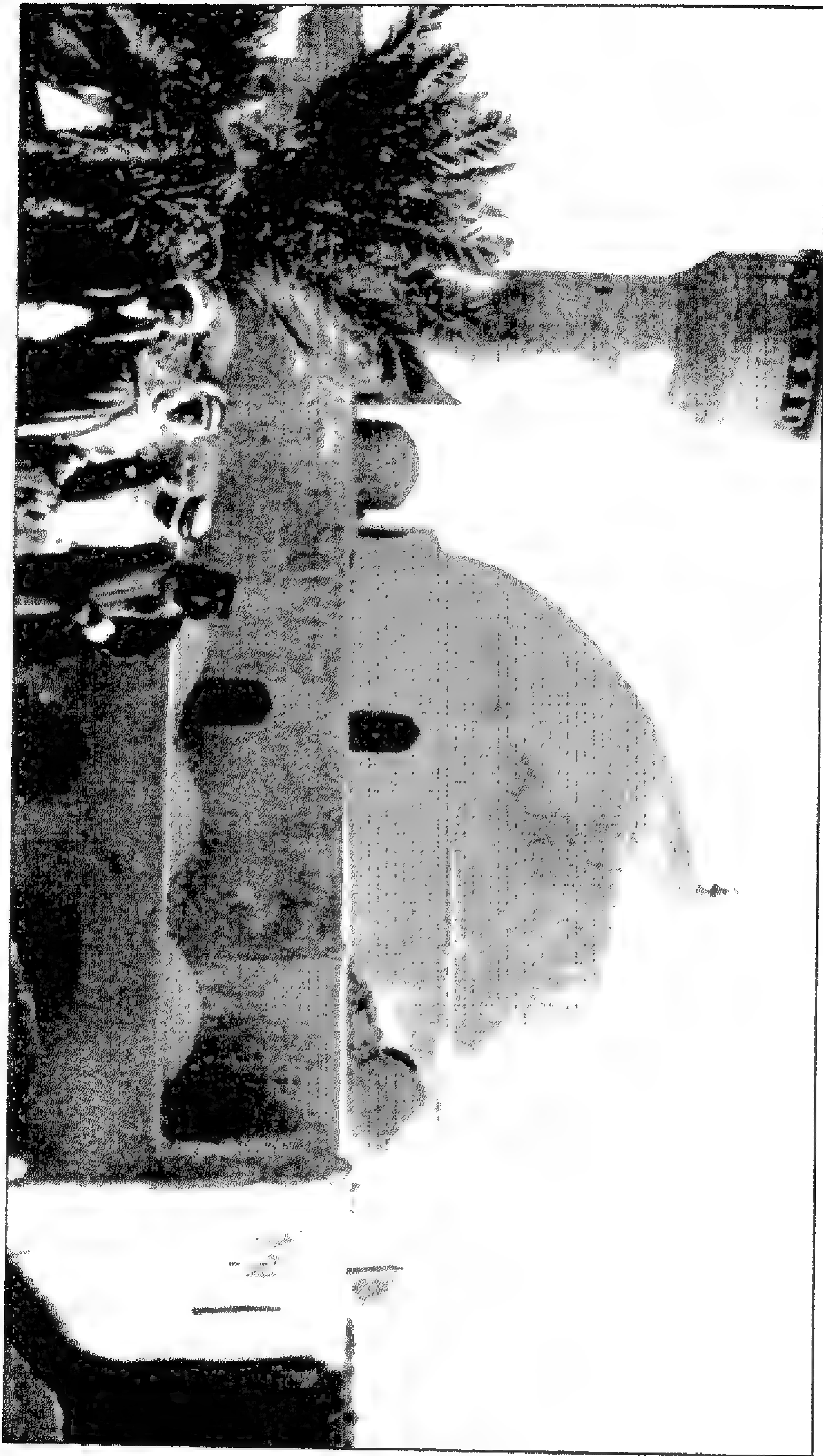
مجموعة في الهفوف (من اليسار إلى اليمين جالسين): محمد أفندي وعبدالله بن جلوي وابنه سعود ويقف الخدم في الخلف



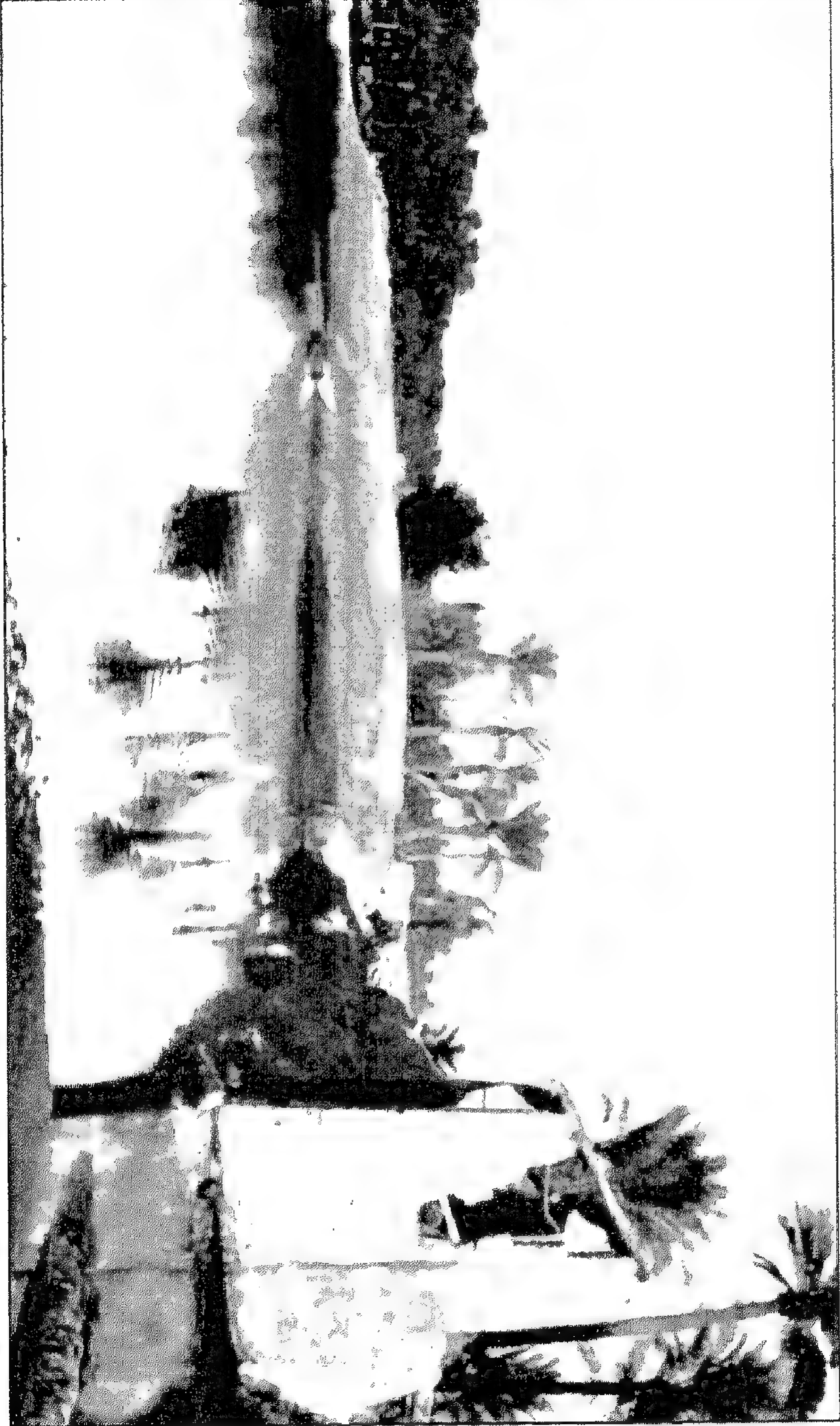
الهفوف عاصمة الأحساء منظرها من التصف ويبدو في الخلف مسجد إبراهيم باشا



الهفوف، سوق الخميس في يوم السوق، ويوجد على اليسار أعملة القيصرية وجدران قوط على اليمين



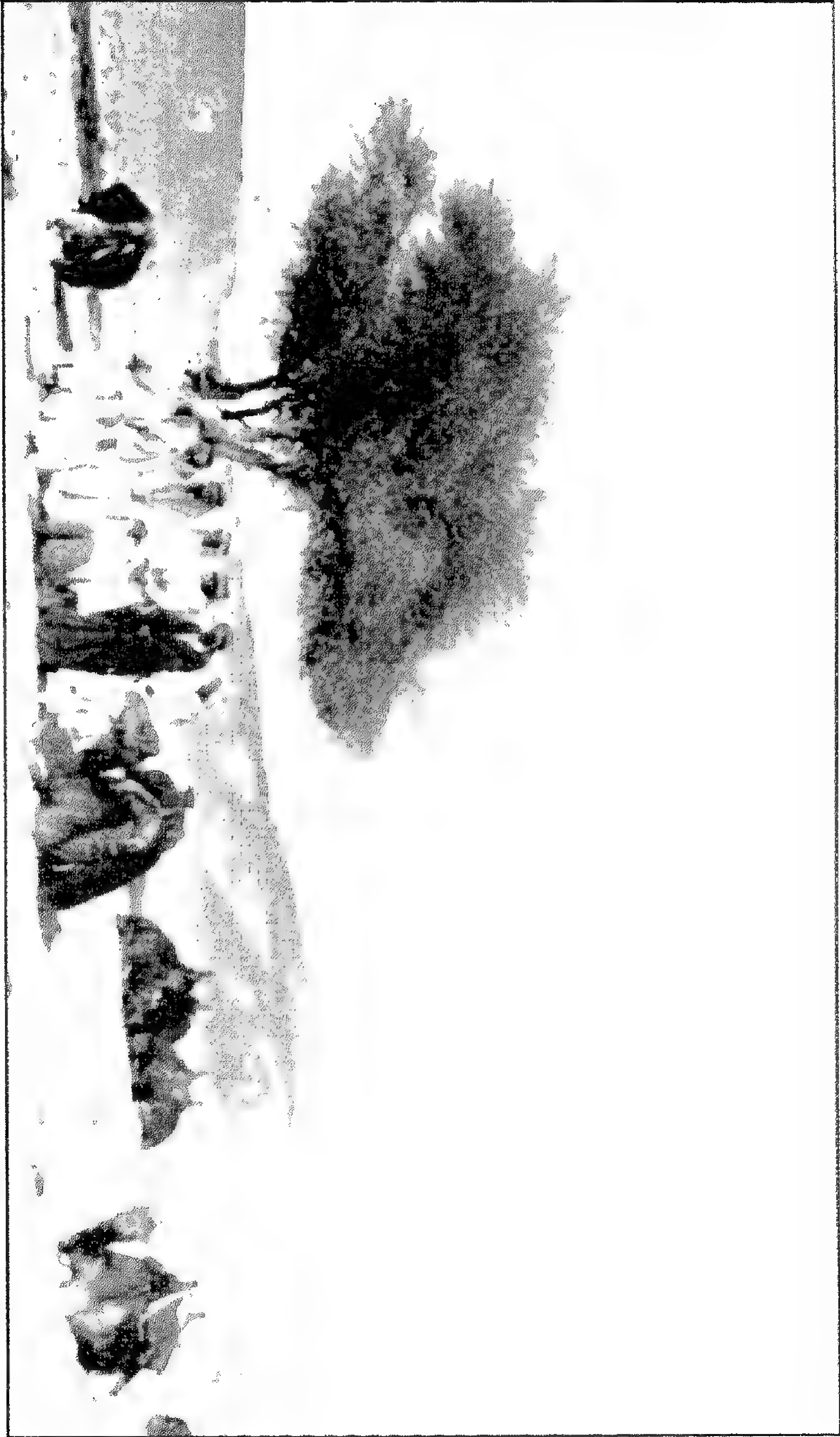
الهفوف، مسجد إبراهيم باشا: وعلى اليسار يقف خليل أفندي وبجواره سليمان حريقي وعلى اليمين اثنان من المرافقين



العين الحارة بالقرب من المبرز



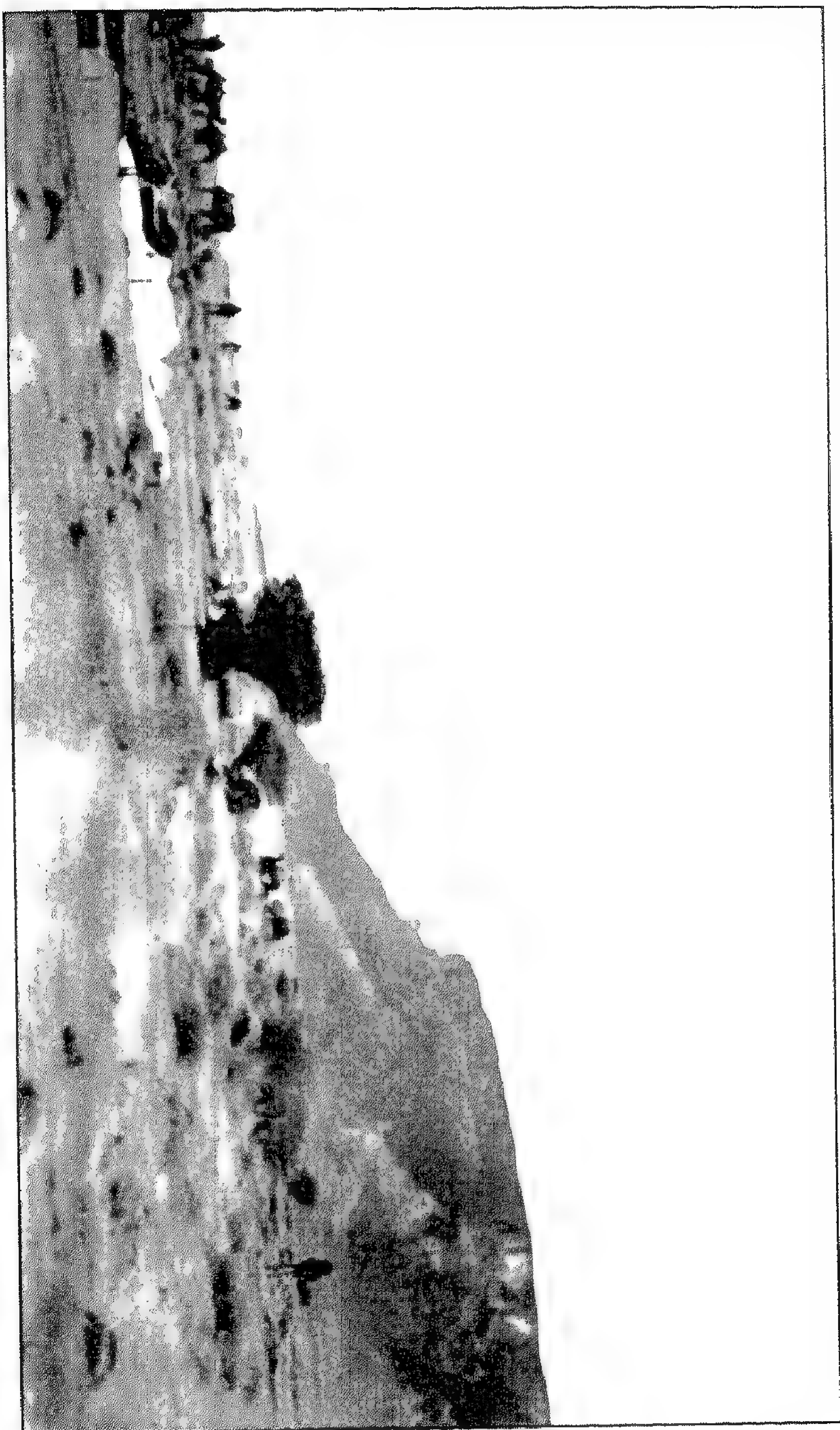
المؤلف



توقف للصلاة في وادي الشارقة



وادي وعيون أبو جفان



خشم أوسى، معسكر دمرته العاصفة في سهل طرى



العقيد ر.ى.أ. هاميلتون على اليسار مع فهد من الحرس الملكي في الرياض

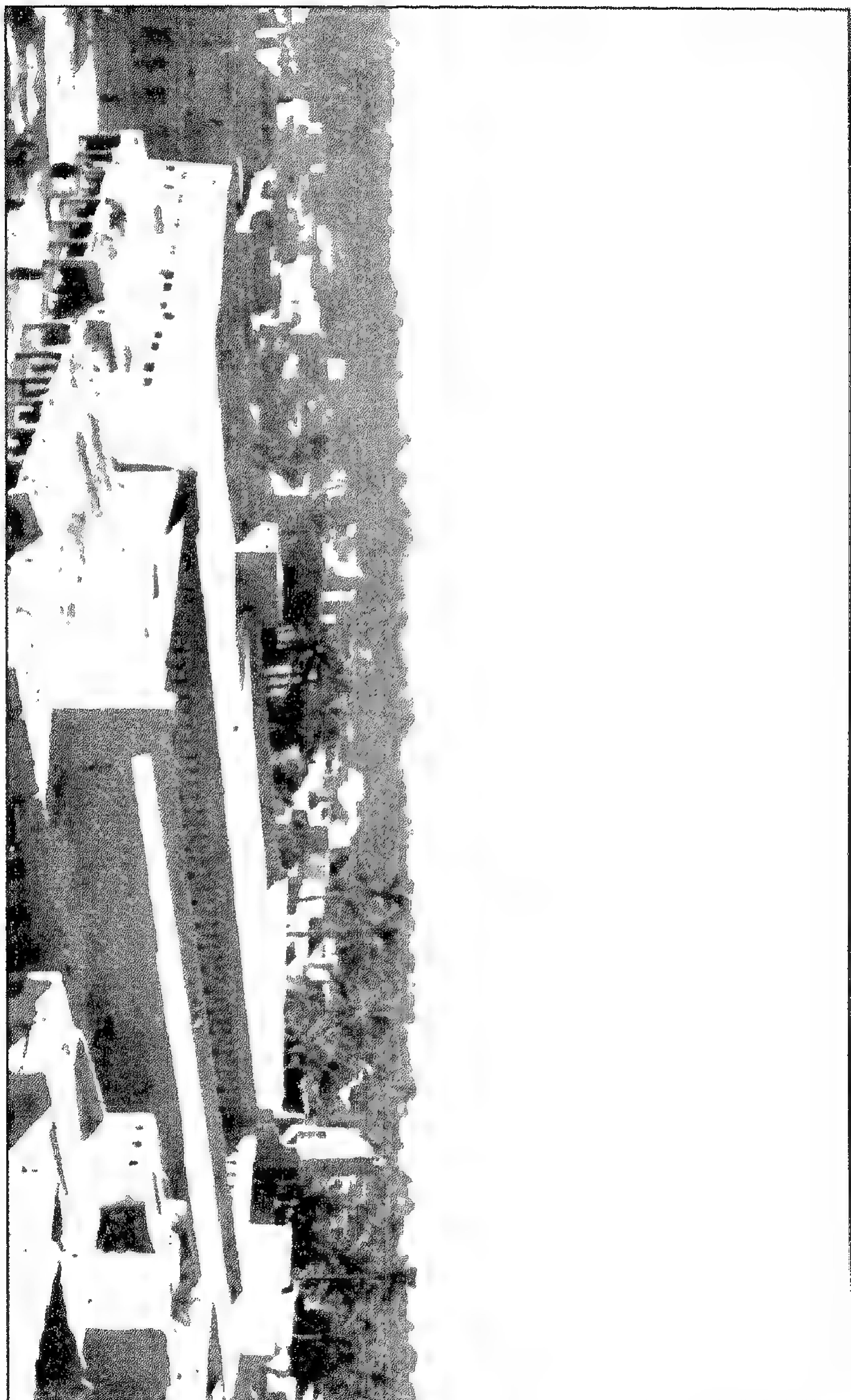


عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن سعود

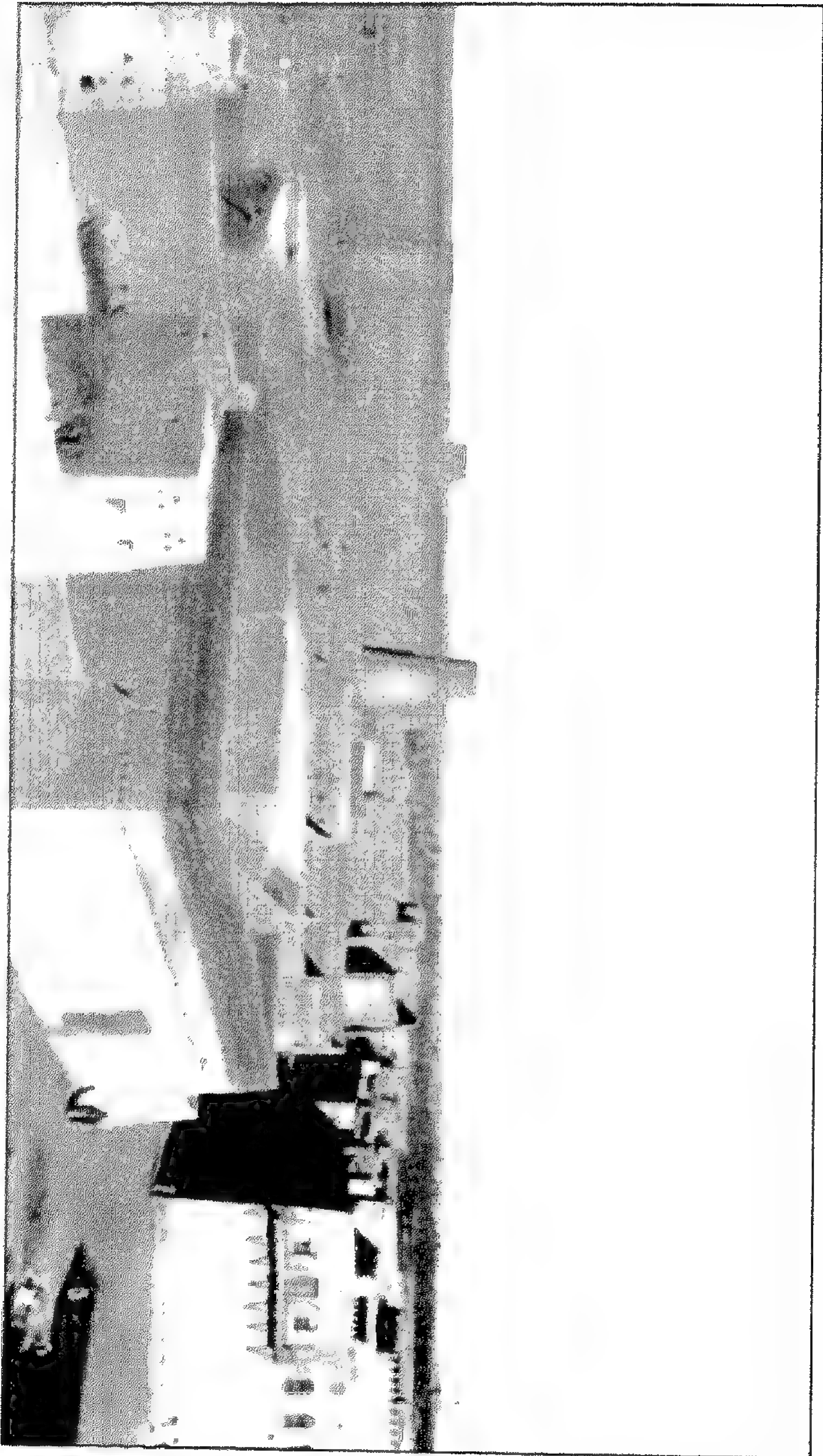
حاكم المنطقة الوهابية على اليمين مع ابن عمه سلمان العرافة



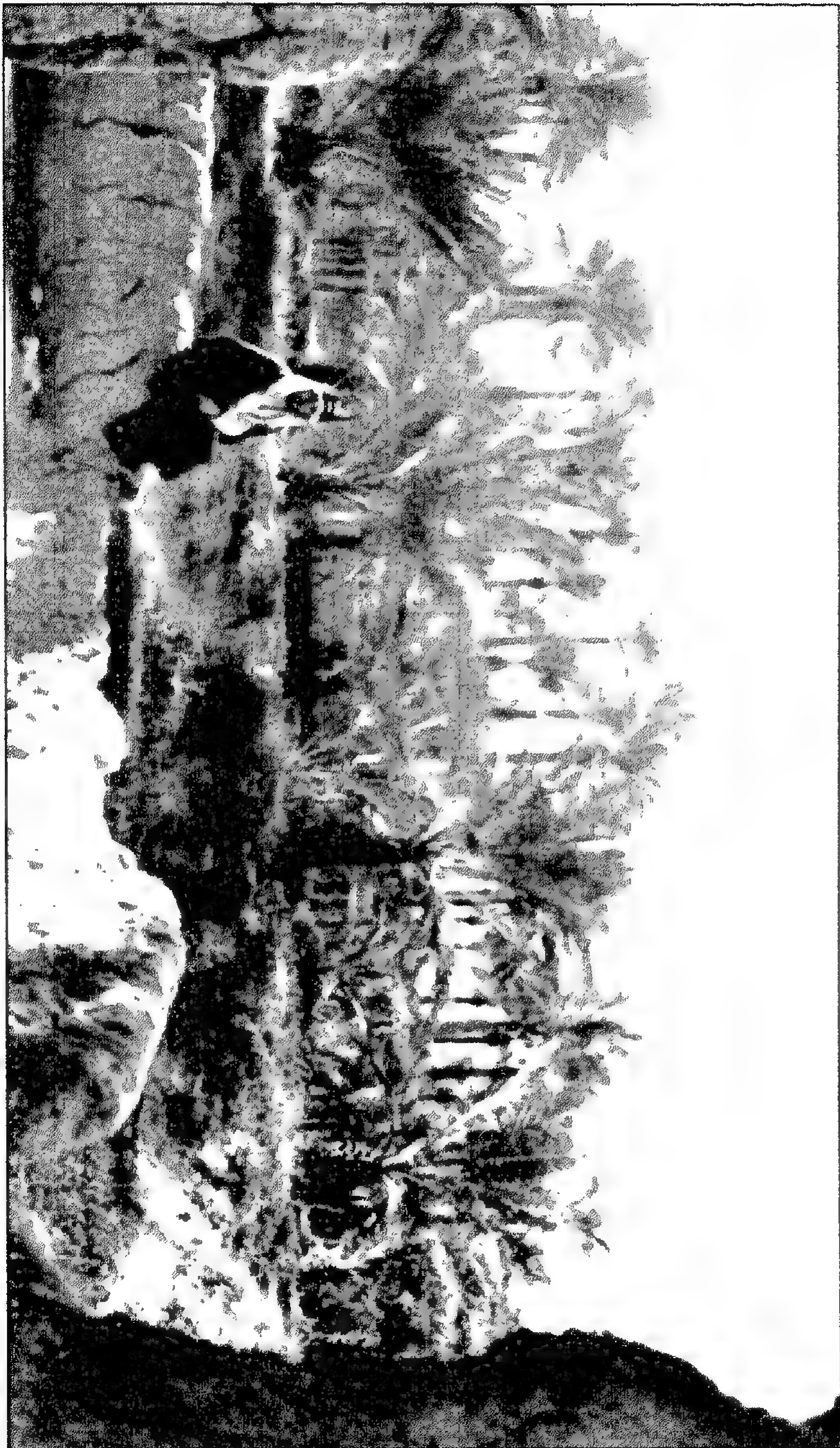
القصر الملكي بالرياض



المسجد الكبير بالرياض



حصن الرياض ومنظر عام للجانب الشمالي الشرقي من القصر: على اليمين منزل محمد بن سعود، وفي المنتصف منزل المرحوم سعود بن سعود، والشارع الرئيس المؤدي للبوابة الشمالية الشرقية بينهما



حدائق في واحة الرياض، عبدالله أفندي جالسا على جدار



مجموعة من الرياض: أطفال الأسرة المالكة في المقدمة، ويقف خلفهم من اليسار إلى اليمين: فيصل بن هشر، فيصل بن راشد، ابن سعود بنفسه، سعود بن عبدالعزيز العرافة، تركي بن سعود، سعود بن عبدالرحمن بن سعود، عضوان آخران من الأسرة المالكة.



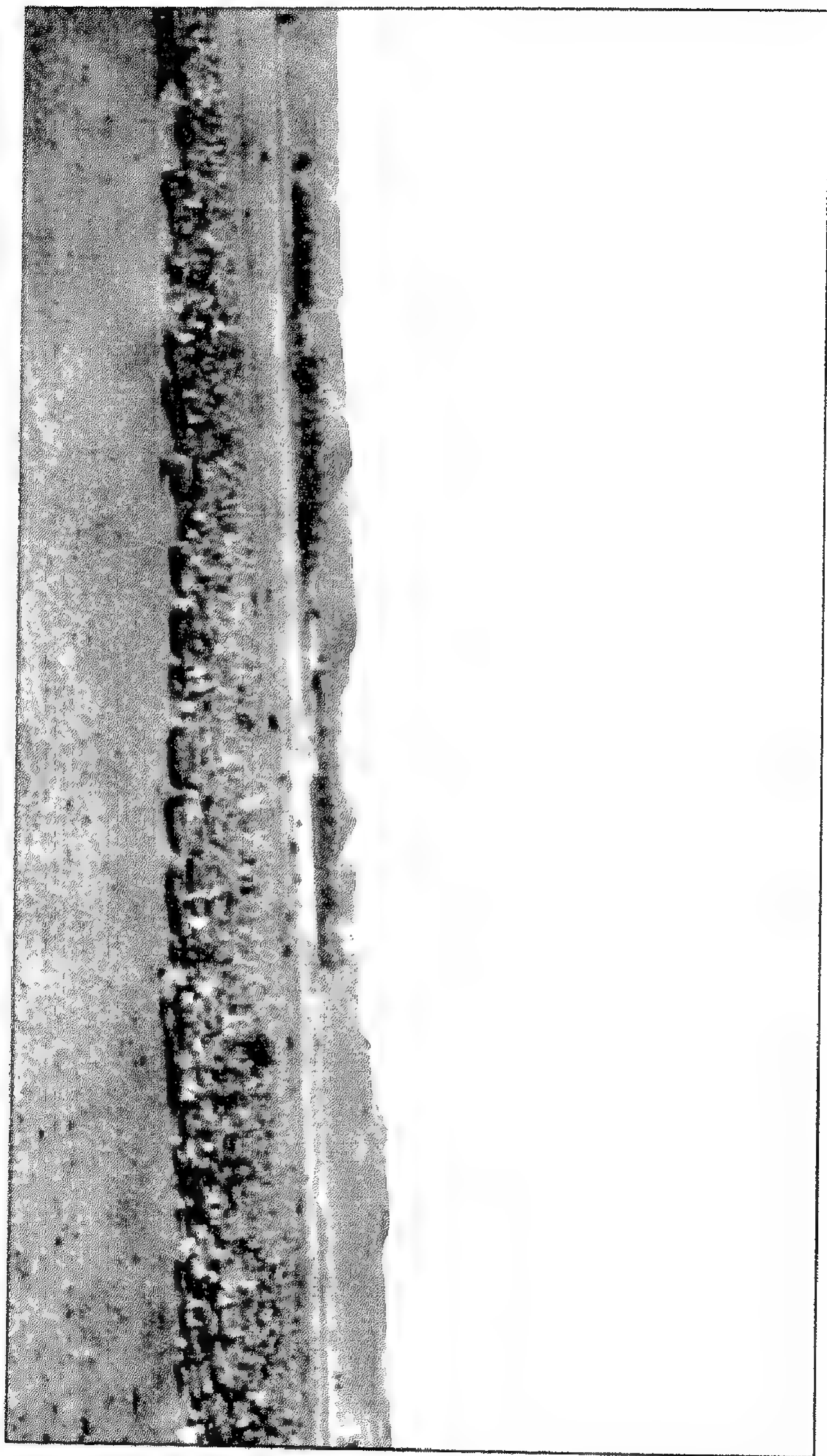
مجموعة من مرافقي المؤلف أثناء إحدى رحلاته عبر الجزيرة العربية؛ وقوفاً من اليسار إلى اليمين: مطيليج، تامي، إبراهيم، المؤلف، سعد، زميع، حيلان وبدر؛ جلوسا: شايع، سعيد؟ بن نصر، أبو نوره وجرمان



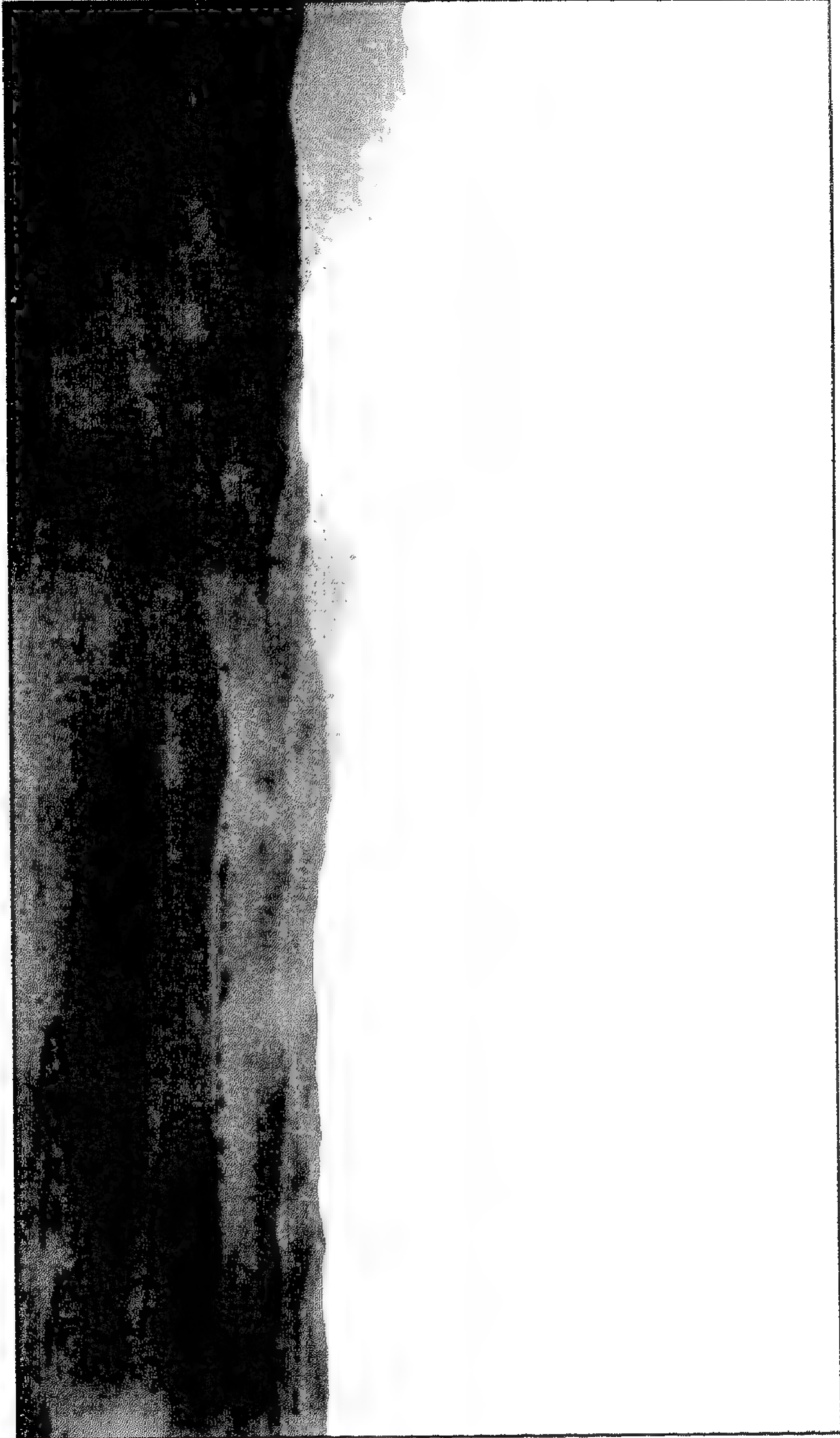
واحة الدرعية وفي منتصفها مجرى مائي متدفق، وعلى اليسار: أنقاض المدينة القديمة وعلى اليمين قرى ملوى
وظهراء وغصيبة



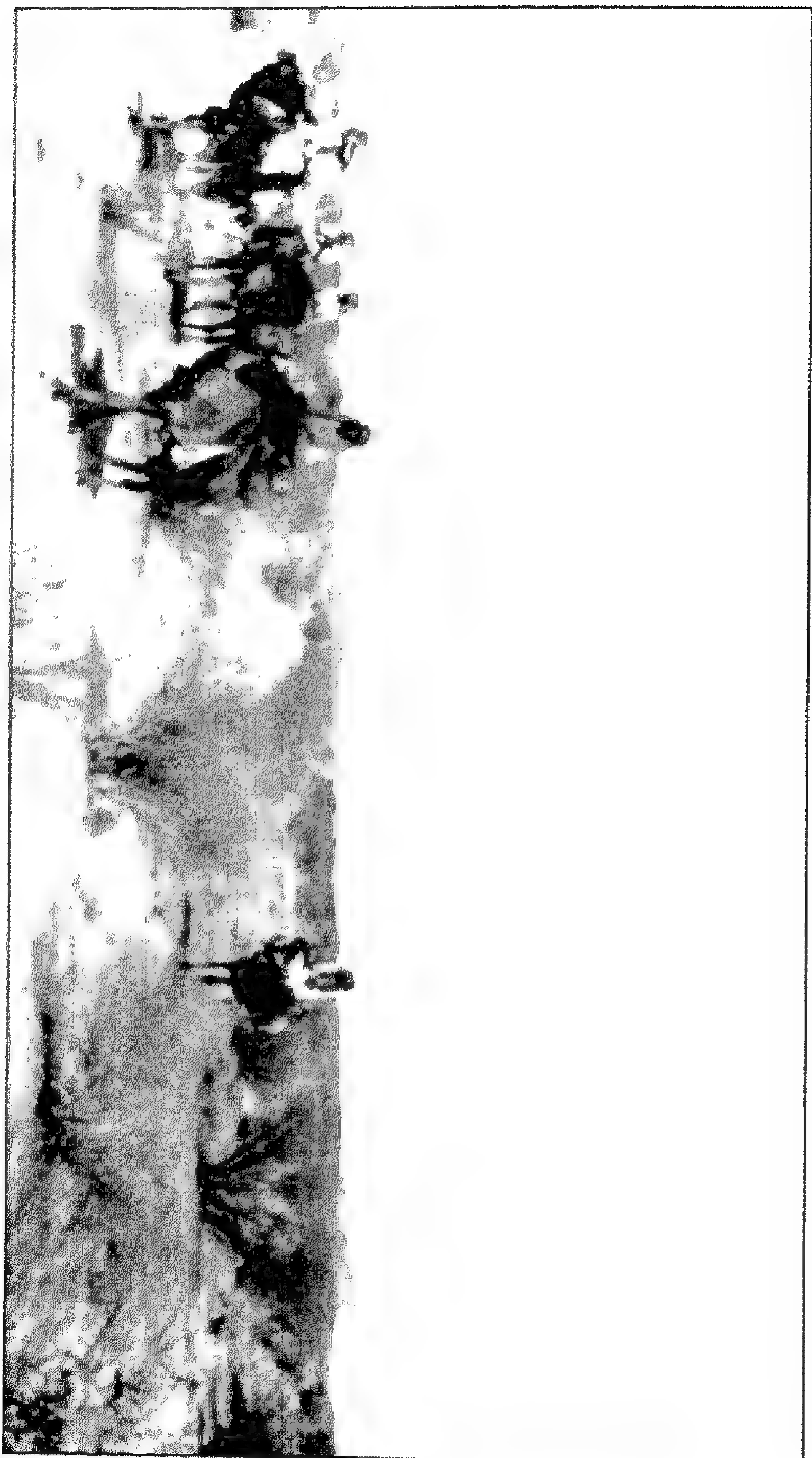
ممر سقطة في جبل طويق



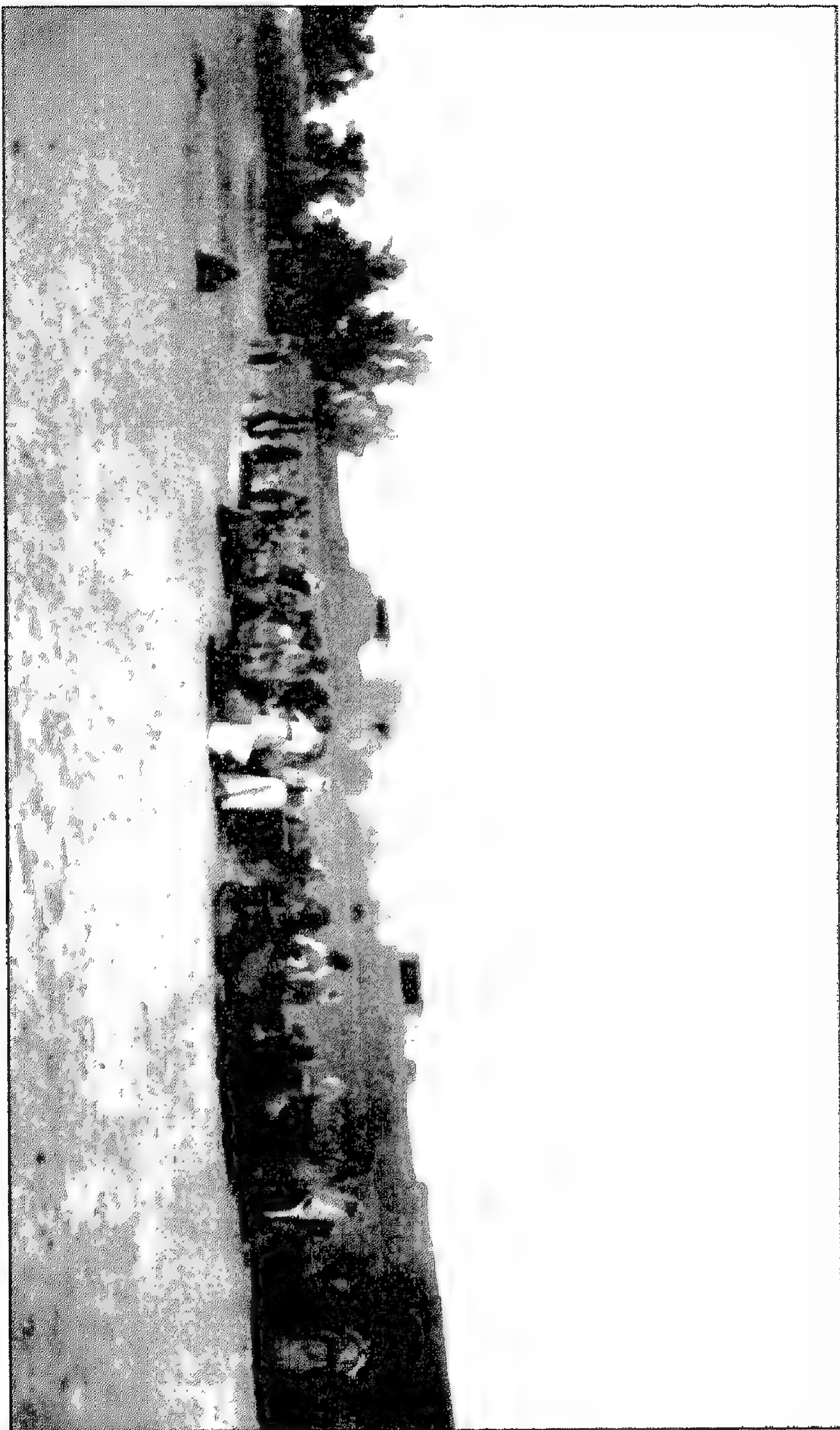
واحة القويعية في مرتفعات أرْضَى وفي مقدمتها اللدافن الرملية



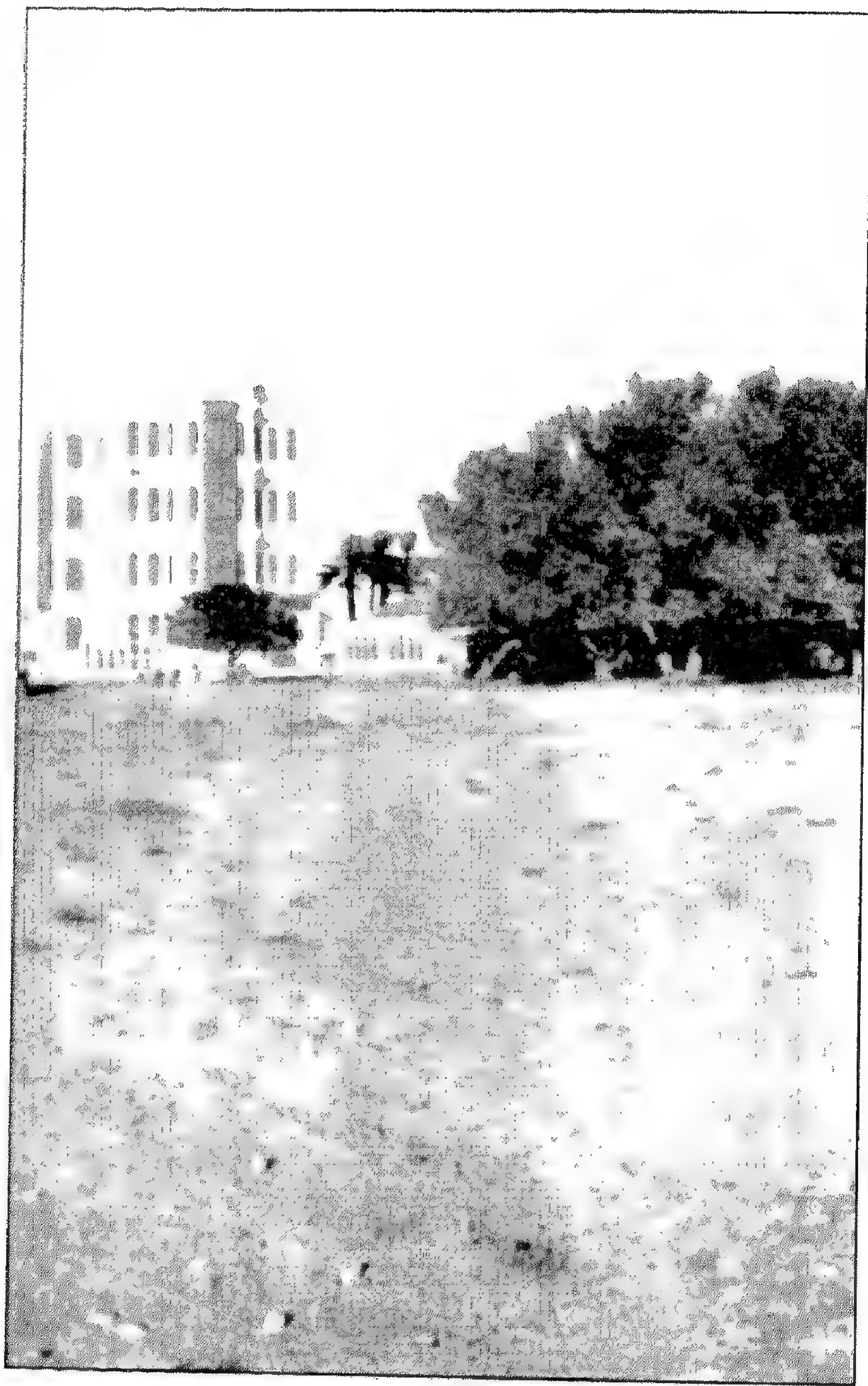
جبل فريدة في محيط دامكة



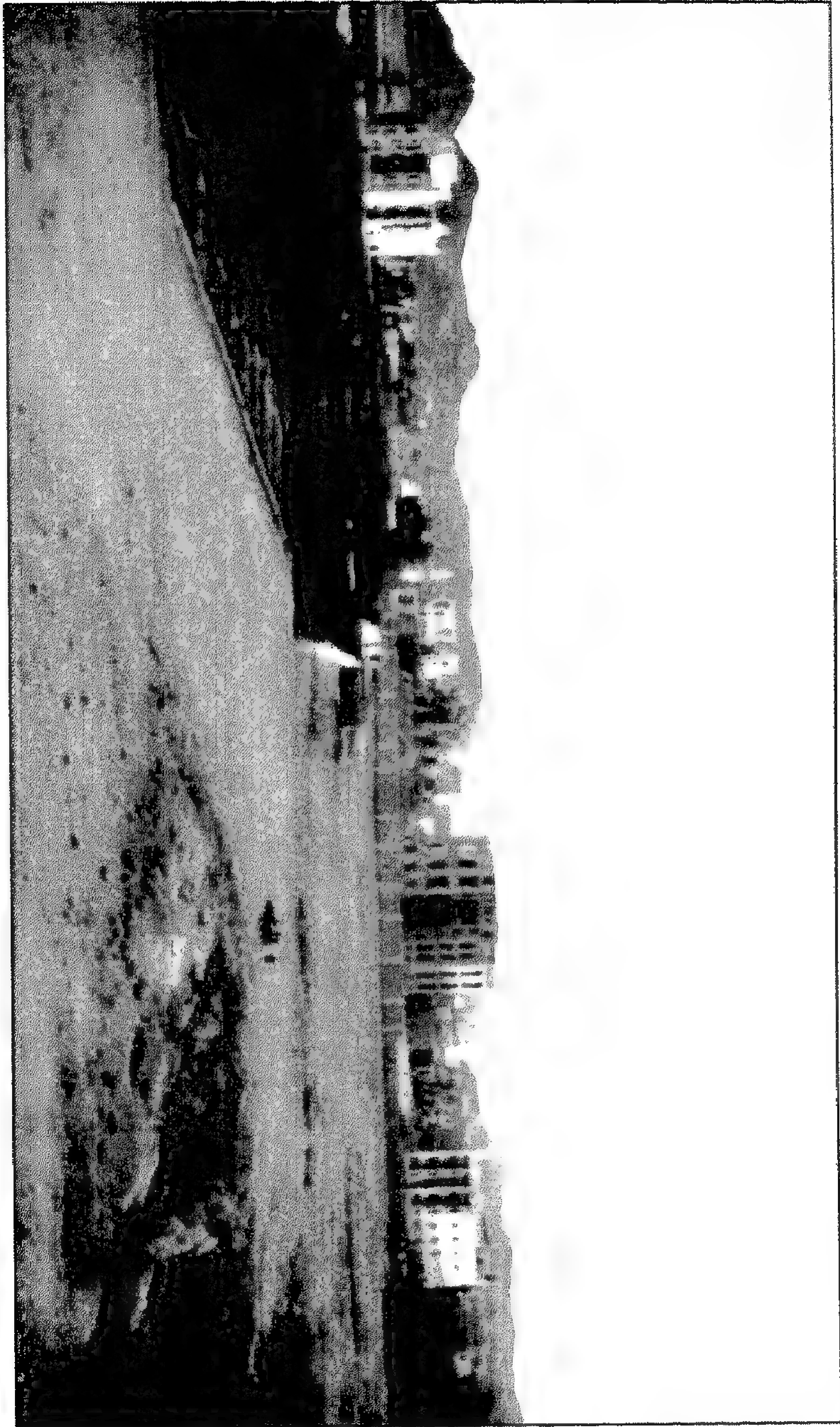
سهل سيرا يطل شرقاً على محيط دامكة وقريلة على اليمين ونصيفة على اليسار



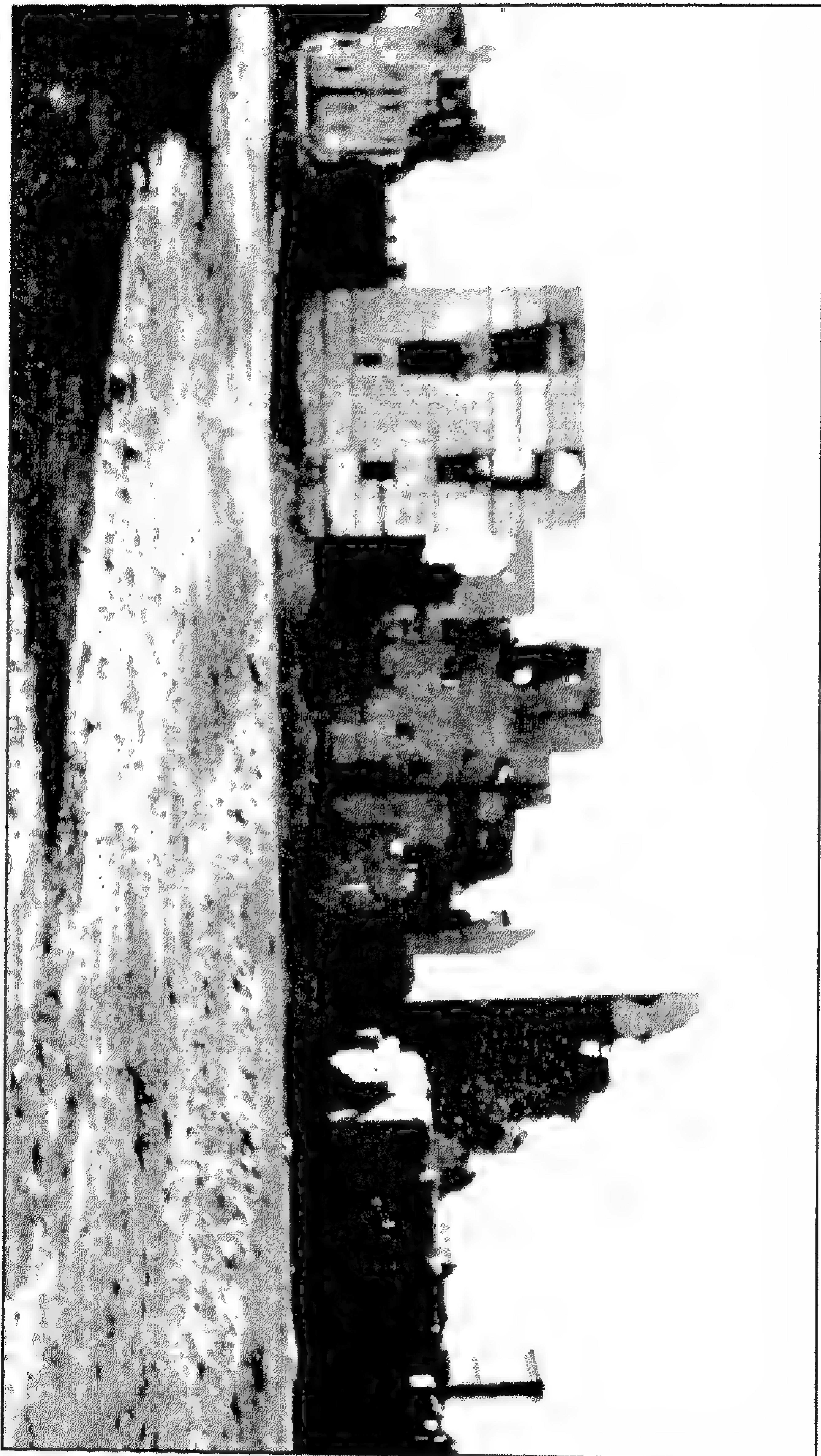
قرية حرمة



قصر شبرا في وادي الطائف



الطائف



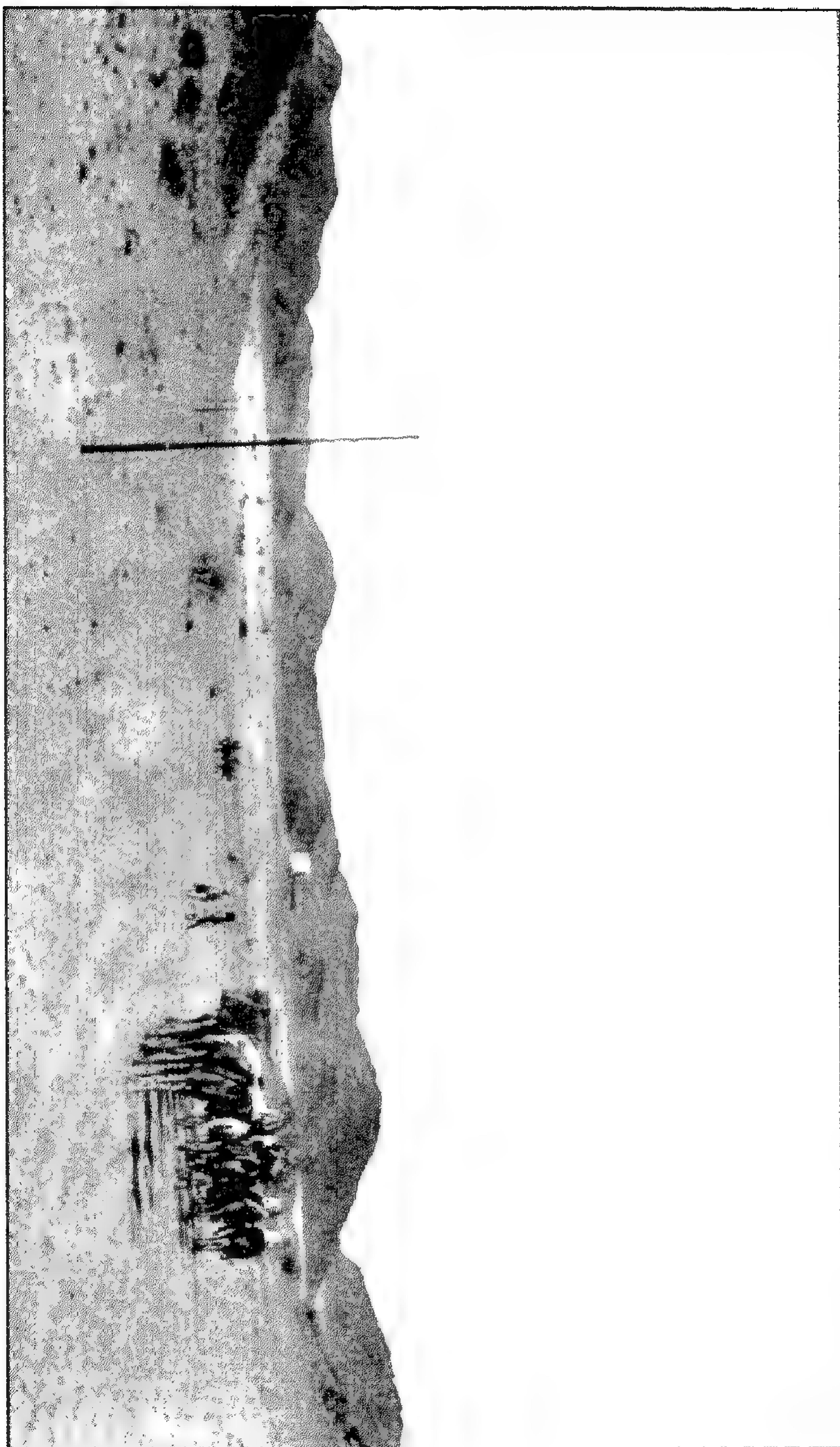
قصر الملك حسين في الطائف وقد دمره الأتراك قبل استسلام المدينة عام ١٩١٦م



وادي شامية (قاطمة) عند مدخل حرضه، وفي الصورة عبد ومراسل الملك يمتطيا الجمل ويقف خلفه الخادم



واحة مضيق في وادي ليمون (فاطمة)



خط تلغراف وطريق قوافل مكة - جدة في نقطة يبلغها في تلال الأطراف الساحلية



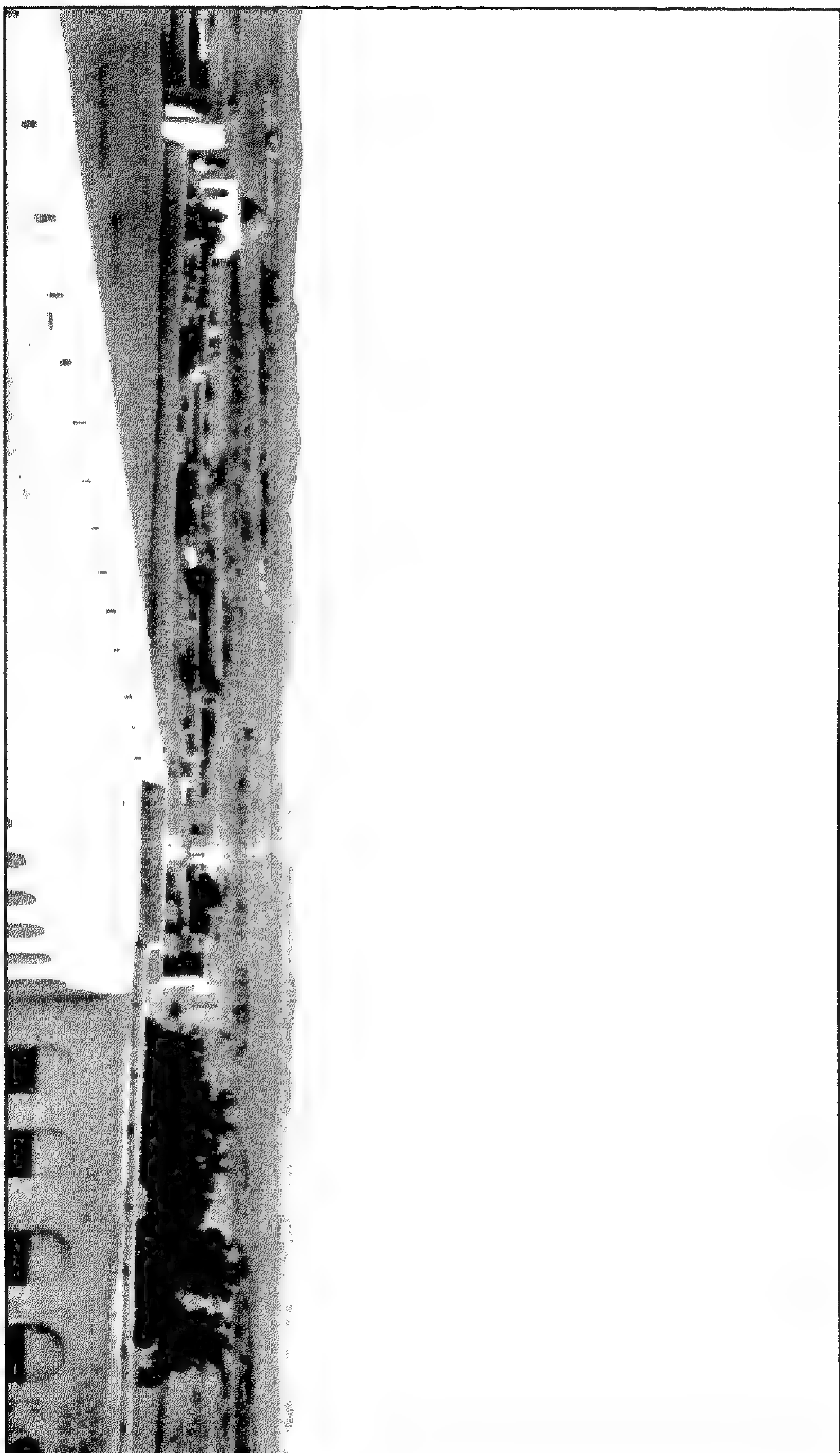
المنظر الأول للبحر في رغمه



جانب من مرافقي المؤلف ممتطين جمالهم في جلة



بوابة مكة في جدة



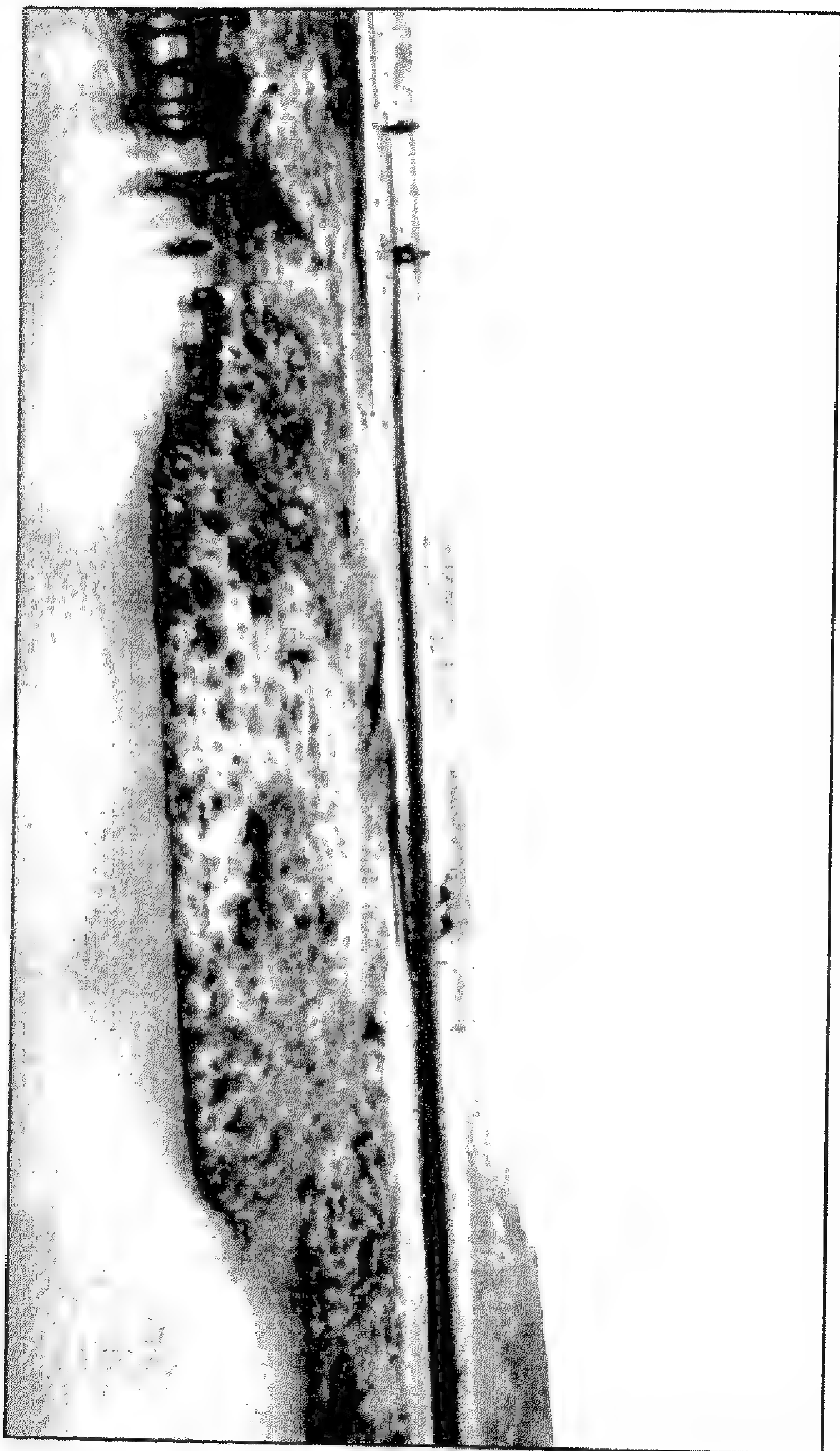
جدة، حواجز الشريفين في المقدمة وفي الخلف مقبرة حواء في المدافن



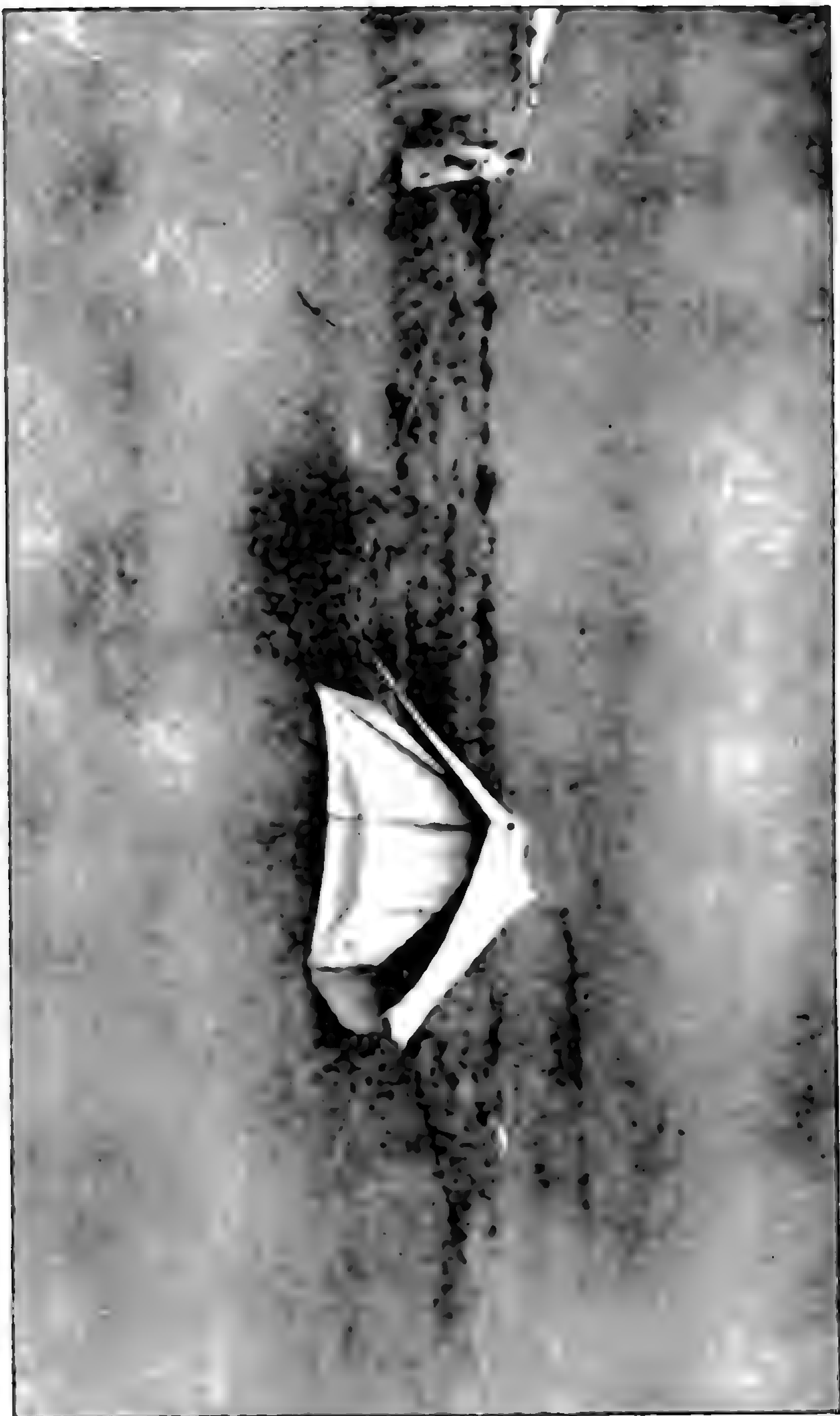
مجموعة من مشايخ القبائل، من اليسار إلى اليمين: محمد بن صالح الصيحان، شيخ إبراهيم الزبير، ظهري بن طولا ومحمود بن صويت



آبار حفر الباطن، وتبدو الإبل وهي ترد الماء



بركة خفس وفي الخلف يبدو جرف ارما



عاصفة رملية تطيح بخيمة بالقرب من خفس، ويبدو في الظلام الخلفي جرف أرما

الفصل السادس

ما وراء الفرات

١- الباطن

عندما ودّعت ابن سعود في ديسمبر (كانون الأول) كنت قد أكّدت له بأنني "إن شاء الله" سأعود إلى الرياض قبل نهاية يناير (كانون الثاني)، على أسوأ تقدير. لكنّ قرار القدر كان مخالفاً لنواياي، وامتدت الأسابيع لتصير شهوراً من الإرجاءِ والترقب، وأنا أبحث في ترف الحضارة عن التأسي وسلوان خيبة الأمل المريرة لذاتها، والتي ضاعف من مرارتها أنّ احتمالات العودة إلى الجزيرة العربية كانت تعتمد على عوامل لا يد لي فيها. لقد رأيت ما يكفي من الصحراء وعن مجتمعها الغريب في الأسابيع الستّة التي قضيتها بالجزيرة والتي انتهت قبل أوانها لتجعلني أحنُّ لفرصة لاحقة لدراستها عن قرب أكثر بأعين قد دلفت إلى دهاليز أسرارها من قبل، فصار لها بعض القدر من التمرّس، والتي ملأتني بذلك الاشتياق القلق للفضاءات الواسعة والهواء النقي للقفار التي لن يقدرها حق قدرها إلاّ من أداروا ظهورهم لبعض الوقت للعالم الحديث بمشاهده المزدحمة ليلفّهم الصمت النابض بالحياة بين طيات الرمال غير المتناهية والصخور المتلاحقة، حيث تظهر الأشياء دون تدخّل الإنسان، كما كانت تفعل منذ البداية وكما ستفعل حتى النهاية. ولكن على الرغم من التأسي على ما فات والخوف مما هو آت فليس لديَّ أسباب كثيرة للشكوى. ألم أرَ للمرة الأولى القاهرة بكل عظمتها وأبراجها التي لا تحصى، ونيلها الجبار وأهرامها الموغلة في القدَم؟ لقد حضرت أيضاً للمرة الأولى للقدس التي تحررت أخيراً من استبداد الأتراك[1]. لكن نداء الصحراء كان قوياً في أعماقي، وبدا لي النداء المنغم للمؤذن داعياً إلى الصلاة في معبد سليمان، وكأنه يهزأ من ذكرياتي الثمينة عن الأصوات الجهورية المتنافرة الصادرة عن الحلق، والتي

(١) هكذا ترى وجهة النظر البريطانية القدس، مع أنها وقعت بعد ذلك تحت سيطرة الاستعمار البريطاني؛ حيث وهبها وزير الخارجية البريطاني «بلفور» -صاحب الوعد المشؤوم- إلى اليهود. (المراجعون).

كانت تعلو في السمــاء محركة هواء الرياض وقرى الصحــراء في الأوقات المحددة للصلاة. كما كان عواء الذئاب يذكر الدوسري المنفي وهو يرعى خرافه في العراق بالصوت الموسيقي المحبب لغناء موطنه:

"صاحبي، وادي الدواســـر مقرّها

بضلاع الأسمر من ورا الرمال من غادي"

من حسن الطالع أن مخاوفي لم يكن لها أساس إذ أن المرسوم قد صدر بأن أعود إلى الرياض على الفور. ركبــت السفينة المتجهة إلى بومبــاي والبصرة، وقد رست في ميناء الأخير في يوم ٢٤ مارس (آذار) وكــان عليّ أن أُعدّ العدّة لما تبقى من الرحلة. لقد انقضت أيام الشتــاء، وها هو الربيع قد أطلّ، ولكن عندما أصل إلى محطتي الأخيرة يكون الربيع هو الآخر قــد انقضى ليحط الصيف رحاله بها، كان احتمــال قضاء الصيف كله في "واحد من أكثر الأقطار حرارة وجـفافاً حيث تكون السماء خـالية من السحاب وحين ترسل الشــمس أشعتهــا إلى السهول ذات الرمال الحارقة"[(١)]، كان غير مشجع، خاصة وأنه كان علينا أن نقضي الصيف في الصحراء. ورغـماً عن هذا كان لابد أن أذهب للجزيرة العربية ـ لأكـتشف لحسن الطالع أن ذلك الوصف الذي استشهدت به لم يكن عادلاً.

عندما وصلت إلى البصرة تم إبلاغي أن ابن سـعود عندما علم بحضوري، ترك ابنه تركي على رأس معسكر المناورات في مرتفعات العرمة وقدِمَ إلى الأحساء لملاقــاتي. لــذا وضــعت خطتي لأرتحل براً، مــن الكويت جنوباً. ولكــن أفســد حساباتي أن أتاني مبعــوث من ضاري بن طوالة زعيم الاسلم من شمر الذي تلقى تقارير متضاربة عن مكان وجودي ونواياي فقــرر أن يتحرى الأمر بنفسه، وليوضح

(١) من كتــيب "الجزيرة العربيــة ونبيُّهــا"، (١٩٠٩م)، إصدار جمعــية الأدب المسيــحي، (لندن، مدراس، كولومبو). (المؤلف).

أيضاً بهذه المناسبة للسلطات في البصرة أن إعانته المالية الشهرية، والتي كنتُ مسؤولاً عن إيصالها له قد تأخر استلامه لها لعدة أشهر نتيجة لتحركاتي الغريبة. كانت مفاجأة الرسولين الشمريين -إذن- عظيمة: ضيدان وحمدان ابني سلطان، عندما وجدا ضالتهما المنشودة بعد العدة لأن يتهرب منهما حتى بعد وصولهما. ولكن كان سرورهما أكبر عندما اقترحت عليهما بأن أصحبهما بشخصي بدلاً من أن يعودا بخطاب رداً على خطاب سيدهما. حينما يعودان لخيامهما وبصحبتهما أنا وأكياس المال المفقود. كانت فرصة قضاء بعض الأيام بين جماعة شمر المهيبين، في مناخ بدوي لم يُفسده التشدد الصارم في وسط نجد، أمراً لا تمكن مقاومته. وأرحت ضميري بفكرة أني سأصل إلى ابن سعود بالسرعة نفسها إن اتخذت طريق الباطن أو أي طريق آخر، وأنه من الضروري عقد اجتماع مع ضاري من أجل تنفيذ الخطط المتفق عليها.

قبل التاريخ الذي بدأتُ فيه مهمتي الأولى للجزيرة العربية (نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩١٧م)، كان هناك احتمال بعيد، رغم أنه كان قائماً طوال الوقت، وهو احتمال الهجوم على خط السكة الحديدية بين البصرة والناصرية لمصلحة الأتراك، بواسطة ابن رشيد أو عجيمي السعدون، من جماعة المنتفق الخارجة على القانون، إذ كان الاثنان يسيطران على الصحراء، غرب الفرات لصالح الأتراك. هذا هو الذي أوجب على السلطات العسكرية البريطانية في بلاد ما بين الرافدين أن تحاول خلق علاقات سياسية مع القبائل الحدودية التي كانت بسبب توسطها بيننا وبين العدو قادرة على أن تعرض خدماتها للمزايدة، ليس ذلك فحسب، بل كانت تبيع عونها للجهتين دون أن تُخلص لأي منها. بيد أن احتلالنا لبغداد وما تبع ذلك من تأمين مواقعنا وراءها، أراحنا من القلق المزعج حول تأمين خط اتصالاتنا جنوب الناصرية، ولكن بعد أن وجدنا أننا قد ملكنا كل المنطقة المنتجة للغذاء في العراق

فكرنا أن نقوم بمحاولات لإقامة حصار فعّـال لحدود العدو. أما القبائل التي كانت تتمتع بوظيفـة بلا أعباء، وهي حماية الخط الحديدي، فلقـد طُلب منها أن تصبح جزءاً من الحـصار الاقـتصـادي الذي كنّا نأمل أن نخنق به تركـيا، وذلك مـقابل استـمرار العون المالي والمـعاملة الخاصـة في السماح لهم بسـحب المواد التمـوينية اللازمة لهم من الأسـواق التي تقع تحت سيطرتنا. لم نكن نود أن نشـتت مواردنا العسكرية بتكوين نقاط حـصار يقوم عليها الجنود على مسافـات قريبة بطول حدود صحراوية ممتدة متعبة، لذا فلم يكن أمامنا خيار سوى أن نؤمن تعاون أصدقائنا من العرب في تحقـيق الحصار. لكن ذلك التعاون لم يكن مـقنعاً بالكامل. ويمكن أن ندلل على ذلك بحادثة واحـدة كان ابن سعود مطلعاً عليـها بطريقة غير مـباشرة. قدمت قافلة بكل جرأة من شمر قوامها ٣٠٠٠ من الإبل، قدمت من حائل نفسها للكويت في سبتمبر (أيلول)، وكانت البضائع التي تم إنزالها من سفن بريطانية قد اشتراها دون مـوارية وكلاء للعدو، وكانت تحـريات ضباط الحصار التـابعين لشيخ الكويت قد أقنعتـهم دون كبير عناء الأكاذيب الشكلية التي قـيلت لهم، وساعدهم على ذلك حسن النوايا، وانتـهت الإجراءات بسلام. وتحركت القافـلة، ليس عبر الطريق المتوقع وهو الطريق المبـاشر لحائل، وهو أكـثر اضطراباً، ولكن عن طريق القصيم. ووصلت القافلة إلى بُريدة، ومَثُلَ قوادها أمام تركي الذي كان ابن سعود قد تركـه في قيـادة قوات الحـصار في القصـيم، وأدوا فروض الاحـترام وقـدموا شهادات عدم الممانعة الصادرة عن السلطات الكويتية، طالبين اعتمادها، لم يطلبوا فقط لكنهم حـصلوا بالفعل على الإذن، وغادروا بسـلام. هكذا اخترقت بضـاعة بريطانية الحصار البريطاني إلى حائل، وهكذا تخلّى حلفاؤنا العرب في هذه الحالة عن مسـؤولياتهم في تطبـيق الحصـار بعد أن تم استـغلال حسن نـواياهم. كانت الإيضاحـات والاعتـذارات عن الخطأ الناتج عن الفهـم الخاطئ لنوايانا قـد جاءت

متأخرة، حين لم يكن في الإمكان علاج الضرر الذي حدث. لكن ليس من الصحيح أن نفترض أن هذه كانت حالة معزولة، أو أن الكويت احتكرت تزويد العدو باحتياجاته. ألا يدل تاريخ تجار سوريا على عثرات إخوانهم ايزيون جبر وآخرين والذين كان ينبغي أن يكونوا أكثر وعياً ويقظة؟.

ولكن لنعد من هذا الاستطراد إلى الشأن الخاص بضاري. في الوقت الذي غادرت فيه بغداد في أكتوبر (تشرين الأول) كانت قد ثارت بعض الشكوك فيما يختص بأمانة وكلائنا من رجال القبائل في تنفيذ الحصار على خط الكويت ـ البصرة ـ الناصرية، وكانت الأوامر التي صدرت لي أن أستغل فترة بقائي في البصرة لألتقي بالشيوخ المعنيين بالأمر بهدف مراجعة الترتيبات، وللتنسيق إن كان ذلك ممكناً بين عملياتهم، وبين ما كنّا نأمل في أن نقنع ابن سعود للاضطلاع به، من أجل تنفيذ الأهداف العامة. تزامنت لحسن الطالع دعوة القادة العرب المحليين لحفل سباق مع وصولي، مما أعطاني الفرصة للتشاور مع المعنيين منهم بالأمر، باستثناء واحد منهم. إذ أن سعود الصالح السبهان أحد زعماء عبدة من شمر والذي اتُّفق على أن يكون رئيساً للشيوخ الأصدقاء في منطقة مسارات الفرات. حيث إنه كان قد هجر ابن رشيد ورمى بثقله خلفنا قبل عام تقريباً، ولكنه في الأسابيع الأخيرة بدا جلياً أنه قد بدأ يجني أرباحاً من اختراق الحصار الذي كنّا ندفع له دعماً جيداً لمنع حدوثه، لذا رأى أن يمثله في السباق أخٌ له، أصغر، ليس ذا أهمية، لئلا يخاطر بحضوره شخصياً خوفاً مما قد يترتب على هذا الأمر من تبعات. أدانه الشعور بالجرم الذي يُحسُّه ضميره، وبالتالي جُرِّد من الدعم المالي الذي كان يتلقاه وهجره أصدقاؤه الذين كانوا يُثمنون صداقتهم للآخرين من أمثاله بقيمة عالية، ما كان ليستطيع هو أن يدفعها. بقي شخصاً عادياً في الصحراء،

خاسراً للقضيتين اللتين عمل من أجلهما. وبعدها أُلبست العباءة التي انتزعت من ابن سبهان لشيخ آخر هو ضاري بن طوالة الذي كان قد اشتهر بالكرم، وكان بسطه ليده قد جعل مخيمه مزدحماً بوجوه كثيرة، أكثر مما يستطيع هو أن يُطعم بمعاونة الأجر المتواضع الذي يتقاضاه. رأى ضاري أن سقوط غريمه فرصة جيدة لتحقيق مطامعه الشخصية، فأسرع بالاتفاق مع السلطات البريطانية لزيادة نشاطه في تدعيم الحصار، مقابل زيادة راتبه، وسأذكر ما تُوُصِّل إليه في هذا الشأن بعد قليل. كانت بريطانيا قد أَوْكَلَتْ لقبيلة الظفير -تحت إمرة زعيم شيوخها حمود بن سويط- دوراً صغيراً، وحمود هذا كان قد قام بأعمال جيدة دون تباهٍ أو فخر فيما يتعلق بحماية خط السكة الحديدية في الأيام الأولى للحملة. وكان التحالف مع رجال الصحراء في هذا القطاع قد اكتمل بإضافة إبراهيم شيخ منطقة الزبير، كقائد وفيلسوف وصديق كل الأطراف ذات الصلة.

كان ضاري هو مركز كل الترتيبات، وحلقة الوصل بيننا وبين الصحراء، ورغم أنه لم يحرز نتائج هامة خلال الأشهر الأربعة التي انقضت بين سفري للجزيرة العربية وعودتي للبصرة، إلا أنه يمكنه على الأقل أن يدّعي أنه قد التزم بالاتفاق في مخيمه بجوار آبار الحفر. ولقد فكرت في زيارته في مخيمه على أمل أن أحثه على أن يكون تعاونه مع الحصار أكثر إيجابية. أكملت إستعدادي للسفر بعد ظهر يوم ٢٨ مارس (آذار) عندما بلغت محطة البداية للخط الحديدي الذي يربط بين البصرة والناصرية. اتخذت مقعدي في قطار الناصرية السريع. إن السهل القفر بين البصرة ومحطة الزبير معروف جداً، ولا حاجة لنا لوصفه. وقد تسببت الأمطار الشتوية في إحالة الريف إلى شيء شبيه بالمستنقع، بحيث يستعصي على

السيارات السير فيه، بينما صارت المنطـقة الممتدة جنوباً صوب أعالي خور عبدالله شبكة من البـحيرات الطينيـة الضحلة. سرنا بصـعوبة عبـر أنقاض مدينة البـصرة القديمة: المدينة الأولى ذات الأصل المحمـدي النقي، لنبلغ محطة الشعيـبة، حيث نزلت عن القطار لأجـد بعد بحث مضن بعض الجـمال المنهكة وقـد أناخت قرب الطريق العام، وكانت تنتظرني هناك لأحمل عليهـا متاعي، كما كانت تنتظرني في ساحة المحطة، مركبة مكشوفة خربة عفا عليها الزمن، لتحملني إلى الزبير. كانت تزخرف الطريق المتموج الخشن طبقة رقيقة من الحشائش مع رقاع متناثرة هنا وهناك ينمو فـيها القمح أو الـشعير الغض، وعند حلـول الظلام بلغت باب دار الضابط السياسي المساعد للزبير، الملازم أول أ. هـ. روبرتس، الذي ذهبت في صحبته فوراً إلى مسكن الشيخ حيث كنا مدعوين للعشاء.

لقد كان أمراً جـميلاً أن أبلغ أعتاب الصحراء مُـجدداً، وكان الشيخ إبراهيم مضيفاً ممتازاً، كم من ضابط بريطاني جلس إلى مائدته، ليس ذلك فحسب بل كم من سيدة من جنسنا قد لُقنت دروساً في خفايا الطعام العربي ومنحت حق الدخول في مصادقة المجتمع العربي. لقد وجدت القضـية البريطانية في شخصه صديقاً لم يتـذبذب في تحالفـه معـها منذ ذلك اليـوم المصيـري عندما رأى ـ وهو بين نـيران المتحاربين ـ التفـوق البريطاني بوضوح في ميدان القتال بالشعـيبة. ليس هناك أحدٌ غيره يدرس ويتابع بارومتر التحركـات السياسية، وليس هناك من أحدٍ سواه تتضح الرؤية لديه حول خيـر ترتيب لشؤون العراق. في غياب الحل الأمـثل، فإنه يتردد في إظهار ما يفضله من بين الخيارات المطـروحة حتى لا تثبت التجربة خطؤه، لماذا التجريب إذن؟ إن حـجج العربي بسيطة ومبـاشرة، ولكنها تخاطب العـاطفة دائماً وليس العقل، إنه يحكم على نجاح أو فشل النظام الذي يتفيأ ظله من واقع رفاهيته

الشخصية أو بؤسه، ليس إلا، دون اعتبار لما يصيب غيره من رفاقه. بالطبع ليس هناك معيار آخر في مجتمع لا تتوخى نُظُمه الاجتماعية البدائية العمل من أجل الصالح العام. وهكذا، رغم أن الكثيرين يتأسفون ـ ويُلبسون أسفهم قِناع العاطفة الدينية ـ على ما مضى من الأيام الطيبة السابقة، أيام الأتراك، عندما كانت جمهرة من المسؤولين الصغار تحيا حياة الترف والدعة من عرق العامة المغلوبين على أمرهم، وعندما كانت القبائل الخارجة على القانون تتحدى جباة الضرائب، وتفلت من العقاب. ولكن هناك الكثيرون أيضاً ـ ومنهم إبراهيم ـ ممن لا يدعون العاطفة المريضة أن تقلل من رضاهم الذي لا تحده حدود عن الهدايا التي تصلهم من النظام الجديد.

يقول إبراهيم ويؤيده أخوه حمد: «في أيام الأتراك لم تكن هناك عدالة ولا أمن، فيما يخصني أنا كنت في بعض الأوقات غنياً دون أوقات أخرى، إذ كان كل شيء خاضعاً لهوى الوالي في ذلك الوقت المحدد، وكان الولاة يتغيرون على فترات متقاربة جداً. كان يميل إليَّ بعضهم دون البعض الآخر. ولكن منذ احتلالكم اختلفت الأمور، الحمد لله أنني أملك ما أملك وحكومتكم ثابتة. كلما أتى ضابط في البصرة، أو حتى هنا في الزبير، فإن المعاملة لا تتغير. إذا بقيتم هنا بصفة دائمة سيسعد كُل من كان لديه شيء يخاف أن يفقده. ونحن سعداء بصفة خاصة لأمرٍ واحد، إذ أنكم لن تجبرونا على الالتحاق بجيشكم كما كان يفعل الأتراك أو كما كان سيفعل الشريف لو كان حاكمنا، أو أي حكومة عربية أخرى نحن لا نريد شيئاً سوى السلام، والابتعاد عن التدخل في شؤوننا. وفيما يخص المستقبل، لا نريد أن نرى الأتراك مرة ثانية، هذا مؤكد، وفيما يخص المطالبين بحكمنا من العرب فإن أهل العراق سيختارون الشريف على أساس تفوقه في

الجانب الديني، لكن مع الريبة والتوجس؛ أما ابن سعود فحكمه غير وارد خارج حدود الجزيرة، وهو بدوره لن يعترف بسيادة الشريف».

أما عن السيد طالب[١] الذي كان يؤدي دوراً بارعاً في مسرحية السياسة في البصرة قبل الحرب، فلقد تحدث عنه إبراهيم بحرية بناء على تشجيعي له، وكان واضحاً أنه تربط بين الرجلين علاقة رقيقة، وقال عنه: «إنه ليس بالغ السوء، كما يقول الناس عنه الآن، ومعظم الوحشية التي تنسب إليه هي من ابتداعات خيالات حية، لقد دبر هو بالفعل اغتيال فريد بيه، ولكن ضحيته كان سيفعل معه نفس الشيء لو وجد الفرصة المناسبة، لا شك أن السيد طالب قد مارس نفوذاً غير عادي على شؤون البصرة في قاعات المحاكم وعلى الولاة المتعاقبين، ولكن الخطأ كان من النظام التركي، إذ أن طالب لم يتردد في أن يصبح عيناً على أفعال كبار المسؤولين لمصلحة أسطنبول، ونتيجة لتقاريره السرية جاءت أوامر بالفصل في حق المسؤولين. لذلك ليس مستغرباً أن يسيطر على الإدارة وأن يوجهها لمصلحته الشخصية بتهديده للمسؤولين برفع تقارير للسلطات المركزية عن مثالبهم وإخفاقاتهم. إن مواطني البصرة لا يريدون شيئاً سوى أن يعود شخصاً عادياً كأي واحد منهم». وقد أبدى إبراهيم اهتماماً بما قلته له من أنني رأيت السيد المهيب في القاهرة حيث كان يسلي نفسه وهو في غربته المفروضة عليه عن الوطن بالجنوح إلى اللهو الفاسق في مدينة عظيمة.

خلدت إلى النوم في تلك الليلة وقد هيّأت نفسي لتقبل التأخير في بدء رحلة الغد، رغم وعود إبراهيم، فهناك التبرير المعتاد والذي يستغرق وقتاً، ولكن

---

(١) تم تعيينه(*) في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٠م وزيراً للداخلية في بلاد ما بين النهرين، وتم ترحيله منفياً إلى سيلان في أبريل (نيسان) ١٩٢١م. (المؤلف).

(*) السيد طالب النقيب. (المراجعون).

الشيخ كان جيداً مثل وعده، وكنت أنا الذي تسبب في تأخير القافلة لأتناول إفطاري وأحزم أمتعتي. وفي الساعة ٩:٤٠ صباحاً يوم ٢٩ مارس (آذار) ركبنا المطايا في صحبة جيدة قوامها ثلاثة وثلاثون شخصاً، وبدأنا السير يرافقنا الشيخ إبراهيم وأخوه لبعض المسافة خلال الطرقات الترابية حتى أصررت أنا عليهم أن يعودوا أدراجهم، وهكذا بلغنا البوابة الجنوبية للمدينة الصحراوية وعبرنا من خلالها نحو القفر. سرنا في البداية فوق مرتفعات وعرة عارية كانت تختلف من مكان لآخر، وتظهر فيها رقاع غير منتظمة من الحبوب. وبينما كنا نسير إلى الجنوب قليلاً من اتجاه الغرب كانت تقع خلفنا مدينة الزبير وكانت البصرة ونخيل شط العرب تتوارى ببطء، ليلفها السديم. وإلى اليمين، في اتجاه الشمال، كانت تقع الشعيبة، وإلى اليسار كانت تتراجع نخيل وأثل الرافضية، وإلى الجنوب كانت تلوح على البعد كتلة الحجر الجيري المنعزلة: جبل سنام الذي يشكل مشهداً رائعاً مع خلفيته الصحراوية، ولكنه لم يعد مهجوراً كالسابق بعد أن أُوصِلَ فرعٌ للخط الحديدي إلى سفحه، واقتُلعت الحجارة من جوانبه من أجل تعبيد الطريق الدائم. كان جبل سنام قبل عامين قصياً، بينه وبين المدينة بون شاسع. وكان الحال كذلك عندما عسكر ابن رشيد نفسه في صفوان ليمنع تقدمه نشاط كتائب فرسان الشعيبة. والآن يتعجب عرب الصحراء من مثابرتنا في تعبيد الطريق ويجدونها مصدراً للمرح البريء: ويسألون المسافرين القادمين من الشرق: «ألا يزال واقفاً؟، وكم سيستغرق من الوقت ليسووه بالأرض؟».

بلغنا بعد مسيرة ساعة قمة التلال التي تتدرج منها الأرض منحدرة بلطف إلى الأسفل حتى تبلغ غيضات الأثل الداكنة وحقول الحبوب الخضراء المتصلة ببلدة البرجسية، مزرعة ممتدة لكنها مختنقة في قاع ضحل، قد يكون نهاية قناة الباطن أو إحدى نهاياته. اتخذ الأتراك من هذا المكان موقعاً لرئاستهم في أبريل (نيسان)

١٩١٥م استعداداً لمعركة الشعيبة، ولايزال النزر القليل من بقايا الخنادق التي حفروها ظاهرة للعيان متوسطة أرض البطيخ، إذ أن الزبير والمناطق المحيطة بها أكثر ما اشتهرت به هو بطيخها، وحقول الحبوب التي مررنا بها أثناء هبوطنا للمنحدر. وفي النهاية وبعد مسيرة خمسة أميال من الزبير، بلغنا الطرف الجنوبي للمستوطنة، ووقفنا برهة وسط حقول الحبوب لنسقي إبلنا في إحدى آبار النزح الكثيرة (القليب). كانت البيوت الطينية لإحدى القرى الصغيرة تتوسط أشجار الأثل على مسافة ما نحو الشمال، بينما لاح جبل سنام بعيداً هناك صوب الجنوب.

بعد الظهر بقليل غادرنا رويرتس الذي رافقنا كل هذه المسيرة عائداً إلى الزبير، ثم تابعنا سيرنا في الاتجاه المعاكس إذ تحول بنا خط المسير لنتوجه درجات قليلة إلى الغرب من جبل سنام، عبر سهل موحش لكنه لطيف المرتقى يسمونه الرحى، سرنا فيه حتى لف السرب أجمات البرجسية من خلفنا. وما كان تحديقنا للنظر يصطدم بغير القفار أمامنا وخلفنا وعن كل جانب، وما بقي من معلم يقود مسارنا سوى السنام المعتاد. ولكن رغماً عن هذا فإن العرب قسموا هذه الأرض الفراغ الخالية من المعالم لأقسام رعوية صغيرة، يشيرون: هذه بخمى وتلك قريطية، رغم أنني لا أميِّز بين هذه وتلك، وهذه بَنية التي تُجمع منها الأغصان المقطوعة، وهي تفصل بيننا وبين جبل سنام. كانت تغطي السهل حشائش صغيرة متفرقة، وقليل من النباتات المزهرة وجنبة صغيرة تسمى إضريس. كان التغيير الوحيد الذي كسر حدة الرتابة في تلك المسيرة هي قتل أفعى خبيثة حاولت عبثاً الاحتماء بوعاء فارغ ملقى بجانب الطريق.

سرنا هكذا لسبعة أميال حتى بدا لنا ارتفاع ملحوظ في الأرض حدد لنا نهاية السهل المسطح الفسيح؛ سهل الرحى؛ ودلفنا إلى صقع يسمى المفرش أو دلتا الباطن وهي ساحة عريضة تتسع مرتفعاتها تدريجياً وتقاطعها شبكة من

المنخفضات التي كانت في عهد مضى مجارٍ تجري عبرها مياه أمطار الباطن لتصل إلى الفرات أو إلى البحر، إذ أن نهـراً عظيماً كان يجري في الأزمان السحـيقة قبل حلول الجفـاف الذي تسبب في خلق الصحـاري في الأجزاء الشماليـة من الجزيرة العربية، وقبـل أن يرسب النهران العظيمان الطمي على الأرض المسطحة الخـصيبة في ما بين النهرين، كـان ذلك النهر القديم الذي ينحدر من حرة خيـبر في الجانب الغربي القصي بطول مهد وادي الرمة والباطن ـ وهي في حقيقة الأمر أخدود واحد ـ لابد أنه كـان يصب هنا في الخليج العـربي، ولابد أن منبـعه كـان في الشمـال القصي بعيـداً عن الموقع الذي بلغناه الآن، أو حتى جوار أور[1] الجالديس موطن نبي الله إبراهيم. كانت مـرتفعات مفـرش تضم المتناقضين: تلال يغطيهـا الحصى ومنخـفضات تغطـيها الحـشائش التي بدأت تعلـوها الزهور الصحـراوية الربيعـية الصغيرة. والتي تزخـرف المكان بألوانها البيضاء والصفراء والأرجـوانية على امتداد ستة أمـيال من حافة سهل رحى، وتضـيق تدريجياً لتبلغ نهايتـها في طرف أخدود الباطـن الذي تحده هضـبتان صـغيـرتان مسـتديرتان، واحـدة على كلٍ من طرفي المدخل: الرتك الشـمالي والرتك الجنـوبي. وجدنا هنا وفـرة من جنيات العـرفج الجاف ذي اللون الرمـادي/ الأخضـر والذي تحبه الإبل فـقررنا أن ننصب خـيامنا للمبيت راضين بما حـققناه من تقدم أثناء النهار. كانت القمـة المعزولة لجبل سنام، تبدو بعـيدة خلفنا وقـد بدأ الليل يلفهـا بعتمـته، لتـذكرنا أننا مازلنـا على اتصال بالمدينة، بينمـا امتـد أمامنا حـوض الباطن الضـحل الفسيـح، تحفه على الجـانبين الصحراء البلقع تدعونا لولوجها وفك طلاسمها.

(١) أور: مدينة سومرية قديمة، تقع في بلاد ما بين النهرين على نهر الفرات. (المراجعون).

كان الشـيخ الطيب إبراهيم قد حذرنا أنه ليس من الحكمـة المبيت في الموقع الذي يتم فـيه تناول وجبـة المساء، إذ أن نيـران المخيم سـتدلُّ على مـوقعـه عدواً متـرقباً، ولكن أنسانا الإرهاق الذي أصـابنا من جراء مسيرة يوم طويل نصيحـته العاقلة، وبقينـا حيث أولمنا على الأرز والدجاج الذي وفره لنا الشـيخ، ثم تجمعنا حول النار لتناول القـهوة والسمـر. استلم ضيـدان ناصية الحـديث الذي تركّز في غالبه حول مناقب وجلائل أعمال سيده ضاري، وحول الخدمات التي يقدمها شيخ الكويت الذي كان ـ إن صـحّت معلومات مخـبري ـ يكسب كثيـراً من تعامله في مهـربات الحرب، أي السلع التي لا يجـوز لمحايد الاتجار فـيهـا مع أحد الأطراف المتحاربة، وكان الشيخ يحتفظ بود كبير للأتراك. كان عبدالعزيز ـ أحد رفاقنا ـ في السابق في خـدمة أحد الضـباط السيـاسيين السابقين للزبيـر وهو الرائد ر. مارس الذي كان يعرفه كثيرٌ من رفاقي، والذي حـبّب نفسه لعرب المنطقة الخلفية للفرات أثناء تجواله في الصـحراء في الأيام الأولى للحـرب. مضى المساء ونحن نتـحدث بمتعةٍ مبحرين في الأيام الماضية وفي الحاضر والمستقبل. ماتت الكلمات على الشفاه فجأة بظهـور مجموعـة من الرعاة في قافلة من الحمـير. كانوا قد ذهبـوا لصفوان لإحضـار الماء وحل الظلام وهم في طريق العودة فظنوا أن نار مـخيـمنا هي موقع رفاقـهم. وفي خضمِّ التـشويش والجلبـة التي حدثت تبين لذلك النفـر خطؤهم، فساقوا قطيـعهم بعيداً عنا بحثاً عن مخـيم رفاقهم. وفي الهرج الذي تبع ذلك بدا بوضوح صوت نسائي مميز يحتج على وقوعهم في ذلك الخطأ، بينما كان الضجيج يخف رويداً وهم يبتـعدون عنّا ليتركـونا ننعم بالراحة. بدا من الواضح أن زوارنا كانوا من قـبيلة الرعاة العظيمـة الجوارين[1] التي تقضي الشـتاء بطول الشط الأيمن للفرات، ثم تنتقل عند حلول الربيع لترعى حشائش الصحراء.

(١) الجوارين من الغزي، من بني لام. انظر: العزاوي، عشائر العراق، ج٣، ص٢٣٣. (المراجعون).

كنّا في الصباح الباكر من اليوم التالي نعد العدة للمسير، ولم نضيع وقتاً قبل أن نشرع فعلاً في رحلتنا مرتقين سهل الباطن الرتيب، الذي يخلو تقريباً من المعالم. كان عرض مهد مجرى الوادي، بين جانبيه المنحدرين بلطف يضيق ليبلغ ميلاً واحداً أو يتسع ليصل إلى أربعة أميال، وكان طريقنا في معظم الوقت محاذياً للضفة اليمنى من الخارج أو فوق الضفة نفسها. وكان يقاطع الضفة من آن لآخر شعيب صغير يفوق عرضه جداول الصرف قليلاً، لينحدر هابطاً نحو المنخفض الرئيس الذي كان مهده ذو التربة الطينية الطفالية مغطّى إلى حدٍ ما بالحشائش أو الرمث المالح، وتنقطه ـ بعد فواصل ـ روضات صغيرة من شجيرات السِّدر. وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً توقفنا في منتصف الطريق بين روضتين من تلك الروضات: مطربة وحُليبة حيث لم يبلغ عرض الوادي عند ذلك الشعيب ميلاً واحداً، ثم نفذنا من خلاله نحو صقع من التلال المنخفضة غير مستوية السطح. وبعد الظهر، بعد أن عبرنا متاهةً من المنحدرات التي تصرف هذا الصقع نحو الباطن، وجدنا أنفسنا مجدداً فوق الجانب الأيمن للباطن في موقع ركام منخفض يسمى جريشان يجري بعرض كون جانبه، بينما كوّنت شطه الأيسر سلسلة واضحة المعالم تسمى المتياهة. وفي هذا الموقع هبطنا منحدرين صوب روضة صُفيّة حيث توقفنا بها بعد أن قطعنا حوالي خمسة وعشرين ميلاً أثناء النهار لنعطي الإبل الفرصة لترعى الرمث والحشائش المغرية التي كانت تغطي الوادي.

كنا طوال النهار على مرأى من مخيمات الرعاة، أعلى وأسفل الوادي، وكنا بين الفينة والفينة، بجوار قطعان تنتقل من مرعى لآخر؛ كانوا في معظم الأحوال مجموعات من نفس قبيلة الجوارين التي تعثرت حميرها بمخيمنا أثناء الليل. والتقينا مرات قليلة بجماعات من قبيلة البوصالح، كما التقينا في جريشان بجماعة من قبيلة شُريفات، ابتعنا منهم لوجبة العشاء، بعد بعض المساومة، كبشين جيدين

بمبلغ اثني عشر دولاراً. وقد حدث أثناء فترة مـا بعد الظهيرة أن اقتربنا من مؤخرة إحدى هذه المجمـوعات السائرة أمامنا، وعنـدها أطلق أحدهم ـ من منطلق الشك في نوايانا ـ طلقـة نارية فـوق رؤوسنا، ويبـدو أنه كان يود فـقط أن يحـذرنا بأن جماعته مسلحة. إذ أنهم لم يعيرونا اهتـماماً بعدها، رغم أنهم ساقوا قطيعهم في عجلة بعيداً عن مسارنا ليبعدوا عن طريق الخطر. لم نكن نتوقع أن نجد الربيع وقد تسارعت خطاه وظهـرت آثاره فوق هذه المرتفعات ـ إذ أن مـخيمنا كان في صُـفية على ارتفاع يفوق ٤٠٠ قدم فوق سطح البحر ـ مـتفوقاً على ما وجدناه في حدود بلاد الرافدين، وكانت وفرة الأزهار الربيعـية في وسط الحشائش الغنية التي غطت منحدرات وبطن الوادي قد أهدت إليّ بعض السلوى بعد الرتابة التي سيطرت على المشاهد.

يُطلق العرب اسمـاً على نبات، ويستحسنونه أو يذمـونه من منطلق نفعه أو عدم جدواه كعلف للخراف والإبل. كـان العرفج والرمث يأتيان على رأس القائمة الطويلة من حيث الوفرة، وكانا لا يجتمعان إلا نادراً في مكان واحد، بل يتبادلان المواقع في الرقاع الفسيحة، وكأن الطبيعـة نفسها تعلم أنه لا يوجد حيوان يستطيع أن يعيش فقط على الأعشاب الجافة عديمة الطعم(١) ـ وهي أعشاب العرفج ـ دون أن يَطعَمُـوا من حين لآخر تلك الأعشـاب المالحة (الرمث)، ثم إن تناول كمـيات كبيـرة من هذا الأخير يسـبب الضرر للحيوان، أمـا العشب الرطب النصي، وهو المفضل بين كل الأعشـاب، فهو لم يكن موجوداً، ولكن حلَّ محله في الـتفضيل نبات يشبه الشـعير يسمى الصمعا. وكانت هنـاك أيضاً النباتات المزهرة التي كانت إبلنا ترعاها أثناء سيرها، مُقَدِّرَةً لمزايا التنوع، كان هناك الحوذان الأصفر الذي يشبه

(١) نسبة الأشـياء إلى فعل الطبيعـة أمر يخالف العقيـدة السليمة، وذلك لأن الله سبحـانه وتعالى وحده هو الذي يوزع هذه الأرزاق وينبت الأرض وينزل المطر وليس للطبيعة أي أثر هنا. (المراجعون).

الهندباء البرية، والقحويان البيضاء أو زهرة الربيع الصحراوية، وكاحل الصفراء الرطبة، والشقارا الأرجوانية، ونبات أصفر يشبه الخردل يسمونه صفّار، وذنب ناب أو البليحاء العطرية البرية، والحمبيز[1] المعترشة، والنق، ونباتات أخرى كثيرة[2]. لقد كان رائعاً أن نسير، ونسير في الصحراء على بساطٍ غني بالزهور والحشائش، والذي كانت الخراف ترعى في أنحائه، وتنتشر فيه خيام الرعاة السوداء في بعض الأماكن بنفس كثرة السّمان والأرانب البرية التي كانت تنهض عندما تبلغها أقدامنا لتختفي مسرعة في ارتعاش عبر الحافة المنخفضة للوادي، أو أسراب القطاة التي كانت تسرع فوق رؤوسنا في طريق العودة بعد ورودها الماء صباحاً بشط الفرات، أو طيور الخُطّاف والصقور التي كانت تندفع كالسهام أو تحوم في المكان. كان المَعْلَم المعتاد جبل سنام قد توارى خلف الأفق للأبد. وكانت الرياح الصحراوية الربيعية الباردة تهددنا لننام تحت سماء غائمة ذات وعدٍ بمزيد من الغيث المرغوب، قبل أن يحل علينا الصيف ضيفاً ثقيلاً.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يُنجز الوعد؛ إذ أن قطرات فعلية من المزن كانت تساقط علينا من سماء مثقلة عندما استيقظت في الخامسة من صباح اليوم التالي، ورغم أننا لم نَحظَ بقطرات أخرى خلال مسيرتنا التي عبرنا فيها أراضي لا معالم لها، تماماً كتلك التي قطعناها في اليوم السابق، إلا أن المساء حلّ على مخيمنا وقد بدأ القطر اللطيف يذرفنا، وتواصل الرذاذ معظم الليل. لم نر الشمس كثيراً في نهار ذلك اليوم، بينما كان مظهر الشقارا ذات الورود الأرجوانية، والتي كانت تحتل رقاعاً شاسعة، ممتدة بعرض الوادي، كان مظهرها يوهم بأن هذا المستنقع المشكَّل يقع في مناخ أكثر اعتدالاً. كما كان الحال في اليوم السابق، امتلأ

---

(١) ويسمى أيضاً حمباز. (المراجعون).

(٢) مثلاً كاريش ذات الزهور الأرجوانية لتُنطق جريش، والرغال، والخريط، وعينة حمراء من كاحل. (المؤلف).

المشهد بالخيام المنتشرة والقطعان التي يسوقها الرعاة، ولكن قطعان الإبل بدأت تسود المكان كلما تقدمنا بدلاً عن قطعان الضأن. تأكدنا أننا قد توغلنا في الصحراء عندما صار المكان حولنا بدوي الطابع، عَالَم المالِك المهيب لملك الصحراء، وليس رعاة الضأن المتواضعين. مررنا أثناء النهار بآخر مجموعات الجوارين، قسم آل نبهان من القبيلة، وبلغنا سلسلة جبال قبيلة الظفير التي علمنا[1] أن شيخها حمود ابن سويط كان في مكان قريب في الصحراء من خلف رابية رُحيل التي كانت مع مؤازرة سلسلة أضيبية المرتفعة يكسران معاً رتابة الأرض المنخفضة للجانب الأيسر للباطن، قريباً من الموقع الذي قضينا فيه ليلتنا، والذي وجدنا بقربه مخيماً لقسم آل عريف من قبيلة الظفير وقسم طواثة من قبيلة عنزة التي تعد من العشائر التي تتحالف مع شيخ الكويت. بحثنا دون جدوى بالقرب من أضيبية عن بعض الغدائر أو الثمائل[2] التي كان يقال إنها تمتلئ بالماء في هذا الموسم، ثمّ أقمنا مخيمنا قبل أن يبدأ الغيث في الهطول. كان ضيدان قد وجد أثناء سيرنا عُشاً لحبارى وبداخله بيضات[3] ثلاث. أحضروها إليّ الآن كفاتح للشهية قبل تناول العشاء، ولكن طعمها كان خشناً بعض الشيء، وكانت تفوح منها رائحة السمن لذا لم أستسغها.

الشيء الذي دَلَّلَ على أننا الآن في عمق المنطقة البدوية حيث يسود قانون الفرسان، ويتعرض المسافرون لمعاملة الرهائن في اللعبة النبيلة؛ الإغارة والغارات المضادة، ما لم يلتزموا بهذا القانون، الذي دلل على توغلنا فيها هو ما كان يصنعه

---

(١) أخبرنا بهذا أحد أفراد قسم الذرعان التابع للقبيلة التي زارتنا في مخيمنا أثناء الليل. (المؤلف).

(٢) مفردها ثميلة. (المؤلف).

(٣) في اليوم التالي وجدنا بيضة منفردة لطائر يشبه الزقزاق يُسمى سماقًا، ومررنا بعُشٍ لعلّه (لعصفور علي) فوق أحد نباتات الرمث. ومن الطيور الشائعة في هذه الأنحاء راس مريضان، وهو طائر رمادي وأبيض من نوع الصقور رغم ما يشاع عنه من أنه عديم الجدوى للصيد. لابد أن نذكر أيضاً أم سالم التي تطير متعثرة وتطلق أنغاماً موسيقية، وريشها رمادي اللون يشوبه بعض السواد. يأمل العرب السماق. (المؤلف).

رفاقنا بالطريقة المعتادة لإشهار هويتها وإظهار نوايانا من الأركان الأربعة للمخيم، بين الحين والآخر طوال الليل. كنا الآن في حدود الظفير، وكنا نعد أنفسنا ضيوفاً عليهم، لكنهم كانوا طوال الوقت حذرين ومترقبين خوفاً من الجماعات المعادية من شمر أو مطير، لذا كان يتعين علينا توخي الحذر وحماية أنفسنا في حالة الاعتداء من تلك الجهات. لا شك أن مطير كانوا بعيدين من خلف آبار الحفر ولكن قبيلة شمر كانت متداخلة مع الظفير دون أن تكون الحدود بينهما قاطعة. بالطبع ما كان الأمر ليكون ساراً لو التقينا بجماعة معادية.

عندما بزغ فجر اليوم التالي تفرق ما تبقى من سحاب الليل، وشرعنا في المرحلة التالية من رحلتنا تُظِلنا سماء صافية وشمس سلبت منها قوتها المعتادة، وتهب علينا رياح جافة مستمرة من الاتجاه الشمالي الغربي. احتفظ الوادي بعرضه المعتاد وصار سطحه أكثر وعورة كلما ارتقيناه، وصارت جوانب الوادي أكثر انحداراً وهي تتجه نحو المنخفض الذي يتوسطه والذي كان ينطلق في خط متعرج حاد من جانب لآخر، وكانت تصب فيه ـ خاصة في أواخر شهر مارس (آذار) روافد صغيرة (شعاب) تجري متقاربة من المرتفعات الواقعة بجهة الجانب الأيسر. وفي هذه الحالة تسمى هذه الشعاب شقيات[1]. وبخلاف هذه، فإن المعالم البارزة التي مررنا بها خلال مسيرة اليوم كانت بروزاً طويلاً منخفضاً في الجانب الأيمن يُسمى أبرق الجبارى؛ وركاماً رملياً منخفضاً في بطن الوادي يسمى حس وظبي، وبروزاً صغيراً لافتاً للنظر من صخر أسود على الجانب الأيسر يُشتق اسمه: العبيد من لونه.

(١) كان كل شعب يسمى شقيّة. وبخلاف هذا مررنا باثنتين أخريين، الأولى شق الوسيع، على الضفة اليمنى والآخر شعيب اقفا وهما يصبان في الوادي من الضفة اليسرى من وراء العُبَيد. (المؤلف).

وجدنا جـوار هذه الرابية خيام الرجل غـير المقبول سـعود الصالح السبـهان ورفاقه من قبيلة عـبدة. أدرت ذلولي نحو الخيمة السوداء العظيـمة الخاصة بالزعيم على أمل أن أجده بها وأتعـرف عليه قسراً، هو ما تهرب منه في نوفـمبر (تشرين الثاني) الماضي، ولكن الحظ لم يحـالفني إذ أن سعوداً كان قـد غادر إلى الكويت قـبل فتـرة من الزمن لينال من الشـيخ ـ في ظني ـ بعض المؤن لـيذهب بهـا إلى حائل. كان محمد، أخوه الأصغر يتـوقع عودته يوماً بعد آخر. ومحمد هذا كنت قد التقيت به في البصرة من قـبل، وهو صبي صامت، لم ألحظ عليه الذكاء، قام باستضافتي بتقديم القهوة وسط حشد كبـير من تابعيه. كان عدد جماعته لا يتعدّى خمسة وسبـعين رجلاً، وبالإضافة لمن يصحبون زعيمـهم فقد يصل عددهم الكُلي إلى مئـة من الرجال المسلحين، وهو عدد كـما أشار لي ضـيدان برهانٌ جلي على اهتراء قوة سـعود مقارنة بالفتـرة ـ وهي ليست بعيدة ـ التي كان فـيها الرجل أهم زعمـاء شمر، ومـن الذين يحتفظون بعـلاقات طيـبة مع البريـطانيين. أدت أسرة السبـهان دوراً هاماً ومـشرفاً في تاريخ حـائل العاصف بين عام ١٩٠٦م، حـينما سقط الأمير الحاكم عبدالعزيز بن رشيد في قتال مع القوات السعودية بالقصيم[١]، وعام ١٩٠٨م الذي حـدثت فيه سلسلـة من الاغتيـالات التي استهـدفت السلالة الحاكمة، والتي بلغت ذروتها باغتيال المغـتصب للحكم بواسطة حمود السبهان[٢]، واستعادة الإمارة للحاكم الحالي سعـود بن عبدالعزيز بن رشيد ذي السنوات العشر من العمر، والذي كان الناجي الوحيد من السلالة الشرعية[٣]. كان حمود وصياً ومستشـاراً للحاكم الصغير، وبعد وفاته في العـام التالي حل محله زامل وهو من أعضاء نفس الـعائلة، ولكن تصريفه العـاقل للأمور انتهى باغتـياله عام ١٩١٤م.

(١) في روضة مهنا. (المؤلف).

(٢) راجع ص٥٦٢ . (المؤلف).

(٣) اغتيل سعود في ربيع عام ١٩٢٠م، وخلفه ابن عمه عبدالله بن متعب. (المؤلف).

وكان سعود الصالح، الزعيم الذي كنت أجلس في خيمته أحد الذين أدخلوا قوات شمر في عداء مع بريطانيا العظمى، ثم تخلى عن عدائه وانضم إلينا تحقيقاً لغاياته الشخصية في نهـاية عام ١٩١٦م. لقد تحدثت سابقاً عن خدماته لـقضية الحلفاء، لكنني آسى على أنني لم أجد مطلقـاً الفرصة للقائه. ولن تتجدد لي فـرصة لقائه في المستقبل إذ قد كسر شوكته تدخله في الاغتيالات وعداؤه لنا منذ أن غادرت أنا الجزيرة العربية، ولن يتذكـره أحد إلا كخاسر للقضيتين اللتين خدمهـما خدمة غير مرضية.

كانت زيارتي لمعسكر سعود حدثاً من الأحـداث الكثيرة المثيرة التي حفل بها ذلك اليوم. كنا قد رأينا في بدايتـه عباءة سوداء مبـسوطة على عشب من الرمث، وشرح لي رفاقي أن تلك عـلامة البدو للدلالة على موقع جديد للمـخيم. عندما تستنزف المراعي المحيطة بموقعهم، فإنهم يبعـثون فرسانهم على الخيول للبحث عن مواقع بديلة مناسبة، وبعد أن يتم حجزها بالطريقة التي نوهنا عنها، تُعطى الإشارة للتحرك نحو الموقع الجديد. تمتـعنا أيضاً في ذلك اليوم برؤية قسم عفنان[١] لقبيلة الظفير وهم يتحركون بقضّهم وقضيضهم أسفل الوادي. موكب مهيب لمئات إن لم يكن لآلاف الإبل معظـمها حلوب وترافـقها صـغارها، وهي تشكل الثـروة المالية لقسم القبيلة، بينـما ركب هنا وهناك مجموعات من الرجال يوجـهون المسيرة التي تركزت حول خط طويل من جمال الأمتعة يـحملون النساء والأطفال وأمتعة ومؤن المخيم. وركب بالقرب من المقدمة كبير شيوخ القسم وهو درويش بن ريدان والذي اشتهر بلقب "راعي البويت"، ولم يستطع رفاقي أن يوضحوا لي مصـدر أو أهمية

(١) كان قـسم ضويحي الذي يتبع لنـفس القبيلة يخـيم في جوار حس وظبي وزارتنا عندما وقـفنا بالموقع في منتصف النهار، أحد شيوخ قسم القبيلة: حمدان بن ضويحي. (المؤلف).

اللقب رغم أنهم كانــوا يفترضون أنه لـقب تدليل كان قد أطلق على أحــد أجداد حامله الحالي، عندما كانوا سادة على الظفير كلها.

كان هناك رجل آخــر ذو مقام وهو عجـيمي بن شُهيل، ابن عم حــمود بن نايف بن سويط الذي التحق بعفنان مؤقتــاً لسبب ما، لعله لخلافات أسرية. ولكن أكثر معالم الموكب سحراً كانت سلاسل عجـيبة من الركائب، ركب فيها مجموعة من زعماء القـبيلة وأبنائهم. كانت هذه السلاسل من نوعين مـختلفين تماماً: الكنٌ وهي شبـيهة بالهودج وغـير مزخرفـة نسبيـاً، وقد خصصت للخـدم وللنساء من الطبقات الدنيا، والـثانية الكتاب[1] المدهشة وهي مـخصصة للزوجـات المهمات، وهي عربة متأرجحة تحافظ على توازنها على سنام الإبل باستخدام هلالين خشبيين عظيمين في المقـدمة والمؤخرة وينتأ طرفا الهـلال للخارج من الجهتين لمسـافة أقدام عديدة، ويتدلى منها حشدٌ من شرائط الزينة المبهرجة لتصل قريباً من الأرض. كان تصمـيم هذه العربات ـ وفقـاً لما استطعت الحـصول عليه من مـعلومات ـ شرقـياً خالصاً، وكانت مـعظم هذه الزخارف الشرقية لا تخدم غرضـاً سوى زيادة معاناة الحيوان الذي يحـملها، وكان من السهل على من يلقي نظرة خـاطفة أن يعلم أنها غير مريحة للذين يركبونها في سفرهم.

كان أفراد الجماعة المرافقة لي من عناصر المدن أو من أرياف المدن، ولم تكن صحـبتهم لطيفـة، ولكن بعد هذه الفتـرة التي قضيناها مـعاً بدأ يقل رويداً رويداً التحفظ الذي يتمتع به رجال المدن، وخـفف عنا الضجر المصاحب للسير في ذلك اليوم العرض المُسلي الذي أزجى لنا فراغنا.

كـانت خطتنا أن نخيم تلك الـليلة بجوار أحـواض ماء الرقـعي في حافـة الجانب الأيمن للباطن ولكن مـا قضيناه من وقت في مخيم عبـدة جعل هذه الغاية

(١) تنطق جتاب. (المؤلف).

مستحيلة التحقيق، وداهمنا الظلام قبل أن نصل إليها، بعد أن قطعنا ثلاثين ميلاً أثناء النهار، لم نكن قد تجاوزنا صقع شقيات، فنصبنا خيامنا هنا ونحن نعزي النفس أن الإبل في مثل هذا الوقت من العام لا يمكن أن تكون حاجتها للماء مُلحّة، وقد كان معنا من الماء ما يكفينا لأغراض الشرب ولطبخ الأرز والأرنب البري الوحيد الذي وقع في قبضتنا بعد عدد من المطاردات الفاشلة. لم تكن قد مرت بنا أرانب برية أو حبارى كثيرة.

كان الليل بارداً وأظلتنا سماءٌ صافية، وسجل مقياس الحرارة درجة تقل عن ٤٥ْ فهرنهايت عندما نهضنا في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، لنبدأ المسير الذي قدر له أن يكون أطول مسيراتنا وأكثرها رتابة منذ أن غادرنا الزبير. كان سطح الوادي في البداية بنفس وعورة صقع شقيات، وكانت تحده تلال الخرجاء(١) وأضاريات عن يميننا وشمالنا، على التوالي. ولكن بعد ذلك، وحتى صرنا على بعد أميال قليلة من آبار الحفر صار المكان عارياً مهجوراً. كان بطن الوادي طينياً عريضاً، وتبدو فيه رقاع قليلة متباعدة من عشب متفرق، وكانت تحجب الوادي عن الصحراء من الناحية الشمالية سلسلة تلال طويلة متقطعة تسمّى ظرابين(٢). كنا الآن نقترب مما كان في زمن مضى بقايا ممتدة لعدد من الآبار المتصلة بأحواض مبنية من خلال مجارٍ مبطّنة بالحجارة. كانت كل هذه البقايا، إضافةً لما تبقى من بعض المباني في حالة خراب تام ويغطيها التراب والأنقاض، ولابد أن استعمالها

---

(١) وجدنا بالقرب من هذه السلسلة بقايا ثقوب ماء مهجورة منذ عهد بعيد، تسمى الواحدة جلطة، وجمعها جلاط. (المؤلف).

(٢) كان يقع في مواجهة هذه السلسلة على الجانب الأيمن، مسيلٌ ضيقٌ شديد الانحدار، يسمى جلطة حسو، ويحتوي على ثقوب ماء، وكانت تقع خلفها في اتجاه الجنوب، ولكن بعيداً عن مرمى أبصارنا سلسلة مصانة، والتي يقال إنها تمتد بين منخفض شق الوسيع ومنخفض فُلَيج الجنوبي الذي يجري منحدراً نحو الباطن بالقرب من الحفر. (المؤلف).

قد أوقف قبل أجيال عديدة، إذ لا توجد قصص عن ماضيها ولا يُعرف لها اسم رغم أنها قد بنيت تقريباً في الوقت نفسه الذي أنشئ فيه حصن يُسمى قصير بلال والذي لا تعدو بقاياه أن تكون تلاً من الأنقاض والتي لا يمكن التحقق إلا من مظهر خارجي بدا ظاهراً بعد أن تخطيناه بتسعة أميال، مشيناها في الوادي. ما يقال عن هذا الحصن أن بلالاً الذي بناه كان مولى لشيخ إحدى القبائل فكان هذا الشيخ قد حفر آبار الحفر في الماضي السحيق[1]، وليس مستبعداً أن هذا الحصن تم بناؤه كموقع أمامي للدفاع عن هذه الآبار ضد الغزاة الذين يأتون من الشمال.

استعاد الوادي ـ بعد الحصن المتهدم ـ شيئاً من الطبيعة الوعرة المنحدرة لصقع شقيات، وكانت تنقط المرتفعات المعشبة قطعان وخيام أتباع ضاري بن طوالة نفسه، والذي علمنا من بعض المارة أنه يخيم أمامنا على البعد في أعلى الوادي. وقد ضربنا أكباد المطي مسرعين وقد عقدنا العزم على أن نصل غايتنا قبل حلول الظلام مهما كان الثمن، ولم نرَ الخيمة العظيمة إلا وقد قاربت الشمس على اللحاق بالأفق، وأخبرنا ضيدان أنها خيمة الضيافة (المضيف) الخاصة بسيده.

رغم إلحاح ضيدان للسماح له بأن يسبقنا ليُعلن للشيخ قدومنا، إلا أنني أصررت على مفاجأته، لئلا نترك لمضيفنا الفرصة للإعداد لاستقبالي. ولكن العربي النبيل يكون دوماً على استعداد للاحتفاء بالضيوف غير المتوقعين، ويكون دوماً على أهبة الاستعداد لتقديم الضيافة الصحراوية التي يستطيع الغني والفقير تقديمها، ولا يضطرب أو يبدي دهشته عند قدوم جماعة مهما عظم عدد أو شأن أفرادها. كانت الطريقة التي اتبعتها قد حرمتني من الاستقبال الذي كان يمكن لمضيفنا أن يُعده في جماعة من أتباعه على ظهور الخيل، وفي لباس الحرب.

---

(١) الراجح أن نسبة هذا القصر هي لبلال بن أبي موسى الأشعري أمير البصرة في أوائل العصر الأموي. (المراجعون).

ولكني وجدت السلوى في أنني تمكنت أن أترجّل أمام باب خيمة ضاري كما يفعل أي عربي، وأن أدخل عليه مُسلّماً قبل أن يتبين من هو ضيفه.

إن نظرنا إلى هذا العنصر البشري الذي يحتل اللطف والمجاملة فيها موقعاً رفيعاً ـ ولا يتفوق على شمر في هذا المضمار سوى أشراف عنزة ـ نجد أن ضاري بن طوالة يقف في الصدارة رغم ما خبرته عنه في معاملاته الأخيرة معي من إسراف في التعبير عن العاطفة. في هذه المرة كان المشهد رائعاً كما كنت أودُّ أن أراه، إذ قام ضاري من مجلسه في أحد أركان الخيمة ونهض لنهوضه الحشد العظيم من أصدقائه وأتباعه ليحيوا جميعاً ضيفهم الغريب. بعد أن جلست بجواره في موقع التشريف وقدمني إلى أكبر الموجودين، نظرت حولي متفقداً المكان، بينما كانوا يديرون أكواب القهوة والطياس العظيمة المحتوية على لبن النوق المحلي. كانت الخيمة السوداء العظيمة قد قامت على مساحة هائلة، وكان يقسمها إلى قسمين ساترٌ من غزلٍ صوفي شبيه بذلك الذي جلسنا عليه. كان عدد الرجال وحدهم يقارب المئتين، وكان الشق الثاني من الخيمة خاصاً بالنساء اللائي تجمعن من خلف الحاجز الرقيق يهمسن في إثارة، وبلا شك يحدقن من خلال الساتر ليحظين بلمحةٍ للزائر الغريب. جلسنا نتسامر هكذا حتى وصلت الجمال التي تحمل أمتعتنا، ثم نُصبت خيمتي، وعندها سمحوا لي بالذهاب للاستحمام ولأنال بعض الراحة ريثما يتم إعداد العشاء، ويا له من عشاء. سرّني أن المائدة أُعِدت في الفضاء، بالقرب من خيمتي، ولحق بنا ضاري نفسه ليتناول معنا الوجبة. كانت أطباق الأرز العظيمة وأجود لحوم الضأن قد أفرحت رفاقي بالإكثار تعويضاً عما قاسيناه أثناء الرحلة من نقص في الغذاء الجيّد، وتحسُّباً لما ينتظرهم من وجبات عديمة اللحم في رحلة العودة، إذ أنهم بعد أن أدوا المهمة التي أئتمنهم عليها الشيخ إبراهيم كان عليهم أن يبدأوا رحلة العودة في صباح اليوم

التالي. وبعد أن تناولنا كـفايتنا من الطعام خلدنا مبكرين إلى النوم الذي استـحققناه بمسيرة أربعين ميلاً قطعناها أثناء النهار.

كنا قد قطعنا رحلتـنا التي بدأت من الزبير، وحتى هذه النقطة ١٥٠ مـيلاً. وكانت آبار الحفر تبعد ثمانية أميال عن مخيم ضاري. قررتُ أن أقضي اليوم التالي (٣ أبريل/ نيـسان) ـ وتصـادف أنه عيد مـيلادي ـ واليـوم الذي يليه فـي الراحة والاستجمام بين خيام شمـر، إذ كان ينتظرني كثير من العمل مع ضاري في الأيام التالية، وكان عليَّ أن أعـرف الكثير عن أمزجة وميول القـبائل التي تعيش في هذا الجانب من الصـحراء. كانت خـيمتي قد نصـبت على بعد حوالي مـئة ياردة من المضيف، وبجـوار خيمة بيـضاء عظيمة كـانت السلطات البريطانية في العـراق قد أهدتها لضاري، وكـانت تستخدم جزئيـاً كمكتب للزعيم، بينما كـان الجزء الآخر مخصصاً لسكن سكرتيره الـمُلاّ عبدالله، وهو من مواطني الموصل، وسبق أن زار مصر، وكان في حـائل قبل وقت قصير، ولم يلتحق بخدمـة ضاري إلا منذ عهد قريب. لم يكـن سكرتيراً شديد الذكـاء، ولم يكن شخـصية جـذابة، ولكن في مجمل الأمر لم يكن ضاراً، وفي أحيانٍ كثيـرة كان وسيطاً مفيداً بيني وبين سيده. كنا نجتـمع في خيـمته لـنقاش الأمور الحـساسة الـتي ما كنا نريد أن نطرحـها في الاجتماعات العامة.

كنت قد أوكلت لضاري في اجتماعنا الأخـير في نوفمبر (تشرين الثاني) أن يجمع أكبـر حشد يستطيع جمـعه مستخـدماً المنحة التي وضعناها بين يديه ليـتخذ موقعـه في جوار الحفر، وذلك ليقف حجـر عثرة أمام كل عمليـات التهريب بين الكويت، أضعف النقاط في الحصار البريطاني المطوّق، وبين عناصر شمر الموجودة في حائل وفي المخيم المتنقل لعجيمي بن سعدون. لقـد قام بما يلزم لاستمالة كثير

من العناصر، ونجح في استقطاب كثير من الأعوان، وقد وضح هذا من العدد الموجود حوله ومن الشيوخ المهمين لأقسام القبائل، ولكنني لم أكن راضياً عن فشله في أن يثبت لي بالدليل الكافي نشاطاته التي اكتفى بالحديث عنها قائلاً إنه قد قبض على عدد من القوافل التي حاولت أن تروغ منه، وأن الضالعين في عمليات التهريب قد اضطروا لتغيير مسارهم ليتخذوا طريق القصيم نافذين من خلال حدود ابن سعود. إنَّ العربي شخص مراوغ ويصعب التعامل معه عندما توكل إليه مهمة بغيضة، ولكنني في حديث معه، أوضحت لضاري بما لا يدع مجالاً للبس أنه رغم أنني على استعداد لأن أصفح ناسياً الماضي، ولن أدفع له وفقاً لاتفاقنا معه مستحقاته للأشهر السابقة التي كانت خلواً من الإنجاز، إلا أنني أتوقع أن يحصل على معونات الشهور القادمة بعد أن يستحقها فعلاً ببذل أعظم الجهد. وأسهب هو من جانبه في الوعود عما سيفعله في المستقبل، ولكننا سنرى بعد وقت قريب كيف أثبت أنه لا يعدو أن يكون قصبة هشة قابلة للكسر.

كان تجمع العشائر حول الحفر في هذا الوقت من العام يضم عناصر متنوعة، وكان على رأسها عشيرة ضاري نفسه وقسم الأسلم من قبيلة شمَّر الذي يكون الجزء الرئيس من فروع أقسام الطوالة تحت إمرة ابن عمه سطام بن عجيل، وضم بعض عشائر مسعود وعايش التابعة للتومان تحت إمرة جميل بن رضيمي، وفرع فايد تحت قيادة فهيد بن جيفان. وكان فرع زامل من قسم سنجارة التابع لقبيلة شمر تحت إمرة فهد بن ثنيان الذي كان يساعده أربعة من الشيوخ الأدنى(١)، وأخيراً فرع الدهامشة من قبيلة عنزة، أو جزء كبير منها، تحت إمرة زعيمها الماكر

(١) كان هؤلاء هم سلطان بن نويشي وحسين أبو قيران وصبيح بن نويشي وعيسى بن ضاوي. كان ابن عم فهد واسمه بايق بن ثنيان، والذي لم يحضر لأنه كان مع ابن عمه في مخيمه بالقرب من الجلط في اتجاه الشمال. (المؤلف).

المسن الذي أحضر ابنه الصغير كيدة ذي السنوات العشر لرؤيتي. كانت أخبار قدومي قد انتشرت في وقت وجيز، ولقد سنحت لي الفرصة الطيبة لمقابلة كل الزعماء المذكورين أعلاه، والذين أتوا لملاقاتي، ولتلقي هدايا مالية بهذه المناسبة، كلٌ حسب أهميته، كبادرة للنوايا الحسنة من الحكومة البريطانية.

كانت المخيمات منتشرة فوق مساحة كبيرة، ولذا كان من المستحيل أن أكوّن فكرة حول عدد الرجال تحت إمرة ضاري ولكنني قدرت أن عددهم قد يكون في المدى بين ٦٠٠ إلى ٧٠٠ رجل ممن يمكن أن يُعتمد على خدماتهم. كان ضاري قد تسلَّم ٣٠٠ بندقية هدية من سلطات بلاد الرافدين قبل حوالي العام. لكنني لم أتمكن من تزكية طلبه الذي قدمه الآن بالحصول على ٧٠٠ بندقية أخرى، رغم أنني جعلته يعتقد أنه قد يحصل على كل ما يريده مقابل تحقيق إنجازات ملموسة في الاتجاه الذي نود. لم يترك ضاري - كشأن كل العرب - شيئاً لم يطلبه منّا، وكان الأمل الوحيد في أن نحصل على شيء منه ومن الباقين هو أن ندلي طُعماً أمام أعينهم، يناله من يعمل.

عندما كان ضاري في الحفر مسؤولاً عن الحصار الاقتصادي المضروب على العدو، كانت التقارير تشير إلى أن ابن سعود يقيم في آبار حفر العتش أو في الشوكي التي ذهب إليها مع عدد كبير من أتباعه لمعسكر الربيع السنوي من أجل المناورة والتدريب، والتي كنا نأمل في هذه المرة أن تكون استهلالاً لهجوم عنيف ضد جبل شمّر. ولكن قيل إن ابن سعود قد غادرها إلى الأحساء التي ظن أنني سأرجع عن طريقها إلى نجد، وخلّف وراءه الجزء الأعظم من قواته تحت إمرة ابنه الشجاع، تركي.

كان قسم العمارات من قبيلة عنزة تحت قيادة شيخها المسن فهد بن هذال الذي مازال يحتفظ بحيويته قد أكمل قوات خط التحالف في الناحية الشمالية.

كنت قد قابلت الشيخ فهد قبل شهور عديدة عند زيارته لبغداد، عندها رأى، للمرة الأولى شيئاً من تجهيزاتنا العسكرية في الأرض والجو والبحر، ولم يُخفِ دهشته وقلقه عندما اكتشف فجأة أنه كان يرتشف القهوة تحت أحد المدافع الكبيرة الموجودة على مركب حربي، لعلها كانت مانتيز. علمت الآن أنه في اللصاف[1]، على بعد حوالي سبعين ميلاً في اتجاه الجنوب الغربي من النجف في صحبة كولونيل ليتشمان يراقبون تحركات عجيمي المريبة، الذي دلت التقارير على وجوده في القيصومة في جمعٍ من دهامشة عنزة. تحت قيادة محمد بن تركي[2]، وكان فرع الشلقان التابع لتجارة شمر تحت قيادة أبو عقيلي بن فالح. لعل عجيمي كان أعظم العقول العسكرية التي أفرزتها جزيرة العرب أثناء الحرب، إن لم يكن العبقري الأوحد، ولكن مقدراته كانت تستحق ملهماً أحسن، وقضية أكثر جدارة.

ورغم أنه كان عدواً إلا أننا لا نملك إلا أن نعجب بالطريقة التي كان يخدم بها قضية خاسرة أو في طريقها للخسران. لقد بقي كلّ سنوات الحرب في الصحاري الواقعة خلف الفرات شوكةً في جنبنا وحقيقة لابد من التعايش معها، ولكن الأتراك لم يكن لديهم لورانس ليوجه عملياته. ومن حسن حظنا أنهم كانوا على الدوام يتوقعون منه أن يقدم خير ما يستطيع مع إمداده فقط بأقل ما يمكن من السلاح والمال، بدلاً عن تشجيعه وتمكينه من القيام بعملياته في إطار واسع وذلك بإمداده بسخاء بما يحتاجه لإنجاز هذه المهام. جنحت بخيالي وحاولت إقناع ضاري بالقيام بغزو سريع في اتجاه القيصومة، رغم أن عجيمي كان في ذلك الوقت يملك

(١) هذا الاسم القديم لها وتعرف الآن باللصاقة، وهي من هجر الجبلان من مطير. (المراجعون).

(٢) كان زعيم آخر من زعماء الدهامشة يسمى جازع بن مجلاد، وهو أخٌ ـ فيما أعتقد ـ لمحمد الذي كان مع ضاري، مع الأتراك في الشمال. (المؤلف).

مدفعية جيدة وأسلحة خفيفة، ولم يكن من الممكن مهاجمته دون استعداد بحجم كبير، مما يجعل المهمة صعبة جداً. وأجهض التفكير في محاولة مفاجأته بهجوم مباغت أنه كان قد أنشأ نظاماً ممتازاً للاستخبارات في كل الصحراء الفراتية، على الأقل هذا ما قاله لي ضاري عندما أبلغته أفكاري، وليس لدي شك في أن ضاري لم يتجاوز الحقيقة.

كانت عناصر من أقسام عبدة[1]، والتومان المعادية قد احتلت، إنابة عن عجيمي، آبار لينة الواقعة ناحية الغرب في اتجاه حائل، على بعد ١١٠ أميال في اتجاه الشمال الغربي من آبار الحفر، بينما كانت نقطة ابن رشيد الأمامية، الحيانية في قبضة ابن خمسان من سنجارة. كان ابن رشيد نفسه لايزال مع الأتراك في الحجر أو مدائن صالح على طريق سكة الحجاز الحديدية، ولكن وفقاً لمعلومات ضاري فإن خطاباً قد تم استلامه منه مؤخراً يعلن فيه عن رغبته السابقة في العودة لعاصمته التي كانت في حماية جنود من العرب، وأنه يعتمد على المساعدة الإيجابية لرجال شمر المحليين، وعددهم ٤٠٠٠ وكلهم مسلحون ببنادق تركية بالإضافة لأربعة أو خمسة مدافع، وعدد قليلٍ من المدافع الرشاشة. كان الأمر يبدو وكأن الأتراك يحتجزون ابن رشيد في الحجر باعتبارها الطريقة الوحيدة لضمان

(١) لعلّ عبدة هي القسم الرئيس لشمّر، وتتكون من الأقسام الآتية: آل جعفر، تحت إمرة وادي بن علي وعباس بن علي، اللذين ينحدران من سلالة علي الحاكمة التي حكمت حائل نيابة عن ابن سعود عندما انتقلت الإمارة بواسطة تركي بن سعود(*) لعبدالله بن رشيد مقابل خدمات أدّاها له. وقسم آل فضل، تحت إمرة متني بن شريم. وقسم آل مفضال التي كان ولاؤها موزعاً بين ابن رشيد وابن سعود - وشيخها الكبير ملبس بن جبرين، والآخر برجس بن عُبيد الذي انضمّ للإخوان عندما كان عقاب بن عجيل مع عجيمي. (المؤلف).

(*) الصواب الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

إمدادهم بالإبل اللازمة للتنقل، حيث كانت حاجتهم لها عظيمة، وكان الخطاب المذكور يلحّ في إرسالها على جناح السرعة.

كانت الحدود الجنوبية لجبل شمر تحت قبضة فرع الغفيلة التابع لشمَّر، تحت إمرة غضبان بن رمال[1]، بينما كانت المنطقة بين الثمامي[2] بالقرب من حافة الدهناء، في أعلى الباطن، وعين ابن فهيد في حدود القصيم، تحت قبضة أقسام مختلفة لقبيلة حرب[3]، التي كان ولاؤها موزعاً بين الشريف وابن سعود بسبب وجود جزء منها في الوقت الراهن في أراضي الأول، وجزء آخر في أراضي الثاني. وكانت القبيلة تنتشر بين الدهناء والمدينة. وأخيراً فإن مطير المكونة من ١٠٠٠ من الرجال الذين استقطبت منهم حركة الإخوان عدداً كبيراً، كانوا يقيمون في الهجرة الجديدة الأرطاوية وامتدوا منها في الصحراء في ناحية الشرق باتجاه الكويت.

كانت الخلافات بين ابن سعود والشريف، والتي تسببت في هذا الوقت في توتر العلاقات بينهما بعض الشيء، قد شاع أمرها، وأصبحت حديث الصحراء. وكان الزعماء المستقلون المنضمون لضاري لا يتحرجون من إظهار التأييد لأي من الطرفين من وراء ظهور بعضهم البعض. كان ضاري يحاول الحصول على جزء من الإعانة الضخمة التي يتلقاها الشريف، لكنه أخبرني صراحة أنه رغم الفترة الطويلة التي بقي فيها في صف البريطانيين، إلا أن ملك الحجاز قد تمتع بهذا التحالف معهم فصار يحكم في جزيرة العرب بعون البريطانيين وليس نتيجة لحق طبيعي أو

---

(١) كان الشيوخ الآخرين في صحبته هم عيبان بن مايق، وعيّادة بن زويعل. (المؤلف).

(٢) يقال إن الماء هنا يوجد على عمق ثلاث قامات، وأيضاً في العجيبة من خلف الدهناء على عمق أربع قامات. (المؤلف).

(٣) وفقاً لرواية ضاري فإن الأقسام التي توجد في حدود ابن سعود الآن هي: بني عامر، تحت إمرة ناهس بن ذويبي؛ وبني علي، تحت إمرة محسن الفرم؛ والفريدة، تحت إمرة ابن حماد وابن هُذيب؛ وبني سالم تحت إمرة ابن نحيت؛ والوهوب تحت إمرة ابن سعده، وأقسام أخرى. (المؤلف).

شخصي؛ واعترف ضاري في الوقت نفسه بحق ابن سعود في حكم وسط الجزيرة العربية. لكن هذا الاعتراف ـ فيما أظن ـ ليس من دون بعض التحفظ، إذ يُتوقع أن يختلف الأمر إن قدّر له (أي ضاري) أن يحقق طموحه الذي يتعاظم بسرعة في الجلوس على عرش ابن رشيد.

أن تكون ضيفاً للشرف في مخيم ضاري ليس أمراً خالياً من التبعات، لأن مضيفي كان يجلس بجانبي في كل الوجبات. ولقد لاحظت أنه كان يأكل بيده اليسرى، إذ فقد فاعلية يده الأخرى بعد إصابته بطلق ناري في ساعده، وأظن أن السلطات الطبية البريطانية في البصرة هي التي قامت بتطبيبه ـ وكان يصر على أن يضع بيده أمامي أطيب الطعام، ولقد قدمَ لي بنفسه كل ما شربته من أكواب القهوة. ورغم ما وجدته فيه من تذلل، لكنه كان رفيقاً مُسِراً، ولم يكن حاد الذكاء، ولكنه استعاض عن هذا النقص بحلاوة المعشر وبوسامة بيّنة. أما بالنسبة لمعاونيه فلقد رأيت في فهد بن ثنيان رجلاً محدود الذكاء، متبلد الحسّ، ولا يستحق الثقة التي يضعها فيه مضيفه. أو أن يكون نائباً للقائد العام، وهي الوظيفة التي يبدو أنه يحتلها، بينما كان محمد بن مجلاد يبدو لي طوال الوقت وكأنه خجل من نفسه بعض الشيء إذ سمح للترف الذي أسبغه عليه أن يحوّل ولاءه عن التحالف الطبيعي مع عجيمي.

كان اليوم التالي لوصولي يوماً متصل الحركة بسبب وصول أكياس المال التي طال انتظارها، وكان الـمُلاّ عبدالله مستغرقاً تماماً في تصفية ديون سيّده تجاه رعاياه إذ كان يعطيهم جزءاً من استحقاقاتهم نقداً والبقية عيناً في شكل ضروريات الحياة. كما كان يعدُّ القوائم التي أراني إياها، يأمر فيها أحد تجار الكويت أن يمدهم بـ ١١٠ جوالات[1] من الأرز و١٠٧ جوالات من التمر، رغم أنهم أكدوا لي ـ مع

---

(١) زنة (ماوند) هندي، تعادل ٨٢,٢٨ رطلاً. (المؤلف).

عدم اقتناعي ـ أن طلباتهم الأخرى قد بلغت ٨٠٠ جوالٍ من المواد الغذائية. كان ضاري بالطبع يسعى لأن يُظهر ضخامة مسؤولياته أمامي ليترك انطباعاً جيداً لديَّ عن عدد تابعيه، لكن الأمر لم يستغرق وقتاً طويلاً لأتحقق من جشع صديقي الجديد الذي لم يكن يختلف في هذا الأمر عن زملائه في كل مكان. لم يتردد اثنان من الزعماء الآخرين بعد استلام حصصهم من الهمس مطالبين بالمزيد، أحدهما لأنه كان قد دخل بزوجة جديدة قبل وقت قصير، والثاني لأنه يعول والده. وبعد قليل أتى عامل القهوة التابع لضاري معرباً عن أمله في ألا أكون قد نسيت وجوده أو قهوته الممتازة. لم يحظ أي من هؤلاء بتحقيق بُغيته، ولكن ولداً عارياً صغيراً ظهر أمام خيمتي دون مقدمات ناطقاً بكلمة واحدة: دراهم، بدلاً عن أي تحية أخرى رجع سعيداً وفي حوزته دولاران، بينما نال ضعف هذا المبلغ رجلٌ أصرّ أن أتولّى رعاية طائر سماك[1] جريح، وابتسم ابتسامة عريضة من الأذن للأذن عندما اقترحت أن سعيه هذا قد يكون للحصول على بعض المال.

هكذا مضت أيام إقامتي في مخيم ضاري، التي كانت مليئة بالحركة، حتى أيقظوني فجراً بين الساعة الرابعة والخامسة في صباح يوم ٥ أبريل (نيسان) للاستعداد لمواصلة رحلتي، وكان قد تقرر أن يصحبني ضاري نفسه وعدد كبير من تابعيه لمعسكر ابن سعود لمواصلة النقاش حول خططنا، كما تقرر أن تتحرك بقية المجموعة لمراعي جديدة في موقع تم تحديده سلفاً، على بعد عشرة أميال في اتجاه الجنوب. وبينما كنت أنتظر حتى تكتمل الاستعدادات للتحرك وجدت كثيراً من المتعة في مراقبة حل الخيام السوداء الكبيرة وطيها وتحميلها، وكذا بقية الأمتعة الكبيرة، وهي مهام كانت تقع بالكامل على عاتق النساء اللائي شرعن في العمل

---

(١) راجع الحاشية ص٤٠٧ . (المؤلف).

بطريقة منظمة على أنغام شخير وأنين الإبل وثغاء الشياه بينما كان سادتهم يتجمعون حول نيران المخيم يحتسون القهوة ويتناقشون فيما يحمله لهم المستقبل في طيّاته.

كان كل شيء قد تمّ إعداده في النهاية، وأُعطيت الإشارة لبدء الرحلة، وامتطينا رواحلنا مُتَّجهين نحو الجنوب الغربي بطول المنحدرات الوعرة للجانب الأيمن للوادي. كان موكبنا مكوّناً من أكثر من ستين من الإبل، وكان رفاقي ـ إضافة لمضيفي ـ هم ابن عمه سلطان بن طوالة، وضيدان وحمدان اللذان رافقاني أثناء رحلتي من الزبير، ورافقنا أيضاً المُلاّ عبدالله الذي كان وجوده هاماً، بينما رافقنا فهد بن ثنيان لمدة نصف ساعة. أمّا محمد بن مجلاد فلقد بدأ الرحلة معلناً أنه سيرافقنا لمعسكر ابن سعود، لكنه بعد مسيرة ساعة تقريباً فارقنا بحجة اعتلال صحته.

استغرقت الرحلة لآبار الحفر ساعتين ونصف الساعة، حيث توقفنا طويلاً لنسحب الماء استعداداً للمسيرة الطويلة التي تنتظرنا. كانت الآبار التي تبلغ عشرة أو تزيد بعمق خمس وثلاثين قامة، هكذا يقول العرب، وكانت موزعة حول حوض دائري فسيح هو نقطة اللقاء لتصريف مياه كل المنطقة المجاورة، إذ يلتقي في هذا الموقع من الباطن مجريان هامان ينحدران من جانبيه هما فليج الشمالي[1]، وفُليج الجنوبي اللذان تتصرف عبرهما مياه الأمطار التي لا تمتصها المرتفعات في الجانبين. وهذه المرتفعات المتاخمة للوادي تحيط بالحوض في دائرة من المنحدرات الصخرية المنخفضة التي يقطعها المجريان الداخلان إلى الحوض من

(١) بعد مسيرة خمس ساعات من هذا المجرى توجد آبار الدليمية، التي تقع خلفها في المنخفض نفسه في اتجاه الشمال آبار الرخيمية وتُقَيِّد وآبار أخرى. لا توجد آبار في فليج الجنوبي، رغم أن العرب يتحدثون عنها كأنها جزء من المنخفض نفسه الذي تقع فيه آبار الصفا، لكني أشك في ذلك. (المؤلف).

الجانب الجنوبي الغربي، ويجري منحدراً من خلاله نحو الشمال الشرقي باتجاه أسفل المجرى الذي تتبعناه في سيرنا ابتداءً من منطقة قريبة من الزبير وحتى هذا الموقع. كان هذا الحوض لأجيال عديدة منتجعاً للبدو الذين يأتون إليه من كل حدبٍ وصوب - إذ أن المياه في هذا الصقع قليلة، وتفصل بينها مسافات بعيدة - ولكنه كان خالياً من الحشائش إلا من غطاء غير متصل من عشب الصمعا ورقاع قليلة من نبات شبيه بالزعتر له زهرة أرجوانية، يسمى قيصوم[1] وتنقطها روابٍ صغيرة مخروطية الشكل صاغتها الأيام مكومة إياها حول أفواه الآبار.

كانت ثلاثة من هذه الآبار قد اشتُهرت بعذوبة مياهها، اثنتان منها في الطرف الشمالي، والثالثة في أقصى الجنوب تعرف باسم خاص هو البرزان؛ ويعلو كل بئر عمود[2] خشبي يميل إلى الأمام فوق قمة البئر مع بكرة خشبية بسيطة مثبتة في أعلاه بواسطة وتد حديدي وتحيط بالبئر أحواض ترابية يُصب فيها الماء بعد سحبه لتشرب منها الحيوانات وتُملأ منها قرب الماء. هذه هي العناصر دائمة الوجود مع كل بئر. أمّا الدلاء والحبال اللازمة لسحب الماء فلا بد أن توفرها كل جماعة لنفسها. تتعارض قطعة خشبية في فم الدلو ليبقى مفتوحاً ويُربط الحبل إلى هذه القطعة الخشبية، ويُدلى الدلو في البئر ويسحبه جمل أثناء هبوطه منحدراً يبلغ طوله مسافة مساوية لعمق البئر. إنّ سحب الماء من آبار بهذا العمق هي عملية مضنية ولكن العرب يتقبلونها كجزء أصيل، اكتسب احترامه عبر الزمن، من حياتهم الرعوية.

---

(١) هذا النبات له مزايا طبيّة ولا ترعاه الإبل إلا بكميات قليلة. تملأ فمها به مرة واحدة بعد كل عشرين قضمة من أعشاب أخرى. هكذا قالوا لي، إنه حارٌ. (المؤلف).

(٢) كل جزء من البئر له اسمه بير أو قليب وهي البئر؛ مقام وهو العمود؛ محّالة وهي البكرة؛ مختار وهو الوتد الحديدي؛ قرو وهو الحوض؛ الدلو وهو معروف، عرجي(*) وهي القطعة الخشبية المتعارضة في الدلو؛ الرشا وهو الحبل؛ المجرّ وهو المنحدر المائل. (المؤلف).

(*) هكذا أورد المؤلف اسمها، وهي تسمى في بعض بلاد نجد عرقات، والعرقات اسم قديم مشار إليه في معاجم اللغة العربية. (المراجعون).

فرغنا في النهاية من السقيا وواصلنا ارتقاء طريقنا في وسط الوادي، قاطعين شعيباً صغيراً يُسمى رجلة الضبع لنصل إلى رقعة متسعة من شجيرات السِّدر تسمى حليبة التي عينت حدود ارتقائنا للباطن، إذ أننا الآن حوّلنا مسارنا فجأةً نحو الجنوب، وبعبورنا للحوض مرتقين المنحدر في جانبه الأيمن، بلغنا سريعاً إلى قمته عند حافة قفر الدبدبة الحجري الفسيح. حانت مِنّي التفاتة للخلف لأتملى من مشهد أخير للباطن، وعندها رأيت فم مجرى الفاو الشمالي(١) حيث يلتقي بالوادي بعيداً هناك صوب الجنوب الغربي، وتتبعت مهد المجرى القديم للباطن في الاتجاه المعاكس صوب الشمال الشرقي لأرى الشريط الضيق المعشب ذا اللون الأخضر الداكن المغاير للون الأخضر الباهت الذي يسود المنحدرات على الجانبين، ثم أدرنا وجهنا نحو الجنوب، والتحم الباطن من خلفنا مع الصحراء الخالية من المعالم.

(١) هذا المجرى مثله مثل فليج الشمالي الذي يجري موازياً الفاو الجنوبي، يصرّف الجزء الشمالي من الدبدبة نحو الباطن. وفي الجانب المواجه لمدخله في باطن تجد مدخل الفاو الجنوبي، نظير فليج الجنوبي، الذي يجري من الجنوب موازياً له نحو الباطن. يُشار للفاو الشمالي والفاو الجنوبي مجتمعين باسم (الفأوان). ليست هناك آبار في أيٍ من المجريين رغم أن ثقوب الماء في قبّة وجلط يبدو أنها تقع في روافد الفاو الشمالي. (المؤلف).

٢- الدبدبة والصُمَّان

الجزيـرة العربيـة غنية بالأمـاكن المقفـرة، ولن يكون من العدل أن نشـجب الدبدبة على وجـه الخصوص لهـذه الصفة، ولكن حـينما مـررنا من وراء المنحدر اللطيف الذي يهبط نحو الباطـن، لندلف إلى قفار الحجارة والحصباء غـير النهائية والتي تنقطها هنا وهناك رقاع عشبية أو شجيرات صغيرة، بدا لي حينها أنني لم أرَ من قبل مكاناً كئيباً قابضاً للصدر مثلها. لابد أن رفاقي قد حل بهم شعور مشابه، إذ أنهم أبدوا رغبتـهم في التوقف قبل أن نقطع مسافة طويلة، وأيّـد ضاري نفسه الهمـهمات المـطالبة بالتوقف، ولم يـكن هناك بُدٌّ من الاستجـابة رغم أنني كنت أفضّل السير لساعة أخرى أو اثنتين، حـيث أصبح الطقس بارداً منعشاً بعد الظهيرة بعد أن كان النهار منهكاً قائظاً.

أُطلقت الإبل لتـرعى، ونصبنا خـيامنا لقـضاء الليل في هذا الموقـع، وبعد صلاة المغرب التي أمّ فيـها المصلين الـمُلاَّ عبدالله، الذي كان يتـمتع بصوت رخيم ونطق جميل، تعرفتُ على طعام مترف من أطعـمة الصحراء، إذ أن رفاقنا جمعوا خلال الجزء الأخيـر من الرحلة عدداً من الكمآت[١]، وقدمها لضـاري ولشخصي الـمُلاَّ ذو المواهب المتعددة، الذي أظهر إضافة لكونه إماماً جيداً وسكرتيراً معتدلاً، براعة في الطبخ. في حـقيقـة الأمر لابد لي أن أعترف أنـني لم أجد الفقع مثـيراً جداً، ولكن رغم هذا كان تغييراً محبـباً للطعام، ويعد العرب الفقع إحدى بركات الربيع، إذ أنه ينتشر في كل الصحراء في هذا الموسم[٢].

كانت العـاصفة التـرابية التي هبّت صبـاح اليوم التالي سـبباً لجعل الأمـيال

---

(١) فقعة، وينطقونها فجعة. (المؤلف).

(٢) الكمأة أو الفقع لا تظهر في كل مكان وإنما لها تربة وأماكن معينة في الصحراء، كما أنه ليس بالضرورة أن تظهر كل عام بل يتوقف ظهورها على نزول المطر في وقت معين وغالباً ما يكون في أول الموسم. (المراجعون).

الثلاثين التي قطعناها عبر بلاد رتيبة خالية من كل معلم، منهكة ومضجرة للغاية. بعد أن قطعنا سبعة أميال من المخيم عبرنا منخفض الفاو الجنوبي إلى الجنوب قليلاً من مجمع الأمطار الذي يُقسِّم مصرفه الجنوب والشمال، وقبل أن نصل إليه رأينا على البعد إلى جهة اليمين مجموعة على ظهور الإبل، حدّس خبراؤنا أنهم جزء من الوهب من قسم الأسلم التابعين لضاري، وصدق حدسهم ذهب نحوهم اثنان منا لزيارتهم بينما واصلنا نحن المسير، وقبل أن نذهب بعيداً رأينا جماعة أخرى أمامنا لكنهم دون أن يدروا أننا قد أرسلنا مبعوثين للقاء رفاقهم، أطلقوا ثلاث طلقات نارية في الهواء تحذيراً لنا ولرفاقهم، وامتلأ الأفق بعد لحظات ببقع سوداء وأطلقت طلقات نارية أخرى سمعنا أزيز إحداها بيننا أو بالقرب منّا. عندها تقدّم بعض من رفاقنا مسرعين مشرعين عباءاتهم كالأعلام تعبيراً عن حسن نوايانا، بينما رأينا في الوقت نفسه خمسة فرسان على ظهور جيادهم يعدون نحونا من الجانب المضاد.

توقف إطلاق النار الآن وكان الفرسان الخمسة نحيلي البنية، أقوياء، خشني المظهر كلهم يركبون خيولاً عارية الظهر ومسلحون بحراب طويلة ثقيلة الأطراف، ومالبثوا أن كانوا وسطنا يحيّون زعيمهم بالطريقة الرجولية الواثقة لأبناء الصحراء. عندما بلغنا حافة الفاو وجدنا الوهب جميعهم هابطين نحو المنخفض نحو الجنوب مع كل أبهتهم من الهوادج بنوعيها (قن وكتاب)، ونوقهم الحلوب، كان طريقنا يشقهم بعرض الحوض، ولكن الأمر استغرق منا بعض الوقت لننتزع أنفسنا من بينهم، إذ لم يكن الأمر يقتصر على الرغبة في تبادل الأخبار والأحاديث بين الجانبين فحسب، ولكن رفاقنا لم يستطيعوا مقاومة الرغبة في شرب لبن الإبل، حيث كانت ضروع النياق مترعة باللبن، فقفزوا عن السروج في لحظة، وقفت

النياق ـ وقد اعتادت على هذا الأمر ـ ساكنة حينما كان رفاقي ـ اثنين في كل حالة ـ يحلبونها في آنية ثم مـا يلبثون أن يفرغوا ما بها في أجوافهـم حتى ما استطاعوا تقبل المزيد. كـان منظراً غريباً ـ يعبر عـن طمع بدائي ـ لكن العربي مستـعد دوماً للوليمـة، لبناً كانت أم لحـماً، كما أنه بـكل تأكيد مـستعـد للأيام المجدبة، التي تصادفه كـثيراً جداً في بلاده. لكن الذي أذهلني أكثـر من طمع رفاقي هو الهدوء الذي اتسم به أصحاب الإبل من الوهب الذين كانوا يراقبـون نياقهم يُستنزف لبنها بواسطة أضياف لم يقـدموا لهم الدعوة، ولقد علمت لاحـقاً رداً على أسئلتي أنه يحق لي أن أتعجب لكرمهم هذا، إذ أن الطبائع في الصحراء تتباين كثيراً بين قبيلة وأخرى، وتقف شمر باتفاق الجميع في القمة عندما يكون الأمر متعلقاً بالكرم غير المحدود، والشمـري قد يجري لمسافات طويلـة ليفرض كرمه على أحـد المسافرين الغرباء، وكيف أنه يحدق فيه بنظرات غاضبة إن رفض أن يشرب ما يقدمه له.

لكن من حسن الطالع أننا تمكنا من رد جميل ضيافة الوهب لنا على الفور، إذ أننا وقفنا للقيلولة على بعد ثلاثة أميال بعد الفاو، وزارنا ثلاثة من أعيان القبيلة يمثلون عشـائرها الرئيسة الثلاث وهـم ظاهر بن شمالي، شيـخهم الكبير نفـسه، وخنيفس نيـابة عن والده حليم بن عقاب، وابن عـواض بن بدر. لم تكن لديهم أنباء كثـيرة سوى أن المنطقة الـتي تقع أمامنا يحتلها مطيـر وأنه لم يحدث أن وقع شيء يعكر صفو الصـحراء في الآونة الأخيرة. كانوا حريصين على اسـتغلال هذه الفـرصة لينالـوا مني تصريحـاً بشـراء حاجيـاتهم من الكويت، بيـد أنني تجنبت إلحاحهم بأن أخبرتهم أن كل هذه الترتيبات بيد ضاري، وأظنهم قفلوا عائدين وهم سعداء بـالمبالغ المالية التي منحتـها إياهم باسم الحكومة البـريطانية، وحثثـتهم في الوقت نفسه للتعاون مع ضاري في التصدي لعمليات التهريب.

بعد مسيرة ثمانية أميال من هذا الموقع، تجاوزنا صقع الدبدبة الحجري لندخل إلى جزء آخر من الصحراء أكثر كآبة ووحشة، مساحة فسيحة من الأرض الطفلية أو الطينية[١] الصُّلبة الممهدة، والتي كانت تغطيها حشائش متفرقة، وتوجد بها بقاع قليلة من الشجيرات. كانوا يسمّون هذه المنطقة الجُرِيبة، وهي تعد الخط الفاصل بين الدبدبة وتلال الصمان التي أقمنا خيامنا قبل أن نبلغ حافتها بمسافة أربعة أميال في موقعٍ منخفض جميل تغطيه الشجيرات، كوّن واحةً حقيقية في تلك القفار، ولكنها لم تمتد لمسافة طويلة.

كان السهل العاري الذي سرنا فيه قبل أن نبلغ موقع المخيم هذا، مليئاً بالحياة، تنفر فيه قطعان الظباء التي حاولنا جاهدين ـ دون جدوى ـ اصطياد إحداها لتأمين اللحم في وجبة العشاء، ولم يكن حظُّنا مع الحبارى بأسعد منه مع الظباء. كانت الحبارى تبتعد عن طريقنا في كسل، ولكننا تمكنّا من الحصول على بيضتين لها في مكان قريب. تأخر عشاؤنا عندما اكتشفنا أن ذلول ضيدان قد فقدت وذلك عندما جمعت الحيوانات عند حلول الليل، بعد أن قضت وقتاً قصيراً طليقة ترعى. خرجت فوراً جماعة للبحث، ولكنها عادت دون أن تصيب نجاحاً، وجلس الجماعة يلفهم الاكتئاب وهم يتناولون عشاءهم الذي صار بارداً ورديئاً، إذ أن ضيدان لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يسمعنا تأوهاته الحزينة. كان قد اشترى ذلك الحيوان قبل أشهر قليلة بسعر ٨ جنيهات إسترلينية نقداً، واشترى أيضاً جملاً بسعر ١٠ جنيهات، وأربعة أغنام بسعر جنيه واحد لكل واحدة. وكان من حسن الطالع أن المجموعة التي ذهبت بحثاً عن الحيوان الضائع، أتت به في صباح

(١) كان لون التربة أحمر بنيّاً؛ وكانت الحشائش التي تغطيها في الغالب هي الصمعا، مع نسبة كبيرة من نبات مائل إلى الحمرة ذي ورود صفراء، يُسمى نقت، وعشب أخضر نديّ صغير يُسمى حثرة، وشجيرة صغيرة تسمى خضّار. (المؤلف).

اليوم التالي. كنت أثناء النهار قد ركبت ذلول ضاري نفسه، كانت ناقةً ضخمة ذات لون باهت وذات مشيةٍ متأرجحة جميلة استمتعت بها كثيراً، وأخبرني أنه غنمها في إحدى الغارات ضد عبدة وأنها كانت تساوي خمسين جنيهاً إسترلينياً، ولكن ضيدان ـ الذي لم يكن قد سمع رواية سيده ـ أخبرني أنه اشتراها منذ عهد قريب من أحد الأعراب بمبلغ ٢٥ جنيهاً، ولم أتمكن أن أتبين من كان الصادق منهما.

كنا نسير لنعبر ما تبقى من منطقة الجرية في صباح اليوم التالي حينما دبّت الحيوية في الجماعة عند سماعهم لصيحة إنذار. لقد شاهدوا جسماً متحركاً على البعد إلى جهة اليمين قبل أن نرى حافة الصمان مباشرة. صاح أحدهم: «شجيرات عرب»، صاح آخر "بدو" وهو يعني رعاة، قال ثالث، يعني غزاة، وهكذا حتى وضع المنظار حداً للنقاش، إذ لم يكن هناك شك في أنهم كانوا جماعة يسيرون راكبين نحونا. كنا قد تجاوزنا آخر أماكن شمر الصديقة، ولم نكن قد بلغنا بعد، مسارات مطير، لذا كان الاحتمال أنها جماعة من عبدة أو قسم آخر من الأقسام المعادية لشمر. استُخرجت البنادق وتمت تعبئتها بالذخيرة، وأرسل المستكشفون إلى الأمام على الجانب الأيمن، ولكن المجموعة التي لم تكن كبيرة فطنت لوجودنا وأراحونا من التكهنات والقلق بأن ولّوْا أدبارهم وقفلوا راجعين من حيث أتوا.

كانت هذه الحادثة سبباً في اهتمامنا بالحراسة، ودخلنا إلى تلال الصمان الحجرية المنحدرة بلطف، يسبقنا المستكشفون، إذ أن الأعداء في أرض كهذه قد يكونون مختبئين في أيٍ من ثنايا المنحدر. وعندما بلغنا السلسلة الأولى سمعنا أمامنا عدة طلقاتٍ نارية، ووضح بجلاء أن روادنا كانوا يؤدون مهمتهم. وبين أصوات تصرخ بالأوامر، وأخرى بأوامر مضادة، تقدمنا إلى الأمام وقد اختلط

الحابل بالنابل، من خلال فتحة ضيقة في السلسلة، بدا لنا بعدها حوض دائري فسيح تحيط به دائرياً روابٍ منخفضة، وكان تبادل الطلقات مستمراً، وشوهد بعض روادنا يتحركون في الخلاء من وراء ثقب الماء المسمى البرجسية الذي كان يقع في منتصف الفناء. وبدا أن الأعداء كانوا وراء روابٍ بعيدة. تجمعنا نحن بالقرب من رابية قريبة، وأنخنا مطايانا من وراء ساتر وطفقنا نتخذ مواقعنا للمعركة. استُخرجت الذخيرة واتخذ رجالنا مواقعهم في حراسة المرتفعات التي تقع أمامنا بينما بقيت أنا وضاري والجزء الأعظم من الرجال في التجويف انتظاراً للأحداث. كانت الفكرة العامة أننا بإزاء جماعة من عبدة وأن روادنا قد كانت لهم اليد الطولى عليهم دون أن يحتاجوا لعون منّا، ولكن الطلقات توقفت فجأة كما بدأت، وجاءت الأخبار أن تلك كانت جماعة من الصلبة وهي قبيلة غريبة من غجر الصحراء الشمالية، كانوا يسحبون الماء من الآبار عندما فوجئوا بمن ظنّوهم جماعة مغيرة فهربوا نحو التلال وهم يطلقون النار لإثارة انتباه عشيرتهم، وليس من أجل اكتساب مواقع أو إظهار للتحدي.

بعد أن ساد السلام تأكّد لنا أن من ظنناهم أعداءنا كانوا جماعة قليلة جاءت هنا للسقيا من شعيب مخَيَط، وهو منخفض ليس ببعيد، وهو الذي يصرّف الجزء الشمالي من الصمان نحو الباطن. دخل معهم ضاري فوراً في مباحثات من أجل أن نستأجر منهم بعض الإبل التي كُنّا في حاجة ماسة لها، وقررنا أن نبقى في هذا المكان حتى منتصف النهار، بينما ذهب ضاري في نفرٍ قليل من رجاله لمخيم الصلب لإكمال الصفقة. لابدّ أن المخيم كان قريباً في الأنحاء لأننا ما أن خلدنا للراحة بعد أن أطلقنا الإبل لترعى في المرتفعات، دون أن ننسى في ذات الوقت حراسة المرتفعات المحيطة بنا تحسُّباً لأي طارئ، حتى زارنا اثنان من شيوخ الصلب هما هويدي بن بادي وسويدان بن محارب، وهما ابن أخ وابن عم كلٍ من مهدي

وخلف، على التوالي، وهما زعيما عشيرة غنيمان من قسم جميل الذي كنا على اتصال به. لم يكن سويدان يرتدي من الملابس سوى ثوب فضفاض طويل من جلد الأيّل يبلغ ركبته، ولكن رفيقه كان يرتدي زياً من الكتان، وقماشاً خشناً من غزل الصوف كأزياء البدو.

إن الصلب عنصر مختلف، ولكن المناخ هو الذي جعلهم شبيهين بالعرب ولكنهم ليسوا منهم. هي قبيلة ضائعة تحتجب أصولها وراء ضباب الزمن الغابر. يستخف بهم العرب ويعاملونهم بترفع، ويأخذون منهم ضريبة مالية صغيرة لقاء تنفس هواء الصحراء ونظير مناعة كاملة ضد التحرش الذي يتمتعون بحقوقه بموجب قانون غير مكتوب، وهم على دراية بالموقع المتدني الذي يحتلونه في السلم الاجتماعي، ولا يخجلون من الأسطورة المعاصرة التي تعدهم سلالة لإحدى القبائل المسيحية التي عاشت في الماضي، رغم أنهم في الوقت الراهن تنسجم حياتهم في جميع مناحيها مع المسلمين، حتى عملية الختان التي لم يكن يمارسونها حتى وقت قريب نسبياً. ومهما كان أصلهم فإنهم بلا شك يدينون بوضعهم المتميز في الصحراء لمهاراتهم التي لا تُجارى في الصيد، وتميزهم كحُداةٍ ومرشدين، فلقد اشتُهروا بعلمهم بأماكن السقيا الموجودة في الصحراء والتي لا يعرفها أحدٌ سواهم، وفوق ذاك هم الصفاحون والحدادون للمجتمع الرعوي، وهم لهذه الأسباب لا غِنى للمجتمع عنهم. وفي هذا الجانب فإنهم يذكرون الشخص كثيراً بمجتمع الصابئة المقيمين بوادي الفرات. ينقسم الصلب لأقسام وعشائر مثل العرب الذين يحيطون بهم، وأهم قسمين في هذه الأنحاء هما جميل ومجيد، وهم رعاة إضافة لنشاطاتهم الأخرى، إذ أنهم تمكنوا بصناعتهم أن يقتنوا أعداداً كبيرة من الإبل والضأن، هذا إن لم نذكر النوع الغريب من الحمير[1] البيضاء

(١) راجع ص٤٥ . (المؤلف).

الضخمة التي يحتكرونها فيما يبدو والتي اشتهرت بالسرعة وبمقدرة على الحمل وتحمّل العطش والإجهاد.

بعد أن غادرنا ضيفانا بقليل ومع كل منهم هدية قدرها عشرة دولارات، تلقينا زيارة من شخصين آخرين أقل مقاماً من سابقيهما، ولقد أتيَا دون مواربة من أجل المال، ولقد حاولت دون جدوى أن أُغريهما للحديث إذ كان أحدهم خليْفة، وهو ابن أصغر لمهدي. أبدى رفاقي علامات نفاد الصبر لوجودهما، لكنني أمرت لهما بالقهوة وأصررت في محاولاتي لجرهما للحديث، لكنهما لم يفعلا شيئاً سوى التململ وكأنهما كانا على عجل. وسألتهم أخيراً بعد أن فقدت الأمل: «لماذا أتيتم هنا؟»، كانت الإجابة المقتضبة «لتحيتك». حاولت مجدداً: «هل عاد شيوخكم إلى ديارهم؟». «نعم، لقد أخبرونا أنهم قد التقوا بك فحضرنا بعد أن تركنا إبلنا بجوار الماء وليس هناك أحدٌ يرعاها». وفي النهاية، بعد الفراغ من شرب القهوة وفشل كل محاولات الحديث معهما، أعطيت كلاً منهما خمسة دولارات، فقفزا على أرجلهما وخرجا سريعاً دون حركات إضافية. احتج رفاقي على الاهتمام الذي أوليته إياهما. قال لي المُلاً عبدالله: «ليس من الضروري أن تعطي مالاً لمثل هؤلاء، إنهم ليسوا مثل الشمريين أو البدو الآخرين».

لم يعد ضاري إلا بعد الظهر بوقت طويل، حيث عاودنا سيرنا نحو قلب الصُمَّان، ورغم أنه كان جزءاً من نفس حزام المرتفعات التي تمتد دون انقطاع حتى الجنوب خلال منتصف الصحراء الشرقية وبعرض الطريق الذي سلكته في رحلتي من الأحساء للرياض، إلا أنه كان هنا أكثر وعورة مما وجدته في الجنوب. مررنا الآن بعدد من الأودية القصيرة المتتابعة وبمنخفضات دائرية تقريباً، تحيط بها تلال منخفضة من الحجر الجيري ذي اللون الرمادي الأربد، وكانت عوامل التعرية،

برياحها وأمطارها قد فعلت فعلها في كل هذه المنظومة. كانت المنطقة في مجملها جرداء عارية[1]. ولكن محقّبة وسلاسل تلال أخرى لا أسماء لها كانت تحدُّ مدى الرؤية لدينا، ونحن نمرُّ من وادٍ لآخر، ومن منخفض لمثله، وبذا أعطتنا تنوعاً مرغوباً للصحراء غير المتناهية التي كنا نسير فيها خلال الأيام الفائتة.

يسمون الجزء الشمالي من الصُمَّان أحياناً الدحول، في إشارة لظاهرة طبيعية غريبة تميزها عن الجزء الجنوبي منها. إذ كان كل هذا الصقع ولِعدَّة أميال من جميع الجهات مليئاً بالثقوب من جرَّاء شبكة من دهاليز تجري تحت الأرض يمكن الوصول إليها في مواقع عديدة متفرقة بفتحات تبدو وكأنها فوهات آبار، ولكنها شقوق طبيعية على السطح، تغور في باطن الأرض لأعماق في المدى بين عشرين إلى ثلاثين قدماً، ويعزو الأهالي وجودها لشهب أو نجوم سقطت في هذه المواقع.

اللفظ دحل (وجمعها دحول) ينطبق حقيقة على تلك الفتحات العمودية والتي تتجمع في قاعها ـ كما يمكن لنا أن نتصور ـ مياه الأمطار لتكون بركاً، كما تفعل أيضاً بطول الدهاليز التي تتشعب من قواعد الفتحات لمسافات طويلة في بعض الأحيان. ولكن هل تتصل كل هذه المسارات التحتية لتكون نظاماً تحتياً للتصريف كما يعتقد البدو؟ هذا ما لا أجد نفسي في وضع يمكنني من إجابةٍ قاطعة بشأنه، ولكن تكرار الفتحات قد يوحي بهذا الأمر. ولقد سمعت قِصصاً عن هذه الدهاليز وكيف أن العرب يستخدمونها للتنقل تحت الأرض من دحل لآخر هروباً من الأعداء، وعن أفراد مغامرين اختفوا [2] فيها، ولم يُسمع عنهم بعدها. ولكن ما يحدث كثيراً هو أن يهبط العرب بحثاً عن الماء في تلك المتاهة التحتية عندما

(١) تشمل نباتات هذه الأودية عشب الصمعا ونباتاً يُسمى روثه، تتلذذ الإبل بطعمه وهو يشابه العرفج، ورقاعاً من السدر. (المؤلف).

(٢) راجع ص٩٦ . (المؤلف).

ينضب المعين في القاعدة التي تقع أسفل الفتحة مباشرة، عندها يذهبون إلى أسفل بحثاً عن المخزون المائي المختبئ، لكنهم يحتاطون بأن يربطوا حبلاً حول خاصرتهم ليقودهم في طريق العودة إلى الفتحة بعد أن يملؤوا قربهم، إذ أنهم قد يضلون طريقهم بسهولة في الظلام الذي يخيم على المتاهة.

كانت فتحة البرجسية هي أولى الدحول التي قابلتنا، وأثناء النهار وجدنا أخرى في منخفض فسيح تسمى أمّ الضيان، بينما يقال إنه يوجد الكثير منها في جوار سلسلة محقّبة، تماماً كالمنطقة التي قطعناها في اليوم التالي. كان الإقليم مليئاً بالطرائد: الظباء التي ما نتمكن من صيد إحداها، والأرانب البرية التي ضرب أحد رفاقنا واحدة منها على الرأس أثناء نومها في الشجرة؛ والحبارى التي تمكنا من اصطياد إحداها بعد مطاردة وصبر، كما تمكنا أيضاً من اصطياد سماق.

هجرتنا إحدى الإبل في المساء، وشوهدت تعدو مسرعة نحو الصحراء في اللحظة التي اصطفّت فيها الجماعة لأداء الصلاة، وقد أُجِّلت الصلاة ونُظِّمت المطاردة على عجل، ولكن الذلول الهاربة كانت قد تقدمت كثيراً نحو سلسلة التلال، التي حجبت ما بعدها. واستمتعنا لفترة قصيرة بمشاهدة محاولات اصطياد الناقة، وهو أمرٌ لا يتكرر كثيراً، حتى عبرت الطريدة والمطاردون سلسلة التلال وحجبت عنا المشهد ظلال الليل الذي أرخى سدوله. ولم يعد رفاقنا الأربعة الذين جدّوا خلف الذلول الهاربة إلا بعد أن تقدم المساء، لكنهم عادوا راجلين، إذ أن الذلول احتمت بمخيم أمامي لمطير وفوجئ من كانوا بالداخل بمظهر أربعة من رجال شمر المسلحين وناقة هاربة وقد حَلُّوا بين ظهرانيهم. وقرروا بعد سماعهم للإيضاحات التي لم تقنعهم الاحتفاظ بالمطايا الخمس كرهائن عقاباً لهم على ما سببوه من إزعاج أثناء الليل، وصرفوا الرجال دون أذى. هذا الأمر استدعى إرسال

بعثة أخرى يرافقها رفيق مطيري، هو سعود الذي رافقنا من الحفر، وما لبثوا أن استعادوا الحيوانات وأحضروها منتصرين للمخيم.

بدأنا مبكرين صباح اليوم التالي، وسرنا خلال مخيمات مطير المتفرقة ـ كانت خيامهم صغيرة إلى حد كبير ـ ومررنا بالحيوانات التي كانت ترعى، وتجاهَلَنا بالكامل أفراد قبيلة مطير الذين كانوا قد عرفوا هويتنا من زوار الليل، وصاروا هدفاً لنقد لاذع من رفاقنا، وهم يطيلون النظر إلى ضروع النوق المثقلة من حولنا دون أن يجرؤ أحدهم للتقدم ليشرب من ألبانها. ولكن صبرهم أعقبه الفرج إذ أننا مررنا برجلٍ من قبيلة حرب كان يقيم بصفة مؤقتة مع مطير، وأصرّ على أن ننال نصيباً من لبن نوقه. كان مطير هؤلاء من فرع أبا سيفا لقسم بريه، وكان عدد منهم قد انضموا لصفوف الإخوان، ولاحظنا في وسطهم بعض خيام الصلب.

بعد هذا بقليل توقفنا للحظاتٍ قليلة عند فوهة دحل الصقور على أمل أن نجد ماءً أسفل الفتحة، لكننا أُصبنا بخيبة أمل، ولم تكن بأي من الرفاق الحماسة التي تجعله يهبط للدهاليز التحتية المتفرعة من القاعدة بحثاً عن الماء. واصلنا سيرنا بعد أن قتلنا أفعى برزت لنا من إحدى صدوع الصخور[1] الكثيرة المحيطة بالدحل. أما الفتحات الأخرى التي أشاروا لمواقعها رغم أنها لم تكن في طريقنا فهي: فضيلي وأبو نخلة ورقاص، ومررنا بعد مسافة بالقرب من دحل حمد ودحل شايب، وبعدها دلفنا إلى صقع يسمى ربيداء وكان قريب الشبه بالصمان في كل مظاهره، إلا أنه اختلف عنه في نوع التربة، إذ كانت تربته ذات لون أحمر/بني، وذات محتوى أكبر من الرمل، كما ظهر العرفج بدلاً عن الروثة بين نباتاته. وكان أيضاً أقل تقطعاً في طبيعته، إذ كان الجزء الأخير من الصمان مغطى بنتوآت من

(١) هذه تسمى خرقه أو خريقة. (المؤلف).

الحجارة الرملية[1] الحمراء الصلبة، وكان تموُّجه أكثر لطفاً، ولم تكن سلاسل التلال فيه ظاهرة كالتلال الموجودة بالصمان. لاحت إلى اليمين على البعد، ذراعٌ لصقع الجريبة وكأنها تمتد بين الصمان وسلسلة التلال الخارجية للدهناء التي رأيناها الآن للمرة الأولى.

بعد ذلك مباشرة كان هناك تغير في طبيعة الإقليم. حيث دخلنا إلى صقع حتيفة وهو سهل من التربة الرملية الطفلية، ينتفخ بلطف، مع منخفضات كثيرة غنية بالعرفج وبنباتات أخرى، بما في ذلك نبات شائك يُسمّى سمنة. كانت أكبر هذه المنخفضات هي فيضة الروثه، وكان يقع بالقرب منها دحل آخر اسمه أم القرون، أتينا بعده لأيكةٍ صغيرة فيها أشجار سدر كاملة النمو. كان قطع الأشجار قد زاد في الآونة الأخيرة، إذ يقطعها هنا وهناك أهل الأرطاوية، من أجل بناء مدينتهم.

كُنَّا الآن نقترب بسرعة من سلسلة عريق الدحول، وهي سلسلة خارجة عن الدهناء، لكنها لم تُعرف بين العامة بأنها جزء منها رغم أن طبيعتها مشابهة لها. واستمرت المنطقة تحمل نفس اسم الصمان رغماً عن أن الطبيعة المتقطعة للصمان لم تستمر حتى بلغنا المنشرحة، وهو طريق القوافل الرئيس من الكويت إلى الزلفي والداخل. قطعنا الطريق على بعد حوالي ميلين شرق النقطة التي يقاطع فيها الطريق عريق، بالقرب من مجموعة من السدر تعرف باسم صُفية، وكان مسارنا في اتجاه الجنوب، وتجاوزنا رقعة واحدة أو اثنتين من السدر، ولم ننصب خيامنا للمبيت إلا بعد أن تجاوزنا الطريق بثلاثة أميال أو نحوها، في حافة سلسلة التلال الرملية، ووقفنا مرة ثانية على أعتاب الدهناء.

---

(١) الاسم المستخدم لهذه هو صلبوخ، وهو اسم يستخدم أيضاً للحجارة الأسطوانية الغريبة التي وجدتها إلى الجنوب في الرحلة إلى الرياض، راجع ص٩٩ . (المؤلف).

٣ ـ الدهناء

للمسافرين الذين يأتون من الشرق يكون الوصـول إلى الدهناء منعطفاً محبباً في رحلة منهكة، حـيث تكون القـفار العـارية من ورائهم ويكون الحاجـز الرملي الشامخ بإزائهم، محيطاً بقلب الجزيرة العربية. وفي حقيقة الأمر فإن سلسلة عريق الدحول ليست جزءاً من الدهناء الحقـيقية التي كانت حافتها الشرقـية تبعد عنا ستة أو سبـعة أميال من وراء السـهل الرملي الجندلية لكنهـا ذات طبيعة مـطابقة للكتلة الرئيسة التي تشـبهها لوناً وفي ما ينمـو فيها من نباتات، لذا يمكن أن نعـدها فرعاً لها. عـرض هذه السلسلة لا يتجاوز نصف الميل، لكنهـا تمتد طولاً ـ بلا انقطاع ـ من الزاوية الشمـالية الشرقية من الدهنـاء باتجاه الجنوب الشرقي لمسافـة بعيدة رغم أنها لا تبلـغ طريق الأحساء ـ الرياض. أقـمنا مخـيمنا في أول منعطفـات عريق، وكان شـيئاً ساراً أن نسـتلقي على الرمال الناعمـة الدافئة، ونتطلع للصـور الظليّة لإبلنا وهي ترعى وسط الكثبان المتلاطمة قبل أن ينحسر الشفق عن الأفق.

وفي صباح اليـوم التالي وقبل أن نقوّض خيـامنا مباشرة حلت بيننا جـماعة قوامـها أربعـة رجال من الصلـب على ظهر مطيـتين. لقد كـان العطاء الذي ناله بعضهم مِني في البرجسية قد أقام الدنيا ولم يقعدها في مخيم الصلب في مخيط. وكان زوارنا الأربعة قد تحـركوا صباح اليوم السابق وسـاروا طوال الليل في أعقابنا بغرض تحيـتي؛ كان الزوار هم مهدي بن خلف وخلف بن مـصلب شيخا عـشيرة غنيمان وثالثـهما مبارك، ابن الأخـير، ومعهم رابع. لقـد كانوا يودُّون العودة إلى جماعـتهم دون تأخير وفي جعـبتهم هدايا بمقدار ما قطعـوا من فيافي على آثارنا. ولكن كان همّـي أيضاً أن أستـفيد بإضـافة هذه الجـماعة ـ وهم سـادة قبـيلتهم ـ لمجموعتنا. منعهم الحـياء والتهذيب أن يرفضوا اقتراحي بمرافقـتنا في مسيرتنا حتى نعبـر الدهناء، رغم أنهم بعـد أن بلغنا منتصف الطريق حـاول خلف باجتـهاد أن

يستأذن في الانصراف بأن أسَرَّ إليَّ قلقله على جماعته التي خلّفها وراءه دون حماية كافية إزاء ما يواجههم من مخاطر "من الشمال والجنوب" على حدٍّ تعبيره. لكنه لم ينجح في مسعاه؛ كان قد أخبرني في بداية النهار أن قِوام مخيمه ألف خيمة، وأظنه اقتنع بحجتي حين قلت له إنّ وجود أو غياب أربعة أشخاص لن يعرض للخطر أو يمنع الخطر عن مجموعة بهذا الحجم. وساروا معنا كل ذلك اليوم وجزءاً من اليوم التالي، وكانوا مصدراً ممتازاً للمعلومات وسبباً للمرح.

تطابقت نهاية مسيرة اليوم مع عبور الدهناء التي كان عرضها هو طول الطريق الذي سلكناه من عريق الدحول باتجاه الجنوب حتى بلغنا السلسلة الشبيهة التي تقع خارج الدهناء من الجانب الآخر وهي سلسلة تلال البترا. كان طول هذا الطريق الذي سلكناه يبلغ ٢٥ ميلاً بالتقريب، رغم أن العرض (المباشر) لحاجز الدهناء كان ١٥ ميلاً فقط. تقطع هذا الحاجز الرملي على مسافات غير منتظمة طرقٌ معروفة تربط بين أماكن السقيا بين الجانبين بأقصر المسارات الممكنة؛ أحد هذه المسارات وهو طريق المنشرحة يقود من الكويت عبر آبار اللصافة، حتى الدهناء في اتجاه الجنوب الغربي إلى الأرطاوية، بينما هناك طريق آخر يُسمى مبيحيص (Baihis)[١] يتكون بالتقاء[٢] طريقين يبدآن من آبار اللهابة (Haba)[٣] والقرعا، ثم يقطع الطريق الموحّد الرمال في موقع إلى الجنوب من مخيمنا جارياً في خط موازٍ للمنشرحة لمسافة ستة أو سبعة أميال، ثم يفترق ثانية في الجانب الآخر ليصبح طريقين يقود أحدهما لآبار القاعية، والثاني لآبار الدجاني. بيد أن المسافرين في زمن الربيع لا يضطرون للإسراع عبر المنطقة الخالية من المياه لأن إبلهم تجد ما يكفي

(١) كذا ورد الاسم في النص الإنجليزي. والصواب: مبيحيص: وهو درب مشهور، وسيتم تصويبه عند وروده مرة أخرى. (المراجعون).

(٢) يلتقيان في فيضة من شجيرات السدر تسمى الخمّة. (المؤلف).

(٣) كذا ورد الاسم في النص الإنجليزي. والصواب: اللهابة. (المراجعون).

من الرطوبة في النباتات التي تقتاتها؛ وما فعلناه نحن احتياطاً هو أن أرسلنا مجموعة صغيرة لآبار القاعية لإحضار الماء للمخيم لاستخدامنا أثناء الليل.

وهكذا تمكنا من عبور الدهناء بالخط المناسب لنا، خطٌ سار بنا قُطرياً من المخيم بالقرب من طريق المنشرحة في الجانب الشرقي إلى النقطة التي ظهر فيها مبيحيص من رمال الغرب. ورغم أن هذا المسار كان يزيد العبء على الجمال المثقلة بالأحمال، إلا أننا لم نواجه مصاعب خطيرة في عبور التلال الرملية المتعاقبة التي تجري في هذا المكان من اتجاه الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، والتي تقاطعها في كل مكان ممرات الخراف والإبل التي وجدناها ترعى بأعداد كبيرة طوال سيرنا، إذ أن البدو في هذا الموسم وهم في هذه الحالة مطير، الأرطاوية والمناطق المحيطة، ينتشرون على امتداد الدهناء لترعى حيواناتهم الأعشاب الغنية التي يكفي طل يسير لإعادتها للحياة من بين تلك الرمال.

المناسبة الأخيرة التي عبرت فيها الدهناء كانت في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) وحينها كان سطحها عارياً إلا من حشائش متفرقة ذابلة أو من شجيرات تحتضر، ولكني أرى الآن مشهداً يختلف اختلافاً بيِّناً، إذ أن الرمال، باستثناء المواقع شديدة الانحدار قد أخذت زخرفها وازّينت بغطاء وافر من النباتات والحشائش، لم أشهد له مثيلاً في كل جزيرة العرب. وقد ميّزتُ من النباتات الوافرة البارزة ثلاث عشرة عينة[1]، وربما تضاعف هذا العدد أضعافاً كثيرة لو كان لي من الوقت ما يكفي لإجراء مسحٍ بطريقةٍ مناسبة.

---

(١) العرفج والأرطا والقرض، وألقة(*) وأضير هذه من الشجيرات. ثم النصي وقصبة ومُسيع وصبات من الحشائش. ثم الحماط والكرات وحميصيص، وخرشف من النباتات المزهرة. كما يوجد الكثير من الأفاعي في هذا الصقع، إذ قتلنا ثلاثة منها، اثنتين من الفصيلة التي تسمى حنش، والثالثة أفعى رأسها معين الشكل يسمونها حيّة. أما الاسم داب (وجمعها ديبان) يستخدم عموماً لكل الأفاعي. (المؤلف).

(*) ربما الأرقة. (المراجعون).

لقد كان احتــلال قطعان الضأن للمنطقة قد أبعد الصـيد عن المسرح، ولكن في أوقــات أخــرى ـ كـمــا قال لــي الصلب ـ فــإن هذه التــلال تعجّ بالغــزلان. استفســرت من مهدي عندما كان يتحــدث عن الأيام التي قضاها هنا في القنص: «هل توجد في هذا الزمان المارية أو النعام في هذه الأنحــاء؟» وأجاب قائلاً: «قبل زمن طويل كانت هذه الحيوانات كثيرة في هذه الأنحاء، ثم جاء العرب» ـ أظنّ أنه كان يشيــر لحركة السفر التي زادت منذ عــهد ليس بالبعيد مــع نمو الكويت كميناء بحري ـ «ثم تفرقت المارية مـتجهة نحو الشمال والجنــوب، حيث توجد الآن فقط في القفار الرملية الشــاسعة. لقد اصطدت كليهما قــرب الجوف، وفي المرة القادمة التي أذهب فيها نحو ذلك المكان سأحــاول أن أحصل على كل صغارها» وسألته: «كيف تبدو النعامة في الصحاري؟». «والله يا صاحب، إذا رأيتهم من على البعد ظننتــهم إبلاً، ثم إنهم يعدون كــالريح. تضع الأنثى عشــرين إلى ثلاثين بيــضة، وكثيراً ما نجد بيضها فنأكله، وعندمــا تفقس البيضة ينقُف فرخ في حجم الحباري» ويتعقب الصلب الظبــاء في معظم الأحيان، وإنه لمن الطبــيعي لأحدهم أن يصطاد في رحلة واحدة عشريــن أو أكثر من الغزلان، وما يفعله للحــومها هو أن يضيف إليه بعض الملح ويتركه للشــمس المحرقة لتحوله إلى جلا أو قديد لاســتخدامه في داره ولبيعه في الأسواق، وهو طعام بالــغ الجودة، ولا يمكن أن تجد خيراً منه تُعده لرحلة طويلة. وإن تمّت معالجــته بمهارة يمكن أن يبقى لمدة شهر أو أكــثر في الشتاء دون أن يصيبه أذى، بل يحتفظ بنكهته المميزة وطعمه الشهي.

كنت أركب أمام الجماعــة في رفقة مهدي ونحن نعبر ســهل الجندلية عندما لفتت انتــباهنا أصوات مرحة في المؤخــرة؛ كان خلف الشيخ الآخر للصلــبة ينشد شعراً على شرف ضاري، وكانت همهمات الاستحسان التي تعقب كل مقطع تنبئ بمدى النجاح الذي يلقاه، وفي ختام الإنشاد ثارت ضحكات مجلجلة عندما طالب

الشـاعر، ضـاري بإهدائه ذلولاً لقاء إنـشاده، ولم يجـد ضاري بُداً من أن يعـده بالهدية. كانت القصيدة طويلة وتعجبت كثيراً بل أصابني شك في أن تكون ـ كما قالوا ـ مرتجلة، لكنني اقتنعت أن الادّعاء كان صـحيحاً؛ وعلى أي حال قام خلف فوراً بإعـادتها من البداية حـتى النهاية بناءً على طلبي، مع إضـافة مقـاطع أخرى يقترح فـيها أن الذلول تصبح قليلة الفائدة إن لم تكـن معها بندقية لاسـتخدام من يركبها. وفي الـليلة نفسها أُعيدت كل القـصيدة أمام الـمُلاً عبداللـه الذي نسخها على الورق، بناء على طلبي.

استغرقنا عبور عريق الدحول دقائق قليلة، لكن عبور سهل الجندلية أخذ من وقتنا ساعتين ونصف. كان سهلاً رملياً عظيماً، تبدو فيه أحياناً كثبان وسلاسل من التلال، كـان أحدها يمتد لمسافـة طويلة جنوب مسارنا حـتى بلغ وسط المنخفض، واسمــه حرابه. صــار سطح السهل وعـراً بعد قليل، وعندمـا اقتـربنا من الطرف الأقصى بدت فـيه نتوءات صـخرية وحصـباء من حين لآخر. ثم ارتقـينا المنحدر الأول للدهناء الحقيقية حيث وجدنا مخيمـاً صغيراً لمطير قوامه ثلاثون خيمة. كان بعض جماعـتنا من الشجاعة بحيـث دخلوا إحداها بحثاً عن كرم الضـيافة، إذ أن مخـزوننا من الماء كان قـد شارف على النفـاد، وكان شرب اللبن سـيسـاعد على الحـفاظ علـى ما بقي من الماء حـتى نهـاية المسيـرة، ولكنهم أهدروا فـرصتـهم بحماقتهم، إذ أن مطيـر ساءهم أن سمعوا الجماعة وهم يهمـهمون بلحن شعبي، فأنذروهم بالابتعاد لئلا يصيبهم مكروه. لم أشهد الواقعة، لكن ضيدان أكَّدَ لي أن مضيفهم أخذ بندقيته ليعجل بمغادرتهم.

كان الجـزء الأول من الدهناء مرتفعاً لطيـفاً تغطيه حـشائش خفيـفة، ولكنه يتحول فجأة إلى موجات من الرمال ذات لون برتقالي داكن. كان هذا الجزء يُسمى

جهامًا، عرضه حوالي ميلين ونصف الميل ويفصله منخفض ضيق أو خبّ ذو تربة طفلية مغطاة بالرمال، عن الجزء الثاني الذي يُسمى موريت، والذي كان عرضه حوالي ميلين. وهذا الجزء نفسه يفصله عن الجزء الثالث منخفض مشابه. كان الجزء الثالث بلا اسم، بينما كان اسم الجزء الرابع الذي يليه مخيط، وكان كل منهما بعرض ميلين، ويفصل بينهما المنخفض العريض الذي يُسمى خَبّ النوم، وعرضه يربو على الميل. وكان هذان الجزءان الأخيران أكثر أجزاء الدهناء إثارة بلا منازع، رمالهما ذات طبيعة متحللة أكثر من الأقسام الأخرى، وأمواجهما الرملية العميقة تشابه أمواج البحر وقد هيجتها العواصف، بينما وَسَمت قمم التلال في كل مكان أشكال مخروطية عظيمة من الرمال - الرمال فحسب - تشرئب إلى السماء لأبعادٍ تربو على ٢٠٠ قدم فوق سطح الأرض.

تمكنت أن أرى من موقع مخيمنا في خب النوم ثمانية من هذه الأشكال المخروطية على كلٍ من الجزأين، وهي تمتد كقمم السلاسل الجبلية من الشمال للجنوب، بيد أنني كنت سأرى عدداً أكبر إن ارتقيت موقعاً أعلى. هذه القمم الرملية تسمى طعس (وجمعها طعوس). ولها اسم آخر: نِقا (وجمعها نقيان). وتسمى كمجموعة عدداً من الأسماء: غرامين، أو براخيس، أو حومة النقيان، أو مجلس، وهذا الاسم الأخير استُمِدَّ من الترتيب الجماعي لهذه القمم وكأنه تجمعٌ لمروة الصحراء، وفوق هذا لكل قِمة من هذه القمم شرف الاحتفاظ باسم خاص بها، وكان أغربها نقا المطوّع وهو مخروط إلى الجنوب قليلاً من مسارنا ولابد أن أحد ظرفاء الصحراء هو الذي سمّاه تلميحاً لأحد المعالم البارزة. بدا لي أن الخط الذي تتبعه هذه القمم يتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وهو الاتجاه العام لحزام الدهناء في هذه القطاع، لكنني لا أستطيع أن أحدد إلى أي مدى نحو الشمال والجنوب تتكرر هذه الظاهرة الغريبة. أما في اتجاه الجنوب فهي قطعاً لا

تستمر لتصل إلى صقع الأحساء ـ الرياض، ووفقاً لما أستطيع تأكيده فهي تنقطع عند بلوغ خط العرض الذي يمرُّ بالشوكي.

رأينا من قمة سلسلة تلال مخيط، الخط الداكن الذي يحد السهل الذي يقع وراء الدهناء، ولكن كانت تفصلنا عنه ثلاثة من الأحزمة الرملية، كان أقلها بلا اسم، ويفصله عن مخيط خبٌّ ضيق، وكان الثاني يُسمى أرض عقال، وسُمي باسم "عقال"، وهو أحد الصيادين الذين كانوا يجوبون هذا الصقع؛ وكان ثالثهم أيضاً بلا اسم ويفصله عن أرض عقال منخفضٌ عريض يُسمى خبّ الرضم الذي ظهرت فيه نتوءات من حجارة جيرية متفرقة دلالة على أننا لسنا بعيدين عن أرض أكثر صلابة. كان العرض الكلي لهذه الأحزمة الرملية الثلاث وما بينها من منخفضات لا يبلغ خمسة أميال، ولا تستحق تعليقاً سوى أنها كانت في مميزاتها العامة تشابه الأجزاء الأولى من الدهناء.

هبطنا من المنحدر الأخير مع شعور بالراحة لنصل إلى طريق مبيحيص في الموقع الذي يمر فيه إلى لُغْف، وهو شريط رملي ضيق يفصل الدهناء عن سهل العرمة في الحافة التي نصبنا فيها خيامنا بالقرب من سلسلة تلال البترا الرملية التي تقع خارج الدهناء، والتي تعد نسخة مطابقة لعرق الدحول في الجانب الآخر. لقد خيبت الدهناء رجائي مرة ثانية، لكنني كنت سعيداً برؤية أهم معالمها وهي بِنْيَة السلاسل الرملية السبعة التي لا نظير لها في مناطق الجزيرة العربية الرملية.

الفصل السابـــع

العودة إلى الرياض

١- هضبة العرمة

كانت الإبل والخراف تنتشر في المراعي حـولنا، وكانت الإبل المنتشرة سوداء اللون مما يدل على وجود بدو عتـيبة أو حرب الذين يحتكرون فيمـا يبدو القطعان ذات اللون القاتم، ولا ندري ما السر في أن الخراف السوداء هي الغالبة في قطعان كل البدو هنا، على النـقيض من تلك التي تمتلكها قـبائل رعاة الضـأن في منطقة الفرات، إذ أنها بيضاء كلها تقريباً. ما لبثنا أن اكتشفنا مُخيم جيراننا، الذين وضح أنهم كانوا مـن عناصر «الإخوان» من قـسم آل رُبيعـان من قبيلة عـتيبة، والذين يقيمون الآن مع مطير في الأرطاوية.

لم تتمكن المجموعة التي بعثنا بهـا لإحضار الماء من الاهتداء لمخيمنا إلا بعد أن انقضى وقت طويل من الليل، وانقطع أملنا في عودتهم غـانمين، فهجعنا بائتين على الطوى، إذ أن القطرات المتبقية في القرب من ماء الحفر أو البرجسية، كان قد استخدمها ضيدان ـ الذي كان دائم التفكير في راحتي ـ ليصنع لي كوباً من الشاي "المعتق" الذي لم أجـد مندوحة عن شُربه، رغم أنه كان مثـيراً للغثيـان، وشربتُه متظاهراً بالاسـتمتاع به. وحتى أكـون منصفاً لنفسـي لابد أن أذكر أن غازي وهو واحد من عشـيرة ضاري نفسه، وكـان قائداً للمسيرة، طفـق يروي لي أثناء سيرنا الروايات عن كيف أنه ـ وأباه من قبلـه ـ كان يقوم بالاشتراك في كثـير من غارات شمر في الماضي واكتـسب بذلك معرفة لصيقـة بكل هذه الأنحاء، كان غازي هذا سـبباً في أن ينضب موردي المائي. عندمـا بلغت بعـثة الماء مـخيـمنا، وضح أن أحدهم لم يـعد معـهم، وجرى بحث عـقيم عنه صباح اليوم التـالي، وخلصنا للافتراض بأنـه ضلّ الطريق، وأنه ـ والحال هذه ـ سيتـجه نحو مخيـم ابن سعود مبـاشرة، أو أنه على افتـراض متشـائم كان ضـحية لمؤامـرة، وتصادف أن الرجل

المفقود كان واحداً من المدخنين القلائل في مجموعتنا، إذ يبدو أن عادة التدخين بدأت تنحسر سريعاً في الصحراء، لاشك بسبب تأثير الدعوة الدينية التي تحاربه. لم يكن هناك شيء نفعله سوى أن نعده مفقوداً في الوقت الراهن، ولم تبرأ ساحة بعض البدو من مسؤولية اختفائه حتى رأيناه سالماً في مُخيم ابن سعود بعد يومين.

الجزء الشمالي من العرمة سهل عارٍ يتموج بلطف ويجري فوقه طريق مبيحيص حتى آبار القاعية ويتفرع عنه طريق آخر ليتجه صوب آبار الدِجاني في الشمال. هذا الجزء الشمالي من العرمة يُسمى أحياناً الجلاد أو ببساطة الصفرا[1]، وهو اسم عام يعني القفر رغم أنه يختلف فقط في أن له سطحاً أقل وعورة مقارنة بالأجزاء الجنوبية. صقع العرمة في عمومه هو هضبة تنحدر بلطفٍ إلى الأسفل نحو حافة الدهناء من جرف ذي ارتفاع مختلف في جوار الأرطاوية، متخذاً في انحداره اتجاهاً جنوبياً شرقياً موازياً للحزام الرملي وعلى بعد عشرة أميال منه، والعرمة في حقيقة الأمر هو السهل الأول والأدنى من بين سهول واسعة متعاقبة تكوّن منظومة طويق، وترتفع ارتفاعاً هيناً حتى تبلغ أقصى ارتفاع لها في السلاسل العالية التي تمتد بطول قمة المنحدر الصخري الغربي الشاهق لذلك الحاجز الجبلي.

تقع آبار القاعية على بعد حوالي عشرة أميال في اتجاه الجنوب الغربي، ولا يضلّ أحد عن موقعها بفضل ركام الحجارة الوافرة التي ترتفع في كل الاتجاهات لعدة أميال لتهدي الجوالة العطشى إلى مياهها. كانت إحدى هذه التراكمات الحجرية على حافة طريق مبيحيص، وتسمى رجم المفاريح، وعند رؤيتها يتيقن المسافر القادم من الشرق أنه قد أوشك على بلوغ الغاية. لَمحْنَا هناك على البعد الطرف المعتم لمجزّل في اتجاه طويق.

(١) هناك اسم آخر لهذا الصقع، ابتداءً من طرفه الشمالي، حتى وادي العتش في الجنوب، وهو عُريمة (أو عرمة الصغيرة)، ولكنني شخصياً لم أسمع بهذا الاسم. (المؤلف).

كانت ثلاثين بئـراً ـ رغم أن بعضهـا قد تساقط وبعـضها الآخـر قد توقف استخـدامه ـ في منخفض دائري ضـحل عند قاعدة منحدر لطيف يهـبط من الحد الخارجي لـلسهل الذي يقع من خلفـه وادي البطين. تنزل هذه الآبار لأعـماق بين ١٥-٢٠ قدماً فـي باطن أرضٍ من الحجارة الجيـرية الصُّلبة، وتبطّنها كتلٌ حـجرية من المادة نفسها لمسافة تصل إلى ثلثي العـمق نحو الأسفل. المياه هنا وافرة وعذبة، ونهلت إبلنا التي ما ذاقت طعماً للماء منذ أن فارقنا الحفر قبل خمسة أيام مضت. لقد شربت بشَـرَهٍ احتار له أصحابها فـاعترفوا بأنهم لم يكونوا يتوقـعون منها هذا التلهف على الماء في زمن الربيع.

كانت مجموعة من الرعاة يسـقون خرافهم في ذات الوقت، ولكننا استأثرنا ببئرين أو ثلاثة وفرغنا من المهمة في وقت وجـيز. صار الآن الموقع المفترض لمخيم ابن سعود في اتجاه الجنوب الشرقي، وذلك بعد أن انعطفنا في مسارنا. لذا توجهنا نحو الجنوب الـشرقي بينما كنا نـنحو بمسارنا تجـاه الشرق من حين لآخـر بغرض الالتفاف حـول الدهناء التي كانت رمالهـا المخروطية السامقـة والتي تبدو الآن في لون وردي جميل، قد عادت مجدداً إلى مجال رؤيانا.

بعد أن غادرنا الآبار، كنا نعـبر بين الفينة والأخرى مجموعـات صغيرة من الخيام التي تخصّ في معظمها إخوان عتيبـة من فرع القُرينية. كانت مشاهد جميلة تنبئ عن الأمان الذي يعيـشه الرعاة. كانت قطعان الخراف السـوداء موزعة في كل مكان أو تجثم محتـشدة حول الخيّام. وبإزاء إحداها وقـفنا لنشرب (اللبَن) الشهي وهو مخـيض لبن الشيـاه، بينما كنّا نراقب في هذه الأثناء امـرأة تخض اللبن في صميل مصنوع من جلد الأغنام.

كانت القفـر البلقع تزدان من وقت لآخر برقاع شجيـرات العوشز، وبعض

أشـجار الطلـح الحامل للصـمغ، بينمـا غطّى الرمث والسـيح (Sih)(١) الشوكي والعرفج المنخفـضات. وقفنا عندما شـارفنا نهاية صقع جلاد للقيـلولة في شعيب ضحل لا يبعـد سوى أميال ثلاثة من سلسلة تلال البترا التي رأيت خـلفها إحدى وعشرين قـمة رملية، وإلى الجنوب قليـلاً تلاشت رمال البترا في سلسلـة صخرية تسمى أبواب يشقها ممر ضيق يصرف ميـاه العرمة نحو حافة الدهناء، وفي مواجهة سلسلة أبواب يحد الطرف الغربي للهضبة مرتفعات من ركام الحجارة البارزة، هما ظِيْرَيْن، وهما بلا شك يحدان مهبطا عملياً من السلسلة إلى السهل.

في وقت متأخّر مـن فترة بعد الظهيرة كحَّـلَ أعيننا منظر بهيج لصفٍ طويل من الأشجـار يمتدّ بعرض السـهل مكوّناً زاوية قائمة مع طريقنا، وأنـخنا بعد قليل مطايانا على جانب شعيب أسال وهو مجرى سـيول رملي ضيّق ومتعرج وهو يبدأ بالقرب من آبار شهامة، على بعد حوالي اثني عشر ميلاً في اتجاه الجنوب الغربي، أي في حافـة العرمة، ويهـبط عبر المنحـدر إلى حافـة الدهناء حيث تغوص مـياه السيول التي تحملها في باطن الأرض في منخـفض يُسمّى حَيِّرَةُ في لغف، الشريط الرملي الضيقّ. كانت أشجار السنط السامـقة تقف على جانبي منخفض حيِّرة إلى ارتفاع ثلاثين قدماً كعلامة أكيدة لوفـرة المياه، كما كانت هناك ثقوب ماء يبدو أنّها قد حفرت في بطن المجرى منذ وقت قريب، ولا يتجـاوز عمقها ثلاثة أقدام، بيد أنَّ هذه الثقوب كـانت جافة عند بلوغنا إيّاها، ولكن الأشجـار كانت هي أول ما رأينا من أشجار حقيقية منذ أن خلّفنا الزبير وراءنا منذ أسبوعين.

كانت المسيـرة الطويلة التي بلغت ثلاثين ميلاً قـد أنهكتنا، وشكا ضارى من صداع ألمّ به، وتمكنت من علاجه بأقراص الفيناسيتين، وأكملت له وصفة العلاج بأن يخلد للراحة التامّـة ويؤخر أداء صلوات المساء. ولقد استجـاب للأمر الأخير

---

(١) كذا ورد الاسم في النص الإنجليزي، وربما المقصود: الشِّيح. (المراجعون).

ضمناً مما أثار دهشتي نوعاً ما[1]، إذ أنّ أهل شمر رغم أنهم ليسوا مفرطين في التديُّن إلاَّ أنهم حريصون على الالتزام بالشعائر التي يفرضها عليهم إيمانهم. وبالرغم من إبداء ضاري لبعض الضجر تحت ستار من الصمت والسكون، لكنني سعدت بزوال الصداع وبجلوسه لوجبة العشاء بشهية جيّدة. إن عوز المهارات الطبية من العيوب الخطيرة لمسافر في صحراء الجزيرة العربيّة، وكثيراً ما كنت أندم لجهلي الفاضح في أمور التطبيب، بحيث لم أكن أجرؤ على تناول علاج بخلاف الأقراص المعتادة، وحتى هذه كنت أتناولها بخوف وفي جرعات ضئيلة. وفي المرّة الوحيدة التي جرّبت فيها أن أمسح مرهماً من الخارصين لأصبع جريح، بقي ضحيَّتي لبعض الوقت يعاني من آلام مبرحة امتدَّت إلى مرفقيه، حتى أنني ظننت أنني قد سممته. غادرنا زوار الصلب، إذ صرفتهم منذ أن أنخنا للقيلولة مع هدايا مناسبة ومع وعدٍ بالمزيد عندما يعودوا إلينا بالنعام والماريّة التي تعهدوا بإحضارها إليّ. ولا أظنني في حاجةٍ لأن أقول إنني لم أرَهم بعد ذلك قط.

بدأنا سيرنا صباح اليوم التالي مبكّرين وقد عقدنا العزم على أن نصل لغايتنا بحلول الظلام، لكننا وصلنا هدفنا بحث المطايا على العدو المتأرجح بسرعة خمسة أميال في الساعة في فترة ما بعد الظهيرة. كان المسير سهلاً فوق الهضبة العريضة المتدحرجة التي تحوّلت كلما قربنا من خط شعيب الشوكي إلى منخفضات متدحرجة تتجه غرباً بطول الحافة الخارجية للهضبة لتلتقي بالتلال الوعرة، التي عرّتها عوامل الطبيعة، والتي ينحدر منها الشعيب في مسار متعرِّجٍ نحو الشمال الشرقي ليمتصّ مياهه منخفض فيضة الطنحة في حافة الدهناء. وفي الدهناء هذه يرتفع في نفس خط المنخفض ما يبدو أنّه آخر الرمال المخروطية، قمة منفردة تسمّى نقيعة الطنحة.

---

(١) الصلاة لا يمكن تركها أو تأخيرها بأي حال، لكن الدين الإسلامي سهّل على المسلم أداء الصلاة حسب قدرته وحالته الصحية. (المراجعون).

لم تميّز مسيرتنا تلك سوى حوادث ليست ذات شأن. مررنا بمخيّمات صغيرة لعتيبة وجماعات آخرين من الأخـوان، وتمتعنا في بعضها بالضيافة في شكل لبنَ؛ كما اكتشفنا عـشاً لحباري وبداخله أربع بيضات وهو عدد غير مـعتاد، وفقاً لإفادة ضيـدان الذي قال إنّ ذلك الطائر لا تبيض أنثـاه أكثر من ثلاث بيضـات؛ ومررنا بمجموعة من أشجار طلح جيدة النمو فـي شعيب صغير يُسمّى وُديْع، ولكن أكثر تلك الأحداث إثارة كـانت فزاعة[1] أو شيئـاً كثير الشـبه بها، رغم أنها تسـتخدم لغرض مخـتلف تماماً، ما كانت سوى "عـبا" أو عباءة عاديّة أُلبست فـوق عمود لتقوم مـقام الراعي الذي كان بلا شك نائماً أو يحـتسي القهوة في خيـمته. إذ أنّ الراعي العربي بطبـيعته قد ابتـدع حيلة الخيال هذه كمـا يسمونها ليـمنع قطيعه أن يضلّ أو يتوزّع، لما خـبروه من التجربة أنّ الحـملان والصغار ـ ويبـدو أن الأمر لا ينطبق على الخراف والأغنام مكتملة النمو ـ تبقى في موقع واحد لعدّة ساعات وهي ترعى بهدوء حول الدميـة معتقدة أنها سيـدها. كان هذا الوقت هو موسم الفطام للصغار وجمعهم معاً ليلعبوا كخراف وأغنام، لقد كان منظر قطيع الصغار بديعاً.

بلغنا في النهاية المجرى الذي تحدّه أشجار شعيب الشوكي، وبما أننا لم نكن نعلم موقع ابن سعود به فلقد تتبعنا مـهبطه المتعرّج. وقد فاحت من الغطاء النباتي الغني للوادي روائح جـمـيلة عطّرت هواء المسـاء، وكانت برك المـياه الراكـدة هنا وهناك دلالة على أنّ مجرى سيل شقّ طريقه من هنا قـبل وقت قصير، ولكن بعد أن هبطنا قليلاً أوقفت سيـرنا سلسلة من غدران صغيرة مُتصلة امتـدّت من الصيغة إلى الضفـة بعرض عشرين أوثلاثين قـدماً، وبطول مئة ياردة وبعـمق قدم أو لعلّه أكثر، تـوقفنا لندع المطايا وشأنها وهي تشـرب ماء الغدير الذي اسـتحقته بسـيرها

(١) ما ينصب في المزرعة تخويفاً للطير ويسمى أيضاً خيال المآتا. (المراجعون).

الحشـيث، فخاضت حـتّى الركب، ثم واصلنا سيـرنا مرتقين المنحـدر على الجانب الأيسر حـتى بلغنا قمّته، وعندها رأيـنا المشهد الكامل لمدينة حقـيقية من الخـيام. بطول وعـرض المنخفض الذي يقع أمـامنا امتـدّت خيام المـعسكر السـعودي الذي شمخت في منتصفه الخيمة البيـضاء الكبيرة التي عرفنا فيها على الفور المقر الرئيس لابن سعود.

٢- جيش السعوديين في المُعَسْكر

ضمـمنا العبـاءات فوق أجـسادنا، إذ أنّ العـربيَّ يركب في الصحـراء أثناء المواسم الحارّة وعباءته إلى الخلف، فوق الجزء الخلفي للسرج، بيد أنَّه لا يحلم بأن يدخل هكذا لمدينة أو مخيّم، جـمّعنا أفراد المجموعـة ونحن نهبط المنحدر لندخل أطراف المعـسكر في صفَّـيْن، بينما كنت أنا وضـاري في طليعـة الوسط. لابدَّ أنّ منظرنا كان آسراً، نيـف وستون يعبرون طريقـهم خلال الخيام القصـية نحو وسط المخيم. كل العيون ـ أو هكذا خُيّل لنا ـ كـانت تحدّق بنا. وعندها طاف بي شعور غريب بالغمّ، كنت أعلم أنّ ضـاري ورجاله لم يشعروا إطلاقاً بـحرجٍ ولم يسألوا أنفسهم كيف سيـستقبلهم المضيف السعودي، وهم قد أتوا مـن غير دعوة. توقفنا على بعد مناسب من الخيمة الملكية في الفناء المحيط بها، ومرَّت دقائق قبْلَ أن تهدأ أعصابنا برؤيتنا لرجلٍ يخرج من الخيمة متجها نحونا، كان الرجل هو إبراهيم.

الملامح المعهودة للرجل -الوحيد نفسه- من بين المجموعة التي صحبتني إلى جدة، والـذي كنت أحمل له بغـضاً شـديداً، ورغم هذا أثار فيّ في ظل الظروف الكئيبة التي أحاطت بوصولنا، أثار فيّ شـعور من عاد إلى الوطن، وكانت التحايا التي تبادلناها ودودةً بل كانت حميمة. أنخنا الرواحل بإشارة منه، وبعد أن قدّمت له ضاري وسلطان والأعضاء المهمين من مجموعتنا، قادنا دون مراسيم أخرى نحو الخيمة العظيمـة. عرفت سعد اليميني ضمن الحراس القـائمين بجوار باب الخيمة، وبدا عليه بعض الانزعاج عندما أصررت أن أتبادل مـعه كلمات قليلة للتحيّة، وأن أصافحـه قبل أن ندلف إلى داخل الخيمـة. كان السجاد يغطّى كل أرض الخـيمة، بينما وضعت أريكة مـن السجاد والوسائد بارتفاع قـدم، ووضع في وسطها سرج إبل مُزيّـن ليتكئ عليـه ابن سعود عنـدما دخلنا. وقف على قـدميه عنـد دخولي وضاري إلى جانبي وبقـية المجموعة من خلفنا، وتقـدم وحيّا كلاً منا بتحـية البدو

البسيطة، وبعدها اصطففنا حول جوانب الخيمة، مضيفي وأنا نتكئ على جانبي السرج، بينما جلس ضاري بجواره من الجانب الآخر. أديرت أكواب القهوة على الفور وبعد دقائق من حديث شكلي انسحب ضاري ورجاله بحجة الاستعداد لصلاة المغرب وتركونا، ابن سعود وأنا معاً حتى مغيب الشمس حين قام هو الآخر ليتخذ موقعه في صفي المصلين الطويلين، الذين تجمعوا لصلاة ليلة الجمعة[1] خارج الخيمة، بينما بقيت أنا انتظاراً لنصب خيمتي. أعقبت الصلاة كلمة طويلة ألقاها الإمام الذي كان يبلغني إيحاءاته - رغم أنني لم أتمكّن من سماع ما كان يقوله - التي يشجب فيها غير المؤمنين وأعمالهم الطالحة.

لم يعد ابن سعود بعد الصلاة، لكنني تلقيت زيارة من شخص صار فيما بعد أحد أقرب أصدقائي، وتصادف أن كان عضواً في الوفد الذي مثل وسط الجزيرة العربية عند زيارته لإنجلترا في الجزء الأخير من عام ١٩١٩م. كان هذا الرجل هو عبدالله القصيبي الذي قدّم إليّ شخصه قائلاً إنّه وكيل ابن سعود التجاري في البحرين، حيث أنشأ هو وإخوانه الأربعة شركة ناجحة للؤلؤ والتجارة العامة وأقاموا فروعاً لها في الهفوف وبومباي. كان ابن سعود قد ذهب للأحساء قبل بعض الوقت، هكذا أخبرني عبدالله، توقعاً لقدومي، ولكن منذ خمسة أيّام وبعد أن بلغه ما يفيد بأنني سلكت طريق الباطن أصدر أوامره لجماعته بالعودة الفورية إلى الشوكي حيث قدموا إليها قبل ساعات من وصولنا، وقد جدّوا في

---

(١) هو مساء الخميس بمنظورنا، إذ أن المسلمين يعتبرون بداية اليوم هي مغيب الشمس. في المدن تقام شعائر صلاة الجمعة في وقت صلاة الظهر، ولكن في الصحراء يقيمونها قبيل مغيب الشمس(*).

(*) قوله إن صلاة الجمعة تقام في الصحراء قبيل مغيب الشمس غير صحيح. (المراجعون).

المسير عبــر طريق جبل الجودي. رافق عبدالله رئيسه الذي كان يشــاركة في أعمال تجارّية كبيرة تستوجب النقاش واقتــرح عليه ابن سعود أن يرافقه للرياض ليبقى بها شهوراً قبل أن يعود إلى الساحل في طريقــه إلى بومباي. بعد قليل تمّ إعلامي بأن خيمــتي قد أعدّت وذهبت إليها للاستــحمام والأكل. وبعد تناول الطعام مــباشرة استدعــوني رغم الإرهاق لخيمة ابن سعــود حيث بقيت معه لمدّة ســاعتين كان هو يتحدث معظم الوقت، ثم عدت لمرقدي، كــان حديثنا ذا طابع عام، ولم نتعرض للموضوعات المهمة التي توسلت إليه أن يرجئها للغد، بعد أن أستعيد حيويتي.

استمرت إقامتي في الشوكي من أمسية اليوم الحادي عشر وحتى صباح اليوم السادس عشر من أبريل (نيسان). خمسة أيّام سعيدة من أيّام المخيّمات تفرغت فيها لإنجاز المهــمة التي أتيت من أجلها، وتمتــعت بقدر الوسع بالمناسبــات الاجتماعــية اللطيــفة التي اعــترضت طــريقي. لم يكن ضمن أولويــاتي التعــرف على الإقليم المجاور الذي كانت كلّ الإبل - بما في ذلك إبل مجموعة ضاري - ترعى فيه. وفي الحقيقة لم يكــن هناك حافز للتجوال في منطقة لا تختلف في سمــاتها العامّة عن المرتفعات التي قطعناها، وعن تلك التي تنــتظرنا أثناء رحلتنا المقبلة نحو الرياض. أقامت القوات السعودية خلال الجزء الأوّل من الربيع حول آبار حفر العتش الواقعة باتجاه الجنوب، ولكنهم انتقلوا لهذا الموقع بسبب إمكانيات الرعي الممتازة التي تنشأ في الجوار بعد أن تطرح السيول كميات وافرة من الماء تكفي لأن تعيش أعداد كهذه في منخفض الشــعيب. ولسبب مــا لا توجد آبار في هذه المنطقــة. ويعد كلٌّ هذا الإقليــم ابتــداءً مــن نقطةٍ تقع إلــى الجنوب من هذا المكــان، وحــتى خــط طريق مبيحيص، يعد (ديرة) أو مراعي قبيلتي ســبيع والسهول اللذين يحتفظان معاً بالحقّ في الرعي في منطقة شاسعة تمتدُّ من خط وادي حنيفة وتستمر شرقاً مروراً بالعرمة والدهناء حتى سهل الصمان في الخلف.

نصبت خيمتي الصغيرة التي تزن ٤٠ رطلاً -في الحمى الملكي كقزم بين عمالقة-، على بعد مناسب من خيمة الاستقبال كغرفة للاستحمام ولتناول الطعام. رغماً عن كلّ ما حدث في الطريق إلى جدّة فإن إبراهيم كان مسؤولاً أيضاً عن خدمتي وكان أحد المجموعة الصغيرة المكلفة بضيافتي. لذلك كان رفيقي الدائم منذ أن يُحضر لي الشاي والبسكويت في الصباح حتى الوقت الذي أعود فيه لأنام، كما كان موجوداً في كل الوجبات. أما سعد اليميني الذي كان مشغولاً بأعبائه ضمن الحاشية الخاصة بابن سعود فقد كان يزورني كلمّا استطاع ليدخن سراً في خيمتي. ونحن ثلاثتنا جاثمين في ساحتها الضيقة، وفي إحدى المرات جاء الرسول معلناً قدوم ابن سعود نفسه. ولم يجد إبراهيم ورفيقه من الوقت ما يمكنّهم من فعل شيء سوى أن يهرعا خارج الخيمة لتحية سيدهم وقد لاح أمام المدخل، ليدخل بعدها دون تكلف. كان من حسن الطالع أنّه قد أتى لاستشارتي في مثل هذه الساعة الغريبة حول أمرٍ بالغ الأهمية، ولم تكن زياراته لي في مقري، سواء كان ذلك في المعسكر أو في الرياض إلاّ نادرة الحدوث.. ورغم أني بَصُرت بعلب لفافات التبغ وعلب التبغ والغلايين وعلب أعواد الثقاب في كل ركن من الخيمة، إلا أنني عَزيت النفس بالانطباع الذي أخذته من أنه لم يربط بين وجود كل هذه الأشياء، إضافة للدخان الكثيف الذي ملأ جوانب الخيمة، لم يربط بين كل هذا وبين رفيقيَّ. وعلى كل حال لم يتطور الأمر بعدها.

بعد اكتمال رحلتنا إلى جدة، كانت لهذين الشخصين قصة عداء حزينة مع رفاق تلك الرحلة، أخبروني عن تفاصيل القصة عندما سألتُ عن بقية المجموعة. إذ أنهم ما أن لوحوا لي بأيديهم من الساحل مودِّعين حتى عادوا للشريف يستأذنونه في العودة عن طريق مكة، وكان من الطبيعي أن يستغل الشريف اقتراحهم بالسفر إلى مكة فطلب من إبراهيم أن يحمل إلى مكة مبلغ ٤٠٠٠ جنيه

إستـرليني كان يود إيصالها دون تأخـير، وفي نفس الوقت أعطاه مبلغ ٦٢ جنيـهاً أخرى هبة ليـوزعها بين أعضاء الفـرقة التي صاحبتني في رحـلتي. وفور بلوغهم مكة تم توزيع الهبة، ولكن بدأ بعض زملائهم يتهامسون بالاتهام قائلين إن إبراهيم وسعداً لم يوزعا المبلغ بعدل بينهم بل استأثرا بالجزء الأكبر منه. قد يكون صحيحاً أن الرجلين أثارا الشكوك حـولهما بمظاهـر العظمة وحيـاة البذخ التي عـاشاها في المدينة المقدسة، ولكن بغض النـظر عن صحة الاتهامات أو بطلانها، فـإن مؤامرة حيكت ضدهما برئـاسة زميع وبدر أبو سبعة وشايع، واسـتُكملت حلقات المؤامرة بإرسال خطابـات سريّة لابن سعـود من مكة، ومرة ثانيـة من القويعـية في رحلة العودة، وقدمت فيهما تهم صـريحة للقائدين بتبذير المال الذي كان ينبغي أن يوزع بالتساوي على الجـميع. عندما بلغت ابن سعود هذه الرسـائل، الذي أخبرني عن هذه الرواية أيضـاً من وجهـة نظره، قرر أن يفـرض أقصى عقـوبة يقرّهـا الشرع والعرف على الأوغـاد الذين خانوا ثقته، كـان سيتم استـدعاؤهما عند وصولـهما على رؤوس الأشهاد بعد صلاة العصر فـيجزوا منهما الشوارب واللحى والحواجب ثم يجلدوهما أو يعدموهما، ولكن لحسن الطالع كان لدى ابن سعود بعض الوقت للتفكيـر قبل وصـول المتهمين وقـرر أن يعطيهمـا الفرصة لـتبرئة سـاحتهـما. لم تواجههما صعوبة في دفع تهمة الاختلاس، بينما أخفق زميع وزملاؤه المتآمرون في إبراز ما يؤيد ادعاءهم بحـياة التحلل التي عاشها المتهـمان أو حتى إبراز دليل على تهمـة التدخين. ودارت الدائرة على المدّعين الذيـن لقنوا درساً قاسـياً ليـعلموا أن إضاعـة وقت ابن سعـود كان خطأ فادحـاً. لقد تم تجـريدهم من أسلحتـهم أمام الجميع ونُفـوا من البلاد وهو الحكم الذي امتثل له بدر وشايع بالانسـحاب للحاق بأهلهم البدو، بينما لجأ [1] زميع إلى مسكن ابن سعـود الخاص بالقصر. وهكذا

(١) "دخيل البيت"، كما عبّر عنها ابن سعود، أي لجأ إلى حِمَى منزلي. (المؤلف).

فإنه لم ينجُ من حكم النفي فحسب، ولكنه عاش عدداً من الشهور في ضيافة القاضي الذي حكم عليه، حتى نال العفو نتيجةً لما أبداه من ورع وتقوى وانقطاع للعبادة، وبعدها سمح له بالرجوع إلى موقعه كحارس شخصي. لم أقابله سوى مرة واحدة، وعندها مرّ من الجانب الآخر دون كلمة أو إشارة تنبئ بتعرفه عليّ، ولم أرَ الرجلين الآخرين بعدها أبداً. وحدثني إبراهيم وسعد وهما يرتجفان كيف أنهما نجيا بالكاد من العدالة، لقد كانا مدانين دون أدنى شك، ولقد استمعت ـ وعلى شفتيّ ابتسامة كالحة ـ لابن سعود وهو يبرئ ساحتيهما أمامي من كل التهم الموجهة عليهما، ولكن لم يكن من شأني أن أتدخل في مجرى عدالة العرب، بينما لم أتعاطف مع زميع وزملائه فيما حدث رغماً عن المشاعر الطيبة التي ربطتني بهم أثناء الرحلة التي قمنا بها معاً. وسمعت أيضاً في هذه المناسبة عن لجوء آخر لحميً، كنت أنا أيضاً سبباً غير مباشر فيه. لقد ذكرت من قبل كيف أن زميع كان قد أُجبر لمرافقتي للحجاز رغماً عن اعتراضه القوي، لكنني سمعت الآن للمرة الأولى أن شخصاً آخر من «الإخوان» وكان اسمه ابن حوير رفض صراحة الامتثال لأمرٍ مشابه ثم فرّ إلى الأحساء حيث احتمى بعبدالله بن جلوي وبقي في حماه متمتعاً بحصانة كاملة رغم أن ابن سعود هدد بقتله دون رحمة إن تم القبض عليه بعيداً عن الحمى. وعند زيارة الزعيم الأخيرة للأحساء تشفَّع عبدالله للضيف الذي قدم إليه دون دعوة، ولم يملك ابن سعود في هذه الحالة إلا أن يعفو عنه عفواً غير مشروط، ولكنه استغل الفرصة فأدلى بتصريح رائع عن موقفه الشخصي: «انظر أيها الوغد» هكذا قال مخاطباً الآثم المعفي عنه، «كيف تعامل الصحراء الإنجليز هكذا، اذهب لقد أنقذتك شفاعة ابن جلوي من الموت».

كان الطقس في هذه الأيام بالغ الغرابة، كانت درجة الحرارة لطيفة في المدى بين متوسط يبلغ حوالي ٦٩ درجة فهرنهايت في الساعة السابعة صباحاً، ومتوسط

للحرارة القصوى يبلغ ٩٣ْ بعد الظهيرة، ثم تعود لمتوسط ٦٧ْ في حوالي الساعة الحادية عشر ليلاً. وسجلت درجة حرارة تتعدى ١٠٠ْ بقليل في مناسبة واحدة فقط؛ وكانت أدنى درجة سجلتها هي ٦٥ْ، رغم أنه من المحتمل أنها كانت تهبط لمستوى أقل في الساعات الأولى من الصباح عندما أكون نائماً. ولكن رغم أن درجات الحرارة كانت على نفس النسق طوال الوقت، إلا أن الرياح كانت تتأرجح من حال إلى حال بصورة مثيرة للاندهاش. وكانت السماء الصافية تُغطى فجأة بالسحب الرعدية، والنسمات الهادئة تتحول إلى عواصف على نحو مفاجئ وبصورة محيّرة. في إحدى المناسبات عُدت إلى خيمتى بعد اجتماع مع ابن سعود وما أن سحبت مصراعي مدخل خيمتي حتى هبّت عاصفة شديدة، وجاست خلال المعسكر، وسحبت الرمال لمدّة نصف الساعة مخلّفة طبقة رمال سميكة فوق فراشي وفوق كل شيء في خيمتي، ثم بدأت العاصفة في الانقشاع هرباً من قطرات ديمة بدأت في النزول، ليصفو بعدها الجوُّ. وفي مناسبة ثانية لم يكن حظي كسابقه، إذ كنت مستغرقاً في قراءة كتاب عندما سمعت دمدمة كنذير شؤم بقدوم عاصفة وشيكة، ونهضت في عجلة لأرخي مصراعي الخيمة، ولكن ما أن أمسكت بهما حتى هبّت العاصفة بكل عنفوانها، ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً سوى أن أمسك بهما بكل قوتي في مواجهة عاصفة شديدة ملأت فمي وأذني وشعري وملابسي وكل شيء بالخيمة بالرمال، وحطّمت مقياس الحرارة ـ وكنت لحسن الطالع أملك واحداً آخر ـ على العمود الذي كنت أعلقه عليه، وبينما كانت يداي مشغولتان راقبت الكارثة تحدث دون أن أملك لها دفعاً. وكان من حسن الطالع أيضاً أن الأشياء القابلة للتبخر كانت تحت أشياء لم تتمكن الريح من إزاحتها. ولكن عندما انقشعت الغُمّة كانت خيمتي من الداخل تبدو في مظهر بائس، حيث غطت طبقة

كثيفة من الرمال الحمراء الناعمة كل شيء؛ ورغم هذا هنأت نفسي أنّ خيمتي الصغيرة كانت إحدى الخيام القليلة التي بقيت منتصبة في وجه العاصفة حتى النهاية بينما كان المعسكر ركاماً مبعثراً من الخيام الساقطة. سرّني صمود خيمتي إذ أن أحدهم ـ لَعَلَّهُ إبراهيم أو زائر آخر ـ اضطلع بمسؤولية انتقاء الحجم الصغير لخيمتي، ولقد كنت الآن في موقف أتمكن فيه من ذكر إحدى المحاسن التي تتفوق بها على نظيراتها الفسيحات، لم تهطل إلا أمطار قليلة في الشوكي نفسها رغم أن مرتفعات أخرى ليست ببعيدة كان يبدو أنها تأخذ حظاً وافراً من الأمطار استنتاجاً من السحب التي كانت تسوقها الرياح نحوها كل يوم تقريباً من اتجاه الجنوب الغربي. لقد كنا بعيدين بعض الشيء عن الخط المباشر لهذه السحب.

كان من بين زواري الدائمين أثناء هذه الفترة عبدالله القصيبي وإبراهيم الجنيفي[1]، وكان الأخير من سكرتيري ابن سعود الأساسيين، وهو سليل بني تميم، وله إلمامٌ سطحي بالمعارف الغربية. لا أدري من أين اكتسبها، وهذا ما جعله شخصاً جديراً بالاهتمام والتأمل رغماً عن أنه لم يكن مبرأ من العيوب. في بداية تعارفنا اعترض على ملابسي على زعم أنها ليست مبهرجة بالقدر الكافي، حتى أنه عرض عليّ سدّ هذه الثغرة في مظهري من خزانة ملابسه الخاصة، وهو الاقتراح الذي رفضته بحجة أن لا وقت لي أضيعه في مثل هذه الشؤون. وفي الحقيقة لقد أوليت هذا الأمر كثيراً من التفكير بعدها وقررت أن أتخذ موقعاً وسطاً بين بساطة الطبقة العليا من البدو وأناقة الموالي والتابعين في البيت الملكي، وكانت النتيجة أني كنت ألبس ملابس تحتية بيضاء ومعطفاً بسيطاً وعباءة سوداء أو بنيّة

(١) هو إبراهيم بن محمد بن معمر، لقب بالجنيفي لولادته في قرية الجنيفي بسدير، توفي سنة ١٣٧٨هـ. (المراجعون).

اللون وشماغاً أحمر بالنهار، وغترة بيضاء في الأمسيات، وعصابة للرأس من النوع البسيط أهداني إياها ابن سعود نفسه.

كان هذان الاثنان ومعهما إبراهيم وابن عم له يدعى حموداً وضيدان أو أحد أفراد جماعة ضاري هم الذين يرافقونني في وجبات الطعام، التي كانت بسيطة، إذ لم تكن أكثر من لحم ضأن وأرز وخبز، رغم التغيير من وقت لآخر بحلوى يتمّ إعدادها من اللبن والشُّعَيْرية أو قطع الكيك الصغيرة؛ وفي إحدى المرات أتوا بطبق من القريْدس المجفف وهو الذي يسمونه "رُبيان" ويأتون به من ساحل الأحساء. بالطبع كان حليب الإبل واللبن موجود بوفرة، وكان الطبّاخون الملكيون يجيدون إعداد الحساء. إضافة لهذه الأشياء كان ابن سعود قد أحضر من الهند كميات من أنواع البسكويت المختلفة، ولكن كان يؤتى بها إليّ فقط مع شاي الصباح وشاي بعد الظهيرة، وكان إبراهيم وسعد يحبانه كثيراً. كانت أسعار كل الواردات قد ارتفعت أثناء الحرب بصورة كبيرة؛ بسبب السعر العالي الذي يطلبونه في بومباي، ولكن السبب الأساسي كان زيادة قيمة الترحيل بالإبل داخل الجزيرة العربية، وعلى سبيل المثال أمر ابن سعود أثناء هذه الفترة باستيراد ١٠٠٠ جوالٍ من الأرز بتكلفة قدرها ١٨ دولاراً للجوال (سعة ماوند بصري واحد وربع)، بينما كانت تكلفة ترحيل الجوال تبلغ خمسة عشر دولاراً للقصيم، أي بتكلفة كلية للجوال قدرها ثلاثة وثلاثون دولاراً وهي تعادل ٧٨ روبية. يصبح ابن سعود في المعسكر وفي الميدان مسؤولاً عن إعاشة كل قواته بتوفير كل ضروريات الحياة، التمر والدقيق والأرز. وفي الرياض يفوق العدد الذي يُعنى القصر بإعاشتهم كل يوم، عندما يكون هو موجوداً بالقصر، ألفاً من الأنفس، وفي غيابه لا يقل عن ثلثي ذلك العدد. ليس هناك من شك في أن إعاشة من يقيمون في داره إضافة لجنوده وضيوفه تشكل الجزء الأعظم من منصرفاته العادية.

كان ابن سعود في حديثه معي يتناول الأحوال المالية، قال لي: «هناك ثلاثة مصادر تغذي الخزينة في الرياض. أولاً هناك الزكاة على الضأن والإبل ومقدارها شاة واحدة أو خمسة دولارات على كل أربعين شاة مكتملة النمو، ومِعزَاة واحدة أو خمسة دولارات على كل خمسة من الإبل مكتملي النمو، وهكذا، فإن من يمتلك ٧٠ من الضأن أو ثمانية من الإبل يدفع نفس القيمة (٥ دولارات) تماماً كمن يملك الحد الأدنى الموجب للزكاة، ولا يدفع من يملك ثلاثين من الضأن شيئاً. وكذلك يدفع من يملك عشرة أو أربعة عشر من الإبل القيمة نفسها. وهذا المصدر أفضل من طريقة الضرائب المجحفة[1] هذه حوالي ٢٠,٠٠٠ دولار في العام. ثم هناك زكاة الأرض وهي خُمس أو عُشر المحصولات الرئيسة وهي التمر والحبوب، من الأراضي التي تسقى بمؤنة أو بدون مؤنة، على التوالي. وتبلغ عائدات هذه الزكاة في الأحساء والقطيف فقط حوالي ١٩٠,٠٠٠ دولار في العام، وأقل من هذه القيمة بكثير في بقية المناطق (ولم يُعطني أرقاماً محددة لها)، وأخيراً هناك الرسوم الجمركية التي تبلغ ثمناً في المئة ($\frac{١}{٨}$ ٪) في موانئ الأحساء، من قيمة البضائع الواردة. وبلغت قيمتها في العام الماضي ٤٦٠,٠٠٠ ريال حيث كانت التجارة مقيَّدة. وتبلغ جملة هذه الموارد[2] ٧٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في العام». وفي تقديري أن الدخل الحقيقي لابن سعود قد يبلغ ١٠٠,٠٠٠ من الجنيهات الإسترلينية في العام، وقد يزيد عن ذلك. «ولكن حتى وقت قريب كانت لدي الفرصة لأزيد مصادري، ولكن الله قد بارك بلادي منعماً عليها بالسلام».

---

(١) زكاة بهيمة الأنعام معروفة في الشريعة الإسلامية وهي التي يتبعها ابن سعود، ولا تُخرج نقداً بل عيناً، لأن الزكاة تؤخذ من الأغنياء وتدفع للفقراء، ففيها تكافل اجتماعي فريد، وهو ما يشير إليه جلالته، معرضاً بطريقة الضرائب المتبعة عند بعض الحكومات الغربية. (المراجعون).

(٢) بحساب أنّ ٦دولارات أو ١٥ روبية تعادل جنيهاً إسترلينياً واحداً (بأسعار هذه الأيام). (المؤلف).

سألته إن كان يفرض ضريبة عبور للحجاج المسافرين عبر أراضيه إلى مكة، وكان ردّه: «إن شرعنا يحرم علينا أخذ أي شيء من المسلمين الذاهبين إلى مكة، وهو الأمر الذي يفعله ابن رشيد والشريف، لكني لا أحصل على شيء من هذا المصدر. بينما يدفع المسلمون الحقيقيون فقط التكاليف المتصلة بالرحلة».

كثيراً ما كان منطق ابن سعود رغم ما يغلفه به من فصاحة وبلاغة بسيطاً، يخاطب العاطفة بوضوح، ولكن لا يعني هذا أنه كان خالياً من الفطنة السياسية والمزايا التي تصنع قادة الرجال. كان الأمر على العكس تماماً، ورغم أنه كان يشكو بسبب وبغير سبب من ردّة فعل وخطايا جيرانه المسلمين، لكنه كان حريصاً أشد الحرص على التسامح الحكيم إزاء ما يفعله الوضيعون من جماعته؛ وتاريخ الأحساء والقصيم تحت حكمه شاهد حيّ على حكمته السياسية. قال لي، وهو بالطبع يعني الفهم السلفي للعقيدة الإسلامية: «إن العقيدة تتقدم بخطى ثابتة في الأحساء، ولكنني لا أستعمل أسلوب القهر هناك، أتركهم شيعةً وسنة ليؤدوا عباداتهم كيفما يرون، كل في مساجده شريطة ألا يستعرضوا مفاخرهم وعاداتهم. سيصبحون بالتدرج، وبمرور الوقت مثلنا». لم يقل لي أن التدخين يُسمح به هناك رغم أنه لا يُشجَّع، وحتى أن البيع غير المعلن للتبغ كان يغُض الطرف عنه في الإقليمين، فصارت النتيجة ـ في اعتقادي ـ أن استخدام التبغ في المكانين قد أصبح أقل شيوعاً مما كان لسنوات خلت.

رغم أن ابن سعود كان عظيم الإيمان بأن عقيدته لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ورغم أنه لم يكن يساوم في تنفيذ تعاليمها الأخلاقية المتشددة، إلا أنه كان ينظر لشؤون الدنيا نظرات بعيدة، برؤية لا تشوبها شائبة. وكانت نزعته في تغليب الحلول الواقعية للنقاط مثار الخلاف، حتى صارت الدوافع السياسية تسهم في صياغة هذه الحلول ـ سواء كان ذلك في المبادئ أو التطبيق ـ قد

جعلتني أتساءل ما إذا كـانت سياسته الداخلية تستند على معتـقداته الدينية بدرجة أقل من اعتمـادها على طموحاته السياسيـة وعلى رغبته في تجميع القـوى البشرية المتنافرة في الجزيرة العربيـة ليقيم إمبراطورية عظيمة لنفسه ولـسلالته من بعده. بيد أن الملابسات التي صاحبت تاريخه تعطي إجـابة مقنعة للغز، إذ لا ينبغي أن ننسى أنه قضى كل فترة طفولته وصباه في جو مـستنير نسبياً، في موانئ الخليج العربي، وخاصة بـالكويت في العهد الخيـر لمبارك ـ وهو جوٌ لم يكن ليتـرك طفلاً دون أن يُشربه بحب عـميق للسيـاسة من حيث هي سيـاسة ـ ومن ناحيـة أخرى لم يكن والده يسمح له بـأن ينسى أنه كان بلا وطن وأنه كان في المنـفى، وأنه ما دام على هذا الحال فإن إرث أجداده ومساجد الله ستبقى في أيدي غير الأتقياء.

حينها كان عبدالرحمن في منتصف العمر، وهو الذي وُلدَ وترعرع في الجوّ الديني الملتزم في بلاط فـيصل، فاختـار المنفى على أن يصيبـه خزي تمزيق الدولة السعودية، وحمل معه إلى المنفى التمسك الديني الذي كان يدفئ شبابه والذي كان يأمل في استـغـلاله لإطلاق طموحـات ابنه. كان في المنفى أيضـاً أن خَصَّ الأب والابن الإمبراطورية البـريطانية بمشاعر الصداقـة التي نمت سريعاً نحو علاقـة أكثر وداً، وفي النهاية، وعندما أُزيلت كل العـوائق باندلاع الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا ـ تحولت الصداقة إلى تحـالف ـ لابد لنا أن نبحث عن أصول هذا التحالف ونتتبعـها من خلال حادثةٍ غامضة حدثت في الـثمانينات من القرن الماضي، وذلك في معركة جودة التي أبعدت الأسرة السعودية الحاكـمة عن عرشها نحو المنفى لتنقيتها من الشوائب من خلال البلايا التي واجهتها، ولتسعى سعيها لاستعادة حقوقها بواسطة فرع أكثر شـباباً وحيوية. ولولا حسن الحظ الذي وثّق صلة جبل شـمر بحدود نجد، لخلف عبـدالله بن فيصل ـ لو سـارت الأمور بطريقة عـادية ـ أبناء أخيه سـعود، ولما

ذهب عبدالرحمن وأبناؤه الواعدون للمنفى لتنضج هناك رؤيتهم السياسية، وتتسع دائرة تعاطفهم مع الآخرين، وهو ما يسود الآن مهيمناً على توجهات نجد[1].

وكان الاحتمال الأكبر أن تحذو الرياض حذو حائل لتُلقي بثقلها خلف تركيا عند اندلاع الحرب العظمى. كان احتلال الأتراك للأحساء سيكون مستمراً على أي حال، وكان هناك احتمال أن تكون القصيم أيضاً تحت قبضتهم لتهدِّد جنبنا في بلاد ما بين الرافدين، وما كان ليعظم لدى السعوديين ـ تحت رعاية أي نظام آخر ـ بغضٌ عنيد لجيرانهم المسلمين، وهو ـ وفقاً لتقديري ـ أعظم مميزاتهم[2].

لم يكن ابن سعود ليملَّ المتابعة اللصيقة لكل تفاصيل تنظيمه، ولقد قام مؤخراً ـ من أجل الدعاية الداخلية[3] ـ بتكبد المشاق والتكلفة للإعداد لطباعة كتاب يحتوي على مسح شامل للتاريخ السلفي، وهو ما يقوم به ابن غنّام كما يقوم بطباعة عدد من أمهات الكتب الدينية، بما في ذلك الرسالة الأصلية لمحمد بن عبدالوهاب نفسه[4]. لقد سبّبت مشاغله الكثيرة في اتجاهات أخرى، والعقبات التي يصفها الناشرون في بومباي تأخيراً مؤقتاً لمسيرة توعية الجماهير التي يضطلع

(١) التنبؤات والاحتمالات التي وضعها المؤلف هنا غير دقيقة وكان بالإمكان حدوث أحداث كثيرة من خارج جبل شمر حسب الظروف التي تتهيأ لتلك الأحداث. (المراجعون).

(٢) المعروف أن الملك عبدالعزيز لم يكن له هذا العداء مع العثمانيين أو غيرهم، وإنما كان هدفه إعادة تأسيس الدولة السعودية، ونشر الدعوة السلفية. إذا أخذنا في الحسبان موقفه من بقايا جيش العثمانيين في الأحساء وكيف تعامل معهم وفقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية في التعامل مع المهزوم. (المراجعون).

(٣) ليست طباعة الكتب عند الملك عبدالعزيز دعاية داخلية وإنما هي منهج الهدف منه نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة. (المراجعون).

(٤) نشر الملك عبدالعزيز عدداً كبيراً من كتب ورسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ومن أشهرها كتاب (التوحيد) وكتاب (كشف الشبهات)، ثم كتاب (الأصول الثلاثة)، ومجموع خطبه وغيرها، ولعل ما عناه المؤلف بالرسالة الأصلية هو كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد والمشهور بكتاب التوحيد اختصاراً. (المراجعون).

بها ابن سعود بعونٍ من تنظيماته. كانت السلالة المباشرة لمؤسس الدعوة السلفية ـ التي كان من سياسات ابن سعود المهمة أن يرتبط بها هو وسلالته الملكية بعلاقات زواج[1] ـ قد كوّنت هيئة رسمية معترفاً بها، رئاستها بالرياض. ولها مهام دينية، وهي من ناحية عملية مستقلة عن كل سلطة.

وكانت الإدارة الدينية بيد هيئة من "العلماء" تتكون من ستة أفراد مقيمين بالرياض، وثلاثة بكل من الأحساء والقصيم، وواحد بكل إقليم آخر، وعددهم الكلي حوالي عشرين أو أكثر. وكانت هيئة العلماء هذه تخضع للتوجيهات العامة لتلك الهيئة، إضافة لدورهم الإداري، فإن هيئة العلماء مسؤولة عن تطبيق أحكام الشرع، وتسري قراراتهم على الأمراء المحليين الذين لا يفعلون شيئاً سوى التوقيع على هذه القرارات وتنفيذها. وفي القضايا الكبيرة المهمة ليس هناك بدٌّ من موافقة السلطات العليا، وهم العلماء الموجودون بالرياض وابن سعود نفسه. ومن مسؤولياتهم أيضاً تدريب وتوجيه "المطوّعين" الذين لا يتمتعون بدور إداري أو قضائي، ولكنهم مؤتمنون على الأوامر الدينية للبدو، ويتوزعون بينهم بنسبة تقريبية تبلغ واحداً لكل خمسين رجلاً. ويأتي تحت هؤلاء جماعة التلاميذ لإصدار الأوامر وهم يعملون بتوجيهات المطوعين ويطمحون للانضمام لصفوفهم ليحصلوا على نصيب وافر من أجر العمل في سبيل الله.

باستخدام المعايير الدينية نجد أن عامة الشعب يقعون في ثلاث فئات: الحضر، أو جماعة المدن، الذين يعتنقون المبادئ السلفية كمنهج للحياة، إذ أنهم وُلدوا ونشأوا على تعاليمها، والبدو وهم غالبية الناس، وهم ذوو توجه ديني اكتسبوه بالتعامل مع جيرانهم رغم أن ممارساتهم لا تتفق تماماً والعقيدة الصحيحة،

---

(١) على سبيل المثال فإن فيصل الابن الناشئ لابن سعود، الذي زار إنجلترا في عام ١٩١٩، أنجبه ابن سعود من ابنة الشيخ عبدالله، الزعيم الحالي للعائلة السلفية. (المؤلف).

وأخيراً "الإخوان" وهي جماعة وُلدت أخيراً، وهي من جهود ابن سعود التي تبلورت لديه قبل عشر سنوات فكرة توجيه فائض الطاقة الكامنة لدى البدو من خلال قنوات تكون في خدمة الشكل الذي اقترحه لتأسيس دولة قوية متجانسة على أساس من الدين والقوة العسكرية(١). بانقضاء العقد الأول من حكمه، ومع بداية القرن الحالي وجد نفسه الحاكم المعترف به لبلاد شاسعة، عانى كل جزء منها كثيراً أثناء فترة طويلة من الحروب والمشاحنات الداخلية؛ وفي الوقت نفسه قام بإجراء دراسة متأنية وحريصة للتاريخ بتلك البلاد والأقاليم عَسى أن يستلهم منها دروساً وعبراً تهديه إلى سواء السبيل. كان هناك حدثان لم يغب عنه مغزاهما؛ في الأيام الأولى للحركة السلفية، أي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان جدَه سعود الكبير قد بنى دولة قوية بوحي من إلهام وبدافعٍ ديني قوي. ولكن تلك الدولة شُيدت على رمال الصحراء المتحركة، لتجميع عناصر البدو المتنافرة، وكان الأمر يستدعي انتباهاً دائماً من المهندس المعماري ليحتفظ بهذه العناصر مجتمعة. عندما لحق سعود بأبيه، تفتت عرشه سريعاً لأجزاء صغيرة من جرّاء مكايد إبراهيم باشا الذي عرف تماماً كيف يستغل التنافس بين المجتمعات القبلية التي كان يجمعها حتى ذلك الوقت حلف غير طبيعي، إذ لا يبقيها معاً سوى الخوف من الله. ومنذ عهد قريب حقق محمد بن رشيد، أعظم أمراء جبل شمّر موقعاً في الجزيرة العربية يضاهي ذلك الذي حققه سعود في أزمان قديمة(٢)، وذلك بفضل مناورات بارعة وماهرة لقبيلة واحدة وقوية ومتحدة وتجذبها عاطفة قوية ومصالح مشتركة حول مدينة حائل في جبل شمّر. وتراجعت حدود إمارة

---

(١) الهدف من تأسيس الهجر هو توطين البادية وإلغاء حالة اللااستقرار وأساليب النهب والغزو القديمة وتطوير المجتمع السعودي بشقيه البدوي والحضري. (المراجعون).

(٢) هذه عبارة غير دقيقة، لأن محمد بن رشيد لم يحكم سوى بلاد نجد. وكانت الدولة السعودية الأولى في عهد الإمام سعود تحكم أغلب مناطق شبه الجزيرة العربية. (المراجعون).

محمد لمواقعها القديمة إزاء البِلَى والتفتت الذي أخذ مجراه الطبيعي. فشل سعود لأن ولاء مواطنيه أحبطه عدم وجود جيش نظامي، وفشل محمد بن رشيد لأن جيشه المنظم كان يفتقر للحافز الذي يجرّه للقتال. ومن فشل هذا وذاك استمد ابن سعود سر النجاح، وتقدم بشجاعة يتميز بها، وبسرعة أخضع نظرياته للاختبار والتجربة العملية بأن وضع في الأرطاوية ـ وكان موقع سقيا لا أهمية له يقع في طريق الكويت ـ القصيم ـ وضع حجر الزاوية لجماعة جديدة باسم "الأخوان" والتي تمكنت خلال مسيرة عقد واحد من الزمان من إصلاح صفات المجتمع البدوي، وسببت تغيراً عارماً في كل الجزيرة العربية.

حركة الأخوان ليست سوى بعث للدعوة السلفية في صورة مكثفة، وهي ليست نتاجاً للصدفة ولكنها شكل تمت دراسته باستفاضة، وأغراضها المتصورة لا تقل عن علاج مثالب العنصر العربي، وإيقاف عملية البِلى المتسارعة قبل فوات الأوان، من أجل البناء على أنقاض النجاح السابق شكلاً أكثر متانةً وأقدر على الاستمرار من الشكل القديم. وكما قدّم التاريخ التنظيمات الهندسية للنظام الجديد، فإن التاريخ أيضاً هو الذي سيحكم في الوقت المناسب على الفضل الذي ينسب لابن سعود والنجاح الذي يتحقق على يديه. ولكن يمكن لمعاصريه استقراء حكم التاريخ الذي لم يصدر بعد لدرجة تهنئته على سرعة جني ثمار تجربة بهذه الجرأة والجدّة؛ ويمكنهم أن يتوقعوا تحقيق الهدف الذي وهب نفسه لتحقيقه ـ إن أمهله القدر ليعيش في حدود العمر الطبيعي للبشر. لقد وجد بلاده ممزقة بالحروب والتشاحن المدني، وفي خلال عشر سنوات أسّس أكثر من عشرين[1] من الهجر

(١) بعض هذه الهجر هي الأرطاوية والغطغط ـ ودخنه ـ والداهنة ـ ومبايض ـ والفروثي ـ وساجر ـ والضبيعة ـ والسُلَح – ورويغب ـ وصباح ـ وخف ـ والرين ـ ونفي. (المؤلف).

لإصلاح الضرر، ولا يمض عامٌ إلاّ وتزيد أعدادها. لقد استعاد منذ زمان إرث أجداده بمعاونة مجموعةٍ صغيرة من المغامرين، أمّا الهجر الجديدة فليست سوى معسكرات كبيرة لجيشة الذي يبلغ ٣٠,٠٠٠ رجل أو أكثر. كل طفل يولد هناك هو مجنّد في قواته منذ اليوم الذي يولد فيه.

لقد وجد البدو بلا مأوى وفقراء وبلا دين تلاحقهم الأعراف القبلية التي جعلت الاتفاق والتوحيد يبدو مستحيلاً، فصارت المنازعات أمراً لا فكاك منه. أمّا في الهجر الجديدة، فلقد استقروا في الأرض، يخافون الله ويتطلعون إلى جنّته من أعماقهم، يستبدلون بالأخوة الناتجة عن الرحم إخاء في العقيدة المشتركة، وهكذا وحّدَ عن طريق الولاء له ـ بوصفه خليفةً لله في الأرض ـ وحّد عناصر ما كان لها أن تلتحم. وفي الوقت نفسه منع الحرب على الطريقة القبلية: الإغارة ورد الإغارة، في حدود بلاده، ولقد أحسّت كثير من القبائل وقع يده الثقيلة الباطشة عندما حاولت المروق على نظامه، ساد السلام حيث لم يَسُدْ من قبل، ولكن تتعرض البلاد السعودية في الحدود فقط لمضايقات ومناوشات خارجية.

إضافة لهِجر الإخوان التي نظمها ابن سعود بهذه الطريقة فإنه وضع في طبقة الإخوان نفسها من ناحية عملية كل قبيلة سبيع وقبيلة الدواسر، والجزء النجدي من قبيلة قحطان، وجزءاً كبيراً من قبائل عتيبة وحرب ومطير، بخلاف الذين تم استيعابهم الأخوان ويحتفظون في ذات الوقت، لدرجة كبيرة، بتنظيمهم القبلي، ويمكن فقط اعتبارهم قوات غير نظامية ليست مستعدة طوال الوقت، وليست معرضة للاستدعاء، ولا يمكن الاعتماد عليها دائماً، بينما تلتزم المدن والقرى بالإسهام في العمليات العسكرية بأعداد محددّة يتم تقديرها وفقاً لتعداد القرى المعنية ولأهمية المناسبة. ولكن الاستنفار الكامل الذي تكون فيه مثل هذه المجتمعات مسؤولةً، لا يحدث إلاّ في الخطر و"الغزو العام" حيث تستقطب كلّ

القوى للوقوف في وجه الخطر المحدق، بينما يستدعى نصف العدد أو أقل من نصفه في حالة" الغزو الخاص"، أمّا في "الغزو المحلي" الذي يحدث لأسباب أقلّ شأناً، يُستدعى الرجال من الإقليم المحيط بمنطقة العمليات فقط.

كان عنصر الحضر- قبل فكرة تنظيمات الأخوان - يعد طوال الوقت العمود الفقري للجيش، وكان مقاتلو العارض هم الصفوة بين الحضر، لكن ابن سعود لجأ أخيراً للاعتماد بدرجة أكبر على قوات الأخوان، وهي تسير دائماً تحت الراية الملكية، ورغم أن الزمن هو الذي سيوضّح ما إذا كانت التجربة ناجحة[١]، وقد أعطت نتائج ناجحة جداً في الحملتين الأخيرتين المهمتين حيث تمت الحملة الأولى منهما: الحملة ضد ابن رشيد في خريف عام ١٩١٨م، والأخرى ضد الشريف، والتي انتهت بانتصار كبير في موقعة تربة في شهر مايو ١٩١٩م. هذه التنظيمات، إضافة لحرس ابن سعود الشخصي المكوّن من عناصر مختلفة، هي قوام الجيش السعودي، أو قوم[٢] السعوديين، كما تُسمّى عندما تستدعى للعمليات.

تتخذ الأفكار السلفية شكلاً بسيطاً يتّصل بجوهر العقيدة الإسلامية اتصالاً لا مساومة فيه، وهي متمسكة بأصول الإسلام وتنتقد المفاهيم الدينية الأخرى التي أضافت وغطّت على التعاليم الإسلامية البسيطة وأوامر النبي (ﷺ) الأخلاقية، بقدر ضخم مكتوب من التأويلات والتفسيرات التي أضلّت جموع المسلمين وقادتهم إلى مسارات البدع والخرافات. تعتمد الدعوة السلفية في الأساس على القرآن، وبكتب الأحاديث الستة، وعلى رأسها كتابيْ مسلم والبخاري، وتعتمد على اثنين من كتب التفسير. هذه الكتب، ويُضاف إليها الملخَّصات الموجزة أو

(١) قال المؤلف هذا الكلام عند تأليف الكتاب في بداية مشروع الهجر، لكن الواقع والتاريخ يشهدان بنجاح هذا المشروع. (المراجعون).

(٢) هذه الكلمة تحريف لكلمة قوم بمعنى قبيلة، ويستعملها العرب فقط لتعني جسماً عسكرياً (قبلياً أو غير قبلي)، في حالة الحرب. (المؤلف).

رسائل محمد بن عبدالوهاب، هي التي تشكل المكتبة التي يرجع لها الإخوان، يبحثون فيها عن المبادئ الهادية لهم في مسيرة حياتهم.

لم يكن الدين إلاّ واحداً من مواضيع كثيرة كنّا نناقشها في هذه الأيّام في خيمة الاجتماعات متكئين على سرج الإبل، جالسين على السجاد والوسائد ونحن ننظر من وراء المخيمً نحو الصحراء غير النهائية، حيث كانت الأروقة الجانبية للخيمة تُطوى إلى الخلف طوال الوقت في الجانب الذي لا يواجه الشمس حتى يتمكّن الملك من الاستمتاع بنسمات الصحراء الباردة. وكان في هذه الحالات يحتفظ طوال الوقت بمنظاره المكبّر إلى جانبه، وكان كثيراً ما يقطع الحديث فجأة لينظر من خلاله متطلعاً نحو الأفق، أو يزيحه ليتفحّص قادمين جدد، إذ كان المعسكر في هذه الأيام يعجّ بالكثير من الزوار القادمين والذاهبين من مناطق بعيدة وأخرى قريبة.

بادرني ذات مرة بالسؤال: «هل صحيح أن البريطانيين واجهوا بعض المصاعب مؤخراً في فلسطين؟» وكانت إجابتي: «كلاًّ، إلا إذا حدث هذا في الأسبوعين الأخيرين، بعد أن غادرتُ البصرة، إذ كنت قد زرت القدس بنفسي قبل حوالي شهرين ونصف، ومنذ ذلك الوقت احتلّت قواتنا أريحا، وعبرت نهر الأردن». وكان ردُّه هذا جيد، إذ أنَّ الشائعة التي سمعتها كانت تشير إلى أن الذي حدث كان قبل أكثر من ثلاثة أشهر خلت؛ بيد أنّه من المستحسن أن تتقدموا لحيفا ونابلس، إذ أنَّ هذه هي النقاط المهمة. وسألني ثانية: «إلى متى ستستمر الحرب في رأيك وكيف ستنتهي؟». كانت إجابتي: «قد يستغرق الأمر خمس سنوات». ولم أكن أحلم بما حدث بعدها من أحداث جعلت العدو يجثو على ركبتيه بعد حوالي خمسة أشهر فحسب، ولكنني كنت أكثر تفاؤلاً عندما أبديت توقعاتي للطريقة التي ستنتهي بها الحرب: «لا أعتقد أنّنا سنعقد اتفَاقية سلام مع ألمانيا على

الإطلاق، إذ أنَّ أيَّ اتفاقية ستكون وقفاً مؤقتاً للعداء، ونحن لا نريد سلاماً يقود إلى الحرب مجدداً. كلاّ إنّ الجانبين سيحاربان حتى النهاية، وسيكون النصر حليفنا بقوّة السلاح، إن شاء الله». فقال لي: «هل أقول لك الحقّ، لقد شهدت بداية هذه الحرب. وعندما مرّ شكسبير عبر بلادي قبل أشهر قليلة من ذلك» ـ كان هذا في ربيع ١٩١٤م ـ «أخبرته أنّ الألمان سيدخلون الحرب ضدّكم قبل مضي وقت طويل، وأن الأتراك سيناصرونهم، حيث إنني تلقيت هذه المعلومات من مصادر موثوقة في مراكز عليا» ـ قد يكون من قادة القوات التركية والضباط الذين وقعوا في قبضته عند استعادة الهفوف ـ «وفي الوقت نفسه أخبرت شكسبير عن خُطَّة فكرت فيها لمهاجمة البصرة شريطة أن تعطوني ضمانات أتَّقى بها شرَّكم» ـ أي التدخل من قبل الإنجليز ـ «أنا ألغيت المشروع لكن احتلالكم للبصرة بعد أزال قلقي من ناحية الأتراك».

بيد أن ابن سعود كان، ما يزال، مُحاطاً بالأعداء من كلّ جانب، الشريف من الغرب، وابن رشيد من الشمال، وشيخ الكويت من الشمال الشرقي، وقبائل العجمان المتمردة من الشرق. ولكن غطت في الوقت الراهن على التنافس المحدود بين الدول العربية، أمور أكثر خطراً تتصل بالحرب العالمية، وكان الحجاز والكويت وغيرهما يحتفظون بمظهر خارجي للصداقة تحت رعاية التحالف البريطاني بينما وقف جبل شمر منفرداً مع صفوف الأعداء، وقد عقدت بريطانيا مؤخراً اتفاقيات مع السلطات القبلية، والتي التزمت بها القبائل بأن تستقر بالقرب من الزبير أثناء فترة الحرب. ووجدت أنّ هذه الاتفاقية قد أرضت ابن سعود إرضاءً تاماً، وكان للتعهّدات التي بلغّناها له بشأن الأمور المعلقة بينه وبين الشريف من جانب، وبينه وبين الكويت من جانب آخر قد زادت من رضاه، ولكن لم تكن التعهُّدات بمفردها كافية لاقتلاع جذور الفتنة التي كان مقدراً لها منذ عهد طويل أن تجعل حلفاءنا

العرب يتبادلون الاتّهامات للحدّ الذي يقف بهم على شفا جرف العمليات العدائية التي كانت في حقيقة الأمر تتخذ شكلاً أكثر خطورة إلاّ بعد انتهاء الحرب العالمية.

كان ابن سعود يحمل فكرة مغايرة عن شيخ الكويت، الشيخ سالم. وكان يرى أنّه يختلف عن أبيه مبارك، الذي أجمع الناس على أنّه كان من أعظم الشخصيات التي ظهرت على مسرح الأحداث السياسية العربية في العهود الحاضرة. كان مبارك بأُفقه الواسع وتقبّله للآراء المعارضة، صديقاً خاصاً للسلالة السعودية الحاكمة في أوقات الشدّة والرخاء. ويدين له ابن سعود بقدر وافرٍ من خبرته في شؤون العالم، ويدين له بالعون المتصل والتشجيع في مساعيه التي تُوّجت في النهاية باستعادة العرش: «أنا أعتبره دائماً في مقام والدي، وفي عهده لم تكن هناك حاجة لتحديد قاطع للحدود بيننا، إذ أنّ مواطنيّ كانوا يشعرون بأنّهم في مواطنهم عندما يذهبون للكويت تماماً كشعور مواطنيه عندما يَحلُّونَ بيننا». ويواصل ابن سعود: «كنت كثيراً ما أذهب لاستشارته عندما يحزبني أمر، وفي إحدى المرّات وقبل أن أطرد الأتراك عن الأحساء، ذهبت لمبارك أولاً، فنصحني بألاّ أتودّد للأتراك. لقد حيّرني موقفه هذا فظننت أنّه ربما بدأ يشعر بالحسد لتعاظمِ قوّتي ويودّ أن يُبعدني عن إقامة علاقات مع القوى العظمى؛ ولكنّ المصاعب التي واجهتني كانت أكبر من أن آخذ بنصيحته فعقدت صلحاً مع الأتراك الذين كرّموني ومنحوني لقب والي نجد مع ضمانات بألاّ يتدخلوا في شؤوني الداخلية»، خلف جابر مبارك بعد وفاته عام ١٩١٥م، ولكن بعد موته المفاجئ آل عرش الكويت إلى سالم[1] في العام التالي، ،ولكنّ سالماً كان من طراز آخر، إذ أحلّ محلَّ التسامح الديني لسابقيهِ، تطبيقاً معادياً لأتباع الدعوة السلفية. لقد كان الصبر الذي تعالج به السلطات البريطانية مواقف سالم وتقصيره إزاء مسؤولياته يبلغُ بابن سعود منتهى

(١) توفي سالم نفسه في فبراير (شباط) ١٩٢١م، وخلفه ابن أخيه، أحمد بن جابر. (المؤلف).

الغضب، إذ أنّه إضافةً للاختلافات التي فرقت بينهما، فإنّ موقع الكويت المسيطر كان يشكّل عقبة كأداء للنمو الاقتصادي الحر بالداخل، وهي العقبة التي يحاول ابن سعود جاهداً تخطيها.

كانت الكويت والبحرين تحت الظروف الحالية هما المنفذان البحريان المتاحان للبلاد السعودية، ولم يكن أي منهما تحت سيطرتها، وتبع ذلك أنّ كل الواردات القادمة إلى بلاده تخضع لضريبة جمركية ليست لصالح الخزينة السعودية ولكن لمصلحة بلاد أخرى، وتخضع البضائع القادمة عبر البحرين إلى الأحساء مجدداً للرسوم الجمركية الخاصة بابن سعود، ولئلا تخضع البضائع للرسوم الجمركية المزدوجة فإنّ التجار يسلكون الطريق إلى الكويت، ومنها يدخلون عبر الصحراء لأراضي ابن سعود، وفي هذه الظروف تصبح إمكانية مراقبة وإخضاع القوافل القادمة عبر الصحراء للرسوم الجمركية السعودية أمراً غير عملي، وبذا تكون الرسوم الجمركية قد فرضت على البضائع المستوردة مرّة واحدة، لكنّها لمصلحة الخزينة الكويتية، وهكذا تزدهر الكويت على حساب البحرين ونجد معاً.

ولا شك أنّ لنجد قضية لا نملك إلاّ أن نتعاطف معها، إنّ أكبر الهموم التي تشغل فكر ابن سعود هي معالجة هذا الوضع الجائر، وهو ينظر لموانئه الخاصة في ساحل الأحساء بحثاً عن حلٍ للمشكلة. لديه موانئ طبيعية ممتازة، تحتاج لإعداد، في الجبيل والقطيف والعقير، هذا إن لم نذكر الموقع المهجور لميناء جيرا القديم إلى الجنوب من العقير. لديه موانئ طبيعية ممتازة تنتظر التطوير إن توفرت الأموال اللازمة والمتطلبات الأخرى التي تستوجبها تجارة ذات حجم كبير، وأخيراً وليس آخراً، إنشاء خطّ حديدي بين الساحل والداخل، ولكن لسوء الطالع فإنّ الأموال المطلوبة لتحقيق طموحات بهذا الحجم لم تكن موجودة، خاصة لتحقيق مشروع السكة الحديدية؛ ولكن ليس هناك سبب يمنع أن تأتي معظم البضائع للداخل عن طريق موانئ

الأحسـاء، إن كانت التحسـينات التي ستجرى لـها كافيـة لجذب البواخر البـريطانية والهندية. ولم يُبْدِ ابن سعود أيَّ حماسة لاقـتراحي الذي طرحته عليه وهو أن يسعى عندما تتصل الكويت بالبصرة عبر خط حديدي ـ وهو أمرٌ لابد أن يحدث ـ أن يسعى لأن يمتد الخطُّ إلى الأحساء كخطوةٍ أولى لربط مـدنها عن طريق خطوط فرعية بموانئ الكويت والبصرة. يبدو أنّه لم يشأ أن يرهن اقتصاده وشؤونه المالية بالكويت.

ولكن رغم هذا فإنني أعتقد أن الخط الحديدي لا يمكن أن يصل إلى الأجزاء الشـرقيـة من وسط الجزيرة العـربية إلاَّ بطريقـةٍ كهـذه، وأنّه في الإمكان اقـتراح ترتيبات مرضـية للطرفين لاقتسام الرسوم الجمركـية التي تُحَصَّل في الكويت، بين ميناء الدخول والجهة التي تنتهي إليها هذه البضائع المستوردة. وعلى أيّ حال، كان يخـيل إليَّ عند الحـديث عن مـشـاريع الخطوط الحـديدية أنّ ابن سـعـود يتطلّع للمستقبل البعيد، وبفعله هذا يتغاضى عن اقتراحات أخرى أكثر واقعية، وهي التي ظهرت محاسنها بوضوح شـديد أثناء حملة بلاد الرافدين، إذ أن القاطرات الحديد هي الأنسب في الأقطار الصـحراوية، وإدخال وسـيلة كهـذه في الجزيرة العـربية لأغراض تجارية يمكن أن تبدأ كـتجربة على مستوى صغـير، ثم يطور تدريجياً في ضوء التـجربة الواقعيـة، حتى تحلّ القاطرات محل قـوافل الإبل المرهقة في طريق الأحسـاء ـ الرياض وفي المناطق الأخـرى. سألت ابن سـعود يوماً: "كـيف ترى مـشـروعاً لإنشـاء خط حـديدي من السـويس للكويـت أو البصـرة عـبـر بعض أراضـيك؟" وكانت إجـابته" والله يا صـاحب احنا آمنين من طرف وخـاشين من طرف". وفي مناسبة أخـرى. أخْرَسَ مخاوفَ ارتفعت بشـأن نوايا البريطانيين في أحدِ الاجتمـاعات التي عقدها لمناقشة موقف الشـريف بأن قال"فيلبي عطاني قول من طرف حكومته"، ولقد أعطيـته ضمانات حكومتي وكان ذلك كافـياً. أخبرني

أيضاً أنّه سيدعو يوماً مهندسين إنجليز لفحص موارد بلاده من المعادن ولتقديم المشورة إليه بشأن الآبار الارتوازية ـ التي بدأت مياهها تغور ـ من أجل تطوير الزراعة. لا شكّ أنّ المياه متوافرة في باطن الصحراء، فقط يعوزهم من يبحث عنها، لا يوجد هناك سبب يمنع من استخراج المعادن من جبال نجد كما حدث من قبل في مدين في الماضي السحيق. وبالإضافة لهذا هناك العيون الكبريتية والمياه المعدنية في الأحساء وفي أقاليم أخرى، وقد ثبت أنّها ذات جدوى اقتصادية، هذا إن لم نتحدث عن مصادر الزيت الخام التي تنتظر من يكتشفها. إنّ البلاد السعودية على عتبة التنمية التي أعاقتها الحرب الأهلية والغارات الأجنبية، ولكن ابن سعود يرى إمكانيات وموارد مملكته الصحراوية، كما يقدّر الالتزامات المالية العاجلة التي يتطلبها استغلال هذه الموارد، وإن بقي في قيادة السفينة لوقتٍ كافٍ، لابدّ أنّها ستبحر مسرعة نحو الهدف الذي حُدّد لها.

طبيعة المصاعب التي تواجه ابن سعود في الشرق ذات صفة اقتصادية في المقام الأوّل، ولكن تلك التي تحيط به من الشمال والغرب فهي سياسية واستراتيجية. كان الأتراك يحتفظون بسيطرة فاعلة لحدّ ما على الحجاز عن طريق شريف مكة حتى نشوب الحرب، واكتفوا بهذا دون أن يسعوا لفرض سيطرة، ولو يسيرة على دولتي الوسط. جبل شمر ونجد اللتين تمتعتا باستقلال تام تحت زعامة أميريهما. أمّا الحرب التي جاءت أوّل ما جاءت بتمرّد عرب الحجاز، بمباركة البريطانيين، فقد أخلّت بتوازن القوى العربية، وأصبحت الدولتان الوسطيتان اللتان احتلتا موقع السيادة بدرجات متفاوتة من النجاح في شبه الجزيرة العربية دون أن يجرؤ الأتراك لضعفهم للتصدي لهما، صارتا الآن ـ وقد اختل توازن القوى ـ يواجهان من كانا يعدانه مدّعياً مغتراً، ادّعى أمام العالم أنّه ملك البلاد العربية استناداً على اعتراف البريطانيين له كملك للحجاز.

لم تكن هذه المستجدات بطبيعة الحال سارّة لأيّ من دولتي الوسط، ولكن بينما كان لابن رشيد بوصفه حليفاً للأتراك الحقّ في أن يهزأ ويتحدى علناً ادّعاءات الشريف، فإن ابن سعود كان في موقف جيد في صفوف الحلفاء، وفي البحث في الوقت نفسه عن ضمانات بأنّ تلك الادعاءات لم تكن لتؤثر على استقلاله الذي تمتّع به، والذي لن يتخلى عنه مطلقاً، كان الذي يقلق الشريف هو أنّ ابن سعود كان يتمتع باتفاقية مستقلة تنظّم علاقته بنا، وأنّه كان يتمنع عن الاستجابة لتوجيهاته المتعالية، بينما كان الذي يجرح ابن سعود علمهُ بأنّ غريمه الذي كان في وضع أفضل يؤدي دوراً أكبر في معارك حلفائه، كان بفضل هذا يستطيع التأثير على السياسات البريطانية لدرجة لم يكن ابن سعود يتوقع بالوصول إليها.

بيد أنّه لم يحدث حتى هذا الوقت أي إخلال علني بالاتفاقات من أي من الجانبين، ورغم أنّ السلطات البريطانية كانت على علمٍ تام بحقيقة العلاقة بينهما إلاّ أنّه لم يكن هناك تناقض بين التصريحات التي كان يعبر فيها الجانبان عن حسن النية المتبادل واللازم لإنجاز مهام ناجحة ضد العدو المشترك. وتمكّن البريطانيون أن يوصلوا لابن سعود التأكيد بأنه لم يكن خافياً عليهم ادّعاء الشريف للقب الذي أثار استياءه، وأنّهم يقدّرون قلقه من أجل الاحتفاظ بالاستقلال الذي ضمنته له معاهدة ١٩١٦م، وأنهم بعد أن يفرغوا من مهام الحرب العالمية يسرّهم أن يوظفّوا صداقتهم لمصلحة الجانبين من أجل الاتفاق حول النقاط الخلافية بينهما. وكان الخطاب الودود الذي بعث به سير ريجينالد وينجت، المندوب السامي البريطاني في مصر لابن سعود، والذي عبّر فيه عن الامتنان للمواقف العدائية التقليدية للسعوديين ضد الأتراك، كان قد مَهّد لي الطريق لأقوم بإعلان الضمانات التي مُنحت صلاحية إعطائها لابن سعود نيابة عن الحكومة البريطانية، ووجدت لديه الاستعداد للاستماع لاقتراحات بشنّ هجومٍ ضد حائل، وهو ما أكّدتُ له أنّه

الطريق الوحيد أمامه لاكتساب سمعةً تُضاهي تلك التي حصل عليها الشريف بعملياته ضد الأتراك.

قادنا هذا الاقتناع إلى المشكلة المعقدة ما هي الطريقة والوسائل. كان تأخري في العودة إليه كلّ تلك المدّة قد أعدّه لتوقُّع الصدمة فيما يختص بنتائج مسعاي، ولا بدّ أن أشير إلى أنه كان يشعر فعلاً بصدمة ومرارة لعدم الاستجابة للمشروع الذي نقلته إنابة عنه لحكومتي في ديسمبر (كانون الأول) الماضي؛ ولكنّه والحقّ يُقال أدرك ألاّ جدوى من مواصلة النقاش وأعدّ نفسه مباشرةً لاتّخاذ الخطوات العملية التي يقتضيها الموقف. قال لي: «إنّ استرداد حائل هدف حملته في قلبي لسنوات عديدة، وهل تتوقع أنني كنت أترك تحقيق هذا حتى هذا الوقت لوكنت أجد الوسيلة لتحقيقه؟ حائل، جدار ونار، وابن رشيد آمن وراء حصونها ومدافعها، ولقد منّ الله عليه بقبيلة متماسكة تقف وقفة رجل واحد دفاعاً عن عاصمتها. أجبت جلالته بأنني وكوكس بذلنا جهدنا من أجله أمام الحكومة البريطانية. وقلت له: إن حائل بالنسبة له شيء آخر، بينما ستوفر له الحرب الحاضرة فرصة الحصول على الدعم وعليه استثمارها. وقد تجادلنا حول الموضوع وهو لا يستدعي الجدل، ولكنّ اتخاذ قرار للقيام بعمل ضد حائل لم يكن سهلاً بالنسبة له فقد يضطرُّه إلى دخول حرب بموارد غير كافية، ولكن إضاعة فرصة كهذه تخاذلاً وجبناً كانت أشدّ وقعاً». وانفجر أخيراً: «والله وبالله وتالله أنت تعلم أنني لا أقوم بهذا العمل من أجل حكومتك، ولكن سأتقدّم وأقسم بالله. كانت نيتي أن أسرّح الجند وأن أذهب للقصيم لتفقد الأحوال هناك ولكنني الآن سأبعث بجنودي لديارهم لمدّة شهر ليتمكنوا من إزالة "الجرب" عن إبلهم، بعدها سأدعوهم مجدداً لأبدأ حملتي ضد جبل شمّر في رمضان، وليكن في علمك أنّ حائل لا يمكن مهاجمتها، ولكنني لن أمهل شمّر، وإن شاء الله تكون حائل نفسها في قبضتنا خلال شهرين».

لم يُضع ابن سعود وقتاً في المُضِيّ قُدماً في تنفيذ الخطَّةِ التي وضعها. وفي اليوم نفسه عقد اجتماعاً ضمّ أصحاب الرأي بمعسكره، وبعد نقاش حرّ حول مزايا مهاجمة حائل ومهاجمة الشريف ـ التي كانت تفضلها بعض العناصر المتشددة ـ أقرّ الجمع على مهاجمة حائل. وفي اليوم التالي أُرسلت الوفود للكويت والعقير لجلب كميات وافرة من المؤن، وتقرر إحضار الإبل من المراعي وإزالة المعسكر دون تأخير، حتى تعدّ العدّةُ كاملة قبل أن يقود تركي الجيش المهاجم في بداية رمضان، إذ أنّ ابن سعود قد غيرّ خطّته وقرر أن يقضي ذلك الشهر مصرفاً أعباءه الدينية والإدارية في الرياض بينما يشرع ابنه الأكبر في حملته عابراً للدهناء حتى يصل إلى إقليم شمّر. لم ترُقْ لي فكرة قضاء هذه الفترة دون عمل بالرياض فنقلت هذا الرأي لمضيفي وأنا أخشى ردّة فعله، فقال لي «حسنا» أخشى أن يعتقد الناس أن عملياتي ضد العدو هي بوحي من البريطانيين. وقد يكون من الخير أن تذهب لتبقى في الكويت حتى نعدّ العدّة، ويمكنك بعدها أن تلحق بي في الميدان». كانت الكويت هي المكان الأخير الذي أودّ أن أقيم فيه لفترة طويلة، فأجبته "لا يمكنني أن أفعل ذلك، إذ لو أنني ذهبت لأحكي لهم عن العمليات التي تنوى القيام بها فسيهزأون بي. لا يمكنني أن أذهب إلا لأعلن لهم عن انتصارك، وبما أنّك تحتاج لبعض الوقت للإعداد لها فلا بد أن أبقى في بلادكم، ولكنني أوافقك الرأي على ضرورة ألا يراني مواطنوك كثيراً. لماذا لا أقضي هذه الفترة في استكشاف الأقاليم الجنوبية، وفي وادي الدواسر؟ يمكنني أن أذهب هناك بحجة اصطياد المارية"[1]. ولدهشتي وافق على اقتراحي قائلاً: «بكلّ تأكيد، سأبعث بك إلى الجنوب، وعند عودتك تلحق بي في القصيم لتكون شاهداً على عملياتي». وسألته «ألا يكون من

(١) يشبه بقر الوحش الأفريقي. (المعلق).

الأجدى أن أذهب في طريقي مباشرة من هنا حتى يفهم مواطنوك أنني عائد إلى الساحل عن طريق الحسا؟» لكنّه لم يوافق على هذا الاقتراح، إذ أن الرحلة تحتاج لإعداد ولاختيار المرافقين المناسبين، ولن يتسنَّى ذلك إلا في الرياض. بيد أنني كنت راضياً إذ أعطاني كلمته. لا يمكنني بالطبع أن أعزو حصولي على موافقته على اقتراحي بهذه السهولة لحسن حظي، إذ أنني كنت أعلم أنّ في ذلك المعسكر عدداً ليس بالقليل ممن كانوا ينظرون بارتياب متسائلين عن حكمة ابن سعود في معاملتي كضيف شرف؛ لكنّه كان قد وطّن النفس على أن يبذل ما في وسعه في تقوية علاقاته مع البريطانيين، ولم يكن ابن سعود بالرجل الذي تلين له قناة أمام النقد. عندما سألته ذات مرّة إن كان يرى أنّ هناك اعتراضات حقيقية في بقائي ببلاده، أجاب بالنفي قائلاً إن بقائي لمصلحتهم». كان ابن سعود ينظر دائماً للمستقبل، ولقد اقتنع بأنّه إذا انتهت الحرب نهاية غير حاسمة فإنّ الأتراك سيساعدون ابن رشيد على مهاجمته، إذ أنهم كانوا قد وعدوه بأن يجعلوه سلطاناً على وسط الجزيرة العربية، لذلك رأى ابن سعود في تحالفه مع الإنجليز خير ضمانٍ ضد احتمال كهذا.

قال لي مرّة: «هل تعلم أنّه لم يَغِبْ عن ذهني قط أنّ من واجبي أن أعيد جبل شمر وأهله حلفاء لبيت آل سعود[1]، لكنني لم أشعر بعد بالقوّة التي تمكنني من مهاجمتهم. نحن نتقاتل طوال الوقت، لكنّ الموقف يختلف في كل مرّة،

---

(١) ما حدث في حائل في هذا الخصوص في الآونه الأخيرة (١٩٢٠م) له أهمية خاصة. أُغتيلَ ابنُ رشيد في ربيع هذا العام، ولا ندري إن كانت الأسباب خاصة أم سياسية وهناك شائعات تقول إنّ الحاكم الجديد ـ أو بالأخرى الوصي عليه، إذ أنّه كان قاصراً ـ قد دخل في معاهدةٍ مع ابن سعود. وبموجبها يعود جبل شمّر إلى وضعه الأوّل معتمداً على الدولة السعودية. المعلومات الأخيرة (١٩٢١م) كذبت هذه الشائعات عن مثل هذا التحالف، وهي تدل على أنّ ابن سعود يجمع قواته استعداداً لمهاجمة حائل. (المؤلف).

ولكنني منذ وقت طويل أتعامل مع بيت آل رشيد "بـالسياسة"، والآن هناك فروع كثيرة من شمّر تؤيدني في العلن، مثل ابن جبرين والآخرين الذين استمالهم تنظيم الاخوان، أو هم على اتصال سرّي معي لمؤازرتي إن حدث وصارت لي اليد العليا عليه. أمّا الآن وقد عقدت العـزم على أن أقوم بهجوم متّصل على بلادهم أرى أن أصدر إنذار لشمّـر أبلغهم فيه بنواياي وأخاطب الذين لا يودّون مـعاداتي، إمّا أن يتوجهوا نحو الشمال لمناطق عـنزة أو لقبول ضيافتي داخل حدود بلادي، من وراء الصـفوف. ومن يبـقى بعدها في سـاحة الحـرب يعلم أنّه يضع نفـسه في خـانة الأعداء، وعليّ أن أطردهم دون ندم».

كان ابن سعـود خلال هذه المناقشات يعود مـرّة إثر أخرى لإبداء قلقه لنوايا الشريف وتوجّهاته. وكـان وجود بعض شيوخ عتيبة في مـعسكره يذكره بالشريف وبتطوعه في التـدخّل في مسألة الغـطغط في ديسمبـر (كانون الأول) الماضي. بدأ الأمر بأن قامت جماعة من عتيبة تحت إمرة رجلٍ يدعى ابن حُمَيْد بمهاجمة جماعة من الإخوان أثناء أدائهم للصلاة بالقرب من الغطغط ورد الإخـوان بقتل ابن حميد الذي وصل أقرباؤه إلى جدة أثناء وجودي بها ليضعوا شكواهم بين يدي الشريف. كان الشريف عاجزاً هو الآخر عن أن يفعل شيئاً فقام بتصعيد الأمر بأن رفع تقريراً عن الحادث للسلطات البريطانية. لكن لم يَعُد هذا بشيء للمتضررين الذين تصدّوا للأمر بأنفسـهم فأغاروا على الإخوان وأخذوا بعض الإبل، وردّ الإخـوان بهجوم عنيف على المعتدين بالقرب من نفي على الحدود الغربية للقصيم وقتلوا منهم عدداً لا يقلّ عن ثلاثة وثلاثين دون أن يتكبـدوا هم أنفسـهم سوى خسـائر قليلة. عند بلوغ الأمر هذا الحـد بدا لعتيبـة أن يلتمسوا من ابن سـعود تسوية الأمر، ونتـيجة للصلح الذي تمّ فإنّ ممثلين للجانبين ينشغلون الآن في تسوية المستحقات المالية تحت

رعاية ابن سعود على الأساس المعتاد لديات القتلى. وتمخّضت الاتفاقيات عن تحديد مبلغ ٤٠٠ دولار دية لكلّ قتيل، وبينما كان ضحايا أهالي الغطغط أكثر، إذا كان الفرق بين ضحاياهم وضحايا عتيبة ٢٧ قتيلاً، أعلن أنّ عتيبة تستحق مبلغ ١٠,٨٠٠ دولار كتسوية شاملة ونهائية للمسألة. وكانت المحادثات حول دفع المبلغ تقسيطاً تجرى دون عقبات. وآن لابن سعود أن يحصد قريباً جائزة تحقيق العدالة دون تحيز. بيد أنّه كان في هذا الوقت منزعجاً قليلاً لاستلامه خطاباً من الشريف الذي بعث أيضاً بنسخٍ منه ـ من باب العلم ـ لشيوخ عتيبة الذين قاموا حال استلامها بإرسالها لابن سعود، وكان الخطاب يشتمل على نقد عنيف لتصرف الأخوان ولسياسة ابن سعود.

وفي هذا الإطار صاغ ابن سعود خطاباً طويلاً جليلاً أراني إيّاه رداً على انتقادات الشريف، أبدى فيه احتجاجاً قوياً لمخاطبة الشريف المباشرة لشيوخ من قبائل نجد وأيضاً لمسؤولين تحت إمرة ابن سعود، وكأنّهم يدينون له (للشريف) بالطاعة والولاء؛ إذ أنه وفي الوقت نفسه كان فهد بن معمّر، حاكم بريدة قد تسلّم هو الآخر خطاباً من الشريف ـ وبالطبع بعث به لسيّده ـ يُعلنه فيه بخطر مرور القوافل بين نجد والحجاز، على زعم أنّ النجديين قاموا باستغلال التسهيلات الممنوحة لتهريب بضائع لبلاد العدو. لم يورد الشريف في الخطاب إثباتاً لصحّة دعواه وكان ابن سعود يرى ـ ولعلّه محقٌ في ذلك ـ أنّ هذا التوجّه ليس إلاّ جزءاً لا يتجزأ من سياسة صار الشريف ينتهجها مؤخّراً للضغط على الذين يتحالفون مع غريمه. ولقد حدث منذ عهد قريب أن تمّ القبض على اثنين من مواطني عنيزة ـ وهما ابنٌ وابنُ أخٍ لرجلٍ يُدعى صالح الفضل، كانا يقيمان منذ عهد بعيد في جدة وكيليْن عن أسرتهما في إدارة أعمال هناك، وتمّ قبل بعض الوقت القبض على

الرجلين وزجّ بهما في السجن على أساس أنّ صالح نفسه كان يقيم في المدينة عندما اندلع بها التمـردّ ضد الشريف. وكان ابن سعود قد رفض التـدخّل في الأمر عندما طلب أقرباء للمعنيين يقيمون في الهند توسُّطه، على اعـتبار أن استمرار بقاء صالح بالمدينة كان مسـوّغاً كافياً للمـزاعم الموجهة لهمـا. ولكن صالح قد وصل الآن إلى عنيزة، بيد أنّ ابنه وابن أخيه ما زالا في السجن، وأتوقّع أنهـما قد بقيا به حتى بعد الهدنة، بالرغم من الالتماسات الكثيرة التي قـدّمتها أنا وتلك التي قدّمتها السلطات البريطانـية في مصـر من أجل إطلاق سراحـهما. كـان الشريف بمثل هذه الأفـعال يضاعف نقـاط الاحتكاك بينه وبين ابن سعـود دون طائل، ويخسر بهـا عطف حتى بعض العناصر المستنيرة في نجد مثل القصيم.

«إنّ حدود نجـد المتاخمة للحـجاز معـروفة جداً»، هكذا قال لي ابن سـعود يوماً، ثُمَّ واصل كطريقة العرب المعتادة بتسمية سلسلة من معالم غير محددة، والتي لن تكون كافيـة لإقناع لجنة تبحث في أمر الحدود، «من بيشة إلى رنـية إلى الخرمة وحـضن، هذه هي حدودي»، ألم يقل النـبي ﷺ: «من رأى حضناً فـقد أنجـد». ولكن ادعُ من زعـماء العـرب ابن صبـاح، وابن ثاني[(١)]، والشيـخ عيسى شـيخ البحرين، وأمثالهم فإنّهم لن يُعجزهم أن يضعوا خطاً فرضياً للجميع. وقبائل عتيبة وحرب وقـبائل أخـرى يقيـمون بصـفة دائمة علـى جانبي ذلك الخط الافـتراضي ويمكنهم أن يصبحوا رعايا للحاكم الذي تتـبع له أراضيهم. وكما أن عدداً من أهل نجد قد خرجوا عن حدود سيادتي بتوطنهم بصفة مستديمة في العراق، فليكن الأمر

(١) حاكم قطر. (المؤلف).

كذلك للذين اختاروا أن يبقوا في الحجاز، ولكن ليقُم القنصل البريطاني بجدة نيابة عني برعاية الذين يقيمون هناك فقط بصفة مؤقتة لأغراض التجارة. إنّ سبيع تابعون لي، وبعضهم يقيمون في تلك المناطق ناحية الحسا، لكن على الرغم من ذلك، دع أولئك الذين في الخرمة ووادي سبيع أن يختاروا لأنفسهم، وإن اختاروا الشريف، دعهم يحسبوا في رعيته.

كنت أقضي معظم الوقت خلال هذه الأيّام أتحادث مع ابن سعود الذي لم يكن ليشعر بالتعب وهو يصرّف شؤون دولته، ولكنني لم أتوان في أن أستغلّ بقدر الوسع والطاقة الأوقات التي تتبقّى لي بين لقاءات ابن سعود هذه، لأقوم بزيارات من حين لآخر لخيام بقية أعضاء العائلة المالكة المقيمين بالمعسكر. كان الرجل الثاني هو تركي، وليّ العهد، والذي كان يقوم مقام والده ـ عند غيابه ـ القائد الأعلى للجيش، وكان فيما يبدو هو الشخص الوحيد من العائلة المالكة الذي يضطلع بقدرٍ معلوم من المسؤوليات في تصريف شؤون الدولة. كان لتركي حرسه الخاص، ومجموعة خيامه التي كانت تشغل إحداها فتاة من البدو اتخذها زوجة، ولقد أخبرني أنَّ حبّه الحقيقي كان للحرب والقنص والصيد. لقد لفت انتباهي عندما التقيت به للمرّة الأولى في الرياض أنّه كان يبدو مرهفاً إلى حد كبير، ولقد كان في حقيقة الأمر مريضاً قبلها بالقصيم التي كان قد قدم منها قبل وقت قصير. ولكنّه بدا لي الآن وتحت هذه الأضواء الخافتة وقد تحسّن كثيراً. ولقد كان بكل تأكيد بالغ الوسامة، وكان الفارق بينه وبين والده في الطول كبيراً، لكنّه ما يزال في طور النمو، بيد أنّه كان ضعيف البنية، وتحيط بوجهه الشاحب النحيل ذي العينين السوداوين خصل شعرٍ مجدولة تتدلّى على كلٍّ من الكتفين من تحت غترته. كانت بنيته لا تدل أن في صدره قلبٌ شجاع غَطّى على مثالب تكوينه

الناعم، إذ أنّه ولمّا يبلغ العشرين من العمر قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك مزاياه العسكرية في اثنتي عشرة حملة، وبدا وريثاً يستحق أن يخلف أباه. لكن واحسرتاه، لقد كان يقترب سريعاً من النهاية المحتومة، إذ أنَّ قدر الله توعّد شبابه الواعد الغض، فقضى قبل أن يستدير العام أثناء وباء "الانفلونزا" الذي اجتاح نجد في شتاء ١٩١٨ ـ ١٩١٩م[١]، والذي قضى أيضاً على عدد من أفراد العائلة المالكة، إذ تتابع صرعى: تركي ومن بعده أخويه فهد، وسعد وزوجة ابن سعود الأثيرة لديه ملكة نجد[٢]، ليواروا الثرى جميعاً في المقبرة الملكية بالرياض. ولكنّي أستبق الأحداث. استقبلني تركي بِوُدٍ طفولي وتحدث بحماسة رائعة عن أيّامه الجميلة الفائتة، حدثني عن الحرب والرياضة بينما كنا نرتشف القهوة في خيمته. قلت له: «أتمنّى أن تزورنا في وقت قريب في البصرة وبغداد أو حتىّ تذهب لإنجلترا لترى ملكنا». وكان رده: «أحب أن أفعل هذا الذي تقول، وأنا أعتمد عليك لتقنع أبي ليسمح لي بالذهاب، إذ أن أكثر ما أحبّه وأتوق إليه أن أرى بلاد العالم التي أسمع عنها كثيراً، ما نحن إلاّ جماعة من البسطاء، ولكن عالمكم - كما يقولون ـ جدّ مختلف». كان بالطبع قد تعرّف على شكسبير لأنّه رغم صغره كان قد شارك في معركة جراب، وقابل هاميلتون في القصيم قبل أشهر قليلة، لكنّه لم يغادر الجزيرة العربية قط.

---

(١) تعرف هذه السنة في نجد باسم: سنة الرحمة وقد وقعت في عام (١٣٣٧هـ) وذلك بسبب كثرة من مات فيها. (المراجعون).

(٢) الأميرة الجوهرة بنت مساعد بن جلوي، وتعرف أيضاً (بالجوهرة الأولى)، والدة أصحاب السمو الملكي الأمراء، محمد، وخالد -الملك فيما بعد- والعنود. (المراجعون).

كان الأخ الذي يَصْغُر تركي وهو سعود شاباً في السادسة عشر تقريباً، وكان هو الآخر موجوداً بالمعسكر، وكانت له نفس مميـزات أخيه في الوسامة والنعومة، ولكنه كان يختلف عنه في الطباع ولعلّه كان أضـعف بنية، وهو الآن بطبيعة الحال وليُّ العهـد، ولقد علمت أنّ مـقدراته قـد بدأت تنمو جـيداً في المهام العـسكرية والأهلية التي أنيطت به بعد وفاة تركي. ويُقـال إنه قد صار طويلاً جداً وهناك من يراهن على أنّ بنيتـه ستضاهي بنيـة أبيه. قضيت مـعه مرّة نصف ساعـة سارة في خيمته في وسط رجاله. وكان قد حـصل ـ لا أدري متى ـ على بندقية "مانليشر" الرياضية، ولكنّه في الوقت نفسه لم يكن يملك لها الذخيرة، وبرقت عيناه بالسرور عندمـا وعدته بأن أترك له الذخـيرة التي أمـلكها، إذ كـانت لي بندقيـة من النوع نفســه، رغم أنني كنت أستـخدم بندقـية من النوع (٣٠٣) في الحـالات العادية. وسعود ـ مثل أخيه تركي ـ لم يغادر الجزيرة العربية.

وفي جانب آخـر في المخيم الملكي كـانت خيام عـبدالله بن عبـدالرحمن، ورغم أنّه لم يتجـاوز العشرين من العـمر إلاّ أنّه كان يمثّل جـيلاً أكبـر من الأمراء الملكيين لكونه أخاً أصـغر لابن سعود. كان شـاباً ذا ثقافة متمـيّزة وكان على علمٍ بالشعر العربي القديم وبتاريخ بلاده. كان مظهره أقرب إلى شكل أبيه وليس لأخيه الوسيم، ولم يكن ملتحياً ككثير من أفراد عائلته، وكان حَيّيـاً في حديثه، وهو ما كان يعطي حديثه سحراً خاصاً. كان يتـحدث بحماسة عن شكسبير الذي التقى به في مناسبات ثلاث، ورآه للمـرّة الأخيرة في خفيسة في أعلى الـبطين قبيْل حرب جراب؛ لـقد تحدث بـحرارة أيضـاً عن العلاقـة القائمـة بين بريطانيا ونجـد والتي ساعدت شخصية شكسبير في تنميتها. لقد كنت مأخوذاً بترحيبه الودود بي، وكان عندما تدار أكواب القهوة يـطلب مني أن آخذ الفنجال الأوّل، وعندمـا كنت أُصرّ ـ كما أفعل دائماً مع أفراد العائلة المالكة ـ أن يسبقني هو إلى الفنجال الأوّل ما كان

ليرضخ إلاّ وهو مستنكر لهذا الشرف وحينما نهضت مودّعاً قال لي: «لا تتكلّف، سِرِّ عليّ». واستجبت لطلبه إذ لم يمض إلاّ أيّام قلائل حتى وقفت بباب خيمته وكان في هذه المناسبة كما كان في المرّة السابقة مختلياً بصديقي القديم أحمد بن ثنيان، الذي كان بسبب مولده وطول إقامته في القسطنطينية، التي تعلّم فيها الفرنسية ببراعة، قد ارتقى درجة ثقافية متميزة تفوّق بها على أقرانه، وتمتّع بها بثقة ابن سعود المطلقة فيما يختص بالسياسة الخارجية.

كانت تتناثر فوق السجاد بعض الكتب التي كان أبناء العمومة بلا شك يقرؤونها معاً عند دخولي، كان أحدها كتاباً بالعربية لتاريخ الحرب جَمَّعهُ في مصر أحد محرري مجلة المقطّم اسمه حسن رضا إن لم تخنّي الذاكرة، وكانت الأخريات دواوين شعر، كان أحدها مقتطفات شعرية مختارة، أشار عبدالله لبعضها، وقرأ على مسامعي بعضاً مما يفضله منها، ثمّ أصرّ على إهداء الديوان إليّ قائلاً إنّه يحتفظ بنسخة أخرى منه. وعندما نهضت لأغادر، أصرّا عليّ أن أبقى قليلاً، وقضيت بعض الوقت أشرح لهما الخطوط العريضة للدستور البريطاني ولنظامنا البرلماني، وُلد عبدالله في الكويت وهو يذكر أنّه رأى في طفولته العلم البريطاني منكّساً وتعجب لهذه الظاهره حتى أخبروه أنّه نكّس تعبيراً للاحترام لذكرى الملك إدوارد عند بلوغهم نبأ وفاته.

بقي ضاري وجماعته معنا ليريحوا مطاياهم المنهكة متمتعين بضيافة ابن سعود حتى أزيل المعسكر. كنت آمل، وبالفعل اقترحت فور وصولي بالسماح لي بالبقاء بينهم أثناء بقائهم بالمعسكر، ولكن كان لابن سعود رأي آخر، ورأيت ألاّ أصرّ على الأمر حتّى لا أسبّب لهم أذى. وبالرغم من هذا، فقد كنت حريصاً على أن أزورهم في مقرّهم كلمّا سنحت لي الفرصة، وكنت أدعو ضاري نفسه وآخرين من جماعته لمشاركتي

الوجبات، رغم أنني لاحظت أن ضاري كان يقبل مثل هذه الدعوات بلا حماسة كبيرة، بل كان في شكّ مما قد تقود إليه من أثر، إنّ الضيافة العربية تصاحبها الأفعال الحميدة، لكن معاملة ابن سعود لضاري، كانت تتعارض مع مشروع التعاون الذي انصرفت كلية لتحقيقه؛ إذ أنّ ضاري الذي كان آمنا بعد تحالفه المستقل مع البريطانيين وضامناً للرعاية الناتجة عن ذلك الحلف، كان على استعداد ليعرض صداقته على أساسٍ من النديّة، ولكنّ ابن سعود المعتز بنفسه ما كان ليقبل أن يعطيه أكبر من حجمه.

بينما كنت أنا في اجتماعاتي المتكررة مع ضاري والـمُلاّ عبدالله لا أتوقف عن الحديث عن تأكيد أهمية التعاون إن كانوا يودّون استمرار البريطانيين في مساعدتهم. وعلى هذا الأساس تمّ ترتيب الأمر على أن يرسل لي رسولاً كل شهر ليخبرني عن نشاطاته وعن نتائجها. كان عليه أن يُغير على عبدة كلما سنحت له الفرصة، وفوق ذاك أن يمنع مرور قوافل العدو، وأن يرسل من يأسرهم مع مطاياهم إلى البصرة كدليل عملي على إنجاز واجباته بهمة ونشاط. وفي نفس الوقت كان على ابن سعود أن يقيم خطاً داخلياً للحصار، وأشرنا لضاري أنه كلما قل عدد القوافل التي تتخطاه لتصل إلى الخط الثاني كان ذلك أفضل لسمعته بيننا.

دعّمت نصيحتي بقدر وافر من المال ليوزعه بين أفراد بطانته، وأعطاه ابن سعود مبلغاً مماثلاً للغرض نفسه، ولكنّ ضاري ما كان ليذهب دون أن يبذل جهداً ليحصل على المزيد. وفي الأمسية الأخيرة لإقامتنا في الشوكي أحضر لي الـمُلاّ عبدالله بيان منصرفات بمبلغ ٥١٤ دولاراً تمثل - مع بعض المغالاة - ثمن إطعام المجموعة الكبيرة التي رافقتنا، وبهذه المناسبة، كنت قد توسلتُ أثناء الرحلة لضاري أن يتركني لأدفع قيمة الخراف أو أي منصرفات أخرى تستجد أثناء المسير، ولكنه رفع يديه في ذعر إزاء هذا الاقتراح، ورغم هذا لم يشتمل بيان المنصرفات الذي

قدّم إليَّ على قيمة الخراف التي تم شـراؤها أو الإبل التي تم استئجارها من الطريق فـحسب، بل اشـتمـل أيضاً على ثمن الأرز والـبن والسمن والمواد الأخـرى التي أحضروها من مخـيّم ضاري، بيد أنني لم أُثِر اعتراضاً على المـطالبة، فأشرت إلى أحد الصناديق وبداخله ١٥٠٠ دولار، وأخبرت الـمُـلاَّ أن يأخذه لمخيمه وأن يوزع المتـبقي - ٩٨٦ دولاراً، بدلاً عن ١٠٠٠ دولار كـان في نيـتي أن أوزعهـا - على البطانة مع مباركتي. وطلبت منه في الوقت نفسـه أن يمُدَّني بقائمة بأسماء من وزّع عليهـم المبلغ الأخير: «أشكرك عـلى هديتك الكريمة، إن القائمـة التي طلبتـها في حوزة الـمُـلاَّ، لقد أعطيت كل رجلٍ عـشرين دولاراً منهـا» بدا لي الأمر واضـحاً بعض الشيء، وعلى كل حال بدت حساباته خاطئة قليلاً إذ أن عدد أفراد المجموعة كان حوالي سـتين، لذا أرسلت في طلب الـمُلاَّ عبـدالله الذي أبرز - دون خجل - قائمة توضح توزيع مبلغ ١٥١٠ دولارات على المجـموعة ويفهم منها أن هذا المبلغ السخي قـد تم استلامـه مني، وسألته: «إنني لا أفـهم تماماً، ماذا عن المنصـرفات الأخرى التي قدمـتم لي بياناً سابقا بـها؟»، فأجابني: «لا عليك، هذا مـا أخبرني ضـاري أن أفعله، إن لم يكن هنـاك ما يكفي من مـال ليـأخذ كل رجل نصـيبـه المناسب، فإن ضاري قد وزع عليهم نصيبهم، وسيتحمل بنفسه منصرفات الرحلة، هذا حسن جداً» وكانت إجابتي: «هذا ليس حسناً جداً، تجد هناك صندوقاً به بعض المال، اذهب وخذ منه مبلغ ٥٢٤ دولاراً، وداعاً» وذهب وهو يتـمتم معتذراً، ولم أرد عليه، وعندما قفل راجعاً ليخبرني بأن ضاري قد تسلّم المبلغ، كان ردي عليه: «وداعاً». ولم أره بعدها قـط. كان يغلب على وداعي لضاري بعض العصـبية من جـرّاء هذه الحـادثة الصغـيـرة التي أظهـرت - في أسـوأ صورهـا -: التلهُّف على الذهب، وعَزَّيْتُ نفسي بالقرار الذي اتخذته من أنني لن أدفع فلساً بعد هذا لضاري ما لم يستحقه عن جدارة، والعرق يتصبب من فوق حاجبيه.

٣- عمود السحاب أثناء النهار

قال لي ابن سعود ، وذلك عندما استدعاني للقائه صباح يوم ١٥ أبريل (نيسان): «نسير غداً ويتحرك البيرق عند الفجر». كما كان يسير الساميون القدماء عبر الصحارى على هدى من ربهم الذي كان "يسير أمامهم أثناء النهار في عمود من السحاب ليقودهم عبر الطريق، وأثناء الليل في عمود من نار ليضيئ لهم السبيل[(١)].

عجّ المعسكر ذلك اليوم بكثير من النشاط والحركة. أتوا بالإبل وهي تزمجر وتقرقر، لتوزع على المجموعات التي تنتمي إليها، ووضعت العُدَّة والعتاد في صفوف انتظاراً لتحميلها على الجمال. أيقظوني في الصباح الباكر وخرجت عن خيمتي لأرقب خيوط الفجر تزحف على مشهد من الحركة التي لا توصف. كانت الخيام قد قُوِّضت وأُلقيت على كل جانب، وقد طويت حزَماً، بينما تصاعد أنين مثير للشفقة دلالة على تحميل البعير. كانت كل العيون متجهة صوب منتصف المعسكر، حيث رأيت تحت ضوء الفجر الخافت ارتفاع جسم داكن دفعةً واحدة، وتقدم متمايلاً للأمام بينما سمت على رأسه راية الدولة السعودية ذات اللون الأخضر مرفرفة بفعل النسمات اللطيفة ـ كإشارةٍ ـ لكل المخيم أن ابن سعود نفسه تحرك قد بدأ المسير. وبينما تحرك الحراس الملكيون خلال المعسكر عبر شعيب الشوكي نحو المرتفعات العارية التي تلي الموقع، بدأ الحشد الضخم في التحرك، واتَّخَذت جماعة إثر جماعة موقعها، كلٌّ خلف رايتها. وبدأ الرتل المسيرة. هكذا

---

(١) السفر الثاني ـ العهد القديم (٨)، ٢١. (المؤلف).

كانت رحلة الجيش السعودي أمام ناظري في ذلك اليوم، بينما اصطفت الرايات واحدة إثر أخرى، كل على رأس كتيبة ـ كتيبة الوشم برايتها ذات اللون الأخضر مع حافة داخلية بيضاء، مشابهة لراية ابن سعود نفسه لكنها أصغر، وكتيبة سدير برايتها الحمراء مع حافة خضراء في الخلف تحيط بالمساحة كلها، وكتيبة المحمل مع راية شبيهة براية سدير لكن تبادل اللونان مواقعهما بها، وكتيبة الحوطة برايتها البيضاء ذات الحافة الحمراء، وكتيبة الأفلاج ورايتها بيضاء خالصة، كانت هذه هي الطرق التي سارت في ذلك اليوم؛ لعل عدد رجالها يبلغ ألفاً من الأقوياء(١).

كانت الترتيبات قد أعدّت لأسلك طريقي بمعزل عن "القوم"، ولم أتحرك في الجماعة القليلة التي ترافقني إلا بعد أن تقدمت تلك الصفوف بفارق كبير. كان من بين رفاقي إبراهيم وابن عمه حمود ورجل يدعى حمداني. ركبت مطيتي وشققت طريقي بحذر عبر المعسكر، وقد هُجر الآن إلا من بعض المستودعات والأمتعة الثقيلة التي سيُذهب بها إلى الرياض مباشرة. سرنا في الاتجاه الذي حُدّدَ للجماعات المنفصلة عن الجسم الرئيس للجيش والتي تشمل قافلة الأمتعة، والخدم الذين يقودون الجياد وغيرهم ممن يصاحبون الجيش في مسيرته، وبما أنّنا لم نكن مضطرين لترسُّم خطى الحشد الرئيس فلقد أتيحت لي فرصة ممتازة لمراقبة قوة عربية أثناء تحركها. كانت صفوف السرايا المكتظة التي تحد أطراف المسيرة قد تحولت بعد قليل إلى أمواج متعرجة متتابعة من الرجال والإبل، تمتدُّ في أعرض

(١) كأن المؤلف يوحي بأن السعوديين اتخذوا طريقة تحرك الجيش من العهود القديمة، بينما الواقع أن ابن سعود كان بهذا التنظيم يقتدي بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين عند إعداد الجيش وتحركاته حيث يجعلون لكل فرقة اسماً معيناً. (المراجعون).

جبهة تسمح بها طبيعة الأرض، إذ أن المرتفعات على الجانبين كانت تبدو أكثر وعورة كلما تقدمنا مما جعلها مرهقة للحيوانات حتى صار مسارنا محصوراً في سهل يضيق كلما تقدمنا. لم نكن قد سرنا سوى ساعة واحدة عندما لاحظت أن الموجة القائدة قد انحرفت فجأة إلى الجانب إلى فسحة بين المرتفعات، ثم ارتفع عمود من الدخان بعد قليل ليعلن أن ابن سعود قد توقف لتناول وجبة الصباح. وكان المنظر بعدها بديعاً إذ تنحَّت جانباً موجةٌ إثر موجة لنفس الغرض. وكانت كل سرية تختار الزمان والمكان اللذين يلائمانها لتناول وجبة الإفطار. لكن الرايات تقدمت إلى الأمام دون توقف في طريقها لتجنُّب انقطاع التواصلية، إذ لا ينبغي لأحد باستثناء ابن سعود نفسه والأمراء أن يتجاوز الراية الملكية، ولابد أن تُنصب الراية الملكية ـ على الأقل ـ قبل وصولهم لموقع المعسكر الذي سينزلون فيه.

تابعتُ مسيري راكباً متخطياً جماعات متفرقة يتناولون إفطارهم أو يرتشفون القهوة، وإزاء إحدى هذه المجموعات قُدِّمت إليّ الدعوة بلطف شديد لأتوقف لأتناول مشروباً، وكان صاحب الدعوة أحد زعماء جيش سدير: سليمان الحمد بن عسكر، ابن أخ عبدالله بن عسكر أمير المجمعة، وتناولت كوباً من القهوة دون أن أترجّل. كان أحد تابعيه قد قابل شكسبير أثناء مروره عبر مرتفعات سدير، ولابد أن ذلك هو السبب الذي تلقيت من أجله التحايا الودودة من الشيخ الصغير.

ليس هناك الكثير مِمّا يُمكن أن يقال عن الإقليم الذي عبرناه أثناء الجزء الأول من المسيرة. كانت المرتفعات عاريةً إلا من رقاع متفرقة من العرفج في التجاويف، وتجمعت هذه المرتفعات بالتدريج صوب الغرب في سلسلة تلال متميزة، كان يبدو أنها ذات ارتفاع تلالٍ أخرى فوق متوسط ارتفاع الهضبة، ويفوق ارتفاع تلالٍ أخرى رأيناها شمال شعيب الشوكي، ولكن بعد أن قطعنا خمسة أميال

تغيّر المشهد فجأة كما يفعل دائماً في صحاري الجزيرة العربية، وخرجنا من المرتفعات الرتيبة نحو حافة سهلٍ يبلغ عرضه ميلاً واحداً، ويقاطع طريقنا في زاوية قائمة، ويجري بين سلاسل متصلة ومحددة المعالم، تعلو لارتفاع ٥٠-١٠٠ قدمٍ. تغير اتجاه سيرنا الآن بحدّة، من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربي، وطفقنا نرتقي تلك المرتفعات في ذلك الاتجاه لبقية اليوم. أما الرايات التي اقتربت الآن من اللواء الملكي، فقد كانت تسير في خط عرضٍ واحد مع مقدمة الموكب، بينما تبعتها بقية الجيوش في الخلف، سرية إثر سرية، ممتدة بعرض الوادي، تفصلها هنا وهناك مجموعات من جمال الأمتعة والجياد المنقادة. لقد كان مشهداً رائعاً ومُلهِماً متّعتْ به ناظريّ بأن ارتقيت الأراضي العالية، بطول قاعدة السلسلة في الجانب الأيسر.

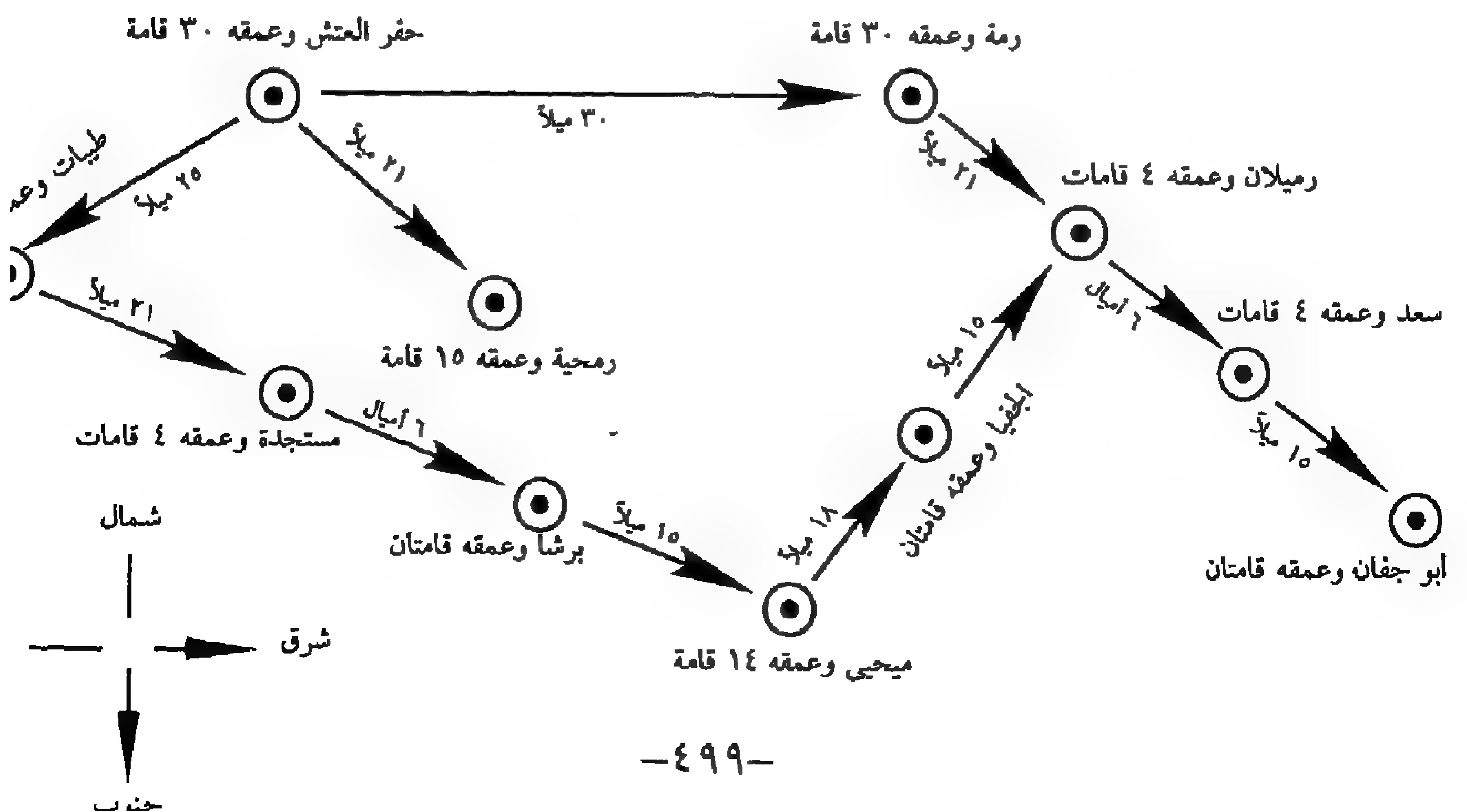
اسم الوادي هو شعب العتش ولقد كان واحداً من ستة أودية رئيسة في وسط الجزيرة العربية، وهو آخرها من جهة الشمال، باستثناء وادي الرمة الذي وصفت أجزاءه السفلى تحت اسم الباطن، والذي لم أكن قد رأيت بعد وسطه في القصيم. يتكون العتش بالتقاء مجاري الصرف من المحمل الغربي وسهل الحَمادةً في واحة القصب تحت الجرف الغربي الشاهق لطويق. يشقّ العتش طريقه عبر الهضبة العظيمة الحاجزة عبر خط يفصل بين إقليم سدير في الشمال ومقاطعة المحمل صوب الجنوب، ويستمر حتى الباطن ليتجه مباشرة نحو العرمة عن طريق فتحةٍ في جدارها الغربي، ويشقها نحو حافة الدهناء، ويتجه العتش في مساره طوال الوقت من غرب الجنوب الغربي إلى شمال الشمال الشرقي، وقبل أن يبلغ الدهناء بقليل

ينتهي في الحـوض الضحل المتَّسع الذي تقع فـيه آبار حفـر العتش[١]، وسميت هكذا لتميزها عــن آبار الحفر في الباطن، على بعد اثني عشـر ميلاً أو نحوها إلى الشرق من النقطة التي دلفنا منها نحو الوادي.

حَدَّتْ الآن المشـاهدَ سلسلتان منخـفضـتان من التلال على جـانبي الطريق، وكانت بعض الفتحات التي تبدو من وقت لآخر تصرّف مياه المرتفعات نحو الوادي العاري الذي امتدَّ كسطحٍ منبسط لمسافة خمسة أميال، من الموقع الذي دلفنا منه نحو منبعج عريضٍ وَقَفَت على مدخله رابيتان مخـروطيتان منعزلتان تُسمَّيان الخنادر وقد وقفتـا هناك في وسط الوادي كحرَّاس. وظهـرت من ورائهم سلسلة الجانب الأيمن وشكلها مسنّن واسمهـا الخناصر واسمها يعني الأصابع، مشيـراً إلى شكل قممها، بينما كانت المرتفعات إلى الشمـال من الموقع الذي توقفت فيه لتناول إفطاري، تبدو

---

(١) يقال إن عمق آبار حفـر العتش يبلغ ٣٠ قامة حتى بلوغ الماء. بينمـا آبار أبو جفان التي تقع إلى الجنوب منها، والتي مررت بها من قبل في طريقي من الهفوف إلى الرياض. كان عمقها قامتين فقط. وبين هاتين النقطتين تمتلئ هضبة العرمة بمواقع الماء. ويُوضّح المخطط أدناه، (من معلومات جُمعت أثناء المسير) مواقع وأبعاد المياه بالتقريب. (المؤلف).



وكأنها قد فاضت فوق الجانب الأيسر، وألقت مجموعة كبيرة من الأكمات الخفيفة من خلفها في الوادي نفسه. كانوا يشيرون إلى روضات متناثرة أو أجمات سدر مبعثرة في فسحات بين تلك الأكمات، أو بينها وبين سلسلة التلال؛ ويبدو أن اثنان منها فقط تستمتع بأسماء، بَيْدَ أنه لم يكن أي منهما مرئياً لنا من موقعنا ذاك؛ والاثنتان هما روضة الحقاقة في الجانب الأقرب من أراضي رأسية بارزة تحمل نفس الاسم؛ وروضة نورة، وتقع بين الأولى ووادي العتش. كنا الآن نقترب من نهاية المسيرة التي حُددت لليوم، وبعد أن واصلنا سيرنا عقب تناولنا للإفطار رأينا الرايات وطليعة الجيش على البعد وقد توقفوا للراحة، وعندما اقتربنا من ذلك الموقع كان نصب الخيام قد بدأ، وكان المكان الذي أُختير للمعسكر في مصب رافد من روافد العتش، وهو شعيب أبو رمال والذي أخذ تسميته من الرمال التي تراكمت على السلسلة الواقعة على الجانب الأيمن من الوادي وأوشكت أن تطمسها. وكانت تقع بالقرب من الجانب الآخر، على بعد ميل واحد من معسكرنا تقريباً أجمة كبيرة من الشجيرات تسمّى روضة أبو ركبة والتي يُقال إن بها غديراً قد جفَّ الآن.

ما أن نُصبت خيمتي حتى جاءني سعد وإبراهيم. وقد كنت أجلس في المساء في خيمتي بعد العشاء مع إبراهيم عندما ظهر سعد. سأله إبراهيم متعطشاً لسماع الأخبار القادمة من البلاط، وكان الرد: «بعد»، لقد ظل يعمل طوال اليوم ومازال، وفي صحبته الجنيفي وابن سويدان ـ وهما السكرتيران الأساسيان ـ "يكتبون لكل من يستحق". وبعد ذلك فإنني استُدعيت للخيمة الملكية، وعند دخولي وجدت ابن سعود يجلس إلى جوار سرج الجمل مع سكرتيريْه، كلٌّ على جانب، وكان في الوقت نفسه يُملي رسائل حول موضوعات مختلفة لهما معاً بسرعة وإتقان أذهلاني. حيّاني بابتسامة، وبحركة من ذقنه، لكنه لم ينهض، وأومأ لي أن أجلس في مكان إلى جنبه، كان ابن سويدان قد أخلاه لي، ليقعد

على ركبتيه أمام سيده. اعتذر لي عن انشغاله وواصل الإملاء المزدوج وهو يجاذبني الحديث أثناءها. ولم يكن هذا كل شيء، ففي وسط هذا كله تم استدعاء رجلٍ للنظر في دعواه.

ولكن ذلك لم يشغله عن محادثتي ولا عن صياغة خطاباته، واستخلص معالم القضية الأساسية من المدّعي الذي كان يتوسل لتعويضه عن إبل وخراف ونقود سلبها منه نهّاب في حدود الكويت، وبعد أن أقسم المدّعِي على صِحّة حجم الثروة المنهوبة وبعد أن أنهى إملاء أحد الخطابيْن، واصل في إملاء خطاب آخر لشيخ الكويت، الشيخ سالم يدعوه لتحمل المسؤولية عما نُهب في أرضه وأن يقوم بالتعويض، وإن لم يفعل ذلك ـ هكذا يقول في الخطاب ـ فلقد أصدر أوامره لوكيله الخاص في الكويت لدفع المستحقات المذكورة وسيعده ديناً له على الشيخ سالم. لم أكن قد رأيت ابن سعود من قبل وهو في مهام تصريف شؤون الدولة العاديّة، بيد أن هذه لم تكن المرة الأخيرة، ولكنها كانت تجربة لا تُنسى. لابد أنني كنت قد أتيت إليه في حوالي الساعة التاسعة في المساء، ولكنه لم يفرغ من أداء العمل الذي كان بين يديه قبل الساعة ١٠:٣٠، حيث صَرَفَ سكرتيريْه، وقدّرت أنا أنّه من اللياقة أن أذهب في الوقت نفسه، ولكنه استبقاني لمناقشة بعض الخطابات التي فرغ لتوّه من إملائها ـ كان أحدها رداً على خطاب المندوب السامي، والأخريات لسلطات بلاد ما بين الرافدين، ولم أغادره تلك الليلة قبل الساعة ١١:٣٠. وقال لي: «سنسير غداً قبل ساعتين من الشروق، أما أنت فلا ينبغي أن تبكّر في الاستيقاظ كما نفعل، ويمكنك أن تتبعني عندما تستعد للرحيل».

كنت قد علمت بما حدث يوماً أثناء إقامتنا بالشوكي، إذ أن تركي وعبدالله تباهى كل منهما في الخيمة الملكية بعظمة وسرعة ذلوله العمانية، كما يحدث في كل جزيرة العرب، وحسم ابن سعود النقاش بأن أعلن عن تخصيص جائزة قدرها مئتا

دولار للفائز في سباق بين المعسكر والرياض، شريطة ألا تزيد المدة عن أربع وعشرين ساعة من زمن البداية، قُبِلَ التحدي وأعلن حوالي اثنا عشر من المتنافسين بما فيهم تركي وعبدالله وسعود وسلمان[1] عن دخولهم المنافسة، وكانت المسافة حتى الرياض حوالي ثمانين ميلاً باتباع الطريق الذي سلكناه، ولعله يقل قليلاً ـ حوالي سبعين ميلاً ـ بطريق مباشر كان يتفرع من حفر العتش، عند روابي الحنادر ويجري من خلف سلسلة الخناصر إلى الخفس، حيث يلتقي بالطريق الرئيس ثانيةً. بدأ السباق بهدوء وتابع المتسابقون الرايات حتى بداية الطريق المختصر حيث شهد ابن سعود بداية الصراع. تناول المتسابقون طعامهم معاً، وخلدوا إلى الراحة قليلاً قبل أن يشرعوا في سباقهم نحو الوطن. كانت التوقعات المثيرة حول النتيجة هي حديث الناس في المعسكر في تلك الليلة، وكان الكثيرون يرشحون ذلول عبدالله التي اشتراها منذ عهد قريب، من آل مرة مقابل ١٠٠٠ دولار، بينما كان تركي مَحَطاً لكثير من الثقة. وصفه لي أحدهم: «والله خيّال» وهو إعجاب بدا لي غريباً على شفاه عربي، إذ أن إجادة الركوب أمر بدهي في الجزيرة العربية، فهم يركبون منذ المولد، وحتى داوتي مع كل صداقاته الحميمة المستمرة مع العرب لم يسمع أحداً يثني على مقدرة آخر في الركوب. واعتقدت أنني قد قابلت استثناءً للقاعدة، ولكن سرعان ما بينوا لي خطئي إذ أن الكلمات لم تكن تحمل المعنى الذي فهمته، بل كانت تشير إلى شجاعة الشاب ومهارته في الحرب وليس لركوبه على ظهر الخيل.

فاز تركي بالسباق ـ وهو نجاح أعجب الناس ـ وجاء سلمان ثانياً. وصل الفائز إلى الرياض قبيل فجر اليوم التالي، وقد بقي ـ في جملة الأمر ـ اثنتا عشرة ساعة على ظهر مطيته، وفقاً للتقدير العام. ولم يكن هناك إعجاز في إنجاز تركي، إذ أن سرعة ستة أميال في الساعة تزيد قليلاً عن سرعة سبَّاح ماهر، ولكن الجزء

(١) سلمان بن محمد آل سعود. (المراجعون).

الأول من السباق كان بالسرعة العادية، ولابد أن السرعة التي ركب بها في الجزء الأخير من السباق قد بلغت ١٠ أميال في الساعة على أقل تقدير، وذلك في مسارات غير جيّدة بما في ذلك مسافة امتدّت لميلين من الرمال الثقيلة في عرق بنبان. لقد قطعتُ أنا المسافة عبر الطريق الطويل في خمسة وعشرين ساعة من الركوب. توزعت على أربعة أيام، وقطع ابن سعود مسافة ٤٦ ميلاً بين الخفس والرياض في ثلاث عشرة ساعة - بما في ذلك التوقف، ولكن هذه الإنجازات ما كانت لتلفت انتباه أحد. وكان زبارة ومطيلق، مرافقاي في رحلتي إلى جدّة، قد قطعا الرحلة بين مكة والرياض عن طريق مرّان والشعراء في ثمانية أيام، مسافرين بهذه السرعة الكبيرة على إبل أنهكها المسير في الرحلة الأولى من الرياض إلى جدة. كان هذا إنجازاً رائعاً رغم أنه قد لا يقارن بالإعجاز الرائع في رحلات لورانس أثناء حملة الحجاز، أو بما دُوِّنَ من سرعات مذهلة وتَحَمُّلٍ عظيم[1].

تم إيقاظي صباح اليوم التالي، في الساعة ٣:٣٠ لأجد أن ابن سعود كان ملتزماً بكلمته وغادر مخلِّفاً وراءه المعسكر في حالة من النشاط والصخب لم يكن ليسمح بنجاح أي محاولة لمواصلة النوم. كان الظلام مخيماً عندما خرجت من خيمتي، وكان كوكب الزهرة يشعّ وسط هالةٍ بدأت تتلاشى تدريجياً مع لمعان أضواء الصباح، الفجر الكاذب كما يسميه العرب، والذي أخلى السبيل خطوة فخطوة للأضواء المصفرّة المصاحبة لبزوغ الفجر. كان إبراهيم قد شرب إناء من بول الإبل بغرض العلاج من إمساكٍ صاحبه لأيام أربع مسبباً له التعاسة، وشكر الله على أن عُوفي، وأمّ الجماعة الصغيرة المصاحبة لي في صلاة الفجر. وبعد أن اكتملت الاستعدادات ركبنا لنلحق بالجيش، وكنّا نتخطّى أثناء سيرنا قوافل أمتعة، الآخرين المنفصلين عن الجيش.

---

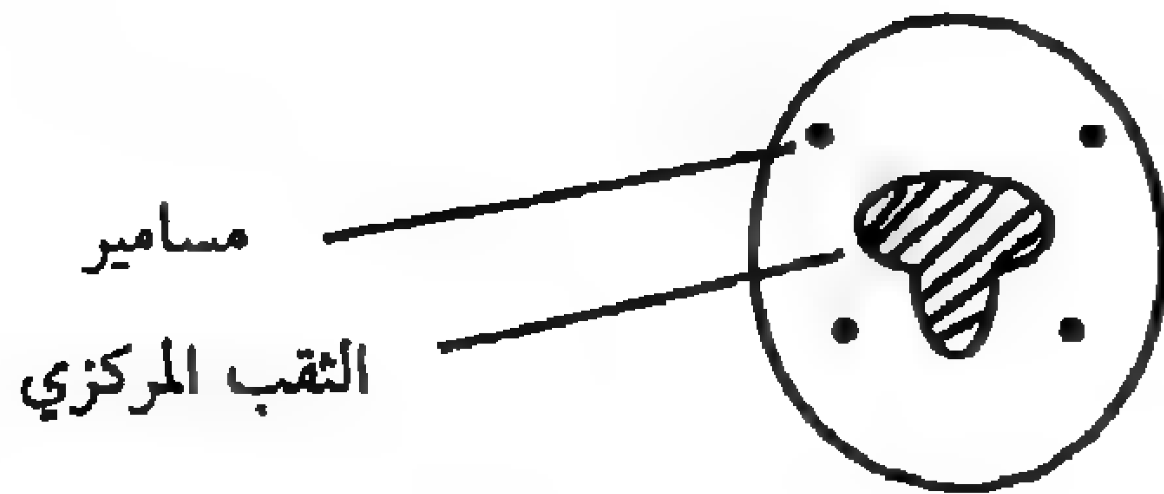
(١) راجع الجزء الثاني، ص١٨٠ . (المؤلف).

لاحظت أن كل الجياد التابعة لابن سعود وأفراد القوة الآخرين تنتعل حدوات شكلها غريب[1] مكوّنة من قطعة معدنية تتخذ تقريباً شكل القلب، وفي وسطها خُرمٌ - هو وفقاً لعلم إبراهيم - للزينة فحسب، وتغطي الحدوة أسفل الحافر كاملاً وتثبت بمسمارين على كل جانب، إن ما يستوجب استخدام الحدوات في نجد هو طبيعة الأرض الصخرية، بيد أن الشكل المستخدم يوفر قليلاً من الحماية فقط، وهي لا تُستخدم إلا إذا كانت الجياد مطلوبة لعمل يومي، ولكن لا يلتفت لحوافرها عندما تكون في الإسطبلات أو في المراعي.

كنا نسير لمسافة ثلاثة أميال تقريباً بمحاذاة الجانب الأيمن للوادي الذي تباعدت السلاسل المحيطة به عندما اقتربنا من البطين، وكانت الأرض التي نسير فوقها تتحول تدريجياً إلى أرض رملية مع رقاع تظهر أحياناً من الكثبان المنخفضة المغطاة بالشجيرات. لاح هناك على البعد أمامنا، وإلى اليمين قليلاً جبل مجزَّل الطويل، بينما بدت سلسلة خزّة أمامنا على البعد لتحدد نهاية البطين وبداية مرتفعات منظومة طويق. كان يقف إلى الشمال الغربي من موقعنا أرض رأسية تُسمّى خشم علي ديراب، وينحدر عبرها طريق نحو البطين من اتجاه شعيب العصل. كانت هذه الأرض الرأسية تقع عند التقاء الجانب الأيسر للوادي مع الجرف الغربي للعرمة، بينما التقى الجانب الغربي بجوارنا، بالامتداد الجنوبي للجرف في كتف ناتئ من التلال المبعثرة والتي يجري بين طياتها الشعيبان، شعيب السُلْح وشعيب رويغب اللذان يعرفان معاً باسم شعيب (طيبات اسم)[2]، ويجري منحدراً نحو

---

(١) كان شكل الحدوة كالآتي:



والجزء المعدني هو غير المظلل. (المؤلف)

(٢) الصحيح أن (طيبات اسم) يطلق على السلح والسلحية وما حولهما، وليس على السلح ورويغب فقط. (المراجعون).

العـتش في الموقع بعـيداً عن مـرمى البـصر، في أعلى تـلك الأخاديد نضح مـاء بالاسم نفسه، وتم تحويل الموقع بعد مغادرتي للجزيرة العربية هجرة للأخوان[1].

ابتداءً من هذا الموقع، يتخذ حوض البطين اسم سـهلات الخفس، وتتصرف ميـاهه نحو العتش، ولكن إلى الجنوب قليـلاً، في منخفض الخفس. كمـا يجري جرف العرمة الوعر من أبو جفان الواقعة خلفه. تقع سلسلة خزة التي ذكرناها آنفاً إلى جهة اليمين، بينما يرتفع الجزء العلوي من حفر العتش إلى المرتفعات التي تقع بين حدّه الجنوبي ومنحدر منخفض غيـر محدد المعالم ولا اسم له. ويصطدم طرفه الجنوبي بالتلال الرملية المرتفـعة المسمّاة عرق بنبان. حـدثوني عن قرى متناثرة في المرتفعات، عشيرة والحسي ودقلة وهي القرى الطرفية لبلدان سُدير[2]، وكنا نشاهد هنا وهناك مجـموعات من البدو من إحـدى مخيمـات السهول الصغـيرة. يرعون خرافـهم التي كان يغلـب عليها الـلون الأبيض. كان المنحـدر الصخري الـشاهق المتاخم لخطِّ سيـرنا يرتفع ٣٠٠ أو ٤٠٠ قدم فوق مسـتوى السهل، وكانت قـمته التي أبلتها الرياح وعوامل المناخ الأخرى، تبدو هياكلها في أشكال غريبةٍ في نحتها وهي تحصبُها بالصـخور المفتتة، لتتكوّم بقاياها عالية حـول قاعدة المنحدر، وكانت الصفوف المنتظمة غير النهائية من الأرض الرأسية العابسة تتقهقر لمسافة بعيدة، ولم ينس العـرب أن يعطوا اسمـاً لكل منهـا. قررنا أن نتـوقف لنتناول إفطارنا، بعـد مسـيرة حوالي أربع ساعـات، في شعيب الخـفس، وهو مهد سيول رملي تُغطِّي أطرافه الشجيـرات ومجموعة وافرة من أشجـار الطلح الكبيرة والشار ذي الأوراق العريضة التي تمتد حـتى قمة الهضبة، وسط تشكيلة رائعـة من الصخور الجلمودية

---

(١) راجع الحاشية ٤٧٢ . (المؤلف).

(٢) الصحيح أن تلك القرى في الشعيب وفي أطراف المحمل. (المراجعون).

التي كانت إحداها في شكل برج صخري رفيع يقف على جلمود ضخم ويسمى الإصبع، بينما بدت بعض الأخريات وكأنها أعمدة أو قوصرات (مثلث في أعلى المبنى) هَوَتْ إلى الأرض من معبد ضخم قديم، واضطجعت في وسطها صخرة هائلة اتخذت - دون أن ينحتها بشر - شكل أبي الهول. لم يكن الموقع الذي أُختير لإقامة المعسكر بعيداً، ولم يكن هناك داعٍ للعجلة، وكان الاضطجاع في الظلّ البارد تحت أشجار السنط مغرياً، فنزلنا لنتناول وجبة خفيفة مكونة من الأرز واللحم الباردين وفرها لنا المطبخ الملكي، ومن ثمّ قمنا بالتدخين وارتشاف القهوة على سهل بعد الفراغ من الطعام.

كنت كثيراً ما ألتقى خلال هذه الأيام ببعض المعارف القدامى، في الغالب أصدقاء رحلة جدة، لكنهم أصدقاء قد نسوني، إذ أن معظمهم يمرون في الجانب الآخر دون تحية أو أي علامة تنبئ بأنهم قد تعرفوا عليّ، بينما لم يُكلف أي منهم نفسه عناء زيارتي في خيمتي. أتى الطباخ ابن نصار يوماً ليقابل إبراهيم في بعض شأنه، ووجدني معه وهمهم ببعض اعتذار واهن عن عظم مشاغله عندما قرعّته، وعندما قابلني جرمان وزبارة وجهاً لوجه حيّوني تحيةً مقتضبة جافّة. أما ضيف الله ومنور وأبو نورة فقد حولوا أبصارهم عنّي عندما مرّوا بي خلال هذه الرحلة التي مررت أثناءها أيضاً بعبدالله النفيسي، المحارب أمير ضرما، الذي استضافني في بيته أثناء زيارتي لقريته، لكنّه الآن لم يصدر عنه ما ينمّ عن معرفته لي. هؤلاء الرجال لهم أحوالهم في بيئتهم الخاصة رغم أنّهم كثيراً ما يستقيمون في حالات أخرى. على المرء أن يسعى للحصول على حسن وفادتهم وكرمهم في بيوتهم الخاصة، أو أن يبقى لديه الأمل في أن يكتشف وينال يوماً الودّ الكامن في عنصر العرب. صمد اثنان فقط من أصدقائي أمام اختبار التباعد، أو كانت لهم الشجاعة لمواجهة انتقاد الرأي العام.

عاودنا المسير، وسرعان ما وصلنا إلى معسكر ابن سعود الذي أقامه في منتصف المسافة بين المنحدر الصخري وبين طرف سلسلة عرق بنبان الرملي، في رقعة فسيحة من الكثبان الرملية التي تغطيها الشجيرات والتي تسمَّى (دكاكات الخفس). يقع غدير الخفس في قاعدة المنحدر الصخري الشاهق المكوّن من الحجارة الجيرية السوداء والحمراء على ارتفاع يقارب ٥٠٠ قدم. وكانت بقرب الغدير أو البركة طبقة مائية[1] ضحلة جداً في منخفض مجاور في اتجاه الشمال. وكان العرب يعللون سبب وجود البركة نفسها بسقوط نجم كعاداتهم في ربط كل الصدوع ذات الصفة المشابهة بسقوط النجوم. وكانت البركة نفسها صدعاً غائراً في الأرض بطول ٨٠ ياردة وعرض ٥٠ ياردة، ولها امتدادان رفيعان يتَّخذان شكل المخالب ويعطيان البركة مظهر السرطان البحرى؛ ومن خلال الامتدادات تجد مياه التصريف للمنطقة المحيطة طريقها نحو البركة.

عندما عسكر القوم في هذه المنطقة في العام الماضي كان الحوض مليئاً بالماء حتى الحافّة بسبب الأمطار الغزيرة، ولكن في هذا الوقت لعلَّ عمق الماء كان ينحسر عن الحافّة بقدمين أو ثلاثة، ويصل عمق الماء في منتصف البركة حوالي ثلاث قامات، هكذا قالوا لي. شربت من ماء البركة بينما كان العرب وإبلهم يستحمّون فيها ويتمرغون في أطرافها الضحلة. كان الماء صافياً وعذباً مثل أيّ ماء وجدته في جزيرة العرب، ولكن البركة وكل السهل المحيط بها، من العتش وحتى المنطقة التي تقع بعيداً إلى الجنوب من مخيّمنا كانت مخصصة للاستعمال الملكي أو

(١) كانت هذه مساحة سَطحيّة تبلغ ٤٠×٢٠ ياردة بعمقٍ قليلٍ من البوصات فقط. (المؤلف).

(حِمى) كما يسمونها. ونتجت عن هذا التحديد ذي الأهمية البالغة وفرة في نباتات المراعى: العرفج والرمث والربلة ذات الشأن. ويؤتى بالإبل الملكية من وقت لآخر لترعى بها في الأوقات الفاصلة بين حملة وأخرى أو بين الرحلات.

«لعلهم أخبروك عن الأمر؟» سألني ابن سعود، عندما دخلت خيمته فور وصولي للمعسكر. كان من حسن الحظ أن رافقني إبراهيم للحضرة الملكية، ولم أكن أدري إن كانت حقيقةُ إسراره لي بأمر زواج سيّده في الليلة السابقة قد يجلب عليه بعض الضرر. فتمهّلت في الردّ عليه لأجعل إبراهيم يردّ على السؤال بنفسه: «لقد نسيت والله أن أخبره بالأمر». ثم حدث بعض الارتباك، فقال الزعيم؟ لماذا؟ لقد اتّخذت زوجة في الليلة الماضية. «فأجبت» لم أعلم بذلك والله، ولكن إبراهيم أخبرني أن أنباء وردت إليكم بالأمس عن مولد بنت لكم بالرياض، أهنّئك بالحدث السعيد. كانت بالفعل أرملة أخيه سعد قد ولدت له بنتاً. أخبرني بعدها أن زوجته البدوية الجديدة لم تسرُّه كثيراً، وأنّه قد تركها في ساعة مبكرة قبل لقائي مباشرة، ولن يجد هناك وقت فراغ ليقضيه مع زوجة جديدة. هكذا انتهت قصة غرام الفتاة المسكينة، صارت ملكة حقيقية ولكن لساعات فقط، والآن ستعود أدراجها لخيام والدها. مرَّ بنا موكبها الصغير وبه الهودج ذي الستائر التي حجبتها عن أنظارنا، أثناء تناولنا للإفطار في الشعيب، وأقدم علينا رشيد أخو حسناء الذي كان مسؤولاً عن راحتهما، أتى ليطلق نكتةً عن العروس مع إبراهيم، هل تعرف الرجل؟ سألني إبراهيم ليعرفني بالرجل هل تدري لماذا جعلوه مسؤولاً عن الفتاة؟ إنَّ زوجته تودّ الطلاق منه لعجزه الجنسي، لذا حقّ لابن سعود أن يأتمنه على أمر كهذا. فضحك الرجل في مرح قائلاً لعنة الله عليك، إنَّه شخص وضيع يا سيدي وكذاب؛ قال ذلك وذهب تتبعه ضحكة بذيئة.

أقيم معسكرنا بين كثبان الرمال لسبب خاص، إذ لا يمكن الركون إلى الطقس في هذه الأماكن في وقت الربيع، إذ أنَّ هطول الأمطار في المرتفعات قد يتبعه دون إنذار سيلٌ عارم يقذف بكلّ ما يجده في طريقه في البركة. لذا لم يكن من العقل الإقامة في السهل الفسيح. ولكن الرمال تصير كريهة إن هبّت الرياح كما يحدث دائماً. بدأت المصاعب بعد الظهر بأسوأ ما رأيت من العواصف الرملية ـ بدت في أول الأمر كسحب خفيفة تتهادى فوق هضبة العرمة متوجهة صوبنا من الشمال، ثمّ تحوّلت إلى دوامة من الرمال ترتفع إلى عنان السماء، فطمست معالم الجرف وهي تتوجه نحونا مباشرة. هرعت إلى خيمتي لأحضر آله التصوير، وتمكّنت تقريباً من التقاط صورة للعاصفة القادمة قبل أن يلفّنا الإعصار، زوبعة عظيمة من الرياح والرمال أحالت النهار إلى ليل؛ ثم ذَهَبَتْ في لحظةٍ كما جاءت، لتتبعها أمطار غزيرة قبيل الغروب لتخلي الأجواء من الرمال العالقة، بينما كانت تعلو مرتفعات طويق سحبٌ كثيفة تنذر بِوابلٍ غامر، ويصاحبها كثير من البرق والرعد.

قال لي ابن سعود: «لقد رأيت الليلة الماضية حلماً، وكثيراً ما تحققت أحلامي إذ أنعم الله عليّ بأن أرى المستقبل من خلال هذه الأحلام. قبل سنوات عديدة رأيت فيما يرى النائم مئذنةً عالية كان سلطان تركيا حينها، عبد الحميد يحاول تسلقها، ولكنه فشل في كل محاولاته. وفي نهاية الأمر يئس من النجاح وهمهم بأنّه لا يملك القدرة للوصول إلى قمتها. وبعد ذلك بقليل سمعت نبأ خلعه، ورأيت أيضاً، قبل الحرب بستّ سنوات في منامي، السلطان الحالي محمد رشاد يسير في حديقة غنّاء، ونظرت ثانية، فإذا بالحديقة قد أصبحت خراباً». سألني السلطان عندما رآني: «من أنت؟»، فأجبته: «ابن سعود»، «وفي الليلة الماضية رأيت مئذنة عالية وكأنها مئذنة جامع دمشق» ـ لم يكن ابن سعود قد زار

دمشق من قبل ـ «وكان حشد من الناس يطلقون النار عليها دون جدوى، وهذا الحلم يعني بالتأكيد أن البريطانيين سوف يستولون على دمشق».

تفرّق "القوم" في الخفس؛ وغادر ابن سعود في سرعة بالغة قاصداً العاصمة؛ وذهبت الفرق المحلية إلى مواطنها المختلفة، وتركونا مع قوافل الأمتعة والمؤن لنتوجّه صوب الرياض دونما عجلة. كانت المرحلة الأولى منهكة بعض الشيء، وهي مسيرة ثلاثين ميلاً حتى شعيب مخار. سِرنا عشرين ميلاً بطول امتداد وادي البطين صوب الجنوب الشرقي، وكانت سلسلة تلال عرق بنبان الممتدة عن يميننا، ومنحدر العرمة الشاهق عن يسارنا مع تتابع لا نهائي للأراضي الرأسية. كانت أولاها خشم الخفس بجوار البركة العظيمة، والثانية المفيخ (Almufaikh)[1]، التي يمرّ بجوارها طريق يرتقي إلى آبار رماح فوق الهضبة، تليها العمياء ويوجد عند سفحها ثقب ماء «جلطة»؛ ثم تأتي الطوقي وحُميِّم، والحمامة، والشمامة، بهذا التتابع. وتجري خلف آخرها سلسلة البويبيات مع آبار البرشاعة وبُرَيشيع، مختفية في أخاديدها.

كان الوادي نفسه ذا طبيعة متدرجة. وكانت تقسّمه سلاسل خفيفة إلى منخفضات شبيهة بفوهات البراكين دون أن تلتقي قنوات الصرف بها. كان أولها وأهمها منخفض الخفس الذي كان يغذّيه شعيب يحمل نفس الاسم وينحدر من العرمة، وشعيب آخر يسمى شعيب بيهام الذي يبدأ في مرتفعات المحمل ويعبر الأطراف الشمالية لعرق بنبان، أمّا ثانيهما فكان منخفضاً خالياً من الماء: روضة الطوقي، ويقع ـ خلافاً للأخريات ـ أسفل تلٍ رملي ويغذيه شعيب ينحدر من

(١) كذا ورد الاسم في الأصل الإنجليزي وصحته نُفَيْخ. (المراجعون).

الأرض الرأسية التي يحمل المنخفض اسمها، ثم يأتي حوضٌ يقع أسفل خشم الثمامة، وأخيراً وفي الموقع الذي ينقسم فيه الوادي، والذي فارقناه فيه، تقع روضة أم السلم، وهي رقعة فسيحة من الشجيرات الصغيرة. كانت بعض التلال الصخرية الناتئة تتبعثر طولياً هنا وهناك بامتداد سطح الوادي، ومنها سلسلة حشات أم السلم بالقرب من روضة أم السلم، وأيضاً سلسلة مُوَيْكة بجوار الأرض الرأسية الطوقي.

توقفنا قليلاً على الرمال الناعمة لتناول وجبة منتصف النهار وللقيلولة، وبعدها تحملنا رمال عرق وهي ترتفع من الوادي من خلال أربع موجات من الرمال الثقيلة شديدة الانحدار، كلٌّ واحدة ترتفع عن التي تسبقها واستغرقت منّا ربع الساعة وكثيراً من الحثّ للحيوانات لارتقائها، وبوصولنا إلى القمة وجدنا أنفسنا على نجدٍ ضيقة من الرمال تعلو السهل بحوالي مئة قدم، ويبلغ عرضه حوالي نصف الميل. استطعنا من فوق هذه القمة أن نشاهد بوضوح صخور العرمة الشاهقة من أحد جوانبها مع تل برمة الشبيه بالقبّة، يسمو فوق قمة سلسلة البوييات فوق نضح برْشاعة، وعلى الجانب الآخر رأينا امتداداً عريضاً لتلال رملية[1] منخفضة برزت بينها الرمال المخروطية المسمّاة نقع الشمالي ونقع الجنوبي، مع مسافة بينهما. كان وادي شعيب بنبان يقع خلف الرمال وفي أعلاه منزل ريفي "قصر" يحمل ذلك الاسم وسط حقول الحبوب المروية، ومن خلف كلّ هذا ارتفعت قفار المحمل والعارض الصخرية المهجورة؛ سلسلة إثر سلسلة.

كان الهبوط من النجد للرمال الأدني شاقاً عصيباً إذ كانت التلال الرملية شديدة الانحدار، ولكن لم تواجهنا مصاعب بعد ذلك ونحن نسير فوق أرض موحشة كئيبة. كنا نعبر بين الحين والآخر شعيباً يجري من الشمال الغربي نحو

---

(١) تُعرف باسم معيزل. (المؤلف).

الجنوب الشرقي: شعيب الثميلية وروضة طُليحة، وأخيراً شعيب مخار الذي قضينا الليل باقترانها جميعاً بالقرب من روضة أم السلم، التي يتفرع عندها ـ كما ذكرنا من قبل ـ وادي بطين إلى جزأين، كل فرع على أحد جانبي مرتفع الجبيل[1] الذي يجري وادي السلي بطول جرفه الغربي حتى تخوم الخرج، بينما الفرع الثاني الذي يتبع اتجاه منحدر العرمة الصخري، ويصير لاحقاً وادي أو سهل الترابي. لقد وجدت نفسي ثانيةً بين المعالم والأسماء التي أعرفها، تلك التي مررت بها في رحلتي الأولى داخل الجزيرة العربية، ولقد وصفت حينها بمتعة مثيرة من على البعد كتف جبل خشم العان العظيم الذي كان متجهماً عند عودتي إليه عما كان حين رأيته للمرة الأولى. هكذا قضينا الليلة الأخيرة في المسيرة الطويلة تحت ظلال أشجار طلح طويلة، بعد أن نصبنا خيامنا وسط غطاء نباتي كثيف من الأرطا وشجيرات أخرى بجوار مهد سيول مغطّى بالحصباء، ويجري مُتلوياً بين شواطى منخفضة تبعد بقدر عشرين أو ثلاثين ياردة بين ضفتيه. تجمع السحاب على ظهر الطريق، ونثرت فوقنا قطرات من الرذاذ، وران حولنا سكون القفار.

سرنا صباح اليوم التالي عبر القفر المتموج حشات البلاد ذي المنحدرات الحجرية العارية التي ترتفع بتدرُجٍ لطيف لسلاسل لا نهاية لها من التلال. وكانت تقاطع طريقنا مهاد وسيول هزيلة تجري في اتجاه وادي السلي؛ كان ذلك القفر هو الذي يفصلنا عن العاصمة. وكان صقع مونّسية المشابه يبدو بعيداً عن يميننا في اتجاه بنبان بينما كان يَحدُّ الأفق في الجانب الشرقي منحدر الجبيل الصخري. بعد أن سرنا ميلين أو نحوها بلغنا شجرة سنط منفردة تحمل اسماً جليلاً: طلحة المقيل بسبب الظلّ الذي توفّرهُ للمسافر المتعَب، وقد انتصبت في مجرى فرعي صغير لشعيب أبو الجرفان الذي عبرناه بعد ذلك بقليل، وكان السطح الطفلي للمنخفض

---

(١) يعرف أيضاً باسم الجبيلة. (المؤلف).

الذي يجري فيه شعيب أبو الجرفان مبتلاً بسبب أمطار هطلت قريباً، وكانت البرك التي لم تمتص مياهها الأرض بعد تتناثر هنا وهناك، وكوّنت إحداها بحيرة صغيرة لا يقل طولها عن عشرين ياردة، بينما لم يتعدّ عرضها أقداماً قليلة. تروّت الإبل هنا، ثم تابعنا المسير نعبر شعيباً إثر آخر، ومن بينها شعيب عقولة وأبو مصران الذي وجدنا فيه على قمة شجرة طلح ظليلة عُشّاً لنسر به طائران صغيران وكانت الأم القلقة تلفُّ وتدور فوقه ترقبُ تحركاتنا. صارت السلاسل الآن أكثر وعورة، وفي بعض المواقع تحوّلت إلى مجموعات تقع عن يميننا وتسمى مُغرزات، بينما كانت المجموعة الأخرى عن يسارنا، والأخرى المواجهة لنا تعرفان معاً باسم "أبو مخروق". ومن خلال الصخور المتناثرة للأخير كنا نسير صوب سلسلة تلال أعلى من الأخريات. وعندما بلغنا قمتها نظرنا إلى الأسفل لنشاهد الروابي الصخرية بين واحات الرياض الداكنة. "لا إله إلا الله"، لقد بلغنا غايتنا وانتهت الرحلة الطويلة؛ كانت خطوط النخيل الداكنة الطويلة تقع أمامنا شرقاً وغرباً في وسط مرتفعات طويق القاتمة.

ولكن قبل أن نتمكن من طيّ المسافة التي تفصلنا عن بوابات المدينة سيجيء وقت صلاة الجمعة وستقفل البوابات في وجوهنا، إذ أن وصولي للرياض صادف للمرة الثانية يوم الجمعة. رأينا أن نتوقّف بعض الوقت في ركن ظليل، وكنّا بجوار بقعة مناسبة، إذ أوصلتنا خطوات قليلة إلى سفح جبل المخروق (Al Makhruq)[1] الذي استمدت منه الروابي المحيطة به اسمها، وهو موقع لكثير من النزهات الملكية في أمسيات الصيف المنعشة. توقفنا هنا وأنخنا الرواحل على الطريق وارتقينا المرتفع ـ حوالي مئة قدم ـ ومشياً على الأقدام حتى فتحة الكهف الذي كان فلقة

(١) كذا ورد الاسم في الأصل الإنجليزي والمعروف أن اسمه: "أبو مخروق" وتقدم أن ذكره المؤلف باسمه الصحيح. (المراجعون).

غريبة من فلقات الطبيعة، إذ انشقّ نفقٌ يمرُّ عبر قمة الجبل، وله فتحة في الجانب الشرقي وأخرى في الجانب الغربي، وكان معروشاً بالصخور، كان في تجويف هذه الحجرة ذات الجدران الصخرية مساحة تسعُ عدداً كبيراً من الناس، وارتمينا على الحصر في استرخاء لفترة زادت عن ساعتين، نأكل ونشرب القهوة وننام مستمتعين بحمى ذلك الكهف، بعيداً عن الشمس والريح. كان إبراهيم حريصاً على أن يترك انطباعاً جميلاً على نسائه، وعلى شباب المدينة المتحضرين، لذا قضى معظم ذلك الوقت يُشَذّب لحيته وينظر في إعجاب لصورته في مرآة صغيرة قام بعض الآخرين أيضاً باستعارتها منه لسبب مشابه. ولكنني قاومت كلّ الآراء التي كانت تقترح أنني يمكن أن أبدو في هيئة أحسن؛ وقضيت بعض الوقت بصحبة منظاري المكبّر على قمة الجبل، أتمعَّنُ في المنطقة المحيطة. كانت الطرق تخط السهل المحيط بنا من كل جانب، لتلتقي كلها في الواحة العظيمة؛ وكانت هذه الطرق تعجّ بالإبل الرائحة والغادية ـ قافلة قادمة من الأحساء، أو إبل ملكية تخرج في اتجاه المرعى بعد أن عادت من المعسكر. وحلّق غرابان فوق صخرتنا في احتجاج على تدخلنا وهما يطلقان صيحات أبوية تحذيراً لصغارها الساكنين في عُشٍ يعلو نتوءاً صخرياً على حائط الكهف.

حان في النهاية وقت الرحيل، وقادنا الطريق عبر مزارع بيوتها في الأطراف تسمى بالمربع، ومرّ بنا بجوار حدائق نخيل الشمسية نحو البوابة التي دخلت إلى الرياض عبرها في المرة الأولى قبل حوالي خمسة أشهر. كان القصر مفتوحاً ومررت بالطرق المألوفة نحو ساحته، حيث أكد ترحيب ابن مسلم رئيس الخدم والبقية بالقصر أنني لم أكن غريباً عليه. كنت قد قطعت خلال ثلاثة وعشرين يوماً منذ أن غادرت البصرة ٤٠٠ ميل، وكنت سعيداً أنني سأقضي قليلاً من الأيام في راحة قبل أن أواصل تجوالي.

٤- الرياض في وقت الربيع

أخذوني مباشرة إلى حضرة ابن سعود الذي وجدته مشغولاً كعادته في مكتبه بالطابق الأول، وعندما نهضت لأغادر المكان بعد دقائق قليلة تجاذبنا فيها الحديث وشربنا أثناءها القهوة، قال لي: «انتظر برهة، لقد أرسلت في طلب الأولاد ليأتوا لتحيّتك» ثم صاح في أحدهم: «قل للأولاد أن يأتوا سريعاً» لم يكن ليستطيع أن يجاملني بخير من هذا، أن يرحب بي في القصر أبناء الملكة، الأمراء الصغار الذين يحبهم أبوهم حباً عظيماً من أجل والدتهم، كان شرفاً عظيماً يسبغه مضيفٌ على مضيفه؛ لقد كانت إشارة غير مباشرة ولكنها واضحة لإدخالي في دائرة العائلة وهو إشعار عام بأن علاقتنا قد تخطت الرسميات ودخلت الدائرة الشخصية، ومنذ ذلك الوقت كنت أشعر في القصر الملكي بأنني في داري، بينما كنت في السابق أقيم كضيف شرف. وظهر الأميران الصغيران بعد لحظات: محمد وخالد وعمر كل منهما، على التوالي، تسع وست سنوات. وعند دخولهما وقفت لأحييهما وتقدما في تؤدة وبكياسة محببة اشرأبًا مُدِيرِين وجهيهما الصغيرين للتقبيل. بقيت معهما طويلاً وسألتهما عمّا يفعلان، قبل أن أنهض مستأذنا مضيفي في الانصراف حيث أخذني بعضهم إلى الغرف نفسها التي أقمت بها في ديسمبر (كانون الأول). كانت حاجتي للاستحمام ولإبدال ملابسي عظيمة، نتيجة آثار سفر الصحراء الطويل. وبعد استقبالي من حين لآخر لبعض المعارف القدامى الذين أتوا لتحيتي، تُركت وحيداً لبقية اليوم لأرتب شأني.

بقيت هذه المرة بالعاصمة حتى يوم ٦ مايو (آيار)، سبعة عشر يوماً، وجدت فيها الفرصة لأرى شيئاً عن الحياة العادية، وعما يحيط بالرياض أكثر مما أتاحته لي زيارتي الأولى التي كانت مُقَيّدةً بالارتباطات الرسمية. كانت هذه الأيام هي آخر ما تبقى من أيام الربيع المنسحب، كانت أيام الشمس الساطعة والعواصف،

يتعاقبان في انتظام أشبه بتعاقب الليل والنهار. يأتي الفجر، وبعدها تغرق الأنحاء تحت أشعة الشمس البهيجة التي تبردُ أثرها النسمات الشمالية. ثم تنزوي النسمات متقهقرة عند اقتراب الظهيرة وتصبُّ الشمس جام حرارتها في شكل أشعة حارقة ترسلها من دائرةِ خطِ الزوال نحو طرقات عارية من الظِّل، ثم تحوّلُ الرياحُ اتجاهها بزوال الشمس عن كبد السماء لتهب علينا نسمات جنوبية لطيفة، وتنفث الرياح فوقنا سحابة صوتية أو اثنتين، ثم تنذر عصفة الريح بقدوم العاصفة؛ وتبدو على البعد في اتجاه الجنوب سحابة داكنة مزمجرة تقدم بين يديها النّذُر، ويلفنا جو ساخن مترب؛ ثم تغوص الشمس نحو المغيب خلف الحافة المسننة للهضبة المائلة، في وهج مهيب، وتتقد أشعتها الملتهبة خلال العاصفة المتقدمة. ثم تدبّ الفوضى حين تجوس الرياح والغبار خلال الديار، وتتقلب السحب السوداء على ظهر طويق العريض مزمجرة وهي تسعى نحو الشمال مضيئة قتامة المكان بومضات البرق، ثم تنهمر رشة أو اثنتان من المطر، وإن لم يكن مطر فطلٌ، ليرقد بعدها الغبار وتنقشع العاصفة فجأة كما بدأت أول مرة مُخلّفة وراءها سلسلة من النجوم المشعّة في السماء الصافية، لقد كانت الأمسيات هادئة صافية.

هكذا كانت بالتقريب تجربتنا اليومية خلال هذه الفترة الأخيرة من زمن الربيع. قليلةٌ كانت الأيام التي مضت جميلة دون أن تَلُفَّها العواصف التي كانت تزمجر يومين في كل ثلاثة أيام. كانت الرياض تقع خارج خط العاصفة المباشر الذي كان يعلو قمم الأراضي المرتفعة، لذا كان نصيبها من الأمطار نزراً يسيراً، قد لا يتعدى بوصة واحدة خلال فترة الأسبوعين اللذين قضيتهما بها. لكن التقارير القادمة من الخرج كانت تحكي عن هطول أمطار غزيرة بها. بينما كانت السيول التي تتسابق في وادي حنيفة بين الفينة والأخرى تنبئ بهطول الكثير من الأمطار في المنطقة الشمالية.

كان حصاد القمح والشعير مستمراً بالمزارع كلها وكانت حقول الحبوب المتماوجة التي تنتظر القطع بالمناجل تتعاقب مع رقاع الجذامة في الحقول التي تم قطعها وقام أهلها بوضع حزم المحصول في أكوام دائرية لتقوم الثيران بدرسها قبل تذريتها. كانت العمالة المحلية عاجزة عن أن تلبّي احتياجات عمليات الحصاد، وكانت ظروف المناخ المتقلبة تحتم نظام حصاد الحقول بالتتابع، إذ يقطع المحصول في مساحة محددة وتتم عمليات الدرس والتذرية قبل الانتقال للمساحة التي تليها، وإلا فإنّ أمطاراً غامرة قد تفسد المحصول على أرض الدرس، أما المحصول الذي لم يقطع بعد فلا خوف عليه من العواصف، قد تحدث فقط خسائر محدودة من تساقط الحبوب من السنابل الناضجة. كما تؤدي النساء دوراً مهماً في عمليات الحصاد، وكنّ يُستأجرن لأداء المهمة الشاقة، وأجر يوم طويل شاق هو القدر الذي تتمكن المرأة بنفسها من حمله من الحبوب، وكان مشهد عودتهن في الأمسيات نحو المدينة مألوفاً، بعد أن يفرغن من حصاد حقل بعيد وهن يحملن حصيلة يومهن على رؤوسهن. في إحدى الأمسيات كنت في الخارج مع منور وعطا الله، على طريق الدرعية عندما مرّت بنا جماعة منهن في الطريق إلى دورهن، بعد أن قمن بحصاد محصول في مزرعة المغيدر على بعد أميال قليلة. وعند رؤيتنا توقفت عجوز ورفعت يدين ضامرتين إلى السماء وهي تدعو لي بطول العمر والرخاء. ومررت دون أن أفطن لمغزى ما كانت تعنيه، وعلمتُ بعد حين أنها كانت تظنّني أحد أمراء القصر الملكي نسبة لوجود خدم القصر في صحبتي. كانت هؤلاء النسوة بلا شك نساء الطبقات الفقيرة، إذ أن سيدات الرياض ما كنّ ليَرَيْنَ خارج بيوتهن، وإن فعلن فكنَّ يحتجبن في أزيائهن حتى لا يُرى شيء منهن. ويمكن للمرء في أحد الأيام الحارة عندما يستدير حول أحد الأركان أن يلمح لهنيهةٍ إحداهن وهي تسحب بعجلة العباءة السوداء لتلف جسدها، وقد تركتها تقع لبرهة، طلباً لتهوية

يسيـرة، ولكن لمحات كهـذه كانت إلى زوال سريع. بيـد أن النساء الفقـيرات كن يُرَيْنَ كثيراً في الخارج، في الطرقات والحقول، وعباءاتهن الخارجية في غالب الأمر من قـماش خـشن ذي لون بُني، تلبس على الرأس لتـسحب على الجسد حـتى الركبـة. كنّ يلبسن هذه العـباءات في داخل المدينة، ولكن يخلعنهـا عند الخروج منهـا عندما تكـون الظروف مواتيـة، ويبـقين في ملابس أجـسـادهن كلها حـتى الكاحل، وتكون هذه الملابس في غـالب الأمر حـمراء اللون، ويغطين رؤوسـهن وأعلى الجـسد بخُـمُرٍ سوداء من نـسيج قطني رقـيق، ويرتدين تحت هذه الملابس بناطيل واسعة من قمـاش أسود أو أحمر. كان مشهداً مألوفـاً أن ترى مجموعات الحصاد، إذ كـان هذا الأمر مشروعـاً، لأن عادات نجد تمنع صاحـب المحصول أن يعود ليلتقط المتساقط من الحصيد في الحقل إذ أنه هدية الخالق للمعوزين.

أهم المحصولات الزراعية بالرياض هي القمح والشعير، ويليهما في الأهمية في كل مزارع نجد، البـرسيم، وهو محصول العلف الوحيـد الذي تتم زراعته في أراضٍ شاسعـة وتكمن الحاجة إليه في مـراكز القوافل الكبيـرة، ليس فقط لتكملة النقص في نباتات الصحراء الـشحيحة التي يؤتى بها يوميـاً على ظهور الجمال إلى الأسواق، ولكن أيضاً لتزويد الإبل والجياد بوجبات ترحيب مُقوية عندما تصل من رحـلات طويلة عبـر الصحـاري، أو عقـب فتـرات طويلة من الجفـاف والندرة، تخصص مساحات شاسـعة من الأرض في الرياض لهذا المحصول، ليس فقط لأنه مربح للمزارع، ولكنه يتـفق مع فطرته المحبَّة للسهولة والراحـة، إذ أن البرسيم لا يستوجب إلا قليلاً من عناء لرعايته، وللسرعة التي ينمو بها، وللفترة الطويلة التي يبقى فيها منتجاً، مقابل متطلبـات لا تتعدى السقيا. بعد أن يُزرع البرسيم ـ هكذا يقولون ـ يبـقى منتجـاً لمحصول إثر آخـر خلال العام لمدة تـصل إلى سبعـة أعوام شريطة أن يسقى بعد كل حصاد. ولسبب ما لم أسبر غوره زراعة النباتات الذكرية

بمعزلٍ عن النباتات الأنثوية في شرائط متتابعة مما يعطي الحقل مظهراً رائعاً، الفرش أخضر والشرائط العريضة للزهور الأرجوانية تخططُه، والزهور الذكرية أكبر حجماً وأعمق لوناً من الأخرى. لم أكتشف ما إذا كان هذا الفصل بين الجنسين يتم في وقت الزراعة أم عند نقل النباتات في مرحلة لاحقة.

وجدت تحت ظلال النخيل وفرة من الخضراوات المزروعة، البصل والبامية والقثَّاء، والأخير هذا يسمونه خيرية في المدن ويسميه البدو سامان، وهو من أبرز هذه المنتجات. تُزرع نباتات القطن كنباتات فاصلة بطول المجاري المائية. من أشجار الفاكهة لاحظت التوت ونوعاً من التفاح البري والأعناب والرُّمّان والتين والخوخ والمشمش وما إليها. لم يطبق العلم في صناعة الحدائق في الرياض، وتتفوق القصيم عليها في هذا المجال، ولكن تربتها الغنية تنتج إنتاجاً وفيراً من الفواكه، وذلك استجابة لما يضاف من سماد طبيعي يسير ولِريٍ مستديم، سواء الآبار أو من الأمطار أو السيول التي تتوزع حصيلتها ببراعة بين البساتين بواسطة شبكة من الجداول التي تدخل البساتين بالتناوب من خلال فتحات في أسفل جدرانها.

أثناء الأيام القليلة الأولى من إقامتي بالرياض تُركت وشأني فيما يختص بالبحث عن الرفقة. كان إبراهيم قد عيّن شاباً يدعى حمداني يرافقني أثناء تجوالي خارج القصر وليخدمني حيث أكون. وكان الشاب قليل المزايا، ذا هدوء يثير الشفقة، ولكنَّ الشاب المسكين لم يُخفِ عني أنه يخجل من أن يُرى في صحبتي أمام الناس، لذا كان يقودني معظم الوقت عبر طرقٍ جانبية وأزقة غير مطروقة مُصِراً على العودة للبيت سريعاً، وهو الأمر الذي كان يسخطني. لم يكن من الممكن إقناعه بالحجة، وبما أنني لم أكن أستمتع بصحبته تماماً كما كان هو لا يحب رفقتي فلقد قررت أن أزيحه عن طريقي بأن أفعل عكس ما كان يقترحه

تماماً. صرت أقوده دائماً عبر السوق المكتظ بالناس، وبجوار المساجد في الأوقات التي كان المصلون يسيرون فيها لأداء صلاة المغرب، وكنت أحتجُّ بأنني لست جوعاناً عندما يقترح عليّ أن نعود للبيت لتناول العشاء، وكنت أقوده لجسر منفوحة أو نحو الباطن لمراقبة غروب الشمس أو ترقب عاصفة متجهة نحونا. وانفجرت الأزمة مساء اليوم الرابع. كنت قد أخطرت حمداني أن يأتي إليّ في الساعة الخامسة إذ كنت أنوي أن أتجوّل لفترة أطول من العادة، ولم يحضر في الساعة المحددة، وانتظرت بصبر حتى وقت العشاء، وعندما جاء إبراهيم ليشاركني الوجبة وجد نفسه ضحية بريئة لثورة غضب عارم، وأخبرته أنني لا أود أن أرى حمداني هذا ثانيةً.

وفي اليوم التالي خرجت من المدينة بأن سرت منفرداً خلال السوق ثم عبر بوابة الظهيري (Dhuhairi)[1] حيث تجولت حول كل السور المحيط وفي يدي بوصلة وكراسة. بلغ نبأ تصرفي هذا ابن سعود، إذ لم يكن من المفترض أن أغادر القصر دون رفقة، وبعد ظهر اليوم نفسه أتى لغرفتي اثنان من موالي الملك مسلحين تسليحاً كاملاً بالسيوف والبنادق ومتمنطقين بأحزمة عريضة، وأخبراني أنهما بأمر سيدهما تحت إمرتي منذ هذه اللحظة، صباحاً وظهراً وليلاً ليصحباني حيث أريد، وما عليّ إلا أن أدعوهما فيستجيبان، وإنني إن أردت الركوب فهناك خيول على أهبة الاستعداد طوال الوقت. لقد التزما بما تعهدا به، وكلما مشيت أو ركبت كان أحدهما أو كلاهما يبقى إلى جانبي، وكان انقطاعهما لهذا الواجب لا يفتر. بعد هذا وصلت في تجوالي أقاصي الواحة وضواحيها دون أن أُعير المسافة أو الزمن اللازم لقطعها اهتماماً. وكان صديقاي الجدد ينافسانني في الصّبر والتحمل، الأمر

(١) كذا يسميها المؤلف. والصواب: بوابة الظهيرة. (المراجعون).

الذي أثار عـجب وإعجـاب ابن سعـود. وفي كل ليلة كـان الظلام يغلّف المدينة ويلفها بردائه قبل أن نعود إلى القصر لتناول العشاء، وكان التحادث معهما مصدراً للمتعة طوال الوقت، حيث كانا يحبان أن يمتعاني بقصصٍ من تجاربهم الخاصة أثناء طفولتهما في أفريقيا المظلمة وعن الجانب الخاص للحياة بالقصر، وعن الأشخاص والأشياء عموماً.

كان الرجـلان منور وعطا الله، أحدهما نوبي والثـاني تكروني من «سدنار» في أعالي النيل ـ كان كلاهما في حوالي نفس العمـر، تقريباً عشرين عاماً، ولكن كانت التجربة قـد صقلتهما في بلاد كثيـرة. «إن موطني الأصلي»، هكذا قال لي منور، وأنا أسـجل هنا قصتـه بكلماته ذاتهـا، دون تعليق هي بلد تدعى أبيـشا، تستغرق الرحلة منها للخرطوم عاماً كاملاً إذ أن رحلات الرقيق تسير هكذا، يكون معظم من بالقافلة من الأطفال الصغار ومن أجلهم لابد من الوقوف كثيراً وإلا فإن مصـاعب الطريق ستسلب مـالكيهم من هذه الثروة. لدينا سـلطان في تلك البلاد واسمه جرمـة؛ أهل البلد مسلمون، على الأقل هم يُصلون ويصومون كـما نفعل هنا ويمارسون الخـتان، ولسانهم كلسان العـرب. هناك عنصر آخر يعيـشون خلفنا يسمّـون جناقوا وهم ليـسوا من سلالتنا، رجـالهم عراة ولا تلبس نسـاؤهم سوى «فروة» من جلد الخراف يتـمنطقن بها حول خاصرتـهن، ينامون على التراب وإذا رأوا رجلاً مختـوناً يسألونه ما الذي قطع مقدمـة ذكره. في تلك الأيام كنت طفلاً أرعى خرافنا في الصـحراء عندمـا جاءت عصابـة من اللصوص ـ يسمـونهم تجار الرقـيق (جلابة) ـ وأتوا سـريعـاً إليّ وحملونـي، ولم أرَ بعدها أمي ولا إخـوتي الثلاثة، لابدّ أن اختفائي قد خلّف بينهم الحسرة والحزن. كان معي في نفس المأزق صبـية وصـبايا من أهلي، وحـضرت على ظهـر حمـار إلى الخرطوم ومنهـا إلى

سواكن، حيث عبـروا بنا البحار إلى جدة. كان ذلك قبل حوالي خمـسة عشر أو ستة عشر عاماً. ذهب بي الرجل الذي تولـى إحضاري عبر هذه المسافات إلى مكة ليبيعني في سوق النخـاسة، ولكن لم يشترني أحد خوفاً من الدولة، فيـما أعتقد وعاد بي سيـدي إلى جدة حيث تم ختاني ونـشأت في خدمته، كـان تاجراً وبعد مضي بعض الوقت صـرت أعمل بائعاً له، لكنه اتهـمني باختلاس أدراجـه وصار يضربني، ولجأ إلى البيع بنفسـه، ولكن تجارته لم تزدهر. وفي أحد الأيام سخرت منه لقلة نجاحـه، فضربني ثانيـة، وشكوته في المحاكم التركـية، لكن دون طائل، لقد كسـب القضية، وفي المرة التـالية أخذت القانون بيـدي وضربته ضرباً مـبرِّحاً وفررت إلى مكة، ولاحـقني ليأخـذ بثأره ولكن الشريف قـام بحمـايتي وأمر في النهاية على أن يبتاعني عن سيدي، وهكذا انتقلت إلى ملكية الشريف وبقيت بمكة ثلاث سنوات وفي نهـايتها ـ وكـان ذلك قبل ثلاث سنوات ـ بعث بي سـيدي مع أرقاء آخريـن كهدية لابن سعـود. حضرت عن طريق الشعـراء إلى الرياض خلال خمسة عـشر يوماً، ومنذ ذلك الوقت وأنا سعيد وناجح في خـدمة القصر، أرافق ابن سعـود في حملاته العسكرية. إنَّ الموالي يعـاملون معاملة جيـدة، ويقدّرون، ويوضعون في مـرتبةٍ عليةٍ هنا. لا تتـوجّه حملة دون أن يكون معـها أحد الموالي كرمز للسلطة الملكية من جانب وكمـراقبٍ للقائد من جانب آخر، إذ أن ابن سعود لم يكن يثق في أحـد سـوى العـاملين في القـصـر الذين كـان ولاؤهم له فـوق الشبـهات، ولهذا السبب فـإنّ طموحه هو أن يمتلك عـدداً كافيـاً منا ليعطينا راية خاصـة بنا في الحرب، إن تحقق ذلك فـسنحارب حتى الرجل الأخـير، ولكن في الوقت الراهن يبلغ عدد الموالي الذكور لديه فقط ثمانية وثلاثين، وهناك عدد قليل

في الرياض في ملكيــة بعض الأثرياء. إن عمي «يخـاطب الأرقاء أسيـادهم بلفظ عمي توددّاً» يعطيني عشرين أو خمسة وعشرين دولاراً كل شهر، وزوجني لإحدى الإماء في قـصره وقد ولدت لي بنتـاً. أنا بخير هنا ويعـاملني أهل القصر مـعاملة حسنة، ولكن أفضلهم إبراهيم ـ الحاجب ـ وهو لا يتعالى ـ كبعض الآخرين ـ عن مشاركـتنا الطعام. كان هذا هو تاريخ حيـاة أحد رفاقي الجدد. أما عـطا الله فقد سُرق بعيداً عن أهله في عمر صغير، وليس لديه سوى القليل ليحكيه عن بلده في أعالي النيل حيث وُلد.

سيذكر الناس أن مـيثاق الأمم الذي وقعت عليه بريطانيا العـظمى كما فعل ملك الحجاز يفرض على أعضائهـا ضرورة أن يبذلوا الطاقة والوسع لمحاربة الرق، والتعسُّفات المعروفة الأخرى، ولعل من المشوق أن نرى الآثار العملية لهذا الالتزام في ضوء سـيطرة بريطانيا العظمى التـامة على السودان وثـغوره وهو الطريق الذي يسلكه الأرقاء من أفريقيـا للجزيرة العربية. كما أشرت من قـبل فإن الإرقاء يلقون معاملة حسنة، وفي معظم الأحيان يعيشون حياة سعيدة في الجزيرة العربية، ولكن هذه الحقـيقة لا يمكن بمفـردها أن تبرر عمليـات تجارة الرقيق وأسـوأ ما فيـها هو حالات الوفـيات الكثيرة التـي تحدث بين الأطفال التعـساء الذين تتم سرقـتهم من آبائهم ويجـبرون على القـيام بتلك الرحلـة الطويلة المضنية من قلب إفـريقيـا إلى الساحل.

بعد ظهر اليوم التـالي لعودتي للرياض كانت هناك وليمة عظيمـة أقامها ابن سعود في القـصر بمناسبة وداع أفراد "القـوم" الذين رافقوه للعاصـمة. كان مكان الضيـافة هو فناء المبنى الذي كانـت غرفتي تكون جـزءاً منه في الوحدة الشمـالية الشرقية للقصر. صُفَّت في الساحة الرباعيــة العظيمة حوالي ستين أو سبعين صينيّة

مليئة باللحم والأرز ويتصاعد منها البخار، ورفعت الصواني عن الأرض بوضعها على حامل من أغصان مجدولة، وتحلق البدو حول الطعام، سبعة أو ثمانية حول الصحن الواحد يتناولونه بشهية زاد من حدّتها الحرمان المتصل الذي سبقها، كان يقف بجوار الحائط آخرون يستعدون لأخذ مكان من يخلي موقعه بعد الشبع. لم يكن عدد الذين تناولوا الطعام في ذلك اليوم يقل عن ٥٠٠ رجل. وجلس مضيفهم ـ وبصحبته كل أسرته ـ بينهم في أحد أركان الفناء، كان كل منهم ينهض وكلمات الشكر على شفتيه: «أنعم الله عليك يا أبوتركي»، ثم يمر إلى الفناء الصغير الذي تطل عليه غرفتي حيث يوجد إناء عظيم به ماء، فيغسل فيه يديه ويمسح بفمه قبل أن يغادر المكان.

تمّ استدعائي من غرفتي للوليمة، ومنها ذهبت لأحيي والد ابن سعود، الإمام عبدالرحمن، لم يكن الرجل المسن في قاعة الاستقبال عند وصولي، ولكنه أتى بعد دقائق قليلة محيياً بودّ، وبعدها جلسنا، هو بين الوسائد في ركن الغرفة، بينما جلست أنا عن شماله، ودارت فناجيل القهوة على الفور. كان صامتاً بعض الشيء يومها، واضطررت أن أتحدث معظم الوقت، ودار الحديث حول الحرب وعن التغييرات التي طرأت على بغداد في السنوات الأربعين التي مضت منذ أن زار هو المدينة في أيام شبابه. كانت تقاطع حديثنا فترات من الصمت، وبدأت أتساءل عن الدورة الثانية لفناجيل القهوة التي ستتركني حُراً لأطلب الإذن بالذهاب، ثم استدعى الإمام الخادم الذي أتى بي، وفي كلمات قليلة طلب منه أن يقودني إلى خارج المكان، وبعد ذلك نهض ومدّ يده وفعلت الشيء نفسه، واختفيت عن الساحة وأنا أقول بوهن: «في أمان الله»، ولم يجب هو.

التقيت بحمداني خارج منزل الإمام، واقترحت عليه أن نزور الجنيفي الذي كان منزله على الشارع الذي يقود من مسكن الإمام ماراً بالحصن إلى بداية

الشمسية، في الجزء الشمالي من المدينة. كان الباب مفتوحاً جزئياً، دلفنا عبره وحمداني يعلن عن وجودنا بمناداته لاسم صاحب الدار، الذي ظهر فوراً في الفناء ليقودنا نحو قاعة الاستقبال، وهي غرفة ضيقة صغيرة ليس بها نافذة ولا أرى مصدراً للتهوية باستثناء الباب، لكنها كانت مريحة، وأثاثها من السجاد والوسائد الجميلة. كان الموقد المجصص في أحد الأركان، غائراً في الأرض، ومن خلفه يقف دولاب بني داخل الحائط لتوضع فيه أكواب القهوة والأدوات الأخرى، ويُخزن فيه البن والشاي والسكر وما إليها. كانت تسع من أواني (دلال) القهوة الصقيلة ذات المنقار، وهي دمشقية الصنع، تزين خلفية الموقد، وكانت النار تتقد في مقدمته وعليها الأواني المستخدمة وبجوارها الملحقات ذات الصلة، مثل الملقاط والمنفاخ. كان الجنيفي ـ وفي صحبته ضيفان آخران بخلافنا ـ يجلس بجوار الموقد يوزع الشاي والقهوة، بينما كنا نتناقش في مزايا الشاي الخالي من السكر الذي كنت أشربه، وموضوعات أخرى، حتى تغير الحديث بدخول طفلين صغيرين فاتنين، أعمارهما ست وخمس سنوات. كان الطفلان عبدالمحسن وسعد أبناء عبدالله بن جلوي من زوجة قصيمية تزوجها عندما كان حاكماً للقصيم، لكنه طلقها منذ زمن. عندما تناولنا ما يكفينا من الشاي والقهوة دار علينا البخور قبل أن ينفض السمر. وصحبت أنا وحمداني والجنيفي إلى نزهة خارج المدينة ورجعا معي لتناول العشاء في غرفتي.

أقيمت في اليوم التالي نزهة ملكية في مزرعة بالشمسية، كان ابن سعود قد ابتاعها لنفسه منذ عهد قريب من أحد مواطني الرياض، استمرت المناسبة الملكية منذ الساعة السابعة صباحاً حتى مغيب الشمس، وترادف معها الاحتفال السنوي لتطبيب الإبل. إذ أن الأعلاف الكثيرة التي تظهر في نفس الخريف تأتي معها "بالجرب" الذي يصيب الحيوانات وينتشر بينها في شكل وبائي خطير إن لم تُتخذ

الخطواتُ اللازمة لإزالته في مراحله الأولى. أتوا بكل الحيوانات المصابة إلى موقع النزهة، وأتى سكان الرياض جميعهم للمساعدة في هذا العمل. وكان الماهرون في الفن البيطري يقودون العمل تحت إدارة ابن سعود نفسه، الذي كان يختلط دون قيود بالعاملين، يوبخ هذا ويثني على ذاك وفقاً لمقتضيات الأحوال، وعند منتصف النهار خرجت من خيام المطابخ كميات وافرة من أطباق اللحم والأرز الساخنة، ووضعت فوق حصائر مصنوعة من سعف النخيل، وتجمع الرجال حولها بالتناوب دون أن يتوقف العمل. تصرفت العائلة المالكة كالمضيف لهذه الجموع أثناء تناول الطعام، وبعد أن أخذ العاملون كفايتهم، أمسك ابن سعود بيدي وتوجهنا نحو بناء طيني ظليل داخل البستان، وتبعنا أبناؤه، وهناك تناولنا غداءنا، لقد كان حفلاً مُشوقاً، كان تمثيل الأسر فيه كاملاً؛ تركي وسعود ومحمد وخالد، الأبناء الملكيين؛ محمد وعبدالله، إخوان ابن سعود، وسلمان وآخرون من فرع سعود بن فيصل؛ وعبدالمحسن وسعد، أطفال ابن جلوي؛ وفيصل بن رشيد من البيت الحاكم بحائل ومجموعة من الآخرين.

في بداية الأمر جلسنا متكئين على الحوائط نتجاذب أطراف الحديث بينما أُديرت أكواب القهوة، تبع هذا تقديم التمر: عينة من عينات تمر الرياض تسمى إمبوت (Ambaut)[١]، وأقداح حليب الإبل الذي يشرب لإثارة الشهية، وفي نهاية الأمر أتوا باللحم والأرز وقد طبخ الطعام بالبهارات فأصبح شهياً. جلسنا نتحلق الموائد؛ كل ستة منا معاً. واحتللنا مواقعنا فيصل وأنا كضيوف شرف على جانبي ابن سعود، تم تناول الوجبة في غياب تام للشكليات، وكان ابن سعود في خير أمزجته.

---

(١) هكذا وردت في الأصل وصوابها «انبوت» ومفردها نبت. (المراجعون).

قال مخـاطباً أحد أفراد الأسرة: «على رسلك أنت هـناك؛ هل قضيت على التمر كله؟»، وكانت الإجابة السريعة: «نعم حـتى التمرة الأخيرة، ولم تتركوا لي شيئـاً؟ ولا واحدة إلا هذه»، ومد إليه بحزم تمرة ذابلة: «تعـال، ما هذا؟» أمر ابن سعود أحد العمال وكان قد بدا بلا عمل عندما مر بنا: «لماذا لا تعمل؟» فردّ المتهم بابتسامـة عريضة: «صبـحك الله بالخير أنا أعمل يا أبا تـركي»، كان علاج الإبل عملاً يسـيراً لا يستوجب معـرفة خاصة إذ كانت الإبـل تُناخ واحدة إثر أخرى في الموقع المخصص بجوار حوض كبير يحتوي على غسول أزرق، وهو مركب يحتوي على نوره أو الجيـر ودواء يُسمى "زرنيخ"، ثـم تربط أرجل الحيـوان الأمـاميـة والخلفـية بإحكام، ويقلب على أحـد جانبـيه بينمـا يكون الرأس في ذات الوقت مـشدوداً إلى الخلـف بطول السلسلة الفـقرية ومـربوطاً بإحكام أيضـاً، ثم يُعـمم الغسـول على كل الجلد باستخـدام الأطراف الغليظة لسعف النخـيل، وبذا تنتهي المهمـة، وتبدو الإبل بعدها في حـالة بائسة وتدعو للشـفقة وقد اكـتست بالدهان المبتل ذي اللون الأزرق الباهت، وتـترك حتى الصباح حيث يـكتمل العلاج بالكي وإضافـة الشحوم للمناطق المتـأثرة بالجرب[1]. قالوا لي إن طبـيباً اشتهـر بمهارته كطبيب للإبل كان يأتي قبل الحرب إلى نجد من دمشق في فصل الربيع من كل عام لعلاج الإبل، لكنه لم يَعُد يأتي للرياض، وكانت النتـيجة أن نسبة نفوق الإبل في العام الماضي بلغت مبلغاً عظيماً، إذ فقد ابن سعود بمفرده ٥٠٠ من إبله الخاصة.

بعد أن تنـزهت قليلاً في المزارع ذهبت في الأمـسيـة نفسهـا، وأنا في طريقي لمسكني لأزور إبراهيم الذي كـان منزله يقف في نهاية شـارع صغيـر غيـر نافذ، في

(١) يُزيل الغسول الشعـر نهائياً عن الجلد، بعد أن تدهن بالدهان للمرة الأولى، يتكرر دَهنُـها ثانية بعد أيام قليلة. (المؤلف).

الجزء الجنوبي من المدينة. عندما قرعت البـاب فتحهُ حمود وارتقيت مسـتخدماً درجاً دائرياً طيني الدرجـات، للطابق الأول حيث كـان المتراس متـجهـاً إلى الداخل حول شرفة مكشوفة تطل على الـفناء الذي كانت تحجبه شبكية مهتـرئة من الحصير. كانوا يتوقعون قدومي ووجدت مجموعة كبيـرة وقد تجمعوا في الغرفة الصغيرة التي كانت خانقة جداً من أثر نار الموقد. جلست وأنا ألهث وأتفصَّدُ عـرقاً بتأثير الشاي والقهوة المتعاقـبين. لا أدري كيف يستطيع العرب تحـمل هذه المشقة بينما لا تفـصلهم سوى خطوات قليلة ليخرجـوا ويستمتعوا بالجـو البديع لهذه الأيام الربيعيـة المثالية. ولكن العربي لن يجلس في الهواء الطلق إن تيسر له الجلوس بـجوار أبخرة نار القهوة. بيد أن ابن سعود وقلة من الآخرين مستثنون من هذه القاعدة، إذ أنه لا يسمح أبداً بإيقاد النار في قاعات جلوسه التي يحضرون الشاي والقهوة إليها من مطبخ القصر.

إضـافة لإبراهـيم وحمـود اللذين يشـتـركان في سـكنى هذه الدار تكونت المجمـوعة من سعـد وطامي، وقد أتى الأخيـر قريباً من القـصيم، وأبناء إبراهيم الصغار؛ هم ابـن صغير جمـيل يسمّى حموداً وبنت تدعى نورة فـي السادسة من عمرها. لم يكن الطفل سعيداً في هذا الجو الخانق ووسط هذه المجموعة فذهبوا به باكياً لأحضان أمه، ولكن نورة الصغيرة كانت اجتماعية بقدر أكبر وجلست بجانبي بينما كنا نشرب ونتحدث وندخن. كـان قد نال من طامي التعب من رحلات جدة ومكة، وكان يخشى أن يبـعث به في مهمة أخرى لـدى عودته للرياض، لذا أخذ قراره بنفـسه وذهب مباشـرة إلى منزله في بريدة، وهناك أنجبت له زوجـته طفلة، ولكنها سرعان ما استسلمت للجـدري القاتل، بعد أيام قليلة وصار عدد من ماتوا من أبنائه في عهد الرضـاعة خمسة (ثلاث بنات وابنين). وتركه هذا الفـقد ـ كما كان عـهده سـابقاً ـ في صـحبـة ثلاث من البنات، اثنتين منهن ما زالتـا في طور

الطفولة، بينما تزوجت الثالثة ولها ابن. كان ابن سعود قد غضب من هجران طامي، فأرسل أوامره لأمير بريدة فزجّ به في السجن، الذي غادره قبل عشرة أيّام مع أوامر صارمة للمثول فوراً أمام ابن سعود. هكذا كان حضوره، وما أبداه من قلق عن نتائج لقائه المرتقب مع سيّده في الغد. بعد أن أبدينا تعاطفنا مع طامي ومع ما ينتظره من تأديب، التفتنا إلى سعد لنمازحه حول المصير السعيد الذي ينتظره، إذ كان على وشك الزواج من خطيبته، وهي فتاة صغيرة من ضرما ذات قرابةٍ بأميرها فيما أعتقد، كان سيبني بها بعد أيام قلائل. «لكنك أيها الكلب». خاطبته هكذا، «لك زوجة أخرى، ألا تكفيك تلك حتى تسعى للمزيد؟ وأين ستبقيها؟ إذ أنّ لك منزلاً واحداً؟» وأجاب سعد: «إن في منزلي متّسع يكفي الاثنتين معاً، ومعهما والدي المسن ووالدتي اللذان يعيشان معي. إنّ زوجتي صغيرة جداً ولم تنجب بعد، لذا فإنني أريد امرأة أكبر، بأرداف كبيرة لتُنجب لي أبناء، وإن كان الأمر لا يروق لزوجتي الأولى فلتذهب». وسألته، «ولكن ماذا عن الفتاة الثانية؟ قد لا تكون كما تشتهي، إذ أنك لم ترها». وتبرع طامي بالإجابة «كلا، هل تذكر اليوم الذي خلدنا فيه للراحة في ضرما؟ حسناً لقد رآها حينذاك، وهناك تقدم عارضاً الزواج منها على أهلها، يقولون إنها بدينة وجميلة». وقال إبراهيم متنهداً بحسد على حسن طالع صديقه «ـ إي بالله ـ، إنهّ محظوظ». تعشى معي في تلك الأمسية ثلاثتهم، إبراهيم وسعد وطامي، وعندما استأذنوا في الانصراف تأخر سعد قليلاً وهمس في أذني أنّ الزواج كثير النفقات. وقلت له «انظر يا سعد، لقد أعطيتك الكثير من قبل، وكيف كانت معاملتك لي إزاء ذلك العطاء؟ لماذا لم تدعُني حتى لأشرب القهوة في بيتك بينما فعل الآخرون ذلك؟» وكان ردّه: «إنك تعلم ماذا يفكر فيه الناس وماذا يقولون، وأبي كبير السن شديد التعصّب، ولقد أحسّ بحزن شديد عندما أرسلوني معك إلى جدة، وعند عودتي

أخبرني بأنه سيغادر منزلي إلى الأبد إن دعوتك لتدخل داري يوماً». «إذاً لا تطلب مني مالاً»، أجبته، فذهب خائب الرجاء.

وفي يوم آخر ذهبت مع حمداني قبل افتراقنا ـ استجابة لدعوة الجنيفي لتناول القهوة، ولكننا عندما علمنا أنّ مضيفنا لم يكن قد وصل إلى بيته بعد، رأينا أن نتنزّه في الحدائق بدلاً من انتظاره في قاعة استقباله الخانقة. خرجنا من المدينة عبر بوّابة الشمسية، فوجدنا أنّنا نتعقب خطى ابن سعود وجمع من عائلته، وهم يتوجهون نحو بساتين الحوطة[1]، لذا غيّرنا مسارنا وتابعنا الحائط مستديرين حوله بجهتيْ الشمال والشرق، وتجاوزنا آبار الحسي ونخيلها وتخطينا سياج مصلى العيد التي وجدنا سعوداً أخ ابن سعود في قلبها منفرداً. الابن الثالث للإمام اشتهر بالتنسك وشدة التعبد، ولم يكن يرى في صحبة أحد، ولكن عندما اقتربت منه توجّه نحوى وحيّاني مصافحاً بعاطفة جيّاشة واستبقاني لنتحادث بعض الوقت، وترك لدي هذا التصرّف انطباعاً بأنه شخص لا يحب كثيراً الاختلاط بالآخرين ولكنه يحبّ الاجتماع مع الناس. واصلنا سيرنا تاركين إيّاه في عزلته، ودخلنا إلى المدينةِ ثانيةً عبر بوابة صغيرة في الركن الشمالي الشرقي، وتابعنا طريقنا متجاوزين الإسطبل الذي يحتفظ فيه محمد شقيق ابن سعود بخيوله، بطول طريق عريض يتجّه نحو الجنوب، ومنه دخلنا عبر بوابة إلى أغنى بساتين الرياض وهي القري والوسيطى، وكلاهما مِلكٌ خاص للإمام عبدالرحمن.

إن الإمام أكثر أفراد العائلة المالكة تقدماً وفهماً لما يتعلّق بالزراعة، وله اهتمام شخصي عظيم بتنمية استثماراته فيها. بينما كنا نتجول هنا تحت ظلال النخيل الكثيفة ووسط نباتات القثاء ورقاع الخضراوات التقينا بأحد معارف حمداني

(١) المقصود: حوطة خالد جنوب حي المربع الآن. (المراجعون).

يدعى إبراهيم بن مريخان وهو مراقب الأشغال العامّة في الإدارة السعودية والمسؤول عن كل البنائين والأبنية بالعاصمة. قبلنا بسرور دعوته الودودة لمنزله في بستان النخيل المجاور، خارج أسوار المدينة، حيث قضينا نصف الساعة في قاعة استقبال من النوع المعتاد، فرشها من الحصير والسجاد. وطفقنا نشرب ونتجاذب أطراف الحديث مع مضيفنا ومع صانع القهوة إبراهيم العيد. كانت الغرفة ساخنة وخانقة، وسعدت عندما دعا مؤذن المسجد المجاور كلَّ الناس ـ باستثنائي أنا ـ للصلاة، فذهبت أتجول في الطرق الرملية بين النخيل حتى يفرغ حمداني من أدائه للصلاة ليأخذني بعدها إلى داري. لكن أفسد عليَّ نزهتي النظرات القاسية من المارة الذين كانوا يتجهون في عجلة نحو المسجد لأداء الفريضة ويتعجبون لماذا لا أفعل هذا الذي يفعلون، إذ كان جلياً أنهم لم يعرفوا هويّتي، حتى قال لي أحدهم، وكان صبياً لا يتعدّى عمره اثنا عشر أو أربعة عشر عاماً، وكان يسير في الاتجاه المعاكس، وقد تأخّر، فقال لي وهو يمرّ مسرعاً: «هل أدّيت الصلاة؟» وتمتمت ببعض ما قلت ولم أبن، وواصلت سيري، وكنت أتساءل: أكان يقرعّني على عدم أدائي للصلاة، أم كان يسأل فقط، إن كان قد تأخر هو نفسه عن الصلاة؟ كان رأي طامي الذي أخبرته بالواقعة أنّ الصبي في أغلب الظن لم يكن يقصد سوى أن أرافقه للصلاة، إذ أنّه كان قد تأخّر في اللحاق بالجماعة.

هكذا مَرَّت الأيام في هدوء دون حوادث لافته للنظر. ولكن في أحد الأيّام مرّ بالرياض متجهاً إلى الشمال رجل قال إنه «درويش» جوال قادم من الجنوب، ويبدو أنّ الأمر قد ذكر عرضاً لابن سعود مما أثار فيه حبّ الاستطلاع، من أين جاء وما هي الأخبار التي يحملها، وما هو الغرض من قدومه ـ وتمت متابعة الرجل الذي كان قد مضى لحال سبيله قبل يوم أو يومين، وأعيد للعاصمة، حيث أوضح الاستجواب المدقّق أنه كان في حقيقة الأمر ضابطاً تركياً من حامية اليمن،

وكان اسـمه قدسي أفندي وتخفّى في شـكل درويش حتى يعبر نجـداً على الأقدام قاصداً المدينة. وكـانت الحيلة ستنطلي على الجـميع ويعبر البلاد لـولا سوء طالعه الذي لفت انتباه ابن سعـود لتحركاته. كان الرجل يُخبِّئ حـول جسده مبلغ ٣٤١ جنيهاً تركيـاً في شكل عملة ورقية، وعشر رسائل رسـمية من السلطات العسكرية في أقاليم اليمن وعـسير للقيادة في المدينة ولسلطات البـاب العالي (حكومة الدولة العثمانيـة)، وأكثر من ثلاثين خطاباً شخصياً من الجنـوب في تلك الأصقاع النائية موجهـة إلى أهاليهم في تركيا تـطمئنهم بأنهم على قيد الحـياة. لم تكن الخطابات التي فحصتها بمعاونة أحمد بن ثنيان ذات أهمية كبيرة من ناحية عسكرية سوى أنها بنفس الهيئة قبل مغادرة قدسي بشهرين من أبها عاصمة عسير في طريقه إلى المدينة حاملاً خطابات إليها. كان عليه أن يذهب بطريق مبـاشر عبر إقليم عتيبة، وبما أن أحداً لم يسمع عنه شيئاً فقد استنتجنا إما أنّه قد وصل لغايته سالماً، أو أنه قد هلك دونها في الصـحراء. كانت مـحكمة في صنعاء قـد أدانته باختلاس أمـوال كانت مخصصة كمكافآت للجنود، ولكنه قدم التماساً، وأعطى هذه الفرصة للتفكير عن فعلته بأداء هذه المهـمة الصعبة التي انتـهت باعتقاله. كان قدسي سـافر من صنعاء إلى أبها ومن هـناك عن طريق وادي الدواسر إلى نجد. ذكـرت الرسائل الحـرمان الذي تعانيه القـوات نتيجة للانقطاع الكامل للاتصالات بين اليمـن وتركيا. كانت بعض المكاتبات بيانات لحسابات ومطالبات بأموال، بينما كان أكثرها تشويقاً القائمة التي توضحّ كيفية توزيع ١٩٢٠ بندقية على رجـال القبائل المحليين لمتابعة «الجهاد» بالقرب من مدينة لحج. كـان قدسي يقيم الآن في القلعة كأحـد المجرمين العاديين وليس كأسـير حرب، كمـا أخبرني أحـمد، ولكن بناءً على التمـاس مني تحسنت معـاملته إذ وفـروا له مسكنـاً أكثر راحـة، وكان القـصر يمدّه بالطعـام والملابس، وخصّص له تابع لخدمـته، رغم أنه لم يكن يُسمح له بمغادرة القلـعة التي بقي بها

حتى توقيع الاتفـاقية. أبديت الرغبـة في لقائه، ولكنه عندما أحيط علمـاً برغبتي أجاب بأنه لم يكن ليستطيع أن يعصي لابن سعودٍ أمراً، لكنه يُفضِّل ألاَّ يقيم صلة مع كـافـر. كـان هذا جزاء تَـدَخُّلي من أجل راحـتـه، ورغم ذلك رأيت أنه من الأفضل أن أتركه في عزلته، ولم أره قط.

كنت دائم التفكير في ضرورة الإسراع بالعمليات الحـربية ضد شمر. ورغماً عن أنّ ابن سعـود أعطاني وعداً بمهـاجمـة شمّر في وقت قـريب، إلاّ أنَّني كنت أخشى أن يضيع كثـير من الوقت الثمين في إعداد العدّة للهجـوم. لذا فقد سرَّني كثيراً أن أسمع ذات يوم من ابن سعود أنّ مـبعوثين قد وفدوا إلى الرياض نيابة عن ماجـد بن عجـيل، شقـيق عقـاب، الذي كان حـينها مع ابن رشـيد في الحـجر للمفـاوضة من أجل عقد حلف. كـان ماجد في جمعٍ من عـشيرته التابع لقـبيلة عبدة، وعناصر من التومان وسنجاره، مسؤولاً عن قاعدةٍ أمامية للعدو في لينة في المنطقة الخلفية للفرات، وكان قد بدأ يشعر -فيما يبدو- أثَر الإحكام الأخير لحصار الكويت قال لي ابن سعود: «لقد أخبرتك، إنني ملتزم أخلاقياً بإبلاغ شمر بنواياي في مهاجـمتهم حتى أعطي الفـرصة للعناصر الصديقة للابـتعاد عن طريقي؛ الآن سنحت لي الفرصـة لأفعل ذلك. ماذا أقـول لمبعوثيهم ليـنقلوه عند عودتهم؟ هل أقول لهم إنني لا أريد صداقتهم. أم عليَّ أن أدعوهـم لاتخاذ موقف محايد والبقاء بعيداً عن طريقي. فلنقل في طوال الظفير؟»[1] اعترضت أنا على الخيار الأخير إذ أنّه لا يقدّم ضماناً كافياً ضد امتناعهم عن عمل عدائي في المستقبل، وأعلنت له أنّ السلطات البريطانيـة لن تقبل تحت أيّ ظرف تمكين عناصر العدو مـن البقاء في أيّ

(١) هي مجموعة الآبار التي تقع حول الرخيمية في مراعي قبيلة الظفير القوية. (المؤلف).

موقع لا يكونون فيه تحت مراقبة فاعلة، وما لم يُمنعوا من إيصال أيّ مؤن لأصدقائهم، ولكنني اقترحت في الوقت ذاته أنّه إن كان من الممكن إقناع ماجد وتابعيه بأن يقيموا في القطاع الذي يخضع لسيطرة ابن سعود التامّة، فإنه يمكن استقبالهم على هذا الأساس إن لم يكن لشيء سوى أن يكون وسيلة لتقليل أعداد العدو في المواجهة القادمة، وأقترح هو طوال المطير، أي خط الآبار الممتدة جنوباً من صفا في الصحراء الشرقية، ووافقت شريطة ألا يسمح لهم بالوصول إلى الكويت وأن يمنعوا بالكامل من أيّ اتصال بحائل.

بدأ ابن سعود فوراً في إملاء خطابات بهذا المعنى لماجد ورفاقة الشيوخ، وبعد ثلاثة أيّام سُلّمت الخطابات للمبعوثين في اجتماع عام دُعيت أنا لحضوره بصفة خاصّة. كان مشهداً مهيباً، كانت الدرجات والممرات خارج قاعة الاجتماعات الكبرى مكتظّة بالتابعين، بينما اجتمع داخلها عدد كبير وقد جلسوا على وسائد وأرائك وضعت بطول الحوائط الأربعة. وقف إبراهيم في منتصف القاعة بوصفه رئيساً للمراسم يوجّه القادمين ليحتلوا أماكنهم، كلٌ وفقاً لمقامه ودرجته. وجلس ابن سعود في الركن الأقصى المواجه قطرياً للمدخل. تُرِكَ مقعدان خاليان أو ثلاثة على جانبيه للضيوف ذوي الشأن وقادني إبراهيم مع بعض المراسم لأحد هذه المقاعد إلى يسار الملك مباشرة، ولاحظت أن تركي وأخاه الأصغر سعود بعيدين عن مواقع الشرف، بينما اصطفّ بجوار أقرب الأعمدة للملك أربعة رجال، جلوساً على الأرض، وعلى أهبة الاستعداد للشروع في رحلة طويلة. كان اثنان من هؤلاء مبعوثي ماجد، رجال من شمّر حَسَني الهيئة، متقدمين في السن ولكنهما أقوياء، وكان يبدو أنّهما من ذوي الشأن والمسؤولية رغم أنّهما لم يكونا من طبقة الشيوخ. وكان الاثنان الآخران من رجال ابن

سعود، ناصر الحربي - الذي رافقني إلى جدة- وآخر. وقد تمّ اختيارهما لمرافقة المبعوثين عند عودتهما للينة.

خاطب ابن سعود المبعوثين، مع كثيرمن اللمحات الجانبية اتجاهي، والإشارة الواضحة إليّ من حين لآخر. وقدّم خطبة رنّانةً بليغة عن موضوع الحصار وعن رغبة شمّر في السلم: خاطبهم ابن سعود: «إن كنتم تريدون صداقتي، ها هي، تعالوا وأقيموا بيني وبين قبائلي وتعالوا إلى حضني (ادخلوا في كبدي)» وواصل حديثه مُشيراً لأحد رجال حرب، كان قد أبعد قبل عهد قريب من الكويت في أمرٍ ذي صلة بعمليات الحصار: «ولكن انظروا إن عداءكم للإنجليز قد أدخلني وقومي في مشاكل. كلكم تعلمون مدى خصومتي مع الأتراك (والله) لقد كنتم تعلمون سابقاً كيف كان خلافي مع الشريف، ولكن انظروا، ما دام أنّه يحارب الأتراك الآن فإنني صديق له. ماذا فعل سيّدكم ابن رشيد؟ لقد وقف إلى جانب الأتراك، ولذلك فأنا لست معه؛ وأنا أعلن لكم الآن أنني سأتقدم دون شك ضده كاتفاقي مع هذا الرجل» وأمسك وهو يقول هذا بِردن ثوبي: «إن كنتم تريدون صداقتي التزاموا بما أقوله لكم، وإلاّ فإنني (والله) سأحاربكم، إنّني لن أورّط نفسي مع الإنجليز من أجلكم أو أدعكم تنالون من المؤن التي في حوزتكم إذ أنّ الله قد أعطاهم سفناً ومدافع ومتفجّرات لينسفوا أعداءهم بها». كان حديثاً مُلهماً، وختمه بهذه الكلمات: «انظروا إنني أحذركم ممّا سيأتي إذ أنني لا أستطيع أن أهاجمكم دون تحذير مسبق، وفقاً لطريقتنا». قال لهم هذا، ثمّ أمرهم بالسفر، وهكذا أعلن حربه على شمّر وهو الهدف الذي عملت من أجله كثيراً.

بعد مضي ثلاث سنوات ونصف منذ اندلاع الحرب العظمي، والتي لم يُبذل خلالها جهدٌ جاد لمتابعة ومراقبة تجارة الاستيراد في الجزيرة العربية، فقد كشفت دراسة إحصائية حديثة الحقيقة المربكة من أنّ الواردات من الكويت للداخل خلال هذه

الفتـرة، وعلى وجه الخصوص خـلال الشهور القليلة الماضـية قد تخطَّت معـدلاتها الطبيعية مـقارنة بفترة ما قبل الحرب، ليس هذا مستغـرباً إذا أخذنا في الحسبان بعض العوامل، لننظر لحالة واحدة حدثت في سبتـمبر الماضي إذ أنَّ قافلة من حائل قوامها ثلاثة آلاف من الإبل تم تحميلها وسمـحت لها السلطات المحلية بالمرور ورغم الجهود التي بذلتهـا بغداد لإيقافـها، ومتـابعة كولونيل هامـيلتون لها في سـعي غير مُـجْدٍ لإيقافها، فلقد وصلت إلى غايتها بسلام، ولسوء الطالع فهي لم تكن القافلة الوحيدة التي اختـرقت الحصار. وعامل آخـر وهو أنّ التجارة إلى الداخل كانت قـبل الحرب تدخل للبـلاد عبر منافـذ عديدة لم تعـد مفتـوحة الآن وهي دمشق والمـدينة وبغداد والبصـرة، هذا إن لـم نذكر مكة التي أمـر الشريف أخيـراً بوقف التجـارة بينها وبين نجد، أو موانئ الأحـساء التي عانت من نقص السـفن الذي أثّر على العالم كله. لم تأخذ الدراسة في الحسـبان النقطة السابقة كما لـم تعـد أيضاً بما تبع ذلك من الأوامر التي أصدرتها السلطات البريطانية بتقليل حجم التجارة الواردة إلى الكويت بحيث لا يتعدَّى مـتوسط ما كان يرد قبل الحـرب، وهو ما سبب معاناة مـواطني ابن سعود، حضـرهم وبدوهم. ولكن أكثر المعـترضين على الترتيـبات الجديدة كان سـالم شيخ الكويت الذي حرمـه هذا التقييـد من موارد كبـيرة كان يجنيهـا من الزيادة في حجم التجارة الواردة عبر موانيه، سواء كانت تجارة قانونية أو مهرّبة، وأراد الشيخ سالم أن يُعزّي النفس عمّا لحق به من خسائر بأن وضع مسؤولية إصدار هذه القرارات الجديدة الضـارة بالشعب على عـاتق ابن سعـود، ومن ثمَّ جعل أهل نجـد أكثـر المتضـررين بنتائجها. كنت أثناء وجودنا بالشوكي قد ناقشت أمر الحصار بإسهاب مع ابن سعود، ووصلت معه لترتيبات تسري ابتداءً من أول شعبان (حوالي ١٢ مايو) (أيار)، وهي: أن يصاحب كل قافلةٍ يسـمح لها بالمرور عبر بلاده مبـعوثون خاصون، بعد اكـتمال

إجراءات تفتيشها ومنح تصريح من ممثليه لها بالمرور، وإن لم يرافقها مبعثون فلا بدّ أن تزوّد بشهادات توضّح طبيعة التجارة والتفاصيل اللازمة الأخرى مثل عدد الإبل . . إلخ. وبناءً على هذه الاتفاقية بعثت برسائل لكل المعنيين بهذا الشأن مع أمرٍ بالالتزام الدقيق بالضوابط الجديدة، وإلاّ فلن يسمح بتوفير المؤن بالكويت، وكتبت للسلطات البريطانية في ذلك الميناء موضحاً الترتيبات الجديدة آملا أن تنفَّذ هذه السياسة الخاصة بالحصار دون احتكاك، عند مرورها عبر أراضي ابن سعود. ولكن قبل وصول خطاباتي نشأت أزمة نتيجة لعمل قام به مسؤولو الحصار وسط همهمات غاضبة أشدّ الغضب، وصل صداها إلى الرياض في شكل شائعات لا تُصدَّق ومطالبات حثيثة بالانتقام من الشيخ سالم وأخذ الحقوق بقوة السلاح للإساءة التي وجهها لكلِ نجد. وفقاً لما أوردته هذه الروايات صدر تصريح باسم الشيخ سالم يأمر فيه كلّ النجديين بمغادرة المدينة بحلول صباح اليوم التالي. وتضيف الروايات أن عدداً كبيراً من أبناء مطير كانوا قد أتوا لشراء بضائع فذهب زعيمهم، عبدالعزيز الدويش وهو صبي في الخامسة عشرة من عمره للقصر طالباً الإذن بمقابلة الشيخ ولكن لم يُسمح له، وتمضي الرواية لتوضّح أن الصبي قد غادر الكويت مع تابعيه وإن قتالاً قد نشب بينهم وبين قبائل كويتية. كانت كل المسألة تبدو غير سارّة. ولكنني رجوت ابن سعود أن يؤجل حكمه حتى يتلقى معلومات إضافية. وفي اليوم التالي تلقّى ابن سعود تأكيداً للشائعات في خطاب أرسله شيخ مطير الصغير، فأتى في المساء للفناء الذي يقع تحت جناحي، وجلس هناك بلا مراسم على أريكة طينية مبنية إلى جوار الحائط، وتحدثنا حديثاً طويلاً حميماً عن أشياء عامّة. ثمّ دخل في الموضوع قائلاً: «أبا حاجك بالحرية، أود أن أتحدث معك بصراحة تامّة، إنني أرى تورط سالم فيما حدث بالكويت، وإن كان هذا حقيقةً من فعله فلا بدّ أن أطالب بالتعويض»، فقال

لي مـؤكداً: «لقـد أرسلت أوامـري لمطير بألا يقـوموا بـفعل شيء دون مـوافقـتي، وأخبرتهم بأني أضطلع بهذه المهمة شخصياً معك». عندما لم أستلم تقريراً عمّا ادَّعى من أحداث في اليوم التالي مِلتُ إلى الظنّ أن البدو قـد ضخموا ـ دونما داع ـ حادثة صغيـرة، ولكن ذلك لم يكن رأي الناس بالرياض. نوقش الأمر في اجتـماع رسمي حضره ابن سعـود وأبوه وكبير القضاة، عبـدالله بن عبدالوهاب[1]. صارت سياسة الملك المؤيدة للبـريطانيين، التي كـان يدافع عنها بحـزم ويبشـر بالمزايا العمليـة التي ستنجم عنها، صارت الآن تتعرّض لمساءلة في ضوء النتائج التي أفرزتها، وكانت هذه المساءلة تعـبيراً عن الروح الديمقراطية المحـقة التي يتمتع بهـا العرب، الذين لا بدّ أن يسمع حكامهم لرأي الشعب إن كانوا يريدون أن ينالوا تأييده وثقته.

في اليـوم الأخيـر من أبريل (نيـسان)، بعـد أن شاهدت ضـواحي الرياض بتدقيق لا بأس به، وبعـد أن سئمت من انتظار اكتـمال الترتيبات للرحلة التـفقدية الموعودة للجنوب، تحدثت فـي سريّة مع القصيبي وشكوت إليـه أنّ دائرة معارفي كانت محـدودة، سواء كان ذلك عن قصد أو دون قـصد، وأعلنت له أنّه لا يمكن أن يتـوقع بقائي في الرياض إلى مـا لا نهـاية، إلاّ إذا منحت الحرية في الدخـول للمجـتمع. كنت قد حـاولت محاولات كـهذه مع إبراهيم من قبل، بيـد أنها لم تسفر عن شيء، إذ كان أكـثر جبناً من أن يجرؤ على إثارة موضوع حـساس كهذا مع سيّده. إلاّ أنّ القصيبي كان رجلاً من شاكلة أخرى، ولا بدّ أنّه قد عرض الأمر على ابن سعود، على أيّ حال، عندما استدعيـت للحضور بعد ظهر اليوم نفسه، وجدت ابن سـعود وعـدداً من أفراد العائلة المـالكة وهم على وشك تفقُّـد الغرف

(١) المقصود الشـيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ، الذي يعـود نسبه إلى الشيخ محمـد بن عبدالوهاب. (المراجعون).

والمباني الجديدة التي كانت تحت الإنشاء في القصر. ودعاني لمرافقتهم ثمّ التفت إلى إبراهيم وقرّعه أمام الجمع لفشله في تعريفي بقطاع عريض من المجتمع، وأصدر أوامره أنني منذ تلك اللحظة كان يحق لي أن أزور من أود، وأمر شلهوب، أمين الخزانة، الذي كان موجوداً ليقود المجموعة في جولتهم حول الأبنية، وشعرت بشيء من الخجل إذ تسببت في كل هذا الحرج، ولكن وجدت الحياة بعد ذاك محتملة أكثر مما كانت من قبل.

كان ابن سعود يولي المباني الجديدة اهتمامه الشخصي، وفي كل مكان في القصر كان البناؤون دائبي النشاط، يهدمون هذا الجزء ويبنون ذاك، وما سمعته بعد أن غادرت الجزيرة العربية هو أنني لن أعرف طريقي في القصر الآن لكثرة ما طرأ عليه من تغييرات، بما في ذلك ـ وهو ما آسف على حدوثه ـ تقويم واجهة القصر التي كانت تبدو لي دائماً في حالها القديم، أفضل أجزاء القصر، ومثالاً للعمارة في نجد، ذهبت الآن لرؤية قاعة الاجتماعات العامة التي كانت غرفة فسيحة مستطيلة. بسيطة التصميم، وبها ثلاث نوافذ صغيرة فقط في أعلى الحائط، ولم يكن لها ـ والحال هذه -من فائدة سوى التهوية. كان السقف يستند على صفٍ من الأعمدة المجصّصة الممتدة على الخطٍّ الذي ينصف الغرفة. كانت الأرض مكسوة بالسجاد بخليط عجيب من القطع الجيدة والرديئة. وكان السقف وما يعترضه من جذوع النخيل مغطى بالكامل بأقمشة مبهرجة الألوان، بينما كانت الوسائد الكبيرة المربّعة المغطّاة بنفس نوع قماش السقف، في ألوان متعددة تصطفّ قبالة الحوائط. كانت القاعة الآن معدة للاستخدام، خصصت قاعة مشابهة تحتها في الطابق الأرضي لتركي ليستخدمها كغرفة عامّة للاستقبال، حيث إنّه كان يضطلع بأعباء إدارية تتزايد مع الأيّام. كما كان مؤتمناً على تصريف كل الأمور ذات الأهمية

الثانوية. كان تدريباً ممتازاً لولي العهد، كما أراح ابن سعود من حمل ثقيل. تفقدت أيضاً غرفاً أخرى لم تكتمل بعد، بما في ذلك الجناح الذي خصصت غرفه لإقامة كبار الزوار، «أمثال جنابكم» كما وضح لي ابن سعود. كان رأيي الخاص أن موقع هذه الغرف غير ملائم إذ أنّها شديدة القرب من الغرف العامة ولا يمكن الوصول إليها إلاّ عبر حشود من الخدم ينتظرون الإشارة من سيدهم، بينما كانت الغرف التي أسكنها تبدو أكثر راحة من كل الجوانب، لكنني لم أصرّح برأيي هذا، وتُركتُ في جناحي الذي كنت أقيم فيه. ولكنني أظن أنه الآن قد خُصِّصَ إضافةً لغرفٍ أخرى كانت تحت الإنشاء في الفناء حينها، للعاملين بالقصر وأسرهم. كانت الإسطبلات وغرف الضيافة تبنى أيضاً وقتها في الجناح الغربي من القصر الذي أشار لي ابن سعود من سطحه للاتجاهات التي يقترحها لتوسيع المدينة لاحقاً، وكانت التوسعة تستدعي إزالة بعض بساتين النخيل الجيّدة على امتداد الركن الجنوبي للعاصمة.

بعد جولة سريعة في الحدائق، أسرعتُ عائداً لمنزل شلهوب لتناول القهوة، كان ـ كما قال لي ـ يعد منزلاً استناداً على مظهر غرفة الاستقبال الصغيرة الأنيقة في الطابق الأول، والتي كان يكسوها السجاد بوفرة وكذلك الوسائد ذات الأقمشة الهندية المزركشة. كان في الموقد ثماني دلات قهوة صقيلة، وبجوارها دولاب أخرج منه مضيفي مدخنة فيما يبدو من صنع عنيزة، كان إطارها من خشب الأثل، مزيّن بأزرار نحاسية وقطع من مرآة، وأربعة شرائط من صفيح، واحدة على كل جانب، وكل منها تحمل صورة ملوّنة بقارب سباق بثمانية مجاديف، وكتب تحتها «صنع في النمسا». رافقني في هذه الزيارة القصيبي وإبراهيم وحمداني وقليل من الآخرين ودار الحديث في معظمه عن زواج القصيبي من أرملة أحد تابعي ابن سعود، كانت مراسم الزواج قد تمّت بعد ظهر ذلك اليوم،

ليدخل بعروسه بعد صلاة العشاء. وأثناء عودتي إلى مسكني هطلت أمطار غزيرة وأصابني البلل حتى بلغ جسدي قبل أن أصل إلى القصر.

كانت قرية وواحة منفوحة جزءاً لا يتجزّأ من واحة الرياض رغم أنّ سلسلة من التلال تفصلهما عن بعض؛ ولقد زرتها عدداً من المرات خلال هذه الأيّام، وهي تقع على بعد ثلاثة أميال من العاصمة في جنوب الجنوب الشرقي، ويؤدي إليها طريقان. أحد الطريقين يبدأ في متابعة مجرى سيول الشمسية بعد تخطّي المقبرة الملكية[1]، ويجري على الجانب الأيسر من المجرى على بعد نصف ميل شرقي المدينة، وخلال المجرى المذكور آنفاً، ومن ذاك يدخل الطريق إلى حوض عريض ضحل يقع بين سلسلة وبين منحدر دريبات الخيل. وتقع رقعة زراعية صغيرة بها قليل من الآبار بعيداً عن الطريق على بعد ميلين منه، وسرعان ما يدخل المرء بعدها مساحة من الأطلال التي تحدد بداية ما كانت في الماضي مدينة عظيمة، تضاهي إن لم تتفوق حقيقة على الرياض. كان الطريق الخارجي يمرّ من البوابة الجنوبية للعاصمة في اتجاه الجنوب عبر بساتين النخيل، ويستدير خارجاً منها لمسافة ميل، ثمّ يمرُّ عبر سهل تتناثر فيه أطلال قاعدة أمامية قديمة، أو بقايا ضاحية، ثم يرتقي السلسلة الفاصلة التي يستطيع المرء من قمتها التمتّع بمشهد ممتاز للنخيل شمال الرياض، ولنخيل الباطن إلى الغرب، ولمنفوحة نفسها وبساتينها الممتدة إلى الجنوب.

كانت بقايا منفوحة القديمة تحيط بالقرية الحديثة، وتمتد في خطٍ طويل بطول الجانب الشرقي لحزام النخيل، ولكن ما تبقّى من هذه الأطلال قليل جداً لدرجة

(١) وهي المقبرة المعروفة الآن بمقبرة شلقاء، وتقع بين شارع الملك فيصل (الوزير سابقاً) وبين شارع البطحاء. (المراجعون).

أنّه يصعب تكوين صورة عن المدينة القديمة التي ازدهرت عندما كانت الرياض قرية صغيرة ليس إلاَّ. كان أمراؤها دهام بن دواس[1] وأسلافه منافسين للسعوديين في الدرعيــة. نظرت إلى الأسفل من حطام إحــدى حصــونها القديمة إلى الــقرية التي حلّت مكانهــا، بينما وقف منـور لأداء صلاة المغـرب بعد أن طارد ثعلبـاً هبط به أسفل المنخـفضات وارتقى به المرتفـعات دون جدوى، وكــانت السماء في الجــهة الغربية تزداد قتامة في كل لحظة، والسحب الرعـدية الكثيفة تنذر بعاصفة وشيكة، وتحثنا ألا نتوانى. هي قرية صغيرة فقيرة شعثاء، منازلها طينية ذات طابق واحد في الغالب، ويحيط بها حائط طيني. ولـم تكن أبوابها السـبعة ـ باستثناء القليل منها ـ سوى فـتحـات في الحائـط ليس إلا، بينما كـانت أبراجهـا في حالة من الـقدم. ارتفعت مئذنة الجامع الرئيس، التي لا تتصف بالحسن، عـالياً فوق مستوى البيوت القصيرة في وسط القرية التي كانت أطرافها غابة مكتظة من النخيل الممتدة في خط يبلغ طوله نحواً من ثلاثة أميال، وعرضه ـ في المتوسط ـ ربع ميل.

قبل أن نعـود أدراجنا، تتبّعت الجزء الأكـبر من الحائط الذي يحـيط بالقرية التي تكون شكلاً سداسياً غـير منتظم، بقطر يبلغ طوله ٣٥٠ ياردة، وتضم سُكاناً يبلغ عددهم ٢٥٠٠ نسمـة، ولا يوجد بينهم ـ كما يقولون ـ أثر للأسـرة الحاكمة القديمة[2]. بعد أن مررنا عبر البوابة الجنوبية لاحظت طريقاً جيِّداً به بعض المتاجر،

(١) هذه المعلومات التي أوردهـا المؤلف غير دقيـقة، فهـو يتحدث عن منفـوحة ثم يذكر أن أمـيرها دهام بن دواس، وهذا غير صحـيح إذ الثابت أن دهام أمير الرياض، أما ما عناه المؤلف فـهو القول إن أسرة دهام ابن دواس كانت هي الحاكمة في منفوحة إلى أن حـدث في الرياض ما حدث من موت أميرها الذي كان ابن أخت لدهام فجاء إلى الرياض كوصي على الوريث لعرش الرياض، ثم ما برح أن استأثر بالأمر فيما بعد. (المراجعون).

(٢) أمير القرية هو ابن خراشي ، وأظنه من بني تميم. (المؤلف).

يمر به من البـوابة بعرض القـرية، ولكن مـا تبقى من ممرات كـانت تبدو ضـيقـة ومتـعرجة. سكان القرية من قـبائل مختـلفة كسكان الرياض، وليس فيـهم رجال شديدو الثـراء. لسبب ما فـإن الخزانة الملكيـة تجبي ربع حصـاد محصـول النخيل والحبوب من المزارع، قد يكـون لأنها تقع تحت التأثير المباشر لسيول وادي حنيفة التي تُستغل مياهها بنظام ريٍ ممتاز، تستخـدم فيه القنوات بفعالية، بينما يكتفي ابن سعـود في حقيـقة الأمر بزكـاة تبلغ ٥٪ عيناً، في الرياض وفي أجـزاء أخرى من نجد، حيث لا يوجود ري مستديم[١]. يقع على طريق الرياض عند عبوره للسلسلة أبراج حراسـة مهجورة تقف شـاهداً على أزمان تعرضت فيـه المدينة للدمار الذي يبدو جليـاً فيمـا تبقى من الآثار الخربة. وتقـسم فرجةٌ ضـيقة حـزام النخيل إلى جزأين. البساتين الشمالية التي تقود إلى منفوحة نفسها، والجزء الجنوبي الذي تقع في وسط بساتينه قرية المصانع، وهي منطقة صغـيرة سكانها ٤٠٠ نسمة تحت إمرة أمير خاص بهـا، هو ابن زيد، وفي طرفها الجنوبي قلعة كبـيرة تسمّى مزعل، تم بناؤها فيمـا يبدو، في الأوقات العاصفـة من حكم عبدالله[٢] قبل نصف قرن من الزمان، لحماية العاصمة من الجنوب.

بينما كـان المجرى الرئيس لسيول الشـمسية يجـري عبر الجزء الشـمالي من العاصمة متـجهاً نحو الجنوب الشرقي، متخطياً واحة منفـوحة ليلتقي بوادي حنيفة في طرفه الجنوبي، كان رافد منه يجري عبر البساتين بغرب وجنوب الرياض نفسها ليلتقي بوادي حنيـفة في موقع يخـرج فيه من مـجراه الضيق الذي تحده الصـخور ليسير عبر قلب هضبـة طويق ثم ينحني بحدّة نحو الجنوب بطول المنحدر الخارجي

---

(١) هذه النسبة (نصف العشر) هي المقررة شـرعاً للزروع التي تسقى بالآلات أو السواني وبلغت النصاب وهو خمسة أوسق والوسق ستون صاعاً. (المراجعون)

(٢) المقصود الإمام عبدالله بن فيصل. (المراجعون).

للمرتفعات. يجري وادي حنيفة مسرعاً بين الحين والآخر أثناء فصلي الشتاء والربيع بكميات وافرة من الماء في اتجاه الشرق، ولو ترك الأمر طبيعياً كما هو، لاكتسحت السيول في سرعتها المدمِّرة مساحات واسعة تغطيها الآن بساتين الرياض الجنوبية، وحزام نخيل منفوحة، قبل أن يُهدِّئ من روعه في الوادي العريض الذي يقع بين مرتفعات طويق من جانب ودريبات الخيل من جانب آخر، إلا أن الإنسان تدخَّل ليعوق مجراه في حدود استطاعته وفقاً لمصالحه، حيث تمت تقوية الجانب الأيسر للمجرى ليتصدى للصدمة الأولى للسيول القادمة من المرتفعات، وذلك ببناء سد طويل منحنٍ، لم يكن البناء منتظماً، لكنه كان بحجارة ضخمة، وكان كافياً ليعوق مسيرة السيول ويضطرها للتوجه لقناة تسير بها صوب الجنوب بطول سفح منحدر طويق، وأُنشئ خزان آخر نمط البناء الأول نفسه على بعد ميل، يمتد من المنحدر ليواجه المجرى في زاوية قائمة، ثمَّ يستمر لمسافة طويلة ليخدم الغرض المزدوج كخزان وسد، ثم رُفع متراس لارتفاع قدم أو أكثر قليلاً فوق سطح المهد ليحول مياه السيل العادي نحو حزام نخيل منفوحة، بينما تسمح في الوقت نفسه لأي زيادة فوق المعدل المعتاد للهروب عبرها نحو المجرى الرئيس الذي يبلغ ارتفاعه من أجزائه العليا إلى السفلى حوالي أربعة أقدام. حفرت أساسات هذا السد في باطن الأرض لتبلغ الطبقة الصخرية الصمّاء التي تقع تحت مهد السيول المغطى بالحصباء، وتُرك بعض المهد عارياً بأن طهّروا الجزء المتاخم للحاجز، ثم قاموا بعمل حفرة كبيرة لتحجز الماء طوال الجزء الأعظم من العام، والتي كانت مليئة حتى الحافة في وقت زيارتي للموقع.

في حقيقة الأمر لقد كنت سيئ الطالع في هذه المناسبة إذ فاتني بفارق دقائق قليلة مشهد عظيم، وهو رؤية وادي حنيفة ممتلئاً بمياه السيول. كنت قد ذهبت ماشياً في صحبة منور وعطا الله إلى منفوحة، ومنها إلى السد الأدنى حيث

قضيت نصف الساعة أتأمل في العمل الفني الرائع الذي تجلَّى فيه، بينما قام رفاقي بالوضوء ثم بأداء الصلاة. كنا نتهادى في الغسق ببطء مرتقين المجرى لنرى السد الأعلى، وبعدها أسرعنا صوب المدينة متخذين الطريق المباشر عبر بساتين النخيل. بيد أنَّنا عندما بلغنا بوابات المدينة فاجأنا رجلٌ على بغل، لابد أنه كان قد عبر السدَّ ـ حيث جاء من الباطن ـ بعد عشر دقائق من مغادرتنا له: «ألم تروا السيل؟ والله لقد أكرمني الله، إذ عبرت الوادي في الوقت المناسب، ثم فاض من بعدي بسيلٍ عارم عظيم». أيّد الأخبار رجلٌ آخر قادمٌ من الدرعية كان قد عبر بإبله الوادي ليرى بعدها مباشرة السيل يغمره، ولو تأخر للحظات قليلة لكان عليه أن يبقى هناك حتى الصباح إذ لا يجرؤ أحدٌ على عبور الوادي عندما يفيض بالماء. كان أعظم سيول الموسم وآخرها.

كانت بساتين النخيل الغنية تنتشر على جانبي مجرى السيول في وادي حنيفة ـ الذي يُسمى هنا الباطن ـ وهو يمر في طيّات طويق، ولمسافة ميل بعد خروجه منه، وكان مجرى السيول شريطاً ضيقاً تغطيه الرمال الناعمة وحصباء يحيط بها الطمي وفتات الصخور. كانت هذه التربة الغنية تتجدد كل عام بترسبات جديدة تجيئ بها السيول مخلِّفة إياها في كل منخفض أو صدع في المجرى المتلوي ويستفيد منها عدد من أفضل بساتين النخيل في الواحة بأكملها، كما تخصّب الرقاع المزروعة بالحبوب والخضراوات والبطيخ. ولكن ليس هناك استيطان دائم في هذه المنطقة باستثناء القليل من البيوت التي يسكنها رجال يستأجرونها من ابن سعود ومن آخرين من أصحاب البساتين. يعد الباطن منتجع أثير لدى سكان الرياض، وعلى وجه الخصوص لدى العائلة المالكة، حيث تُهرع إليه أعداد كبيرة من الناس في أوقات العطلات والمناسبات مصطحبين جيادهم ليمرحوا بإقامة مسابقات الرماية

وعروض ركوب الخيل ورياضات أخرى، ويبقون هناك يوماً كاملاً ابتداءً من الفجر وحتى المساء، يطعَمون ويرتشفون القهوة ويؤدون صلواتهم في أوقاتها.

ما إن غادر مبعوثو شمّر العاصمة في رحلة العودة حاملين خطابات لزعيمهم، حتى سمعت بقدوم وفد عظيم الشأن أتى بخطابات من عجيمي نفسه، وبهدية قِوامها أربعة أفراس وفحل عظيم، مع أكبر اثنين من نوابه: محمد بن تركي بن مجلاد، كبير شيوخ دهامشة عنزة، وفهد بن دُغَيِّم، المنافس لفهد بن هذال في زعامة قسم العمارات من قبيلة عنزة. كان المبعوثون أنفسهم أشخاصاً لهم وزنهم: نايف بن دغيم وهو أخ فهد فيما أعتقد، وبدر بن مجلاد، ابن عم محمد. كانت هناك دلالات واضحة في الخطابات التي صيغت بعبارات بالغة التهذيب، بل بعبارات ودودة لأن كاتبيها كانوا يحسُّون وطأة التنفيذ الصارم للحصار، ولكن العربي يفضّل أن يلفظ آخر أنفاسه دون أن يلفظ اعتداده بنفسه. كتب عجيمي كرجل حرٍ يخاطب حُراً مفيداً أن وجوده في صحراء الفرات ـ وهو فيما يبدو في جوار الرخيمية، رغم أنه لم يقل ذلك ـ كان لاعتبارات المراعي ليس إلا، وأنه سيكون سعيداً لو سمح له بارتياد أسواق القصيم. كما كتب نوّابُه في المعنى نفسه، مع إشارات أكثر وضوحاً لما أصابهم من العنت من جراء الصراع الطويل، وإشارة لوشائج الدم التي جعلت مصالحهم متطابقة مع مصالح ابن سعود نفسه، الزعيم الطبيعي للمسلمين ضد أصحاب البدع وضد الكفرة.

قال لي ابن سعود أثناء نقاشنا حول ما ينبغي أن يكون عليه الرد الذي سيعود به المبعوثون: «هل ترى؟ لقد كنت أستخدم كل مقدراتي الدبلوماسية لسنوات طويلة لأستميل إلى جانبي من كانوا يؤازرون الخصم، وها هي جهودي قد أثمرت. لقد رأيت الرد الذي بعثت به لماجد والإعلان الذي أصدرته لشيوخ شمر. الآن سأرسل رداً مشابها لعجيمي ورفاقه، ولكن تذكر أن وقت العمل قد

حان، وإن كان لي الخيار فإنني أفضل أن أواصل سعيي بالطرق الدبلوماسية، وإن أراد الله ستكون كل القبائل معي في ظرف سنوات قليلة، ولكنكم الآن تطالبونني بتعجيل الأمور بعمليات حربية. وعندما أبدأ لن يكون هناك مجال للنكوص على العقبين». وكانت إجابتي: «لقد أعطيتك عهد الحكومة البريطانية». أجاب: «إن المثل يقول: إن وعدت فأوفِ، وإن توعدت فأنجز؛ فإن من يعد ولا يُوف لا يثق به أحد، ومن يتوعد ولا ينجز لا يخافه أحد. لقد أرسلت أوامري للقبائل ليتجمعوا هنا في الرياض في منتصف شعبان حيث سيقودهم تركي ليبدأ الحملة عندما يهل شهر رمضان؛ وفوق هذا فقد استدعيت عدداً كبيراً من الإخوان ليحضروا بعد أيام قليلة حيث سأوضح لهم الأمور وأذكي فيهم روح الحماسة؛ أسألك يا الله أن تجعله جيشاً قوياً منصوراً».

قبل يوم أو يومين كان القاضي الشيخ عبدالله، يناقشني في أمر الشريف، وحثني على عمل شيء في ذلك الاتجاه، ولكنني قلت له: «اصبر قليلاً، وسيهوي الشريف من تلقاء نفسه». تم اجتماع الإخوان قبل يوم من سفري للجنوب، في مزرعة عتيقة في الجزء الجنوبي من الواحة، حيث قام الملك السعودي بعيداً عن صخب المدينة واهتماماتها الدنيوية بمخاطبة أكثر العناصر تشدداً وسط قومه، حديث القلب للقلب ممهداً الطريق للجهاد. عندما كنت أناقش معه بعض الأمور في الليلة السابقة، على سطح القصر سمعت أحدهم يتلو آيات من القرآن مع تبيان تفسيرها لجمع من الأوفياء المؤمنين، وكان ابن سعود قد ترك ابنه الأكبر ليترأسهم على سطح قاعة الاجتماعات العامة. لقد بدا لي غريباً كيف أن الإيمان يمكن أن يصير ضيعةً للسياسة، وكيف أن جذوة التشدد تؤجج لتستعر في قضايا دنيوية. سألت مضيفي «ما هو موقف الإخوان الحقيقي من تحالفك مع البريطانيين؟» فأجابني: «ليس

صحيحاً أنهم يكنُّون لكم العداء، إذ أنكم ـ وفقاً لعقيدتنا ـ «أهل كتاب»، ولستم «مشركين» أو كفاراً، وهؤلاء هم الوحيدون الذين تنصبُّ عليهم كراهية السلفيين. لكن هناك الكثيرون من قومي، وأغلبهم من أهل المدن الذين سافروا أو تعلموا في الخارج يتعاطفون مع الأتراك كممثلين للإسلام، ولذلك فهم يُعادون البريطانيين، ولكن مثل هؤلاء نعطيهم مهلة وجيزة للرجوع عن أفكارهم. ومنذ عهد قريب عاتب اثنين من هذا النوع لتعبيرهم عن آرائهم هذه».

في صباح اليوم التالي لزواج القصيبي التقيت به في غرفة استقبال شلهوب العامة وهي قاعة كبيرة في الطابق الأرضي لمنزل يقع في الطريق المؤدي إلى البوابة الجنوبية الشرقية، حيث تُوزع القهوة على نفقة الدولة للزوار العديدين الذين يفرض عليه منصبه كأمين للخزانة مقابلتهم واستضافتهم، وسألت القصيبي: «حسناً كيف وجدتها؟. هل هي جميلة كما يقولون، وهل أنت مقتنع بها؟». وكان ردّه: «لا بأس بها، معتدلة تساوي عشر آنات من الروبية، ليس إلا، ولكنكم أنتم تختارون جيداً، إذ تفعلون ذلك بعد رؤيتهن، كم من رجلٍ منا اكتشف ليلة زواجه أنه خُدع، ورغم أن مظهره لم يكن يخوّل له ادّعاء الوسامة، لكنه كان يرى أنه (دون جوان)، وكان واضحاً أنه أحبط قليلاً من اختيار ابن سعود الذي أراد أنه يُخرجه من وحدته إبان وجوده بالرياض. كان شلهوب يضطلع بمهمة كبيرة وهي تنظيم بيت المال الملكي وإدارة شؤونه، وكان يستعين بكاتبٍ له معرفة سطحية باللغة الهندية تمكنه فقط من معرفة الأرقام والكلمات في بيانات المشتريات القادمة من بومباي، بينما لم يكن في دفتر المحاسبة، الذي تسلّيت بالنظر فيه، ما يشير لفعالية أيٍ من الرجلين. أخبرني شلهوب أن له ستة من الأبناء الذكور، أعمارهم في المدى بين الطفولة وأربعة عشر عاماً.

بينما كنت أجلس في إحدى الأمسيات مع ابن سعود فوق السطح، تحت سماء صافية لاحظت التحركات الشجاعة لأتنبأ بأن الليلة ستكون عاصفة، وعلق ابن سعود قائلاً: "الله أعلم"، وبدا منزعجاً لتناولي موضوعاً لا يحق لي الخوض فيه، إذ أنه لا يُسمح للسلفيين أن يتطفلوا على علم أسرار معينة ـ ووفقاً للرواية ـ حجبها الله عن محمد نفسه مخافة أن ترفعه حسب تقدير البشر لمرتبة الألوهية، والعلوم المخفية عددها خمسة؛ وهي نوع الطفل الذي لم يولد بعد، وموعد وفاة الشخص، وماذا يحدث في الغد، والمكان الذي سيموت فيه الشخص، وهطول الأمطار[1]. ولم يعط علم هذه الأشياء لبشر، ولا يجوز للإنسان أن يتطفّل عليها. ولكنني كنت مُحقاً فيما تنبأت بحدوثه، إذ أن الليلة كانت جدّ عاصفة، واضطر من كانوا ينامون على السطح ـ وأنا منهم ـ أن يدخلوا إلى الغرف. وفي اليوم التالي، وبينما كنت أجلس مع عبدالله بن عبدالرحمن في قاعة الاجتماعات الكبرى لمحني ابن سعود وهو مارٌّ في طريقه، فتوقف ليعلّق على دقة توقعي، واعترف أنه ضيّع نومه إذ لم يُعرْها اهتماماً؛ وعلمت فيما بعد أن إصابة توقعاتي التي كانت في ظاهرها على غير أساس، أصبحت مثار كثير من النقاش أثناء النهار. غنيٌّ عن القول أنني كنت حريصاً جداً على أن أُرجع كل الفضل للجهاز الصغير الذي يزن الطقس.

كان عبدالله بن عبدالرحمن هو أوّل أفراد العائلة المالكة استجابة لأوامر أخيه التي أعلنها على الملأ بضرورة استضافتي. اعتذر لي لاستقباله إيّاي في قاعة الاجتماعات العامة، إذ أن منزله الخاص الذي كان ملاصقاً لمسكن والده كانت

---

(١) يشير المؤلف إلى الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله في الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. أما دراسة الطقس أو علوم الفلك فهي علم وهي موضوع يختلف عما يتحدث عنه المؤلف. (المراجعون).

تجرى عليه بعض الترميمات، وأعربَ عن أمله في استضافتي فيه عندما يصير في حالة لائقة. واصلنا نقاشنا حول الأدب والموضوعات المشابهة والتي كنا قد بدأناها في معسكر الشوكي. كان أعظم شعراء نجد المحدثين في رأيه هو شاعر يدعى سليمان بن سحمان، وهو من سكان الرياض، وقد جُمع إنتاجه وأُرسل منذ عهد قريب لطباعته في بومباي، ويأخذ شعره في الغالب منحىً دينياً؛ أخبرني عبدالله أن كثيراً من المخطوطات الشعرية والأعمال الدينية ما تزال في حاجة للبحث والتنقيب في مكتبة والده ومكتبات كثير من العلماء، رغم النهب الذي حدث أثناء الاحتلال الرشيدي، ونقل المكتبة الملكية الخاصة بأسلاف العائلة المالكة إلى حائل.

عندما أشرت له أنه سيسعدني أن أشتري كلَّ ما يمكن أن يوجد من مخطوطات، أسرع ليؤكد لي أن مشروعاً كهذا غير واردٍ على الإطلاق، إذ أن بيع الكتب الدينية يعد عملاً غير ملائم، بينما كان تداول الكتب التي تبحث في الموضوعات الأخرى محدود النطاق في الرياض، وفي بقية نجد أيضاً. كان عبدالله يناقش موضوعات الصيد والقنص وموضوعات الحرب والحياة البدوية بنفس الحماسة والثقة التي يعالج بها قضايا الأدب. أخبرني أن أكثر أنواع الغزلان عدداً في الدهناء هو "الريم" وهو ذو لونٍ مائل إلى البياض، وهو أكبر بقدر ما من الغزال العادي الذي يوجد في السهول، أي "الظبي" كما يسمونه أو الإدمي.

ذهب بي إبراهيم في نفس ذلك اليوم، بعد صلاة الظهر لمنزل سعود بن عبدالرحمن، أخ ابن سعود الناسك، وهو من قابلت عن طريق الصدفة في مناسبتين سابقتين أثناء تجوالي خارج القصر. كان استقباله لي عظيماً جداً، ولكنه أربكني عندما أصرَّ وبالغ في إصراره أن أتناول فنجال القهوة الأول، حتى رضخت رغماً عن القاعدة التي كنت أنتهجها وهي ألا أسبق أحداً من أفراد العائلة المالكة

الكبار في هذا الأمر. وبما أن هذه كانت زيارتي الأولى لسعود، فإن حديثنا كان ذا طابع شكلي، ولكنني وجدته ـ خلافاً لظني ـ ذا مقدرة استطرادية ينتقل بين موضوعات متعددة، كما وجدته ذا ذكاء يفوق بقدر كبير ما كنت أتوقعه منه. أخبرني أن أباه يعيش في شبه انقطاع عن الناس منذ سبعة عشر عاماً، لا يخرج من داره إلا لأداء صلاة الجمعة في الجامع الكبير. وفي هذه المناسبة يؤمُّ المصلين الشيخ عبدالله، كبير العلماء السلفيين، بينما يقف ابن سعود خلفه مباشرة في منتصف الصف الأوّل، ويقف أبوه عن يمينه، بينما يتوزع بقية أعضاء العائلة المالكة في الصفوف، في مؤخرة الجامع أو في وسطه، كيفما اتفق، ويحضر الصلاة كل الذكور بالرياض ابتداء من عمر ست سنوات. أخبرني الجنيفي أنه قد عدَّ في إحدى المرات ثلاثين صفاً من المصلين في داخل الجامع وعشرة صفوف على أسطح "الليوانين"، وكان عدد المصلين في كل صف وفقاً لتقديره ٣٠٠ مصل. هذا العدد يجعل تعداد الذكور أكثر من ست سنوات يبلغ ١٢,٠٠٠ شخص، ولكن هذه التقديرات لا تستحق كثيراً من الاهتمام، خاصة إذا علمنا أن طول الجامع يبلغ ٧٥ خطوة، قد تكون كافية لوقوف ١٢٠-١٥٠ من المصلين في الصف الواحد. وإن أخذنا الرقم الأعلى، فإن تعداد الذكور في العمر الذي يسمح بذهابهم للجامع يصبح ٦٠٠٠ شخصٍ أو نحو ذلك، ويضاف إلى هذا العدد الأطفال الذكور والنساء والبنات. لقد كنت دائماً أعتقد أن ٢٠,٠٠٠ هو تقدير سخي لسكان الرياض، وهم على كل الافتراضات لا يزيدون كثيراً عن الرقم ١٨,٠٠٠ نسمة.

تحدث سعود في النهاية عن الأيام التي قضتها أسرته في المنفى، حيث قضى والده عامين في منفاه بين البحرين وقطر قبل أن يرحل إلى الكويت حيث نعم هو وأسرته المتنامية بكرم ضيافة محمد بن صباح حتى قتل على يد أخيه الشيخ مبارك الذائع الصيت. وتحت حماية الشيخ مبارك عاشت أسرة نجد الملكية وهي تعدّ العدّة

حتى قامت بالهجوم الذي أعادها على عرش الرياض. دهشت بعض الشيء لرؤية طامي في قاعة ابن سعود عندما وصلت كان ما يزال في أعلى نزعات الثرثرة، يقاطع الأحاديث بحكايات ونوادر - لا أدري من أين أتى بها - عن قبائل من أكلة لحوم البشر، وعن أناس غريبين آخرين. وأخبرنا أنه سمع حديثاً أن عاملاً صينياً في البصرة قد قَتَلَ ضابطاً بريطانياً، وأثار كثيراً من المشاكل في اتجاهات مختلفة - روايات تافهة لعلها تُختلق في متاجر الكويت، حيث توجد جماعة صغيرة ممن يروجون الشائعات لمصلحة الأتراك، كانو منشغلين في أيام الحرب هذه باختلاق قصص وأوهام ضد مصالح الحلفاء، وخاصة البريطانيين الذين كانت إجراءات حصارهم في هذه الظروف هي مجال التلميح والتعريض. لقد أشرت من قبل للشائعة[1] التي لم يكن لها أساس عن مصاعبنا وانهزامنا في تلك الفترة في فلسطين، ولكن تلك كانت يسيرة إذا ما قورنت بالدعاية المضادة لمصالح الدعاية البريطانية والتي تبعت بلوغ الأخبار للرياض عن مشكلة الحصار في الكويت والتي سببت تساؤلاتٍ وقلقاً كثيراً لابن سعود فيما يختص بمجريات الأمور الحقيقية في أوربا. إذ أنه مثل مواطنيه - وليس مواطنيه وحدهم - كان دائم الشكوك في الأخبار التي تسمح الرقابة لدينا بنشرها، كما كان أعقل من أن يرفض أخباراً تأتي إليه من مصادر أخرى دون تمحيص وتدقيق. كانت إحدى المكاتبات التي وردت لابن سعود دون توقيع، تقرأ كالآتي: «لاشك أن عبدالله النفيسي قد أخبرك عن إجراءات الحصار الموجّه ضد أبناء نجد، وهو في الحقيقة أمرٌ سيئ ويضر بمصالح الناس، ولكننا نعلم حكمكم الصائب على الأمور. تمتلئ هذه الأيام الصحف بالأخبار، ويأتي الناس من دمشق وبغداد والبصرة، وباختصار هم يتحدثون عن

---

(١) راجع ص ٤٧٥ . (المؤلف).

حشــود عسكرية متزايدة فـي فلسطين، أغلبهم من الألمان والنمسـاويين. ويقولون أيضاً أن ابن ليلى[1] قد عاد إلى سوريا حيث استقبله الأتراك استقبالاً جيداً هناك، وأمطروه بالهدايا بما في ذلك البنادق والمدافع وأشـياء أخرى. ولكن لاشك أن هذه الأنباء قـد وردت إليكم، تتحدث الصـحف القادمـة من مصر عن التـوتر المتزايد بفرنســا حول الحرب وعن مـأزق إيطاليا والسلام مع روسـيا، وأيضاً عن اقـتراح الرئيس الأمريكي الذي قدّم فيه سبعـة عشر شرطاً للسلام، وعن البعض الذي قبل من هذه الشروط والبعض الذي لم يقبل. وتقول صحف أتت من سوريا إن القتال في فرنسا يدور في جـوار باريس وروما، وأن الفرنسيين قد نقلوا عاصـمتهم لمكان آخر، علـى بعد سبـعين ميـلاً من باريس على ساحل الـبحر الأبيض المـتوسط. ونسمع أيضــاً عن تعزيزات لسـوريا بلغت مليون مـقاتل، وأن الأتراك قد تقــدموا وقطعوا الطريق ليمنعوا تقهقر البريطانيين عن القدس، وأن ابن الشريف، فيصل قد هُزم بالقـرب من الكرك والبلقاء، وهرب كل جنود الـشريف وقتـل كل الأسرى، وتقدم الأتراك ضد الإنجليز فـيما يبدو، وقد شارفوا الوصول إلى يافـا وغزة، فيما يخــتص بهزيمة ابن الـشريف يقـال إن ٣٠٠ من الحـويطات قد قُـتلوا. . . . هذه المقتطفات استقيناها من الصحف، وبعضها من التقارير التي تردُ مع بعض القادمين من دمشق وبغداد وأمـاكن أخرى. واجه البريطانيون هزيمة أيضـاً في جوار بغداد. لقد وجدنا إشاراتٍ لكل هذا في الصحف التي نرسلها طي هذا الخطاب للدراسة، والسلام عليكم».

كان اليـوم التالي هو يوم الجـمعـة، وتُركت وحيـداً حتى انتـهت الصلاة، وحينذاك أخذني إبراهيم لزيارة شلهوب الذي وجدت القصيبي وحمداني في غرفة

(١) كان هذا الرجل وكيل ابن رشيد السياسي لدى الأتراك. (المؤلف).

استقباله. كان الجو حاراً وخانقاً، وما لبثت وجوهنا أن تصببت عرقاً. كان مقعدي بالطبع في أكثر المواقع تكريماً، وهو أقرب المواقع للنار المتوهجة. تناول رفاقي ـ وقد حضروا بعد أداء الصلاة ـ كثيراً من التمر واللبن اللذين وُضعا أمامهم، لكنني لم أشعر بحاجة مماثلة للطعام في جو كهذا. كانت القهوة من خير الأنواع، من الإنتاج الحقيقي لليمن، والذي يُدَّخر في مجالس الرياض للضيوف المميزين وللزوار القادمين من الجنوب الذين يشعرون بالإهانة إن قُدمت لهم القهوة المصنوعة من البن الهندي الذي يعده العامة هنا جيداً لدرجة كافية. نالت توقعاتي عن الطقس حظاً من النقاش، قال مضيفي: «أنت تعلم في أمور كهذه أكثر مما نعلم، ولكن عقيدتنا تستنكر الخوض في أشياء هي تتعلق بمعرفة الله تعالى وحده». وقلت له: «إذن كيف تضعون حدوداً للفصول؟ أنتم تقولون إن فصل الصيف يستمر أربعين يوماً، ويسبقه الربيع، ويعقبه "القيظ"؛ كيف تقولون هذا بينما أن الله يستطيع أن يغير ترتيبها كما يشاء؟[1] نحن لا نفعل سوى أن نقيس المناخ بواسطة أجهزة ويمكننا أن نتحدث عن أمطار قادمة أو جفاف بفضل ذلك العلم الذي تستخدمونه أنتم في مجالات أخرى». كان مسعاي طوال الوقت أن أُبطل سيادة الآراء أو الأحكام المسبقة التي تعيش في أذهان المجموعة التي أعيش بينها، لأبدو كأيٍ منهم باحثاً عن النور الذي يقود للمعرفة. ثم إنني لم أدَع فرصة تمر، دون أن أنسب الفضل للعرب أنفسهم في التطور العلمي الغربي، أو أن أشير لأن الأجهزة التي أحملها لا تختلف عن تلك التي كان يستخدمها الفلكيون ومتعلمو بغداد الآخرون عندما كانت قاعات "الخلفاء" إحدى مراكز التحضر في العالم.

---

(١) يبدو أن المؤلف هنا يناقش ويشير إلى آراء كثير من متوسطي التعليم والفهم واتخذ هذا فيما يظهر حجة ليبرز مدى فهمه وعلمه، وهو فيما يقوله يعتمد اعتماداً مباشراً على أجهزة علمية جلبها معه لا يعلم محاوره عنها شيئاً ولا ما تؤديه تلك الأجهزة من خدمات. (المراجعون).

في إحدى المرات شعرت بالزهو عندما قَدِمَ إليّ رسولٌ بعث به الإمام عبدالرحمن على عجل يستفسر عَمّا إذا كانت الشمس في حالة خسوف أم لا. كان يوماً غائماً ولم تظهر فيه الشمس إلا في فتور من وراء غبار كثيف معتم، وشعرت أنه يتوجب عليّ أن أستفيد من هذه الواقعة قدر المستطاع لأبلّغ الرسالة التي تحدثت عنها. طفقت أقلب صفحات التقويم البحري الخاص بي أمام الرسول الذي يقف على عجل، وأعلنت أن كتبنا تقول: "إنه ليس هناك خسوفاً في هذا اليوم"، ثم خرجت أحمل منظاراً فلكياً (آلة قياس حركة الأجرام السماوية) لأتفحص الشمس نفسها، وأكدت دقة المعلومات العلمية الواردة في كتبنا من واقع الملاحظة الحقيقية. أسرع الرسول يحمل البشرى ـ إذ أن الخسوف يعده السلفيون نذير شؤم ويستوجب كثيراً من الصلاة طلباً لرحمة الله[1] ـ وقبلت مشورتي بشأن الخسوف دون تردد. وفي مناسبة أخرى أثبت مهارتي المستقاة من التقويم البحري أمام جمع متشكك، ولكن لندع هذه القصة لمناسبة أخرى.

استضافني القصيبي في تلك الأمسية نفسها، مع رهط من الأصدقاء في منزل الزوجة الجديدة، ومن هناك ذهبنا لزيارة محمد بن عبدالرحمن، أكبر إخوان ابن سعود، الذي يواجه منزله الحائط الشرقي للقصر من الجانب الآخر للميدان، كان منقوشاً على الباب الخارجي كلمتا (بيت خالد) دلالة على أن البيت هو مسكن والدة أكبر أبناء محمد، ويدعى خالد. قرعنا الباب ودخلنا دون مراسيم، وقادنا الممر إلى قاعة مستطيلة أكبر من المساحة المعتادة. كان سقفها يستند على صفٍ من الأعمدة يجري في وسطها. وكانت حيطانها المجصصة تزدان برسوم

(١) يدرك المسلمون جميعاً أن الخسوف أو الكسوف آيتان من آيات الله، وليس لها صلة بالتشاؤم، وما قاموا به من الخوف والصلاة هو اقتداء بسنة الرسول ﷺ؛ حيث فزع عندما وقع الكسوف في زمنه وأسرع إلى الصلاة حتى انجلى الكسوف. (المراجعون).

كثيرة متنوعة، هي في أغلبها دوائر متحدة المركز، ذات ألوانٍ حمراء وزرقاء، ورسوم بعجلات وسلاسل أو آنية تحتوي على ما قُصد به أن يكون نباتات أو شجيرات نامية، كما كانت هناك رسوماً أخرى تنمُّ عن محاولاتٍ غير بارعة لتمثيل مساجد ومآذن، وكلها تتجمع معاً دون ترتيب أو تصور واضح. أما الذي شدّني فقد كانت المحاولة لرسم سفن مبحرة ترفرف الراية على إحداها، كان غياب أي مخلوقات حية مظهراً بارزاً للمشروع الزخرفي الذي اكتمل بتخطيط الأعمدة المجصصة بأشكال لولبية حمراء وبيضاء وزرقاء من الأرض إلى السقف. أثاثات الغرفة كغيرها من الغرف هي الوسائد والسجاد، ولكن موقد النار كان أكبر من أي موقد آخر رأيته في الرياض، واصطفت به تسعٌ من دلات القهوة، وإحداها كانت بلا ريب أكبر ما رأيت على الإطلاق.

كان محمد بعيد الشبه عن أخيه الأكبر، في ملامح الوجه وفي البنية، ولم يكن يضطلع بأي دور إيجابي في السياسة أو إدارة البلاد، بل كان يحيا حياة نبلاء الريف، حيث يعيش الآن في مزارعه في الجزء الجنوبي من الواحة، أظن أن مزرعة عتيقة مِلكٌ له، لكنه يعيش الآن على أرض امتلكها منذ عهد قريب، بالقرب من ضرما، ولا يُرى الآن إلا نادراً في العاصمة المكتظة الهائجة. كان صموتاً وجافاً في طبعه بعض الشيء لذا كان عليّ أن أقوم بالنصيب الأوفر من الحديث، ولكني حاولت مرة أن أخرجه عن صمته بأن خلدت أنا نفسي للسكوت. وفجأة سألني دون تفكير: «كيف ترى الشريف؟» ودون أن ينتظر مني إجابة عبّر عن رأيه في إيجاز حاسم: ثم بدأ يحدثني عن حج العام السابق، عندما قاد ١٧,٠٠٠ من التجديين ـ هكذا قال لي ـ عبر بوابات مكة، التي لم يرَ منها إلا القليل رغماً عن ذلك، إذ أنه قام بزيارة رسمية للشريف، إضافة لزيارة مواقع

الشعائر فحسب، وباستثناء هذا لم يكن يغادر مسكنه. ولكن رغماً عن ذلك كان حريصاً على أن يقوم بالحج مرة ثانية في أقرب فرصة يسمح فيها ابن سعود بذلك، وهو يفضِّل أن تكون الرحلة عن طريق البحر، في صحبة والده الذي لن يقوى بعد هذا على تحمل مصاعب السفر الطويل براً، وعدتُه أن رغبته ستجد الاهتمام من السلطات البريطانية عندما يفكر في القيام بالرحلة.

هكذا كان الأبناء الأصغر لبيت عبدالرحمن، يختلفون كثيراً في طباعهم، ولكل شخصيته الخاصة، مالك الأرض الصغير، والمتعبد، ورجل الأدب، لكم كنت أود أن أوطد علاقتي الشخصية بهم أكثر مما كان يسمح به جوّ العادات والتقييد الذي كان يسود الحياة بالعاصمة السعودية. إضافة لأثر الشخصية المهيمنة لابن سعود وللنسيج الاجتماعي الذي كان يمارس دوراً مقيداً لحرية الاختلاط مع كافر، فلقد كانت هناك عوامل كافية بمفردها لتفرض على رؤوس المجتمع قدراً من الحذر في علاقاتهم وتحادثهم معي. لقد كنت أشعر في كل التحركات التي يخطوها ابن سعود بأثر تاريخ الأسرة الملكية عليه، ذلك الحلم المزعج الذي يقضّ مضجعه. لن ينسى ابن سعود على الإطلاق، كما لن ينسى أفراد عائلته، الماضي الذي يمكن أن يعيد نفسه في أي وقت من المستقبل.

وفي خضم مَعْمِيّات السياسة العربية وأحكامها المسبقة يقف ابن سعود وحيداً في مفترق الطرق بين النظام والفوضى. لقد وقف في ذلك الموقع ليس كصاحب حق، ولكن بحكم مناقبه الخاصة، ولم ينس قط أن عرشه تحط به الأخطار من اتجاهات مختلفة. وكانت مهمته هي السيطرة على تلك القوى التي تسبب الفشل في السيطرة عليها في السابق في تقويض حكم أسلافه. ولم يكن ليعتمد على نجاحه أو فشله بقاء عرشه فحسب، بل مستقبل البلاد كلها. وفي ظل هذه الظروف اشتهر ابن سعود بأنه يجتث من الجذور بسرعة وقوة كل مظنَّة للمشاكل،

ولم يكن غريباً أن إخوانه ـ الذين كانوا فقط بحكم أنهم إخوته وينعموا بالراحة النفسية. وهي المزايا الرئيسة التي ينعم بها المجتمع العربي. لقد أخبروني أنّ سعداً ـ الذي آسف كثيراً لإنني لم أتشرف بلقائه ـ وهو الذي راح ضحية تصرفه، وخيانة من العجمان أثناء حملته ضدهم ـ كانت طباعه تتطابق مع طباع ابن سعود وكان يشبهه في الشكل أيضاً لحدٍ كبير، وكان يربط بينهما حبٌ عظيم.

بينما عاقت الاعتبارات السياسية بعض الشيء حرية التفاعل مع إخوان ابن سعود، لم يكن هناك قيد كهذا لتنمية علاقة صداقة مع رجل مثلي، ضيف شرف في البلاط السعودي، والذي كان مضيفه يعامله على الدوام بقدرٍ من الاحترام مما يجعلني أظنّ أنه يُنظر إليه كنائب متوقَّع له على جبل شمّر إن حدثت تغيرات في وسط الجزيرة العربية بحيث يخضع الجبل لسلطة ابن سعود. كان هذا هو فيصل ابن رشيد، وهو رجل في منتصف العمر، معتدل البنية، وتتسم شخصيته بالمرح والرزانة معاً، ويميل قليلاً إلى الوسامة، وطباعه سهلة ودودة، ذكّر المرء ـ إن جاز لنا أن نحكم بناءً على ما سمعناه ـ بمجتمع حائل عموماً، إذ أن صوته الرقيق وطريقة نطقه البديعة الواضحة هي طريقة الحديث في شمر وهي طريقة تقليدية في نقائها، وتتميزّ بالاستخدام المتكرر "للتنوين" الذي كاد أن يتوقف الآخرون عن استخدامه في المناطق الأخرى، كما تتميز بخلوها تماماً من الحدّة التي تلازم بيان سكان العارض ذوي الصوت العالي، وخلوها من اللثغة التي تعطي حديث مطير نوعاً من الحذلقة. كان طامي ـ الذي صحبني في زيارتي لفيصل ـ يمثل لي دائماً نموذجاً لأسلوب شمّر وللفصاحة الطبيعية التي تميّز تلك القبيلة عن غيرها. كانت صياغته الشعرية والتدفق الطبيعي للكلمات أثناء المحادثة العادية تستحق في نظري أعلى درجات الإشادة لجمال تعبيراتها.

استقبلني فيصل بأسْمَى درجات الود والترحيب، وشربت معه القهوة ـ التي أصرّ على أن أشربها قبله ـ وهو يروي لي حكايات نادرة من التاريخ الدموي لسلالة آل رشيد. عندما كان السعوديون يسيطرون على كل الجزيرة العربية، كانت حائل وبلاد شمّر تخضع لسيطرة سعود الكبير وخلفائه، وكان يدير شؤونهم أمير يتم تعيينه من الرياض[1]، من بين الأفراد ذوي المرتبة العليّة في قبيلة شمّر، وهي أسرة آل علي من فخذ جعفر من عبدة. وبتعاقب الأيام عانت السلطة السعودية من خسوف مؤقت على يد الأتراك. بعدها أصبحت السلطة المحليّة بحائل تابعة اسمياً للأتراك حيناً وللسلالة السعودية حيناً آخر، كلّما تعاقب هؤلاء علواً وهبوطاً. بيد أن سلطة حائل كانت من ناحية عملية سلطة مستقلة عن السيطرة الخارجية، ورغم أنّ التفاصيل المبهمة لتاريخ الجزيرة العربية تحتاج لإعادة صياغة إلاّ أنّه يبدو أنّ أسرة آل علي كانت تحكم حائل بصورة مستقلة في العقد الثالث من القرن الثامن عشر، عندما استعاد تركي بن سعود[2] عرش آبائه من الأتراك المغتصبين. إلاّ أنّ سيادة أسرة آل علي كانت تنازعها عليها أسرة منافسة من ذات الجزء (آل جعفر) لقسم عبدة، وهي أسرة آل رشيد. وكان كبير الأسرة عبدالله بن رشيد في خدمة تركي الذي تخضع له حائل اسمياً. وبعد قليل من الوقت وجد عبدالله بن رشيد الفرصة سانحةً لقلب الموازين وانتزاع السلطة من أبناء عمومته المنافسين له. حدث ذلك عندما طلب منه تركي أن يُسمِّي المكافأة التي يودّ الحصول عليها نظير ما أدّاه من خدمة بارزة للدعوة السلفية، فطلب الإمارة على بلدة له ولذريته من بعده، وإبعاد

(١) الصواب أن حكومة الدولة السعودية الأولى كانت في الدرعية، وليس الرياض، وكانت إدارتها تتم من هناك. (المراجعون).

(٢) المقصود به الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الثانية. (المراجعون).

أسرة آل علي للأبد. استُجيب للطلب وتمّ تعيين عبدالله كنائب لتركي على حائل، تحت رعايته[1]. ولكن بمرور الزمن، وبعد أن شجعته الحرب التي استمرّت طويلا بين الأتراك والحكام السعوديين، وتضعضعت سلطة الأخيرين في الرياض، شقّ عصا الطاعة، وأوقف كل مظاهر التبعية للسعوديين وكوّن البيت الملكي لجبل شمرّ [2]، والذي حكمته أسرة آل رشيد دون انقطاع منذ ذلك الزمان على امتداد الجزء الأعظم من الوقت الذي ساد فيه السعوديون. لحق عبدالله بأسلافه عندما حان الأجل، وترك من ورائه عدداً من الأبناء يضمن بهم توارث العرش في ذريته المباشرة، ولكنه أيضاً ترك إخواناً، أكبرهم عُبيد الذي فشل هو نفسه في أن يحوز على الشرف الملكي، ولكنه أسّس جناحاً للمطالبين بالعرش، كانت طموحاتهم سبباً في أن تتخضّب أرض حائل بالدماء الملكية. تعاقب على حكم حائل منذ عهد عبدالله حتى عهد ابن حفيده؛ سعود، الذي يحكم حائل الآن[3] ما لا يقل عن ثمانية "حكام" مات جميعهم ميتاتٍ عنيفة، باستثناء أعظمهم جميعاً: محمد ابن رشيد، وهو أحد أعظم الرجال الذين أنجبتهم الجزيرة العربية. وكان داوتي قد زار حائل في عهده. وللذين يودُّون أن يعرفوا شيئاً عن تاريخ الجزء الشمالي من وسط الجزيرة العربية في ذلك الوقت، ليفهموا كيف أنّ الابن الثالث لعبدالله

---

(١) الصحيح أن الذي أعطى إمارة حائل لآل رشيد هو الإمام فيصل بن تركي، وذلك كمكافأة على مواقفه الحميدة معه، وكان عبدالله بن رشيد صديقاً للإمام فيصل قبل أن يتولى الحكم، وقد فصّل ذلك ابن بشر في تاريخه. (المراجعون).

(٢) يشير المؤلف إلى أطماع الأمير محمد بن رشيد في نجد استغلالاً للخلاف الذي حدث بعد وفاة الإمام فيصل، أما عبدالله بن رشيد -مؤسس إمارة آل رشيد في حائل- فقد كان على ولائه لآل سعود حتى توفي. (المراجعون).

(٣) حافظ سعود على ما اشتُهرت به عائلته، إذ تم اغتياله منذ عهد قريب (حوالي أبريل «نيسان»، ١٩٢٠م) عن عمرٍ يقارب واحداً وعشرين عاماً على يد ابن عمه عبدالله بن مطلب وهو شاب لم يبلغ العشرين من العمر. (المؤلف).

«الذي كانت نظرته نظرات من نجا لتـوه من أخطر الأمراض، والذي لم يكن أحد يتوقع أن يصبح أميراً في يوم ما» كيف أنّه ورث عرش حائل، نصيحتي لهؤلاء أن يقرأوا الأوراق الحـبلى بالمعلومات في الكتـاب الذي حكى فيه داوتي القـصة التي رويت له عن المآسي في بيت ابن رشيد[1].

يكفي هنا أن نقـول إن عبـدالله قد خلفـه ابنه الأكبر طلال، والـذي انتزع روحه بيـديهِ لئلا يشهـد موتاً بطيئـاً من جراء مرضٍ لا يرجـى بُرؤه، وخلفه ثاني الإخوان، مـتعب. وبعـد عامين تآمر ابنا طـلال وهما بندر وبدر بقتل عـمّهـما، وارتقى بندر العرش بعد أن أُطْلِقَ عـيارٌ على عمه متعب أثناء جلوسـه في اجتماع عام. وكان لبندر ذي التسعـة عشر عاماً أن يحكم آمناً حتى النهاية الطبيـعية لحياته لولا أن حماقته وتشككه الذي لم يكن مـبرّراً من نوايا من تبقى من أعمامه، وهو محمد، الابن الثـالث لعبدالله، دفع العم في النهاية لاختـصار الطريق والتخلص من ابن أخيه الحاكم باغتياله طعناً بسكين. وهكذا جاء محمد ليعتلي عرشاً ما كان له أن يرتقيـه، ولكن «لم تكن الحكومة في أيدٍ أكـثر حنكة وبراعـة». امتدّ عـهد حكمـه المزدهر طويلاً، ولأنه حُـرم من الذريّة فلقـد توفّي في عام ١٨٩٠م تاركـاً الحكم لابن أخيه عبدالعزيز بن متعب، ومخلفاً له إمبراطورية شاسعة جيدة التنظيم ضـمّت كل وسط الجـزيرة العـربيـة حـتى وادي الدواسـر فـي الجنوب. لم يكن عبدالعزيز في حنكة من سبقه، ولكن من يحـمل اسمه بنجد، هو من سيهزمه في نهاية الأمر لم يكن إلا طفلاً في المنفى. وكان أمام نجد عـقد من الزمان لتخليصها من عـبودية الأجـانب. تمكّن عبـدالعـزيز بن سعـود في عام ١٩٠١م من انتـزاع الرياض من المغـتـصب[2]، وفي خـلال السنوات القليـلة التي تلت ذلك فـرض

(١) كتاب C.M.D. الجزء الثاني ص ١٣. وزار و. س. بلغت حائل في الوقت نفسه (١٨٧٩م) تقريباً. (المؤلف).

(٢) هكذا ورد التاريخ في الأصل، والصواب أن استعادة الملك عبدالعزيز الرياض كانت في ٥ شوال ١٣١٩هـ الموافق ١٥ يناير ١٩٠٢م. (المراجعون).

سيطرته بتمهّل ولكن بثقة على البلاد التي كانت يوماً ما تحت قبضة أسلافه، وفي العام ١٩٠٦م تعرضّ الشمريّون لمحنة عظيمة في المعركة التي جرت بجوار بساتين النخيل المسمَّاة روضة مهنا بالقصيم. حيث هُزِمَ جنود عبدالعزيز بن رشيد هزيمة نكراء وقتل هو نفسه. وعندما أبلغَ الخيالة الهاربون النبأ لمن بحائل، قام سلطان بن حمود بالقبض على أنجال عبدالعزيز بن رشيد الصغار، متعب ومشعل ومحمد، ثمَّ قتلهم جميعاً، وبعدها اعتلى العرش الخالي ـ وبذا صار أوّل من وصل هذا المقام من أبناء أسرة عُبيد. لكن ما لبث القاتل أن شرب من الكأس نفسها على يد أخيه الأصغر، سعود، الذي لم ينج من القتل هو أيضاً بعد أن تآمر عليه بعد عامين من كلّفهم بقتله حمود بن سبهان[1] الذي أعاد العرش للورثة المباشرين من سلالة عبدالله. وكان الناجي الوحيد من هذه السلالة هو سعود بن عبدالعزيز، الذي يحكم حائل اليوم[2]. ولم يكن حينها سوى طفل. كان حمود خالاً لسعود وزوجاً لأخته الكبرى، وتولى حينذاك إدارة شؤون البلاد نيابة عن الطفل الذي كان تحت وصايته، وخلفه في هذه الوظيفة عند وفاته ابن عمّه زامل بن سبهان الذي اغتيل هو الآخر بواسطة أفراد آخرين من الأسرة في عام ١٩١٤م.

هذه باختصار هي قصة سلالة آل رشيد، كان فيصل هو الذي أخبرني بتفاصيلها، وهو واحد من أبناء كثيرين لحمود بن عبيد، ولهذا فهو أخ للحكام القتلة سلطان وسعود[3]، وكان أكبر عمراً من أولهما، وأصغر من ثانيهما. وعندما قُتل الأخَوان انتقاماً للمأساة التي حدثت في عام ١٩٠٦م مَرّ هو ومن تبقى من

(١) راجع ص٤٠٩ . (المؤلف)

(٢) المقصود عند تأليف هذا الكتاب. (المراجعون).

(٣) كان الثلاثة أخوة لأمهات مختلفات. (المؤلف).

سلالة عبيد، ومنهم ابن عمه الذي هو أخ له غير شقيق: ضاري بن فهد، إنقاذاً لحياتهما. قضى فيصل وضاري ـ وهما ابنا أم واحدة ولكن من أبوين مختلفين ـ عامهم الأول في المنفى بالجوف قبل أن يستقرا بالرياض، ومنها ذهب ضاري لمكة في العام الذي سبق زيارتي للحجاز، ليقيم هناك حيث كان يعيش في حماية الشريف عندما زرت أنا جدّة. كان فيصل ـ أكبر الناجين من أسرة عبيد ـ يبدو راضياً وهو يعيش حياة الدعة والترف في بلاط ابن سعود، حتى تحين الظروف التي قد ترتقي به لمنصب حاكم حائل الذي لا يُمكن أبداً أن يحسد عليه، يعود فيصل بذاكرته إلى الوراء لأيام حكم محمد، حينما كان صبياً والتقى بالسيد هوبر أثناء رحلاته، ويتذكر أيضاً في عهد أكثر قرباً أن التقى بالسادة بتلر وأيلمر أثناء العام الذي قضاه في الجوف. لقد زار فيصل في أوقات مختلفة مكة والبصرة والخميسية والسماوة، ولكنّ لم يتعدّ حدود الجزيرة العربية ولم يرَ حتى البحر. كان ابنه الوحيد في هذا الوقت يُسمى حمد. هذا عن فيصل، ولكنني لا أعلم الشيء الكثير عن ضاري، أو لعلّي لا أعلم عنه شيئاً سوى أنّه يعد نفسه دونما تحديد واضح مرشحاً لإمارة حائل إن أصبح الشريف هو الذي يمنح ذلك المنصب.

تعرفت من بين المجموعة التي كانت في غرفة استقبال فيصل بشاب جذاب في الثامنة عشرة من عمره وهو فيصل الجبر، وكان هو وأخوه سلطان آخر من بقي من أسرة ذات قرابة لبيت آل رشيد وهي أسرة آل جبر. كان الأخوان وأبوهما وأفراد آخرون من أسرتهم قد قدموا إلى الرياض ـ فيما يبدو ـ في الوقت نفسه الذي حلّ فيه فيصل وضاري ضيفين بالرياض، ولنفس الأسباب. ولم تكن لهذا الشاب مشاركة كبيرة فيما دار من حديث، لكنّه عندما هم بالانصراف من ذلك المجلس وقف قبالتي وتوسّل إليّ أن أزوره بعد ذلك لأشرب القهوة معه في منزله. ولا أظنني في حاجة لأن أقول إنني قبلت الدعوة بسرور، إذ اتخذت بعد قليل

طريقي لمنزله حيث رحّب بي ترحيباً حاراً كلّ من فيصل وسلطان، والأخير شابٌ عذب الحديث في حوالي الثالثة والعشرين من العمر. استضافني الأخوان بالقهوة وبكثير من الحديث، الذي دار معظمه عن معركة جراب[1] التي شارك كلاهما فيها، حيث جرُح فيصل جرحاً غائراً بينما قتل أبوهم وأخوهم الأكبر عبدالرحمن. لقد قاتلت كل العائلة مع فرسان ابن سعود الذي واجه قوات ابن رشيد المحمولة ليجدوا أن مشاة ابن رشيد قد هزموا مشاة ابن سعود وسيطروا على معسكره ومخازنه بعد الانسحاب غير المتوقع الذي قامت به قبيلة العجمان في الوقت الحاسم من المعركة.

لقد كانت هذه هي المناسبة التي فقد فيها الرائد شكسبير، ممثل بريطانيا لدى ابن سعود حياته، وكان السبب الرئيس لمقتله فيما أفاد فيصل هو إصراره للتقدم لخط المشاة رغم كل التحذيرات لما يتضمّنه هذا الفعل من خطورة. بيد أن فيصلاً لم يكن شاهد عيان للحادثة، ولكن حالفني الحظ فتمكنت لسروري وسرور أسرة شكسبير من الحصول على تفاصيل وافية للأحداث وللطريقة التي لقي بها ذلك الضابط الشجاع حتفه. كان فقداً لا يعوّض لوطنه ولصديقه المقرّب ابن سعود. حصلت على المعلومات مباشرة من شفتي من كان معه في ذلك الوقت، حسين المدفعي البارع بالقوات السعودية. وكانت القصة التي رواها لي تشرح ما حدث في يناير (كانون الثاني) ١٩١٥م: «عندما رفع ابن سعود رايته ليواجه ابن رشيد، لم يكن لدينا سوى مدفع واحد، وكنت أنا من يستخدمه. وصلنا تخوم جراب وكان الجيش مقسماً للبحث عن العدو الذي وردت أنباء عن وجوده في الأنحاء بينما تحرك المشاة بعد أن خلّفوا وراءهم إبلهم وأمتعتهم في المعسكر متخذين مساراً آخر

(١) يناير (كانون الثاني) ١٩١٥م. (المؤلف).

بطول الشعيب. انضممت أنا ومعي المدفع الوحيد، للمشاة وصحبني شكسبير» - هكذا كان العرب ينطقونه معدّلاً الذي طلب منه ابن سعود في الليلة السابقة بأن يغادر إلى الزلفي، إذ أنه لم يكن واثقاً مما سيصير إليه الأمر في معركة الغد. لكنه رفض ذلك بحزم وأصر على مرافقتنا، وفجأة وجد روادنا أن العدو يتقدم صوبنا، وسحبت مدفعي الوحيد فوراً إلى موقع مطل على العدو، وبدأت في إطلاق النار، بينما وقف «سكشبير» على مرتفع صغير يراقب العدو مستخدماً منظاره ويخبرني بالاتجاه الذي ينبغي أن أصوب فيه نيراني. وصحت فيه متوسلاً ألا يعرض نفسه للعدو هكذا، وتوسلت إليه أن ينزع سترته، إذ لم يكن يرتدي زياً مثلنا، بل كان يرتدي بِزّة بريطانية، ولكنه لم يأبه لما أقول وواصل توجيهه لنيراني، وقبل أن يمضي وقت طويل أصابته في فخذه طلقة بندقية، ولكن رغماً عن عدم قدرته على الحركة ظلّ يوجهني حتى تقارب الجمعان، عندها توقفت عن إطلاق النار وجلسنا معاً نراقب المعركة. وبعد قليل لاحظت أن قواتنا قد بدأ يدفع بها للوراء، فقلت له "تعال لقد انتهى الأمر، دعنا نهرب عن طريق الشعيب، قلت ذلك وقمت بتفكيك الأجزاء التي تنفصل عن المدفع وقمت بدفنها في الرمال، وشرعت في الفرار في الاتجاه الذي حددته، ولكنه كان يصيح بشيء كأنه اقتراح بالذهاب في اتجاه آخر، بيد أنني لم أنتظر، إذ أن رجالنا كانوا يتراجعون حرصاً على الحياة" . كان حسين في طليعة المندحرين الهاربين. وعندما نظر خلفه وجد الأعداء على ظهور إبلهم يحملون على شكسبير الذي تصدّى لهم رغم جرحه النازف حتى وقع وهو يقاتل، ولم يرَ حسين شيئاً بعدها. في تلك الأثناء كان فرسان العدو قد انهزموا أمام فرسان ابن سعود وولوهم الأدبار، ولكن عندما رأى العجمان ما حدث للمشاة هجروا جيش ابن سعود فراراً، وفقدت المعركة.

ولكن لا شك أن العدو، رغم أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يعيدوا الكرة على جيش ابن سعود، فقد اكتفوا بالغنيمة العظيمة التي آلت إليهم حينما سلبوا المعسكر. ويواصل حسين روايته: «بعد مضي شهرين، ذهبت لاستعادة الأجزاء التي دفنتها من المدفع، ووجدت ميدان القتال كما هو، وقد تناثرت فيه جثث الأصدقاء والأعداء في المواقع التي هوَوا فيها، ومن بينهم وجدت "سكشبير" "كأنه انتقل أمس، وكان يرقد شمري بجواره، وبالقرب منهما جمل، وعلى مسافة قريبة منهم كان يرقد جثمان أحد البدو من جانبنا "والله"، يقولون إن عدد من قتلوا في تلك المعركة لا يقل عن ٣,٠٠٠» كانت المبالغة في تقدير عدد الضحايا كبيرة، وفي ظني، فإن العدد الكلي الذي قتل من الجانبين لم يتعدَّ ٣٠٠، ولكن بحسبان نتائجها، فإن وقعة جراب كانت معركة حاسمة على مسرح حروب الجزيرة العربية. يرقد شكسبير الآن تحت سماء وسط الجزيرة العربية المرصّعة بالنجوم، حيث هوى في ميدان جراب، صديقٌ وفيٌّ للعرب، كما يعلم كلُّ عربي في وسط الجزيرة العربية.

الكشاف

كشاف الأعلام والأسماء والقبائل ونحوها

(ث)

(ج)

(ح)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(غ)

(ف)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(ي)

كشاف الأماكن والمواضع والبلدان والجبال ونحوها

(أ)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ز)

(س)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

المحتويات

الموضوع	الصفحة

قائمة كتب فيلبي
التي تحت الطبع

١- حاج في الجزيرة العربية. / طُبع /
A Pilgrim in Arabia

٢- مغامرات النفط العربي. / طُبع /
Arabian Oil Ventures

٣- الربع الخالي. / طُبع /
The Empty Quarter

٤- بنات سبأ. / طُبع /
Sheba's Daughters

٥- ايام عربية. / طُبع /
Arabian Days

٦- العربية السعودية. / طُبع /
Saudi Arabia

٧- قلب الجزيرة العربية. / طُبع /
The Heart of Arabia

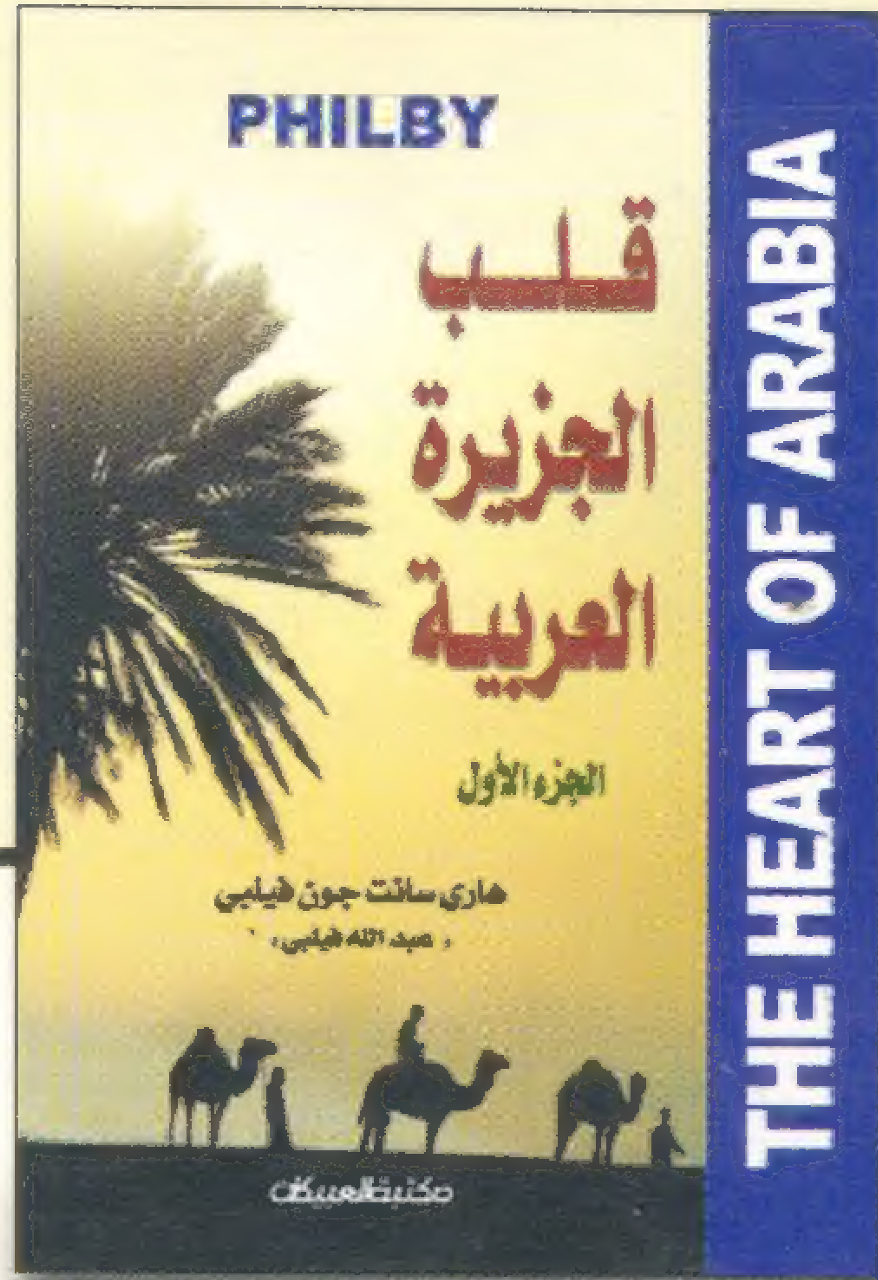
٨- نجود الجزيرة العربية.
Arabian Highlands

٩- الذكرى الذهبية
للمملكة العربية السعودية.
Arabian Jubilee

١٠- اربعون عاما في البرية.
Forty Years in The Wilderness

١١- أرض مدين.
The Land of Midian

١٢- جزيرة العرب الوهابية.
Arabia of The Wahhabis

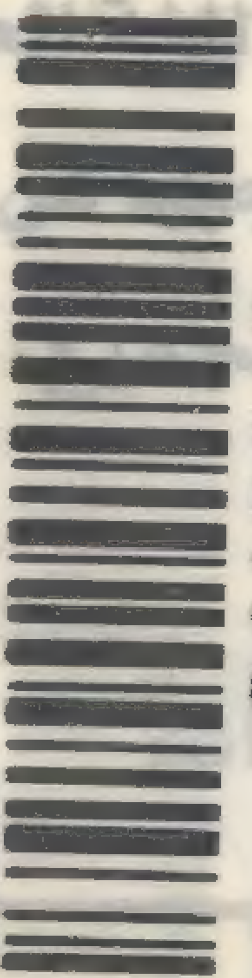


تعد كتب فيلبي أول موسوعة معربة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية، حيث غطت حقبة زمنية مهمة، وقد تناول فيها فيلبي تاريخ المملكة وجغرافيتها وأعلامها وآثارها واقتصادها وقبائلها بأسلوبه الرصين، وتحليله العلمي الدقيق، وقد دعم ذلك كله بالكثير من الصور الشمسية التي تعين القارئ على تصور الأشياء وحسن فهمها.

وقد جاء عمل فيلبي هذا ثمرة للمدة الطويلة التي أقامها في المملكة واتصاله بالملك عبد العزيز -يرحمه الله- مما أتاح له فرصة التنقل في مختلف أرجاء الجزيرة العربية، والاطلاع على المواقع الأثرية والنقوش القديمة. وقد تم انتقاء مجموعة من هذه الكتب لنشرها في سلسلة تاريخية؛ لتكون رافداً ثقافياً لأبناء هذا الجيل، ومن هذه الكتب كتاب (**قلب الجزيرة العربية**) الذي يعد سجلاً للرحلات والاستكشافات التي قام بها المؤلف متجولاً في قلب الصحاري والواحات بالجزيرة العربية، وذلك في وصف شامل ودقيق للأماكن التي زارها، ليكون هذا العمل خدمة لكل من يأتي بعده من الباحثين، وذلك بوصفه دليلاً موثقاً ومزوداً بخرائط للجزيرة العربية لتتضح معالمها لكل راغب أو طالب أو باحث.

ومكتبة العبيكان يسرها أن تقدم للقارئ الكريم هذه الكتب لأول مرة با[illegible] إدراكاً منها لأهمية الدور الثقافي الذي تقوم به خدمة للوطن، وأداءً لواج[illegible] الجوانب المضيئة من تاريخها لأبناء هذا الوطن الغالي، راجية الفلا[illegible]

هذا والله من وراء القصد.



ردمك: ١
٩٩٦٠-٢٠-٨٥٢-٤ (ج١)


6000620